رواد الفن القصصي

محمد إبراهيم المويلحي

الجزء الأول

حديث عيسى بن هشام



المجلس الأعلى للثقافة

تقديم وتحرير: روجر آلن

الأعمال الكاملة

محمد إبراهيم المويلحي

المؤلفات الكاملة

رواد الفن القصصى

أمين عام المجلس الأعلى للثقافة
د. جابر عصفور

رئيس التحرير
د. صبرى حافظ

مدير التحرير
منتصر القفاش

الإخراج الفنى والغلاف
هشام نوار

الطبعة الأولى
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة ٢٠٠٢

محمد إبراهيم المويلحى

المؤلفات الكاملة

رواد الفن القصصي

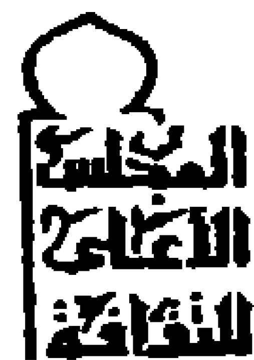
محمد إبراهيم المويلحي

المؤلفات الكاملة

الجزء الأول

حديث عيسى بن هشام

حررها وقدمها: روجر آلن



٢٠٠٢

تصدير*

وراء هذا العمل تاريخ طويل، فقد بدأ في جامعة أكسفورد عندما قررت أن أكتب البحث الخاص بالأدب العربي الحديث لدرجة الليسانس في الآداب عام ١٩٦٤، وهو نفس العام الذي وصل فيه الدكتور محمد مصطفى بدوي إلى أكسفورد، وتحت توجيهه الملهم الذي أدين له بالكثير قررت اختيار عمل محمد المويلحي المشهور "حديث عيسى بن هشام" وهو أحد النصوص المطلوبة لذلك الامتحان ليكون موضوعاً لبحثي في الدراسات العليا، وقضيت عاماً في القاهرة (١٩٦٦-١٩٦٧) اكتشفت خلاله الكثير من المعلومات الجديدة عن الكاتب وعن نشر كتابه المشهور ثم أكملت النسخة الأولى من هذه الدراسة وترجمت الكتاب لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٦٨ مما ميزني بأن أكون أول حاصل على الدكتوراه في أكسفورد على يد الدكتور بدوي.

وقد هاجرت إلى الولايات المتحدة في نفس العام لالتحق بمنصب تدريسي في جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا، الذي ظل موطني العلمي منذ ذلك الحين، وبعد زيارتين أخريين لأرشيف الصحف المصرية في دار الكتب في عامي ١٩٧٠و ١٩٧١ (مولتهما منحة من مركز الأبحاث الأمريكي في مصر الذي أود أن أعبر عن امتناني له) كتبت سلسلة من المقالات عن عائلة المويلحي، ومضيت إلى تحضير دراستي عن "حديث عيسى بن هشام" وترجمتي لها تمهيداً لنشرها في هيئة كتاب. وتحقق هذا الهدف مع نشر دراسة "حديث عيسى بن هشام" في شكل الميكروفيش عن طريق دار نشر جامعة ولاية نيويورك عام ١٩٧٤.

وعلى أي حال فقد ظهر الكثير من الأعمال في الأدب العربي الحديث وتطوراته المبكرة خلال العقد والنصف الذي انقضى منذ نشر دراستي عن قصة المويلحي المشهورة، ولم تشر أي من تلك الأعمال لدراستي (باستثناء دراسة سي.ج. نيلاند لميخائيل نعيمة)، ويشمل هذا بالمناسبة ثلاثة كتب تدرس أعمال أسرة المويلحي نشرت

* التصدير والدراسة ترجمة: د/ محمد يحيى

بالعربية، وهى دراسات أحمد وراستيش والهوارى، وإن كنت يجب أن أعترف آسفًا أن أيًا منها لم يذكر أية أعمال غربية حول نفس الموضوع.

وقد ظهر عدد من الكتب فى السنوات الأخيرة يعالج تاريخ مصر وأوضاعها الاجتماعية خلال الفترة التى أعقبت عام ١٨٨٢، ومن هذه الكتب تشير أعمال چاك بيرك، وعفاف لطفى السيد، وپ.چ. ڤاتاكيوتيس الى رواية المويلحى التى تمثل موضوع هذه الدراسة. وتحظى هذه الرواية بالتقدير العام كعمل أدبى مهد الطريق فيما بعد لظهور الرواية العربية كنوع أدبى، وهو الأمر الذى أغمط من قيمتها كمصدر دقيق لمعرفة أحوال مصر الاجتماعية خلال تلك الحقبة المهمة فى تاريخها الحديث. وتهدف هذه الدراسة إلى تقديم أول نسخة لأعمال المويلحى الكاملة و إلى إنزال العمل مكانته الصحيحة بتقديم الأدلة على أسسه فى الواقع وأهميته وإذا كانت المقدمة تركز على نواحى العمل المتصلة بالواقع أكثر من تركيزها على جوانبه الأدبية فما ذلك إلا لأن تلك النواحى الأخيرة قد غطيت بشكل معقول فى دراسات أخرى بينما لم تحظ الجوانب السابقة بمثل ذلك التركيز.

وتسعى الدراسة إلى وضع المؤلف وكتابه فى سياقهما الأدبى والتاريخى بتحليل حياة المؤلف، وتطور نص كتابه وأسلاف مثل هذا الجنس الأدبى فى التأليف فى الآداب العربية والغربية. وتنبغى الإشارة إلى أن دراسة المجتمع المصرى الواردة هنا هى دراسة المويلحى نفسه ولذا فإن التركيز على النظام القانونى لذلك العصر فى الفصل الأخير من الكتاب مع تنحية سائر مظاهر المجتمع إلى المرتبة الثانية إنما تنبع من تركيز الكاتب نفسه على ذلك الجانب فى نص كتابه.

ويسرنى أيما سرور أن تتاح لى فرصة تقديم الشكر للكثيرين ممن أسهموا فى هذا الكتاب، وأول من أشكر هو محمد مصطفى بدوى الذى وجهتنى دروسه المهمة إلى الاهتمام بالأدب العربى الحديث والذى أشرف على إخراج هذا الكتاب فى أول صورة له كرسالة دكتوراه فى جامعة أكسفورد. وأتوجه بالشكر كذلك إلى أ.ف. بيستون، وبييركاكيا، وشويلر كامان، ونويل كولسون، وألبرت حورانى، لقراءتهم أجزاء من هذه الرسالة أو كلها وإبداء الاقتراحات والتعليقات القيمة مما أدمجته فيما بعد فى العمل. وأود

كذلك التعبير عن شكرى للدكتور توماس ناف مدير مركز الشرق الأدنى فى جامعة بنسلفانيا الذى لم يكتفِ بتشجيعى من كل جانب على الاستمرار فى العمل بل خلق لى بصداقته ونصحه البيئة المواتية التى أستطيع فيها مواصلة دراساتى فى هذا الميدان، وأذكر من بين من قدموا لى معلومات أدخلتها فى الكتاب المرحومة السيدة نادية فرج، وأنتونى ماكديرموت، وكمال أبو ديب، ومجاهد الصواف، وأعبر عن عميق امتنانى لهؤلاء الأساتذة والزملاء والأصدقاء على مساعدتهم لى، لكنى أضيف أننى وحدى المسؤول عن الأخطاء التى قد تبقى بالعمل والتى لايمكن أن يخلو منها مثل هذا الجهد الكبير.

روجر آلن

الدراسة

الكاتب

محمد المويلحى

مسقط رأس عائلة المويلحى هو بلدة مويلح بساحل شبه الجزيرة العربية فى الطرف الشمالى للبحر الأحمر[١]، وهم ينتسبون للسيدة فاطمة بنت الرسول (ص) ولحفيده الحسن وكانوا من أهم الأسر بالبلدة وأكثرها نفوذًا.

وتقول مصادر الأسرة إن أول مويلحى يسافر لمصر كان أحمد المويلحى الذى انضم إلى جيش محمد على وشهد هزيمة قوات الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية فى عام ١٨١٨[٢]، وانقسمت الأسرة إلى مجموعتين بقيت إحداهما فى مويلح واشتغلت الأخرى بتجارة الحرير فى القاهرة، وتوسعت تجارة العائلة فى عهد إبراهيم (ابن أحمد) الذى انتخب عضواً لمجلس التجار ثم أصبح كبير التجار، وقد توفى ١٨٦٢ وورث تجارته عبد الخالق المويلحى الذى كان له ولدان، إبراهيم وعبد السلام، وعبد الخالق هو جد مؤلف "حديث عيسى بن هشام"، وولد إبراهيم عام ١٨٤٤[٣]، ويقال إنه أظهر ميلاً للأدب منذ وقت مبكر فى حياته غير أن والده قرر فيما يبدو أنه يجب أن يدير تجارة العائلة بحكم أنه الابن الأكبر، وألحق عبد السلام إلى الأزهر ليدرس فى ذلك المسجد الجامعة الأشهر وهو مركز العلم الإسلامى السنى التقليدى فى القاهرة[٤] ومع ذلك فبعد وفاة عبد الخالق عام ١٨٦٥ أصبح عبد السلام تاجراً بينما مضى إبراهيم إلى متابعة اهتماماته بالأدب، وتولى الأخوان إدارة تجارة الأسرة وورثا مبلغ ثمانين ألف جنيه، وفى ذلك العام عين الخديوى إسماعيل إبراهيم عضواً فى مجلس التجار وعضواً فى مجلس المحكمة الابتدائية.

وولد محمد المويلحى فى الثلاثين من مارس عام ١٨٥٨[٥]، وأرسل فى سن العاشرة إلى مدرسة الخرنفش المشهورة فى القاهرة وكانت تديرها طائفة الجيزويت ويلتحق بها أبناء الطبقة الأرستقراطية، ولكن يظهر أنه لم يكن سعيداً فى المدرسة وكان يكثر من الغياب منها مفضلاً قراءة الكتب فى بيته[٦]، وتلقى دروساً فى المنزل منذ عام

١٨٧٣، وكان معلم الفرنسية أحمد إسماعيل بك مدير دار المعلمين العليا ودرس له العربية الشيخ أحمد قطة العدوى مدير المطبعة الأميرية، كذلك التقى محمد بالكثير من معارف وأصدقاء والده ومنهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[٧] وليس من الواضح بالكامل طبيعة صلات إبراهيم بمحمد عبده، ويرسم محمد كرد على فى مذكراته صورة مختلفة إلى حد ما عما يوصى به إبراهيم:

«لم أسع إلى معرفة آل المويلحى ولاسيما الأب، بل إننى تجنبت إبراهيم بك لأنه كان فى الغالب يسىء الاستشهاد بأستاذى محمد عبده وينسب إليه أشياء لم يقل بها، وقد راجت شائعات بأن سلطة عليا تقف وراء إبراهيم بك... وسمعت ذات مرة أحد أصدقاء الشيخ يقول فى حشد: «أرى أن إبراهيم المويلحى صامت عن شيخنا هذه الأيام» وهنا رد الشيخ: "الحمد لله على ذلك، إن لم يصب الأسد بالنسيان لالتهم كل الحيوانات"[٨].

وأيًا كانت الحقيقة فقد حضر محمد المويلحى محاضرات عبده فى الأزهر الذى انتقده بعنف فى "حديث عيسى بن هشام" ويبدو كذلك أنه التقى الشيخ حسين المرصفى ومحمود باشا سامى البارودى وكلاهما ممن أبدى الاهتمام بتعليمه[٩].

وانضم إبراهيم إلى عارف باشا عام ١٨٦٨ فى إنشاء دار نشر جمعية المعارف وكان مما أخرجته قاموس «تاج العروس» و«رسائل الهمذانى» كذلك ساعد محمد عثمان جلال؛ وهو من ترجم بعض مسرحيات موليير إلى العامية المصرية، فى نشر جريدته «نزهة الأفكار» وقد أمر الخديوى إسماعيل بإيقافها بعد ظهور عددين فقط، ويبدو أن شاهين باشا أبلغ الخديوى بأنها تحرض الناس على اعتناق "الأفكار الشريرة"[١٠]، وتعرض إبراهيم عام ١٨٧٢ إلى نكسة حادة، إذ كان قد انجذب إلى البورصة حديثة العهد وخسر الثمانين ألف جنيه التى ورثها عن والده فى سلسلة من المضاربات[١١] وتقاعد فى منزله لمدة ثلاثة أشهر تاركًا عبد السلام ليدير التجارة على قدر استطاعته، ونعلم من مصادر مختلفة أنه عندما علم الخديوى إسماعيل بذلك استدعى الأخوين إلى قصره وأنعم على كليهما برتبة البكوية وثلاثة آلاف جنيه ثم أمر حاشيته وحريمه بألا يلبسوا إلا الحرير الذى يبيعه المويلحى[١٢]، وبالإضافة إلى ذلك عين إبراهيم عضوًا

فى محكمة الاستئناف بمرتب شهرى أربعين جنيهًا وإن كان استقال من هذا المنصب بعد عام عقب خلاف مع حيدر باشا يكن رئيس المحكمة، وبعدها عمل إبراهيم مساعداً للسيد البكرى فى صياغة نص الدستور ثم عمل سكرتيراً خاصًا لراغب باشا وزير المالية(١٣).

أجبر الخديوى إسماعيل على التنازل عن العرش عقب الأزمة المالية عام ١٨٧٩ ونفى إلى نابولى حيث أقام فى ڤيلا لا فاڤوريتا التى وضعها الملك أمبرتو ملك إيطاليا تحت تصرفه، ودعا إسماعيل إبراهيم المويلحى للانضمام إليه كسكرتير خاص ومعلم للأميرأحمد فؤاد(الملك فؤاد الأول فيما بعد)(١٤) وبالفعل غادر إبراهيم مصر إلى إيطاليا بعد أن عهد بمحمد إلى عمه عبد السلام.

وقد التقى محمد من خلال عمه بالمحامى والكاتب إبراهيم اللقانى صديق إبراهيم المويلحى وقدم اللقانى بدوره محمداً لبعض أصدقائه ومنهم عبد الله النديم وحسن موسى العقاد، وكان هؤلاء الرجال الثلاثة من دعاة حركة "مصر للمصريين" وراسل محمد والده فى إيطاليا بانتظام ليصف له المناقشات التى يسمعها والوضع السياسى العام فى مصر(١٥) وفى الخامس من أبريل ١٨٨٢ عُين محمد كاتبًا بوزارة الحقانية لكنه لم يستمر فى هذا المنصب طويلاً، ففى يونيو ذهب عبد السلام إلى سوريا ليتعافى من مرض ألم به وترك محمداً وحده خلال فترة الاضطرابات التى وصلت إلى ذروتها فى ثورة أحمد عرابى و الشعب فى الإسكندرية ثم الإنزال والاحتلال البريطانى، وأرسل إبراهيم إلى ابنه كتيبًا ألَّفه دعمًا للوطنيين بعنوان "الجنة تحت ظلال السيوف" وألقى القبض على محمد وهو يوزع نسخًا منه، وحكم عليه بالإعدام بعد محاكمة عسكرية بأمر وزير الداخلية عثمان باشا، ولكن بطرس باشا غالى صديق آل المويلحى - وكان وكيل الوزارة الدائم للحقانية - تشفع لمحمد لدى الخديوى توفيق زاعمًا أنه تلقى التشجيع من والده وأن وليه الشرعى وهو عمه يقضى فترة نقاهة فى سوريا وأنه ليس كبيراً إلى درجة يثير معها المتاعب السياسية، وخفض حكم الإعدام إلى النفى.

وانضم محمد إلى والده فى إيطاليا حيث تعلم الإيطالية وبعض اللاتينية ثم أكمل دراسته فى فرنسا مع محام صديق لوالده، كذلك ساعد والده فى إصدار جريدة الاتحاد

التى كان إسماعيل اضطر إلى أن يأمر إبراهيم بإيقافها عندما بعث السلطان العثمانى برسالة عام ١٨٨٠ تعبر عن سخطه على الآراء التى تنشر فيها، وكان إبراهيم قد نشر أيضًا فى فترة مكوثه فى إيطاليا جرائد أخرى هى "الخلافة" و"الأمة"، وعندما أرسل إسماعيل إبراهيم إلى باريس عام ١٨٨٤ صحبه محمد وساعده فى إصدار أعداد أخرى من (الاتحاد)، وفى العاصمة الفرنسية ساعد كل من إبراهيم ومحمد المويلحى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى إصدار "العروة الوثقى" التى كان لها أثر هائل فى الشرق الأوسط العربى ليس فقط بهجماتها الجارفة على الوجود البريطانى فى مصر ومساوئ التطرف فى التغريب، ولكن كذلك بسبب دعوتها لفكرة الجامعة الإسلامية القائمة على الخلافة العثمانية، وقد أيد آل المويلحى كل هذه الدعوات بحماس فى الصحيفة التى أصدراها عقب عودتهما إلى مصر.

ويزعم أن «محمداً» قد قابل فى باريس فى تلك الفترة عدداً من الأدباء الفرنسيين البارزين ومنهم إلكسندر دوما الابن ولو ثبتت صحة هذه الاتصالات فإنها ستكون مثيرة للإهتمام على ضوء ظهور رواية "حديث عيسى بن هشام" والإطار شبه الروائى الذى سمح للمؤلف بتوجيه النقد للمجتمع المصرى، لكن الأدلة عليها واهية للغاية مع الأسف.

وقد وزع العدد الرابع من "الاتحاد" فى أوروبا وتركيا ومصر وأثار ضجة بانتقاده للسلطان العثمانى، فاتصل البلاط العثمانى بالسفير التركى فى باريس وطرد إبراهيم من فرنسا رغم احتجاجات صحيفة "لوفيجارو" وسافر إلى بروكسل[١٦] وكتب له الأفغانى من لندن يقترح أن يذهب ومعه محمد إلى إنجلترا، وقبل الوالد والابن الدعوة، وبمجرد وصولهما ساعدا الأفغانى فى إصدار أعداد أخرى من "العروة الوثقى" [١٧] بينما أصدر إبراهيم جريدة تدعى "عين زبيدة" بجانب أعداد أخرى فى "الاتحاد" و"الأبناء"، وقابل آل المويلحى خلال إقامتهما فى لندن اللورد راندولف تشرشل واللورد ساليزبرى، لكن الأحداث حالت دون المزيد من التعارف مع المجتمع البريطانى السياسى، إذ غيَّر إبراهيم فى توجهه بعض الشىء بتأييد الحكومة العثمانية فى صحفه بهجمات عنيفة على سياسة حكومة جلادستون مما يبدو أنه أرضى السلطان، وأرسل هاجوبيان باشا، ناظر الخاصة السلطانية إلى لندن فى يناير ١٨٨٥، ونعرف أنه حاول مع قاستاقى باشا - السفير العثمانى فى لندن- إقناع ابراهيم بالسفر إلى إسطنبول حيث سيتبين له كما قالا إن

السلطان عفا عن التعليقات الانتقادية التى كتبها فى جرائده فى الماضى ولكن إبراهيم تشكك بالطبع فى نوايا السلطان لا سيما وأن طرده من فرنسا كان مازال ماثلاً فى ذاكرته، وبعث محمد إلى إسطنبول ليتبين الشروط الحقيقية للدعوة وعندما أكد له محمد أن عرض السلطان صادق ذهب إلى اسطنبول حيث عين عضواً فى مجلس التعليم وسرعان ما تعرف على منيف باشا وزير التعليم الذى سمح لمحمد باستعمال مكتبة الفاتح بمجموعتها الكبيرة من المخطوطات، ومن الأعمال التى نسخها محمد المويلحى نجد "رسالة الغفران" للشاعر المشهور أبى العلاء المعرى، وعدد من المقالات للجاحظ ومنها مقالة عن النبل وأخرى عن الحسد، "وديوان ابن الرومى"، ومن أصدقاء إبراهيم الذين قابلهم محمد فى ذلك الوقت الشنقيطى وهو أحد من أهدى لهم "حديث عيسى بن هشام"(١٨)، وبجانب كل هذا وجد محمد الوقت لكتابة بعض المقالات لصحيفة "المنبه" بدعوة من عبد الله النديم.

وفى عام ١٨٨٧ ترك محمد والده فى إسطنبول وعاد إلى القاهرة حيث ساعد عارف بك الماردينى (السكرتير الخاص للمندوب العثمانى فى القاهرة مختار باشا) على تحرير جريدة يومية هى "القاهرة الجديدة" أولاً فى ١٨٨٥ ثم توقفت عندما دعا السلطان الماردينى إلى إسطنبول بعد عودة محمد بأشهر قليلة(١٩) واستمر محمد فى كتابة المقالات لصحف أخرى، وكان يكتب فى "المقطم" مثلاً تحت أسماء مستعارة عدة مثل "مصرى يعرف بلده" و"البادى"، وكان يوصف فى صدر هذه المقالات بأنه "أديب مصرى بارز تسحر بلاغته كل محبى الأدب" وأثار العديد من الموضوعات المتنوعة فى هذه المقالات بما فيها الحزب الوطنى والرق والجمعية التشريعية وخططها(٢٠). وجدد محمد بعد عودته من إسطنبول معرفته بإبراهيم اللقانى وبطرس غالى اللذين كان يلتقى بهما بانتظام فى بيت الأميرة نازلى فاضل ابنة شقيق الخديوى السابق اسماعيل وزوجة مفتى تونس سليم أبو حاجب، وكان ذلك المحفل نقطة التقاء مجموعة بارزة من رموز الحياة السياسية والفكرية المصرية ومعهم بعض الأجانب، ويقال إن اللورد كرومر كان يحضر فى بعض الأحيان، ويقول محمد فريد فى مذكراته غير المنشورة إن الأميرة كانت تميل للضباط البريطانيين(٢١)، وبجانب من ذكرنا شمل الحضور محمد عبده وسعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين ومصطفى فهمى وعلى يوسف وحافظ إبراهيم وهم من الأعلام

فى حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر، ولامجال للشك فى أن الكثير من المناقشات التى دارت فى اجتماعات تلك الحلقة ظهرت مباشرة على صفحات حديث "عيسى بن هشام"(٢٢)، ومن الشخصيات المهمة التى تعرف عليها محمد المويلحى فى ذلك الوقت الإنجليزى ويلفريد سكاون بلنت وثيق الصلة بالدفاع عن عرابى عقب انهيار ثورة ١٨٨٢، ويذكر بلنت آل المويلحى عدة مرات فى اليوميات ويمكن الحصول على معلومات مهمة فى ذلك المرجع عن نشاطات محمد خلال تلك الفترة، ويخبرنا بلنت مثلاً أن محمداً كان صديقًا مقربًا من مختار باشا الذى ذكرناه فيما مضى: "و أضيفت بالتدريج إلى هؤلاء الزوار العرب فى القاهرة مصادر من المعلومات المحلية أهمها صديقىَّ القديمان عارف بك ومحمد المويلحى، ابن شقيق (هكذا وردت) صديقى القديم إبراهيم المويلحى، وكلاهما الآن مقرب من مختار باشا الغازى المندوب السامى العثمانى فى القاهرة"(٢٣)، ويخبرنا بلنت كذلك أن عبد السلام وإبراهيم ومحمد المويلحى كانوا جميعًا متورطين فى مكيدة ١٨٩٣ والتى أقيل نتيجة لها مصطفى فهمى من منصب رئيس الوزراء على يد الخديوى عباس الثانى ليحل محله فخرى باشا لفترة قصيرة(٢٤)، وربما عرف إبراهيم بتلك الأحداث من الخطابات المتبادلة مع ابنه، وعلى أى حال كان محمد يزور اسطنبول كثيراً خلال تلك الفترة، ففى عام ١٨٩٢ كان هناك يتلقى رتبة البكوية من الدرجة الثانية وذهب إليها مرة أخرى عام ١٨٩٣ عندما كان بلنت هناك فى محاولة غير ناجحة للقاء السلطان، وفى نفس العام (١٨٩٣) ألقى محمد محاضرة فى المجمع العلمى حول اكتساب مهارة الكتابة الفنية من خلال تعلم الشعر(٢٥).

وفى عام ١٨٩٥ قرر إبراهيم المويلحى مغادرة إسطنبول والعودة إلى مصر، وكان قد صادق الكثيرين فى العاصمة العثمانية ومنهم الشنقيطى ومنيف باشا وإبراهيم بك أدهم الذى كان قد كتب عدة مقالات لجريدته "الحقائق" يصف فيها بعض مناسبات الدولة، غير أن المناخ العام السائد كان ينضح بالدسائس ولم يحسن إبراهيم فى الأمور بإرسال مقالات تحفل بالنقد المرير للسلطان وحاشيته كى تنشر فى "المقطم" باسم مستعار(٢٦)، وتروى قصص عدة تتعلق بنشاطات إبراهيم فى اسطنبول، فيقال على سبيل التأكيد أنه فى ١٨٩٣ عين أحد أعضاء الشرطة السرية ويدعى كامل بك للتحقق من نشاطات إبراهيم بك وضبطه متلبسًا وبحوزته وثيقة تدينه، ويُزعم أن إبراهيم قطع

الوثيقة المدُينة وأطعمها إلى دجاجة تقف فى الفناء أمام المبنى الذى كان ينتظر فيه للاستجواب، وعندما ثبتت "براعته" شعر السلطان عبد الحميد بأنه مضطر لترقيته إلى رتبة الباشوية لكى يعوضه عن المعاملة التى لقيها، ويقال إنه فى نفس العام انتقم إبراهيم من مستشارى الخديوى عباس الثانى عندما قدم إلى إسطنبول لزيارة السلطان، وكان محمود باشا شكرى وغيره نصحوا الخديوى بعدم استقبال إبراهيم وقد قبل الخديوى بالنصيحة، وحسبما يقول إبراهيم نفسه فقد نشر مقالة باسم مستعار فى "المقطم" تقول بأن السلطان الخليفة يجب أن يتمكن من حكم البلدان الإسلامية بدون تدخل أجنبى، وطالب السفير البريطانى بمقابلة مع السلطان على ما ذكر ليعبر عن سخط حكومته البالغ، وتعرضت العلاقات للتهديد لفترة مما أدى إلى رحيل عباس عن إسطنبول بلا نياشين ولا مكافآت(٢٧).

ومع ذلك وعلى الرغم من أى نفوذ كان لإبراهيم فى إسطنبول فقد سئم دسائس البلاط وقرر العودة إلى مصر ولم يستطع كتمان هذا الأمر عن جواسيس القصر فأرسل عبد الحميد شخصًا ليتبين سبب رغبته فى الرحيل، ورد إبراهيم بأنه يريد العودة إلى بلده ليرى أبناءه وأصدقاءه ويبدو أن السلطان قبل هذه الإجابة ولم يمنعه من الرحيل وفى عام ١٨٩٦ جمع إبراهيم المقالات التى كتبها عن الحياة فى إسطنبول ونشرها فى مطابع المقطم تحت عنوان "ما هنالك"، ولكن عندما وصلت نسخ من الكتاب إلى إسطنبول ووصلت إلى علم السلطان أرسل إلى مصر أمراً بجمع النسخ وإرسالها إليه فى إسطنبول ولما كان إبراهيم لايريد إثارة غضب السلطان أخذ يجمع ما أمكنه من نسخ كتابه وأرسلها بالفعل إلى إسطنبول (٢٨).

وفى ديسمبر ١٨٩٥ عين محمد معاونًا لمديرية القليوبية ثم مأموراً لمركز البرلس لكنه استقال من المنصب الأخير بعد فترة قصيرة واشترك مع والده فى إخراج صحيفته الجديدة عام ١٨٩٨(٢٩).

ظهر أول عدد من "مصباح الشرق" فى الرابع عشر من إبريل عام ١٨٩٨ وسرعان ما أرست الجريدة سمعة طيبة لنفسها لأن آل المويلحى كانا يكتبان معظم المقالات وإن بدون توقيع فى كثير من الحالات مما مكن أعداء محمد فيما بعد من

التشكيك فى نسبة "حديث عيسى بن هشام" إليه. وتضمنت الصحيفة أخباراً من إسطنبول وفقرات محلية بجانب مقتطفات من الأدب العربى بما فيها مقالات للجاحظ وقصائد من ديوان ابن الرومى كان محمد قد نسخها فى إسطنبول، أما المقالات الافتتاحية فتناولت مواضيع مثل الجامعة الإسلامية والاحتلال البريطانى وحركة الإصلاح الدينى والمقارنة بين العادات الشرقية والغربية، وأحدث محمد أيضًا ضجة فى دنيا الأدب فى القاهرة بنشره لسلسلة من المقالات تناول فيها ديوان الشاعر المصرى المشهورأحمد شوقى، ومقدمته بالنقد وإن كان بنًاء[٢٠]، وندر أن تقدم جرائد العصر الأخرى مثل هذه المادة كما أن العديد من الكتاب أقروا بالأثر الذى تركته فيهم مقالات الصحيفة وأسلوبها، ويقول محمد كرد على أن "مصباح الشرق" كانت أفضل جريدة أسبوعية بينما يذكر سلامة موسى فى سيرته أنه" اكتسب ذوق الجمال الفنى" من قراءاته لمقالاتها[٢١].

وبدأ محمد فى نوفمبر عام ١٨٩٨ نشر مقالات تحت عنوان " فترة من الزمن" قدر لها فيما بعد أن تصبح كتاب "حديث عيسى بن هشام"، وكانت المقالات تظهر كل أسبوع على الصفحة الأولى بدون توقيع فى البداية ولكن عندما بدأ إبراهيم نشر قصته هو فى سلسلة من المقالات بعنوان "مرآة العالم" وقع باسمه بحرف الميم ووقع إبراهيم بحرف الألف. واستمر محمد ينشر هذه المقالات حتى يونيو ١٩٠٠ حينما سافر إلى إنجلترا ليغطى زيارة الخديوى الرسمية إلى موطن الملكة فكتوريا (التى ألف إبراهيم قصيدة على شرفها نشرت فى الجريدة)، وأرسل محمد من هناك مقالتين يصف زيارته للندن[٢٢]، ثم ذهب إلى باريس ليزور المعرض الكبير ووصفه لقراء "مصباح الشرق" فى سلسلة من الحلقات بعنوان "باريس"[٢٣] وكان المويلحى فى وصفه لزيارته إلى فرنسا يقتفى آثار من سبق من الشخصيات مثل الطهطاوى والشدياق وعلى مبارك، لكنه على العكس منهم قصر معظم كتابته على معرض باريس لعام ١٩٠٠ (وعلى الجناح المصرى على وجه الخصوص) بدون أن يقدم لقراءه أيًا من النقد الاجتماعى اللاذع الذى وجهه إلى الأوضاع فى بلاده.

وعلى الرغم من أن إبراهيم المويلحى كان المالك والمحرر الرسمى لصحيفة "مصباح الشرق" إلا أن محمد سيطر بالتدريج على إدارتها وأصبح إبراهيم المستشار السياسى للخديوى، وفى ١٩٠٢ وجد محمد نفسه وسط فضيحة سياسية، إذ يبدو أنه

خلال جلوسه فى مقهى أهان شاب من النبلاء هو محمد بك نشئت (الذى وصفه عبد العزيز البشرى صديق محمد المويلحى والمتمتع برعايته بأنه "أحمق لاه") وكان الموضوع كله فيما يبدو مزحة لكن أسيىء تفسيرها لأن الشاب الغاضب صفع المويلحى على وجهه، (٣٤) ونشر على يوسف محرر صحيفة "المؤيد" سلسلة من التقارير عن الواقعة أضفت طابع الإثارة عليها وأدانت محمد الذى رد فى "مصباح الشرق" بصورة غبية إلى حد ما ومغتاظة تحت عنوان "الجريدة العامية"، وأعلن فى هذا الرد أن "المؤيد" تمثل الصحافة القذرة ولايقرأها سوى طبقات المجتمع الدنيا(٣٥)، ورد على يوسف الهجوم بكتابة عمود منتظم فى جريدته عنوانه "عام الكف"، ويشير البشرى إلى أن الكثيرين فى القاهرة عانوا من أقلام آل المويلحى الحادة ولهذا لم يعدم على يوسف المادة التى يملأ بها عاموده، بل لقد ألف الشاعر إسماعيل صبرى قصائد بهذا المعنى(٣٦) واستمر العامود على مدى اثنى عشر عدداً يومياً متتالياً فى الجريدة ساخراً من محمد لعدم رده على نقاده(٣٧)، ولكن يبدو أنه فى نهاية المطاف رتب أصدقاء الطرفين ومنهم بلاريب أعضاء صالون نازلى الذى كان الرجلان من زواره وقفاً لإطلاق النار أنهى الموضوع لفترة على الأقل.

ويقول أصدقاء محمد الوثيقون أنه تأثر تأثراً عميقاً بهذه الحملة ضده وهو ما يبدو محتملاً للغاية على ضوء ما نسمع من أوصاف عن عزلته وكراهيته للأماكن المزدحمة، ويمكن إلى حدٍ ما أن نرجع مزاجه النافر عموماً إلى اللعثمة المزمنة التى عانى منها والتى بلغت من السوء عدم القدرة على إنهاء الجملة بما كان يضطره لزوم الصمت المحرج، ويفسر هذا سبب تفضيله لتلقى العلم فى البيت فى طفولته كما يفسر كذلك التأثير الحاسم لحادثة المقهى على نفسيته، ومن المؤكد أن التدهور التدريجى لجريدة "مصباح الشرق" ومجلة "أبوزيد" الساخرة التى أسسها والده بدأ فى تلك الفترة.

فقد قلت المقالات التى تتناول القضايا الراهنة بقلم المحرر والتى كانت من علامات الأعداد السابقة وحلت محلها مقتطفات طويلة من الصحف الفرنسية امتد بعضها على عدة أعداد، وتزايدت المساحة المخصصة للإعلانات والتنويهات فى صحيفة حجمها أربع صفحات لاغير، ومن المحتمل أن محمداً قرر فى تلك الفترة (أو قبل اقتراحاً) بجمع حلقات "فترة من الزمن" فى شكل كتاب وأغلق الصحيفة ليوفر من الوقت ما يركز فيه على مراجعة النص، ومع ذلك فمهما كان سبب الإغلاق فقد توقفت صحيفة "مصباح الشرق" فى الخامس عشر من أغسطس ١٩٠٣(٣٨).

واستمر آل المويلحى فى الكتابة لعدة صحف، إذ أرسل إبراهيم المقالات إلى "المؤيد" و"المقطم" بل و أسس جريدة جديدة عام ١٩٠٥ اسماها "المشكاة" باسم ابنة خليل وحمدى بك يكن[٣٩] وفى الوقت الراهن شهد محمد الانتقام يحل بعلى يوسف الذى تورط عام ١٩٠٤ فى فضيحة عندما تقدم لخطبة صفية السادات، الشريفة النسب، ورفضه والدها على الرغم من أن الفتاة نفسها وافقت على الزواج منه ورغبت فى ذلك على ما يبدو، وسبَّب والد الفتاة رفضه بأن على يوسف صعيدى وأنه ليس كفءً لابنته لأنه ليس من الأشراف، ووصل الأمر إلى المحاكم حيث خسر على يوسف القضية الأصلية ثم الاستئناف[٤٠]، وخلال كل ذلك نشرت صحيفة "الظاهر" عاموداً تحت عنوان "عام الكف" فى صدى واضح لسلسلة المقالات المعادية لمحمد والتى أشرنا إليها فيما سبق غير إنها استمرت على مدى أربعة وثلاثين عدداً متتالية،[٤١] وشككت هذه القصائد فى صلاحية على يوسف لمثل هذا الزواج وسخرت من زعمه بأنه من الأشراف كما أظهرته كشخص لا يستحق بحال أن يتولى نظارة أوقاف الصوفية (وكان اسمه قد ذكر كمرشح للمنصب).

ومرض إبراهيم المويلحى فى ديسمبر ١٩٠٥ وتوفى فى التاسع والعشرين من يناير ١٩٠٦، وفى نفس العام أنعم عباس الثانى على محمد برتبة البكوية من درجة المتميز لكن يبدوأن محمداً كان فى ذلك الوقت يفضل البقاء فى بيته كما فعل فى طفولته يقرأ ويلتقى أصدقاءه ليتناقش معهم، وممن أكثروا من زيارة بيته خلال تلك الفترة نجد عبد العزيز البشرى وعباس محمود العقاد اللذين خلفا أوصافًا للأصدقاء الذين اعتادوا حضور هذه المناقشات حافظ إبراهيم ومحمد بك رشاد وعلى يوسف (الذى يظهر أن محمد قد تصالح معه فى النهاية)[٤٢] وندر أن يغادر محمد منزله ولم يكتب إلا القليل، وظهر "حديث عيسى ابن هشام" ككتاب فى عام ١٩٠٧ وفى التاسع من فبراير عام ١٩٠٨ ظهرت بتوقيعه مقالة فى "المؤيد" تحمل عنوان "كلمة مفردة"، ويتحدث السير رونالد ستورز عن سبب ظهور هذه المقالة:

«فى تلك الفترة اقترح الإيطاليون فى الإسكندرية أن تقيم البلدية تمثالاً كبيراً لدانتى، ولما كان دانتى قد وضع محمد وعلى فى الجحيم مع سائر الهراطقة وقد شقوا من الذقن إلى المؤخرة وتدلت أمعاؤهم فقد أغضبت الخطة جميع المسلمين وأثارت اعتراضهم[٤٣]».

وكانت مقالة محمد إسهامًا مهمًا فى هذه الجبهة الإسلامية المتحدة، وبدأها بتذكير قراء الجريدة بما قاله دانتى بالضبط عن محمد فى الكوميديا الإلهية، ثم مضى إلى المطالبة بأن يلتف المسلمون جميعًا حول قضية دينهم بدلاً من الجلوس خاملين يتفرجون بينما يعانى الدين من هذه الإهانة الفاضحة، ومما له مغزى بالتأكيد أن ستورز يسجل بعد صفحات قليلة اشمئزاز الأميرة نازلى مما كتبه دانتى، وفى العام التالى أخرج محمد نفسه أكثر من عزلته وتقاعده بقبوله دعوة لحضور افتتاح خط الحجاز الحديدى وسافر إلى المدينة، ويقال إنه أحد من أسهموا، بدون توقيع، فى سلسلة من المقالات عن الخط الحديدى ظهرت فى "المؤيد" فى ذلك الوقت(٤٤).

وفى الخامس عشر من مايو ١٩١٠ عين محمد مديراً لإدارة الأوقاف واستمر فى ذلك المنصب أربع سنوات ويسجل العقاد أن المويلحى سئم ذلك العمل وليس مما يدهش إذن أنه استقال منه عام ١٩١٤ ولزم بيته مرة أخرى، ويبدو أنه شعر بأن مواهبه تهدر وبأن من فى مكانته لايجب أن يعمل بهذه الطريقة(٤٥).

ويبدو أنه منذ ذلك الوقت عاش حياة متواضعة وصلت فى بعض الأحيان إلى درجة الفقر لكن كبرياءه الذى دفعه إلى أن يترك منصبه فى إدارة الأوقاف هو الذى ساعده على اجتياز تلك المحن بكرامة(٤٦)، وقبل وفاته لم ينشر إلا مرة واحدة، ففى الثلاثين من ديسمبر ١٩٢١ ظهرت له مقالة فى صحيفة الأهرام تحت عنوان "صوت من العزلة"بدأها بذكر أسباب تقاعده من حياة الصحافة ثم مضى إلى التعبير عن مشاعره حول نفى سعد زغلول مرة أخرى من مصر، وأشار إلى أن هذا الوضع من شأنه توحيد المصريين كأمة واحدة وأن جمال الدين الأفغانى كان سيسعد بهذه الوحدة، وبصرف النظر عن هذه المقالة قسم محمد وقته خلال السنوات الباقية من عمره بين بيته والإسكندرية مع زيارات متفرقة لمناسبات رياضية مثل سباق الخيل، ويقال إنه فى عام ١٩٢٥ طلب منه "صاحب جريدة معروفة" (لم يذكر اسمه لسوء الحظ) أن يكتب مقالتين تعبران عن وجهة نظر معينة حول موضوع ما لقاء مبلغ ثمانى جنيهات، ويبدو رد محمد المنسوب إليه معبراً عن شخصيته: "إن قلم المويلحى ليس للبيع"(٤٧).

وفى عام ١٩٢٧ قررت وزارة التعليم "حديث عيسى بن هشام" ككتاب يدرس فى المدارس الثانوية، وراجع محمد كتابه مراجعة شاملة قبل طباعته مستبعداً الكثير من

الصفحات التى أثارت الجدل العنيف ومدخلاً فيه حلقات باريس المشار إليها فيما سبق تحت عنوان "الرحلة الثانية"، وبدأ العمل فى إخراج كتاب يضم سلسلة من المقالات حول موضوعات فلسفية معينة، كان معظمها ظهر على صفحات صحيفة "مصباح الشرق"، وبعد أسابيع قليلة من انتهاء العمل فى تلك المقالات توفى فى حلوان فى الثامن والعشرين من فبراير ١٩٣٠ وتولى شقيقه خليل وصديقه سليم أبو حاجب، زوج الأميرة نازلى، إعداد الكتاب للنشر وظهر الكتاب بالفعل تحت عنوان علاج النفس عام ١٩٣٢ وكان أيضاً نصاً دراسياً مقرراً(٤٨).

كتاب حديث عيسى بن هشام

المقامات السابقة

الكتابات العربية:

المقامة من الهمذانى إلى المويلحى

عندما استخدم المويلحى اسم عيسى بن هشام لأحد "الشخصيات" فى هذه السلسلة فى المقالات كان يذكِّر قراءه بقصد بإحدى المقامات المشهورة لبديع الزمان الهمذانى (٩٦٩-١٠٠٨م) تظهر فيها شخصية الراوى بنفس الاسم، وعلى الرغم من اختلاف المضمون التاريخى لعمل المويلحى إلى حد بعيد عن فن الهمذانى فإن بعض الإشارة إلى "بديع الزمان" والنوع الأدبى الذى استخدم ضرورة فى أية دراسة مفصلة "لحديث عيسى بن هشام".

لقد تطور معنى كلمة المقامة تدريجياً من "اجتماع القبيلة" إلى اجتماع تلقى فيه عظات قصيرة على أشخاص ذوى مكانة ثم إلى المعنى العام" محاضرة"(٤٩) وعندما اتخذ الهمذانى هذا الاسم لوصف الشكل الذى يكتب فيه جمع بين جوانب عدة من تلك المعانى المختلفة فى نوع أدبى واحد، فمن المؤكد أن عنصر العظة كان موجوداً واجتمع معه جانبان من جوانب الحياة فى عصر الكاتب أحدهما أدبى والآخر اجتماعى(٥٠)، فعلى الجانب الأدبى أبدى ذلك النوع منذ بدايته الولع بالتلاعب بالكلمات لأجل ذاته، وزاد من هذا الميل إلى درجة كبيرة وحفزه استخدام الأسلوب العربى المعروف بالسجع (ويترجم عادة فى الإنجليزية إلى "النثر المقفى") وهو صنف من الكتابة يتكون من سلسلة من العبارات القصيرة عادة تنتهى بنفس القافية، وترجع أصول هذا الضرب من الأسلوب فى التراث العربى الأدبى إلى كهان عصر ما قبل الإسلام وإلى نص القرآن نفسه، أما على الجانب الاجتماعى فإن تلك الكتابات مع البراعة اللغوية عبرت عن بيئة المدينة خلال حقبة الخلافة العباسية ولاسيما عالمها السفلى الذى دار حول رمز الشحاذ(٥١)، ذلك لأن تشتت السلطة العباسية المركزية فى بغداد أدى إلى نشأة عدة أسر

محلية ومن ثم إلى ظهور الكثير من مراكز السلطة والرعاية الجديدة التى كان يمكن للشعراء والعلماء الارتباط بها بحثًا عن المساعدة، وقد اكتسب شعراء مشهورون كالمتنبى والمعرى والفيلسوف الفارابى رزقهم بهذه الطريقة، وعلى مستوى أدبى أقل سمواً كان الناس يسرون كثيراً بالاستماع إلى المتحدثين القصاصين البلغاء، وأتاح هذا الميل للشحاذين طريقة معترف بها يجدون بها القوت الضئيل.

جمع الهمذانى كل هذه الجوانب فى أسلوب للتأليف تقر المراجع فى معظمها بأنه صاحب الفضل فى نشأته[٥٢]، وفيه يحكى عيسى بن هشام، وهو الراوى، على حلقة من الناس حيل «رفيقه أبو الفتح الاسكندرى» ويريهم الفوائد المالية وغيرها التى تجلبها بلاغة وفطنة صاحبه، وتنشغل معظم المقامات بتقديم أوصاف متنوعة لفن الشحاذة ولكنها تتضمن كذلك بعض التعليق على الأحوال الاجتماعية، فالمقامة "المضيرية" مثلاً هى كوميديا أخلاقية تذكرنا بحكاية "سينا تريما لكيونيس" فى "الساتيريكون" لبترونيوس، بينما تزودنا عدة مقامات أخرى برؤية نفاذة للحياة فى العصر العباسى[٥٣].

ولقيت مقامات الهمذانى لجمعها بين الأسلوب المصقول والتعليق الاجتماعى القبول الواسع خلال حياته وبدأ الكثير من الكتاب عقب وفاته فى تقليد أسلوبه والنوع الأدبى الذى ابتدعه[٥٤] ويُجمِع التراث النقدى تقريباً على أن الكاتب الذى ارتقى بالمقامة إلى أرفع مستوى من التألق الأسلوبى هو أبو محمد الحريرى (١٠٥٤-١١٢٤) الذى ألف خمسين مقامة وبجانبها كتبًا عن النحو، ويقر الحريرى فى مقدمته لمقاماته بدينه الهمذانى، وهو يستخدم كسلفه العظيم راوياً (هو الحارث بن همام) ليقدم القصص التى تدور حول الأعيب الشقى المهذب أبو زيد السروجي.

ويصل هذا النوع الأدبى مع الحريرى إلى ذراه كوعاء يحتوى على براعة إعجازية فى الحيل اللفظية فى اللغة العربية، وأدى هذا التركيز اللغوى، وهو فيما يفترض تعبيراً عن ميول الحريرى وأذواق قرائه، إلى إخفات دور المحتوى القصصى وإن ظل العنصر الصعلوكى موجوداً بوضوح، وتخبرنا تواريخ العصر الأدبية أن الهمذانى كان يرتجل الشعر والنثر بسهولة كبيرة بينما خصص الحريرى الكثير من الوقت ليتقن وينقح كل مقامة من مقاماته، وهكذا، فبينما حظى الحريرى بالمديح من العديد من النقاد العرب

لتمكنه اللغوى لم يؤد هذا الإتقان إلى توسيع الإمكانات القصصية للمقامة، وأصبح السجع شأنه شأن ظاهرة البديع فى التراث الشعرى أحد الوسائل الأسلوبية غالبة الشيوع فى بيئة أدبية أخذت فيها مبادئ البلاغة تكتسب أهمية متزايدة، ومن هنا فبينما تبدت فى المقامة عند نشأتها عدة ملامح قصية مهمة لم يحدث أى تغير مهم من الناحية القصصية فى تطور ذلك النوع الأدبى على مدى القرون اللاحقة، ويظهرأن العديد من المعلقين المهتمين بالقص فى اللغة العربية عبروا عن بعض الأسف لهذا التركيز على البراعة اللغوية على حساب الجانب القصصى، وهو شعور يرمز له ذلك التعليق على الحريرى: "لقد حكم على من خلفوه بألا يكونوا سوى أساتذة فى فن البلاغة"(٥٥).

وبينما ازدهر الأدب الشعبى خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر شهد الأدب العربى الرسمى حقبة من الكتابة ذات الطابع البلاغى والتقليدى العالى تعبر عن أنواق نخبة صغيرة الحجم توجه إليها، ويصف النقاد العرب والغربيون تلك الفترة بأنها "عصر الانحطاط"، وهو مصطلح يعبر فيما يبدو عن اختلاف المعايير الجمالية فيه عن معايير اليوم وكذلك يدل على النقص العام فى الدراسة المنهجية لأدب ذلك العصر أو لأسسه النقدية، ومع ذلك فأيًا كانت بواعث الإبداع الأدبى فى ذلك العصر الذى امتد حوالى الخمسمائة عام بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر فمن الواضح أنها تغيرت تغيراً مهمًا فى خضم "النهضة" أو تلك الحركة الإحيائية واسعة النطاق فى العالم العربى خلال القرن التاسع عشر، وكان على رأس أولويات الباحثين فى خضم حقبة التغيير والإحياء والتجديد هذه إعادة فحص التراث الثقافى الذى نشأ فى العصر الكلاسيكى، ومما يدل على المكانة المهمة للمقامة فى ذلك التراث كأداة لاستغلال ملامح اللغة الأسلوبية بأقصى مدى لها أن زعيمين من زعماء حركة التغيير الأدبى كتبا معظم أعمالهما أو قسم منها فى شكل المقامة وهما ناصف اليازجى (١٨٠٠-٧١) وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-٨٧)(٥٦).

بدأ اليازجى، وهو ابن طبيب مسيحى، فى كتابة الشعر فى سن مبكرة وكان يعجب على نحو خاص بديوان المتنبى، وقد نشر ابنه إبراهيم طبعة من هذا الديوان بعد وفاته كان هو جمعها، ويبدو أنه انجذب إلى أسلوب المقامة بعد قراءته لطبعة دى ساس من "مقامات الحريرى"، وبدأ فى أوائل عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر فى كتابة

مقاماته التى نشرت تحت عنوان "مجمع البحرين" عام ١٨٥٦، ويشير فى مقدمته لذلك العمل أنه يعتزم استخدام الكلمات النادرة وأسلوباً نحوياً ملائماً مما يوحى بأنه يقتفى أثر أغراض مقامات الحريرى، بل ونجد فى مقامة "سروج" أن الراوى سهيل بن عباد يمضى "ليعثر على أثر من آثار أبو زيد"(٥٧) ويسير اليازجى فى مقاماته على النهج الذى أرساه معلمه، فليس ثمة إلا القليل من المحتوى القصصى والمقامة عنده ليست إلا وسيلة لإظهار مهارة الكاتب فى استعمال الكلمات والعبارات المنتقاة، ودور اليازجى فى تلك المقامات وفى أعماله الأخرى دور واضح فى إحياء اللغة العربية، وكما يقول جيب فقد كان: "أحد أعلام النهضة العربية ولكنه لم يحدد الاتجاه الذى سارت فيه"(٥٨)، ولهذا تبدو مقاماته وكأن ليس لها أهمية سوى من الناحية التاريخية، ويذهب هنرى بيريس إلى القول بأن "التقليد قتل الإبداع وليس مجمع البحرين سوى عمل مدرسى"(٥٩).

وعلى العكس من اليازجى كان الشدياق، وهو مسيحى لبنانى كذلك، واسع الأسفار وتعتمد أعماله التى تضم فقرات مكتوبة بأسلوب المقامة على تجربة أدبية وثقافية أوسع، غادر الشدياق لبنان بعد أن لاحق البطريرك المارونى شقيقه حتى الموت لتغييره عقيدته إلى البروتستانتية وتتضح أعماله بالكثير من الكراهية لرجال الدين. وذهب فى أسفاره إلى القاهرة ومالطا وتونس ولندن وباريس وتوفى فى إسطنبول عام ١٨٨١ حيث زعم أنه عاد إلى العقيدة المسيحية قبل وفاته مباشرة.

وقد كتب عمله المشهور "الساق على الساق فيما هو الفرياق" فى باريس ونشرها هناك فى ١٨٨٥، ويقول الشدياق فى مقدمته مثل اليازجى أن هدفه هو "الكشف عن خصائص ونوادر اللغة "وبجانب ذلك" إظهار محاسن وعيوب النساء"(٦٠)، ويجب بالإضافة إلى ذلك الإشارة إلى أن كلمة الفرياق (فارس الشدياق) فى العنوان تدل على طبيعة العمل جزئياً كسيرة ذاتية، ومن المؤكد أن الهجمات على رجال الدين التى نجدها فى النص تقدم الدليل الإضافى على تلك الناحية، ويضم الكتاب فقرات تصف مهنة الطب بما فى ذلك معجم فى المصطلحات الطبية لشتى الأمراض مما يحقق الهدف المعجمى للمؤلف غير أن اهتمام الكتاب الأساسى يتركز على المقارنات بين المجتمع الشرقى والمجتمع الغربى، فهناك زيارات إلى لندن وباريس وكمبريدج ويعقد الفرياق وزوجته المقارنات بين أحوال النساء فى الشرق والغرب(٦١).

ويحتوى العمل على أربعة نماذج مكتوبة بأسلوب المقامة وهى موزعة على الأربعة أجزاء التى يتألف منها العمل، بل ويبدو أن الشدياق يحاكى أسلوب المقامة محاكاة ساخرة، وراويه يدعى الحارس ابن هشام (والراوى عند الحريرى هو الحارث بن همام كما أن الراوى عند الهمذانى هو عيسى بن هشام)، والفعل الذى يستخدمه الشدياق فى التقديم هو "حدثنا" بدلاً من الكلمة المعتادة "حدث" وبالإضافة إلى ذلك يتضح موقفه من السجع بجلاء فى فقرة مبكرة من الكتاب حيث يقول: "إن السجع للكاتب كالساق الخشبية للسائر... وأرى أن كتابة السجع تجهد أكثر من كتابة الشعر... وعلى من يريد أن يستمع لنقاش يدور بأكمله سجعًا أن يقرأ مقامات الحريرى أو نوابغ الزمخشرى"[٦٢]، ومن هنا تبرز كتابات الشدياق فى نوع المقامة كتمارين لغوية تسير فى خط الحريرى وإن كانت على العكس من مقامات اليازجى متضمنة فى عمل به ملمح قصصى معين.

هذا إذن هو النوع الأدبى الذى استمد منه المويلحى اسم راوى حكاياته كما أخذ منه الأسلوب الذى وضعه فى بداية كل فصل، ومن المصريين الآخرين الذين كتبوا المقامة عبد الله فكرى (١٨٣٤-٩٠) ونشرت أعماله أصلاً فى صحيفتين فى أوائل السبعينات من القرن الماضى، وهما صحيفتا "وادى النيل" و"روضة المدارس"، وضمت فيما بعد فى أعماله المجموعة بعنوان "الآثار الفكرية" والمنشورة عام ١٨٩٧، غير أن مقامات فكرى تمثل عودة لعنصر الوعظ القديم الذى كان موجوداً فى هذا النوع منذ بدايته كما إنها تعالج الموضوعات الفلسفية، وكان المويلحى هو الذى واصل الإتجاه الذى بدأه الشدياق باستخدامه لجوانب معينة من الشكل، ولا سيما الأسلوب، كوسائل لمعالجة المشاكل الاجتماعية والثقافية للعصر وللتعبير عن آراء الكاتب حول ماشاهده فى أسفاره سواء فى الشرق أم فى أوروبا، وبهذا المدخل قضى المويلحى على نوع المقامة، ويمثل "حديث عيسى بن هشام" أغنية الاحتضار لذلك النوع المتقعر الذى أخلى السبيل أمام أنواع أخرى أقرب إلى قراء الرواية المتزايدين فى العالم العربى[٦٣].

قصص الأسفار: الطهطاوى وعلى مبارك

يصف المويلحى فى "حديث عيسى بن هشام" المجتمع المصرى بتفصيل كبير، وهو يستخدم فى سبيل ذلك وسيلة أدبية تتمثل فى الشخصية المتلهفة لرؤية كل جوانب الحياة

المصرية المعاصرة ومعها شخصية أخرى تأخذها فى جولة بالمجتمع القاهرى، وهذا هو السيناريو الكلاسيكى لأدب الصعلكة أو التجوال، حب الاستطلاع والتحرى والتعليق، ويتبع المويلحى باستخدامه لهذا الأسلوب ما أرساه الهمذانى من تقاليد قبل قرون سبقت لكنه أيضاً يضع عمله فى إطار سلسلة من الأعمال ألفت خلال القرن التاسع عشر لتعلق على وتنتقد المجتمعات الغربية والشرقية على حد سواء فى أطر حقيقية أو متخيلة، ومن بين تلك الأعمال نجد أشهرها "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوى (١٨٠١-٧٣) و"علم الدين" لعلى مبارك (١٨٢٣-٩٣)، والطهطاوى أحد أهم الشخصيات فى تاريخ التعليم والثقافة العربية الحديثة، وشاء حظه الحسن أن يكون معلمه فى الأزهر الشيخ حسن العطار الذى تأثر كثيراً بما تعلم من أدب وعلم على أيدى ضباط الجيش النابليونى الغازى عام ١٧٩٨،[٦٤] وقد أوصى العطار بأن يعين تلميذه الشاب مشرفًا دينياً على أول بعثة تعليمية يرسلها محمد على إلى فرنسا عام ١٨٢٦، وعلى الرغم من أن مهام الطهطاوى كانت تنحصر فى الإشراف إلا أنه استغل إقامته فى باريس بالكامل، فتعلم الفرنسية وأخذ يقرأ لكتّابٍ من أمثال ڤولتير وراسين وروسو ومونتسكيو وبعد أن جمع ملاحظات إضافية حول قطاع عريض من الحياة والعادات فى فرنسا عاد إلى مصر عام ١٨٣٤ وأخذ يدون انطباعاته فى شكل كتاب، وقد ظهر "تخليص الإبريز" بعد عامين فى ١٨٣٦.

لم يكن هدف الطهطاوى، على العكس من الشدياق، استعراض معرفته اللغوية وإنما كتابة عمل يقدم للشعب المصرى أكبر قدر من المعلومات عن العادات والمجتمع الأوروبى، ومن هنا فأسلوب الكتابة نثرى غير معقد (وإن كانت المقدمة تتبع التقاليد الأدبية باستخدامها للسجع)، وينقسم العمل إلى أجزاء عدة تضم مقدمة (يشرح فيها الكاتب المصطلحات الفنية المختلفة التى يستعملها ويذكر أسماء قادة البعثة المصرية)، وإعلانًا بالهدف (يحدد فيه مضامين الكتاب الرئيسة)، وست "مقالات" تشكل صلب النص، تتناول المقالتان الأولتان الرحلة إلى فرنسا وتصف الثالثة باريس وأسلوب الحياة الفرنسى بما فيه أنماط الزى وعادات الأكل والمرافق الصحية والدين[٦٥] وتنصب المقالة الرابعة على وصف نشاطات البعثة، أما الخامسة فهى عرض موجز للأحداث السياسية فى فرنسا منذ الثورة، وتقدم المقالة السادسة تحليلاً أكثر تفصيلاً للموضوعات الفنية العديدة التى ذكرها فى المقدمة والتى تحتاج للمزيد من الوصف المدقق.

ويقدم الطهطاوى للقارئ الشرقى فى "تخليص الإبريز" وصفًا واقعيًا للحضارة الأوروبية عمومًا والثقافة الفرنسية على وجه الخصوص ومن هنا فعلى الرغم من افتقار الكتاب لأناقة الأوصاف الأخرى اللاحقة لزيارات العواصم الأوروبية وقيمتها الأدبية، إلا أنه أثر تأثيرًا ضخمًا على تطور التعليم المصرى مما أسهم إسهامًا له مغزى فى النهضة العربية الحديثة، وبالإضافة إلى ذلك مهد الكتاب الطريق بوصفه بل بنقده للمجتمع الفرنسى فى أسلوب عربى مباشر لظهور دراسات أخرى أعقبته للمجتمعات الشرقية والغربية كان منها دراسة المويلحى.

كان على مبارك ضابط مدفعية فى الجيش ومهندس قضى خمس سنوات فى فرنسا يدرس فى الأكاديمية العسكرية فى متيز، وبعد عودته إلى مصر شغل عدة مناصب وزارية بما فيها وزير التعليم، وأشهر أعماله هو "الخطط التوفيقية الجديدة" وهو متابعة وتفصيل لعمل سابق للمقريزى (توفى ١٤٤٢)، وقد ألقى العمل الضخم بظلاله ليحجب عمله شبه الروائى المشوق "علم الدين" الذى نشر عام ١٨٨٢.

ويتحدث على مبارك فى المقدمة عن الحاجة لنشر التعليم ويعلن أنه قرر كتابة عمل تعليمى، ثم يضيف أنه وضعه فى قالب الحكاية ليكون جذابًا مما يعمم من فائدة المعلومات التى يتضمنها، ويؤكد أن الهدف الرئيس للكتاب نقل أكثر ما يمكن من معلومات عن البشر والفنون والعلوم والظواهر الطبيعية ليقارن الماضى مع الحاضر ويقارن الأوضاع فى الشرق مع أحوال العالم الغربى وذلك كله باستخدام شخصيات خيالية متباينة[٦٦].

وعلم الدين شيخ أزهرى يذهب مع مستشرق إنجليزى إلى أوروبا، وينشغل العمل بتفاصيل مطولة لرحلته عبر الإسكندرية ومارسيليا وباريس، ويقدم المعلومات فى كل نقطة توقف حول المعالم البارزة المحلية والمناسبات المهمة (ففى طنطا مثلاً تناقش الشخصيتان الرئيستان بتفصيل أنواع الاحتفالات المختلفة فى الشرق والغرب ويلقى الشيخ محاضرة فى باريس عن الشاعر العربى إمرؤ القيس)، ويزور الرجلان المتاحف والمكتبة العامة والمستشفيات والبورصة والبنوك والمسرح، وينتهى العمل بصورة فجائية بقسم يصف الزهور، و"علم الدين" شأنه شأن "تخليص الإبريز" محاولة من جانب مهتم

.التعليم لتقديم معلومات حول المجتمع الغربي لجمهور القراء المصريين، إلا أن على مبارك دفع بتطور القص الخيالى فى الأدب العربى الحديث إلى الأمام باستخدامه لإطار روائى- حتى ولو كان واهيًا- لتعليقاته، وذلك بهدف معلن هو زيادة جاذبيته، وقد تبع سابقة الطهطاوى فكتب أوصافه بأسلوب عربى صحيح واضح لا تعقبه المحسنات اللفظية، وبالإضافة إلى ذلك أنشأ على مبارك سابقة تبعها المويلحى بعد ذلك بسنوات قليلة بتوجهه صوب استخدام الشخصيات فى إطارٍ قصصى بغرض النقد الاجتماعى.

الصحافة والنقد الساخر:

صنوع والنديم

ذكرنا أن "حديث عيسى بن هشام" نشرت أصلاً مسلسلة فى مصباح الشرق وهى مقالات إنتقد فيها المويلحى وسخر عدة مؤسسات وجماعات اجتماعية مسجلة بصورة مسلية مؤثرة، غير أن هذه لم تكن بحال أول مرة يتعرض فيها الموظفون المؤسسات للسخرية فى الصحافة المصرية إن على سبيل التسجيل الواقعى أو الخيال، فقد كان للمويلحى أسلاف عدة أشهرهم اليهودى المصرى يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢) وهو شخصية بارزة فى تطور الدراما المصرية الحديثة، وعبد الله النديم (١٨٤٥-٩٦) الذى كان له الدور الكبير فى الدعوة والترويج للفكرة الوطنية قبل ثورة عرابى عام ١٨٨٢.

بدأ صنوع حياته العملية بتدريس اللغات الأجنبية لضباط وطلاب الجيش فى الأزهر(ومنهم فيما ذكر الأفغانى ومحمد عبده)[٦٧] ثم بدأ الكتابة وإخراج المسرحيات التى انتقد فيها الحكومة وعادات الطبقة العليا، وقد وافق الخديوى إسماعيل فى بداية الأمر على هذه المسرحيات بل وسمح للعروض بأن تقام فى قصره ولكنه عندما أصبح هو الآخر هدفًا لطرف صنوع اللاذعة أمر بإيقاف العروض عام ١٨٧٢، وأنشأ صنوع بإيعاز من الأفغانى وعبده صحيفة تحمل اسم "أبو نظارة" ولدت فيها وفى الأماكن المتعددة التى صدرت فيها وتحت عناوين مختلفة كتابته الصحفية الساخرة، وكانت باريس أحد أماكن النشر وقد زار صنوع كلاً من الأفغانى وعبده خلال تحرير "العروة الوثقى" وهذا يشير إلى احتمال تعرفه على آل المويلحى[٦٨].

وينتقد صنوع فى مقالاته انعدام كفاءة موظفى الحكومة وتجاوزات الخديوى وقد طرد من مصر عام ١٨٧٨ لكن ذلك لم يردعه فأعاد إصدار جريدته فى باريس وجدد هجماته على الخديوى وعلى القوات البريطانية بينما أيد من سعوا إلى الإبقاء على القضية الوطنية المصرية حية، وعبَّر عن انتقاداته لسلوك الضباط الأتراك وسماسرة البورصة من خلال حوارات خيالية وخطابات ومحاضر اجتماعات وأحلام، أما الخديوى نفسه فقد سخر منه بعد تسميته "بشيخ الحارة" وهى شخصية متسلطة واضحة الرمز مما لايدع مجالاً للغموض(٦٩)، ومن الأشياء المهمة فى مقالات صنوع أن الحوار بين الشخصيات فيها يدور بلهجة عامية أضف إلى ذلك أن رسومًا كاريكاتيرية يرسمها الكاتب نفسه كانت تصاحب المقالات، وهذا مالفت أنظار الجمهور العام للمقالات بما فيهم الأميين الذين اجتذبتهم الصور ودعتهم للسؤال عن معناها(٧٠).

كان صنوع رائداً فى تطور الصحافة الساخرة والمسرح فى مصر، لكن هجماته على الخديوى اسماعيل أدت إلى طرده من البلاد قبل عزل الخديوى نفسه عام ١٨٧٩. أما عبد الله النديم فكان موجوداً فى البلاد خلال الفترة الحاسمة التى تصاعدت فيها أحداث ١٨٨٢ بل وكان له الدور الجوهرى فيها بخطبه ومقالاته الصحفية فى تلك الحركة التى كانت التعبير الأول عن المشاعر الوطنية المصرية، وقد استخدم فى جريدته "التنكيت والتبكيت" (التى أسست عام ١٨٨١) حكايات خيالية ليحاكى فيها بصورة ساخرة موظفى الحكومة وسائر أنماط المجتمع، ومقالته التى يكثر الاستشهاد بها والمعنونة "عربى تفرنج" تسخر من الشباب الذى سافر إلى أوروبا ليتعلم ثم عاد إلى مصر بالتظاهر والادعاء، وهذه صورة فكاهية يحاكيها المويلحى فى وصف الحركات الغريبة لصديقى النائب العام فى الفصل الثانى من "حديث عيسى بن هشام"(٧١) وانتقد النديم فى هذه الصحيفة وفى ظهورها عقب أحداث عام ١٨٨٢تحت اسم "الطائف" حكم إسماعيل وسخر من المرابين وضحاياهم وهاجم الصحفيين الشوام بصورة بالغة المرارة بل وتنضح بالعداء للأجانب.

وألقى القبض على النديم بعد فترة من الاختباء ونفى بسبب دوره فى ثورة عرابى ولكن عقب عودته إلى مصر عام ١٨٩٢ بدأ فى نشر صحيفة أخرى هى "الأستاذ"، وقد تناول فيها مشاكل الإصلاح الاجتماعى والتعليمى وانتقد محاكاة العادات الأوروبية غير

المجدية والنجاحات التى حققها المبشرون المسيحيون فى البلاد(٧٢) وقد استخدم كصنوع اللهجة العامية فى اسكتشاته وأدخل نوعًا جديداً من الفكاهة بإنطاق شخصياته بعض الكلمات الأوروبية (مثل "بون أريفيه" فى "عربى تفرنج")، وكتبت هذه الكلمات بالأحرف العربية مما ضاعف من زيف مواقف الشخصيات.

سخر كل من صنوع والنديم من المؤسسات الاجتماعية والسياسية المعاصرة من خلال مقالات صحفية خيالية كانت هى السابقة للعديد من المناظر فى كتاب المويلحى وقد كان الرجلان يعرفان الأفغانى ومحمد عبده عن كثب ويبدو أن الأخيرين شجعا صنوع على أن يبدأ فى إصدار جريدته، ولذا فليس مما يدهش أن هذين الصحفيين وآل المويلحى قد ساندوا نفس القضايا فى كتاباتهم بل واستعملوا نفس الوسائل للتعبير عن هذه القضايا فى كثير من الحالات.

دراسات المجتمع المصرى:

أحمد فتحى زغلول ومحمد عمر

ذكرنا أن المويلحى كان عضواً فى حلقة نازلى التى ضمت بعضًا من أهم المصلحين الاجتماعيين فى ذلك العصر، وكان من بينهم أحمد فتحى زغلول شقيق سعد زغلول الذى أصبح الشخصية السياسية الرئيسة فى مصر خلال وعقب الحرب العالمية الأولى، وقد نشر أحمد فتحى زغلول عام ١٨٩٨ ترجمته لكتاب "أين يكمن تفوق الأنجلو ساكون" للباحث الفرنسى المهتم بشؤون التعليم إدمون ديمولان، وظهرت الترجمة تحت عنوان سر تقدم الإنجليز الساكسونيين كان العمل الأصلى نشر فى باريس فى إبريل ١٨٩٧ وأحدث ضجة فور ظهوره، وقارن ديمولان بين أنظمة التعليم فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وخلص إلى أن الشعب الإنجليزى قوى مزدهر لأن العملية التعليمية عنده تشجع المبادرة الفردية بينما ينحو النظام الفرنسى إلى النظر للتعليم فى سياق الأسرة أو الدولة وليس من منظور الفرد، ولأن مصر كانت استوردت نظاماً تعليمياً وقانونيًا يحاكى بشدة النظام الفرنسى كان أثر ترجمة زغلول فيها لا يقل قوة وسرعة عما كان للعمل الأصلى فى فرنسا، وأضيف لهذا الأثر الحسرة الناجمة عن ملاحظة آثار النظام التعليمى الإنجليزى وهى تتجلى بين القوات البريطانية المحتلة فى مصر، وضاعف من

أثر هذا الكتاب العميق تلك الحجج القوية التى أوردها فتحى زغلول فى مقدمته للترجمة، وهو يسرد فيها قائمة طويلة بالعيوب وأوجه الضعف التى أدت إلى الظروف التى عانى منها الشعب المصرى فى ذلك الوقت، ويرى زغلول أن السبب الرئيس فى هذا الوضع هو الركود الذى كاد أن يصبح سمة قومية: "والسبب فى هذا فترة طويلة من الإهمال نجمت عن الضعف العام الذى أصاب الروح الشرقية لأجيال طويلة حتى خنق روح البحث التى هى السمة الفطرية للبشر[٧٣].

ويزعم زغلول أن الشعب المصرى يقبع فى المقاهى طيلة النهار ويقرأ القصص الخرافية تاركًا الأوروبيين يقومون بكل الأعمال ويحصلون على كل الأرباح، والمصريون منقسمون شيعًا وطوائف وينتظرون من الحكومة أن تقوم لهم بكل شىء، وهم لا يدركون أن الحكومة لاتملك إلا أن تقيم نظامًا من الأمن العام يقوم الناس فى إطاره بأدوارهم، والعلاج للكثير من هذه العلل يكمن فى تحسين التعليم وزيادة كمية المعرفة لقهر الجهل حسبما تثبت التجربة القديمة، ولهذا سيظل المصريون أسرى حالتهم الراهنة إلى أن يحسنوا من نظامهم التعليمى، وتختتم المقدمة بالقول: "إن غرضى فى ترجمة هذا الكتاب دفع الناس للتفكير فى الحالة التى نحن فيها وأن يقارنوها بحالة الشعب المصرى، أريد أن أكون مرآة يرى الناس فيها أمتين عظيمتين أبيتين ويقارنوا بأنفسهم بين أساليبهما المختلفة فى التعليم"، وتدعم مقدمة "سر تقدم الإنجليز الساكسونيين" من قوة أثر الترجمة ذاتها، وهى تدين موقف المصريين فى الحياة إدانة تامة وتمثل تحديًا يطالب بالغيير، وليس ثمة شك أن مضمون المقدمة كان موضوع المناقشة فى اجتماعات حلقة نازلى كما ظهر عرض للكتاب فى جريدة المويلحى فى نفس شهر النشر (يوليو ١٨٩٨) اتفق مع صدور الحلقات التى نشرها محمد المويلحى فيما بعد فى كتاب "حديث عيسى بن هشام"، ومن هنا يبدو محتملاً على الأقل أن فتحى زغلول والمويلحى كانا يعرفان كلاهما ما يكتبه الآخر، وتعكس كتاباتهما بطرق مختلفة المناقشات التى كانت تدور بين أعضاء حلقة نازلى حول عيوب المجتمع المصرى (وعلاجها)، كذلك توجد رابطة قوية بين فتحى زغلول والمويلحى والكاتب الذى نتوجه الآن للحديث عنه محمد عمر [٧٤].

لانكاد نعرف شيئًا عن مؤلف كتاب "حاضر المصريين وسر تأخرهم" (الذى نشر عام ١٩٠٢ مظهراً العرفان لترجمة فتحى زغلول) باستثناء أنه – كما أخبرنا– موظف

بمصلحة *البريد*،(٧٥) وما يهمنا في *السياق الراهن* هو أن فتحي زغلول كتب مقدمة *الكتاب الذي* يحتوي على فصل يتحدث عن سر تقدم *الإنجليز الساكسونيين* وعن كتابي قاسم أمين المشهورين حول مكانة المرأة في المجتمع "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، كما يحتوي الكتاب على عدة إشارات إلى مقالات نشرت في جريدة المويلحي "مصباح الشرق"[٧٦]، ويدل كل هذا على أن محمد عمر وإن لم يكن معروفاً ولا مسجلاً كعضو في حلقة نازلي كان مع ذلك يعرف اثنين على الأقل من الأعضاء كما يبدو أنه كان يشاطرهم الرأي حول عدد من القضايا المعاصرة.

يتكون *العمل* من ثلاثة *أجزاء* تصف *الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء* على *التوالي* ويعالج *الكاتب* في جزء *الأغنياء* قضايا *الحب* والزواج والتعليم *الخاص والعام* والنظرة الدينية والسلوك *العام*، وهو يخلص *إلى* نفس *النتائج التي* توصل *إليها* المويلحي في بعض فصول "حديث عيسى بن هشام" ("*أبناء العظماء*" و "بيت حفيد *الباشا*" مثلاً)، وهي أن الأغنياء جيل لا يتمتع بأي من خصال أسلافهم الحميدة وأنهم ليسوا سوى حفنة من المسرفين *البخلاء*، والأسوأ أن أموالهم وقعت في أيدي الأجانب أو ضاعت في معاملاتهم الطائشة في البورصة، ويجلس أبناؤهم يتطلعون إلى موتهم ثم ينقضون على التركة ليضيعوها بدورهم.

ويعلق الجزء الخاص بالطبقة الوسطى على مهن وحرف مختلفة بالإضافة إلى العلماء ويتناول مواضيع عامة مثل *الكتب والسياسة*، *والفصل الذي* يتحدث عن *العلماء* مهم للغاية لأنه يعلق على نشاطات المبشرين في السودان وهو ماكان موضوعاً لمقالات كتبها إبراهيم المويلحي في "مصباح الشرق"[٧٧]، ويحتوي الفصل الخاص بالأزهر على مادة قدمها محمد عبده من تقريره عن تلك المؤسسة والذي نشرته صحيفة المويلحي بكامله[٧٨]، ومضى الكاتب ليناقش التعليم والآراء المغرورة التي يورثها للشباب الداخل في سلك *الوظيفة الحكومية*[٧٩] ويردد عمر في فصل بعنوان "مصالح المصريين الحقيقية" رأي فتحي زغلول من أن سبب ورطة المصريين هو نقص التعليم لكلا الجنسين، ويدعو إلى نسيان الفوارق الدينية بين المسلمين والأقباط إن أريد للأمة المصرية أن تتقدم.

ويصف محمد عمر حالة الفقراء في تفصيل متبصر (وهو ما يبدو أن المويلحي لم

يرد أو لم يستطع فعله فى كتابه)، وهو يذهب إلى أن الفقراء هم حقًا من يعكس حالة الشعب: "فهم عيونه وآذانه ومشاعره"، ومن هنا فإن أبلغ حجة لنشر التعليم هى حالة الفقراء المزرية من الجهل الغارق فى الخرافة، وينتقد الكاتب على وجه الخصوص رؤساء الطرق الصوفية الذين يستغلون تعلق الناس بالخرافات ويدخلون الكثير من البدع على العقيدة الإسلامية، وينتهى الكتاب بفصلين يمتلئان بالمرارة الشديدة يعبر فيهما الكاتب عن اشمئزازه من مسلك الناس فى الجنازات ثم يحول اهتمامه إلى حالة الفوضى الضاربة فى إدارة الأوقاف وهو موضوع يعالجه المويلحى فى الحلقات التى أصبحت "حديث عيسى بن هشام"(٨٠).

وحيث إن "حاضر المصريين" نشر عام ١٩٠٢، أى بعد اكتمال حلقات محمد المويلحى فلا يمكن اعتباره سابقة بالمعنى الدقيق، لكننا يجب أن نتذكر أن "حديث عيسى بن هشام" ظهر فى هيئة كتاب للمرة الأولى عام ١٩٠٧ وأنه نشر بعد مراجعات وتعديل كبير فى النص الأصلى(٨١)، وبما إن المويلحى وفتحى زغلول ومحمد عمر كانوا يعرفون كتابات بعضهم البعض يبدو من المحتمل على الأقل أن بعض زملاء المويلحى فى دائرة نازلى اقترحوا عليه أن مقالاته المجموعة ستمثل رفيقًا أدبيًا رائعًا لهاتين الدراستين الاجتماعيتين لمصر، وسواء أكانت تلك هى الحال أم لا فإن قارئ هذه الأعمال الثلاثة لايملك إلا الاندهاش من وحدة الموضوعات المطروحة بل وحتى من استخدام نفس الألفاظ والتعبيرات فى بعض الأحيان(٨٢)، وعندما يؤلف ثلاثة كتَّاب أعمالاً فى فترة زمنية قصيرة نسبيًا لا يهم كثيرًا أيها ظهر أولاً، ويكفى هنا أن نلاحظ أن هناك الكثير مما يربط بين الكتاب وكتبهم وهو ما يدل على نوع من الرابطة بينهم.

أعمال بلغات أوروبية:

الكونت دى فولنى وادمون أبوت

أدت ملامح معينة فى "حديث عيسى بن هشام" إلى ظهور تعليقات تتجه إلى الاستشهاد بأعمال أدبية أوروبية يحتمل أنها ألهمت المويلحى(٨٣)، وعلى وجه الخصوص فقد حفزت فكرة إعادة إحياء الباشا الإشارة إلى أعمال كلاسيكية مثل "هاملت" لشكسبير و"آل بورجراف" لهوجو، ومع ذلك تزودنا الآداب الأوروبية بنماذج أكثر قربًا

من تلك، ونجد فى أعمال الكاتبين الفرنسيين ڤولنى وأبوت تشابهات شديدة مع بعض نواحى كتاب المويلحى يمكن الإشارة إليها.

قضى الكونت دى ڤولنى (١٧٥-١٨٢٠) أربع سنوات يرتحل فى مصر وسوريا(٨٤)، وأصبح أستاذًا للتاريخ فى المدرسة العليا بباريس، وقطعت زيارة قام بها للولايات المتحدة بعد أن اتهم بالتجسس وعاد إلى فرنسا عام ١٧٩٨، ونشر كتابه المطول عن فلسفة التاريخ "الأطلال" أو "تأملات فى انقلابات الممالك" فى ١٨٩١ وترجمه شاكر شقير (١٨٥٠-١٨٩٦) إلى العربية بعنوان "آثار الأمم"[٨٥] وهو كالمويلحى يستعمل غطاء قصصيًا شفافًا تمثل فى راوٍ وكائن خارق للطبيعة يقدم الحقائق حول العديد من الموضوعات التى يرغب المؤلف فى طرحها على قرائه عبر سلسلة من الأسئلة والأجوبة، ولكن هذين العملين لا يشتركان فقط فى الأجواء والقصد التعليمى، بل إن بدايتهما متشابهة إلى حد يدعو للاستشهاد المطول من مقدمة ڤولنى حيث يبدأ الراوى بتحية:

«المقابر المقدسة والجدران الصامتة التى منذ أن سقطت الأرض كلها خاضعة صامتة أمام الطغاة مازالت تعلن عن الحقائق التى كرهوها والتى فى خلطها للملوك مع آخر العبيد تشهد على مبدأ المساواة المقدس».

وتستمر روح هذه الفاتحة الجاذبة للاهتمام فى القص نفسه، فهذا منظر فى مقبرة بالقرب من بالميرا فى سوريا:

«وفى ليلة انشغلت فيها نفسى بالتأملات سرت حتى وادى المقابر وصعدت إلى المرتفعات التى تحيط به ومنها تملك العين فى نظرة واحدة سائر الأطلال ومعها سعة الصحراء... تلك الأماكن المنعزلة وتلك الليلة الهادئة وذلك المنظر الرائع طبعوا على روحى نفسًا دينية، وساقنى منظر المدينة الكبيرة المهجورة وذكر الأزمان الخالية والمقارنة مع الحاضر إلى تدبر عميق حينما رفعت قلبى إلى سماء الأفكار السامية».

وبينما يمضى الراوى فى تأملاته تلك:

"صك أذنى صوت أشبه بحفيف ثوب طائر وخطوة وئيدة تسير على الأعشاب الجافة والمتآكلة، وفى قلقى رفعت حافة معطفى وألقيت نظرة خائفة على ما حولى، وفجأة

على يسارى خُيِّل لى أنى رأيت شبحًا مغطى بثوبٍ هائلٍ، وارتعدت وبينما ترددت فى حيرتى بين الهرب وبين التأكد من ذلك الشيء نطقت القبور بصوت عميق أسمعنى ذلك الكلام: "إلى متى يظل الإنسان يناشد السماوات بشكوى ظالمة؟".

وهنا يلقى الشبح خطبة طويلة ترد على شكوى سبقت للراوى من أن البشر يلقون معاملة ظالمة، ويطلب الراوى المغفرة ويوافق الشبح بعدها على أن يأخذه الراوى لبلد آخر كى يريه مظاهر الحياة المختلفة(٨٦).

وتتجمع عوامل تستدعى إلى الذهن لامحالة الصفحات الأولى من "حديث عيسى بن هشام" ومنها استخدام بقعة مهجورة فى المنظر الافتتاحى وانغماس الرواى فى التفكير العميق فى قصر عمر الإنسان ووصف هيئة الشبح ورد أفعال الراوى، وبجانب ذلك لاتقل سخرية ڤولنى فى نقده للمجتمع أثرًا عن سخرية المويلحى:

الشعــــــــب: لماذا تُفضلون عنا ألستم منا؟

الطبقة المتميزة: لا، فأنتم العامة ونحن غيركم، نحن طبقة مميزة لنا قوانينا وعاداتنا وحقوقنا الخاصة.

الشعــــــــب: وما هو العمل الذى تقومون به فى مجتمعنا؟

الطبقة المتميزة: لاشيء، نحن لم نخلق لكى نعمل.

الشعــــــــب: كيف إذن حصلتم على ثرواتكم؟

الطبقة المتميزة: بتحملنا عبء حكمكم.

وهكذا فكتاب "الأطلال" دراسة للإنسان ومجتمعه يلتقى فيها الرواى مع مخلوق خارق للطبيعة ويتحدى جوانب مختلفة من الوجود الإنسانى، وربما يكون المويلحى قد اتَّبع هذا النموذج بقراءته للأصل الفرنسى أو للترجمة العربية المتاحة له، وترجح هذا الرأى أوجه التشابه اللافتة للنظر بين الفقرات الإفتتاحية للعملين وهو ما يتبدى من مقارنة الاقتباسات السابقة مع افتتاحية عمل المويلحى.

ويذهب سعد الدين بن شنب إلى وجود صلة بين كتاب المويلحى وعمل كاتب

فرنسى آخر هو إدمون أبوت الذى ولد عام ١٨٢٨ وأصبح عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (حيث قدم لها الفيلسوف إرنست رينان)(٨٧)، وتضم أعماله روايتين هما "الرجل ذو الأذن المكسورة" و"الفلاح"، والأولى تهمنا لأن الشخصية الرئيسة فيها، الكولونيل فوجا، يقوم من كفنه المتجمد بعد وفاته بست وأربعين سنة مما يمكنه من الحكم على التغيرات فى المجتمع وعاداته بملاحظاتها خلال أسفاره، لكن القصة فى الواقع تدور حول حبه للجميلة كليمنتين وهى خطيبة الرجل الذى أعاده للحياة، ويتضح فى النهاية أنها حفيدته وتنتهى الأحداث نهاية سعيدة للجميع، أما الفلاح فلها صلة أكثر قرباً بمصر وكتاب المويلحى، وهى تحكى قصة زيارة الراوى ليقابل ثانية أحد المصريين كان قد التقاه فى باريس ويقابل الراوى المصرى ويذهبان معًا للعشاء بصحبة فتاة إنجليزية تدعى جريس ويناقشان أثر التغريب على مصر، وكما يقول المصرى، أحمد: «(فى ترديدٍ لأفكار المويلحى نفسه) فإن أوروبا هى التى قلبت كل شيء هنا باستيراد التسرع والتهيج"(٨٨)، وتزور المجموعة عدة أماكن مشهورة فى القاهرة وتقابل الخديوى وشيخ الأزهر ثم تسافر إلى الصعيد.

ومن المغرى أن نشير كما فعل بن شنب إلى احتمال قراءة المويلحى لرواية "الفلاح" باعتبارها رؤية رجل فرنسى لمصر مما عرفه على كاتب "الرجل ذو الأذن المكسورة" وأوصله إلى فكرة استخدام شخصية الباشا كأداة المقارنة بين الحقبتين المختلفتين، ولكن لا يمكن أن تعدد هذه النظرية مجال الظن المثير للاهتمام بسبب الافتقار إلى أدلة أكثر قوة.

لقد أشرنا فى هذا الفصل إلى المقامة وكتاب الرحلات والصحافة والدراسات الاجتماعية وشبه الرواية كجوانب ذات علاقة "بحديث عيسى بن هشام" وهى كلها نواحٍ موجودة فى هذا النص الذى يعد "حقيقة فى ثوب الخيال"(٨٩)، لكن المويلحى لم يبز فى أى من هذه الميادين، ومع ذلك ومثل سلفه العظيم الهمذانى يكمن إسهامه فى الطريقة التى جمع"بها تلك الجوانب فى عمل واحد، والمويلحى لم يحلل فقط المجتمع المصرى بدقة وذكاء لاذع وإنما قدم لنا كذلك جسراً كان ضرورياً بين أنواع القص فى الأدب العربى الكلاسيكى وظهور تراث روائى فى العربية الحديثة يقوم على النماذج الأوروبية.

تطور النص "فترة من الزمن"

على الرغم من أن عنوان "حديث عيسى بن هشام" هو الذى عرف به عمل المويلحى فى شكل الكتاب إلا أن كل الفصول التى يحتويها ظهرت أصلاً بشكل كلى أوجزئى كمقالات فى صحيفة "مصباح الشرق" تحت عنوان "فترة من الزمن"، وقد استخدم عنوان "حديث عيسى بن هشام" لأول مرة عندما أخبر المحرر قراءه بأن القصة سوف تستكمل فى العدد القادم لتزودهم "بما يتحدثون عنه خلال شهر رمضان"(٩٠)، وكذلك ظهر الجزء الثانى من الطبعة الرابعة والطبعات اللاحقة (واسمه "الرحلة الثانية") فى "مصباح الشرق" تحت نفس العنوان وبعنوان جانبى هو "باريس"، وقد وعد الكاتب بضمه إلى الكتاب بعد الطبعة الأولى لكنه لم يظهر إلا فى الطبعة الرابعة بعد عشرين سنة.

وكانت أول حلقة تظهر فى الجريدة تحت عنوان "فترة من الزمن" هى ما تشكل الآن الفصل الأول فى الكتاب أو "العبرة" وقد ظهرت كمقالة افتتاحية على صفحة الجريدة الأولى(٩١) وبدأت بعبارة "حدثنا عيسى بن هشام.." وهى الصيغة المألوفة التى استعملها الهمذانى فى بداية كل من مقاماته التسع قبلها بقرون، غير أنه من المهم أن نعرف أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يحاول المويلحى فيها أن يكتب مقالات للصحف بذلك الشكل والأسلوب المحدد، ففى عامى ١٨٩٣ و١٨٩٤ كتب سلسلة من المقالات لصحيفة "المقطم" تحت اسم مستعار هو "البادى" مستخدمًا راوٍ ليقدم المناقشات الدائرة حول مواضيع مثل الرق ونشاطات المجلس التشريعى، وعندما أسس إبراهيم المويلحى "مصباح الشرق" فى ١٨٩٨ بدأ محمد سلسلة جديدة من المقالات بنفس الأسلوب ويهمنا على وجه خاص ملاحظة أن نفس العبارة التى استخدمها الهمذانى فى بداية مقاماته كانت تتصدر هذه المقالات أيضًا.

وكانت أولى تلك المقالات فى شكل محادثة بين بطرس باشا ومظلوم باشا وفوزى باشا يناقشون فيها حرب السودان والاحتلال البريطانى وإمكان شراء الأسهم فى

الشركات البريطانية[٩٢]، أما فى المقالة الثانية فيلتقى صحفى سافر للخارج بوزير الحربية المصرى وهو يقضى عطلة وعندما يسأله عن الأحداث الأخيرة فى السودان يكتشف أنه لا يعرف شيئًا ولا يهتم بمجريات الحرب[٩٣]، وتصف المقالة الثالثة مناقشة بين نائب عمومى نو ميل للتفكر وصديق له، ويحاول هذا الأخير بدون طائل أن يكتشف سبب انغماس النائب فى الفكر، ثم يعلن النائب فى النهاية أن كل مشاكله قد حلت: إذ على فخرى باشا أن يشغل ثلاثة مناصب فى آنٍ واحد (وهو ما يشير له عنوان المقالة "ثلاثة فى واحد وواحدٌ فى ثلاثة")[٩٤]. المقالة الرابعة (التى ظهرت فى "مصباح الشرق" قبل أسبوع واحد فقط من أول حلقات "فترة من الزمن") محادثة بين ثلاثة وزراء يتبين لهم أنهم مضطرون لركوب الترام أو الدراجات لأن مركباتهم قد صودرت[٩٥].

ويبدوأن لهذه المقالات الأدبية أهمية كبرى فى أى تقييم "لحديث عيسى بن هشام" وغرضه وأصوله، وقد ذكرنا فى الفصل السابق مجموعة من مصادر الإلهام المحتملة لتأليف هذا العمل كان أحدها التراث الصحفى ليعقوب صنوع وعبد الله النديم، وإذا حللنا كتابات المويلحى فى الإطار الصحفى سنجد أنه واصل ذلك التراث فى مقالاته "المقطم" وكذلك ناقش مشاكل حقيقية مستخدمًا شخصيات عامة حقيقية فى هذه المقالات فى "مصباح الشرق"، وبالإضافة إلى ذلك تعد هذه المقالات الأربعة باستخدامها لشخصية عيسى بن هشام كراوٍ بمثابة التمهيد لحلقات "فترة من الزمن"، وهى بظهورها قبل "فترة من الزمن" تدل على أن قراء "مصباح الشرق" كانوا قد ألفوا استخدام عيسى بن هشام كراوٍ يقدم مناقشات حول مواضيع محل اهتمام تجرى خلالها السخرية من أشخاص حقيقيين فى الحياة العامة، ومن المهم للغاية على ضوء مراجعات الكاتب لعمله التى نعالجها فى هذا الفصل أن نذكر أن الجوانب الحقيقية لتلك الحلقات كانت موجودة فيها وبادية منذ البداية.

ويمكن أن نسلط بعض الضوء على موقف المويلحى المبدئى من حلقات "فترة من الزمن" بالتذكير بأنه لم يتوقف عن كتابة مقالات كالأربعة المذكورة فيما سبق أو عن استعمال عيسى بن هشام كراوٍ فيها، فبين ظهور الحلقات المحتواة فى "حديث عيسى بن هشام" والتى تصور لجنة المراقبة ومحكمة الاستئناف نشرت مقالة بعنوان "التزام حكومة السودان" تشبه كثيراً ثانية تلك المقالات الأربعة من حيث إن أحد الصحفيين يزور وزير

الحربية ويسأل عن السودان[٩٦]، ومع ذلك كانت هذه آخر مرة يستخدم فيها المويلحي عيسى بن هشام كراوٍ مما قد يدل على تزايد ارتباطه بعمله الجديد ورغبته في ربط اسم عيسى ابن هشام به، وقد استعملت كل المقالات شبه القصصية حول الموضوعات الجارية والتي نشرت بعد ذلك في مصباح الشرق مقدمة في نوع آخر وكان لكل منها عنوان مستقل.

ونشرت حلقات "فترة من الزمن" أسبوعيًا مع انقطاع لمرة أو مرتين بدءًا من نوفمبر ١٨٩٨ وإلى يونيو ١٨٩٩، عندما نشر إبراهيم المويلحي ثلاث حلقات من قصته هو "مرآة العالم" في نفس الركن المهم من الصفحة الأولى، واستأنفت "فترة من الزمن" في ١٣ يوليو بأول جزء مما هو الآن الفصل الثالث والعشرون من "حديث عيسى بن هشام" الذي يصف زيارة إلى حفل زفاف، واستمر العمل بالحلقات التي تزار فيها مجالس متعددة[٩٧]، وبعد فترة لم تظهر فيها أية حلقات ظهرت أول حلقة فيها شخصية العمدة يوم ٩ نوفمبر عام ١٨٩٩[٩٨]، وتوجد فترة انقطاع طويلة دامت ثلاثة أشهر بعد الحلقة التي تصف زيارة صالة الرقص تستأنف فيها القصة بالحلقة التي يستعيد فيها العمدة ساعته وخاتمه بعد أن تركهما كرهن لمالك المرقص، وباستثناء هذه الانقطاعات في النشر نشرت باقي الحلقات المتضمنة الآن في نص الكتاب أسبوعيًا حتى يونيو ١٩٠٠.

ففي ذلك الشهر غادر المويلحي مصر برفقة الخديوي في زيارته الرسمية لإنجلترا، وفيما بين ٢٢ يونيو و٢٧ يوليو نشر إبراهيم خمسة حلقات أخرى من "مرآة العالم" قطعها في ١٣ يوليو وصفٌ بعث به محمد لاستقبال الخديوي في لندن، ثم سافر محمد إلى باريس وأرسل في الحال تقريبًا أول حلقات وصفه للعرض وقد ظهرت في ١٧ أغسطس، واستمرت الحلقات التي تشكل الآن الجزء الثاني من الطبعة الرابعة والطبعات اللاحقة ("الرحلة الثانية") في الظهور- مع بعض الانقطاعات الطويلة- حتى ديسمبر ١٩٠٢، وفي عام ١٩٠٢ وبعد عودة محمد من باريس وبينما كان يحرر "مصباح الشرق" نشر ثلاث حلقات أخرى تصف باريس وهي تناقش الأسلوب الفرنسي في الحكم بتفصيل كبير وإجراء المناقشات في البرلمان الفرنسي[٩٩]، وفي نهاية الحلقة الثالثة يرتب عيسى ورفاقه مع صديقهم الفرنسي زيارة لمجلس النواب ولكن لم تظهر بعدها أية حلقات في الجريدة.

ويظهر من عدم تردد المويلحى فى استئناف نشر حلقاته بعد توقف دام أكثر من عام بدون أية محاولة للربط أو لتلخيص ما سبق نشره أنه كان فى هذه الفترة على الأقل ينظر إليها كمقالات صحفية تقدم المعلومات وليست جزءًا من قص أكبر مخططًا له أن يوضع فى إطار عمل روائى.

الطبعة الأولى

ظهر "حديث عيسى بن هشام" فى هيئة كتاب عام ١٩٠٧ أى بعد إغلاق "مصباح الشرق" بأربعة أعوام وهى الجريدة التى نشرت فيها أجزاؤه لأول مرة، ويستحيل الجزم بما إذا كان المويلحى نفسه قد قرر نشر عمله فى شكل كتاب أم أن أصدقاءه أوحوا إليه بهذه الفكرة، ويبدو من المرجح على الأقل أنه بعد ظهور ترجمة فتحى زغلول لكتاب ديمولان تحت اسم "سر تقدم الإنجليز الساكسونيين" وظهور كتاب محمد عمر"حاضر المصريين وسر تأخرهم" حث أصدقاء المويلحى صاحبهم على وضع سلسلة حلقاته التى شابهت هذين الكتابين من الدراسات الاجتماعية إلى حد بعيد فى هيئة كتاب ذى شكل جذاب.

وأيًا كان الباعث وراء القرار انكب المويلحى على مهمة تحويل الحلقات إلى كتاب بعناية معهودة فيه وعدل فى عمله بحسم بالغ، ويقال إنه كان يعهد بمخطوطات الحلقات الأصلية إلى أصدقائه حافظ إبراهيم ومحمد البابلى ليدلوا بتعليقاتهم وانتقاداتهم، وتدل الطبعات المتتالية للعمل التى ظهرت فى حياة الكاتب على أنه راجع النص بدقة شاملة وقبل بنصيحة أصدقاءه فى عدة نقاط[١٠٠]، وتختلف الطبعة الأولى عن الحلقات الأصلية فى جانبين أساسيين: إذ تغير ترتيب الحلقات وحذفت بالكامل بعض أجزائها إما لعدم لياقتها أو لأنها أبطأت من إيقاع القص، ويشرح المويلحى هذه العملية فى مقدمة الطبعة الأولى (والتى لم يعاد طبعها فى الطبعات اللاحقة):

طبعت القصة فى هيئة كتاب بعد مراجعتها بعناية بكثير من التنقيح والتصحيح والتبديل والحذف والإضافة، فما تحتويه الصحيفة زائل لا يستمر إلا ليومه ولا يمكن أن يكون له مكان فى كتاب يسير مع مسار الزمن ويقرأ مرات ومرات".

ويصرف النظر عن الحلقة التى تعرضنا لها فيما سبق والمسماة "التزام حكومة السودان" يحدث أول تغيير رئيس فى الفصل الذى يتناول مهنة الطب والذى أعاد المويلحى كتابته بالكامل لوضعه فى الكتاب، وفى الحلقة المقابلة من "فترة من الزمن" يحضر عيسى عدداً من الأطباء ليفحصوا الباشا فى مرضه، ويحاول أحدهم علاجه بتحضير الأرواح بينما يأتى الآخر بعد انتزاعه من وسط لعبة الطاولة فى حين أن الطبيب "الدارس فى جامعات الغرب" يرسل أحد نوابه، وفى النهاية يعثر على طبيب كفء يعبر عن أفكاره حول نبل مهنة الطب واستغلالها على يد الأطباء الأدعياء، وهذه الأفكار تكرر وتفصل بشكل مختلف فى الفصل المقابل فى الكتاب.

ويحدث التغير التالى عن النص الأصلى فى الفصلين المعنونين "الطاعون" و "الوباء"(١٠١) وهما واقعتان نشأتا بسبب الطاعون الذى حل بالإسكندرية فى صيف ١٨٩٩ وتمثلان استمراراً لعملية إدخال أشخاص حقيقيين وحوادث حقيقية فى تلك المقالات كما كانت منذ بدايتها، وأول هذين الفصلين يتكون من دمج حلقتين من حلقات "فترة من الزمن" وإن كان الجزء الأكبر من أوليهما قد حذف تماماً، وفى هذه الفقرة الطويلة يضطر عيسى والباشا إلى مغادرة الإسكندرية لانتشار الوباء ويمضيان رحلة القطار العائد للقاهرة فى الاستماع إلى محادثة بين أربعة وزراء، ومن هذه الناحية يشبه شكل الحلقة إلى حد بعيد ما نجده فى الحلقة الرابعة من المقالات القصيرة التى نشرها المويلحى عام ١٨٩٨ فى "مصباح الشرق" والتى تناولناها فيما سبق(١٠٢)، وتنصب المحادثة على الأحداث الجارية وتتناول الطاعون فى الإسكندرية وأحداث السودان، لكن قسمها الأكبر يناقش اقتراح مجلس شورى القوانين بالسماح بانتداب قضاة المحكمة الاستئنافية إلى المحاكم الشرعية، ويطيل وزير الحربية الحديث عن العديد من الخطباء المشهورين فى التاريخ الإسلامى (مظهراً علماً عميقاً يشابه كثيراً علم الشيخ الذى يتحدث عن موضوع الغناء فى الفصل المتعلق بحفل الزفاف)، ويعدد وزير الحربية مزايا هذا الاقتراح ويدحض حجج معارضيه، ثم يأخذ وزير المالية فى سرد التفاصيل حول مرتبات القضاة لكن القطار يصل إلى القاهرة عند تلك النقطة، ويذهب عيسى والباشا إلى منزل عيسى وبينما يرتاح الباشا يخرج عيسى ومعه صديق إلى اجتماع ماسونى(١٠٣)، ويستمعان إلى المناقشات التى تدور بين مجموعة من قضاة محكمة

الاستئناف الذين ينتقدون قضاة المحاكم الشرعية و مشايخ الأزهر لأنهم يشككون فى أمانتهم الدينية ويرفضون جلوسهم للقضاء فى المحكمة الشرعية وينتهى الجزء فى توازن مع هذه المقولات بإيراد محادثة يناقش فيها عدد من المشايخ وظيفة القاضى والإصلاحات المقترحة للمحاكم الشرعية.

أما الفصل الثانى، "الوباء"، فلم يوجد على الإطلاق فى النص الأصلى لكنه يقوم على محتويات مقالة بعنوان "الأخلاق فى الوباء" نشرت فى "مصباح الشرق" فى سبتمبر ١٩٠٢، ولهذا فعندما يطلب عيسى من الباشا (فى نص الكتاب) أن يأذن له بقراءة مقالة صحفية حول موقف الناس من الوباء لا يعتبر هذا حيلة أدبية بل صحيح للغاية.

وهنا يتغير ترتيب القصص تماماً، فقد حذفت الحكاية التى تلى وصف الوباء بالكامل تقريباً فى نص الكتاب ولم يستعمل إلا القسم الأول منها وفى فصل متأخر كثيراً[١٠٤]، وباقى الحكاية يأخذ شكل مناقشة فيها "وطنيان" أحدهما دارس فى فرنسا والآخر فى إنجلترا ينضم إليهما تاجر وشيخ أزهرى، ويبدأ الوطنى الدارس فى فرنسا باتهام نظيره الدارس فى إنجلترا بأنه يتخذ الطاعون حجة لمنع المسلمين من أداء الحج إلى مكة ويؤيده فى هذا الرأى التاجر، ويذهب الشيخ إلى أن معاناة المصريين راجعة لتجاهلهم العلماء وعدم الاستماع إلى نصائحهم، ويستمر الوطنى الدارس فى فرنسا ليلقى اللوم على الإنجليز ويقارن بين حكمهم القمعى فى مصر والحكم الفرنسى "المتساهل" فى تونس والجزائر، وهنا يرد الوطنى الدارس فى إنجلترا بحديث مطول متعقل يدافع فيه عن الإصلاحات التى أدخلها الإنجليز والتى حسبما يقول تعرضت للشكوك دائماً، ويهاجم مشايخ الأزهر لمعارضتهم تحسين النظام القانونى المصرى، ويعترف الرجلان الآخران الأكبر سناً بأن حجج كلا الوطنيين تبدو فى نظرهما مقنعة، وتنتهى الحلقة بدعوة الوطنى الدارس فى فرنسا للرجلين أن يؤيدا القضية الوطنية مستشهداً من التاريخين الرومانى والعربى بأمثلة على الولاء للوطن[١٠٥].

ويبين لنا استبعاد هذه الفقرة ومعها ذلك المقتبس المذكور فيما سبق والذى يناقش فيه الوزراء الموضوعات الجارية نوعية المادة التى قرر المويلحى تنحيتها من نص حلقاته خلال عملية "الحذف" المذكورة فى مقدمة أول طبعات الكتاب، فهذه بالفعل أمور "عابرة"

يمكن تنحيتها لهذا السبب، ومع ذلك وإذا كانت هذه المادة لا تظهر فى نص "حديث عيسى بن هشام" فمن المهم أن نذكر أنها كانت موجودة فى الحلقات الأصلية لأنها تركز على الطابع الجارى والواقعى لعمل المويلحى الأصلى، وهو جانب ربما قضت عليه مراجعة وتنقيح الكتاب جزئيًا لكنه مازال موجوداً وإن بدرجة أقل فيما تبقى.

وعند هذه النقطة فى النص كانت الحلقات الأصلية قد أوقفت لتمكين إبراهيم المويلحى من البدء فى نشر "مرآة العالم" وعنوانها الجانبى "حديث موسى بن عصام"، وهو عمل يدين بشكله وأسلوبه بالكامل تقريبًا لحلقات محمد، ويصعب تصور أمر آخر لأن الأب والابن عملا معًا بشكلٍ وثيق، وقد نشر محمد فى"مصباح الشرق" الذى تلا آخر حلقة من حلقات إبراهيم أول الحلقتين اللتين تصفان الزيارة إلى حفل الزفاف وقد عُدِّلتا بالتفصيل قبل ظهورهما فى القصة المطبوعة فى هيئة كتاب(١٠٦).

ولا يظهر "الصديق"فى المحادثة الأولى حول اللياقة فى حفلات الزفاف بل يعبر عيسى عن رأيه وعيسى كذلك هو الذى يدلى بالفتوى المطولة حول الغناء(فى معارضة الشيخ فى النص الذى بين أيدينا الآن)(١٠٧)، وتبدأ الحلقة الثانية بهذا العرض الطويل لتاريخ الغناء فى الإسلام، ويفسر النص الأصلى الفاصل بين الحلقتين بذهاب الحضور إلى صلاة العشاء، وتبقى بجانب ذلك فوارق مهمة أخرى، فخطبة التهنئة التى نجدها قرب نهاية الفصل غير موجودة فى النص الأصلى ولا توجد فى النص الأصلى كذلك المحادثة بين الأب والابن حول غلبة الأنواق الغربية فى مصر، غير أن أصل هذه الفقرة الأخيرة يعود إلى مقالة صحفية فى متصباح الشرق بعنوان "حديث الفرح" نجد فيها قائمة مماثلة من الأسماء الفرنسية ومرادفاتها العربية للأغذية(١٠٨)، وتصف أولى هاتين الحلقتين زيارة زفاف تضم قسمًا كبيرًا حذف من نص الطبعة الأولى، وبين هذا الحذف أحد أهم الجوانب فى تعديل المويلحى ومراجعته للنص، إذ نجد فى هذه الفقرة وصفًا قادحًا للحكام الذين يجلسون فى هذه المناسبات ليتباهوا بأنفسهم وللأعيان والتجار الذين يحومون حولهم على أمل الحصول على بادرة تعارف يمكن أن يفخروا بها أمام زملائهم وخصومهم، ونلاحظ أن الفصل الذى يصف حفل الزفاف فى نص الكتاب (الفصل الثالث والعشرون) يأتى بعد مجموعة من الفصول يزور فيها عيسى والباحث مجموعات مختلفة من الناس فى "مجالسهم"(الحكام والأعيان والعلماء والقضاة والأمراء)

وهذه الجماعات توصف بالتفصيل فى حكاية الزفاف فى المقالة الأصلية فى "مصباح الشرق"، ولا يصعب تبين السبب فى هذا التكرار، ففى المقالة الأصلية يسبق وصف الزفاف زيارة "المجالس" الأخرى ويبدو من المؤكد لهذا أن فكرة تخصيص حلقة مستقلة لكل مجموعة من هؤلاء الناس طرأت على ذهن المويلحى خلال الكتابة عنهم فى حكاية حفل الزفاف، وعلى أى حال فإن الكثير من المادة المتعلقة بتلك الجماعات والتى استعملها المويلحى ليصفهم في حلقة الزفاف فى "فترة من الزمن" أدمجت فيما بعد فى الحلقات المنفصلة المخصصة لكل جماعة، ويبدو أنه عندما جاء الوقت لمراجعة نص الحلقات بكاملها لنشرها فى هيئة كتاب قرر المويلحي أن حلقته تلائم سير القصة بصورة أفضل لو وضعت بعد أوصاف الزيارات إلى المجلس المختلفة، وقد وضع الفصل المتعلق بالأدب (الفصل الثامن عشر) فى موضعه فى نص الكتاب.

وقد بدأت الزيارات إلى "المجالس" المختلفة فى الحلقات الأصلية بزيارة العلماء وقد ضُمت مع القليل جداً من التعديل (وإن أسقطت اثنتان منهما من الطبعة الرابعة كما سنرى)، كذلك حذفت بعض الإشارات للأحداث وبعض المشاعر المعادية للبريطانيين خلال عملية المراجعة غير إنها مجرد تفصيلات لاذعة وليست ضرورية لهيكل العمل العام فى الأماكن التى أسقطت منها.

قد وردت كل الفصول الباقية من الكتاب فى نفس ترتيب الحلقات الأصلية وقد نشرت كلها- باستثناء الفصل الأول الذى يظهر فيه "العمدة"- بصورة أسبوعية على مجموعتين تفصل بينهما ثلاثة أشهر(١٠٩) أما الفصلان المعنونان "العمدة فى الحديقة" و"العمدة فى الرهن" فقد ظهرا بعد انقطاع طويل فى النشر يتصدرهما تلخيص للأحداث الماضية، وتورد أولاهما تعليقات الباشا على زياراته للمجالس المختلفة وتقص الثانية سلوك العمدة فى قاعة الرقص.

والفوارق النصية فى الحلقات التى يظهر فيها العمدة ناجمة بالأساس عن الحذف وإعادة الترتيب، ففى نهاية الحلقة التى يقابل العمدة فيها الأمير مثلاً حذفت فقرة يشرح فيها عيسى للباشا الممتلئ فضولاً أن الأمراء لم يعودوا يعيشون فى قصورهم لأنهم ملوها ويفضلون العيش فى الفنادق والأكل والشرب فى الحانات، والفصل الذى تزور فيه الشخصيتان الرئيستان المرقص (الفصل الثامن والعشرون) هو أطول فصول الكتاب

وهو فى الحقيقة نتاج دمج ثلاث حلقات من "فترة من الزمن"، وهو بهذا الطول حتى بعد أن حذف المويلحى فقرتين طويلتين من ثانية وثالثة تلك الحلقات، وفى أوليهما يعبر "الصديق" عن اشمئزازه من الشعب المصرى عمومًا لعدم اكتراثهم بمشاكل الغير، ومن الحكومة على وجه الخصوص لأنها سمحت بوجود الحانات وأندية القمار وأماكن الدعارة فى العاصمة، أما الفقرة الثانية فتواصل وصف الراقصة وكيف تسحر لب العمدة، ويكتشف العمدة فى نهاية الفقرة التى تصف الزيارة للهرم أن ساعته سرقت مما يزيد من متاعب هذه الرحلة، ويقدم لنا وصف متحف قصر الجيزة بشكل مختلف (حيث يعكس ترتيب المحادثتين، وإحداهما بين أب وابن والأخرى بين عيسى والباشا و "الصديق".

وقد كانت الحلقة الأخيرة من "الرحلة الأولى" (كما يسمى المويلحى الجزء المصرى من "حديث عيسى بن هشام" فى الأسطر الأخيرة من الطبعات الثلاث الأولى) أطول كثيراً فى شكلها الأصلى كمقالة، وهى تصف عدة معارض أوروبية ثم تمهد السبيل لظهور حلقات "فترة من الزمن" من باريس بذكر تفاصيل التحضيرات لزيارة أوروبا وأسقطت هذه التفاصيل من نص الطبعة الأولى التى تنتهى بوعد بإضافة "الرحلة الثانية" إلى النص لو عاش الكاتب حتى ينجز هذا العمل(١١٠).

لقد حللنا بتفصيل العملية التى عدل بها المويلحى فى مقالاته الصحفية ليحولها إلى أشهر وأنجح أعمال الأدب العربى الحديث فى بواكيره لأنها تسلط الكثير من الضوء على موقفه من هذا العمل وغرضه وأفضل الطرق لتحقيق هذا الغرض، ويدل الشكل المفتت الذى ظهرت به الحلقات والفترة الطويلة التى نشرت خلالها على أن المويلحى لم يتصور العمل ككل، ويؤيد هذا الرأى قراره بعكس ترتيب بعض الحلقات قبل ظهورها فى هيئة كتاب، وبجانب ذلك يبدو أن الغرض الفنى كان دائمًا يخضع فى عملية المراجعة لهدف التصوير الواقعى وليس العكس مما يتجلى فى إمكانية حذف عدة فقرات من المقالات الأصلية، وعلى الرغم من أن المويلحى نجح فى إبعاد "الجوانب العابرة" والمتعلقة بالأحداث الجارية المباشرة فى المقالات قبل نشرها فى هيئة كتاب إلا أنه لم يتمكن من استئصال العنصر الصحفى بالكامل ولا دليل لدينا أنه كان يعتزم ذلك بالفعل. لقد ظل العمل بالأساس "حقيقة فى زى الخيال" كما قال هو فى مقدمته "لحديث عيسى بن هشام".

الطبعتان الثانية والثالثة

نشرت الطبعة الثانية من "حديث عيسى بن هشام" عام ١٩١٢ وهى لا تختلف عن الطبعة الأولى إلا من حيث إضافة المويلحى لمعجم فى نهاية الكتاب يشرح معانى مايزيد عن مائتى كلمة وردت فى النص، ويقول فى تصدير هذه الطبعة أنه راجع النص وأجرى بعض التصحيحات لكنها انصبت على تفاصيل صغيرة بينما ظل النص نفسه بلا تغيير تقريباً.

وظهرت الطبعة الثالثة عام ١٩٢٣ وأجرى فيها الكاتب بعض المراجعات للنص ويقول فى التصدير:

«قررت فى هذه الطبعة أن أقسِّم الكتاب إلى فصول مع وضع عنوان لكل فصل ووضعت شرح الكلمات فى الصفحات التى ترد فيها هذه الكلمات وليس فى نهاية الكتاب كما كانت فى الطبعة الثانية».

وخلال التقسيم إلى فصول قسمت حلقتان لتنتجا الفصل الرابع (محامى المحكمة الأهلية) فى حلقة "النيابة" والفصل السادس (لجنة المراقبة) فى حلقة "المحكمة الأهلية"، ولكن كما كانت الحال فى الطبعة الثانية لم تُجر تعديلات على النص الفعلى للكتابة.

الطبعة الرابعة والطبعات اللاحقة

اختيرت "حديث عيسى بن هشام" عام ١٩٢٧ لتكون نصًا مقرراً فى المدارس الثانوية، وأعد المويلحى طبعة رابعة لهذا الغرض(١١١)، وفيها يضيف أخيراً حلقات "فترة من الزمن" فى باريس والتى أصبحت تشكل الجزء الثانى من الكتاب "الرحلة الثانية" ولكنه أيضًا حذف بعضًا من أهم قطع النقد الموجودة فى الطبعات الثلاثة الأولى: أى الفصول التى تدور حول مشايخ الأزهر والأمراء، والنكات حول محمد على، والكثير من القطع الصغيرة من التعليقات السياسية والاجتماعية، و إذا كان الهيكل العام للعمل بقى على حاله تقريبًا، بعد تلك التغيرات إلا أن إدماج حلقات باريس قد غير من التركيز الخاص على مصر فى الطبعات الثلاث الأولى وترك لنا عملاً ذا هدف أوسع من طبعاته السابقة، وإن بكثافة نقدية أقل، ومع ذلك فإذا كنت اخترت الطبعة الثالثة للعمل لتكون

النص موضع الترجمة هنا فلابد من مناقشة الطبعات اللاحقة للكتاب لأنها الوحيدة المتاحة بسهولة لجمهور القراء الآن، بل إن طبعة الدار القومية المصرية لعام ١٩٦٤ هى الوحيدة الموجودة الآن (مع طبعة مطابقة نشرت فى بيروت) وإن كان يمكن العثور على نسخٍ متفرقة من الطبعات السابقة عند بعض المكتبات، وقد ظهرت "الرحلة الثانية" أصلاً تحت عنوان "فترة من الزمن" بعنوان فرعى هو "باريس" فيما بين أغسطس وديسمبر ١٩٠٠[١١٢]، وتصدرت الحلقة الأولى هذه الكلمات:

«هذه الحلقة الأولى من"حديث عيسى بن هشام" أرسلها لنا محمد المويلحى من باريس عن زيارته للمعرض هناك بعد آخر رسالة له (نشرناها فى أحد أعدادنا السابقة) التى وصف فيها زيارة الخديوى إلى انجلترا لمقابلة جلالة الملكة فى بلادها[١١٣]».

ويصف المويلحى فى الحلقات التالية والتى تمثل الجزء الثانى من الكتاب مدينة باريس بصورة سطحية مستخدمًا حيلة أحد المعارف وهو مستشرق فرنسى يلتقى به عيسى والباشا والصديق فى مقهى، ويوافق الفرنسى على اصطحابهم فى جولة بباريس، وتنهمك معظم الحلقات فى وصف معرض باريس نفسه، وتفرد التفاصيل الخاصة للتعليق على الجناح المصرى لكى يطالعها قراء "مصباح الشرق"، وفى فصلٍ يعكس اهتمامات الجزء الأول من الكتاب أكثر من أى من الفصول الأخرى- على الأقل من ناحية الاهتمام النقدى بالتفاصيل- يصف المويلحى الجناح المصرى الذى رفضت الحكومة رعايته تاركة إياه فى رعاية مجموعة من رجال الأعمال قرروا دعم الجناح الذى تكون من "كُتَّاب" يجلس فيه تلاميذ يحفظون القرآن بينما يضربهم معلمهم بسعفة نخل، وبجانب ذلك كان يوجد عرض للرقص الشرقى، ولا يصعب تخيل أثر صورة مصر هذه على المويلحى الذى كان يعى جيداً المزايا التى يمكن أن تقدمها الحضارة الأوروبية لكنه كان دومًا يعارض المحاكاة العمياء لكل ما هو غربى كما كان البعض من مواطنيه يرى ويفعل، وكتب هذا القسم مدفوعًا بمشاعر السخط والانزعاج بنفس روح الالتزام التى نجدها فى الجزء الأول من الكتاب والتى نفتقدها فى الأوصاف والمناقشات التى تشكل الأجزاء الباقية من "الرحلة الثانية"، ونجد هنا فقرات عديدة من النثر المسجوع بالغ البراعة والجمال تصف شوارع وأهل باريس والمتنزهات والأشجار (لأن المويلحى كان بستانيًا عريقًا على ما يظهر) والقصور والبيوت الكبيرة، ولكن لانجد مناقشة للتفاصيل الأدق للحضارة

الأوروبية وأسلوب الحياة الفرنسى مما قد نقارنه مع الصور شديدة الدقة و التأثير لمصر والمصريين التى نعثر عليها فى الجزء الأول من "حديث عيسى بن هشام"، والمقارنات التى تعقد بين الحضارة الغربية والشرقية بالغة العمومية ولا تبحث فى الموضوعات الاجتماعية كما يحدث فى أعمال الطهطاوى وعلى مبارك التى تعرضنا لها فى الفصل السابق، وكان الكاتب قد وعد منذ الطبعة الأولى بإدماج هذه الحلقات فى النص، وجاءت له الفرصة بنشر الطبعة الرابعة من "حديث عيسى بن هشام" كنصٍ مدرسى كى يُدْخِلها فى نهاية الجزء الذى يصف مصر وينتهى بالفصل الثالث والثلاثين "الحضارة الغربية"، وقد طرحت عدة تفسيرات بسبب انتظار المويلحى طويلاً قبل نشر حلقات باريس كجزء من النص فيقول زكى مبارك «إن الكاتب أدرك أن مستوى هذه الفصول أقل من نظيرتها التى تصف مصر ولذا قرر الانتظار حتى يزور أوروبا مرة أخرى ويكتب عملاً متميزاً يوازى ما كتبه فى الحلقات السابقة»، ويمضى مبارك فى القول: «بأن المويلحى تردد فى نشر وصفه لباريس لأن عدة كتب كانت موجودة بالفعل حول هذا الموضوع وكانت تعتمد على دقة الوصف أكثر من اعتمادها على لغة الأسلوب»(١١٤)، ومع ذلك فإذا وضعنا فى الحسبان أن المويلحى كان صارم الدقة فى مراجعة عمله تمهيداً لنشره وأنه كان حاد الانتقاء لأعمال الكتاب الآخرين(١١٥) يبدو من غير المحتمل أنه يقدم على نشر مايراه سيء المستوى، وقد يكون قرر(أو أشير عليه) أن نشر الكتاب كنص مدرسى فرصة ملائمة لإدخال تلك الحلقات التى تستخدم نطاقًا واسعًا من المفردات اللغوية مما يفيد التلاميذ بجانب تعريفهم على جوانب من بلد أوروبى وتقديم وصفٍ نقدى هادئ بعض الشيء لنواح فى بلدهم هم.

وهكذا فإن تقرير "حديث عيسى بن هشام" ككتابٍ مدرسى ونشر الطبعة الرابعة منه لهذا الغرض وسع من مجاله بينما قلل فى نفس الوقت من النغمة النقدية الموجودة فى الطبعات الثلاثة الأولى، وقد بقيت الانتقادات الموجهة للحكومة والموظفين والقضاة والمحامين وغير ذلك من المهن تقدم تعليقًا ونقدًا اجتماعيًا صادقًا كان موجوداً فى الكتاب منذ البداية لكن غياب الفصول المتعلقة بمشايخ الأزهر والأمراء يبدو كبادرة تنازل لتلك القوى فى المجتمع المصرى التى بدت لها هذه الفصول مفرطة فى النقد والتى قد تكون استغلت مناسبة تقرير الكتاب كنص للتلاميذ لتوصى بحذف الفصول، وهذا الرأى بالطبع

محض تخمين ولكن إذا تدبرنا فى جو الدسائس الذى عمل فيه- بل وازدهر- المويلحى يمكن بالفعل أن تكون هذه الظروف اجتمعت فى القرارات المؤدية لظهور الطبعة الرابعة فى شكلها المعدل.

ونشرت الطبعات الخامسة (١٩٣٥) والسادسة (١٩٤٣) والسابعة (١٩٤٧) بنفس النص الذى أضاف إليه ابن شقيق الكاتب مقدمة توضح تفاصيل حياته، وفى ١٩٥٩ أصدرت دار الهلال طبعة فى مجلدين فى سلسلة كتاب الهلال ضمت الفصول المستبعدة وإن كانت تحت عناوين مختلفة: فقد لقُب الفصل التاسع عشر "بالأزهر" بدلاً من "علماء الدين" ولقُب الفصل الثانى والعشرون "بالأسرة العلوية" بدلاً من "أمراء وأبناء الأمراء"، ومنذ ذلك الحين أصدرت الدار القومية طبعة جديدة (التاسعة) فى ١٩٦٤ تستخدم كذلك نص الطبعة الرابعة مع مقدمة جديدة كتبها على أدهم ومع عدد من الأخطاء المطبعية للأسف، وعلى ضوء التاريخ الطويل لنشر ذلك الكتاب فمن المؤسف أن هذه الطبعة هى الوحيدة المتاحة حالياً.

مصباح الشرق وحديث عيسى بن هشام

ويتضح من هذا التحليل لنص الكتاب أن الحلقات الأصلية "لفترة من الزمن" تختلف كثيراً عن نصوص "حديث عيسى بن هشام" وبالذات عن نص الطبعة الرابعة والطبعات اللاحقة، وقد اختار الكثير من النقاد تحليل الكتاب كعملٍ أدبى على أساس هذه الطبعات المتأخرة، ومن الطبيعى القيام بذلك فى التحليل الأدبى، ولكن يتضح من الأدلة التى سيقت فى هذا الفصل أن تجاهل الظروف التى ظهر فيها العمل منذ البداية فى "مصباح الشرق" يؤدى إلى سوء فهم قيمته الأدبية وكذلك إساءة فهم الغرض من وراء نشر العمل الكامل، ومن الضرورى لوضع هذا الغرض فى منظور أوضح أن نقدم بعض التفاصيل المتعلقة بالصحيفة التى نشر فيها.

وصفت "مصباح الشرق" نفسها فى صفحتها الأولى كصحيفة "للسياسة والأخبار والعلوم والأدب" وكانت فى أمور السياسة تروج لوجهة نظر معينة فى عدة قضايا جارية مهمة وتعبر عنها فى المقالات الافتتاحية التى تشابه كثيراً حلقات "فترة من الزمن"، وقد ذكرنا فيما سبق أن نص "حديث عيسى بن هشام" يقتبس مباشرة من مقالتين من تلك المقالات وإن كانت هذه عملية استمرت طيلة نشر حلقات "فترة من الزمن".

وكانت المقالات الافتتاحية للجريدة تدافع عن أربع سياسات(١١٦)، أولاً: فكرة الجامعة الإسلامية القائمة على الخلافة العثمانية، إذ احتوى كل عدد على تقرير من اسطنبول (وكانت تسمى بدار الخلافة) وكانت قصائد ومقالات التهنئة تنشر على الصفحة الأولى بمناسبة عيد ميلاد السلطان وعيد جلوسه، وبجانب ذلك ضمت المقالات الافتتاحية التى كانت تنشر فى ذكرى صدور الجريدة والتى كانت تعبر عن سياستها التحريرية إشارات متعددة إلى هذه الفكرة: "إن الطريقة الوحيدة لعلاج الضعف و الإنحدار الذى أصاب الشعوب الإسلامية هو ارتضاؤها الارتباط بالخلافة القوية والأمانة العظمى ووضعها نفسها تحت حمايتها(١١٧) وثانية السياسات هى: معارضة الاحتلال البريطانى لمصر ومعارضة خطط المستشارين البريطانيين فى الوزارات المصرية ومعارضة سيطرة البريطانيين على حكومة السودان، ومن هنا تابعت الجريدة عن كثب فى أعمدتها المواجهات المثيرة بين الفرنسيين والبريطانيين فى فاشودة كما نشرت التقارير عن حرب الترانسفال وانتقدت الجريدة الخطط "المغامرة" للمستشارين البريطانيين التى ناهضت المعتقدات الإسلامية أو العادات المصرية المحلية وسخرت منها، وعندما جمع المويلحى حلقات "فترة من الزمن" لنشرها فى كتاب أسقط معظم الفقرات الحادة العنيفة التى تعبر عن هذا المنحى فى سياسة "مصباح الشرق" التحريرية، وقد بقى بعضها فى الطبعات الأولى وإن كانت كل الإشارات إلى البريطانيين تقريبًا قد حذفت وحلت محلها عبارات مثل "من بيدهم السلطان"، وثالثة السياسات هى: التأييد المنتظم لآراء محمد عبده حول الحاجة لإصلاح الدين، وقد لا حظنا فيما سبق معرفة عبده بآل المويلحى، وعندما أعد عبده تقريراً حول أعمال المحاكم الشرعية نشرته "مصباح الشرق" على مدى عدة أعداد متتالية(١١٨)، وعبرت إحدى حلقات "فترة من الزمن" عن قضية المحاكم الشرعية هذه تعبيراً دقيقًا وإن كان الكاتب لم يضعها فى نص الكتاب (وهى الحلقة التى تصور مجموعة من "الوطنيين" المختلفين فى قطار والتى تناولناها فيما سبق وعلى الرغم من هذا الحذف فإن أفكار عبده حول الحاجة إلى إعادة تفسير التعاليم الإسلامية على ضوء الفكر الحديث تجد التعبير الواضح عنها فى عدة أماكن فى الكتاب(١١٩)، أما رابعة السياسات فهى مانجدها بالغة الوضوح فى نص «حديث عيسى بن هشام» ألا وهى: النقد الساخر فى تقليد المصريين الأعمى للعادات

الغربية غير المجدية بدون أى اعتبار لتمشيها مع الحياة المصرية أو ما إذا كان لها فائدة، والفصل الذى يصف زيارة الأفراد إلى نوادى القمار مثال جيد لمشاعر وفكر المويلحى حول هذه النقطة، وحتى إذا كان هذا الفصل قد حذف من النص بعد الطبعة الثالثة لا نزال نجد العديد من الأمثلة على السخرية الحارقة كما يحدث مثلاً عندما يقول أحد أصدقاء النائب فى أوائل النص أن أحد معارفهم قد انتحر لتوه لأن تلك هى آخر موضة فى باريس(١٢٠).

ومن أبرز الملامح فى "مصباح الشرق" هو نشر "فترة من الزمن" فى أعمدتها الطريقة التى تعبر فيها الحلقات تعبيراً قوياً عن الأحداث التى توردها الصحيفة نفسها، وقد ذكرنا فيما سبق أن وقوع الطاعون حفز المويلحى على كتابة مقالة تدعو إلى ضرورة اتخاذ الاحتياطات (وقد أدمجت فيما بعد فى نص الطبعة الأولى من الكتاب، وهناك أمثلة كثيرة أخرى لمقالات تتناول موضوعات نوقشت فى حلقات القصة، ففى سلسلة تحت عنوان "مصر وحدها" نجد مقالة تصف عادات الزواج وكيف تغلغلت السلوكيات الأوروبية فى تلك المناسبات وهذه المقالة تناظر الفصل الثالث والعشرين من "حديث عيسى بن هشام المعنون" «الزفاف»(١٢١) وتشير مقالة أخرى بعنوان "العادة محكمة" إلى الفارق بين الشريعة وقانون نابليون كما تشير مقالات أخرى إلى إغراءات البورصة والأموال الطائلة التى يخسرها الأمراء والأغنياء فيها(١٢٢)، ومن أهداف النقد الدائمة نجد الأزهر ورفضه تغيير موضوعات الدراسة التقليدية به ونجد صدى المواقف الغريبة لشتى الحضور فى مجلس "علماء الدين" (الفصل التاسع عشر) فى مقالة عنوانها "العلم فى الإسلام" يعلق فيها المويلحى على موقف المشايخ من الحساب والجغرافيا وغيرها من "العلوم الحديثة"(١٢٣) ويعبر المويلحى كذلك فى مقالاته القصيرة عن آرائه حول هذه السياسة كما نجد فى مقالة زيارة متحف قصر الجيزة (التى يعنون الفصل الحادى والثلاثين باسمها) والتى يحتج فيها على ذكر أسماء المعروضات بالفرنسية وليس بالعربية(١٢٤)، ويبدو واضحاً من هذا العرض لنشر مقالات المويلحى أن الهدف الرئيس لنشر "فترة من الزمن" هو تمكينه من مناقشة القضايا الجارية من خلال شخصيات قصته والتعبير عن سياسة الجريدة التحريرية تجاه مواضيع عدة، ويظهر حسب تصديره لكتاب "حديث عيسى بن هشام" أن هذا فى نظره كان أهم وظيفة للقصة، إذ كتب يقول:

«وحتى إذا اتخذت هذه الصورة شكل الخيال والرمز فهي صورة حقيقية لبست ثوب الخيال وليست خيالاً تشكل بصورة الحقيقة وقد حاولنا استخدامها للتعليق على أخلاق وأحوال أهل اليوم وذكر العيوب التي يجب تجنبها في شتى الطبقات والفضائل التي يجب أن تنمى»(١٢٥).

ولابد من الإشارة إلى أن التركيز على الطابع الواقعي للكثير من مضمون "حديث عيسى بن هشام" لايقلل بحال من قيمة العمل الأدبية أو يناطح مكانته في تاريخ الأدب العربي الحديث، إذ كان المويلحي يكتب لقراء مثقفين (كما أشار هو نفسه في هجومه على «علي يوسف» وصحيفة "المؤيد" كما شهدنا في الفصل السابق حول سيرة حياته) وكان يعي تماماً قيمة عمله الأدبية ومما يدل على أن اهتمامه بالتعبير عن سياسة الجريدة التحريرية لم يكن هدفه الوحيد هو تصديره لكل فعل بفقرة من السجع وكثرة استخدام المفردات التي حتمت إضافة معجم لفظي للطبعة الثانية، وكان معنياً بكتابة عمل يكسبه شكله وأسلوبه قيمة أدبية حقيقية، ونجح المويلحي بهذا الهدف المزدوج في كتابة عمل فريد في أهميته الأدبية والاجتماعية معاً على الرغم من أن الجانب الأخير لم يحظ بالاهتمام كالجانب الأول في كتابات النقاد العرب والغربيين(١٢٦).

لقد سقنا الأدلة في هذا الفصل من جريدة المويلحي لإظهار صلة مضامين "حديث عيسى بن هشام" بالأحوال المعاصرة كما نراها من خلال سياسات ومقالات "مصباح الشرق" وتبادل الحقيقة والخيال بين الحلقات والمقالات، ويعني الفصل القادم بالعمل كقطعة من الأدب في محاولة لوضعه داخل سياقه الملائم في عملية التجديد الثقافي في العالم العربي عموماً وتطور النثر الروائي على وجه الخصوص.

تقييم أدبى

البناء

استخدمنا "حديث عيسى بن هشام" فى شكلها الأصلى فى الفصل السابق للوصول إلى استنتاجات حول هدف الكاتب فى تأليف العمل والأولويات التى وضعها للجوانب الحقيقية والخيالية فى عمله، ومع ذلك فعلى الرغم من شعورنا بأن بعض المحللين قد قللوا فى قيمة التركيز الواقعى للعمل فى محاولة لتحديد مكان له فى تاريخ الرواية العربية الحديثة إلا أن عناية الكاتب بالأسلوب وبضرب من البناء فى عمله يدل على أنه كان يسعى لتأليف عملٍ ذى خصائص أدبية جلية[١٢٧]، ومن هنا يحلل هذا الفصل "حديث عيسى بن هشام" كعملٍ أدبى من زوايا مختلفة: البناء ورسم الشخصيات والأسلوب.

والجزء الأول من "حديث عيسى بن هشام" فى شكل جولة بأحياء مختلفة من القاهرة وضواحيها تقطعها زيارة للإسكندرية، وهو يبدأ بمقدمة مسجوعة خلابة يلقيها الراوى: عيسى بن هشام الذى يبلغنا أنه شاهد نفسه فى حلم يسير فى مقابر الإمام الشافعى يتأمل فى غرور البشر عندما انفتح أحد القبور فجأة وظهر منه شبح أحمد باشا المنيكلى وزير الحربية فى عهد محمد على [١٢٨]، ويطلب الشبح من الراوى المرعوب أن يبلغه باسمه وتفاصيل أخرى ثم يأمره بأن يصحبه إلى منزله، وبهذه الطريقة يقدم المويلحى الشخصيتين الرئيستين فى العمل، واستخدام الحلم كسياق للحدث يضفى المصداقية والإقناع على ظهور الباشا بهذه الطريقة، بل و ربما كان يمكن تبرير بعض الروابط الواهية فى القصص بصورة أفضل لو استخدم المؤلف فكرة الحلم بشكل أكثر(بإمكانات العودة للماضى وتغيير الموقف بسرعة) ومع ذلك فهو لا يذكر مرة أخرى أن الراوى يحلم ويبدو أنه كان يميل إلى نسيان أو إغفال الطريقة التى يبدأ بها عمله، والأهم فى هذا الإغفال هو أن الباشا لا يعود إلى قبره فى نهاية الجزء الأول (أو حتى الثانى) من الكتاب، وهكذا يبقى القارئ فى نهاية العمل متحيراً بين خطين لا نهاية لهما فالباشا لا يدفن والحلم لاينتهى، ومع ذلك فإن مثل هذا النوع من التحليل يتضمن نقداً

للكتاب باعتباره وحدة كاملة بينما من المؤكد بصورة معقولة أن المؤلف لم يتصور عمله ككل عندما بدأ في نشر الحلقات، ولابد أن الاستمرار في نشر الكتاب اعتمد في البداية على إقبال قراء "مصباح الشرق"، وقد أعقبت عدة حلقات من "فترة من الزمن" سابقاتها بعد انقضاء شهر على الأقل، وإذا كان هذا لايعني بالضرورة أن أفكار المويلحي قد نفدت إلا أننا نلاحظ أن الحلقات التي كانت تظهر بعد تلك الانقطاعات كانت تتسم إما بالبراعة اللفظية في فقراتها المسجوعة(١٢٩) أو بإدخال عنصر جديد مدهش إلى القص(١٣٠)، وقد تمكن المويلحي إلى درجة لافتة للنظر من استئصال أبرز هذه الملامح في قصه الأصلي بالحذف الماهر وإعادة الترتيب وإعادة كتابة النص قبل نشره في هيئة كتاب، و لكنه يبدو أن مشكلة إعادة دفن الباشا لم تطرأ على ذهنه خلال مراجعته الدقيقة للعمل.

ويأخذ المويلحي مباشرة بعد تقديم قراءة للباشا وعيسى في الفصل الأول في التوجه لغرضه الرئيس، إذ يزعج أحد الحّمارين الشخصيتين فيضربه الباشا ويلقى القبض عليه ويؤخذ إلى قسم البوليس، ويتمكن المؤلف بهذا أن يصف عملية القانون المدني بأسرها في نظامها الجديد ويركز على عيوبها(١٣١)، وتجبر الحاجة للبحث عن الرزق الباشا للسعي وراء مصدر للدخل، ثم يجبره البحث عن الوقف الذي تركه بعد موته ومحاولات استعادته من أحد أقرباءه البخلاء على الدخول في مجالات المحاكم الشرعية، ويعطي هذا الفرصة للمويلحي كي يركز على الفوضى والفساد الذي يسم هذه المؤسسة في زمنه إذ يتعرض الباشا لحيل شتى موظفي المحاكم الشرعية ويصل إلى اليأس بعد فشل محاولاته لاستعادة أملاكه، ويمرض نتيجة لكل هذا مما يجعل المويلحي يحول اهتمامه من النظام القضائي المصري إلى نواحٍ أخرى من المجتمع.

وتظهر الفصول التي لخصناها حتى هنا في الكتاب في ترتيبها الأصلي، ويدل هذا على نوع من الإحساس بالرضا عن الجزء الأول من الكتاب بالنظر إلى العناية التي أبداها في مراجعة نص عمله والطريقة الحاسمة التي أعاد بها كتابة حلقات بأكملها، فقد حذفت فقرات معينة ولكن لأغراض غير أدبية كما قسمت حلقتان طويلتان لتحتل كل منهما فصلاً خاصًا بها، ومع ذلك يظل ترتيب الفصول كما هو ويستمر القص فيها من فصل إلى آخر متماسكًا كبناء بصورة رائعة، إذ تنخرط الشخصيتان الرئيستان بنشاط في صدر القص بينما تشكل الفقرات التي يستخدمهما الكاتب فيها لتوجيه التعليقات

الانتقادية لما يرياه جزء مقنعاً من البناء وإن بالغ التفصيل فى بعض الأحيان، ولايعنى هذا بطبيعة الحال إنكار أن بعض الملامح البنائية التى اتضحت فيما بعد فى الكتاب كانت موجودة بالفعل فى تلك الفصول، وتوجد أدوات أدبية فجة توجه بها القصة فى اتجاه معين مثلما يقرر عيسى فى بداية الفصل الثالث ألا يخبر الباشا بمرور جيل كامل منذ وفاته حتى يمكن استخدامه لمقارنة الحقبتين، وفجأة تتولد عدة ثقوب للمفاتيح فى الأبواب ومخابئ يمكن منها الاستماع إلى المحادثات[١٣٢] وتظل مشكلة استعادة الوقف بلا حل مع تحرك القصة لتقص وقائع مرض الباشا ووباء الطاعون ولكن على الرغم من هذا تشكل الفصول الأربعة عشر الأولى بناًء قصصياً متماسكاً إلى حد معقول وهو ما يدل على معرفة الكاتب الوثيقة بالموضوع الذى يناقشه والسرعة التى كتبت بها الحلقات، ومع وضع هذا التقييم لتلك الفصول فى الاعتبار من المهم أن نلاحظ أن الفصل التالى فى الكتاب المعنون "الطب والأطباء" (الفصل الخامس عشر) يختلف تماماً عن النص الأصلى، ولم يذهب المويلحى فحسب إلى إعادة كتابته لكنه كذلك أعاد ترتيب بعض الفصول التى تلته لكى يحافظ على ضرب من الاستمرارية فى القص، ومن هذه النقطة فصاعداً تقل مشاركة الباشا وعيسى فى القص إلى أن يصبحا مجرد متفرجين دورهم الوحيد نقل الحدث من موقفٍ إلى آخر والإبلاغ عما يرياه ويسمعاه، وتسقط مشاركتهما النشطة فى أحداث القصة التى كانت تميز الفصول الأولى وتزودها بالخيط القصصى، بل إنه حتى ظهور شخصية العمدة لايكاد القص يبدى اهتماماً بالشخصيات على الإطلاق، ويصبح كل فصل وحدة منفردة يعالج فيها المؤلف موضوعاً معيناً أو ينتقد مؤسسة معينة، ويساعد الباشا وعيسى على نقل السيناريو من موضع إلى آخر، ومع ذلك فبينما يشكل النظام القانونى المصرى وإصلاحه الخلفية العامة للفصول الأولى حيث تشارك الشخصيتان فى الأحداث والمناقشات التى تجلى جوانب مختلفة من الموضوع الرئيس للقص نجد أن الكاتب يعتبر موضوعات الفصول "الوسطى" محددة المدى بحيث لا تناقش إلا فى فصل واحد لكل، ومن هنا تظل الشخصيتان الرئيستان خارج الحدث إلى حد ما ويتسم القص بعدم الترابط، وعلى الرغم من وضوح الضعف البنائى فى هذه الفصول على الفور إلا أن المويلحى يتمكن من الإبقاء على خط قصصى واهٍ، وإن غير مقْنع، بإعادة الترتيب وإعادة الكتابة للحلقات ببراعة وبعد أن يشخص الطبيب مرض

الباشا بدقة ويناقش أخلاقيات مهنة الطب يوصى بأن يقضى مريضه فترة نقاهة، وخلال وجود الشخصيتين فى الإسكندرية يسمعان عن وباء الطاعون ويضطران للعودة إلى القاهرة، ويبقى خط القص ساكنًا تقريبًا على مر الفصول الثلاثة التالية بينما يقص المويلحى المناقشات التى تدور حول الطاعون وموقف الناس منه، ثم يمضى ليظهر معرفته العميقة بالأدب العربى من خلال راوى القصة، ويحتوى أول هذه الفصول على جزئين كبيرين من تاريخ الجبرتى بينما يتكون الثانى أساسًا من مقالة مأخوذة من "مصباح الشرق"، ويقرأ عيسى والباشا فى الفصل الثالث الأدب والفلسفة ثم يناقشان أسباب قلة قراء الكتب فى مصر رغم توفر الكتب.

و"الاستراتيجية القصية" فى هذه الفصول تتلخص فى توفير الوقت لنقاهة الباشا، وما إن يسأل عيسى عن إمكان مواصلة البحث إلا ويزوران سلسلة من المجالس تناقش فيها مجموعات متنوعة من الناس الأحداث الجارية المهمة ويكشفون عن مواقفهم منها، وتقل جدًا الأحداث التى تدخل فيها الشخصيتان الرئيستان فى هذه الفصول الأربعة والفصل التالى لها الذى يتناول حفل الزفاف، ومع ذلك تكتسب وحدة بنائية بفضل استمرارية القص وتشابه الموقف من الجماعات على اختلافها، ويتضح من الفقرات التى حذفت من الحلقات الأصلية عند وضع الكتاب أن المويلحى قد خطط لتتابع الحلقات ككل، ويبدو عيسى والباشا عند تلك النقطة وقد تسمرا فى دور المستمع الصامت بينما تجرى أحداث القص أمامهما، ومع ذلك تختلف هذه الفصول مرة أخرى عن الفصول الأربعة التى تسبقها مباشرة، صحيح أن الحدث القصى يظل على أدنى مستوى لكن المويلحى يستخدم شخصياته الآن لغرضٍ مختلف فبينما كانت الشخصيات تستخدم فى الفصول السابقة كأدوات لبث المعلومات أو الإقتباس من أعمال الأدب والتاريخ نجد أن الشخصيات المركزية فى هذه المجموعة من الحلقات تكشف عن اتجاهاتها الخاصة وترسم الصور لنفسها من خلال محادثاتها مع بعضها. والأمثلة على هذه المعالجة الدرامية، أو "التمثيل" بدل "السرد"، نجدها فى الفصول العنيفة التى يصف فيها مشايخ الأزهر والأمراء، والمعلومات التى يقدمها أحد المشايخ حول موضوع الجغرافيا موجودة لتؤدى غرضًا يختلف عما نجده فى الأقسام السابقة حول الطاعون والطب من حيث إن الطريقة التى يقدم بها الشيخ "معلوماته" تقول لنا الكثير عن نفسه وليس عن موضوع

حديثه، والشخصيات لاتظهر فى هذه الفصول سوى مرة واحدة مما يحرمها من فرصة إظهار أى شىء إلا أكثر صفاتها سطحية، وفى الحقيقة توضع هذه الشخصيات فى إطار صورة جماعية تكشف فيها العيوب والمثالب النمطية لكل جماعة فى مناقشات تضم بعضاً من أعنف سخرية المويلحى وأشدها وقعاً، وهى من هذا الناحية مادة جيدة تصلح للنشر في صحيفة تحوى مناقشات للقضايا الجارية، ولكن مما يشى بعدم وجود أية إستمرارية حقيقية فى القص عند هذه النقطة هو قدرة المويلحى على تغيير ترتيب الفصول بالكامل ثم قيامه فيما بعد بحذف أعنف فصلين منهما من نص الطبعة الرابعة.

ويختلف الفصل الثالث والعشرون (الزفاف) عن هذه الحلقات إلى حد ما وهو بمثابة حالة خاصة، فهو حاصل اندماج لحلقتين طويلتين، أضف إلى ذلك أن إعادة ترتيب الحلقات التى ألمحنا لها فى الفصل السابق حتمت إعادة كتابة عدة أجزاء، بل لقد قرر المويلحى أن يدخل مقالة أخرى فى "مصباح الشرق" ومعها قصيدة شعرية طويلة. ويخبر عيسى الباشا فى بداية الفصل أنهما سيزوران «الحفل الذى يجمع فى ذاته كل أنواع الحفلات الأخرى»[١٣٣]، ولكن وضع حفل الزفاف فى نهاية المجالس الأخرى التى نوقشت لتوها هو أحد نواتج مراجعة الكاتب للعمل، فوصف حفل الزفاف فى الحلقات الأصلية موضوع بعد حلقة الطاعون ومضت فترة تزيد على الشهر قبل ظهور الفصل التالى (وهو الفصل الثامن عشر حول الأدب)، وفى الحقيقة فإن فصل الزفاف هو مزيج وهذا أمر لا يدهش على ضوء المصادر المتنوعة التى استمد منها والطريقة الصارمة التى عدلت بها بعض أجزائه، إذ أضاف المويلحى مقالة صحفية ومحاكاة ساخرة لقصيدة الهنئة إلى تاريخ الغناء فى الإسلام ومحاكاة ساخرة للخطبة الفصحى وهما كانا بالفعل جزءً من الحلقات الأصلية، كذلك عدل الكاتب من أوصاف جماعات التجار والحكام والتى كانت بالتأكيد الأسس لقيام فصول كاملة (١٩-٢٢) تصف هذه المجالس التى أصبحت الآن فى نص الكتاب تسبق وصف الزفاف، وصحيح أن الجزء المتعلق بتاريخ الغناء يدل على علم واسع لكنه بالغ الطول فى سياق وصف حفل الزفاف بينما تعد الخطبة والقصيدة محاكاة ساخرة بارعة لأسلوب أدبى معين، غير أن وضع هذه المواضيع المختلفة فى فصل واحد يدل على العيب الرئيس فيه: فهى ليست مدمجة فى سير أو تدفق القص بل إن سير الحدث إلى الأمام يخضع للبناء الذى تفرضه هى.

وفى نشر الحلقات ظهر الفصل الثانى من الكتاب بعد فترة انقطاع طويلة ظهرت خلالها حلقات قصة «مرآة العالم» لإبراهيم المويلحى، ويطلب الباشا فى القسم الافتتاحى أن يبحثا فى كل جوانب المجتمع عن كثب، ويوافق عيسى فى نهاية الأمر على أن يأخذه إلى حدائق الأزبكية، وربما كان المويلحى يعترف خلال مطلب الباشا هذا بالحاجة إلى مزيد من الحركة فى القصة، ويبدأ الرجلان ببحث الأسباب التى تحدو بالمصريين إلى تجاهل الطبيعة، ثم يلاحظان ثلاثة رجال يتناقشون بالقرب منهما، وهنا يتعرف القارئ فى أول حلقات سلسلة من التنصت المواتى على شخصية العمدة ورفيقيه المفترسين: الخليع والتاجر، وحيث إن اسم العمدة يظهر فى عناوين ثمانية من الفصول التسعة التالية فإن هذا دليل ظاهرى على العودة إلى وحدة أكبر فى الاستمرارية القصصية وإن كانت هذه الفصول لا تستعمل الأسلوب الفنى الذى استخدم فى الفصول الأولى التى تصف النظام القضائى لكنها تعتمد أسلوباً مختلفاً يجمع جوانب من مجموعات الحلقات المختلفة التى عرضنا لنا فيما سبق.

وعلى الرغم من زيادة الحدث القصصى الذى نلاحظه فى هذه الفصول يظل الباشا وعيسى فى الخلفية كمتنصتين مناسبين لا تراهما الأعين أحياناً، وإلا فكيف استطاع عيسى وصف نهاية حلقة المرقص وقد غادره الجميع ويمكِّن ظهور صديق عيسى فى قاعة الرقص الكاتب من أن يخرج عيسى والباشا من ركنهما لكن العمدة ورفيقيه يظلون الشخصيات الأساسية فى القصة حتى آخر فصول الكتاب ويدور القص حولهم، وتشبه هذه الفصول حلقات المجالس من حيث أن المحادثات فيها (والتى يدل تزايدها بوضوح على زيادة اشتراك الشخصيات فى الحديث) هى أكثر من عملية سؤال وجواب ذات طرفين وهى تقول للقارئ الكثير عن شخصية المتحدث وموقفه من شتى الموضوعات. وهكذا فإن الفصول التى تصف أفعال العمدة الغريبة تجمع بين التصوير الواقعى للموقف وبين أحداث القص وهو ما لاحظناه فى الفصول "القانونية" مع وجود درجة من التشخيص فى الشخصيات الثلاثة الرئيسة تسمح بظهور نوع من الكوميديا الأخلاقية تجتمع فيها كفكرتين مترافقتين البسخرية من التقليد الأعمى لعادات الغرب والصدام بين عادات الريف والمدن، وهذا ما يجعل هذه الفصول أكثر فصول الكتاب تأثيراً من الناحية القصصية البحتة.

والبناء القصصى الأساسى الذى تقوم عليه هذه الحلقات هو رغبة العمدة الريفى فى إمتاع نفسه فى مراتع القاهرة المتدنية والطريقة التى ينجح بها رفيقاه فى جعله ينفق الأموال الطائلة لتحقيق هذه الغاية وهما فى نفس الوقت يسليان أنفسهما، ومن هذه الناحية يعد هذا وسيلة واضحة لتحقيق رغبة الباشا المعلنة فى رؤية كل جوانب المجتمع المصرى وإن كان يظهر أن المويلحى قد تداخل بشدة مع شخصياته الجديدة والفرص التى أتاحوها للسخرية من سطحية استيراد الأفكار الغربية إلى حد أنه تجاهل شخصيتيه الرئيستين تقريباً.

وعندما يقابل عيسى والباشا الرجال الثلاث لأول مرة نجد أن هؤلاء يبحثون عن صحبة نسائية، ومع فشلهم فى العثور على فتيات فى حدائق الأزبكية يقرر الخليع ترتيب موعد مع فتاة فى مكان منعزل ويترك رفيقيه فى ملهىً بينما يذهب لعمل الترتيبات، ويخسر العمدة والتاجر المال فى الملهى، وخلال خسارتهما للمال يدخل المويلحى محادثتين قصيرتين تبينان حيل سماسرة البورصة ووكلاء المحامين، وعندما يعود الخليع بعد ترتيب الموعد تذهب المجموعة إلى مطعم ومنه إلى حانة، ويزداد العمدة سُكْراً وتصل كوميديا الأخلاق إلى ذروتها مما يعطينا بعض أكثر فقرات الكتاب فكاهة، وفى الحقيقة، فإن سرعة وذكاء المحادثة بجانب أفعال المشاركين فى هذين الفصلين هى من سمات الحوار الدرامى كما أن المحادثات تجرى بضمير المتكلم ولا يقصها الراوى.

ولا يلحق الرجال الثلاثة بالموعد مع الفتاة لأنهم يتأخرون فى الحانة حيث يسعدهم الحظ بلقاء أحد الأمراء، ويقررون البحث عن الصحبة النسائية فى مكان آخر ويتجهون إلى قاعة الرقص، والفصل الذى يصف ما يحدث لهم هو أطول فصول الكتاب ويشبه فصل الزفاف من ناحية الطول والشكل العام، والمحادثة فيه أقل حيوية مما نجد فى محادثات الفصلين السابقين كما إنها لا تقتصر على العمدة ورفيقيه الذين يظلون فى مقدمة الحديث، لكن الكاتب يستغل قدوم صديق آخر لعيسى كفرصة لتحريك الباشا أكثر إلى المقدمة لكى يعلق على الأحداث التى يراها حوله، ويقدم الوصف الحى لأداء الراقصة ملامح شخصية تؤثر على مسار القصة حتى نهاية الكتاب لأن العمدة يفتن بها بالكامل، ويعد وصف المويلحى للمرأة وعرضها الراقص البذىء والمسف أحد أروع الأوصاف فى الكتاب، وتتسم الفقرات الوصفية التى تشغل قسماً كبيراً من هذا الفصل بالفطنة فى

استخدام اللغة مما يعوض جزئيًا عن الافتقار إلى حيوية المحادثة فى الفصلين السابقين.

ولكن على الرغم من الطريقة الحية التى رسمت بها خلفية هذا الفصل ومع المحادثات ذات الهدف الأخلاقى بين عيسى وأصدقائه ثم تعليقات إضافية يدلى بها ضابط بوليس حول سوء استغلال الوقت والسلطة(١٣٤) يدخل المويلحى كذلك العمدة ورفيقيه إلى الأحداث فى نهاية الفصل، إذ يتمكن الخليع من إقناع الراقصة بالمجيء إلى مكان جلوسهم ولكن ميعاد إغلاق المحل يحين بمجرد قدومها وإن كان هذا الوقت كافياً كى يفتن العمدة بها، ويقع العمدة فى المزيد من المتاعب نتيجة الحاجة ويضطر إلى رهن ساعته وخاتمه إلى أن يحضر المال الذى يعوض به التلف الذى أحدثه، ويمثل هذا فرصة للمويلحى كى يفحص جانبًا آخر من عالم القاهرة السفلى وهو دنيا المرابين وهنا نجد مرة أخرى أن مغامرات الرجال الثلاثة تشكل موضوع فصل بأكمله، وهناك تركيز أكبر على المحادثة منه على مجرد الوصف فى هذا الفصل والفصل التالى، وإن كان العمدة يدلى فى الفصل الأول بخطبة طويلة يخبر فيها رفيقيه عن خداع المرابين له بينما تبدأ حلقة الأهرام (الفصل الثلاثون) بمناقشة قصيرة بين الباشا وصديق عيسى حول الغرض من بناء الأهرامات، ويعقب ذلك قسم بديع من إدعاء العلم زيفًا حيث يسرد التاجر تاريخاً للأهرامات ليتظاهر أمام رفيقيه.

والفصل الوحيد الذى لا يظهر فيه العمدة ورفيقاه فى متتالية الفصول التسعة المذكورة فيما سبق يرد هنا ويصف زيارة لمتحف قصر الجيزة، وقد لاحظنا من قبل أن المويلحى أعاد ترتيب نظام هذه الحلقة، ومن هنا فإن إدخالها وسط الفصول التى يمثل العمدة فيها الشخصية المحورية يدلنا على آرائه فيما يتعلق بالحفاظ على استمرارية القص، وربما يكون المويلحى قد قرر بعد تتابع طويل من الحلقات التى تصف غرائب العمدة أن الأمر يتطلب نوعًا من التغيير أو الانقطاع على الأقل، وبجانب ذلك فإن المناقشة بين الصديق وعيسى والباشا حول استغلال الاكتشافات الأثرية وتعليق الأب والابن على المعرض (المتحف) يتصلان من ناحية السياق بموضوع محبب لقلب المويلحى ألا وهو استغلال الأجانب لمصر وثرواتها، وأياً كان الدافع الذى حدا بالمويلحى إلى وضع ذلك الفصل فى تلك النقطة فى الطبعة الأولى فإن القص يترك خاملاً إلى أن تتجمع الشخصيات الرئيسة فى المسرح.

ومع ظهور الفصل الأخير الذى يظهر العمدة فيه و رفيقاه تصبح حلقة المسرح دراسة مشوقة من حيث إنها تعتمد على الوصف على حساب المحادثة مما يمثل تأرجحاً آخر فى أسلوب القص الذى نراه فى هذه الفصول، وإذا وضعنا ذلك فى الاعتبار فإن الأحداث فى المطعم والحانة (الفصلين السادس والعشرين والسابع والعشرين) يبدوان فى خلوهما التام من مواعظ الباشا وأصدقائه كمجرد هزل (فارس) مسرحى محض، ويعمل المويلحى فى هذه الحلقة على أن يتميز العمدة ورفاقه (بمن فيهم الراقصة) بين الجمهور فى المسرح لكنه بعد ذلك يتجاهلهم حتى نهاية الفصل، وفى نفس الوقت يقدم لنا وصفاً رائعاً لمسرحية رديئة الوضع وعرض ردىء لها تعقبه مناقشة بين عيسى وأصدقائه حول مزايا المسرح وعدم تمشى جوانب عدة منه مع العادات الاجتماعية المصرية، وكان إبراهيم ومحمد المويلحى يدعوان إلى الحرص فى تقبل الثقافة الغربية فى مصر وكان من المحتم أن ينتهز محمد هذه الفرصة ليعبر عن آرائه حول المسرح. ولسوء الحظ فإنه فى ذلك يدفع بالعمدة ورفاقه إلى الخلفية كما فعل بعيسى والباشا فى الحلقات الأولى من تلك المجموعة من الفصول وعندما يستدعى العمدة ورفاقه ثانية إلى الحكاية يصف أفعالهم مستعملاً ضمير الغائب ثم يرسل بهم إلى قسم الشرطة.

ظهرت هذه الحلقة فى يونيو ١٩٠٠ وظهر فى الشهر نفسه إعلان فى "مصباح الشرق" يعلن عن قرب رحيل محمد المويلحى إلى لندن وباريس، وربما كان هذا هو السبب غير الروائى فى الإبعاد الفجائى للعمدة ورفيقيه وكذلك لوصف الحضارة الغربية (فى الفصل الثالث والثلاثين) الذى ينتهى به الجزء الأول من "حديث عيسى بن هشام"، ويجرى عيسى والباشا فى النسخة الأصلية الاستعدادات لزيارة أوروبا ويناقشا التكاليف المطلوبة ويمثل هذا نقطة انتقال ملائمة بين الحلقات التى تجرى فى القاهرة وتلك التى أعقبتها مباشرة من باريس، ومع ذلك فلا يمثل هذا الفصل فى شكله المختصر الحالى نهاية مرضية لوصف القاهرة من ناحية البناء القصصى، بل هو ملخص طيب للمناقشات بين الباشا وعيسى (ثم مع صديق الأخير) والتى تظهر فى كل الفصول تقريباً من حيث أن المويلحى يعبر من خلال الصديق عن اعتقاده بتقبل أهل الشرق لأفكار الغرب بدون فحص قيمتها الحقيقية، ومع ذلك تشكل هذه المناقشات جزءً فقط من البناء القصصى

للفصول، أما عن الجوانب الأخرى فهذه الخاتمة غير مقنعة، وحتى لو قبلنا بأن رحلة عيسى والباشا المتوقعة تجمد مسألة إحياء الباشا فى الوقت الراهن فإن تضاؤل الاهتمام السريع بشخصية العمدة الذى قام بالدور الأساسى فى الحلقات السابقة جرت معالجته بشكل سيء ويؤدى إلى إنهاء القص فى العمل بصورة مفاجئة.

والانطباع الرئيس الناتج عن هذا التحليل لبناء «حديث عيسى بن هشام» هو أن العمل يظل واضح الهوية، ككتابة صحفية رغم المراجعة الدقيقة التى أجراها المويلحى والهادفة فيما يبدو لإخراج قصة متماسكة بصورة أكثر إقناعًا مما يوجد فى الحلقات. وصحيح أنه يمكن تتبع خط قصصى على مر الحلقات لكن الروابط بين أجزائه واهية إلى حد أنها لا تظهر تقريبًا، وقد جمعنا فى هذا التحليل بعض الفصول فى مجموعات لأنها تناقش نفس الموضوع من وجهات نظر مختلفة وتستخدم أسلوب قص متشابه أو تصور سلسلة من أفعال مجموعة من الشخصيات، ولكن الفصول تحتفظ بسمات فردية حتى فى داخل تلك المجموعات وهو دليل آخر على أصول العمل، إذ كانت كل حلقة هى المقالة الافتتاحية فى الجريدة وتعكس ما يُكْتب فى المقالات الأخرى، ومن المحتم والحالة هذه أن تتبدى فى تلك المجموعة من المقالات خلافات فى المنهج تعبر عن مواقف ومزاج المويلحى خلال فترة العامين التى نشرت فيها.

رسم الشخصيات

كان من الضرورى فى تحليل هيكل العمل الإشارة إلى الشخصيات من حيث تأثيرها على القص واستمراريته، وسوف نبحث فيما يلى الشخصيات المركزية ونناقش الكيفية التى تتفاعل بها مع بعضها البعض، ولعل هذا يمكننا من تحديد نوعية هذه الشخصيات بسهولة أكثر ونخرج من هذا بتحديد لنوعية العمل الذى تظهر فيه.

إن أهم شخصية فى العمل هى الباشا[١٣٥] لأنه بمجرد ظهوره فى القصة حسب وصف الراوى يصبح (أو يصبح فضوله ورغبته فى التعلم) سبب وجود العمل نفسه، وتدين كل الشخصيات الأخرى- باستثناء الراوى عيسى- بظهورها إلى أن هذين الرجلين يقومان بسلسلة من الزيارات فى القاهرة ويزوران المؤسسات والأماكن التى تقوم فيها هذه الشخصيات بأدوارها، ومن هنا يبرز الباشا على رأس قائمة الشخصيات وإن كنت أتساءل حول فاعلية دوره فى القص كما سيلى.

يعتمد النقاد الذين يشيرون إلى "حديث عيسى بن هشام" كنموذج للرواية الناشئة فى الأدب العربى أو إلى أنها تحتوى على توجهات روائية على شخصية الباشا أساساً لدعم مقولتهم، إذ يقول على الراعى مثلاً :"إن الباشا شخصية تتميز عن الشخصيات الأخرى من حيث إنها تتطور فهو يبدأ جاهلاً غبياً ذا ضغينة ولا يستطيع فهم أى شىء أو يرغب فى ذلك لكنه يتطور بطريقة تدهش عيسى"(١٣٦) ولكن هل تتطور شخصية الباشا حقًا؟ من الصحيح أنه يظهر فى بداية العمل مغروراً يتوقع أن يطاع بلا قيد أو شرط، وصحيح كذلك أن عيسى يصف التحول فى مزاجه بملاحظة أنه دهش:

«من الهدوء المستكين والصبر الذى لا حظته فى الباشا بعد أن كان ذا ضغينة سريع الغضب يسعى لقتل أى شخص جزاء أقل هفوة أو بأقل حجة، لقد أصبح وديع الطبع متواضعاً صبوراً يمكن التفاهم معه بعد أن مر بسلسلة من الكوارث»(١٣٧).

ولكن هل يدل هذا على أى "تطور" حقيقى للشخصية على الأقل إذا قبلنا برأى هنرى جيمس بأن الشخصية "بأى معنى نحدده لها هى الحدث والحدث هو الحبكة"(١٣٨) وتُرسْم صورة الباشا فى بداية الكتاب من خلال اتصاله الأول ومحادثته مع الراوى، لكن أى تغيرات فى موقفه تحدث لاتوصف فى القصة بل فقط يقدمها الرواى كأمر واقع وذلك فى مناسبات عدة يحلل فيها أفعال واستجابات الباشا، ومرة أخرى من الصحيح أن غطرسة وشراسة الباشا تؤدى إلى المثول أمام المحاكم الأهلية كما أن اضطراره إلى كسب العيش يؤدى إلى رفع قضية أوقاف لدى المحكمة الشرعية. والباشا هو الشخصية الرئيسة فى هذه الحلقات (باستثناء مكتب سجلات المحكمة الشرعية" الفصل الثانى عشر")، ومع ذلك رغم انخراطه النشط فى القص تتحدد وظيفته فى مجرد أنه وعاء يمكّن عيسى من نقل المعلومات عبر عملية من الأسئلة والأجوبة حول المؤسسة المعنية التى هما فيها وأنه يوضح الإجراءات المختلفة المتبعة بخضوعه لها، إنه مجرد أداة تقديم المعلومات حول ما يحيط به، ولا تهتم القصة بالأثر الذى تتركه المعاناة على نفسه إلا من ناحية تلخيص تغير موقفه بالصورة التى شهدناها فيما سبق.

والباشا متداخل فى الحدث كأكثر ما يكون فى الفصول الأولى، وحتى بعد مرضه ونقاهته يستخدم كرفيق للراوى يتحلى بحب الاستطلاع لكنه لا يكاد يشترك فى الحدث

القصصي، ويصعب في هذه الظروف أن نتصور حدوث تغير ظاهر في الشخصية، ولا يحدث هذا التغير فعلاً، وفي الحقيقة فإن هدف الباشا هو تصوير رد فعل فترة أكثر إقطاعية في طابعها (كما يصفها محمود شوكت) للعصر الحديث[١٣٩]، وبصرف النظر عن الخصائص النمطية التي توصف فيه عند بدء الكتاب لا يوجد في القصة ما يسمح له بأن يتصرف أو يكون له فعل بطريقة تؤدي إلى الكشف عن مزاجه باستثناء التظاهر وسرعة الغضب التي نراها فيه عند بدء ظهوره ثم اعتدال مواقفه بعد سلسلة من المصائب.

ويعلن عيسى في بداية الفصل الثالث من الكتاب عن اعتزامه استخدام الباشا للمقارنة بين عهدين من التاريخ المصري: عهد محمد علي (الذي عاش فيه الباشا) والعهد الحديث (الذي يجد الباشا فيه نفسه الآن رغماً عنه)، وينطق عيسى والباشا باسم العهد الذي ولدا فيه، وعيسى بن هشام بالطبع اسم يعرفه كل قراء الأدب العربي الكلاسيكي كراوٍ لمقامات الهمداني، ومن الواضح أن المويلحي أراد باختياره أن يلفت نظر القراء إلى العلاقة مع ذلك النوع الأدبي السابق ودور الراوي فيه، وعندما يسأل الباشا في الفصل الأول من "حديث عيسى بن هشام" عن اسم ومهنة الراوي يرد عليه عيسى بأنه "كاتب مبدع" وعلى الرغم من أن هذا الوصف أقل وضوحاً مما استعمله صديق المويلحي حافظ إبراهيم لوصف نفسه في "ليالي سطيح"[١٤٠]، فليس ثمة شك كما يظهر من آراء عيسى في العمل أنه لا توجد مسافة قصصية تذكر بين "شخصية" عيسى كراوٍ مشارك في الحدث وبين المويلحي نفسه، وبهذا يحذو المويلحي حذو الهمداني ويبدي جوانب من الفن القصصي تجلي بعض المبادئ التي عبر عنها إي. إم. فورستر في وصفه للطرق المختلفة التي يمكن لكاتب القصص أن يستخدم الموقف بها، إذ يقول فورستر: "يمكن للكاتب إما أن يصف الشخصيات من الخارج كمراقب محايد أو قد يدعي العلم الكلي ويصفها من الداخل، أو قد يضع نفسه موقع أحدها ويتظاهر بأنه لا يعلم دوافع الباقين، وهناك مواقف أخرى تتوسط بين هذه المواقع"[١٤١] ومما يدل أيضاً على قرب آراء عيسى من آراء المؤلف قدرته على التعرف على اللكنة الباريسية للغة الفرنسية وإسرافه في مديح الخديوي السابق إسماعيل الذي أحسن كثيراً لأسرة المويلحي[١٤٢]، بل وكان من المحتم إلى حد ما على ضوء أن معظم الكتاب يتألف من مقالات تعبر عن السياسة التحريرية

لمصباح الشرق أو تساندها أن يتوحد عيسى بن هشام "كمتحدث باسم الجريدة" مع من بعثه مرة أخرى فى العصر الحديث.

وقد أعاد المويلحى فى مراجعته للحلقات توزيع خطبتين طويلتين فى القصة إلى شخصيات أخرى مما غير من صورة راويه بصورة مهمة، إذ كان عيسى فى الأصل وليس الشيخ هو الذى تحدث مطولاً عن تاريخ الغناء فى فصل "الزفاف"، وقد يكون هذا العرض للمعرفة العلمية بالتاريخ الإسلامى بل والأوروبى طابق بين عيسى وبين المؤلف بصورة أكبر أو نسب إليه درجة من العلم لا تظهر منه فى أى مكان آخر فى القصة، وربما كانت الخطبة الأخرى أكثر أهمية، فعيسى فى النص الأصلى هو الذى يلقى بالهجوم المدمر على طبقة الباشا فى نهاية الفصل السابع ("محكمة الاستئناف") بينما يلقى الخطبة أحد المحامين فى الكتاب، ومع ذلك فالنسخة المعدلة لهذه الفقرة ليست مرضية، لأنه بعد أن يعبر الباشا عن غيظه من تعليقات المحامى (التى ألقاها عيسى فى الأصل) يمضى المويلحى ليجعل عيسى يلقى خطبة لا تقل تنفيراً ويعبر عن آراء لا تقل إيلامًا للباشا عما ألقاه المحامى، وفى الحقيقة لا يترك المويلحى عيسى ليكون مراقبًا وراوياً محايداً وإنما يستخدمه ليعبر عن أفكاره هو وأفكار أساتذته، ففى الفصل الخامس ("المحكمة الأهلية") مثلاً يصبح عيسى داعية متحمساً لأفكار محمد عبده حول ضرورة إصلاح الشريعة على ضوء أحوال الحياة العصرية، وفى موضع لاحق من الكتاب عندما يتبع عيسى والباشا العمدة ورفيقيه إلى الحانة ويشاهدان عدداً كبيراً من السياح يصفهم عيسى بأسلوب عنيف يعبر عن آراء لجمال الدين الأفغانى حول الأثر الضار للإمبريالية الأوروبية على الشرق الأوسط، ودور عيسى هو أن يُرى الباشا– كممثل للحقبة الإقطاعية– جوانب متعددة من العصر الحديث لكنه يفعل ذلك من وجهة نظر معينة، وكما رأينا فيما سبق لا يتفق عيسى على الإطلاق مع كل شىء أتى به العصر الحديث إلى مصر، كما لا يتفق مع الكثير من المواقف التى يتخذها الباشا فى خلال الجزء الأول من الكتاب وفى الحقيقة يرى أن "الإصلاح يجب أن يعنى إحياء كل ما هو صالح فى طريقة الحياة القديمة مع إدخاله إلى أفضل جوانب الحياة العصرية"(١٤٣)، ويستخدم المويلحى عيسى فى الفصول الأولى من الكتاب ليعبر عن آرائه هو حول النظام القانونى الجديد، ولكن عندما لايشغل الباشا الوضع المركزى فى الحدث يتراجع عيسى إلى الخلفية ويسلم الكثير من دوره كمعلن عن الأحداث الاجتماعية إلى "صديقين".

والصديق الذى يقع على عاتقه الدور الأكبر من بين "الصديقين" يظهر أولاً فى الفصل الذى يصف الزيارة إلى قاعة الرقص (الفصل الثامن والعشرين)، وكان عيسى قد التقى بالفعل أحد أصدقائه فى حفل الزفاف وطلب منه أن يجيب على أسئلة الباشا لكن المويلحى تخلص منه فى نهاية ذلك الفصل، ويظل هذا الصديق الثانى مع عيسى والباشا حتى نهاية الجزء الأول من "حديث عيسى بن هشام" ثم يصحبهما فى رحلتهما إلى باريس، وعندما يلتقى عيسى مع الصديق فى المرقص يعبر عن دهشته لوجوده فى مثل ذلك المكان لكنه يشكر الله الذى "وضعه لنا فى هذا الوقت ليفسر أشياء كثيرة غمضت علينا ولا نفهمها"، ويؤدى ظهور الصديق إلى خروج الباشا من الخلفية التى أزاحته إليها مجموعات الشخصيات فى "المجالس" (الفصول من التاسع عشر إلى الثانى والعشرين) والتى أزاحه إليها أيضًا العمدة ورفيقاه، غير إنه كما يتضح من مناقشات الصديق مع الباشا أن وظيفته لا تختلف عن وظيفة عيسى كما إن رسم شخصيته ليس أكثر إقناعاً من رسم شخصية الراوى المشارك نفسه، بل إن وجود الصديق يجعل وجود عيسى غير ضرورى فهو يستخدم فقط لتهيئة المنظر، صحيح أنه (أى عيسى) يتناقش مع الباشا لفترة قصيرة حول المسرح لكن الصديق هو الذى يلخص الموقف فى خطبة طويلة يعبر فيها بدقة عن آراء المؤلف حول استيراد العادات والأفكار الأوروبية: "إن ما يراه الغربيون نافعًا ليس بالضرورة أن يكون نافعًا للشعوب الشرقية لأنهما يختلفان فى الكثير من النواحى المتنوعة"[١٤٤]، وهكذا يبرز الصديق كشخصية أخرى يستخدمها المويلحى للتعليق على شتى القضايا، ومبرر إدخاله فى القصة هو أنه أكثر علمًا من عيسى فى وصف جوانب معينة من الحياة يبحثها الاثنان، غير أن هذا لايجعل وجوده فى القص أكثر إقناعًا، فهو يظهر كعيسى والباشا مجرد أداة يحركها الكاتب بلا أدنى اعتبار لرسم الشخصية، بل إن ظهوره يدفع بعيسى إلى الخلفية أكثر مما كان.

وقد لاحظنا فى مناقشتنا لبناء الكتاب أن ظهور العمدة ورفيقيه، يمثل مرحلة جديدة فى القصة، فعلى مستوى النقد الإجتماعى يستخدم الكاتب هذه الفصول لتبيين بعض أنواع العبث التى تنتج عن نقل ومحاكاة العادات الغربية، كذلك تُبْرِز هذه الفصول العمدة كممثل للأرياف المصرية وتناقض قيمه وعاداته الريفية مع عادات المدينة كما يمثلها الخليع الذى يُظْهِر أسوأ ما فى الفرد الذى تتسلط عليه فكرة خصائص الحضارة

الغربية، وبجانب هذه التباينات الاجتماعية المهمة فإن الحلقات التى يظهر فيها العمدة تتميز بزيادة ملحوظة فى أحداث القصة، ولاحاجة بنا للقول أن هذا الملمح يظهر فى الحيوية التى يجرى بها تصوير الشخصية، وبالإضافة إلى ذلك فحتى على الرغم من أن المشاركين فى الحدث يظلون مجرد صور كاريكاتيرية أو نمطية بدون أى تطور حقيقى فإن كوميديا الأخلاق المسرحية تسمح بظهور خصائص إنسانية فيهم يجرى تجاهلها فى تلك الفصول التى يركز فيها المؤلف على الموضوع قيد البحث أكثر من تركيزه على التصوير المقنع للشخصيات.

وكما ألمحنا فيما سبق يبدو من المحتمل أن المويلحى استقى فكرة تخصيص فصول لزيارة المجالس التى تجتمع فيها مجموعات من مهن مختلفة من فقرة كان قد حذفها من فصل سابق، ومن المحتمل على ضوء هذا أن فكرة شخصية العمدة قد جاءت من فقرة فى الفصل الثانى والعشرين ("الأمراء وأبناء الأمراء") الذى يصور محادثة بين الأمراء فى نادٍ إذ يقول أحد الأمراء: "هل كان أحد من أسلافنا يتخيل أن العمد الفلاحين الذين كانوا كالغنم فى أيامهم ولم تكن عندهم فكرة عن الحياة فى هذا العالم سوف يتمكنون الآن من إنفاق أموالهم على حسابنا ويزاحموننا فى المجالس"(١٤٥). وكما هى الحال بالنسبة لتصوير شخصية العمدة فى الفصول اللاحقة من العمل يصور هذا الوصف نظرة "المدينة" المتظاهرة بالرقى لموظفى الأرياف، وهذا الصراع بين تعقد المدينة المتوجه للغرب وسذاجة الموظف الريفى هو أساس تصوير المويلحى لشخصيتى الخليع والعمدة.

وعندما تظهر شخصية العمدة لأول مرة فى القصة يكون العمدة قد أتى من قريته حيث يحظى بالنقود و يمتلك الأراضى، وقد قدم إلى القاهرة ليمتع نفسه لكنه يقع فى براثن الخليع والتاجر، ويعيش ضحية الخداع والغش فى كل خطوة على يد الخليع الذى يبدوأنه يثير فى المويلحى نفس المشاعر التى يثيرها فيه المحامى الشرعى، فهدفه الوحيد فى القصة هو استغلال سذاجة العمدة لأغراضه. ويظهر أن غرضه الرئيس فى الحياة هو: "لاتبال بالآخرين ولا بالإنسانية عموماً، اخطف متُعَك بجرأة وعزم، إن الوقت الوحيد المتاح للإنسان قصده هو المتعة، وإذا لم يمسك به الإنسان يترك الحياة خاوى اليدين"(١٤٦).

ويقع التاجر بين العمدة والخليع الأريب وهو يمتلك حانة ومحلج قطن فى بلدته، ويجعله الكاتب يدلى بتاريخ مضحك للأهرامات كما أنه متلهف قدر تلهف العمدة على مقابلة الأمير فى الحانة، لكن موقفه من العمدة غير متسق فالخليع مثلاً ينظر لرفيقيه على السواء كصيد سانح وهو دائم التدبير للخدع والتفكير فى لعبها على التاجر والعمدة[١٤٧]، وفى إحدى المراحل يبدو التاجر مستعداً لجعل العمدة يدفع فواتيره وعندما يقترض العمدة المال منه يطالبه بكتابة صك للدين، غير إنه يساعد العمدة عندما تنشب مشاجرة حول الراقصة فى قاعة الرقص ويقرضه المال بشروط ميسرة ويعترض على شروط المرابين أصدقاء الخليع ثم يطلب من العمدة أن يحتفظ معه بنقود الدين إلى أن يعيد إليه الصك، غير إن الخليع سرعان ماينهى هذه التصرفات الشريفة[١٤٨]، وهكذا يظهر أن التاجر موضوع فى نقطة ما بين النقيضين اللذين يمثلهما العمدة والخليع؛ وهو فى الجوهر ضحية الخليع مثل العمدة ولكن يبدو أن المويلحى سمح له أن ينغمس فى خداع من صنعه هو.

وهكذا يبرز العمدة ورفيقاه كأكثر الشخصيات إقناعًا عمن يظهرون فى الحلقات المتتابعة، ولكن نجد كذلك أن بعض الشخصيات الصغرى التى لا تظهر إلا فى حلقة معينة تصور بنجاح مماثل حتى وإن كانت مجرد أشكال نمطية، وأكثرها إقناعًا تلك الشخصيات المرتبطة بمهنة القانون وهو ما لايدهش إذا تذكرنا أن المويلحى ووالده قضيا فترة من حياتهما الوظيفية يعملان فى النظام القانونى الجديد، ويصور المويلحى المحامى الشرعى ووكيله ببغض ينم عن مشاعره تجاه أمثالهما فى مهنة القانون، وهدف أمثال هؤلاء هو تكوين الثروات وليس مساعدة موكليهم وهم يفسرون روح ونص الشريعة بما يناسب أغراضهم، ويشبههم النائب العمومى وأصدقاؤه الناعمون (الذين يستخدمهم المؤلف ليسخر من المحاكاة العمياء للعادات الأوروبية) والشرطى الذى يحصل على "نصيبه" من البائعين وهو يشرف على لوائح الموازين والمعايير وكاتب الدفتر خانة الذى يتمكن من العثور على أية سجلات وسط فوضى الأوراق إذا دفعت له الأموال التى يرتضى.

وهؤلاء الموظفون نماذج من أشكال مختلفة من كل نواحى الحياة تدخل إلى القصة، ومن غيرهم نجد البائعين والوكلاء والسماسرة والكتبة، وكلهم يظهرون فى

الأماكن المعينة لهم فى القصة حيث تتجلى فيهم الخصائص التى يريد الكاتب إظهارها ثم يختفون، أما الأنماط الأخرى كالمشايخ والتجار والقضاة وحتى الأمراء فهم يعاملون بصورة أكثر تفصيلاً بل ونجد فى القصة أكثر من نموذج لكل منهم، ولكن سواء أُظهروا كأفراد أو كمجموعة فإنهم يظلون مجرد صور كاريكاتيرية تعبر عن مهنتهم.

ويتضح من هذا التحليل لأنماط رسم الشخصيات أن المؤلف لم يبذل جهداً يذكر فى تغيير المعالجة التى يستخدمها فى رسم الشخصيات فى حلقات القصة الأصلية، فالشخصيات فى الكتاب خاضعة لهدف المويلحى الإصلاحى وهى تظهر و تختفى بما يلائم غرضه فى النقد الاجتماعى، ولا يحدث أى تطور حقيقى لأى من الشخصيات التى يدخلها المويلحى إلى القصة صحيح أن قدرته على تصوير عيوب ومفاسد صغار الموظفين فى مصر تظل مؤكدة لكن الشخصيات التى يستعملها فى سبيل ذلك مجرد أنماط لا أكثر.

الأسلوب

يبدو من المعقول على ضوء استخدام المويلحى لعيسى بن هشام، راوى مقامات الهمذانى، فى عنوان كتابه أن نفترض أنه رمى إلى إيجاد صلة مع نوع المقامة فى كتابته لحلقاته، وبجانب استخدام اسم عيسى ابن هشام ودوره كراوٍ مشارك فإن أكبر نقطة تشابه هى فى استخدام السجع، ويظهر المويلحى تمكنه من اللغة العربية فى الكتابة بالسجع ببراعة وقوة كما يظهر تغيراً فى النظرة إلى تراث المقامة، إذ بعد العبقرية اللغوية فى مقامات الحريرى لجأ الكُتّاب إلى أسلوب السجع كوسيلة لاستعراض اللغة وجمع غريب الألفاظ لأغراض معجمية، وكما رأينا فيما سبق يعلن اليازجى والشدياق فى مقدمة أعمالهما أن هذا هو أحد الأهداف الأساسية عندهما، أما فى "حديث عيسى بن هشام" فيُستخدم السجع دائماً تقريباً فى تصدير الفصول ووصف المنظر الذى تلعب فيه الشخصيات أدوارها، وعادة ما تكون الفصول التى تحتوى على السجع فى أواسطها مكونة من إدماج حلقتين على الأقل من "فترة من الزمن"[١٤٩]، ومن هنا فدور السجع فى العمل وصفى بالأساس؛ إذ يتبين غرام المؤلف بوصف الطبيعة فى الفقرات التى تتعرض لمناظر طبيعية أو وصف ضواحى الإسكندرية فى الفصل السادس عشر ("الطاعون")

والحديقة فى الفصل الرابع عشر ("بيت حفيد الباشا") بما تحتويه هذه الأوصاف من صور جميلة وأبيات من الشعر، أما الفقرات الأخرى التى تتعلق أكثر بالنقد الاجتماعى فتتم بوضوح مدهش فى التفاصيل وعبقرية فى اللغة. ويقدم لنا وصف الشارع الذى يعيش فيه المحامى الشرعى صورة بارعة لحارة حقيرة، ونجد فى الصورة التى تقارن بين الذباب الذى يغطى وجه طفل وحجاب المرأة نصاعة أخاذة تدل على عناية المويلحى بالتفاصيل، ويشبه هذا الأسلوب افتتاحية الفصل المتعلق بالمحكمة الشرعية (الفصل الثالث عشر) الذى تتكون فيه من وصف النسوة المتشاكسات وحشد الناس صورة واقعية عن الفوضى التى تحيط بهذه المؤسسة، كما تشبه تلك الفقرات التى تصف حلبة المرقص وحركات الراقصة العاهرة التى يصورها المؤلف بتفصيل حى بل وحتى داعر، وهذه الفقرات وأمثالها نماذج لاستخدام المويلحى البارع للغة لكنها بالإضافة إلى ذلك ترسم المنظر بصورة مقنعة، وحتى مع تراجع عيسى إلى الخلفية فى القسم الأكبر من الكتاب تسمح له استراتيجية الكاتب القصصية بأن يصور الجوانب المادية أو المكانية من تلك الخلفية ببراعة ودقة فائقتين، وعادة مايضع المويلحى فقرة فى السجع فى بداية كل فصل (أو بالأصح بداية كل حلقة فى الأصل) ثم يغير الأسلوب إلى النثر العادى الذى يحتوى مع ذلك على عناصر عامية أو الأساليب الصحفية الأقل رسمية، وكانت كتابات "مصباح الشرق" كلها تتسم بأسلوب عربى سليم فصيح ولم تشذ حلقات "فترة من الزمن" عن ذلك إلى حد أن هذا التألق اللفظى (بجانب الخيط القصصى- مهما كان واهيًا- الذى يربط الحلقات) يكسبها مكانة أدبية أعلى من المقالات السابقة فى هذا المجال والتى كتبها يعقوب صنوع وعبد الله النديم(وقد ناقشنا الإسكتشات الساخرة والمتسمة كثيراً بالنقد الجارح عند كلا الرجلين فيما سبق)، ويتمكن الكاتب فى إطار هذه الكتابة النثرية من تحقيق قدر من التنوع إما بصياغة عباراته وجمله بطرق مختلفة أو بالمحاكاة الساخرة العمدية لأساليب أخرى، ويضع المؤلف عادة المناقشات الطويلة للأحوال والإصلاحات الاجتماعية فى أسلوب نثرى يقارنه عبد المحسن طه بدر بأسلوب الجاحظ[١٥٠]، ومن الأمثلة الجيدة على هذا الأسلوب المناقشة بين الباشا والطبيب فى الفصل الذى يدور حول الطب (الفصل الخامس عشر) وفيه يجرى التعبير عن آراء الطبيب فى أسلوب نثرى جزل يتم بعدم وجود جمل طويلة معقدة والاتجاه لتفكيكها إلى

عبارات ذات أطوال متنوعة تختتم بالسجع أحيانًا، وقد يصح القول إنه حتى عندما كان المويلحى يكتب بأسلوب نثرى أدبى فإن طبيعة اللغة العربية وربما طبيعته هو أدت به إلى جمع أزواج من الجمل ذات البناء الواحد مما نتج عنه ظهور السجع أو القافية وسط الفقرات، ونجد أمثلة متفرقة لهذا فى المحادثة(١٥١)، كما أن الأسلوب يظل كلاسيكى اللغة فى أكثر فقرات الحوار حيوية.

والمويلحى أستاذ فى النثر العربى وقد نعته والده"بصائغ الجواهر"(١٥٢) وأكثر ما يظهر ذلك هو فى محاكاته الساخرة البديعة لأساليب الكتابة الأخرى، ففى الفصل الثالث والعشرين (الزفاف) يلقى شيخ عالم محاضرة طويلة فى شكل فتوى حول موقف الإسلام من الغناء، وتتسم هذه الفقرة بطابع علمى صادق لما تحتويه من مقتطفات من كتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى (توفى ٩٦٧م)، ومن القصص المأخوذة من التاريخ الكلاسيكى والوسيط ومن المعالجة المنهجية لكل جانب من جوانب الموضوع، وقرب نهاية الفصل نجد نموذجين آخرين لبراعة المويلحى، أولهما خطبة تتضمن كل الأفكار المألوفة فى مثل هذه المناسبات فى تطويل غريب تتبعها قصيدة (أضيفت إلى الطبعة الأولى) تستعمل كل التقاليد وتستشهد بكل الصور النمطية التى توجد عادة فى مثل هذه القصائد (مثل تشبيه الفتاة بالبدر والقلادة مثلاً)، لكن أكثر قطع المحاكاة الساخرة عنفًا هى مقالة صحفية يزعم أن شيخًا أزهريًا كتبها ويبدو فى تعقدها و استغلاقها على الفهم أنها تردد أفكار المحامى الشرعى: "ويهتم أكثر علمائهم تعمقًا بالتفوق على أى شخص آخر فى التشعب لكى يطمسوا الحقيقة الجلية ويعقدوا عقيدتنا السمحة"(١٥٣).

وكانت "مصباح الشرق" جريدة تعنى بأذواق وتطلعات الشرائح المثقفة والقارئة من المجتمع القاهرى (وهكذا قال المويلحى فى مقالته "الجريدة العامية" المنشورة بالصحيفة وإن جاء ذلك فى معرض الهجوم على "على يوسف" و"المؤيد")، ويدل الأسلوب الذى كتبت به هذه المقالات جميعها على ذلك، وكان لكل من إبراهيم ومحمد المويلحى أسلوب خاص به كما أن محمداً يبدى دلائل على تمكنه من اللغة العربية واستخدامها فى محاكاته البديعة للأساليب الأخرى، ولكن على الرغم من الفوارق التى لاحظناها أعلاه يتسم "حديث عيسى بن هشام" بوحدة فى الأسلوب "كلاسيكية" الجوهر (وهو ما حتمه ارتباط العمل بالمقامة وأسلوب السجع) يقترن بعدم التعقد أو الغموض وهو ما قد يرجع

إلى تعرفه على الآداب الأخرى ورغبته فى تجنب الميل الواضح للدارسين الأزهريين إلى ذلك الأسلوب النثرى المعقد الذى كان يبغضه كثيراً.

لقد بحثنا فى هذا الفصل فى الجانب الأدبى المحض من «حديث عيسى بن هشام» ونظرنا فى محاسن وعيوب العمل بمعزل عن الإيحاءات السياسية والاجتماعية لمضمونه، وقد قال جب فى ملاحظة كثر الاستشهاد بها أن: "أسلوب العمل البارع وقوة الوصف فيه هى التى اكسبته السمعة التى يستحقها أكثر من القصة نفسها ومغزاها"(١٥٤)، ويظهر التحليل الذى عرضناه هنا لبناء الكتاب ورسم الشخصيات فيه وأسلوبه جدارة عمل المويلحى الفنية بجلاء كما يدل فى نفس الوقت على صعوبة بل استحالة اعتباره رواية ناجحة، غير إن عيوب البناء ورسم الشخصيات هذه تركز على ضرورة النظر إلى «حديث عيسى بن هشام» فى إطار أوسع، وقد درسنا العمل فى هذا الفصل، كما فعل جب، باعتباره إسهاماً أدبياً، وظهر من خلال البحث فى أصول نوع الرواية فى الأدب العربى الحديث أن عمل المويلحى الرائد هو بالضرورة عمل انتقالى تترسخ أسسه بصلابة فى المفاهيم الكلاسيكية الجديدة وترجع بالتالى إلى تراث القصص النثرى فى الأدب العربى الكلاسيكى، ومن هنا فليس مما يدهش أن مزايا العمل الأولية من وجهة النظر الفنية والأسلوب المحضة تقع فى مجالات الأسلوبية ووصف الخلفيات، ولا نستطيع تكوين صورة متوازنة عن قيمة العمل إلا إذا تذكرنا أصوله والبيئة التى عاش الكاتب وألّف فيها، وإذا فعلنا ذلك فلا مندوحة فى أن نخلص (على العكس من رأى جب) إلى أن محتويات الكتاب والمغزى الكامن فيها هى التى أسهمت إلى حد كبير فى شعبيته.

ولكن إذا كنا نقول إن "حديث عيسى بن هشام" لا يجب أن يدرس بالكامل داخل السياق الأدبى الضيق وحده فلابد مع ذلك أن ننظر فى المدى الذى نجح فيه المؤلف فى تصوير المجتمع بأسلوب أدبى، وكان كتاب المويلحى قد تعرض للنقد الحاد فى بدايات صدوره على أنه صورة غير عادلة للمجتمع المصرى: "يدعى الباشا أنه لا يرى شيئًا جيداً فى المجتمع المصرى... وهذا إما دليل على سوء التأليف وإما على النوايا الحقيقية للكاتب"(١٥٥)، وقد نرد على هذا الانتقاد بأن كتاب المويلحى لم يكن مقصوداً به تحسين الصورة بل إنه يصور بالتفصيل الكبير تلك الأوضاع الاجتماعية التى توصف كذلك فى

كتابى أحمد فتحى زغلول ومحمد عمر المشار إليهما أعلاه، وعلينا كذلك أن نحكم على موقف المويلحى من المجتمع كما يتضح من معالجته للشخصيات.

ونشير أولاً فى هذا الصدد إلى عدم وجود شخصيات نسائية تقريباً وهو ما قد يؤكد (ولو بالتضمين) آراء صديق المويلحى، قاسم أمين، الذى وصف وضع المرأة بشكل مؤثر فى كتابه "تحرير المرأة" الذى نشر عام ١٨٩٩، ويتبدى تدهور حالة النساء التى اعتبرها قاسم أمين النتيجة الطبيعية للاتجاهات السائدة من أن المرأة الوحيدة التى تبرز من خلفية القصة هى الراقصة العاهرة.

وهكذا فإن غياب الشخصيات النسائية من عمل يصور المجتمع المصرى فى تلك الفترة لا يمكن أن يكون مطعناً فيه، غير إن المويلحى يفشل فى تقديم صورة كاملة لشرائح المجتمع حتى وهو يتناول القطاعات الرجالية فيه، ذلك لأن ترفعه الطبيعى ومزاجه الانعزالى (نتيجة للتلعثم المزمن) جعلاه يتجنب الأماكن المزدحمة وكان يفضل البقاء فى البيت كلما كان ذلك ممكناً، ونرى هذا الموقف متجلياً فى حقيقة عدم وجود شخصية من شخصيات الكتاب تنتمى إلى الطبقات الفقيرة (التى وصفها كتاب محمد عمر "حاضر المصريين" بدقة، ومن هنا يصبح "حديث عيسى بن هشام" وصفاً انتقادياً للطبقات الوسطى والعليا من المجتمع المصرى يجرى من منظور الطبقة الوسطى، وهو لهذا صورة غير متوازنة إلى حد ما، يهاجم الطبقات العليا بشراسة كبيرة بينما يتناول قطاعات الشعب الفقيرة بصورة مبشرة للغاية، وما فعله المويلحى هو أنه أخذ الجوانب المتنوعة من المجتمع الذى يعرفه معرفة وثيقة ثم صورها بالتفصيل الشديد، وقد تعمق فى كشف عيوب المجتمع والمؤسسات التى تمثله وقدم صوراً كاريكاتيرية للشخصيات العامة تشبه الأصل إلى حد محرج، وعمل مثل سويفت وديكنز على إبراز جوانب المجتمع السيئة فى وضوح لا لبس فيه، فهو يصور مثلاً محامى الشريعة الذى يشوه القانون المقدس وينصب على وكلائه بكراهية مريرة تستدعى إلى الذهن صورة شخصية "فيجن" فى رواية ديكنز أوليفرتويست والذى يستغل الأطفال فى ارتكاب جرائمه، وإذا كان المويلحى قد أغضب طبقات معينة بذلك فإنه فى نفس الوقت دليل على أنه تمكن من لمس وتر حساس فى المجتمع وأن كتاباته أصابت الهدف المقصود.

وقد حللنا فى هذه الدراسة "لحديث عيسى بن هشام" الأخطاء والتضاربات التى

تدل فيما يبدو على أن موقف المويلحى من العمل تغير مراراً بينما هو يكتب الحلقات فهذا الغرض تعليمى وساخر وهجائى محض وهازل وقائم على المحاكاة الساخرة حسب المقام، وربما كانت هذه التغيرات فى المزاج دلالة على ردود أفعاله للتعليقات التى تلقاها من أصدقائه وقراء الجريدة (وقد نشر بعضها فى أعمدتها)، وكما يقول أحد الكتاب فى مجلة الرسالة:

«عندما نقول إن «حديث عيسى بن هشام» يمثل بداية رائعة لفن الرواية فإننا لا نعنى أنها تفى بكل متطلبات ذلك الفن ولا أنها تخلو من العيوب الفنية التى تبعد العمل عن روح القصص ومع ذلك فهى خطوة فى اتجاه جديد نحو نوع أدبى محدد، ولا يمكن لمثل هذه المرحلة الانتقالية أن تخلو من العيوب والقصور»(١٥٦).

ويقبع "حديث عيسى بن هشام" كدراسة للمجتمع فى ظل ترجمة زغلول ويحتوى على عرض للمجتمع أقل تفصيلاً من كتاب عمر الذى ظهر بعد نشر حلقات " فترة من الزمن".

وقد سبقت حلقات المويلحى فى مجال الكتابة الصحفية التى تناقش مشكلة الإصلاح عبر الخيال القصصى المحاولات الأولى عند يعقوب صنوع فى "أبو نظارة" وعبد الله النديم فى "التنكيت والتبكيت".

ولكن على الرغم من هذه السوابق كان عمل المويلحى هو الوحيد الذى حظى بالذكر والاعتراف الدائر، ولا ريب أن السبب فى ذلك هو طابعه الابتكارى الأصيل ليس فى أى من الجوانب التى ناقشناها فيما سبق وإنما فى الطريقة التى يتمكن بها من جمعها كلها فى مجلد واحد، فهو دراسة نفاذة للمجتمع المصرى وإن انتهت بالانتقائية وهو يطرح النقد المرير للمؤسسات المصرية والحكومة التى يسيطر عليها البريطانيون، والعمل مكتوب بأسلوب ممتاز يستدعى إلى الذهن فى مظاهره أفضل كتابات الجاحظ والحريرى، ولعل هذه الخصائص تفسر سبب شهرة "حديث عيسى بن هشام" الطاغية اليوم بينما لا يعرف أحد الأعمال السابقة أو المعاصرة إلا أصحاب الاهتمام البحثى بتلك الفترة.

صورة المجتمع المصرى عند المويلحى

مقدمة

أشرنا على ضوء مادة الفصول السابقة أن كتاب المويلحى المشهور هو تصوير واقعى لشرائح من المجتمع المصرى وسط فترة حاسمة من فترات التحول وأن الوصف الذى نجده لذلك المجتمع وصف دقيق وقيم من ناحية وضعه فى إطار أدبى قصصى، ونحاول فى هذا الفصل تنظيم تعليقات المويلحى على شتى نواحى ذلك المجتمع ومقارنة آرائه، ونظراته مع غيره من النقاد والمعلقين من المصريين والغربيين.

يحتوى نص "حديث عيسى بن هشام" على إشارات لأحداث عدة وقعت خلال الأعوام ١٨٩٨ و١٨٩٩ و١٩٠٠ عندما كانت الحلقات تنشر، ونجد أحداثًا معينة تحدد مجال الحدث فى العمل فى نهاية القرن التاسع عشر[١٥٧]، مثل محاكمة "الأمير سيف الدين" (١٨٩٨) "ووباء الطاعون" فى الإسكندرية (١٨٩٩) وإشارات أخرى إلى "نهاية القرن"، ومع ذلك فللكثير من نواحى المجتمع العديدة التى يصفها المويلحى جذوره فى فترة أسبق ولا سيما عهد الخديوى إسماعيل، وقد كُتب الكثير عن هذا الخديوى كحاكم ورجل دولة، وكان للكثير من خططه الطموحة مغزى و رؤية حتى وإن بدا أنها تنفذ بدون التفات من جانبه إلى مبادئ التمويل الأساسية بجانب الكم الكبير من المبالغة الباهظة والابتزازية من المصرفيين الأوروبيين الذين اتجه لهم سعيًا وراء المساندة المالية، وينبغى أن نذكر من بين هذه الخطط مراجعة النظام القضائى والتى بدأت خلال عهده (وسوف نشير إليها فيما بعد)، وإنشاء اقتصاد يقوم على إنتاج القطن (حسب الخطط التى بدأها محمد على)، وإدخال المزيد من التحسين على النظام التعليمى (بدأه محمد على كذلك) ومن هنا فعلى الرغم من ظهور إسماعيل بمظهر العاجز عن ضبط إنفاقه على هذه الخطط وعلى غيرها مما يقل نفعه العملى المباشر؛ وهو ما أدى إلى إفلاس مصر ثم خلعه هو، فإن الكثير من الجوانب الأساسية فى المجتمع المصرى التى تظهر فى عمل المويلحى ترجع إلى تلك الفترة السابقة على الثلاثة أعوام فى ختام القرن التى نشرت فيها الحلقات لأول مرة.

ويبدو لذلك أن صورة المويلحى هى فى جوهرها لمصر تحت الاحتلال البريطانى ولمصر التى يحكمها اللورد كرومر القنصل العام، وفى دراسة تصف عهد كرومر كحاكم فعلى لمصر تميز الكتابة بين العقدين الأولين لشغل اللورد لمنصبه، إذ كانت السنوات العشر الأولى" سنوات إصلاح تجلت آثارها للمصرى العادى الذى رحب بالاستقرار من أى نوع بعد سنوات من الفوضى والخراب والاقتصادى والإحباط"(١٥٨)، ويعد هذه السنوات فى "الحماية المقنعة" جاء العقد الثانى وفيه "السيطرة العلنية على السلطة".

وما تزال علامات العقد الأول وما سبقه بارزة للأعين فى قصة المويلحى (فى النظام القضائى المعدل مثلاً)، ومع ذلك فإن معظم السهام التى يوجهها المجتمع المصرى هى من سمات المرحلة الثانية عندما حُلت فى النهاية (جزئيًا على الأقل) المشاكل المباشرة للإفلاس والدين وإيجاد نظام قضائى من الأخلاط القضائية التى قيل إنها سادت قبل ذلك، وهنا استطاع المصريون توجيه أنظارهم إلى مشاكل أخرى، وفى تلك الفترة الثانية ازداد استقرار البريطانيين فى مصر وأخذت عملية التغريب بلا هوادة وتقليد العادات والسلوكيات الغربية تترك أثرها على المجتمع المصرى فى طبقاته الوسطى والعليا، وكان المويلحى يختلط مع هذه الطبقة من الناس (بقدر ما كان يختلط مع أى جماعة على الإطلاق) كما كان يحتقر ويهاجم اندفاعهم الأعمى نحو التغريب، وقد كان يفعل نفس الشيء بالفعل قبلها بسنوات فى مقالاته الصحفية لكنه عبر عن آرائه حول هذا الموضوع أقوى تعبير فى "حديث عيسى بن هشام"، وكانت مصر فى تلك الفترة أشبه بميدان حرب من نواح عديدة تصطرع فيه الأفكار والجماعات المتنافسة وكانت فترة السيادة العثمانية على مصر قد جلبت عدداً كبيراً من الأتراك والشراكسة إلى البلاد حيث نشأت طبقة أرستقراطية تركية مصرية تتحدث التركية، وكان محمد على نفسه تركيًا من أصل مقدونى لايكاد يتكلم العربية ولم يفعل شيئًا يغير وضع هذه الطبقة فى مواجهة الشعب المصرى(١٥٩)، بل إن شعور ضباط الجيش المصرى بالنقمة من جراء تفضيل زملائهم الشراكسة عليهم فى المعاملة هو الذى أدى جزئيًا إلى أولى بوادر ثورة عرابى ثم إلى الإحتلال البريطانى بعدها، وبجانب هذه العداوة بين الأرستقراطية التركية والمصريين نجد صراعات أخرى أحدث نشوءً. وذلك لأن إدخال نظام تعليمى غربى وتدفق الأفكار والعادات الغربية (الذى أعقب حتمًا تلك الخطوة السابقة) قسم المجتمع المصرى

بعدة طرق، وزاد من توسيع الفجوة بين حياة المدن وحياة الريف المباهج الجديدة التى نشأت فى المدن الكبيرة، ولم تكن الكثير من التقاليد الحضرية تختفى فحسب بل أخذ الناس من الأرياف يفدون إلى المدن بأعداد متزايدة. وتمثل شخصية العمدة فى "حديث عيسى بن هشام" هذه الظاهرة، وقد نقلت هذه الصورة التى رسمها المويلحى للطاغية الريفى المحلى الذى يخدعه سكان المدينة الكبيرة المغربون وضُخمت فى شخصية "كشكش بك" المشهورة فى مسرحيات نجيب الريحانى التى ظهرت فى العقد الثانى من القرن العشرين[١٦٠]، وأدى نظام التعليم الجديد بنفر من المصريين إلى التشكك فى القيم والمعتقدات التقليدية وظهر هذا كأوضح ما يكون فى مجال الفكر الإسلامى، وكان المويلحى تلميذاً وصديقًا لمحمد عبده ويظهر فى قصته فى نقاط عدة نفوذ" الأستاذ الإمام" (كما كان عبده يلقب) والذى جلب على نفسه سخط التقليديين فى مناسبات عدة طيلة حياته التى تقلب فيها بين التدريس والصحافة والقضاء والإفتاء.

كان الالتقاء والصراع بين الشرق والغرب والأتراك والمصريين والمدينة والريف والتقليدية والحداثة فى الدين من معالم المجتمع المصرى فى تلك الفترة وقد انعكست كلها فى الصورة التى رسمها المويلحى له، وكان المويلحيان (الأب والابن) من موظفى الجهاز القضائى فى إحدى مراحل حياتهما ولذا كان مما يتوقع أن يكرس مؤلف "حديث عيسى بن هشام" جزءً كبيراً من كتابه لتحليل نفّاذ لأخطاء هذا النظام، وكما يظهر هو بإقناع وبعده توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف (١٩٣٧) لم يكن هناك ما يرمز إلى الوضع فى مصر فى وقتها ولفترة طويلة بعد أكثر ولا أدق من محاولة تطبيق القانون الفرنسى والنظام الأوروبى المعدل فى مصر خلال فترة الاحتلال البريطانى، وهذا النظام القانونى المعدل هو ما نتجه الآن للنظر فيه أولاً.

النظام القانونى المصرى فى عام ١٨٩٨

فى الفصل الثانى من قصة المويلحى يعتدى الباشا- وهو ممثل الطبقة الأرستقراطية التركية المصرية التى ذكرناها ما فيما سبق- على حَمَّار لحوح، وهنا ينفتح الطريق للكاتب كى يصف النظام القانونى فى عصره بتفصيل كبير إذ يضطر الباشا لزيارة شتى مؤسسات هذا النظام ليحصل على البراءة.

وقد اختلفت مصر فى نظامها القانونى عن سائر ولايات الامبراطورية العثمانية، إذ لم تطبق الإصلاحات العثمانية فى مصر أبداً وهى تلك المعروفة "بالتنظيمات" بما فيها القوانين التجارية والعقابية القائمة على النمط الفرنسى و"المجلة" وهى تقنين الشريعة يعمل به فى المحاكم "النظامية" الجديدة، واختلف النظام القضائى المصرى عن نظام الإمبراطورية العثمانية من جانب آخر مهم يتعلق بالامتيازات التى يتمتع بمقتضاها الأجانب المقيمون داخل الامبراطورية بالحماية القانونية التى تمكنهم من مزوالة التجارة بلا قيود أو خوف، إذ وسع محمد على وخلفاؤه من نطاق الامتيازات فى مصر كثيراً ليجتذب الأجانب إلى البلاد(١٦١)، وكان بعض الأجانب يسىء استخدام الامتيازات على نحو منتظم لتهريب المخدرات والإتجار بالخمور والدعارة وبيوت القمار، وكان الإعفاء من تفتيش المنازل وتساهل الكثير من المحاكم القنصلية يعنى أن الأجانب يستطيعون المضى فى هذه الأعمال وما يشابهما للحصول على الربح الوفير(١٦٢)، ونجم عن هذا الوضع أن المصرى لا يستطيع الشكوى من الأجنبى أو توجيه الاتهام له إلا أمام قنصلية ذلك الشخص، كما أن الأجنبى الذى يسرق أو يقتل كان يسُلم إلى قنصليته حيث "تزيد فرصة إفلاته من العقاب على جريمته لنقص الأدلة الفنية أو لأسباب تناهض العدالة(١٦٣)".

وزاد من سوء هذا الموقف غير المرضى ما أتاحه من فرص الاستغلال وكان أسوأها يتعلق بما يسمى "أهل الحماية" وهم جماعة يصورهم المويلحى فى عمله من خلال "الزوج الرمزى" للراقصة فى حلقة المرقص (الفصل الثامن والعشرون)، وكان يسمح للأجانب المقيمين فى مصر والقادمين من أنحاء أخرى من العالم العربى (وغالبًا من السوريين والمغاربة)(١٦٤) بالعمل كتراجمة للسفارات الأوروبية مما يضعهم تحت حماية الدولة المعنية، وقد وصُف الكثير من هؤلاء الناس بأنهم "المجرمون الأجانب الذين ينتمون إلى العناصر الدنيا غير المرغوب فيها من السكان "والذين يتمكنون بفضل وضعهم من التحايل على قانون البلاد لاسيما فيما يتعلق بمسائل الأخلاق العامة"، ويقول القاضى برنتون أن: "أسوأ الشرور التى أنتجها ذلك الوضع هو توليد الشعور بالظلم لدى المصريين"(١٦٥)، وأدت هذه المساوئ الفاضحة وغيرها من استغلال القانون على أيدى العناصر المنحرفة من الأجانب المقيمين بمصر إلى أن يرفع نوبار باشا- وهو أرمنى قيل أنه لايتكلم العربية(١٦٦)- مذكرة إلى الخديوى عام ١٨٦٧ اقترح فيها تعديل النظام

لاستئصال أسوأ المظالم الناتجة عن الامتيازات، وكان نوبار نفسه يترأس اللجنة المشكلة من موفدى الدولة الأوروبية والتى اجتمعت فى القاهرة عام ١٨٦٩، وأوصت تلك اللجنة بإنشاء سلطة موحدة لتولى أمر النزاعات بين المصريين والأجانب تكون فيها الأغلبية للقضاة الأجانب، ويقوم قانونها على التشريعات الأوروبية، وبعدها دعت الحكومة المصرية لجنة من خبراء القانون الأجانب للتعاون مع القانونين المصريين فى وضع قانون مدنى يقوم على قانون نابليون وقد اختير القانون الفرنسى لأن "اللغة الفرنسية هيمنت على الحياة الثقافية فى مصر وكان معظم رموز الحياة العامة فى مصر من الذين درسوا فى فرنسا[١٦٧]، وبعد وضع هذا القانون عارض الفرنسيون والنمساويون اقتراحًا بإنشاء المحاكم الجديدة، واستمرت فرنسا فى معارضتها حتى اللحظة الأخيرة حتى بدا أن مواطنيها المقيمين فى مصر قد يفقدون امتيازاتهم برمتها، ولكن فرنسا انضمت تحت هذه الضغوط إلى الموافقين وافتتح رياض باشا المحاكم الجديدة فى الأول فى يناير عام ١٨٧٦، لكن هذه المحاكم لم تنظر إلا القضايا المدنية والتجارية القائمة بين اثنين من الأجانب أو بين مصرى وأجنبى، أما التنازعات بين المصريين فظلت تنُظر أمام المحاكم الشرعية والتى تحدث عنها كرومر فى نظرة منحرفة (وغير صحيحة) قائلاً إن: "القاضى يحاول تسوية النزاع وفق مبادئ صدئة وضعها محمد منذ ثلاثة عشر قرنًا"[١٦٨]، وكان اللورد يرى أن "هذه المحاكم هى صنو الفساد"[١٦٩] وقيل إن لا أمل للمصريين فى كسب أية قضية ضد الحكومة أو الأغنياء حيث إن الشاكى والمشكو فى حقه فى أية قضية يدفعون المال للقاضى ويصدر القرار عادة لصالح من يدفع أكثر[١٧٠].

وفى عام ١٨٨٠ شُكلت لجنة للنظر فى أمر المنازعات بين المصريين وتقرر فى نوفمبر من عام ١٨٨١ إنشاء محاكم جديدة على غرار المحاكم الدولية (وسميت الآن عمومًا بالمحاكم المختلطة) وتوقفت هذه الخطة بسبب ثورة عرابى، لكن تقرير اللورد دوفيرين عن حالة مصر عام ١٨٨٣ يحث على إنشاء النظام الجديد فى الحال، وهكذا نشأت المحاكم الأهلية فى ١٨٨٤ وانقسمت إلى محاكم جنح وإصلاحية وجنائية حسب طبيعة المخالفة المرتكبة، وتكون النظام فى البداية من المحاكم الابتدائية ومحكمة استئناف، غير أن النظام سمح بحقوق استئناف واسعة النطاق مما تطلب عددًا كبيرًا من القضاة لتنظر القضايا الكثيرة الناشئة، ونجم عن ذلك تقييد المرتبات مما فتح الباب

لإغراء قبول الرشاوى من جانب القضاة وهو ما قام النظام الجديد ليتلافاه، وفى ١٨٩٠ أجرى قاضى للمحكمة العليا من الهند يدعى چون سكوت بعض التعديلات فى النظام إذ تنظر القضايا أولاً فى محاكم مستعجلة بها عدد أقل من القضاة ثم تستأنف قضاياها فى المحاكم الابتدائية وبهذا توفر الوقت لمحكمة الاستئناف ذاتها للنظر فى القضايا الجنائية الأخطر، وكان القانون السارى فى تلك المحاكم قانونًا جنائيًا يقوم على مبادئ قانون نابليون، وذهب الكثير من الناس إلى أن القانون الجديد يحذو حذو النموذج الفرنسى دون وضع ظروف الحياة والعادات المصرية فى الحسبان، ولم تتحسن الأحوال لأن القضاة فى هذه المحاكم كانوا فى بداية الأمر من الأوروبيين (من إنجلترا وهولندا على وجه الخصوص) غير إنهم سُحبوا بالتدريج وحل محلهم قضاة مصريون(١٧١).

وفى تقليد آخر للنظام الفرنسى أنشئ نظام النيابة للتحقيق فى الجرائم المرتكبة ومقاضاة المجرمين فى الأمور الواقعة فى اختصاص المحاكم، وترأس النيابة نائب عام كان يُنتقى بعمد من بين محامى الدول "الصغرى" مثل بلچيكا و النرويج وكان يرأس مجموعة من المحامين الصغار يشغلون وظيفة "النائب"، ولا يبدو أن الصورة التى يرسمها المويلحى لأحد هؤلاء النواب (الفصل الثالث) هى بأكملها على سبيل المحاكاة الساخرة لأنهم وصفوا بأنهم "شباب ذكى على الأغلب... لكنهم لصغر سنهم يفتقرون إلى الخبرة فى معظم القضايا كما أن تعليمهم لا يؤهلهم لحياة الأرياف الصعبة، فهم من أبناء المدن وقد درسوا فى أوروبا ويتحلون بالأفكار والسلوكيات الأوروبية مما جعلهم يشعرون بأنهم أعلى ممن حولهم"(١٧٢)، وكان معظم هؤلاء الشبان قد حصلوا على درجات من مدرسة الحقوق بالقاهرة (التى أسسها ڤيدال بك عام ١٨٦٨) وكذلك من الجامعات الفرنسية (وأكثرها شعبية جامعة إيكس للسهولة التى منحت بها شهادات التخرج للأجانب أو "دبلومات التصدير" كما كانت تسمى باستهزاء)، وكانت النيابة تحضر القضايا للمحاكم وتعتمد فى سبيل ذلك على الأدلة التى يقدمها البوليس، لكن قوة البوليس (التى سنتحدث عنها بتفصيل فيما بعد) لم تكن لسوء الحظ معُدة لآداء هذه المهمة على الإطلاق مما أوجد الكثير من الاحتكاك بين الإدارتين فى البداية وإن تحسن الوضع تدريجياً مع زيادة كفاءة الشرطة.

وبالإضافة إلى هذه المشاكل تكونت بيروقراطية كبيرة الحجم حول النظام الجديد

كما يكتشف الباشا، وأدى هذا إلى بطء عملية التقاضي مما مكن الموظفين من الإثراء من الرشاوى بقدر ما كانوا يحصلون عليه فى النظام القديم، وترتب على ذلك المزيد من المساوئ فى المحاكم المختلطة، وكان المحامون المنحرفون يقولون للمصريين الذين لهم قضايا قيد النظر فى نظام المحاكم الأهلية إنهم يستطيعون نقل قضاياهم إلى المحاكم المختلطة بالتنازل عن حق التقاضى لشخص أجنبى، وكما يلاحظ وكيل المحامى فى قصة المويلحى تنظر القضايا فى تلك المحاكم الأخيرة بسرعة "مروق السهم من القوس"(١٧٣) ويبين سوء الاستخدام هذا للمحاكم المختلطة، وهو أمر غير قانونى لكنه مربح للأجنبى وللمحامى، نوعية المشاكل التى يواجهها المصرى الذى يضطر إلى التعامل مع القانون فى ذلك الوقت.

وقد عمل محمد عبده ومحمد بيرم (العالم التونسى المشهور ١٨٤٠-٨٩) قضاة فى المحاكم الأهلية لفترة (مما يدعو إلى رفض مقولة السير أو كلاند كولفين من أن" القضاة المصريين لا يكادون يفقهون القانون") لكنه فى حكمه بأن المحاكم" قد أنشئت على عجل" يشير إلى أحد الأسباب الرئيسة للاضطراب الذى أصاب النظام خلال السنوات التى كان المويلحى يكتب قصته خلالها(١٧٤)، وبعد إنشاء المحاكم الأهلية احتفظت المحاكم الشرعية باختصاص النظر فى قضايا الأحوال الشخصية الزواج والطلاق، الميراث والأوقاف و وما أشبه، ولم يتأسف أحد على هذا لأن" الإجماع كان منعقداً على أن المحاكم المحمدية فى أسوأ حالات الاضطراب بالمقارنة مع أية مؤسسة أخرى(١٧٥)، وكان كبير القضاة يترأس المحكمة الشرعية العليا. أما النظام القانونى المستعمل فى المحاكم الشرعية فكان المذهب الحنفى من الشريعة وهى القانون الإسلامى القائم على تعاليم القرآن والحديث بجانب مبادئ القياس كما تطبق من خلال الإجماع وهو اتفاق العلماء، وكان العديد من العلماء والفقهاء يعتبرون الشريعة نظاماً قانونياً ثابتًا لأن معظم تفاصيل النزاعات القانونية كانت قد وضعت وسجلت فى الكتب الفقهية منذ قرون مضت كما ساد الاعتقاد بأن باب الإجتهاد، وهو حكم القاضى المستقل قد أغلق، وإذا كان هذا هو الرأى"الأرثوذكسى" فى المسألة فإنه من الصحيح كذلك أنه يمكن حل المسائل القانونية الجديدة الناشئة بإبداء الفتاوى حولها بالنقاش بين القضاة، ومع ذلك ذهب الكثير من دارسى القانون المهتمون بالإصلاح إلى أن هذا المصدر الفقهى الإضافى لا يعنى أن

الباب مفتوح بالكامل لإعادة تفسير القوانين التقليدية، وكان محمد عبده وأتباعه هم من تصدى بقوة لهذا الرأى الذى يقول بثبات الشريعة، وكان هؤلاء يرغبون فى أن يصبح الإسلام قوة فاعلة فى الحياة العصرية وينظرون إلى التقليد الأعمى لآراء الفقهاء القدامى على أنه عقبة فى سبيل التقدم، وذهبوا "إلى أن ممارسة الاجتهاد ليست فقط حقًا بل واجبًا على الجيل الحالى إن أريد للإسلام أن يتكيف بنجاح مع العالم الحديث"(١٧٦) وقد حقق عبده نفسه فى نظام المحاكم الشرعية عام ١٨٩٩ ونشر تقريره فى جريدة المويلحى، وأوصى فيه بانتداب قضاة من محاكم أخرى لتقديم المشورة إلى القاضى وأثارت هذه التوصية وغيرها ضجة متوقعة من الاعتراضات من جانب المؤسسة الدينية، ونجد التعبير عن بعض المشاعر التى أثارها التقرير فى حلقة من "فترة من الزمن" لم يدخلها المويلحى فى نص "حديث عيسى بن هشام". ذلك لأنه مع نجاح المؤسسة الدينية فى كبت معظم اقتراحات عبده فربما رأى المويلحى أن تعليقاته الخيالية على إصلاحات الشريعة ليست دائمة الأهمية مما يدعو إلى إدخالها فى القصة وهى فى شكل الكتاب(١٧٧).

وهذه كانت المؤسسات الرئيسة داخل نظام المحاكم المصرى، ويتصل الباشا فى قصة المويلحى بالمحاكم الأهلية عقب اعتدائه على الحَمَّار كما يتصل مع المحاكم الشرعية فى محاولته لاستعادة الوقف الذى استولت عليه ذريته، وخلال هذه القضايا يزور أيضًا أو يسمع عن معظم المؤسسات الرئيسة التى لها وظائفها الخاصة داخل النظام والتى تقدم المعلومات للمحاكم التى سبقت الإشارة إليها.

ظلت المحاكم القنصلية موجودة رغم محاولات إصلاحها فى أعوام ١٨٨٠ و١٨٨٤ و١٨٩٠، واستمرت تنظر فى كل القضايا المدنية والتجارية بين الأجانب متحدى الجنسية وفى محاكمة المجرمين الأجانب غير الخاضعين لاختصاص المحاكم المختلطة، وأحبطت كل محاولات تغيير وظيفتها بحجة أنه يصعب، فوق التكلفة الباهظة، العثور على محامين أجانب يقدرون على شغل منصب المدعى العام وهو المطلب الذى وضعته الدول الأوروبية شرطًا لتسليم الاختصاصات القضائية للمحاكم القنصلية إلى أية جهة أخرى.

وفى عام ١٨٩٦ أنشئت محكمة خاصة هى المجلس الحسبى تعالج شئون تعيين الأوصياء وتحديد الأولياء ولها اختصاص سحب الأهلية القانونية من الشخص الذى

تثبت أفعاله انعدام مسئوليته، وعلى الرغم من وصفها بالمحكمة الدينية إلا أن الجالسين فيها كانوا من "موظفى الحكومة وأعيان المجتمع"[١٧٨]، ونفهم من صفحات "حديث عيسى بن هشام" والكثير من المقالات الصحفية فى التسعينيات من القرن الماضى أن وقت المحكمة كان مشغولاً بمحاولة تصحيح السلوك المعوج لشباب الأسرة المالكة.

واختصت لجنة المراقبة بمراقبة المحاكم والنظام القانونى الذى تنفذه وكانت تلك اللجنة تتألف من خمسة محامين أوروبيين ويرأسها مستشار قضائى وأقيمت عام ١٨٩١ كرقيب على نظام القاضى الواحد لكن اختصاصاتها توسعت لتغطى أعمال النيابة بجانب الإشراف على أحكام المحاكم الأهلية[١٧٩]، وكان هناك أيضًا محكمة النقض والإبرام التى أنشئت للمحافظة على التناسق فى الأحكام التى تصدرها المحاكم المختلفة وكان اختصاصها إلغاء الأحكام التى لا تتمشى مع القانون وإعادة القضايا للنظر فى محكمة أخرى.

قوة الشرطة

ذكرنا أن قوة البوليس لم تكن فى عام ١٨٩٨فى حالة تسمح لها بأداء الدور الذى فرضه عليها النظام القانونى الجديد، وكان تنظيم القوة نفسها محل جدل لا ينتهى بل لقد "تغير كل شىء فيها حتى الزى ثم تغير وتغير"[١٨٠]، وأنيطت بالجنرال ڤالفين بيكر عام ١٨٨٣ مهمة إعادة تنظيم القوة ويقال أنه كان ضابطًا يؤمل بمستقبل عظيم فى انجلترا إلا أن مستقبله دُمر فيما يبدو بسبب فضيحة شخصية تتعلق بضربه لامرأة فى قطار ولم يثبت أى شىء فى حقه لكنه جاء إلى مصر ليبدأ حياة جديدة، ولكنه لسوء حظه لم يكن مناسبًا على الإطلاق لعمل الشرطة (حسب تقدير اللورد ملنر) ولم يعرض عليه منصب مفتش قوة الشرطة إلا لعدم وجود منصب ملائم فى الجيش له[١٨١] وأعيدت صياغة قوة الشرطة تحت إمرته على النموذج العسكرى.

وكانت كل مديرية فى مصر تدار بواسطة مدير "يتصل بكبار القوم وليس بصغارهم "ولا معرفة مباشرة له" بالفلاحين الذين لا يستطيعون بدورهم الاتصال به مباشرة"[١٨٢]، وكانت كل محافظة تقع تحت إدارة محافظ، وكلا المسؤولين يتبعان وزارة الداخلية ويختصان بحفظ الأمن العام وتحت إمرتهما قوة من الشرطة للمساعدة، وكانت

المديرية تنقسم إلى عدة مراكز أما المحافظات فتنقسم إلى أقسام يحكم كل قسم منها مأمور يكون مسؤولاً أمام المدير أو المحافظ" وكان المأمور "موظفًا تنفيذيًا ذا سلطة تبدو غير محدودة للفلاحين الذين كانوا يحترمون المآمير بقدر هذه السلطات"(١٨٣)، ويضم المركز عدة قرى يسيطر على كل منها عمدة تساعده على حفظ الأمن والنظام قوة من الخفر وقد حاول كليفورد لويد، وهو موظف بريطاني عهد له بإدارة الشرطة فى فترة قصيرة وعاصفة، أن يسحب سلطات المدير والمأمور وحراسهما ويسلم هذه السلطات إلى ضباط قوة الشرطة الجديدة تحت إشراف مفتش عام أجنبى، غير أن هذه الخطة جوبهت بمعارضة عنيفة، وفى عام ١٨٩٢ كانت قوة الشرطة تقع تحت إمرة كل مدير فى مركزه وانقسم أفراد القوة إلى ثلاث فئات، فهناك أولاً الكونستبلات المصريون المتطوعون الذين تدربوا فى مدرسة البوليس التى أقامها كتشنر عام ١٨٩١، والمجموعة الثانية وهى الأكبر تتألف من الجنود المجندين فى الجيش أصلاً والذين قد يمضون خمسة أعوام فى خدمة الشرطة بعد خمسة أعوام أولي يمضونها فى الجيش (وألغى هذا النظام عام ١٩٠٨)، أما الفئة الثالثة فكانت تتألف من الجنود الذين يمضون فترة الخمس سنوات الأولى فى الجيش كحراس وجنود مراسلة، وينقسم الشرطيون داخل هذه الفئات إلى ضباط عاملين وضباط غير عاملين، وفى الفئة السابقة وباستثناء المفتش العام ومساعديه(وهم من الأجانب) تكونت الرتب من المفتش والمأمور والمعاون والملاحظ ولكل رتبة منها عدة درجات، أما فى فئة الضباط غير العاملين فهناك الكونستبلات الواردين من المصادر المختلفة المذكورة أعلاه بينما كانت الرتب الأخرى تشمل الصول والباشاويش والشاويش والأونباشى.

ومنصب العمدة فى الأرياف (الذى يأخذ المويلحى أحد شخصياته الرئيسة منه)، ذو أهمية خاصة، وقد وصف العمدة على أن نظير لمنصب الأول بين أقرانه فى العصور الوسطى أو أنه القوة الإدارية الحقيقية، وكان مسيطراً مستبداً على نطاقه يستطيع جمع الأموال بوسائل مشكوك فيها(١٨٤)، ولهذا السبب كان تعيين العمدة عادة مناسبة تنفجر فيها المنافسات المريرة بين جماعات السلطة التى كثيراً ما كانت تلجأ للقتال العلنى ثم للبغضاء المشحونة بعدها، ووظيفة العمدة الأساسية هى "حفظ النظام فى القرية وزمامها أكثر منها الرقابة على النظافة وأمور المرافق الصحية وهى أمور لايكاد يهتم بها هو أو معاونوه، وهو يزور البلدة الرئيسة بالمركز كثيراً إما بسبب العمل أو للمتعة"(١٨٥).

وعقب الاحتلال البريطاني لمصر حُرم العمد من أكثر مصادر الرشوة ربحية وهو حق السخرة أي حشد رجال قرية للعمل الجدى حيث يساق الفلاحون بالقوة وغالبًا بالكرباج– وهو نوع شديد من السوط للخدمة العسكرية وبدلاً من تلك المهام أنيطت به مهام جديدة أكثر عدداً بما فيها الإشراف على التعداد والجداول الانتخابية والخدمات البريدية وتحصيل الديون، ويقول اللورد كرومر إن: "العمدة لديه الكثير مما يفعله أكثر من ذى قبل، وهو رهن الاستدعاء من مفتش كل الإدارات وهو مسئول عن تنفيذ عدد من اللوائح لا يفهم أغلبها"(١٨٦)، وحسبما يقول اللورد ملنر "أضعفت هذه الواجبات الجديدة اهتمام العمدة بنظام قريته وإحساسه بالمسؤلية عنه"(١٨٧)، ومع ذلك استمر منصب العمدة منصباً مرغوباً فيه بسبب مكانته وامتيازاته وفرص تحقيق الربح الشخصى التى أتاحها، وعلى الرغم من جهود الحكومة لضمان تعيين الأشخاص المناسبين فى هذا المنصب إلا أن "العمدة" ظل صنواً للفساد والابتزاز(١٨٨).

وهكذا كانت قوة البوليس فى الفترة التى يصفها المويلحى قسمًا جديداً نسبيًا وغير مجُرب من النظام القانونى المتغير، ويُسجل السير أو كلاند كولفين أن الرجال المحترمين لم يكونوا يدخلون القوة التى كان ينُظر إليها بعدم رضا اجتماعيًا والتى يتعرض الداخل فى سلكها إلى شتى المكائد(١٨٩) وكان معظم رجال الشرطة مجندين متذمرين بينما جلب الفساد المتفشى فى صفوف القوة الكراهية عليها والاستهزاء بها.

أدخلت هذه الاصلاحات على النظام القانونى المصرى على مدى فترة مطولة من عام ١٨٦٧ وقد نجحت فى تحسين العملية القضائية إلى حد ما، ويبدو على الورق على الأقل، أنها استئصلت العديد من المظالم التى سببها النظام القديم غير أن الإجراءات الجديدة أدخلت فى الغالب بدون وجود الأشخاص المؤهلين لتنفيذها، إذ كان نظام المحاكم الأهلية بحاجة إلى القضاة المؤهلين ممن درسوا القوانين التى يطلب منهم إعمالها لكى يعمل هذا النظام بكفاءة وكان يجب على هؤلاء القضاة أن يظهروا "روح الاستقلال والرغبة فى حمل عبء المسؤولية واحترام مكانة منصبهم"(١٩٠)، ومما له الأهلية بقدر دور القضاة دور المحامين والشرطة وكليهما لم يكن مؤهلاً أو راغباً فى أداء دوره المناسب داخل النظام الجديد، ويسخر المويلحى فى كتابه من عواقب ونتائج هذا الوضع (وهى سخرية فى محلها كما يظهر مما اقتبسناه من المراجع المعاصرة)، وقد

اجتمعت عوامل عديدة مثل بطء المحاكم وانعدام التنسيق بين الإدارات وعدم تجانس جوانب كثيرة من النظام مع طريقة الحياة المصرية لتؤدى إلى ظهور حيل كثيرة يستخدمها منعدمو الضمير الذين تصورهم صفحات "حديث عيسى بن هشام" ببراعة.

النظرة الأشمل للمجتمع المصرى

رأينا أن المبرر للفحص الدقيق الذى أجراه المويلحى للمحاكم الأهلية والشرعية هو قضية الضرب التى رفعها الحمَّار على الباشا ثم محاولة الأخير استعادة الوقف الذى سلبه نرية من المبذرين، ويصل الباشا إلى مرحلة ما يبدو أنه انهيار عصبى من جراء بطء إجراءات المحاكمة والاستئناف وخداع وغش الموظفين الذين يديرون شتى جوانب النظام، وهنا تسنح للمؤلف فرصة وصف المهنة الطبية وتحليل أساليب وأخلاقيات من يمارسونها، لكن ذلك يشتت انتباهه عن قضية الوقف التى تنظرها المحكمة الشرعية، وهو لايعود مرة أخرى إلى هذا الموضوع ربما لأنه كما كانت الحال فى وضع مشابه فى رواية ديكنز "المنزل الكئيب" ميئوس منه تماماً، وعلى أى حال يحول المويلحى انتباهه بعيداً عن النظام ليلقى نظرة أكثر عمومية على جوانب أخرى فى المجتمع فى مقدمتها الطب والأطباء.

ويمكن بشكل عام تقسيم باقى القصة إلى جزءين، أولهما الفصول التى يزور فيها الباشا مجالس مختلفة يستمع فيها إلى مجموعات مختلفة من الناس يناقشون مهنهم والأحداث الجارية، ثم نجد المتتابعة الأخيرة من الفصول التى تظهر فيها شخصية العمدة، وتغيير أسلوب المويلحى الفنى فى هذه الفصول كما لاحظنا فيما سبق من حيث أن عيسى بن هشام والباشا يتوقفان عن القيام بدور البطولة فى الحدث بل ويختفيان فى الخلفية مع ظهورالعمدة ورفيقيه الخليع والتاجر، ويؤدى هذا التغير إلى اختلاف فى توجه الهدف النقدى للكتاب، إذ لا يركز المويلحى بعد ذلك بالكامل على مؤسسة واحدة وموظفيها ولكن يناقش مجموعة من المؤسسات والجماعات والطبقات فى المجتمع المصرى، وهو لا يتحدث إلا عن الجماعات والمؤسسات التى عرفها حق المعرفة كما فعل مع النظام القضائى، ولهذا فلابد أن نحكم على الصورة التى يرسمها باعتبارها انتقائية فى سياق المجتمع المصرى بأسره ويتضح هذا الأمر عندما نقارن نطاق ومدى وصفه بما

نجده عند محمد عمر مثلاً كما أشرنا فيما سبق ولكن على الرغم من هذه الانتقائية تشد الجماعات والشخصيات التى يرسمها المويلحى الاهتمام بشكل حتمى للعديد من المشاكل الحاسمة التى كانت تؤثر فى مصر وشعبها خلال عهد اللورد كرومر كقنصل عام فى مصر.

بدأ عهد كرومر كحاكم شبه فعلى لمصر فى أكتوبر عام ١٨٨٣ عندما جاء من الهند ليتولى منصب القنصل العام، وفى وقت سابق من ذلك العام كان اللورد دوفيرين السفير البريطانى فى اسطنبول قد سلم تقريراً لحكومة جلادستون فى بريطانيا عن حالة مصر مشفوعًا بتوصيات حول إدارة السياسة البريطانية فى أعقاب ثورة عرابى عام ١٨٨٢، وكانت بريطانيا قد أعلنت رسميًا عن انتهاء الرقابة الثنائية (البريطانية الفرنسية) على شؤون البلاد المالية بسبب عدم قيام فرنسا بأى عمل لقمع ثورة عرابى ولأن الجيش البريطانى كان يحتل مصر، وفى خلال الفترة التى نتحدث عنها ظلت فرنسا تعرقل كل جهود الإصلاح وتنتهز كل فرصة سانحة لتتحدى السيادة البريطانية على وادى النيل(١٩١) وفى المراحل الأولية من الاحتلال البريطانى انصب الاهتمام الجارف على معالجة الأمور المالية للبلاد، وأوصى اللورد دوفيرين بتعيين مستشارين بريطانيين فى الإدارات الحكومية الرئيسة المالية والعدل والأشغال العامة والجيش بهدف وُصف بأنه" العقول البريطانية والأيدى المصرية".

وعين اللورد كروم مستشارين لتلك الإدارات بعد وصوله بقليل، وكما لاحظنا أعلاه نفذ توصية أخرى من اقتراحات اللورد دوفيرين بإصدار الأمر بالإعمال الفورى للقوانين المدنية والجنائية الجديدة فى نظام المحاكم الأهلية عام ١٨٨٤، ومع ذلك فقد انصب اهتمام كروم بالأساس خلال السنوات الأولى على موقف مصر المالى المزمن التأزم، ففى ١٨٨٥ دعت بريطانيا إلى عقد مؤتمر لندن فى محاولة للحيلولة دون إعلان مصر عن إفلاسها، وتم تدبير قرض قيمته تسعة ملايين جنيه كما أقرت إجراءات أخرى خفضت من الظروف بالغة الصعوبة التى كان على كرومر ومستشاره المالى العمل فيها وهم يحافظون على الرقابة الدولية على مالية مصر، وعلى مدى العامين التاليين عملت سياسة كرومر على المحافظة على التوازن المالى بقصر الإنفاق على أكثر الأشغال العامة ضرورة وأهمها الرى، وفى عام ١٨٨٧ مكنت هذه السياسة المالية الفعالة، حتى ولو كانت

متشددة كروم من أن يلغى نظام السخرة سيء السمعة ويخفض الضرائب إلى حد ما، وبعد ذلك أصبح من الممكن إنفاق المال على خدمات اجتماعية مثل المستشفيات والتعليم، ومع ذلك فعلى مر الأربعة والعشرين عامًا التى كان فيها كرومر الحاكم الفعلى لمصر تركز الاهتمام الأكبر على خفض الضرائب أكثر من تحصيل المال لإنفاقه على الخدمات الاجتماعية، ويبدو أن كرومر كان يتعمد إهمال جانب أساسى من جوانب الإصلاح لأنه وفى ظل الحالة الفوضوية التى كان عليها النظام التعليمى المصرى عند توليه منصبه قرر ويتدبر إنفاق واحد ونصف بالمائة فقط من إجمالى الإنفاق على التعليم والصحة، هذا لو كانت النية فعلاً جعل مصر مسؤولة عن تولى شؤون حكمها بنفسها فى المستقبل(١٩٢).

ومع استمرار الاحتلال البريطانى أدت عدم كفاية التعليم الذى كان الكثير من المصريين يتلقونه والاصطدام المحتوم فى المزاج بين الشعبين إلى شعور الموظفين البريطانيين بالإحباط عندما وجدوا أن خططهم يساء فهمها أو يساء تطبيقها، ونجم عن هذا بالتدريج وإن بشكل حتمى اتباع سياسة "العقول البريطانية والأيدى المصرية" مع تعيين المزيد من الموظفين البريطانيين ولاحاجة بنا إلى القول أن هذا الوضع هز من معنويات طبقة الموظفين المتعلمين الذين سرعان ما أدركوا أن لا أمل فى الترقية طالما كان البريطانيون يشغلون المناصب، ونشأت "الشكوك والسخط فى البلاد"(١٩٣) من عدم رغبة البريطانين فى وضع أية سياسة لإنهاء هذه السيطرة بالتدريج ونرى تصويراً دقيقًا فى صفحات كتاب المويلحى لمشاعر الإحباط والكراهية التى سببها هذا الوضع، ففى أكثر من مناسبة يتحدث الموظفون عن توقعات الوظيفة الحكومية لكن زملائهم يحذرونهم من انعدام الأمل:

«يحصل البريطانيون على مرتبات ضخمة ولهم سلطات واسعة، لقد أمسكوا بمقاليد الحكم ويبعدوننا عنه، وأبواب الترقية مغلقة فى وجوهنا ولا سبيل للتقدم، ولو استعادت فرنسا قوتها وبطشها السابق لتمكنت بحركة واحدة من طرد هؤلاء القوم وإبعادهم بكلمة واحدة، وهنا نستطيع أن نحكم بلادنا بأيدينا»(١٩٤).

ويسود الاتفاق فى الرأى عامة بأن إدارة كروم لمشاكل مصر المالية خلال عهده كقنصل عام كانت أفضل جوانب حكمه، وقد أنقذ البلاد من الأزمة الطاحنة فى أوائل

سنواته فى المنصب، ومع ذلك فلم يغير من أسس سياساته بعد سنوات الأزمة الأولى، وكان لهذا القرار آثار عديدة داخل نسيج المجتمع المصرى.

وعلى الرغم من التحسن فى وضع مصر المالى ظل الكثير من المصريين يحتفظون فى عقلهم الباطن بقضية ديون الحكومة والقيود التى أدت إليها على الموازنة، وحتى فى قصة المويلحى (التى كتبت عام ١٨٩٨ وبعده) نجد أحد الأمراء يقول إن: "الحكومة مدينة أكثر من أى شخص آخر" وهو يبرر أمام شقيقه وضعه المالى هو نفسه[١٩٥]، واجتذب مناخ عدم الاستقرار المالى وفرص" الربح السريع" المضاربين والمغامرين من كافة الأنواع إلى البلاد مما نتجت عنه عواقب أذت المصريين أنفسهم:

«مع خير وشر التغريب جاءت أفضل وأسوأ عناصر العالم الغربى والمتوسطى المصرفيين والمرابين و التجار اللصوص و المصرفيين الإنجليز المحافظين والباعة الشوام المخانعون كتبة فروع شركة "شبه الجزيرة والشرق" المتسممين بالياقة والعاهرات المصبوغات الوجوه فى ميدان القناصل بالإسكندرية والدارسين الجادين فى معابد أبيدوس والكرنك والقتلة والمخادعين فى حوارى القاهرة[١٩٦].

ونجم عن التزايد فى نشاط الأشغال العامة وشراء المهمات للرى والسكك الحديدية وخطوط الترام تنافس محموم على إنشاء الشركات ومنح الامتيازات والعقود ونشهد هذا التنافس فى عمل المويلحى وفى عمل أبيه[١٩٧]، وتقترح أكثر من شخصية فى "حديث عيسى بن هشام" إلى أن المصريين يجب أن يبدأوا فى إنشاء شركاتهم الخاصة[١٩٨]، غير أن التمييز فى مسألة الضرائب (وهو من بقايا نظام الامتيازات الأجنبية) وقف ضد المصريين بشدة فى السوق، وتركز معظم هذا الاستثمار فى الزراعة وبالذات فى زراعة القطن إذ زادت تحسينات نظام الرى التى أشرنا إليها فيما سبق من محصول القطن إلى درجة كبيرة واستثمرت الأموال الطائلة فى شراء وبيع وتخزين هذه السلعة الثمينة:

«كان المال فى تلك الفترة رخيصاً وفيراً وحول المستثمرون الأوروبيون الباحثون عن مجال للاستثمار أنظارهم مرة أخرى إلى مصر، إذ تمثل الأرض الزراعية البالغة الخصوبة والتى يرويها النيل ضماناً ممتازاً للقروض، وكثرت الوكالات التى تقرض المال

مقابل الرهونات وشرعت تصطاد المقترضين، ووقع الفلاحون فى الفخ بلا وعى واقترضوا الأموال الكثيرة بلا تفكير فى المستقبل»(١٩٩).

وسواء فى المدن الكبرى أم فى الريف أدت هذه المضاربات بالكثير من المصريين الغافلين إلى إضاعة الأموال الطائلة أو إضاعة الأرض بالنسبة للفلاحين، ويبين المويلحى فى كتابه الطريقة التى كان بها وكلاء تلك المكاتب يجتذبون ضحاياهم، إذ يرى عيسى والباشا فى زيارتهما لقاعة الاجتماعات رجلاً يتخلص من محصول القطن لقاء بعض "العقود" ويقع فى براثن الوكيل" كالعصفور فى يد الصائد المخادع"(٢٠٠) وارتفع شأن المرابين فى هذه الظروف وهم فئة يصورهم المويلحى كذلك فى كتابه، فعندما ينفق العمدة ماله "يرتب" الخليع مع أصدقاءه المرابين قرضًا له لكن العمدة لا يستلم فى النهاية المبلغ الذى طلبه، ولم تكن تجربة العمدة تلك أمرًا نادرًا فى تلك الأيام لأن المويلحى وصديقه عبد الله النديم كتبا مقالاً فى جريدته حول نفس الموضوع(٢٠١).

وكانت البورصة هى محط معظم هذا الإنفاق وقد أنشأت فى عهد الخديوى إسماعيل، ويكتب بيرك عن هذا الوضع يقول:

«نشط أهل البلاط حول البورصة بائعين ومشترين فى آن وساد عدم الاستقرار البالغ وإن كان الربح موجودًا فى عمليات سوق البيع الآجل الذى يقوم عليه تسويق القطن، وفى تلك الفترة لم تعبأ تلك الأقلية بالعاملين فى أعماق الريف، وهكذا وضُعت الزراعة المصرية تحت حراسة البورصة التى أقيمت للمغامرين»(٢٠٢).

ويرد ذكر هذا الموضوع عدة مرات فى "حديث عيسى بن هشام"، وكما رأينا فى سيرة أسرة المويلحى كان هذا الموضوع قريبًا منهم لأن ثروة الأسرة بأكملها ضاعت داخل جدران البورصة، ويعبر إبراهيم المويلحى عن رأى العديد من المصريين عندما يقول فى قصته "مرآة العالم":

«لم تعرف مصر المضاربة منذ عهد بعيد ولم تشتغل بها إلا جماعات من الأجانب واليهود ثم عرَّفوا المصريين بها بالتدريج وجعلوهم يذوقون حلاوة الربح السريع، وانتشر المرض بينهم شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وساعد على ذلك جشع وكسل غالبية المضاربين المصريين ومعهم مَنْ حصلوا على الأموال مباشرة بدون كدح ولا جهد ولا ميراث ولا غيره من الأسباب»(٢٠٣).

وكان للنظام الاقتصادى الجديد الذى ساعد على إيجاد مثل هذه المؤسسات والممارسات آثار عديدة مهمة على المجتمع المصرى، إذ أخذت جماعات الحرفيين القديمة فى الاضمحلال سريعًا وساد تدهور فى الروح المعنوية بين التجار كما نرى من ممثل هذه الفئة فى قصة المويلحي، وحلت محل نظام أخلاقيات وممارسات السوق (الحسبة) أنظمة جديدة مثل الشيكات مع توفر البضائع الصناعية وصرامة التحكم فى الأنظمة المالية وفى البداية لا يعرف الباشا شيئًا عن هذه الأشياء لكنه سرعان ما يتعلم(٢٠٤) وكان من الآثار الأخرى للاحتلال البريطانى والامتيازات الأجنبية أن أصبحت مصر نقطة جذب مرغوبة للسياح ولا سيما خلال أشهر الشتاء، ويلاحظ العمدة وجماعته خلال زيارة الأهرامات عددًا من النساء الأمريكيات يتسلقن أحد الآثار، وتسنح هنا فرصة لإقناع العمدة نفسه بالتسلق، لكن المويلحى يعبر فى فقرة أخرى عن مشاعر الكثير من مواطنيه عندما يتحدث عن السياح الذين" يخدعوننا ببهرجتهم ويغرقوننا فى تفاهاتهم الرخيصة"(٢٠٥)، ويبدو أن سياسات كرومر كانت تهدف إلى منح الفلاح المصرى عددًا من الفوائد التى لم يتمتع بها من قبل، فقد تحسن الرى وزاد إنتاج القطن وأبقيت الضرائب فى الحدود المعقولة، ومع ذلك فلم يتسرب إلى الريف إلا القليل من الفوائد المادية الناجمة عن هذه الإجراءات وذلك للأسباب التى أوضحناها فيما سبق، وتولدت من النظام المالى طبقة أسماها بيرك بالبورجوازية حيث ذهبت الفوائد الرئيسة إلى غير المصريين، ومع ذلك فعلى الرغم أن مالية البلاد كانت من وجهة نظر رأسمالية معينة فى حالة أفضل عما كانت عليه عام ١٨٨٣، بما دعا بعض المحللين (وجلهم من الموظفين البريطانين السابقين) إلى الزعم بأن كرومر حقق مهمته بنجاح وتفهم كبيرين، إلا أنه يصعب عدم إدانة إدارته بسبب تدنى الاهتمام بالتعليم إلى حد كبير:

«لم تفشل المشورة البريطانية فى أى مجال بشكل صارخ قدر فشلها فى مجال التعليم ولم يكن فشلنا فى مجال هدف التعليم الجليل واضحًا إلى هذا الحد خلال فترة الاحتلال الأولى كما هو الآن، ولم يكشف عن مدى الفشل حتى بالمعيار الضيق للتقييم الذى عم النظام بأسره، إلا مؤخرًا»(٢٠٦).

لقد أعلنت السياسة البريطانية فى البداية أن الاحتلال لن يدوم طويلاً، ومن المفترض أن هذا هو سبب عدم وضع سياسة تعليمية طويلة المدى لمصر أو عدم الرغبة

ذلك، ولكن حتى عندما اتضح أن الاحتلال أمر طويل الأمد لم تبذل المحاولات لوضع خطة متكاملة، وهكذا أهملت أحد أهم الوسائل لمنح الشعب المصرى الإحساس بالاستقرار والمسؤولية، وتُرك النظام التعليمى يدبر نفسه بنفسه.

وقد أضيفت إلى نظام المدارس الدينية (الكتاتيب) المتفاوت المستويات والمتشعب مدارس حكومية ابتدائية وثانوية أقيمت خلال عهد الخديوى إسماعيل على النمط الفرنسي، وكان هذا أحد الطرق الرئيسة التى تمكن بها الفرنسيون من تنفيث غضبهم على البريطانيين، وبالإضافة إلى ذلك وجدت مدارس أجنبية تديرها الإرساليات الأجنبية عادة، ومن بين ما نجم عن هذا "النظام" بأسلوب تنظيمه وإدراته الصارم وجود أغلبية كبيرة أمية من السكان وتركز الاهتمام الكبير فيما يبدو على المدارس الثانوية على حساب المدارس الابتدائية، وبدا أيضاً أن المظاهر الخارجية طغت على النواحى الجوهرية من حيث التركيز على النجاح فى الامتحانات والحصول على الشهادات وهو مايشار إليه عدة مرات فى قصة المويلحى، وكان لهذا الوضع بطبيعة الحال أثره على طريقة التدريس والتعليم فى المدارس، ويقول ج.د. هيوورث دن:

«ظل الطلبة على طريقة التعلم القديمة بالحفظ وكانوا ينظرون إلى دراستهم من وجهة النظر المهنية البحتة، أى التوظف لاحقًا فى تلك الحكومة، وما إن يحصل الطالب على وظيفة حتى ينسى كل ما تعلمه بهذه الصورة السطحية بل لايعود يفكر فى الدراسة وكان يتخلص من كتبه المدرسية ويتوجه إلى متع الحياة»(٢٠٧).

وفى تأكيد لهذه النقطة قررت الحكومة عام ١٨٩٢ أن التعيين فى تلك الوظائف المدنية يتطلب الحصول على شهادة الابتدائية أو الثانوية وترتب على هذا القرار بطبيعة الحال "زيادة كبيرة جداً فى المتقدمين للحصول على الشهادات الابتدائية والثانوية حيث أن هذا كان يعنى ضمان الحصول على وظيفة فى الإدارة الحكومية"(٢٠٨).

وكان مما ترافق حتميًا مع هذا النظام توقع الشباب حصولهم على الوظيفة تلقائيًا بعد حصولهم على شهادة التخرج، ولكن لم تكن توجد وظائف تكفى الجميع، وفوق هذا وكما ذكرنا بدأ البريطانيون فى استخدام المزيد من الموظفين البريطانيين بعد أن طال أمد الاحتلال، وتسبب هذا فى سخط كبير فى أوساط المصريين الذين تبينوا أن "أبواب الترقية أغلقت فى وجوههم" حسب تعبير المويلحى(٢٠٩).

ويركز المويلحى اهتمامه بجانب مناقشة بعض المشاكل العامة للتعليم المصرى فى ذلك الوقت على مؤسسة تعليمية واحدة على الأقل يتعرض لها بتفصيل كبير وهى الأزهر، وكان المويلحى بحكم دراسته فى الأزهر مؤهلاً لتقديم التفاصيل إلى قرائه حول المناهج وطرق التدريس فى أشهر المؤسسات التعليمية الإسلامية على الإطلاق، وهو فى تناوله يخضع أوجه النقد المنفردة إلى مسح عام للمؤسسة والمشايخ الذين يلقون الدروس فيها يدين الجميع تماماً تقريباً، وتتحدد هذه النغمة منذ أول الفصل فبعد مقدمة أو افتتاحية تنسب فيها للمشايخ كل الفضائل الناصعة يدخل القارىء إلى محادثة يناقش فيها العلماء موضوعات مثل تملك البيوت والأراضى وحضور حفلات الزفاف وغيرها من المسائل الدنيوية، وتثار خلال مسار المناقشة بعض المشاكل التعليمية التى أشرنا إليها فيما سبق، فهناك قضية المواد"الحديثة" مثل التاريخ والجغرافيا بجانب علم "الزندقة" وهو الفلسفة وكذلك إدخال طرق جديدة للتدريس ومنها المناقشة لتحل محل نظام التعليم القديم عن طريق الحفظ (وكان الأزهر ونظام المدارس الدينية هم كبار المروجين لهذه الطريقة) والمشكلة الأوسع للصدام بين الإصلاحيين والمحافظين حول تكيف الدين الإسلامى مع احتياجات الحياة العصرية، وكان مشايخ الأزهر يعتبرون محاولات الإصلاح التى يروجها الشباب من خريجى المدارس العلمانية خطراً على الإسلام نفسه من حيث إنه ليس مجرد عقيدة دينية بل باعتباره من زوايا متعددة طريقة حياة، ويعترض المشايخ فى نص المويلحى على الطريقة التى يجرؤ بها (فى مواجهة "المعممين") على "المناقشة والحجاج والاختلاف مع المشايخ المعممين فى علمهم"(٢١٠).

ويظهر المويلحى فى نهاية الفصل معرفته بأسلوب الكتابة السائد فى أوساط المشايخ بمحاكاة ساخرة بديعة لمقالة يفترض أن أحد المشايخ كتبها، ويجد المطالع للجرائد المصرية فى مطلع القرن العديد من الأمثلة لمثل هذه المقالة، ومن المؤكد أن الصورة التى يرسمها المويلحى للأزهر ومشايخه تمتلئ بالتهكم القاسى، ولكن علينا أن ننظر فى الجزء الثانى من كتاب طه حسين "الأيام" (الذى يصف نفس الفترة تقريباً) لنرى أن وصف المويلحى للعملية التعليمية دقيق فى أساسه(٢١١)، ومن المجالات التى يصفها المويلحى ويلعب فيها التعليم الغربى دوراً مهماً مجال الطب، توجد نسختان من الفصل الذى يدور حول الأطباء، والفقرة الأساسية فى النسختين هى بوضوح التى

يلقيها الطبيب الذى ينجح فى النهاية فى تشخيص مرض الباشا واقتراح العلاج المناسب، وهو يقول إن مهنة الطب مهنة سامية وإن العلم الغربى قد أنتج الطرق والمواد التى تمكن أن تفيد أهل الشرق فائدة عظيمة بجانب فائدتها لعالم الغرب، ولكن قبل تطبيق هذه الأمور التطبيق المفيد لابد من البحث لتبين أى من هذه الطرق والمواد يصلح للتطبيق فى الشرق أو حتى يكون ضرورياً فيه، وبجانب ذلك فلابد من أطباء ينظرون إلى المهنة كمهمة بدلاً من وسيلة للارتزاق، ووجهة النظر حول مزايا الطب التى يعبر عنها المويلحى هنا تمد القراء بالمزيد من الأدلة على أن طابعه المحافظ لم يكن ليؤدى به إلى معارضة التغريب من حيث المبدأ ولكن فقط معارضة الجوانب التى تبدو سطحية أو مؤذية لسلامة وقيم المجتمع المصرى.

وتثار القضية الأوسع للتعليم فى مصر ذلك الوقت فى عدة مواضع فى نص المويلحى، ففى الفصل الذى يدور حول الأدب يتساءل الباشا عن السبب فى أن انتشار التعليم لم يؤد إلى انتشار مواكب فى قراءة الكتب ويرد عيسى عليه بالقول أن هدف التعليم فى نظر البعض هو تخريج طلاب ينجحون فى الامتحانات ويصبحون موظفين، وفى الفصل الذى تزور فيه الشخصيات الرئيسة أحد المسارح لمشاهدة مسرحية تثار عدة قضايا مهمة تتعلق بالتعليم واستيراد الثقافة الغربية، ويُدان ظهور امرأة على المسرح إدانة شديدة جماعية باعتباره "غير مقبول لشعوب الشرق ولا تسمح به عقائدها"، كما أن صديق عيسى يركز على ضرورة ملائمة ذلك الفن الغربى الخالص للعادات والأنواق الشرقية ويضيف أن "ما يراه أهل الغرب مفيداً ليس بالضرورة مفيداً لأهل الشرق"(٢١٢).

* * *

يترك اللورد كرومر ومساعدوه من أمثال اللورد ملنر والسير أوكلاند كولفين انطباعًا جازمًا فى كتاباتهم عن مصر خلال تلك الفترة بأن الإدارة البريطانية كانت ناجحة بالأساس، وبالفعل ففى إطار الحدود الضيقة لما اعتبروه مهمتهم قد يكون لهم بعض الحق فى هذا الزعم، لقد قدم كرومر إلى مصر من الهند حيث عمل مستشاراً ماليًا لنائب الملك منذ عام ١٨٨٠ومعه أوامر بضبط شئون مصر المالية وبدت الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت وكأنها تعتبر الاحتلال أمراً قصير الأمد وهكذا شرع كرومر

على الفور فى مهمة تنفيذ الإجراءات التى تساعد فى جلب الاستقرار للأوضاع المالية فى مصر ومع ذلك فبمرور الوقت اتضح أن الاحتلال سوف يكون دائمًا ولكن لم تتخذ إجراءات لجعل هذا الوضع مقبولاً أكثر لدى حكام مصر أو لدى الشعب الذى يحكمونه، وعُيِّن الموظفون البريطانيون فى مناصب كان المصريون يشعرون بأنهم هم الذين يجب أن يشغلوها، بل لقد أطلق بعض هؤلاء الموظفين البريطانيين على اللورد كرومر اسم "المتعجرف" (فى تلاعب على اسمه قبل أن يصبح لورداً وهو"بيرنج") وكان المصريون فى الغالب أقل تلطفًا وأدبًا فى تقييمهم لكرومر الذى تزايد ترفعه مع استمرار عهده فى السلطة، وربما كان السبب الأساسى فى تجوله فى مصر عبر شوارع خالية تقريبًا الأحكام الوحشية التى صبت على الفلاحين المصريين فى أعقاب حادثة دنشواى، غير أنه كان وراء ذلك رصيد من السخط عليه تضخم على امتداد فترة طويلة.

وتصور قصة المويلحى المجتمع الذى عاش هو وتحرك فيه، وفى تلك الجماعة الاجتماعية كان الناس يتظاهرون بقشرة من الثقافة الغربية، "وهكذا تغرب المصريون على الأقل فى حركاتهم وملابسهم وشرب الخمور"(٢١٣) وانجذب أفراد الأرستقراطية الريفية إلى المدن الكبرى مدفوعين بالإشاعات حول الثروات الطائلة التى تجنى فى المضاربات وحول أندية القمار وحول الحانات والمواخير وحول القروض الممنوحة بضمان محصول القطن، ويرسم كل من أحمد فتحى زغلول ومحمد عمر صوراً دقيقة للمجتمع المصرى وأفراده فى ذلك الوقت لكن عمل المويلحى ينجح فى التغلغل تحت السطح وإظهار الحركة المتزايدة للطبقات وعدم الاستقرار المالى والإحساس بالإحباط والمرارة ضد قوة الاحتلال والشعور بالحاجة إلى الإصلاح الحذر وكلها أمور كان يشعر بها الكثير من المصريين المتعلمين فى تلك الفترة التى كتب فيها "حديث عيسى بن هشام".

الخاتمة

ظهر "حديث عيسى بن هشام" فى عشر طبعات منذ ظهوره فى هيئة كتاب عام ١٩٠٧ كان آخرها عام ١٩٦٩.(٢١٤)، وعدل الكاتب الطبعة الرابعة عام ١٩٢٧ لاستخدامها كنص مقرر فى المدارس الثانوية كما أن الطبعات الخامسة والسادسة والسابعة وضُعت تحت شارة وزارة التعليم وفى عام ١٩٤٢ استخدم الكتاب كأحد النصوص فى مسابقة الطلاب للحصول على جائز: أدبية مما دعا "الدكاترة" زكى مبارك إلى كتابة سلسلة مقالاته حول الكتاب لمجلة الرسالة(٢١٥)، وتدل كل هذه الوقائع على ما يبدو على أن كتاب المويلحى سرعان ما أصبح عملاً كلاسيكيًا من أعمال الأدب العربى الحديث، ويظهرأن شخصية رئيسة أخرى من شخصيات القصة المصرية الحديثة وهو محمود تيمور قد أيد هذا الرأى عندما كتب عام ١٩٢٦ يقول:

«إذا أردنا أن نكتب عن الأسلوب القصصى الحديث فليس أمامنا سوى "حديث عيسى بن هشام"، وإذا أردنا أن نعطى شخصًا كتابًا جيدًا يقرأه فلا يوجد إلا "حديث عيسى بن هشام"... إنه أول عمل يظهر فى الأدب القصصى المعاصر يكون جديرًا بأن يوضع بحياد تام فى مقدمة الكتابات القصصية عندنا"(٢١٦).

وفى أوائل الثلاثينات كتب السير هاملتون جب سلسلة مقالاته الرائدة حول الأدب العربى الحديث ويقول فى رابع مقالة منها إنه لديه هذا الرأى فى "حديث عيسى بن هشام": "إن ما أكسب السمعة المستحقة لهذا العمل هو أسلوبه البارع وقوة الوصف فيه أكثر من القصة نفسها ومغزاها"(٢١٧)، وهذه الأحكام حول العمل مهمة فى حد ذاتها لأنها تدل فيما يظهر على أنه مع خفوت الأحداث الموصوفة فى "حديث عيسى بن هشام" فى ذاكرة الناس أكثر ومع قبول نسخة العمل فى شكل الكتاب باعتبارها النسخة الرسمية حدث إغفال لغرض المقالات الأصلية والوسط الذى ظهرت فيه، وينطبق هذا بوجه خاص على الطبعة الرابعة والطبعات التى تلتها- وهى طبعات النص المدرسى (باستثناء طبعة دار الهلال عام ١٩٥٩)، ويستطيع أى تلميذ قرأ مسرحية لشكسبير مثلاً

كنص مقرر فى المدرسة أن يشهد على حقيقة أن العمل لا يمكن أن يقرأ بنفس الطريقة مرة أخرى، وبالنسبة لعمل المويلحى فإن الصعوبة البالغة لبعض فقراته (ولاسيما السجع) جعلت منه نصًا دراسيًا صعبًا فى المدارس الثانوية، ولهذه الأسباب ولغيرها اعتبر العمل نصًا له صفات أدبية أكثر منه ذو صلة حقيقية بالفترة من خلال مضمونه، والاستثناء الوحيد لهذا التوجه خلال فترة النشر التى ندرسها هنا هو كتاب صلاح الدين الذهنى "مصر بين الاحتلال والثورة" الذى ظهر عام ١٩٣٩ وناقش بالتفصيل مضامين تحليل المويلحى لشتى الجماعات الاجتماعية المذكورة فى "حديث عيسى بن هشام".

ومن الواضح للغاية فيما يبدو أن المويلحى كان يقصد تأليف عمل له قيمة أدبية عندما بدأ نشر حلقات "فترة من الزمن"، ذلك لأن الاختيار القصدى لشخصية عيسى بن هشام كراوية واستخدام السجع ربطا العمل مباشرة بتراث المقامة، ومع ذلك فلا يمكن اعتبار حلقات المويلحى نفسها كمقامات؛ فالسجع يستخدم فقط فى بداية كل حلقة (على سبيل المقدمة الأدبية لتهيئة الموقف) أما باقى الحلقة فمكتوب بأسلوب أدبى نثرى، ولم يكن هذا هو شكل المقامة عند الهمذانى والحريرى ولاحتى عند الكلاسيكيين الجدد فى القرن التاسع عشر مثل اليازجى والشدياق؛ ومن هنا فبينما تتجه جوانب معينة من "حديث عيسى بن هشام" نحو الماضى إلى التراث الأدبى الكلاسيكى فإن الجوانب الأخرى تتطلع إلى ظهور التراث الروائى العربى، وكما رأينا فقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا قائلين إن عمل المويلحى يمثل بداية الرواية كشكل أدبى فى الأدب العربى، ولكن كما أوضحنا فى التحليل الأدبى للعمل فى فصل سابق هنا يتسم الخط القصصى فى الغالب بالوهن إلى حد أنه يختفى تقريبًا فوق أن الشخصيات مسطحة البعد ولا تمثل سوى "أنماط"، وباختصار يخضع الكاتب كل من القصة والشخصيات للهدف الأكبر الذى حدده فى المقدمة:

«هذه صورة حقيقية ألبسناها ثوب الخيال وسعينا إلى استعمالها فى التعليق على أخلاق وأحوال أهل العصر ووصف عيوب شتى طبقات الناس مما يجب تلافيه والفضائل التى يجب المحافظة عليها»(٢١٨)، والهدف واضح للغاية وقد حاولنا فى هذه المقدمة إظهار كيفية تحققه.

إن عمل المويلحى فى أسلوبه وشكله ينظر إلى الأمام وإلى الخلف فى آن، فهو من الناحية الأدبية المحضة "جسر"(٢١٩)، ومع ذلك فقد ظهر لأول مرة فى صحيفة ككل ما كتب المويلحى، ومن هنا فله قيمة هائلة كتعليق على الوضع المصرى المعاصر خلال بعض أهم سنوات الاحتلال البريطانى، وقد سعينا فى بعض أجزاء هذه المقدمة لتبيين أنه تعليق دقيق ونفاذ، ولايكاد توجه ونغمة انتقادات المويلحى تدهشنا بالنظر إلى الدوائر التى كان يتحرك فيها والآراء التى يعتقدها، وما تركه لمن بعده هو عمل فريد فى بابه أصيل، قطعة أدبية تحفل بالمواقف الجذابة، وتقدم لنا تعليقا حول جوانب المجتمع المصرى لا يؤكد فحسب الدراسات الاجتماعية والتاريخية التى أجريت على تلك الفترة بل يتجاوز ذلك ليزودنا بنظرات إضافية فى نواح أخرى فى ذلك المجتمع لم يتطرق إليها الكتاب الآخرون بالتفصيل، وهذا الجمع بين التاريخ الاجتماعى والأدب وبين الحقيقة والخيال هوالذى يخلق الجسر الحيوى بين أشكال ولغة التراث الكلاسيكى للقصص العربى وبين الموضوع العام للخيال القصصى، بين مجتمع الكاتب وبين عمليات التغير، ومما يعد امتدادًا مستمرًا لذلك العمل الرائد العظيم للمويلحى أن كل تواريخ القصص العربى الحديث تتخذه نقطة البدء لها.

هوامش الدراسة
الكاتب: محمد المويلحى

١ - لتتبع النسب الكامل للأسرة انظر مقدمة الطبعتين السادسة والسابعة "حديث عيسى بن هشام"، القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٣، ١٩٤٧، وللمزيد من التفاصيل عن **"أسرة المويلحى"** وكتابات إبراهيم محمد المويلحى انظر أحمد يوسف راميتش: أسرة المويلحى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠، وعن محمد انظر عبد الله عبد المطلب أحمد، "المويلحى الصغير"، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

٢ - قمعت الثورة الوهابية نهائياً على يد إبراهيم بن محمد على عند سقوط عاصمتهم الدرعية.

٣ - هناك شك كبير حول ميعاد مولد كل من إبراهيم ومحمد المويلحى، وتذكر معظم المراجع تاريخ ميلاد إبراهيم على أنه عام ١٨٤٤ وتاريخ ميلاد محمد فى ١٨٥٨، ومع ذلك يعبر سعد الدين بن شنب عن بعض الشك فى هذا فى "دراسات الأدب العربى الحديث": محمد المويلحى، **"المجلة الأفريقية"**، ١٩٣٩ص ٣٥٨ وما بعدها، ويذكر كارل بروكلمان تاريخ ميلاد محمد فى عام ١٨٦٨ ويسايره فى ذلك هـ. بيريس فى "أصول رواية مشهورة فى الأدب العربى الحديث" ١٩٤٤، ويذكر بروكلمان وبيريس تاريخ ميلاد إبراهيم فى عام ١٨٦٤، وإذا ذكرنا أن محمد أصبح كاتباً فى وزارة الحقانية (العدل) عام ١٨٨٢ فإن تاريخ ١٨٦٨لميلاده يجعله فتى شديد النضج فى سن الرابعة عشرة وهذا ما يرجح تاريخ ١٨٥٨ لميلاده وللمزيد من النقاش أنظر ڤيرنر إنده **"صورة أوروبا والوعى الثقافى بالذات"**، هامبورج: ١٩٦٠ص ٢١ هامش٢.

٤ - إبراهيم المويلحى الأصغر، "كراسات٢" ص(١٩٤٩) ص٣١٣ وما بعدها.

٥ - انظر الهامش ٣ أعلاه.

٦ - إبراهيم المويلحى الأصغر، "كراسات٢"، (١٩٥٤)ص ١٦٨وما بعدها.

٧ - يغطى نيكى كيدى تعاملات إبراهيم مع الأفغانى فى **"السيد جمال الدين الأفغانى: سيرة سياسية"**. بيركلى: دار نشر جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٢ص ٢٣٥ ومابعدها وص ٢٤٦ ومابعدها.

٨ - محمد كرد على، **"المذكرات"**، ترجمة خليل طوطة، المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية، برنامج ترجمات الشرق الأدنى: رقم ٦ (واشنطن، المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية، ١٩٥٤)، ٨٩.

٩ – عبد العزيز البشرى، "**المختار**"، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩، الجزء الأول، ص٢٤٦.

١٠ – شاهين باشا حسب ما أورده إبراهيم المويلحى الأصغر فى "إبراهيم المويلحى"، الرسالة ٦(١٩٣٨): ص٦١٧ وما بعدها، انظر كذلك عبد اللطيف حمزة، "**أدب المقالة الصحفية فى مصر**"، القاهرة: دار الفكر، ١٩٥٩، الجزء الثالث، ص٣٥-٣٦.

١١ – تمتلئ صحيفة "**مصباح الشرق**" التى أصدرها المويلحى بالمقالات حول أخطار المضاربة فى البورصة وحيل السماسرة فى خداع الغافلين.

١٢ – يجب الإشارة إلى أن أوثق المصادر للمعلومات حول حياة إبراهيم ومحمد المويلحى هو إبراهيم المويلحى الأصغر، وعلى الرغم من أن روايات الأسرة تلقى بالكثير من الضوء على نواح مختلفة من حياة الرجلين ولاسيما على أجواء الدسائس السياسية التى يزيدها العقاد وضوحاً فى "ما وراء التراجم"، فى "**رجال عرفتهم**"(القاهرة: كتاب الهلال، أكتوبر ١٩٦٣)فإن الكثير من هذه القصص قد تكون ضُخمتْ إلى حد ما للمبالغة فى تصوير النفوذ الذى نسب لإبراهيم المويلحى، ويشير المقتبس الذى أوردناه من "**المذكرات**" لمحمد كرد على إلى ضرورة الحذر فى تقبل هذه القصص على أنها صادقة تماماً.

١٣ – حمزة، "**أدب المقالة**"، الجزء الثالث، ص١٧.

١٤ – يستشهد إبراهيم المويلحى الأصغر بخطاب أرسله إبراهيم إلى محمد فى الخامس عشر من مارس ١٨٨٠ يطلب إرسال كتب تعليم النحو للصغار إلى إيطاليا، انظر الرسالة ٦ (١٩٣٨): ص٦١٧ وما بعدها.

١٥ – انظر "موسوعة الإسلام"، الطبعة الثانية "عرابى باشا" وچاكوب م.لانداو "**البرلمانات والأحزاب فى مصر**"، تل أبيب: دار النشر الإسرائيلية، ١٩٥٣، ص٩٤ وما بعدها.

١٦ – لوفيجارو (باريس)، العدد ٣٣١، ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤.

١٧ – يسجل كيدى بدقة فى "**السيد جمال الدين**" (ص٢٣٥ وما بعدها) هذه الأحداث فى باريس ولندن وإصدار الجرائد المختلفة.

١٨ –"إهداء الكتاب" فى كافة طبعات "حديث عيسى بن هشام"، وتوفى الشنقيطى فى القاهرة فى عام ١٩٠٤.

١٩ – فيليب دى طرازى، "**تاريخ الصحافة العربية**"، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٣-١٩٣٣، الجزء الرابع ص ١٩٦٥، وقد تدرج عارف بك فيما بعد فى سلك الإدارة العثمانية وأصبح حاكم سوريا (دمشق).

٢٠ – ظهرت تلك المقالات بشكل غير منتظم فى "**المقطم**" بين الثامن من ديسمبر ١٨٨٧ والتاسع عشر من نوفمبر ١٨٩٤.

٢١ – يصف السير رونالد ستورز مكان هذه الاجتماعات خير وصف فى كتابه "**توجهات**"، لندن: نيكولسون وواتسون، ١٩٤٥، ص٨٧ ومابعدها.

كما أناقش هذه الحلقة بتفصيل أوسع فى مقالتى "**كتابات أعضاء حلقة نازلى فاضل**"، "**مجلة مركز الأبحاث الأمريكى بالقاهرة**" ٨، (١٩٧١):ص٧٩–٨٤.

٢٢ – انظر مثلاً المقالة المشار إليها فى الهامش رقم ٢١ السالف.

٢٣ – ويلفريد سكاون بلنت، "**يومياتى**"، لندن:م. سيكر، ١٩١٩، الجزء الأول، ص١٤.

٢٤ – المرجع السابق، ص١٠٦، انظر كذلك اللورد كرومر "**عباس الثانى**". لندن: ما كميلان وشركته، ١٩١٥، ص٧ وما بعدها.

٢٥ – نشرت فى "**المقطم**" فى ١٨ أغسطس ١٨٩٣.

٢٦ – "أحد العثمانية الأفاضل"، انظر إبراهيم المويلحى الأصغر، "**إبراهيم المويلحى**"، ص٦٥٩–٦٠.

٢٧ – يمكن العثور على نص هذه المقالة المنشورة فى المقطم فى إبراهيم المويلحى الأصغر: "**إبراهيم المويلحى**"، ص٦٦٠، أنظر كذلك كرومر: "**عباس الثانى**". ص٤٥ وما بعدها.

٢٨ – فرغت من ترجمة هذا العمل لإبراهيم المويلحى إلى الإنجليزية وأمل أن أنشره فى المستقبل القريب.

٢٩ – أعلن عن أول هذين التعينين فى صحيفة "**لابروش إيچيبسيان**"، ٣ديسمبر ١٨٩٥.

٣٠ – المقالات مطبوعة فى مصطفى لطفى المنفلوطى"**مختارات المنفلوطى**". القاهرة: مطبعة السعادة (بدون تاريخ) ص١٣٩ وما بعدها، وقد ناقشت المقالتين وما رافقهما من ضجة فى"الشعر والنقد الشعرى فى مطلع القرن"، فى" **دراسات فى الأدب العربى الحديث**". جمع د.سى. أو سلى ويستمنستر، إنجلترا: أريس وفيليبس، ١٩٧٥، ص ١–١٧.

٣١ – محمد كرد على، "**المذكرات**" ص٨٩؛ وسلامة موسى، تربية سلامة موسى ترجمة أى. أو يشار شومان (ليدن: بريل. ١٩٦١) ص١٨.

٣٢ –"**مصباح الشرق**" (يشار لها فيما بعد "م ش") العدد ١١٢، ١٢ يوليو ١٩٠٠.

٣٣ - "مش"، بدءً من ١٧ أغسطس ١٩٠٠.

٣٤ - يقدم المويلحي قصته عن الواقعة في "**حادثة دراكتوس**"مش"، العدد ٢٢٩ ٨ نوفمبر ١٩٠٢.

٣٥ - "مش" العدد ٢٣٠. ١٥ نوفمبر ١٩٠٢.

٣٦ - إسماعيل صبري: "**الديوان**" (القاهرة ١٩٣٨) ص٩٤ وما بعدها.

٣٧ - "**المؤيد**" (٩) ٣٠ نوفمبر ١٩٠٢.

٣٨ - احتوى آخر عدد من الصحيفة (١٥ أغسطس ١٩٠٣) على الإعلان التالي: "**اعتذار**" مرض صاحب هذه الصحيفة ولابد أن يغير الجو ويرتاح لفترة وهو يرجو قراء الجريدة المحترمين قبول عذره لابتعاده عن العمل لمدة ثلاثين يومًا يتعافى فيها بإذن الله، ولم يصدر إعلان عن الإغلاق النهائي للصحيفة كما أن سائر الجرائد لم تعلق على الموضوع.

٣٩ - طرازي، "**تاريخ الصحافة**". الجزء الرابع ص١٨٥.

٤٠ - للمزيد من التفاصيل عن القضية انظر الكاتب (٢٨) يوليو ١٩٦٣، ص٧٤ ولإحدى القصائد انظر حافظ إبراهيم الديوان القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٣٧، الجزء الأول، ص٢٥٦.

٤١ - "الظاهر"، ٢ أغسطس - ٢ أكتوبر ١٩٠٤.

٤٢ - انظر البشري: "**المختار**" الجزء الأول، ص٢٤٤ وما بعدها والعقاد "**رجال عرفتهم**". ص٧٩ وما بعدها.

٤٣ - ستورز "**توجهات**". ص٧٤.

٤٤ - البشري "**المختار**" الجزء الأول، ص٢٤٩.

٤٥ - العقاد "**رجال عرفتهم**". ص٨٢-٤.

٤٦ - تحتوي إحدى مقالات زكي مبارك التي نشرتها "**الرسالة**" (١٠-١٩٤٢-ص٩٩٥ وما بعدها)

٤٧ - زكي مبارك في "**الرسالة**" ١٠(١٩٤٢)ص١٠٤٩.

٤٨ - محمد المويلحي، "**علاج النفس**". القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٢.

٤٩ – انظر "**ديوان لبيد**" (فيينا: سى. جيرولدرسون، ١٨٨٠) رقم ٤٦ البيــــت رقم ١٠.

٥٠ – يناقش جميس مونرو هذه الجوانب وغيرها فى فن المقامة فى "بديع الزمان الهمدانى كقص صعلوكى"، بيروت: الجامعة الأمريكية فى بيروت ١٩٨٣.

٥١ – يستكشف سى. إدمـوند بوزوورث هذا الموتيف بعمق (العنصـر القـصى المتكرر)، بما فيـه الإشارات إلى مقامات الهمدانى من بين أشياء أخرى فى كتابه "**العالم التحتى الإسلامى فى العصور الوسطى**"، ليدين:إى.ج. بريل، ١٩٧٦.

٥٢ – تذهب بعض المراجع إلى أن الهمـدانى بنى أفكاره على عمل لمحمد ابن دريد هو "**الأربعين**". أنظر GAL، الجـزء الأول، ص١٧٢–٣، و"**مـوسـوعـة الإســلام**"، الطبـعـة الأولى، (ليـدن: بريل،١٩١٢–٣٦) الجزء الثـانى، ص ٢٥٧؛ د.زكى مبـارك "**النثر العربى فى القرن الخـامس الهجرى**" (القرن العاشر الميلادى) باريس، ميسون نيف، ١٩٣١ . ٩٥–١٠٣، ويناقش .ف.ل. بيستون هذه الحجج ومقوماتها بالتفصيل فى "**أصل فن المقامة**" فى مجلة الأدب العربى (الثانى) (١٩٧١): ص ١–١٢؛ وانظر كذلك ج.ت. ماتوك، «**التاريخ المبكر للمقامة**» مجلة الأدب العربى (الخامس عشر) ١٩٤٨: ص ١–١٨.

٥٣ – انظر الهمدانى." **المقامات**". تحقيق محمد عبده، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨، ص١٠٤ وما بعدها؛ مارون عبود." **بديع الزمان الهمدانى**". القاهرة: دار المعارف، ص٣٥، ولتحليل مهم لمقامة المضيرية أنظر فدوى ملطى دوجلاس. "**مجلة الجمعية الاستشراقية الأمريكية**". المجلد ١٠٥، رقم ٢ (إبريل– يونيو، ١٩٨٥) ص٢٤٧–٥٨.

٥٤ – من بين هؤلاء ابن نباطة العوى (المتوفى عـام ١٤٠١م) والغـزالى (المتـوفى عـام ١١١١م) "**بمقامته العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء**" و السـهروردى (المتوفى عام ١١٩١م) بمقامة "**الصوفية**".

٥٥ –انظر رچيس بلاشير وبييرماسنو، "**مقامات مختارة**" (باريس، ١٩٥٧) ص٤٠.

٥٦ – *من الأعمال المهمة التى كثيراً ما يغفل ذكرها فى هذا المجال "**حكايات الشيخ المهدى**" الذى* ظهر فى ترجمة فرنسية(باريس: هنرى دبوى، ١٨٣٥)، والمترجم مستشرق فرنسى يدعى چان چاك مارسيل يقول لنا أن الشيخ محمد المهدى الحفناوى (١٧٣٧–١٨١٥) أعطاه نسخة من

عمله المكتوب بأسلوب المقامة تحت عنوان "**تحفة المستيقظ الآنس في نزهة المستتيم والناعس**"، ويضيف أنه ترجمها إلى الفرنسية، ولسوء الحظ لم يظهر النص العربي ولذا فلا نستطيع الحكم على المكانة الحقيقية له في تراث المقامة (لوكانت له مكانة). وللمزيد من المعلومات انظر عبد المحسن طه بدر، "**تطور الرواية العربية الحديثة في مصر**"، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣، ص٥٤، ومحمود شوكت،"**الفن القصصي في الأدب العربي الحديث**". القاهرة دار الفكر، ١٩٦٣، ص ١٩ وما بعدها.

٥٧ - ناصف اليازجي "**مجمع البحرين**" بيروت: دار صادر، ١٩٦٦،ص١٣٥.

٥٨ - هـ.أ.ر. جيب. "**دراسات في حضارة الإسلام**". لندن رتليدج وكيجان بول، ١٩٦٢،ص٢٤٩.

٥٩ - هنري بيريس، "**المظاهر الأولى النهضة العربية في الشرق في القرن التاسع عشر ناصف اليازجي وفارس الشدياق**".ATEO 1 (١٩٤٣، ٣٥) ص ٢٢٣ وما بعدها.

٦٠ - أحمد فارس الشدياق." **الساق على الساق فيما هو الفرياق**". **باريس** ١٨٥٥ ص وما بعدها.

٦١ - المرجع السابق، ص٥٤٧ و ٦١٨، ٦٣٣.

٦٢ - المرجع السابق، ص٦١.

٦٣ - هذه الصياغة من عند بلاشير وماسنو في "**مقامات مختارة**" ٥٢ انظر كذلك هنري بيريس"**أصول رواية مشهورة في الأدب العربي الحديث**" BEO ١٠ (١٩٤٤)ص ١١٨ وما بعدها.

٦٤ - يناقش بيترجران بالتفصيل في "**الجذور الإسلامية الرأسمالية: مصر ١٧٦٠-١٨٤٠**" (أوستين: دار نشر جامعة تكساس، ١٩٧٩ ولا سيما في الفصل الرابع والملاحق) الدور الهام الذي قام به الشيخ حسن العطار في المراحل المبكرة من النهضة المصرية.

٦٥ - يقول الطهطاوي إن هذا القسم هو "الغرض الأساسي للكتابة عن هذه الرحلة لذا أطلت فيه "**تخليص الإبريز**"، القاهرة: دار التقدم.

٦٦ - زكي مبارك. "**علم الدين**"، الاسكندرية: مطبعة جريدة المحروسة، ١٨٨٢، ص٧.

٦٧ - چاكوب م. لانداو. "**أبو نضارة، يهودي مصري وطني**" مجلة الدراسات اليهودية (١٩٥٢) ص٣٤.

٦٨ - انظر ايرين جندزير، "**الرؤى العملية ليعقوب صنوع**"، كمبريدج: دار نشر جامعة هارفارد

١٩٦٦، ص٩٢، وكيدى "السيد جمال الدين"، ص ١٨٤ وما بعدها وص ٢٠٢ وما بعدها.

٦٩ - انظر شوقى ضيف "**الفكاهة فى مصر**"، القاهرة.

٧٠ - انظر على سبيل المثال، عفاف لطفى السيد، "**مصر وكرومر**"، لندن: جون مورى، ١٩٦٨، أمام ص ٨٣.

عن مقالة نديم انظر شوقى ضيف، "**الفكاهة فى مصر**"، ص١١٩ وما بعدها؛ وعبد اللطيف حمزة، "**أدب المقالة**"، الجزء الثانى، ص١٤ وما بعدها.

٧٢ - نقل إبراهيم المويلحى هذه الصيحة فى "**أيها العلماء**" "**مش**"، العدد ٣٠، ١٠ نوفمبر ١٨٩٨.

٧٣ - أحمد فتحى زغلول، "**سر تقدم الإنجليز السكسونيين**"، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٨٩٨، ص٢٠، وللمزيد من المناقشة لهذا العمل أنظر جاك تاجر. "**حركة الترجمة فى مصر خلال القرن التاسع عشر**"، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.

٧٤ - أحمد فتحى زغلول، "**سر تقدم الإنجليز**"، المقدمة ص٣٢.

٧٥ - محمد عمر، "**حاضر المصريين و سر تأخرهم**"، القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٠٢ صفحة العنوان.

٧٦ - المرجع السابق، "كتب مفيدة"، ص١٦٢ وما بعدها وص ٥٨و ص٩٧.

٧٧ - انظر الهامش ٧٢ أعلاه.

٧٨ - "**مش**". الأعداد ٨١ و٨٦، ١٦ نوفمبر-٢٨ ديسمبر ١٨٩٩.

٧٩ - يمكن مشاهدة هذه الصورة فى "**حديث عيسى بن هشام**" نفسه، الطبعة الثالثة، ص٣٧، وما بعدها وص٢٤٦ وما بعدها، الطبعة التاسعة، ص١٤٧ وما بعدها وص١٥٢ وما بعدها.

٨٠ - انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الفصل الثامن وكما لاحظنا فى الفصل الخاص بسيرة الكاتب هنا اشتغل محمد المويلحى فى الإدارة الحكومية لفترة قصيرة.

٨١ - انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الأولى، القاهرة مطبعة المعارف، ص٣.

٨٢ - على سبيل المثال يذكر كل من المويلحى وعمر أن السياح يزورون حفلات الزفاف ويلتقطون الصور بكاميراتهم (التى يصفها الكاتبان بالسلال) انظر "**حاضر المصريين**"، ص١٣ و"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ص٢٩٤، والطبعة التاسعة، ص١٧٦.

٨٣ – انظر هنرى بيريس، "**أصول رواية مشهورة**"، ص١٠١ وما بعدها وعلى الراعى، "**دراسات فى الرواية المصرية**"، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص١٢.

٨٤ – وقد نشر وصفًا لهذه الرحلات هو "**رحلات فى سوريا ومصر**"، ١٧٨٣، ١٧٨٤و ١٧٨٥، دبنى: برنت وهوايت وبيرت وويورتر ومور ودورنين، ١٧٨٨ وأود هنا الإشارة إلى الراحلة نادية فرج التى كانت أول من لفت نظرى إلى أوجه الشبه بين العملين .

٨٥ – انظر يوسف سركيس. "**معجم المطبوعات العربية والمصرية**"، القاهرة: مطبعة سركيس، كذلك توجد إشارة إلى ترجمة سابقة فى ميخائيل ميشاقة، "**الجواب على اقتراح الأحباب**": نقله أكبرت صورانى فى الفكر العربى فى العصر الليبرالى، ص٥٩.

٨٦ – يستعمل المويلحى أسلوبًا مشابهًا فى قصته "**مرآة العالم**" المذكورة فى الفصل الأول هنا، انظر كذلك جود فريد ودمر "**مرآة العالم**" فى "**عالم الإسلام**"، السلسلة الجديدة ٣ (١٩٥٤) ص٥٧ وما بعدها.

٨٧ – انظر سعد الدين بن شنب،"إدمون أبوت والمويلحى"**المجلة الأفريقية**"، (١٩٤٤) ص٢٧٠ وما بعدها، وتسجل سجلات الأكاديمية انضمام أبوت لها (١٨٨٠–٨٩) ص١٠٧٣ و ١٠٩٩.

٨٨ – إدمون أبوت، "**الفلاح**" (ترجمها إلى الإنجليزية السير راندال روبرتس) لندن: تشابمان وهول، ١٨٧٠، ص١٤١.

٨٩ – تستخدم هذه العبارة بالضبط فى مقدمة طبعات "**حديث عيسى بن هشام**".

تطور النص

"فترة من الزمن"

٩٠ – "**مصباح الشرق**"، العدد ٣٠، ٥ يناير ١٨٩٩.

٩١ – "**م.ش**" العدد ٣١، ١٧ نوفمبر ١٨٩٨، كانت كل الحلقات فى مكان المقالة الافتتاحية ما عدا واحدة وهى التى تصف باريس، "**م.ش**". العدد: ١١٨، ٣١ أغسطس-١٩٠٠.

٩٢ – "**م.ش**" العدد ٢١ ٨ سبتمبر ١٨٩٨، وهذه المقالة مع الثلاث الأخريات التى نتعرض لها (فى الهوامش ٥ ٦. ٧) مترجمة ومدرسة بالتفصيل فى مقالى"**بعض مادة جديدة للمويلحى**"، "**مجلة الدراسات الإنسانية الإسلامية**" ٢ (١٩٧٤) ص١٣٩–٨٠.

٩٣ - "م.ش". العدد ٢٣، ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨.

٩٤ - "م.ش". العدد ٢٤، ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨.

٩٥ -"م.ش". العدد ٢٥. ١٧ نوفمبر ١٨٩٨.

٩٦ - انظر "م.ش". العدد ٤٠، ١٩ يناير ١٨٩٩، وهذه المقالة أيضًا مترجمة فى مقالى المذكور فيما سبق (ص٣).

٩٧ - "**حديث عيسى بن هشام**"، الفصول ١٩-٢٢.

٩٨ - شخصية العمدة كانت شبه نمطية فى تلك الفترة كنموذج للأرستقراطى المحلى وتحتفظ معظم المراجع الغربية التى تعلق على دوره بالكلمة العربية بدلاً عن اختيار مرادف إنجليزى مثل "رئيس القرية" أو "العمدة" (بالمعنى الغربى) حيث إن كليهما غير مناسب، ومن قد احتفظت بالاسم العربى فى هذا العمل لأتحاشى طمس الارتباطات العامة المحيطة بالاسم فى حالة البحث عن اسم مقابل بالإنجليزية.

٩٩ - "م.ش". الأعداد ١٩٢و ١٩٦ فى ١٣ و٢١ فبراير و١٤ مارس ١٩٠٢.

١٠٠- انظر "**كل شىء والعالم**" ٢٢مارس ١٩٣٠، ص٢٠.

١٠١- الطاعون، "م.ش". العدد ٥٧، ١ يونيو١٨٩٩.

١٠٢- تستخدم فقط الافتتاحية من هذه الحلقة فى الكتاب كبداية للفصل السادس عشر المعنون "الطاعون"، أما الباقى فهو مترجم فى مقالتى. "**بعض مواد جديدة عن المويلحى**" "**مجلة الدراسات الإنسانية الإسلامية**"٢ (١٩٧٤) ص١٣٩-٨٠.

١٠٣- حول موضوع الماسونية انظر جاكوب لانداو "**مقدمة لدراسة الجمعيات السرية فى مصر الحديثة**". "**دراسات الشرق الأوسط**" ١، العدد٢ (يناير ١٩٥٦).

١٠٤- انظر "م.ش". العدد ٥٩. ١٥ يونيو ١٨٩٩، والفصل المعنى هو الفصل الحادى والثلاثون، "**قصر الجيزة والمتحف**".

١٠٥- هذه المقالة مترجمة فى بحثى "**بعض مواد جديدة عن المويلحى**"**مجلة الدراسات الإنسانية الإسلامية**" ٢ (١٩٧٤)ص ١٣٩-٨٠.

١٠٦-"م.ش". العدد ٦٣، ١٣ يوليو ١٨٩٩، ومع ظهور "**مرآة العالم**" أخذ محمد المويلحى يوقع حلقات "فترة من الزمن" بحرف الميم منذ ذلك التاريخ بينما وقع إبراهيم بحرف الألف.

١٠٧–لهذه التعديلات في النص بالطبع أهمية كبرى في أية دراسة لرسم الشخصيات في "حديث عيسى بن هشام"، وتناقش هذا الجانب بالذات من مراجعة المويلحي النص في الفصل التالي المعنون "تقييم أدبي".

١٠٨– "مش"، العدد ٢٠١ ٢٦ إبريل ١٩٠٢.

١٠٩– "مش"، الأعداد ٨٧–٩٢، ١٠٣، ١٠٧: ٤ يناير إلى ١٠فبراير و١١ مايو إلى ٨ يونيو ١٩٠٠.

١١٠– حرفيًا "لو طال بي الأجل سأضيف رحلة ثانية إلى الأولى"انظر "حديث عيسى بن هشام"، المطبعة الثالثة، ص٤٥٩.

١١١– يذكر عمر الدسوقي إعلان الوزارة بهذا الصدد في "نشأة النثر الحديث وتطوره، القاهرة": مطبعة الرسالة، ١٩٦٢، ص٦٣٨.

١١٢– لفتنا النظر فيما سبق إلى حلقات باريس الأخرى التي لم توضع في نص الكتاب على الإطلاق.

١١٣– "مش"، العدد ١١٢، ١٣ يوليو ١٩٠٠.

١١٤– زكي مبارك "حديث عيسى بن هشام" الرسالة ١٠ (١٩٤٢): ص١٠٣٦.

١١٥– انظر مثلاً نقده لديوان أحمد شوقي المنشور في "مش". الأعداد ٩٩ و١٠٢و ١٠٤و الذي أعيد نشره في مصطفى لطفي المنفلوطي،"مختار المنفلوطي". القاهرة: المكتبة التجارية (بدون تاريخ) ص ١٣٩ وما بعدها وأناقش هذه المقالات بالتفصيل في "الشعر ونقد الشعر في مطلع القرن" في "دراسات في الأدب العربي الحديث"، جمع د. س. أوسلي، وأرمنستر (إنجلترا): أديس وفيليبس، ١٩٧٥، ص١–١٧.

١١٦– انظر عبد اللطيف حمزة، "أدب المقالة الصحفية في مصر" الجزء الثالث، ص٧٧.

١١٧– "مش". العدد ٢٠٠، ١٩ إبريل ١٩٠٤؛ وكذلك العدد ٢٤٩، ١٨ إبريل ١٩٠٣.

١١٨– "مش"، الأعداد ٨١–٩٣، ١٦ نوفمبر ١٨٩٩ إلى ٢٢ فبراير ١٩٠٠.

١١٩– على سبيل المثال "خطبة عيسى في "حديث عيسى بن هشام"، الطبعة الثالثة، ص٤٤ وما بعدها، والطبعة التاسعة، ص٢٧ وما بعدها.

١٢٠– المرجع السابق الطبعة الثالثة، ص٣٦، والطبعة التاسعة ، ص٢١.

١٢١- "مصر وحدها" "مِش"، العدد ٢٢، ١٥ نوفمبر ١٨٩٨، انظر كذلك "مِش" العدد ١٤٨، ٥ إبريل ١٩٠١ لمقالة حول نفس الموضوع.

١٢٢- "العادة محكمة" "مِش"، العدد ١٢٩، ١٦ نوفمبر ١٩٠٠.

١٢٣- "مِش". العدد ٩٩، ٦ إبريل ١٩٠٠.

١٢٤- "مِش". العدد ٦٩، ٢٤ أغسطس ١٨٩٩.

١٢٥- التصدير لكل طبعات "**حديث عيسى بن هشام**".

١٢٦- من الاستثناءات لهذا صلاح الدين الذهني. "**مصر بين الاحتلال والثورة**" القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٩، وارنر إنده، "**صورة أوروبا والوعي الثقافي بالذات بين المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر وفق كتابات الكاتبين المصريين إبراهيم ومحمد المويلحي**"، جامعة هامبرج، ١٩٦٥؛ وفي الفترة الأخيرة أحمد راميتش. "**أسرة المويلحي**"، القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٠؛ وأحمد إبراهيم الهواري، "**نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام المويلحي**"، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١؛ وألاحظ بأسف أن أيًا من الكتابين الأخيرين لايذكر الأبحاث السابقة للأستاذ إنده أولى.

تقييم أدبي

١٢٧- للاستثناءات من هذا النمط انظر عبد المحسن طه بدر، "**تطور الرواية العربية الحديثة في مصر**"، ص٦٨-٦٩ وعلى الراعي "**دراسات في الرواية المصرية**"، ص٩. "حاول الكاتب تغطية قرص النقد الإجتماعي المرير بقليل من السكر المكون من المادة الخيالية، مجرد قليل".

١٢٨- انظر عبد الرحمن الرافعي، "**عصر محمد علي**"، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١، ص١٩١و ٢٣٨.

١٢٩- كمثال، الفقرات المسجوعة في الفصل الحادي عشر "المحامي الشرعي" والفصل الرابع عشر "قصر حفيد الباشا".

١٣٠- كمثال، ظهور شخصية العمدة الجديدة المهمة "مِش". العدد ٨٠، ٩ نوفمبر ١٨٩٩ بعد توقف دام شهر ونصف وحلقة المرابي "مِش". العدد ١٠٣، ١١مايو ١٩٠٠.

١٣١- نناقش هذا النظام بأسره في الفصل التالي.

١٣٢- كمثال، "**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة، ص٢٤و٣٣؛ أو الطبعة التاسعة، ص١٣و ١٩ ويرى هنرى جميس أن " دور الروائى فى بيت الخيال هو إن لم يكن دور الناظر من خلال ثقب المفتاح فهو على الأقل دور المشاهد من النافذة" أورده أيان دات، "**نشأة الرواية**". لندن كتب بيريجرين، ١٩٦٦، ص٢٠٨.

١٣٣- "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ٢ص٢٩٠ الطبعة التاسعة، ص١٧٤.

١٣٤- "**حديث عيسى بن هشام**" الطبعة الثالثة، ص٣٧١ وما بعدها الطبعة التاسعة ،ص٢٤٦ وما بعدها.

١٣٥- يبرز غلاف الطبعة التاسعة (**الدار القومية**) هذا الرأى بشكل فاقع.

١٣٦- على الراعى، "**دراسات فى الرواية المصرية**"، ص٢١.

١٣٧- "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص١٢٥ الطبعة التاسعة، ص٨١.

١٣٨- هنرى جميس حسب ما أورد برسى لبوك فى "**صنعة الرواية**". لندن: جوناثان كيب، ١٩٦٣ ،ص٧٢.

١٣٩- محمود شوكت، "**الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث**"، القاهرة: دار الفكر، ١٩٦٣، ص٢٧.

١٤٠- نشرت عام ١٩٠٦ وتحتوى على مقتطف من "**فترة من الزمن**" انظر حافظ إبراهيم "**ليالى سطيح**"، القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٤، ص٢٩.

١٤١- إى. أم فورستر، "**جوانب من الرواية**"، لندن : كتب بنجوين، ١٩٦٢ ص٨٥.

١٤٢- "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٩٦و ٤٤٣-٤٤٤ والطبعة التاسعة، ص٦٣و ٢٦٥-٦.

١٤٣-شوكت، **الفن القصصى**. ص٢٧.

١٤٤-"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ص٤٥٨؟ والطبعة التاسعة ص٢٨٤.

١٤٥-"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٢٦٥.

١٤٦-"**حديث عيسى بن هشام**" الطبعة الثالثة، ص٤٢٨ والطبعة التاسعة ص٢٦٢.

١٤٧-"**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة، ص٤٠٤ والطبعة التاسعة ص٢٤٦

١٤٨-"**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة، ص٤٠٦و ٤١٧ الطبعة التاسعة ص٤٨و ٢٥٥.

١٤٩- على سبيل المثال الفصل الثالث والعشرون (الزفاف) والفصل الثامن والعشرون (العمدة فى المرقص).

١٥٠- انظر عبد المحسن طه بدر "**تطور الرواية**"، ص٧٦.

١٥١- "**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة، ص١٤٤ والطبعة التاسعة ص٩٥.

١٥٢-"**ابنى صائغ جواهر**" فى "**كل شىء والعالم**"، ٢٢ مارس ١٩٣٠، ص٢٠.

١٥٣- "**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة ص٤٤ الطبعة التاسعة ص٢٧.

١٥٤-هـ.أ.ر.جب "**دراسات فى حضارة الإسلام**"، لندن: رتليدج وكيجان بول، ١٩٦٢، ص٢٩٠.

١٥٥- انظر "**الزهور**"، فبراير ١٩١٣، ص ٥٦٩.

١٥٦-أحمد أبو بكر إبراهيم، "**حديث عيسى بن هشام**" **الرسالة** "١٠ (١٩٤٢) ص١٠٨٠.

صورة المجتمع المصرى عند المويلحى

١٥٧- يُعالج موضوع المجتمع المصرى عند المويلحى فى: عبد اللاه عبد المطلب أحمد، "**المويلحى الصغير**"، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥، وأحمد إبراهيم الهوارى، "نقد المجتمع فى **حديث عيسى بن هشام** للمويلحى"، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١ ولا يبدو عند الكاتبين أية معرفة بهذا الفصل، ولإشارات محددة إلى التواريخ فى"**حديث عيسى بن هشام**" انظر الطبعة الثالثة، ص٥٩، ١٧٧، ٩٧ والطبعة التاسعة ص٣٧، ١١٧، ٦٣.

١٥٨- انظر عفاف لطفى السيد، "**مصر وكرومر: دراسة فى العلاقات الإنجليزية المصرية**". لندن:جون مورى، ١٩٦٨، ص١٩٦.

١٥٩-"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ص١٠٧.

١٦٠-انظر أبو سيف"**نجيب الريحانى** الهزل إلى الكوميديا الاجتماعية"، مجلة الأدب العربى٤ (١٩٧٣)، ص ١-١٧.

١٦١- ج. ماكوان. "**مصر كما هى**"، لندن : كاسيل بتروجالبين، ١٨٧٧و ١٨٩٨، ص٢٧٦.

١٦٢- چون مارلو، "**تاريخ مصر الحديثة والعلاقات الإنجليزية المصرية**" لندن: كريسيت، ١٩٥٤، ص١٣٥، هامش٢.

١٦٣- ماكوان، "**مصر كما هي**" ص٢٧٨.

١٦٤- كان الكثير من المصريين بمن فيهم مصطفى كامل وعبد الله النديم وحافظ إبراهيم ينظرون للسوريين على أنهم "دخلاء"، انظر حافظ إبراهيم "ليالى سطيح"، ص٩٩ وما بعدها، وجمال أحمد "**الأصول الفكرية الوطنية المصرية**"، لندن: دار نشر جامعة أكسفورد، ١٩٦٠ (أعيدت طباعته فى ١٩٦٨)ص٨٢.

١٦٥- جاسبر برنتون، "**المحاكم المختلطة فى مصر**": نيوهيڤن: دار نشر جامعة بيل،١٩٣٠، ص٢٠٥.

١٦٦- توجد إشارة إلى هذا الأثر فى الحلقة الأصلية التى تظهر فى الكتاب كالفصل العاشر لكنها حذفت من النص عند ظهوره فى هيئة كتاب انظر مقالتى "**حديث عيسى بن هشام**": الفقرات المحذوفة" الجزء الأول "**عالم الإسلام**"، السلسلة الجديدة ٢، ص١٤٦.

١٦٨- اللورد كرومر. "**مصر الحديثة**". لندن: ماكميلان، ١٩٦٨، الجزء الثانى ص٥١٥.

١٦٩- اللورد ملنر. "**انجلترا فى مصر**". لندن إدوارد ارنولد، ١٨٩٩، ص٣٥١.

١٧٠- كرومر، "**مصر الحديثة**"، الجزء الأول ص٤٢١، من الواضح أنه لا يمكن اعتبار اللوردين كرومر وملنر كمعلقين منحازين على الأوضاع فى مصر غير أنه من المهم أن نحدد المدى الذى تتطابق فيه تعليقاتهما مع مشاعر المويلحى حول هذا الموضوع بالذات كما عبر عنها فى "**حديث عيسى بن هشام**".

١٧١- انظر حديث عيسى بن هشام، الطبعة الثالثة ص٤٧" والطبعة التاسعة ص٢٩.

١٧٢- ملنر. "**انجلترا فى مصر**". ص٣٣٧.

١٧٣- انظر"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ص٣٢٩، والطبعة التاسعة، ص١٩٩.

١٧٤- السير أوكلاند كولفين، "**صناعة مصر الحديثة**"، لندن: سيلى وشركاه، ١٩٠٦، ص٢٠٠.

١٧٥- أرنولد رايت (جامع)، "**مصر فى القرن العشرين**"، لندن دار نشر لويد بريطانيا العظمى، ١٩٠٩، ص١٠٢.

١٧٦-نويل كولسون، "**القانون الإسلامى**" "**العروض الإسلامية؟**". إدنبرة: دار نشر جامعة إدنبرة، ١٩٦٤، ص٢٠٤.

١٧٧- ترجمت هذه الحلقة فى مقالتى "**بعض المواد الجديدة عن المويلحى**" مجلة_"**الدراسات الإنسانية الجديدة**" (١٩٧٤) ص١٦٣-٧٢.

١٧٨-برنتون،"**المحاكم المختلطة**"، ص٢٨٣.

١٧٩-أ. سيلفا هوايت "**توسع مصر فى ظل الإدارة المشتركة الإنجليزية -المصرية**" لندن: ميثوين وشركاه، ١٨٩٩، ص٢٥٤.

١٨٠- ملنر."**انجلترا فى مصر**"، ص٣٣١.

١٨١- المرجع السابق، ص٣٣١.

١٨٢- هنرى إيروت، "**الفلاح المصرى**". ترجمة ج. ألدين ويليامز بوستون. دار نشر بيكون، ١٩٦٣، ص٣٠.

١٨٣- إيروت،"**الفلاح المصرى**"، ص٣١.

١٨٤- حميد عمار، "**النشوء فى قرية مصرية**"، لندن: رتليدج وكيجان بول، ١٩٥٤، ص٦١، وبوك. "**مصر**" ص٤٧.

١٨٥- إيروت،"**الفلاح المصرى**". ص٣١.

١٨٦- كرومر. "**مصر ١**" (١٩٠٥) الوثيقة رقم ٢٤٠٩ (سجلات وأوراق وزارة الخارجية البريطانية)ص٥١٠.

١٨٧- ملنر. "**انجلترا فى مصر**"، ص٣٤١.

١٨٨- للمزيد من الأمثلة أنظر كذلك توفيق الحكيم، "**يوميات نائب فى الأرياف**" (الترجمة الإنجليزية "**متاهة العدالة**"، ترجمة أوبرى إيبان، لندن: دار هارفيل، ١٩٤٧)؛ وكذلك رواية "**الأرض**" لعبد الرحمن الشرقاوى وظهرت بعد الثورة (الترجمة الإنجليزية "**الأرض المصرية**"، ترجمة ديزموند ستيورات، لندن: هينمان، ١٩٦٢ وأعيدت طباعتها فى دلهى: دار الهند لكتب الجيب،(١٩٧٢).

١٨٩- كولفين،"**صناعة مصر الحديثة**". ص١٩٨.

١٩٠- برنتون، "**المحاكم المختلطة**". ص٢٤٨ "**النظرة الأشمل للمجتمع المصرى**"

١٩١- مما يشار إليه فى هذا الصدد حادثة فاشودة عام ١٨٩٨ عندما أجبر البريطانيون الفرنسى مارشان على الانسحاب من ذلك الموقع بالسودان، وكانت "**مصباح الشرق**" تتابع وقائع هذه الحادثة عن كثب فى أعمدتها.

١٩٢-توم ليتل ،"**مصر**": لندن إرنست بن، ١٩٥٨ ص٩٥.

١٩٣-پ.ج. إلجود،"**مصر والجيش**"، لندن: همفرى مبلغورد، ١٩٢٤ ص٦.

١٩٤-انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٢٤٥.

١٩٥-انظر "**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة ص٢٦٢.

١٩٦-ديفيد لاندس، "**مصرفيون وباشوات**" فى ويليام ميللر. "**رجال فى الأعمال: مقالات فى تاريخ الأعمال**". كمبريدج: دار نشر جامعة هارڤارد، ١٩٥٢، ص٢٩.

١٩٧-"**مرآة العالم**" التى نوقشت فى الفصل الأول (السيرة) فى هذه المقدمة.

١٩٨-"**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٣٢٩، الطبعة التاسعة ص١٩٩.

١٩٩- إلجود، "**مصر والجيش**" ص١٣.

٢٠٠- انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٣٢٩ والطبعة التاسعة، ص١٩٩.

٢٠١-المرجع السابق الطبعة الثالثة، ص٤٠٧، والطبعة التاسعة، ص٢٤٨. انظر أيضًا جمال أحمد."**الأصول الفكرية للوطنية المصرية**"، ص٦٨.

٢٠٢-بيرك. **مصر**. ص٢٤٨و ٢٥٢.

٢٠٣- إبراهيم المويلحى. "**مرآة العالم**" "**مصباح الشرق**"، العدد ١٠٩، ٢٣ يونيو ١٩٠٠ وأعيدت طباعته فى "**كوكب الشرق**"، ٢٠ إبريل ١٩٣٠.

٢٠٤-انظر "**حديث عيسى بن هشام**". الطبعة الثالثة، ص٣٩، ١١٧ والطبعة التاسعة ص٢٣و٧٦.

٢٠٥-انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة ٣٥١.

٢٠٦- ڤالنتين شيرول، "**المشكلة المصرية**". لندن: ماكميلان، ١٩٢٠، ص٧٧.

٢٠٧- ج.د. هييوورث- دن: "**مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة**". لندن: لوزاك وشركاه، ١٩٣٨، ص٢٢٧-٢٨؛ ويحتوى نص المويلحى على رأى متطابق تقريبًا مع هذا فى "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٢٠٨ والطبعة التاسعة ص١٣٨.

٢٠٨- من كرومر إلى روزبرى (القاهرة فى ٩ مارس ١٨٩٣) أورده مورد بيرجر فى "**البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة**"، برنستون: دار نشر جامعة برنستون، ١٩٥٧، ص٧٩.

٢٠٩- إلجود. "**مصر والجيش**". ص١٦ "**حديث عيسى بن هشام**": *الطبعة الثالثة* ص٢٢٨و ٢٤٥ والطبعة التاسعة، ص١٤٨.

٢١٠-انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٢١٦-٧.

٢١١-متاح بالإنجليزية تحت عنوان "**مجرى الأيام**"، ترجمة هيلارى ويمنت، القاهرة دار المعارف، ١٩٤٣.

٢١٢- انظر "**حديث عيسى بن هشام**"، الطبعة الثالثة، ص٤٥٢ الطبعة التاسعة ص٢٧٩.

٢١٣- بيرك، **مصر** ص٢١٣.

الخاتمة

٢١٤- الطبعة الأولى ١٩٠٧و الطبعة الثانية ١٩١٢و الطبعة الثالثة ١٩٢٣و الطبعة الرابعة ١٩٢٧و الطبعة الخامسة ١٩٣٥ والطبعة السادسة ١٩٤٣ والطبعة السابعة ١٩٤٧ وطبعة كتاب الهلال ١٩٥٩ والطبعة التاسعة (الدار القومية) ١٩٦٤ والطبعة العاشرة (بيروت) ١٩٦٩.

٢١٥- زكى مبارك."**حديث عيسى بن هشام**" الرسالة١٠ (١٩٤٢) ص٩٩٥ وما بعدها و١٠١٦ وما بعدها و١٠٣٥ وما بعدها.

٢١٦- محمود تيمور فى "**مجلة الأكاديمية العربية بدمشق**" (١٩٢٦) ص٢٦٢.

٢١٧- هـ.أ.د. "**دراسات فى حضارة الإسلام**"، ص٢٩٠.

٢١٨- مقدمة كل طبعات "**حديث عيسى بن هشام**".

٢١٩- عباس خضر، "**القصة القصيرة فى مصر**" القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٦ص٥٢.

حديث عيسى بن هشام

أو

فترة من الزمن

محمد إبراهيم المويلحي

حديث عيسى بن هشام

أو

فترة من الزمن

لمنشئه

محمد المويلحي

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول إلا حقاً

سنة ١٣٢٤ — ثمنه عشرون قرشاً — سنة ١٩٠٧

طبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

١– صورة غلاف الطبعة الأولى من كتاب «حديث عيسى بن هشام».

إهداء الكتاب

ألف المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهدائها إلى بعض ذوى الشأن والفضل، والضعيف العاجز يهدى هذا الكتاب إلى كل من يقرأه: من أديبٍ يجد فيه طرفاً من الأدب، وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة، وعالمٍ يبصر فيه شذرةً من العلم، ولغوىٍّ يصادف فيه أثراً من الفصاحة، وشاعرٍ يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال.

وأهديه إلى أرواح المرحومين الأديب الوالد والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدّبت بأدبهم وأخذت عنهم.

وأهدي ***هذا الكتاب الذى***[1] اختصّنى به المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب؛ لما تضمّنهُ من الحث على طلب العلم والمعرفة وأدب النفس وحسن أسلوبه فى كتب المودات، وهو لا يزال عندى إماماً يهدينى، ونوراً أستضىء به فأردت أن أشاركهم فى هذه الذخيرة التى يحق الضن بها، والحرص عليها، ونقلته هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة، وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين فى اقتناء الرسائل التى تكون صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم، ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم، ويبذلون فى سبيل ذلك من الأموال والمساعى ما لا يقدّر فإنى أكون قد أهديت لأهل[2] الفضل هدية يعتدون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء اللّه.

١- ط4: هذه الرسالة التى.

٢- ط 4: إلى أهل

حبيبي الفاضل

تقلّبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها، وخوضُك في فنون الاداب يريح قلوباً علّقت بك آمالها، وليس بعد الإرهاص إلاّ الإعجاز، ولك يومئذ التحديَ ولقد تمثّلت اللطيفة الموسويّة في مصر كرّةً أخرى، وهذا توفيق من الله تعالى، فاشدد أزرها، وأبرمْ بما أُوتيتَ من الكياسة والحذق أمرها، حتى تكون كلمة الحق هي العليا، ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها، وحسبوا أنهم يحسنون صنعاً ويصلحون أمراً، وكن عوناً للحق ولو على نفسك، ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عُجبك، لا نهاية للفضيلة ولا حدّ للكمال، ولا موقف للعرفان، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام.

جمال الدين الحسيني الأفغاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى القرشىّ الأبطحىّ التهامىّ المكىّ المدنىّ وآله الطيبين الطاهرين، وبعد فهذا جمع ما انتشر متفرقًا فى جريدة «مصباح الشرق» من حديث عيسى بن هشام، أفرغناه فى قالب كتاب بعد أن أجلنا فيه نظرة تدقيق وتحقيق دعت إلى التهذيب والتنقيح والتغيير والتبديل والحذف والإضاف، إذ كان ما تجرى به الحال فى صحيفة هى بنت الساعة وخطرة اليوم لا يتّسق لكتاب يدور مع الزمن ويتردد على النظر، «والحديث» فى نفسه إن كان موضوعًا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال، لا أنه خيال مصنوع فى صبغة حقيقية قصدنا به أن نشرح الأخلاق والأطوار، ونصف ما عليه الناس من النقائض التى ينبغى اجتنابها، والفضائل التى يجب التزامها، ومن الله التوفيق لكل حال وبه التسديد فى كل مقال وفعال.

* حدثنا عيسى بن هشام قال: رأيت فى المنام، كأنى فى صحراء «الإمام»، أمشى بين القبور والرّجام، فى ليلة زهراء قمراء، يستر بياضها نجوم الخضراء، فيكاد فى سنا نورها ينظم الدرَّ ثاقبُه، ويرقب الذرَّ راقبهُ، وكنت أحدّث نفسى بين تلك القبور، وفوق هاتيك الصخور، بغرور الإنسان وكبره، وشموخه بمجده وفخره، وإغراقه فى دعاويه، وتغاليه فى تعاليه، واستعظامه ونسيانه لرمسه، فقد شمخ المغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك، استكباراً لما جمع واستعلاء بما ملك، فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقًا فى لحده، بعد أن وارى تحت صفائحه صحائف عزه ومجده، ومازلت أسير وأتفكر، وأجول وأتدبر، حتى تذكرت فى خطاى فوق رمال الصحراء، قول الشاعر الحكيم أبى العلاء:

خفّف الوطء ما أظن أديمَ الـ * أرض إلاّ من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدُم العـ * ـهد هوان الآباء والأجداد

سر إن اسطعت فى الهواء رويـ * ـداً لا اختيالاً على رُفات العباد

فخففت وطء القدم، وإنّ فى غُمار تلك الرمم لمباسم طالما حوَّل العاشق قِبلَته لقبلتها، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها، قد امتزجت بغبار الغبراء واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء.

وتذكرت أن تلك الخدود التى كان يغار منها الورد فيبكى بدموع الندى، ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوى، ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران، أو ابن ماء السماء فى شقائق النعمان، ويتموج[1] فيها ماء الحياء وماء الشباب، قد طوَى الدهرُ حسنها طىّ الكتاب، وصارت بحكم القضاء أديماً لوجه الفضاء.

وأن تلك العيون التى صادت بأهدابها الملوك الصيد، فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد، وسحرت ببابل هاروت وماروت، وأوقفت موقف الاستكانة ربِّ الجلال والجبروت،

(*) مصباح الشرق عدد ٣١ بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٨٩٨ وسنختصر بعد ذلك إلى م. ش، يعقبها رقم العدد، ثم التاريخ إن استلزم الأمر ذلك.

(١) ط 4: يترقرق.

يلتمس – والتاج في يمينه، وعرَق الحياء فوق جبينه – من خلال لحظاتها قبولاً، كسائل يمدّ لالتماس الإحسان كشكولاً، قد أصبحت تراباً تحت الرمس، كأن لم تفتن بالأمس.

وأن ذلك الفاحم الأثيث من الشَعَر، الخاطف ببريقه سواد القلب والبصر، قد حصدته من منابته يد الزمن، فنسج الأجل منه ثوب الكفن وأن تلك النهود التى كأنها حقاق من لجين تزينت بحب من المرجان، أو كرات من جليد بثق فيها زهر من الرمان، قد أصبحت كالمخلاة على الصدر، تحمل الزاد لدود القبر:

كم صائنٍ عن قُبلة خدَّه — سُلطَت الأرض على خـــدّه
وحاملٍ ثقل الثرى جيدُه — وكان يشكو الضعف من عقده

وأن تلك الرُّفات والعظام، من بقايا الملوك العظام، الذين كانوا يستصغرون الأرض داراً، ويحاولون عند النجوم جواراً، – وتلك الضلوع التى انحنت على البطش والحلم، والشفاه التى طالما لفظت أمر الحرب والسلم. وتلك الأنامل التى كانت تبرى القلم للكتاب، وتبرى بالسيوف الرقاب، وتلك الوجوه والرؤوس، التى استعبدت الأبدان والنفوس ووصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس، قد تساوى الرئيس فيها بالمرؤوس فلا تفريق اليوم ولا تمييز، بين الذليل منها والعزيز:

هو الموت مثرٍ عنده مثل مقـــترٍ — وقاصد نهج مثل آخر ناكـــــب
ودرع الفتى فى حكمه درع غادةٍ — وأبيات كسرى من بيوت العناكـب
فرجل فى غبراء والخطب فارسٌ — ومازال فى الأهلين أشرف ركـــب
وما النعش إلا كالسفينة رامـــيًا — بغرقاه فى موج الردى المتركـــب

وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر، وتلك الخواطر والفكر، أتأمل فى عجائب الحدثان، وأعجب من تقلب الأزمان، مستغرقًا فى بدائع المقدور، مستهدياً للبحث فى أسرار البعث والنشور؛ إذا برجة عنيفة من خلفى، كادت تقضى بحتفى، فالتفت التفاتة الخائف المذعور، فرأيت قبراً انشق من بين تلك القبور، وقد خرج منه رجل طويل القامة، عظيم الهامة، عليه بهاء المهابة والجلالة، ورواء الشرف والنبالة، فصعقت ***من هول الوهل والوجل***[1]، صعقة

---

(١) إضافة إلى الطبعة الرابعة.

موسى يوم دُكَّ الجبل، ولما أفقت من غشيتى، وانتبهت من دهشتى، *أخذت أسرع فى مشيتى*[1]، فسمعته ينادينى، وأبصرته يدانينى[2]، فوقفت امتثالا لأمره، واتقاءً لشره ثم دار الحديث بيننا وجرى، على نحو ما تسمع وترى، *بالتركية تارة وبالعربية أخرى*[3]:

(الدفين) – ما اسمك أيها الرجل. وما عملك وما الذى جاء بك؟. فقلت فى نفسى إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين، فهو يسأل على منوالهما، فاللهم أنقذنى من الضيق، وأوسع لى فى الطريق، لأخلص من مناقشة الحساب، واكتفى شرّ هذا العذاب[4]، ثم التفت إليه فأجبته:

(عيسى بن هشام) – اسمى عيسى بن هشام، وعملى صناعة الأقلام[5] والمحابر. وجئت لأعتبر بزيارة المقابر. فهى عندى أوعظ من خطب المنابر.

(الدفين) – وأين دواتك يا معلم عيسى ودفترك؟

(عيسى بن هشام) – أنا لست من كتاب الحساب *والديوان*[6] ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان.

(الدفين) – لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لى ثيابى وليأتونى بفرسى «دحمان» وبالجنيب معه.

(عيسى بن هشام) – وأين يكون يا سيدى بيتكم فأنا لا أعرفه؟

(الدفين) مشمئزًا – قل لى بالله من أى الأقطار أنت؟ فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر، إذ ليس فى القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية.

(عيسى بن هشام) – اعلم أيها الباشا أننى رجل مصرى *عريق فى المصرية*[7] ولم أجهل بيتك إلاَّ لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء

---

(١) إضافة إلى الطبعة الرابعة.

(٢) م ش ٣١: يدانى ونادانى نداء القائد العسكرى بصوت جهورى.

(٣) إضافة إلى الطبعة الأولى.

(٤) م ش ٣١: الشيخ: ادن أيها الرجل منى، قال عيسى بن هشام. فارتعدت فرائصى ولم أر بداً من الدنو فدنوت ولبيت.

(٥) م ش ٣١: كاتب

(٦) إضافة إلى الطبعة الأولى.

(٧) م ش ٣١: وطنى عريق فى الوطنية المصرية.

شوارعها وأزقتها وأرقامها، فإذا تفضلت وأوضحت لى عن شارع بيتكم وزقاقه ورقمه ذهبت إليه، وأتيتك بما تطلبه.

(الباشا) مغضباً[1] - ما أراك أيها الكاتب إلا أن ***بعقلك نَخَلاً***[2] فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها وهل هى «إفادات أحكام» أو «عساكر نظام»؟ والأولى أن تناولنى رداءك أستتر به وتصاحبنى حتى أصل إلى بيتى.

قال عيسى بن هشام - فنزلت له عن ردائى - ***وقد كان***[3] المعهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق فإذا هو يكون أيضاً من سكان القبور، ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول:

(الباشا) - للضرورة أحكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و«التبديل» فى الليالى التى كان يصرفها[4] فى البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية، ولكن كيف العمل ***وكيف يتسنى الدخول***[5]؟

(عيسى بن هشام) - ماذا تريد؟

(الباشا) - أنسيت أننا فى الثلث الأخير من الليل، وليس من يعرفنى بهذا الرداء على أبواب مصر، ولم يكن معى كلمة «سر الليل» فكيف تفتح لنا الأبواب؟

(عيسى بن هشام) - كما إنك يا سيدى لم تعرف أرقام البيوت، ولم تسمع بها فى حياتك، فأنا لا أعرف «سر الليل» ولم أسمع به.

(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً - ألم أقل لك أنك غريب الديار غير مصرى ألم تعلم أن «سرّ الليل» كلمة تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى «الضابطة» وإلى جميع «القره قولات» والأبواب ***فلا يصرحون لأحد بمشى بالليل***[6] إلاَّ إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها فى أذن البواب فيفتح له وهى تعطى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل وتتغير

---

(١) م ش ٣١: المتيكلى.

(٢) مجنوناً.

(٣) م ش ٣١: إذا كانت المصيبة فى العباء والطربوش والحذاء كان الأمر هيناً.

(٤) ط ٤: يقضيها.

(٥) إضافة إلى الطبعة الأولى.

(٦) ط ٤: فلا يجيزون لأحد مشى الليل.

فى كل ليلة، فليلة تكون كلمة «عدس» وليلة تكون «خضار» وليلة تكون «حمام» وليلة تكون «فراخ» وهلم جراً.

(عيسى بن هشام) – يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ولم نسمع أنها تدل على التصريح[1] للناس بالسير فى ليلهم. *ومع ذلك فقد دنا الفجر*[2] *ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات أو غيرها*[3].

(الباشا) – *الأمر فى ذلك موكول إليك*[4].

قال عيسى بن هشام فسرنا[5] فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفًا بنفسه ويقص علىّ من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التى شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لى ما شاء من مآثر محمد وشجاعة إبراهيم، وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة القلعة فوقف وقفة المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيته:

«إيه يا مصدر النعم ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ويا بيت الملك وحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمى المحتمى وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام، أيها الحصن كم فككت بالكرم عانيًا، وقيدت بالإحسان عافيًا. وكم أرغمت أنوفًا، وسللت سيوفًا، وجمعت بين البأس والندى، وداورتَ بين الحياة والردى».

قال عيسى بن هشام ثم التفت الباشا إلى وقال: أسرع[6] بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركب جوادى ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال ولىّ النعم الداورى الأعظم[7].

***

---

(١) ط ٤: الإجازة.

(٢) ط ٤: على أن الفجر قد دنا.

(٣) م ش ٢١: ولا لزوم لكل هذا.

(٤) م.ش ٢١: (هذه الجملة أضيفت إلى الطبعة الأولى).

(٥) م ش ٢١: فمشينا.

(٦) م ش ٢١: قال: أن نختار أقرب الطرق لنذهب. أسرع بنا.

(٧) م ش ٢١: (وأضاف المؤلف): وأخذنى العجب لهذا الكلام وأحببت أن أوقفه إلى التمام وسيتبع الحديث.

ولما زايلنا[1] ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق وبينما نحن نسير إذ تعرّض لنا مُكَار يسوق حماره وقد راضه الخبيث على التعرض وسدّ الطريق على المارة فكلما سرنا وجدنا الحمار فى وجهتنا والمكارى ينبح بصوت قد بُح حتى أمسك بذيل صاحبى يقول له:

(المكارى للباشا) – اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك من الصباح[2].

(الباشا للمكارى) – كيف تدعونى أيها الشقى إلى ركوب الحمار وما رغبت فيه أبداً[3] وما دعوتك فى طريقى وكيف لمثلى أن يركب الحمار الناهق مكان الجواد السابق.

(المكارى) – وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق «الإمام» وقد دعيت مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت اليهم لارتباطى معك بتلك الإشارة فاركب معى أو أعطنى أجرتى.

(الباشا) وهو يدفع المكارى بيده – اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحى معى لقتلتك.

(المكارى) متسافهًا فى القول – كيف تجسر *على هذا*[4] الكلام فإما أن تعطينى أجرتى وإما أن تذهب معى إلى «القسم» وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديدك لى بالقتل.

(الباشا لعيسى بن هشام) – إنى لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهلم فاضربه بالنيابة عنى حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه.

(عيسى بن هشام) – كيف يكون ذلك وأين القانون *وأين الحكام*[5]؟

---

(١) ط ٢: غادرنا.
(٢) ط ٤: منذ ساعتين.
(٣) ط ٢. قط.
(٤) م ش ٣٢: التفوه ب.
(٥) م ش ٣٢: هؤلاء الحاكمون.

(الباشا) – مالى أراك قد شق الخوف قلبك وقطع الهلع أنفاسك أيعتريك الخوف وأنت معى إنّ هذا لعجيب منك.

(المكارى) مستهيئًا – العفو! العفو! *من هو أنت*[١] ومن هو غيرك ونحن فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكارى وبين الأمير.

(الباشا لعيسى بن هشام) – ويحك هلّم فاضربه أو دعنى اقتله .

(عيسى بن هشام) – أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً مادمت معى واعلم أنه لا تصدر منا «مخالفة» أو «جنحة» أو «جناية» إلا والعقاب من ورائها فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام «إنك لن تستطيع معى صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً» والطريقة الوحيدة للتخلص من سفاهة هذا السفيه أن أعطيه شيئًا من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا وأنا اسأل الله أن يوصلنا إلى بيتك بالسلامة.

(الباشا) – لا تعط هذا الكلب النابح[٢] درهمًا واحداً وقد أمرتك أن تضربه فإن لم تفعل فأنا أتنازل إلى ضربه وتأديبه والفلاح لا يصلح جِلدُه إلا بجلده.

قال عيسى بن هشام ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعه ضرباً وأخذ المكارى يستغيث وينادى يا «بوليس» وأنا أجتهد فى إنقاذه من مخالبه وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم *وأقول للباشا: ليس هذا مما يحمد عقباه*[٣]. فاتق الله أيها الأمير فى عباد الله: فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلبت عليه الحدة فتغير وجهه وانقلبت حماليقه وتقلصت شفته واتسع منخره وضاقت جبهته فخفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت أمرى وقلت له: مثلك أدام الله عزّك لا يتنازل لمثل هذا الفعل فأنت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة مثل هذه الجيفة، فسكنت بذلك من حدته وعمدت إلى المكارى فوضعت فى يده دريهمات على غير علم من الباشا وطلبت منه[٤] أن

---

(١) ط ٢: من أنت؟.

(٢) م ش ٣٢. السفيه.

(٣) م ش ٠٣٢ فإن شره مستطير.

(٤) ط ٤٠ إليه.

ينصرف عنا فما ازداد اللئيم بذلك إلا صياحًا وعويلاً واستغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس.

(الباشا لعيسى بن هشام) – ألم أقل لك أن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب ألم تعلم أن غاية ما ينتهى إليه فى رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثة بالمشايخ والأولياء، ولكن قل لى بالله هل «بوليس» هذا الذى يناديه ويستغيث به ولى جديد؟

(عيسى بن هشام) – نعم إن هذا البوليس هو ولى الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة.

(الباشا) – لست أفقه هذا المعنى فأوضح لى حقيقة هذا البوليس.

(عيسى بن هشام) – هو «القواس» الذى تعرفه.

(الباشا) – وأين هذا القواس الذى لا يسمع النداء فإنى أرغب فى حضوره ليتلقى أمرى فى هذا الشقى.

(المكارى) – يا بوليس! يا بوليس!

(الباشا لعيسى بن هشام) – هلم إلى مساعدته فى نداء القوّاس.

قال عيسى بن هشام فقلت فى نفسى كيف أنادى البوليس وأنا أحمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث، ثم التفتُّ إلى الباشا وقلت له إن البوليس هو هذا الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياح أو نداء فإنه مشتغل ببائع الفاكهة ***كما ترى***[1]. ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع إليه وتبعه من تجمع حولنا من النظارة فوجدوه واقفًا وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه من باعة الأسواق فى محافظته على «النظام» وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره ***أن يضع***[2] فى داخلها ما وضعه فى خارجها من عيدان القصب وفى يده عود منها يهدده به ويهزه فى وجهه هزة الرمح ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يد وعود القصب فى الأخرى.

---

(١) م ش ٣٢: ويشير إليه.

(٢) م ش ٣٢: بإدخال.

(البوليس للجمع) – ما هذا الصياح فى الصباح وما هذا النداء وما هذا العناء كأن كل واحد من الأهالى يريد أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته؟!

(المكارى) – أغثنى «يا سعادة الجاويش» فإن هذا الرجل ضربنى ولم يعطنى أجرتى وأنت تعرفنى فى هذا «الموقف» وتعرف أننى لست ممن يتشاجر أو يتخاصم.

(الباشا) – خذ أيها االقوّاس هذا السفيه وضعه فى السجن حتى يأتيك أمرى فيه.

(لبوليس للمكارى) – من أين ركب معك هذا الرجل يا «مرسى»؟

(المكارى) – ركب معى من جهة «الإمام».

(الباشا للبوليس) – ما هذا الإبطاء فى تنفيذ أمرى؟ أسرع به إلى السجن.

(البوليس) ضاحكًا هازئًا – أظنك أيها الرجل من «مجاذيب الحضرة فى الإمام» هلم معى إلى القسم فإن هيئتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة.

قال عيسى بن هشام وجذب الشرطى صاحبى من ذراعه فكاد يغمى عليه من الدهشة فلم يدر ما يصنع وأودع البوليس ما كان فى يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكارى حماره عنده وسار صاحبى مسحوبًا بذراع الشرطى والمكارى خلفهما والجمع على أثرهم إلى «القسم» فلما وصلوا إليه وصعدوا السلم بدأ المكارى يصرخ ويصيح فقابله أحد عساكر «المراسلة» فضربه ليسكته؛ لأن حضرة «المعاون» غريق فى نومه، فدخلنا جميعًا فى حجرة «الصول» لضبط الواقعة فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع «طربوشه» وخلع نعليه وحل أزرار ثيابه وبجانبه اثنان من الفلاحين من أقربائه ***يشاهدان ما***[1] يتمتع به من لذة الأمر والنهى وسعة تسلطه على الكبير والصغير فى عاصمة القطر وقاعدة الملك وما فى قدرته من حبس أى ***شخص كان***[2] وشهادته عليه بما يجرى فى هواه فطردنا جميعًا من الحجرة حتى ينتهى من طعامه، فخرجنا ننتظر وأراد الباشا أن يستند على الحائط[3] من شدة ما ألم به من الدهشة فخانته يده فسقط فوق جندى[4] كان يكنس الأرض هناك فأخذ الجندى فى السب والشتم ودخل إلى حجرة

(١) م ش ٣٢. يتلذذان بما.

(٢) ط ٤: أى شخص كائناً من كان.

(٣) ط ٣: الجدار.

(٤) م. ش ٣٢: عسكرى.

«الصول» هاجمًا فقال له إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدّى علىّ «فى أثناء تأدية وظيفتى» فضربنى بكل جسمه[1]، فأمر الصول بإحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه أن يحرر «محضرين» محضر مخالفة ومحضر جنحة وأملى عليه كلامًا مصطلحًا عليه لم أفهم منه حرفًا، وبعد أن شهد «البوليس» الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد الصول نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يتعدى على أحد عساكر القسم فى أثناء تأدية وظيفته ختم الصول المحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ إلى «خشبة المقاس» وتحرير «ورقة التشبيه» فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ بيمين صاحبى وباشر معه جميع ذلك بنفسه وأذاقه أنواعًا من الأذى فى مقاسه، كل هذا والباشا ***كالمغمى عليه***[2] من الدهشة والذهول حتى إذا آفاق من غشيته التفت إلىّ يقول:

(الباشا) – أنا لا أتصور فى هذه الحالة التى أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر أو أن أكون حالمًا فى المنام أو أن يكون «الداورى الأعظم» غضب على غضبًا شديدًا فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة.

(عيسى بن هشام) – لابد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه ***النازلة بسلام***[3].

قال عيسى بن هشام ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير «ورقة التشبيه» سأل الباشا هل له من ضامن يضمنه فقدمت نفسى لضمانته فلم يقبلوا منى إلا بتصديق «شيخ الحارة» فحرت فى أمرى ومن أين أجد «شيخ الحارة» فى الحال، فألقى بعض العساكر فى أذنى أن اخرج فإنك تجد «شيخ الحارة» بالباب فأعطه عشرة قروش للتصديق على الضمانة فخرجت ولحقنى ذلك العسكرى فدلنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا فى مناولة أجرة التصديق، ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده ولكننى رأيتهم قد

---

(١) م ش ٣٢. فرفسنى برجله.

(٢) ط ٢: كالمغشى عليه.

(٣) م ش ٣٢: الورطة.

وبعد هذه الجملة: *العسكرى لعيسى بن هشام (بعد أن وضع الخشبة على رأس المتهم)*: انظر يا شيخ فى المقاس فاقرأ لى الرقم.

امتنعوا عن الضرب فى أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ووجدت من كان من بينهم أشدّ إيذاءً لعباد الله وأعظم حرصًا على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب حجرة المعاون فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السرير هزًا عنيفًا، فاستيقظ المعاون فزعًا وعلم أن «المفتش» قد شوهد داخلاً من باب القسم فأسرع إلى ثيابه فلبسها فى لحظة وهرول إلى استقباله فلما رآه وقف ***«وقفة النظام بعلامة التعظيم»***[1] ولكن كان من نكد طالعه أنه ذهل عند لبس «الطربوش» فلم يجعل زره جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة وكان الشعر قد تجدد فى عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقة فى يومه فخاطبه المفتش فى ذلك ودخل إلى الحجرة مغضبًا فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته فى الزى «للأوامر المستديمة».

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرّة واحدة وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألنى عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب فأعلمته بأنه «المفتش» جاء إلى «القسم» للتفتيش والتنقيب فى الأحوال والنظر فى شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام. فقال إذًا فلندخل إليه لنعرض عليه ماأصابنا من الإهانة، فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب فى تقريره فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة أمر احد العساكر بإخراجنا من حضرته. ثم رأيناه قد وضع التقرير فى جيبه بعد كتابته ونزل مسرعًا ***غير ملتفت***[2] فى التفتيش والتنقيب لغير زى المعاون، ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى أنحاء القسم إلى أشد ما كان عليه قبل حضوره، وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنه لابد أن يشتكى عمال القسم إلى «النيابة» فدخل أحد العساكر إلى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاون ***يحادث نفسه***[3] بقوله: «ما هذه الخدمة وما هذا الذل ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش؛ ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الإنكليز[4] ولم يكن من «أولاد العرب» فهو خير منهم لأن عجزه عن فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر فى التفتيش على طربوشى ولحيتى

---

(١) ط ٤: وقفة النظام.

(٢) ط ٢. لم يلتفت.

(٣) م ش ٣٢: يهمس.

(٤) ط ٤: الأجانب.

ولو كان من «أولاد العرب» لاطلع على الاختلال الواقع فى القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة «الأصول» ثم التفت إلى العسكرى وسمع منه ما ينقله إليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية إلى «النيابة» فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعًا أربعًا وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهبت إلى المعاون وكلمته فيه ليطلقه بعد ضمانتى له فأبى وقال لى بوجه عبوس: الأولى أن يبقى فى القسم إلى الغد حتى يكشف على «السوابق» ثم يرسل من هنا إلى النيابة. ***فدخل الباشا الحبس مع الداخلين***[1].

***

* قال عيسى بن هشام ولما تركت[2] صاحبى فى حبسه وذهبت إلى دارى بتُّ طول ليلتى فى هم وأرق وقضيت رقادى فى اضطراب وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق فى دهشته وحيرته لا يدرك مضىّ الزمن ولا يدرى ما الحال ولا يعلم بتغيير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول، وكنت هممت أن اكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى له لولا ما دهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألمّ بنا، ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأى عندى أن ***يبقى الرجل***[3] جاهلاً بالأمر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهله بتغيير الأحوال قائمًا بعذره فى التخلص من محاكمته، ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه ما لم ير وأسمعه ما لم يسمع وأشرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر؛ لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته لديه بالعصر الماضى ولأعلم أى العهدين أجلّ قدرًا وأعظم نفعًا وما هو الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر، فبكرت إلى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبى من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه فوجدت العسكرى يستعد به ليتوجه معه إلى قلم «السوابق» فى دار المحافظة فلما بصر بى نادانى بقوله:

(الباشا) – ما هذه الخطوب والملمات قد كنت أظن أن ما وقع لى فى أمس كان لسخط ولى نعمتنا الداورى الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية

(١) م ش ٣٢: فدخل الباشا الحبس.

(*) عنوان «النيابة» أضيف إلى نص الطبعة ٣.

(٢) م ش ٣٤: وتركت.

(٣) ط ٢: حاله

افتراها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامتثلت على تلك الصورة حتى أتمكن من التشرف بالأعتاب والمثول بين يدى مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وأبرأ له مما رمانى به الساعى والواشى، وأجلى له حقيقة عبوديتى وإخلاصى فيضاعف علىّ رضاه لحسن ما قمت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان:

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابض من أذاته فوق جمر

ثم إنى أعمد بعد ذلك إلى إفشاء العقاب عقابِ القتل والصلب فى هؤلاء الأدنياء[1] السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترؤا عليه فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ولكنى سمعت فى الحبس – ويا سوء ما سمعت – وعلمت – ويا شر ما علمت – إن الدول دالت والأحوال حالت وأنكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى: «إنه هو والباشا فى المنزلة سواء» وتلك التى:

تُصمُّ السميعَ وتعمى البصير ويُسأل من مثلها العافيةْ

فاللهم عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت المراتب وانحلت الرئاسات واستوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشىّ على حبشىّ فضل ولا لأمير منا على مصرىّ أمر، ذلك ما لا يكون ولا تحتمله الظنون، ثم اعلم أيها الرجل أن ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه علىّ لا يعدّ فى جانب ذنبك عندى إلا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك علىّ الأمر حتى دخلت بى بلداً هذا حالها[2] وذاك شأنها وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

(عيسى بن هشام) – ***إنما أقول لك أيها الأمير ما قاله موسى للخضر عليهما السلام***[3] «لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً» ولقد نزل بى من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثنى التبلد والتحير ومنعنى عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك إلى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه إلى تعريفك بها حتى دُهينا بذلك المكارى ودهمنا بتلك الحادثة فلا ذنب لى فيما أتيت والعذر مقبول لديك فاصبر على

(١) م ش ٣٤: الأوباش.

(٢) ط ٢: حاله.

(٣) م ش ٣٤: أضاف المويلحى هذه الجملة إلى نص الطبعة الأولى.

ما تلاقيه، واحتمل ما أنت فيه، وتقبّل القضاء بوجه الرضاء، ولا تأس على ما فات لتكفر عنك السيئات.

(العسكرى للباشا) – هلم إلى السوابق.

(الباشا) – سبحان العزيز القادر أتُرى قد زال عنى بؤسى وانقشع نحسى ورجع إلىّ عزى فجاءونى بموكبى وخيلى.

(عيسى بن هشام) – ليس المقصود «بالسوابق» تلك الجياد الصافنات والعتاق الصاهلات وإنما هو ديوان تقيّد فيه سحنة المتهم[1] وسيماه ويكشف فيه عما ***جنته يداه***[2]

(العسكرى للباشا) وهو يسحبه– ***لا تطل فى الكلام***[3] وامش معى ساكتًا ساكنًا

(الباشا) وهو يمتنع – ما الحيلة فى القضاء وما العمل فى المقدور وكيف الخلاص وأين النجاة ومن لى بالموت ثانية ليردنى إلى راحة القبر؟

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع – أقسمت عليك بدفين القلعة ووقع سيوفك فى المعمعة إلا ما قبلت نصيحتى وعملت بمشورتى فلا تعارض، ولا تعاند فان الامتناع لا يفيد ولا يزيد فى ملمتنا إلا شدة، والعقل يرشدنا أن نسلم للأقدار حيث لا عمل وأن نلبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها.

(الباشا) ممتثلاً – اللهم لا رأى مع القضاء.

قال عيسى بن هشام وسرنا مع العسكرى فوصلنا إلى «قلم السوابق وتحقيق الشخصية» فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع له القلوب وتشيب منه النواصى فعرّوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدقوا فى عينيه وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصعداء، حتى انتهوا من عملهم ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة لأن المعاون قاتله الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتى ليجوز له الحبس فأرسلونا مع العسكرى إلى النيابة، ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامه قضايا

---

(١) م ش ٣٤: المتهمين.

(٢) م ش ٣٤. أضيف إليها. فى ماضيهم

(٣) م ش ٣٤: دع عنك كثرة الكلام.

جمة وأصحابها مزدحمون ينتظرون دورهم[1] فانفردنا ناحية ننتظر دورنا[2] أيضاً والتفت إليّ صاحبي يسأل ويستفهم:

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام؟

(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة وهذا عضو النيابة وهؤلاء أرباب الدعاوى.

(الباشا) - وما هي النيابة؟

(عيسى بن هشام) - النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرض من إنشائها أن لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء.

(الباشا) - وما هي الهيئة الاجتماعية التي تنوب عنها؟

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الأمة.

(الباشا) - ومن هو هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الأمة عليه لينوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه إلى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال.

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد في الجنة أعلى الدرجات ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا *لأحد من الناس*[3] والذي يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناس فلاّح وينوب عن الأمة حرّاث، ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى شدة وانتهيت من خطب إلى خطب فسلّمت وصبرت ولكن لا صبر لي على هذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشق النازلة لقد فني مني الصبر ومن لي بفناء القبر.

---

(١) ط ٢: نوبتهم.

(٢) ط ٢: نوبتنا.

(٣) م ش ٣٤. لإنسان.

(عيسى بن هشام) – اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هى ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك.

(الباشا) – مه مه كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها غير أننا ما سمعنا فى دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف ***يعرف ما هى الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات***(١).

(عيسى بن هشام) – ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها فى بلاد الإفرنج والفرنك عملة تلك البلاد ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة وهى قيمة لا تذكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها لأن القاعدة فى هذا النظام «أن الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة» وصاحب الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرقى.

(الباشا) – الآن كدت أفهم وأظن هذه الشهادة تعادل «أوراق الالتزام» و«سراكى الروزنامجه» فى أيام حكومتنا.

قال عيسى بن هشام وبينما نحن فى هذا الحديث إذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران فى مشيتهما والطيب ينتشر فى الجو من أردانهما وهما يصعرّان خدهما كبرًا واختيالاً ولا يلتفتان إلى من حولهما تيهًا وإعجابًا أحدهما يشق الهواء بعصاه والثانى تلعب «بالنظارة» يداه، فشخصت فيهما الأنظار وتحولت نحوهما الأبصار والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا إلى باب النائب، فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم وطردهم ونهرهم واشتغل النائب بطىّ المحاضر ورفع المحابر حتى خلا لصاحبه من كل شغل وعمل.

(الباشا لعيسى بن هشام) – يظهر لى أن هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء وأنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم.

---

(١) م ش ٣٤: يتعامل بالفرنكات.

(عيسى بن هشام) – ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما.

(الباشا) – وهذا أعجب وأعجب.

قال عيسى بن هشام وأردت أن أخبر خبرهما واكتشف أمرهما فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت فى عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت هذه المحاورة بينهم:

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس – لماذ تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهى اللعب؟

(النائب) – لأنه كان قد مضى من الليل أكثره وعندى من القضايا ما يضطرنى إلى التبكير.

(الزائر الثانى) – وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان عن مجالسة الإخوان ومثل هذا العذر يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها أو لم تعلم أن فلانًا ***وفلانًا وسواهما من أقرانك***[1] لا تستوعب معهم قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة وأخص بالذكر منهم فلانا فإنه يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها، وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره ما بين النيابة «والبوليس» فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو ***إعادتها إليه***[2] لاستيفائها ولا محل لتجديد التحقيق بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى.

(النائب) – ذلك ما أفعله ولكن لابد من التمسك «بالظواهر والأصول» على قدر الإمكان.

(الزائر الاول) – أما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكهُ؟

(النائب) – صدقت إن الكاتب ليكفى والقول الصحيح إن السبب فى مفارقتكم

---

(١) ط ١: أضيفت هذه الكلمات إلى نص الطبعة الأولى.

(٢) م ش ٢٤. ردها

أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ***ولم يبق منه إلا النزر اليسير***[1] ونحن لا نزال فى أوائله.

(الزائر الأول) - تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائمًا مهما ربحت ومهما كسبت وما سمعت منك فى عمرى إلا أنك خسران، أفلم تربح منى فى «اليد الأخيرة» التى كانت بيننا خمسة جنيهات؟

(النائب) - وحق شرفى وذمتى ومستقبلى إنى قمت من عندكم أمس بالخسارة.

(الزائر الثانى) - ما علينا ولكن قل لى هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه إلى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة؟

(النائب) - ***أسألك المسامحة فإنه***[2] لا يمكننى ذلك أولاً: لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى وثانياً: لأنى دعوت «مادموازيل فلانة» المشخصة فى «الأوبرا» مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء فى الأزبكية عند «سانتى» وسنذهب بعد ذلك إلى «خان الخليلى» و***«قصبة رضوان» و«مقابر الخلفاء»***[3] وبعض المحلات[4] القديمة من البلد للتفكه[5] والتسلى.

(الزائر الأوّل) - دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر إلاّ النزر اليسير فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات؟

(النائب) - فاتنى أن أذكر لكما أن معنا فلانًا المحامى[6] ومعه صاحبه العمدة.

(الزائر الثانى) - وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الأفرنجى أو يستريحان له وهما لا يعرفان شيئًا من اللغات والاصطلاحات الأوربية؟

(النائب) - ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى[7] أن يكون مصاحبًا لأهل القضاء

---

(١) ط ٣: حذفت هذه الجملة من نص الطبعة الثالثة.

(٢) م ش ٣٤: أضيفت هذ الجملة إلى نص الطبعة الأولى.

(٣) م ش ٣٤. هذه الكلمات غير موجودة.

(٤) ط ٣: الأماكن.

(٥) م ش ٣٤: للتفرج.

(٦) م ش ٣٤: الأفوكاتو.

(٧) م ش ٣٤: الأفوكاتو.

وأمنية الفلاح أن يتحكك بنا والرغبة عند أمثالهما عظيمة فى حضور المجالس الأفرنجية، وإن كلفهم ذلك وخرجوا منها على غير فائدة لهم.

(الزائر الأول) مقتضباً – من أين اشتريت هذا «الكرافات» (رباط الرقبة)؟

(النائب) – ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس *وهو من آخر طرز*[1].

(الزائر الثانى) – *هل بلغك زواج فلان بمعشوقته*؟[2]

(الزائر الأول) – *هل ركبت مع فلان فى الدراجة الكهربائية*؟[3]

(النائب) – قد وقفت لكما على سبب انتحار *ابن فلان المتموّل*[4].

(الزائر الأول) – أنا أعرفه فهو الغرام.

(النائب) – لا

(الزائر) – المال؟

(النائب) – لا

(الزائر) – المرض؟

(النائب) – لا وإنما هى سنة جديدة فى شبان باريس *اقتدى المسكين بها*[5].

(الزائر الأول) – وأنا وقفت لكما على سبب *استعفاء فلان*[6] من وظيفته.

(النائب) – سيرته؟

(الزائر) – لا

(النائب) وطنيته؟

(الزائر) – لا

(النائب) – فرنسويته؟

(الزائر) – لا وإنما هى إنكليزيته.

***

---

(١) م ش ٣٤ هذه الكلمات غير موجودة.

(٢) م ش ٣٤: هل بلغك استيفاء فلان؟

(٣) م ش ٣٤: هل رأيت الدراجات الكهربائية، ط ٢، ط٣: هل ركبت مع فلان فى الأتوموبيل (الدراجة الكهربائية)؟

(٤) م ش ٣٤: ابن سوارس.

(٥) أضيفت هذه الكلمات إلى نص الطبعة الأولى.

(٦) م ش ٣٤. انفصال عثمان بك غالب (ملاحظة الصفحتان ٢٦ و ٢٧ ناقصتان من نص الطبعة الأولى الذى استعمله هنا).

* قال عيسى بن هشام فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكمني *وعدت إلى الباشا صاحبي*[1] فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره فوقفت عن بعد أسمع ما يدور بينهما.

(السمسار)- اعلم أن المحامي يدير القضاء في يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته ورهن كلمته وكالخاتم في إصبعه فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء إلا بأمره، وأنت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة في أيدي بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى، الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولي صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة وله مقام سام بين القضاة والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضي وخدين النائب ووكيل «البرنس»، ولو شاهدته يا سيدي مرة واحدة في اجتماعه معهم في السهر والسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم في ساعات الأنس وأوقات السرور يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكههم ويناظرهم ويقامرهم لتيقنت في الحال أن كل طلب له يجاب وليس لأمره من راد فالمجرم بريء والبريء جان على حسب المراد، فقل لي حينئذ عن مقدار ما تستطيع دفعه من «مقدم الأتعاب» في تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك.

(الباشا)- أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرني صاحبي عن هذا الحاكم القادر الذي تصفه لي فإذا استفهمت عنه...

(السمسار) مقاطعًا- لا لزوم للاستفهام من أحد *فها هو*[2] حضرة المحامي قد أقبل لمقابلة «النائب العمومي» فأنا أستوقفه لحظة للنظر في شأنك (ويسرع السمسار إلى مكالمة المحامي بعد أن يوسع له في الطريق ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل به إلى جانب الباشا)[3].

(*) أضيف عنوان «المحامي الأهلي» إلى نص الطبعة ٢

(١) م ش ٣٤: في غضون ذلك

(٢) ط ٤. فهاهوذا.

(٣) م ش ٣٤: أضيف إليها· بعد أن ألقى في أذن صاحبه ما ألقى.

(المحامى) بصوت عال- أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الأيام لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا فلم يبق عندى وقت للطعام والشراب[1] فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لهن شأن عظيم.

(السمسار)- سألتك بحق الإنسانية وحرمة المروءة وبما جبلت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال[2] مكتبك بمباشرة هذه القضية إن لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فإن المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة.

(المحامى)- لا أرى فى ذلك بأسًا للعناية بك والشفقة على صاحبك (وينصرف المحامى بعد مصافحته للباشا).[3]

(السمسار للباشا)- هلمّ فادفع عشرين جنيهًا.

(الباشا)- ليس عندى الآن ***شىء من الدراهم***.[4]

(السمسار)- أعطنى تحويلاً.

(الباشا)- أنا لا أفهم لك كلامًا فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعًا.

(السمسار)- كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامى أمامى؟

(الباشا)- أنا لم أتفق مع أحد فاتركنى وانصرف.

(السمسار)- كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد أن وضعت يدك فى يده.

(الباشا)- عفوك اللهم ولطفك، ومن يصبر على هذه الحال، أشرت بيدى فى حديثى مع صاحبى فوقعت فى حادثة المكارى وها أنا قد صافحت المحامى فصرت مدينًا بعشرين جنيهًا، ففى أى العوالم أنا وبين أى المخلوقات.

---

(١) م ش ٣٤. أضيفت بعد «وللشراب» (وربما كانت الحقيقة أنه لم يبق عنده شىء إلا وقت).

(٢) م ش ٣٤. موظفى.

(٣) م ش ٣٤ فينزوى عن عينه مقدمًا.

(٤) م ش ٣٤. نقود.

قال عيسى بن هشام ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة[1] أخرى فأدركته ووبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورفع الأمر إلى النائب العمومى إن لم ينته عنا، فخلفنا وانصرف. ونادى الحاجب أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لا زال لاهيًا فى حديثه مع زائريه وأشار بالتقدم إلى الكاتب فتقدمت مع صاحبى وشرعت فى بسط القضية وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افترائه فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له: لا تقبل كلامًا فى البوليس ولا تسمع فيه طعنًا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه، ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه، فقلت لصاحبى الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى للمدافعة عنك.

(الباشا)- قل لى بالله ما هو المحامى عندكم؟

(عيسى بن هشام)- هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر على بالك، وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب، مثل هذا المحامى وسمساره، وهؤلاء بعينهم هم الذين يعنيهم علاء الدين الكندى بقوله:[2]

ما وكلاء الحكم إن خاصموا ... إلا شياطين أُولو بَاس
قوم غدا شرُّهم فاضلاً ... عنهم فباعوُه على الناس

***

قال عيسى بن هشام ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة. فوجدنا فى ساحتها أقوامًا ذوى وجوه مكفهرة، وألوان مصفرة، ***وأنفاس مقطوعة***[3]، وأكف مرفوعة، وشاهدنا باطلاً يذكر، وحقًا ينكر، وشاكيًا يتوعد، وجانيًا يتودد، وشاهدًا يتردد، وجنديًا يتهدد[4]، وحاجبًا يستبد، ومحاميًا يستعد، وأمًا تنوح، وطفلاً يصيح، وفتاة تتلهف، وشيخًا

(١) م ش ٣٤: ورطة.
(٢) م ش ٣٤: بقوله فيهم.
(*) عنوان «المحكمة الأهلية» أضيف إلى نص الطبعة ٣.
(٣) م ش ٣٥: ١٥ ديسمبر ١٨٩٨ انقباض فى الأسرة.
(٤) م ش ٣٥ يتمرد

يتأفف، وسمعنا ألفاظًا متناقضة، وأقوالاً متعارضة، ورأينا المحامين عن الخصمين، يشحذ كل منهما لسانه، ويقدح جنانه، استعداداً للنزال فى ميادين المقال، وتأهبًا للدفاع فى مواقف النزاع، ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة فى الحكم، ورفع التهمة والجرم، فانزويت بصاحبى ومحامينا بجانبى يذكر لنا «أصولاً مرعية» و«مسائل فرعية» وظروفًا وأحوالا وشروحًا وأقوالا ومواد وفقرات فى الجنح والمخالفات، ثم يتصفح محاضره، ويقلب دفاتره، ويقسم لنا بوكيد الإيمان إن الباشا من تهمته فى أمان، وأنا أجيب صاحبى عن كل سؤال بما يقتضيه[1] الحال. ولما سألنى عن هذه الملحمة، قلت له هى المحكمة.

(الباشا)- قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضى على غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب؟

(عيسى بن هشام)- هذه هى المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية.

(الباشا)- وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية؟

(عيسى بن هشام) - للقضاء فى هذه البلاد على ما تشتهى محاكم متعددة ومجالس متنوعة، فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية عدا المحكمة المخصوصة.

(الباشا) - ما هذا الخلط وما هذا الخبط، وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقًا وأحزابًا وقبائل وأفخاذًا وأجناسًا مختلفة وفئات غير مؤتلفة وطوائف متبددة حتى جعلوا لكل واحدة محاكم على حدة، ما عهدناهم كذلك فى الأعصر الأول، مع دولات الدول، وهل انطمست تلك الشريعة الغراء؟ واندرست بيوت الحكم والقضاء؟ اللهم لا كفران ولعن الله الشيطان.

(عيسى بن هشام)- ليس الأمر على ما ***تتوهم وتتخيل***[2] فلم يتفرق المصريون فرقًا ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقتضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاءِ والحكم، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئًا قليلاً:

---

(١) ط ٢: تقتضيه

(٢) م ش ٣٥: تظن وتحدس.

أما المحاكم الشرعية فقد جردت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات، واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل فى هذا الباب.

(الباشا)- تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم فى الزمن الذى يعنيه القائل بقوله:

قد نُسخَ الشرع فى زمانهمُ   فليتهم مثل شرعهم نُسخوا

(عيسى بن هشام)- لم ينسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باق على الدهر ما بقى فى العالم إنصاف وفى الأمم عدل ولكنه كنز أهمله أهله ***ودرة أغفلها***[1] تجارها فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا فى الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة إلى الخيال وتعدوا الممكن إلى المحال ***فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يبدع فى التفنن للإغماض فى الحق الأبلج والتعقيد فى الحنيفية السمحة.***

ولم ينتبهوا يومًا إلى ما تجرى به أحكام الزمن فى دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكمًا يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتحلحلون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيه ولا عمل، فكانوا سببًا فى تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن العقد وقلة الغناء فيه لانتصاف الناس فى معايشهم ومرافقهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور، ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية.

(الباشا) - ما ***أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذر واضح فى النزول إلى هذه الحال السيئة من معارضة معارضٍ ومنازعة منازعٍ أو من جور سلطانٍ قاهرٍ وعسف حاكمٍ قاسرٍ فصدهم عن سواء السبيل وأرعاهم هذا المرعى الوبيل***[2].

---

(١) م ش ٣٥: درة أغفلها تجارها أو درة صدفية بهج غواصها متى يراها يهلل ويسجد

(٢) بداية من (فكان من أكبر هم...) حتى (...هذا المرعى الموبيل) أعاد المؤلف كتابة هذه الفقرة فى نص الطبعة الأولى.

(عيسى بن هشام) - لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق فالإرادات مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس الفساد ناشئًا عن طوارئ الزمان وطوارق الحدثان، ولكنه فساد فى التربية عم أمره وانتشر وانحطاط فى الأخلاق عظم بلاؤه واشتهر سكنت إليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن واستولى على قلوبهم الجبن والخور وعلى عقولهم الضعف والخبل وعلى نفوسهم الفتور والكسل فوصلوا إلى الحال التى يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة والفضيلة نقيصة والنقيصة فضيلة، وأقاموا يتعسفون فى الحكم ولا ينصفون ويتفكهون فى الدين ولا يتفقهون وصرفهم حب المال عن صالح الأعمال، وألهاهم ما يدخرونه من زخرف الحياة الدنيا، عما يدخر لهم فى الدار الأخرى، فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا، منا الإثم والوزر وعلينا الذنب والإصر.

وأما المحاكم الأهلية فهى القضاء الذى يقضى على الرعية اليوم فى جميع الخصومات طبقًا لنص القانون.

(الباشا)- القانون «الهمايونى».[١]

(عيسى بن هشام)- القانون «الإمبراطورى».

(الباشا)- ما عهدت منك أن تُعجم وتبهم.

(عيسى بن هشام)- لا إعجام ولا إبهام فهو قانون نابوليون إمبراطور الفرنسويين.[٢]

(الباشا)- وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى.

(عيسى بن هشام)- لا، وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا بأنفسنا فى حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا.

---

(١) حذف من هنا (م ش ٣٥) المؤلف وصفه للقاضى الذى يوجد الآن فى ص ٣٦ (من «وبينا نحن فى هذا الحديث» حتى «ثم عدت إلى صاحبى».

(٢) ط ٤. الفرنسين.

(الباشا)- وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله.

(عيسى بن هشام)- *المسألة فيها خلاف فالإجماع تام عند علماء الشريعة*[1] فى السر والنجوى على إنه مخالف للشرع وأن كل من يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» ولكن يظهر أنه مطابق عندهم للشرع فى حالة الجهر والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبرائهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ مفتى نظارة الحقانية فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التى أفتاها بأن هذا القانون الفرنسوى غير مخالف للشرع الإسلامى، وإن كان لا عقاب فى هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد، ولا عقاب فيه على من يزنى بأمه إذا هى رضيت به وكانت غير متزوجة، وهو الذى يعد الأخ مجرمًا جانيًا إذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنه وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها، وهو الذى يحكم بإلزام المدينين بدفع الربا لدائنيهم، وهو الذى يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل، وهو الذى لايعاقب الزوج إذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه.

وأما المحاكم المختلطة- وقضاتها من الأجانب- فهى تختص بالنظر فى ما يقع من الخصومات بين الأهالى والأجانب وبين الأجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية يعنى[2] فى قضايا المال، ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لابد أن ينتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره.

وأما المجالس التأديبية فهى تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه وحدّها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجع فيه إلى المحاكم الأهلية.

---

(١) م ش ٣٥ «هكذا يقول علماؤنا» مكان «المسألة فيها خلاف» حتى «علماء الشريعة»

(٢) طـ ٢: أعنى.

وأمـا المجـالس الإدارية فـهى تخـتص بعـقـاب من يخـالف اللوائح والأوامـر والمنشورات، وشرح ذلك يطول.

وأما المحاكم العسكرية فهى تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضًا على الأهالى فى مسائل القرعة ***وما شاكلها***.[1]

وأما المحاكم القنصلية فهى تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الأجنبى على المصرى ومن الأجنبى على الأجنبى من جنس واحد، فإذا وقعت جناية من أجنبى على مصرى فليس لها فى مصر من حكمٍ أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر فيها بل يرتد الجانى بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر هناك قضاته فى أمره والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل: «عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى وضياع معالم القضية وعدم توفر الشهود».

وأما المحكمة المخصوصة فهى تختص بمعاقبة الأهالى عند تعديهم على الجنود الأجنبية.

(الباشا)- ما زلت تسمعنى الغريب وتفهمنى غير مفهوم، ومن أعجب ما سمعت أن المصريّ يتعدى على الجنديّ.

* قـال عـيـسى بن هشـام وبينا نحن فى هذا الحـديث إذ ارتج المكان وتماوج الزحام[2] وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجهه حسنًا، ويشاكل فى القد غصنًا، وكأنه طائر فى مشيته من نشاطه وخفته، ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن دور القضية ثم عدت إلى صاحبى ومكثنا فى الانتظار زمنًا طويلاً إلى أن جاء الدور ونودى البـاشـا فـدخل مع المحـامى فى الجلسـة وقـام النائب فطلب الحكم على المتـهم بمقتضى مـادتى «١٢٤» و«١٢٦» عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال «الضبطية

---

(١) م ش ٣٥: غيرها.

(*) م ش ٣٥: غير المؤلف مكان هذا الوصف فى الطبعة الأولى للكتاب (انظروا هوامش ص ٢٨ أعلاه).

(٢) طـ ٢: نوبة.

القضائية» فى أثناء تأدية وظيفته وبالمادة «٣٤٦» مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف.

(القاضى للمتهم)- هل فعلت هذه التهمة.

(المتهم)- *لم أفعل*.[١]

قال عيسى بن هشام واستحضرونى[٢] شاهداً فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه الواقعة فأجبته:

(عيسى بن هشام)- إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهى أنه.....

(القاضى) مقاطعًا- لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية وقل لى عن معلوماتك فيها.

(عيسى بن هشام)- معلوماتى هى أننى كنت أزور المقابر ذات ليلة فى وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار...

(القاضى) مستثقلاً- لا لزوم لكثرة الكلام وأجبنى على النقطة التى سألتك عنها فقط.

(عيسى بن هشام)- ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أنى رأيت رجلاً خرج من....

(القاضى) متململاً- قلت لك إنى لا أقبل التطويل ولا الشرح فى الواقعة ولكن هل ضرب المتهم العسكرى والحمار أم لا؟

(عيسى بن هشام)- ما ضرب المتهم الحمَّار وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه وما ضرب العسكرى وإنما سقط عليه مما غشيه بغير عمد ولا قصد وهو يجهل....

(القاضى) - *يكفى، يكفى، هلم «النيابة»*.[٣]

(النائب)- «إن هذا الباشا متهم بتعديه بالضرب على أحد رجال الوليس فى أثناء

---

(١) م ش ٢٥: ما فعلنا.

(٢) طـ ح جاءوا بى.

(٣) م ش ٢٥: يكفى يكفى (ثم يلتفت ويقول) هلم «النيابة».

تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعدى بالإيذاء على مرسى الحمَّار، والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الأوراق واطلاع المحكمة عليها كافٍ وبناء عليه فالنيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة لأن حالة المتهم تستدعى ذلك فإنه يتخيل أن رتبته تجعله خارجًا عن سلطة القانون وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنًا فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولاشك أن تشديد العقوبة عليه واجب لاعتبار أمثاله به وللمساواة فى العدالة وأفوض الأمر إلى المحكمة».

(القاضى للمحامى)– المحاماة. مع الاختصار.

(المحامى) بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه– «إننا نتعجب من أن النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين، ونقول إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضى والأصل فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يقصد منه....

(القاضى) مشمئزًا– اختصر يا حضرة المحامى وادخل فى الموضوع.

(المحامى)–... ومن المعلوم إن نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى....

(القاضى) متضجراً– اختصر، يا بك.[1]

(المحامى)– الموضوع يقتضى ذلك.

(القاضى) متأففًا– لا لزوم له.

(المحامى) متحيراً– قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئًا من أقوالها) ونحن نقول إننا لو سلمنا جدلاً....

(القاضى) مغضباً– يكفى يا بك. الموضوع.

---

(١) م ش ٣٥. أفندى.

(المحامى) متلعثماً مضطرباً- إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم وله حديث منشور فى الجرائد- وهذه أعداد جريدة «مصباح الشرق» تطلعون عليها- وقد اعترضه فى طريقه أحد المكارين فدفعه عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية....

(القاضى) نافداً صبره- قلنا اختصر، يا بك.[1]

(المحامى) وهو يتصبب عرقًا-... ولما توجه المتهم إلى القسم أغمى عليه فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية، وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس ولا عقاب على المتهم البتة لأنه كان فى عصر غير عصرنا وفى نظام خلاف نظامنا ولم تبلغه دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالأحوال وأن....

(القاضى) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة- المحكمة تنورت يا بك[2] ولا لزوم للكلام مطلقًا فهلم طلباتك.

(المحامى) ساخطًا فى نفسه- طلباتنا هى أننا نطلب من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم وإن رأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات.

قال عيسى بن هشام وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفًا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات، فضاقت الأرض بى وأظلمت الدنيا فى عينى وكدت اشترك مع صاحبى فى الذهول والإغماء لولا أن المحامى أكد لى كل التأكيد أنه لابد من البراءة فى محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك أن نرفع عريضة شكوى إلى «لجنة المراقبة» لحسن التأثير على القضية عند نظرها فى الاستئناف ثم قال لى اعلم أن السبب فى كل ما صدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه

---

(١) م ش ٢٥: أفندى.

(٢) م ش ٢٥. أفندى.

مدعو فى وليمة بعض رفقائه عند الظهر تماماً وأمامه فى دور القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد.

(*)وأطعنا لإشارة[1] المحامى فقدمنا عريضة إلى «لجنة المراقبة» ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها تنحى عن استصحابنا وقال إنه كان يود *مباشرة ذلك بنفسه*[2] ولكن يمنعه أن يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منه فيتعمد فى المستقبل أذاه وينصرف همه إلى نكايته بسبب شكايته والمحامى فى حاجة دائمة إلى اجتلاب رضا القاضى واجتناب غضبه فقبلت عذره ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلج فى الامتناع بقوله:

(الباشا)- يكفينى ما قد وصلت إليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القدْر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلاّن فى سلك واحد ذل المتحمل للظلم المستكن للجور وذل المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع، فإليك عنى لاتكن عوناً للخطوب ومفتاحاً للكروب وصدق ابن يعقوب «رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه»، ويعلم الله لولا عذاب النار، لفرجت عن همى بالانتحار، وبودى[3] لو يبدل حكم الحبس بالإعدام، لأخلص من هذه الأوصاب والآلام، وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون فى عقاب الكبراء والأمراء وإنما هو يجرى عندنا فى عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة، وللأمراء الامتياز على كل حال فإن كان ثم لنا عقاب فضرب الرقاب، وعندنا أن لقاء المنون أليق بنا من ظلمة السجون.

(عيسى بن هشام)- ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع، ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع، وأنت البطل الجرىء والشجاع المقدم وما الشجاعة إلا فى التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تتلقاها بوجه طلق وصدر رحيب وتترقب الفرج منها بعد الضيق،

(*) هنا يبدأ مقال جديد من سلسلة (فترة من الزمن) م ش ٣٩ (١٢ يناير ١٨٩٩) وقدمه المؤلف:

عيسى بن هشام: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم وماذا أقول إلا ما قاله الشاعر الحكيم (أبو العلاء المعرى):

أنهاك أن تلى الحكومة أو ترى ... حلف الخطابة أو إمام المسجد
وذر الإمارة واتخاذ درة ... فى المصر تحسبها حسام المنجد
تلك الأمور كرهتها لأقارب ... وأصادق فابخل بنفسك أو جد

(١) ط ٢ إشارة

(٢) م ش ٣٩: مرافقتنا إلى ناظر الحقانية

(٣) م ش ٣٩- لوددت.

ربما تجزع النفوسُ من الأمر　　　له فُرجةٌ كحلِّ العقالِ

وأنت عندى الحازم الأرشد، والعاقل المسدد، وما العقل إلا نفاذ الرأى فى كشف الملمة، وتسديد الحيلة فى إزاحة الغمة، وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائل مشروعة لا غضاضة علينا فى ولوجها ولا مضاضة فى سلوكها، وأعلم أن تبدل الأزمان وتقلب الحدثان يغير من مبانى الأمور ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان يعتبر بالأمس فضيلة يعتبر فى الغد رذيلة وما كان يعده الناس فى الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً، وإن كان الشرف فيما مضى يستمد رونقه من السطوة والمنعة ويقوم ركنه على البأس والبطش فإن الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون، فهلم نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى بالخلاص والنجاة، ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل الانسان نظام الأحكام فى البلد التى اتخذها[1] داراً واختارها مقاماً.

(الباشا)- لطعم الموت الزؤام أهون من هذا الكلام وللشرب من حميم آن آثر من احتمال هذا الهوان.

قال عيسى بن هشام[2] فاعتلت علىّ وجوه الآراء فى صرف صاحبى عن الامتناع والإباء، وكدت أيأس من بلوغ الغاية فى باب النصيحة والهداية، لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى فى طريقنا بصوت نكير دونه صوت الحمير:

المؤيد والمقطم!! الأهرام ومصر!!

الأربعة بقرش

(الباشا)- ماذا أسمع من الأعاجيب؟! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع فى الأسواق بالمزاد.

قد اختلَّ[3] الأنامُ بغير شكٍ　　　فَجِدُّوا فى الزمان أو الْعبوه

(١) ط ٢: اتخذ ، ط ٤: اتخذه.

(٢) م ش ٣٩ (يضاف بعد هشام) فبينما نحن فى هذا الحديث والجدال اعتلت.

(٣) م ش ٣٩: لقد ضل

(عيسى بن هشام)- ما هى بالآثار ولا بالبلاد ولكنها أسماء انتحلت أعلامًا لهذه الجرائد اليومية.

(الباشا)- لعلك تعنى «جرائد الصيارفة ويومياتهم» أو «جرائد الالتزام» ولكن ما وجه هذه التعمية فى التسمية.

(عيسى بن هشام)- ليس الأمر كما ذهبت إليه ولكن الجرائد هى أوراق تطبع فى كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس وهى أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل، والأصل فى وضعها انتشار الحمد للفضيلة والذم للرذيلة والنقد على ما قبح من الأعمال والحث على ما حسن من الأفعال والتنبيه إلى[1] مواضع الخلل والتحضيض على إصلاح الزلل وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لاتجرى بها إلى غير المصلحة وتعريف الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها، وبالجملة فإن أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم.

(الباشا)- قد كنا نسمع فى زماننا بشئ من هذا القبيل يقال له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «روزنامة وقائع» وأخرى بالعربية اسمها ***«الوقائع المصرية»***[2] تدون[3] فيها المدائح والتهانى ويذكر فيهما انتقال الركاب العالى، ولكن إن كانت الجرائد قد ارتقت اليوم إلى ما تزعم فلابد أن يكون قد اشتغل بها واهتم بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ولنعمت الوسيلة وحسنت الطريقة فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم وينفعهم فى معادهم. فعلى بواحدة منها.

(عيسى بن هشام)- علماؤنا ومشايخنا- ***ويغفر الله لهم- هم***[4] أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونه فضولاً تنهى عنه الشريعة وتدخلاً فيما لا يعنى فلا يأبهون بها وربما اختلفوا

---

(١) ط ٠٣: على.

(٢) هذه الكلمات غير موجودة فى م ش ٣٩.

(٣) م ش ٣٩ تذكر.

(٤) هذه الكلمات غير موجودة فى م ش ٣٩.

فى كراهة الاطلاع عليها أو إباحته، وقد مارس هذه الصنعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها والتكفف *على أى حالة*[1] كانت فلا تجد بينهم فرقًا وبين أهل الحرف وباعة الأسواق فى الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاغتيال.

عمَّروا موضع التصنّع فيهم ومكان الإخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل قدرها عند الخاصة وأصبح ما كان يرجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر، ومن العقلاء ممن لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يومًا بتهذيب هذه الحال ورفع هذه الصناعة إلى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر والحكم كله للقارئين فى الإقبال على ما ينفع والانصراف عما يضر «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض». ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعة[2] وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نتفًا من أخبارها فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين فأسمعته ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش[3] فى سجنه واستدرار الدموع لما يلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن وهو من سلالة الولاة والأمراء، ثم قلت له بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة فى استعطاف القلوب والتماس العفو:

(عيسى بن هشام)- انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال فى المساواة وقد علمت ما أصاب «البرنس» أحمد سيف الدين من حكم الحاكم عليه فكيف تترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامتثال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه.

(الباشا)- ما هو «البرنس» ومن هو أحمد سيف الدين؟

(عيسى بن هشام)- أما «البرنس» فهو لقب أجنبى قديم كان يتلقب به رؤساء

---

(١) طـ ٣ على أية حالة.

(٢) طـ ٢ أربعًا.

(٣) م ش ٣٩: الملبس والمطعم

الدولة الرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب «إمبراطور» ثم صار يطلق بعدهم فى أوربا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة، ويطلقه اليوم على أنفسهم أعضاء «العائلة الخديوية، نكوراً وإناثاً وإن كان لا نكر له بين الألقاب الرسمية فى الدولة العلية، وأما أحمد سيف الدين هذا فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن محمد على جد الأسرة الخديوية وعميدها وقد ارتكب جناية فسحبوه إلى المحاكم واستحق العقاب الذى يقضى به القانون فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنوات[1] فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف فأنقصوا المدة إلى خمس سنوات ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام فلم تغثه، وقد انصرفت المساعى لاتفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه وذهبت أمه يميناً وشمالاً فلم تبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فإن سيفه ماض فى كل الرقاب وسلطانه نافذ فى كل الرؤس، فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعى وراء «لجنة المراقبة» و«محكمة الاستئناف» وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت.

(الباشا)- نعم كيف لاتخرّ الجبال الشمُّ إذا استنزلوا منها الأراوى العُصم، وكيف لاتنشق القبور وينفخ فى الصور، وقد انحط المقام وسفل القدر وحقت كلمة ربك على مصر: «فجعلنا عاليها سافلها». وما دام حفيد محمد على فى السجن على ما تروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمه بتلك الشفاعات فما على من عارٍ فيما تدعونى إليه فاذهب بى إلى حيث تريد، وليتهم كانوا يقبلون منى أن أكون فداءً لابن سادتى وأولياء نعمتى فتضاف عقوبته إلى عقوبتى.[2]

* **قال عيسى بن هشام فسرنى من الباشا مطاوعته إياى وقبوله لنصيحتى ورضى بالتوجه إلى نظارة الحقانية**[3] فسار معى وهو مختنق بدمعه متعثر بقدمه ولما

---

(١) ط٣ سنين

(٢) م ش ٣٩: ويضاف إليها: فهلم بنا إلى حيث تريد

(*) هنا يبدأ فصل «حديث عيسى بن هشام» المسمى بـ«لجنة المراقبة».

(٣) أضيفت هذه الجملة إلى نص ط ١.

وصلنا إليها[1] قصدنا مكان «لجنة المراقبة» وهممنا بالدخول فى حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا «الكارت».

(الباشا) مستفهماً- ما معنى هذا اللفظ الأعجمى؟

(عيسى بن هشام)- «الكارت» بطاقة صغيرة يطبع عليها الاسم والوظيفة[2] أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزور بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها.

(الباشا)- لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها، وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفه لى من المساواة فى الحقوق والإنصاف فى الأحكام؟

(عيسى بن هشام)- لايسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من لجاجة صاحب حاجة فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم.

(الباشا)- ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصد من ذكرت عن الدنو منهم والتجرئ عليهم؟

قال عيسى بن هشام ***وبادرت إلى القلم***[3] فكتبت وريقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب فجاءنا بعد الانتظار بالإذن فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أجمل الفتيان، قد أرسل لحيته قبل الأوان، يتموج تحتها ماء الشباب كما يتموج الضوء وراء السحاب، ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب رأيت فى يده جريدة حساب يجمع فى أرقامها ويضرب فى أعدادها ثم يضع يده على جبهته كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته، وعن يمينه كتاب أعجمى، وعن شماله كتاب عربى فكتاب اليمين «لڤولتير» الفرنسوى الملحد وكتاب الشمال لابن عربى[4] المتصوف الموحد، ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا فذكرت له العريضة التى قدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت له ما عاملنا به القاضى من سوء المقاطعة

---

(١) م ش ٣٩ إلى نظارة الحقانية.

(٢) ط٢. العمل.

(٣) هذه الكلمات غير موجودة فى م ش ٣٩.

(٤) م ش ٣٩ لمحيى الدين بن عربى.

فى الشهادة والمرافعة، وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله:

(الباشا)- وأدهى ما فى القضية وأمر ما فى الأمر أن الذى تسمونه «النائب» اعتبر رتبتى سببًا لإهانتى وما كنت أتخيل فى الأحلام أن الرتبة التى نلتها باقتحام الأخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لاتغتفر وبرهانًا قاطعًا لديه فى تشييد دعواه يطلب به تشديد العقوبة، فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام ومن أى صنف أنتم بين صنوف الأنام.

قال عيسى بن هشام ودخل أحد الزائرين فى هذه الأثناء فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله وإلا فقد كان الباشا اندفع فيه بما يتعذر تلافيه، وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الأخبار فى وجه النهار، فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها بعد أن بالغ له فى بلاغتها، وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الأجانب فأطلعه على رسم فى ورقة زعم أنهُ نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتد الجدال فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له وضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله:

(المفتش للباشا)- قد اطلعت على ظروف القضية كلها فى «مصباح الشرق» فأما القاضى فقد يكون له العذر فى مقاطعة المحامى لأن منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتكوين الجمعية البشرية وما يجرى هذا المجرى مما يطول شرحه ويمل سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك فى أبسط القضايا وأدناها ليقتنع صاحب القضية أن المحامى لم يدخر عنه كلامًا يقال فى الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية أو خسرانها، فترى أرباب القضايا يعتقدون أن المحامى لايستحق أجره من المال، إلا بكثرة ما يقال كالسلعة يكون تقدير ثمنها على كمية[1] وزنها، وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الأتعاب[2] لمحاميه بعد أن ربح له القضية بدعوى أنه لم يسمع منه كلامًا مطولاً فى المرافعة يستحق عليه الأجر سواء

(١) م ش ٣٩: قدر

(٢) ط-٣٠ الجعالة.

كان مفيداً للقضية أو مضراً بها وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسعه إلا المقاطعة على المحامى المكثر فى كلامه، وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتنبيهه إلى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها، وحاصل الأمر أن القاضى لم يخالف القانون بشىء فيما أتاه معكم.

(الباشا)- ليت شعرى إذا اعتذرتَ عن القاضى فى مقاطعته فما هو العذر فى وضعه لى فى «قفص المتهمين» وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل[1] شيخ مسن[2] وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمى فى خدمة الأسرة الخديوية فهلاّ كان وقّرنى لسنى واحترمنى لقدرى وأى قانون فى الدنيا يمنعه من ذلك وتوقير السن الطبيعى واحترام المقامات أمرا صلى والله تعالى يقول: «وجعلنا بعضكم[3] فوق بعض درجات».

(المفتش)- ذلك ما يقضى به القانون أيضاً فإنه قائم على المساواة بين الناس ولا فرق عنده فى المقامات والأعمار وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف وعين ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذه القانون عليه، ولا معرة عليك ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى فإنما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات.

(الباشا)- إن كان هذا حكمكم فى القاضى فما هو الحكم فى عضو النيابة الذى عيرنى بشرف رتبتى؟

(المفتش)- أنا لم أطلع بعد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر فى «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منه معنى التعيير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها لايكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام القانون فإنها قاصرة على صاحبها لاتجعل له سبيلاً على محروم منها

---

(١) م ش ٢٩: رجل كهل

(٢) ط ٣: شيخ معمر.

(٣) ط-٢: ورفعنا بعضهم.

ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب فإنه جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر.

(الباشا)- إذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق فما هى فائدة تظلمى لكم وحضورى أمامكم أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضى وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية وتتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك الحكم أمامهما.

(المفتش)- ليس ذلك من اختصاصنا، وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر فى أمره موكول إلى «مجلس التأديب» ولا سبيل لرئيس على مرؤوس إلا بحكم من المحكمة، وأنا أتأسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف فى قضيتك والحكم فيها راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها.

قال عيسى بن هشام وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شابًا آخر بجانبنا من المفتشين يسطع «طربوشه» احمرارًا، ويقلب طرفه ازورارًا، تلوح على وجهه مخايل الإمارة ولاتنفك يده فى رفع وخفض «للنظارة»، وتشهد عليه سيماه بالتفنن فى التدبير وتدل على قوة الدهاء والتفكير، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينادى الحاجب ويقول له:

(المفتش الثانى)- على «بدللُّوز» و«جارو».

(الباشا لعيسى بن هشام)- هل هذان الاسمان يطلقان على القاضى والنائب وهل ترى هذا الشاب هبَّ للانتصاف لى منهما؟.

(عيسى بن هشام)- هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل «ابن عابدين» و«الهداية» فى فقه الشرع.

وحضر خازن الكتب بالكتابين فرد المفتش له أحدهما وقال له: ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو»، ولما جاء به أخذ يبحث فى الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال: ائتنى «بفوستن هيلى» فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل إلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسوية[1] وانتهى الأمر بينهما أن قالا للباشا معًا: ليس أمامك إلا

(١) طـ٤: فرنسية.

الاستئناف فى قضيتك وأما ما يختص بالقاضى والنائب فسنضع عنه «نوتة» (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها فإذا تبين لها أقل خللٍ فى تصرفهما أصدرت منشوراً إلى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل.

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:

(الباشا)- قد كتب على أن لا أخرج من همّ إلا إلى همّ ولا انتهى من كدر إلا إلى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم على من الهموم والأحزان.

فإنى رأيتُ الحزن للحزنِ ماحيًا   كما خط فى القرطاس رسمٌ على رسمِ (١)

ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة أننى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها إلا ورأيت أمامى غلمانًا وفتيانًا يتولون أمورها ويتصرفون فى أعمالها فهل خلق المصريون خلقًا جديدًا أم صاروا فى الجنة استوت فيها الأعمار.

(عيسى بن هشام)- لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون أنه ليس فى استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموا بأعباء المناصب لخلوهم عن علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة(٢).

(الباشا)- كيف يدعون أن العلم ينحصر فى الشبان دون الشّيب وما عهدناه إلا فى من أحنت السنون ظهورهم وبيضت التجارب مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والأدب.

(عيسى بن هشام)- هم يقولون أن العلم والمعرفة لايختصان بسن دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهمًا فى حلبة العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك فإذا انصرف بهمته إلى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار.

---

(١) م ش ٣٩. يوضع هذا البيت الشعرى بعد الفقرة الآتية.

(٢) م ش ٣٩: أضيف هنا بيت شعر:

لو رأى الله أن فى الشيب خيراً   جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

(الباشا)- ***ولنرجع إلى شأننا***[1] فقد اتبعت آراءك وامتثلت لنصائحك وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى راحة اليأس ولم يبق لك بعد اليوم وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى به وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام.

(عيسى بن هشام)- لا تيأس ولاتقنط فإن أمامنا محكمة الاستئناف ***ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام***[2]. ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتمسه بوساطة ناظر الحقانية.

(الباشا)- لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالغت لى فى الوصف واستشهدت فيهم بالشعر.

(عيسى بن هشام)- ليس ناظر الحقانية الذى اذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكب على الأوراد ***منصرف إلى الأذكار***[3] يمسى ليله قائماً ونهاره صائماً فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق وبين السجادة وجبهته ارتباط والتصاق، وبالجملة فهو يذكرنا فى هذا العهد الجديد بعهدكم القديم وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه ***حسن باشا المناسترلى***[4].

(الباشا)- حسن المناسترلى!! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى وخدينى ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهى وأنقذتنى من كل هذه الإهانة وذلك التحقير.

(عيسى بن هشام)- ما غاب عنى أن أذكرك به فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب وإنما نفعه يكون فى آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى

---

(١) م ش ٣٩: هذه الكلمات غير موجودة.

(٢) م ش ٣٩: الأمل الوطيد فى عدلها.

(٣) م ش ٣٩: مزاحم فى الحلقات.

(٤) م ش ٣٩: إبراهيم باشا فؤاد ابن حسن باشا المناسترلى.

مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعي في التماس *العفو من ولي الأمر*(١).

(*) وآن أوان الجلسة في الاستئناف، فسرنا في طلب العدل والإنصاف، وكل واحد منا مشغول *بحاجته*(٢)، لاه بنازلته. فالباشا يفكر في مصيبته ويتألم من بليته. والمحامي يدبر في أمره ويتطلع لأجره. وأنا أسأل الله لنا النجاة من مكايد الحياة. ولما وصلنا إلى حي «الإسماعيلية» ورأى الباشا دورها ومبانيها، وشاهد قصورها ومغانيها، واستطاب رياضها وحدائقها، واستنشق رياحينها وشقائقها، استوقفنا سائلاً مبهوتاً، واستنطقنا بعد أن كنا سكوتاً، فقال ألا تخبراني عن موضع هذه الجنة الزاهرة من مدينة القاهرة، فقلت له هذه «الإسماعيلية» اختطها إسماعيل فيما اختطه لزينة وادي النيل، يسكنها اليوم جماعة من العظماء ذوي الغنى والإثراء. وقد كانت في أيامكم خراباً قفراً لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصرا ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال ولا من الأزهار غير شوك القتاد أو شوك السيال ولا من الطير غير البوم والغربان أو الرخ والعقبان ولا تجد فيها من الإنس إلا لصاً سالباً أو مغتالاً ناهباً أو فاتكاً متأهباً. أو كامناً مترقباً.

(الباشا)- لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر، فأبدلهم من الشوك الزهر وأسكنهم هذه القصور العالية بعد تلك الأطلال البالية.

(المحامي)- أيها الأمير لاتغبط المصريَّ على نعمته، وتعالَ فابكِ معنا على نقمته، فليس له في هذه الجنة من دار، يقر له فيها من قرار، وكل ما تراه من هذا الجانب، فهو ملك للأجانب.

(الباشا)- لله أبوك كيف يختص الأجنبي دون الوطني بهذه الجنان الناضرة، ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة؟ ولعلك تلغز في قولك وتحاجي وتعمي في تعبيرك وتداجي.

---

(١) م ش ٣٩. هذه الكلمات غير موجودة.

(*) هنا يبدأ فصل «حديث عيسى بن هشام» المسمى بـ«محكمة الاستئناف» (م ش ٤١، ٢٦ يناير ١٨٩٩) وفي م ش ٤٠ (١٩يناير ١٨٩٩) نشر محمد المويلحي مقالاً من سلسلة «فترة من الزمن» بعنوان «التزام حكومة السودان». *انظروا النص الكامل في الملحق* (ص. ٤٧٣).

(٢) م ش ٤١: يسلك طريقه ونؤم سبيله.

(المحامى) – لا تحجية ولا تعمية، بل هكذا قدَّر المصرى لنفسه وتبدل سعده بنحسه، واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف ورضى بالقسم الخسيس الضعيف، فبات محرومًا تحت ظل إهماله وخموله، وغدا بائسًا فى سباته وذهوله، وما زال الأجنبى يسعى ويكد، ويعمل ويجد وينال ثم يطمع، ويسلب ثم يجمع، والمصرى يبذر بجانبه ويسرف، ويبدد ويتلف، ويتحسر ثم يلهو ويعجز ثم يزهو، ويفتقر، ثم يفتخر. ***وسادتنا وكبراؤنا، وولاتنا وأمراؤنا، يعاونون الأجانب بسلطتهم فينا وسطوتهم، ويساعدونهم علينا ببأسهم وقوتهم، ويصطفونهم أنصارًا وأعوانا، ليزيدوا بهم المصريين ذلاً وهوانا، حتى وقعوا أيضًا بأسرهم***(1)، فى قبضة أسرهم، فتساوى السيد بالمسود، وتشابه الحاسد بالمحسود، وتعادل الرفيع والمنيع، بالحقير والوضيع، واشتركنا كلنا على السواء، فى منازل الشدة والبلاء، وأصبح نصيب القوى المكين، مثل نصيب الضعيف المستكين، وكذلك تكون عاقبة من يلقى للأجنبى بيديه، ومن أعان ظالمًا سلِّط عليه.

ومَن يجعل الضرغامَ بازًا لصيده　　　تصيَّده الضرغامُ فيما تصيَّدا

قال عيسى بن هشام وما كاد ينتهى رفيقاى من خطابهما، ويفرغان من سؤالهما وجوابهما، حتى مر بنا راكب دراجة تنساب به كالصلال، فى بطون الرمال، ويتمايل بها تمايل النشوان، مالت به نشوة الخمر، وينثنى انثناء الاغصان، هزَّها نسيم الفجر، فامتلأ الباشا تعجبًا واندهاشًا. وسألنا الشرح والبيان عن أمر هذا «البهلوان». فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض(2) الناس على المركبات والأفراس، ومما يرغبهم فيها أنها لا تأكل ولاتشرب، ولا تهزل ولا تتعب، وهذا الراكب رجل من أهل القضاء يركبها لرياضة الأعضاء، فاتبعه الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته فانفرط عقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام: الراكب والعجلة والطربوش، ثم رأيناه تماثل للقيام فلمّ شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها ويماشيها وأخذ الباشا يخاطبنى فيه وفيها:

---

(1) م ش ٤١: وساداتنا وكبراءنا ووزراءنا وأمراءنا يعاونون الأجانب بسلطتهم وسطوتهم ويساعدونهم ببأسهم وقوتهم ويتخذونهم على المصريين أنصاراً فيسومونهم معهم ذلاً وهواناً حتى وقعوا هم أيضاً بأسرهم.

(2) م ش ٤١: كبراء.

(الباشا)- يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا. وكنا مطلقين لا لنا ولا علينا، وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم إذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة؟ وهل حكم الناس يومًا بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر وفخامة المواكب وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا إلا فى موكب تحف به الحشم والأعوان وتتقدمه الجنود والفرسان فترتجف منه القلوب رعبًا وتخرّ له الأعناق رهبًا وقل من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يوقفه أمامه يومًا موقف التهمة والارتياب.

(عيسى بن هشام)- ذاك عصر مضى وحكم انقضى ولقد تفنن أهل العصور الماضية فى وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة كقول أبى الطيب فى ممدوحه مثلاً:

جَمعَ الزمان فما لذيذٌ خالصٌ   مما يشوب ولا سرورٌ كاملُ

حتى أبو الفضل ابنُ عبدالله رؤ   يته المنى وهى المقامُ الهائلُ

(المحامى)- قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة.

(عيسى بن هشام)- ولعلنا نجدها بإذن الله فى مكانها فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان حتى أشبهت خيام العرب.

يومًا بحزْوَى ويومًا بالعقيق وبالـ   ـعذيب يومًا ويومًا بالخليصاء.

ثم اقتربنا فوجدناها وأقمنا فى ساحتها ننتظر دورنا[1] بين أرباب القضايا حتى نودى علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة[2] فأخذ الأجنبى منهم يقرأ «ملخص القضية» بلهجة أعجمية وحروف لم تستوف مخارجها قال: «إن هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكرى بالضرب فى أثناء تأدية وظيفته فى يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر وشهد المجنى عليه ودل الكشف الطبى على وجود علامات فيه للضرب والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفًا بالتطبيق لمادتى ١٢٤ و١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه».

---

(١) ط٢. نوبتنا.

(٢) م ش ٤١ يضاف بعد القضاة: فيهم شيخ عليه جلال القضاء ووقار الحكم فأعجب الباشا بهيئته واطمئن لرؤيته

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى هكذا تجرى العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضى الأجنبى عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائى فيجعلها تلخيصًا للقضية ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت.

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن سنه وصناعته ومحل إقامته وأشار إلى النيابة **بالكلام**[1] فشرع النائب فى شرح القضية على ما يوافق هواه، ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه كما يكون فى المحاكم الابتدائية (والسر فى ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب فيتركونه وشأنه فى التطويل والإسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز فابتدأ المحامى يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم وكلما وصل إلى النقطة المهمة فى دفاعه قال له الرئيس: «الموضوع»: «طلباتك». ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس إلى أن كلام المحامى فى عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله: «سمعت القضية والحكم بعد المداولة» فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامى عن المسافة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى:

(المحامى)- لاتزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة.

(عيسى بن هشام)- وما هو المتوسط من عدد القضايا فى الجلسة؟

(المحامى)- متوسطها عشر قضايا.

(عيسى بن هشام)- وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق؟

(المحامى)- نعم تكفى عندهم لكل القضايا ولو كان الاطلاع على القضية الواحدة التى يحكم فيها بالإعدام أو بالأشغال الشاقة المؤبدة يستغرق ساعتين أو ثلاثًا، وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى «الملخص» إلى قلم الكتاب لإطلاع

---

(١) م ش ٤١ بقوله حضرة النائب.

المحامين فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الأحرف: «ب» «ع» «ت». فالباء إشارة إلى البراءة والعين إشارة إلى العقوبة والتاء إشارة إلى تأييد الحكم الابتدائى، وإنما يضع القاضى هذه الرموز حتى لاينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة فإذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة، ولكن لما كان القاضى الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح إليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه أن يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خال من كل اعتقاد خاص للبراءة أو للتهمة حتى إذا استقامت لديه الأدلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى الغير[1] ولا أن يكون الحكم مبتوتًا فى القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التى عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده ببيته مر السحاب.

قال عيسى بن هشام وبينا نحن فى هذا الكلام إذا عادت الجلسة إلى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لأنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا وهو يقول:

(الباشا)- لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء لايتحمل أعباء بطئه البريء وكان الأولى فى هذه المحاكمات أن تكون النهاية فى البداية فلا يلحق من كان مثلى هذا الهوان والصغار ويقع به ما وقع من الحبس والعار بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام.

(المحامى)- إنى أهنئك بهذه البراءة واسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ولازلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده، وقد مضى منى الدفاع وبقى عليك الدفع.

---

(١) ط٢: غيره

(*) قال عيسى بن هشام وما زال المحامى عاكفًا علينا يطالبنا بالأجر، والباشا يعده لآخر الشهر حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه بمال من عقاره وضياعه، والمحامى يأبى التسويف والإمهال وإلاّ الدفع فى الحال:

(المحامى للباشا)- أتظن أن هذه الوعود تقوم لدينا مقام النقود فى بلد كثر فيه الإنفاق وزادت الضرورات وقل فيه الربح كما قلت المروءات، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه وعندالابن من أبيه، ولقد تعبت فى القضية تعبين باللسان وبالجنان ولا استريح منها إلا بنقد الأصفر الرنان، وإنك لاتصرفنى- وإن كنت محمود الخلق- بالوعد، ولكنك تصرفنى- وأنا أحمد- بالنقد وانى لا أريد أن أسكن فى بيت المتنبى:

أنا الغنىُّ وأموالى المواعيدُ

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية، والفكاك من بلية ببلية، فذلك ما لا يأتيه العقلاء، ولا يرتضيه الأمراء،

قال عيسى بن هشام ولما رأيت الباشا لا يقدر على التلفظ من شدة الحنق والتغيظ، تداخلت بينهما تداخل الأريب وتوسطت توسط اللبيب؛ فنلت بلطف الالتماس والرجاء رضاء المحامى بالمهلة والإرجاء إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر إلى الغنى واليسر، وقلت له ما يقال فى باب المرؤة والهمة من وجوب الحنو على من يقع فى مصيبة أو ملمة، وأن من تذكر الدهر وغيره والزمان وعبره لانت عريكته وطاوعت شكيمته، وليس بين صعود المرء ونزوله وإشراق سعده وأفوله وبين غناه وفقره وصفوه وكدره إلا مسافة انقضاض القضاء من رب السماء، فنظر إلى الباشا نظرة الاحتقار والازدراء، وخاطبنى بالأنفة والكبرياء:

(الباشا)- لبئس الخدين أنت والقرين كيف تسمنى بسمة الفقراء وتستعطف على قلوب الضعفاء؟ وأنا الأمير السرى والغنى المثرى وأين ما ادخرته فى عمرى واكتنزته فى

(*) هنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٤٢، ٢ فبراير ١٨٩٩.

عصرى من مال وعقار وفضة ونضار وأملاك وضياع، وزخرف ومتاع، ولقد كان يضرب بغنائى المثل؟ فإن كنت جاهلا بى فسل، انهب فأتنى بخبر ما خلفت وأبقيت، وأثر ما جمعت واقتنيت، وكيف يخفى عليك وعلى المحامى مالى من الأموال والعقار، وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار، فإنى يشهد الله ما تركت حيلة، ولا أغفلت وسيلة، فى الحصول على الإثراء والغنى، حتى جمعت منه كثيراً مما تفرق على الورى، فجعلته عدة لشد أزرى، وأماناً لى من مصائب دهرى، وتركته ذخيرة لأبنائى وحفدتى، وميراثاً لأعقابى وذريتى، ليكونوا من ذل الحاجة فى جنة، ومن نعيم العيش فى جنة، وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد، رفيع الذكر رفيع العماد.

(*) (المحامى)- نعم إنا لنعلم يا معشر الأمراء والحكام إنكم قضيتم الأعمار فى جمع الحطام واتخذتم وظيفة الحكم تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الأرامل والأيامى وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى وكنتم سواء عليكم حزتم المال من حله أو غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرىء وبرأتم الظالم، فجمعتم لديكم من أثر ذلك ما فرقه الله على عباده من رزق وما قسمه لهم من قوت ورضيتم بالوزر وطوقتم أعناقكم بالإصر ثم حرمتم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه وحرمتموها من كل ما حزتموه، ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، ولم تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ولم تطهروها بزكاة ولم تزكوها بإحسان وأطربكم منها رنين الدرهم فوق الدرهم وصمت الدينار، مع الدينار وأبدعتم ما شئتم فى وسائل وطرائق يأباها الله لعباده ويمقتها ويستبشعها الإنسان ويستفظعها لسلب ما سلبتموه وكنز ما كنزتموه بالإثم والعدوان ومعصية الرسول واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيه، وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم فأوّلوها لكم لانحصار الأرزاق فى أيديكم واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل، حتى إذا انقضى العمر وحل الأجل تركتم ما خلفتموه لغلمة من أولادكم وصبية من جواريكم

(*) م ش ٤٢: فى المقال الأصلى يلقى هنا الخطاب المهم عيسى بن هشام نفسه

نشئوا بينكم على الحرمان ولم تثقفوهم بالتعليم ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم وللأيام والليالى تهذبهم فكنتم فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز- كما يقال فى الأقاصيص- يحتالون لنقله بقتله، فإذا استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقامًا منها ومنكم، وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع فما هو إلا أن يتسابق الدود والورثة فى أحشائكم المدفونة وأحشائكم المخزونة فيسبق الورثة الدود فى الصدور والورود، فتذهب البدرة وراء البدرة والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار حتى إذا لم يبق إلا بيت السكن أتوا على ما فيه من الأثاث بيعًا وما فى أعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهنًا ولايزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة إلى أن يندك بناؤه ويعفو أثره ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه وهو يشيع منهم باللعنتين فى الحالتين: حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر،

هذه ***أيها الأمراء***[1] عاقبة ما صارت إليه أموالكم ***ومقتنايتكم من بعدكم***[2] ويا ليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك منهم كرد بعض الحق إلى أهله ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعها إلى أيدى الأجانب والغرباء، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون أقواتهم، ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين، والمصريون أولى بالقليل منه، وما دفع بأعقابكم إلى هذا الليان والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبى والاحتقار لجانب المصرى، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابًا للمصريين حتى شاركتم معكم الأجنبى فى تلك الربوبية فغلبكم عليها وأشرككم مع المصريين فى العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد، وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار فى أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وأبصار أعقابهم

---

(١) م ش ٤٢: هذه الكلمات غير موجودة.

(٢) م ش ٤٢: هذه الكلمات غير موجودة.

ـ خصة إليها فإن أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنها تحت ثقال تلك الرحى وقل معي ما يقوله الشاعر الحكيم:

يقول الفتى ثمرتُ مالى وإنما ... لوارثه ما ثمرَّ المال كاسبه
يحاسب فيه نفسه في حياته ... ويتركه نهبًا لمن لا يحاسبه

فياعبث المدخر الجامع، ويا غبن المكتنز الطامع، ما كان أغناكم عن الجمع والادخار، وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار،

(الباشا)- أراك قد تجاوزت *أيها المرشد الواعظ*[1] حدك في اللوم والتعنيف وخرجت عن طورك في العذل والتعزير وكان بودى أن أعطيك أجرك مضاعفًا ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء التقريع والتوبيخ، وربما قلت حقًا في بعض ما تقول والرجاء في غفران الله عظيم وفي رحمته متسع ولعل ما تخلل أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناه من السيئات، ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة والاحتيال لالتماس الرزق بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى وتحكى، وما أرى لضيقي من مفرج إلا أن أورد نفسى حتفها وأعيد لها حمامها فما أروح ما كنت فيه من ظلام الرمس وما أقبح ضياء هذه الشمس.

(عيسى بن هشام)- ليس لمثل حالتكم غير الأسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم بين حين وآخر من ولاية الأحكام هو قياس مطرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواه في وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة، وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني أهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب فإذا خلت أيديكم منها واعتزلتم الأحكام تقطعت بكم الأسباب وضاقت بكم السبل في وجوه المعايش كما تصاب يد الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كلاً على كاهل يرجو الموت كما رجوت ويتمنى راحة العدم كما تمنيت، وكأنكم أيها الحكام صنف من فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون إلا

---

(١) م ش ٤٢: هذه الكلمات غير موجودة.

فوق ذهب العرش أو فوق خشب النعش وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو فى ضيق الحبس وضيق النفس:

ونحن أناس لاتوسط عندنا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومعلوم لك ما فى هذه الصناعة صناعة الولاية والحكم من قلة ما يرفعه الصدر وكثرة ما يضمه القبر، وكأن الأولى بكم أن تكونوا كالناس فى معايشهم لكل إنسان آلة بينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها التعيش والارتزاق حتى إذا أنتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم فى بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنتفعون.

(الباشا)– تالله إن ما قاسيته من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقل همًا وأدنى شجنًا من مرارة هذا النصح والوعظ، وما الرأى عندكما وقد فات التحصيل والطلب ولم يبق وقت للصناعة والعمل، والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يجىء لا لمن يمضى.

قال عيسى بن هشام فأحزنتنى حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت أتدبر له وأتفكر فى طريقة يتعيش بها وكلما خطر لى خاطر خاب رجائى فيه حتى كدت أيأس من الحيلة والباشا ينظر إلى وأنا فى تفكيرى تارة ويطرق للتفكير فى نفسه تارة أخرى، ثم رأيته قد انتفض من مكانه وأخذ بيدى يقول لى:

(الباشا)– قد وجدت والحمد لله بابًا لسد العوز وكفاف *العيش*[1].

(عيسى بن هشام)– ماذا وجدت؟

(الباشا)– كان من عادة الحكام أمثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقربهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعملٍ صالحٍ اتفقوا عليه كافة وهو إقامة بناء لجامع أو كتاب أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضًا أو ضيعة وقفًا عليه *للإنفاق من ريعها على طول* الزمان وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم وخلفت لذلك وقفًا

(١) م ش ٤٢: يضاف بعد العيش: ويكفى الشيخوخة.

عظيمًا لا تناله أيدى الأعقاب بالاتلاف والتبذير فهلم معى نبحث على ما شيته ووقفته[1].

***

* قال عيسى بن هشام وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف، للوقوف على تلك الأوقاف، ونسائل العابر وابن السبيل، عن المسجد «والسبيل»، ولا[2] سؤال المجدب عن الروض، والظمآن عن الحوض، فلم نجد من يرشد، إلى ما ننشد، وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها، والأزقة ومساكنها، ويقول كان هنا وكان هنا، وجل ما يقضى به إلهنا، وما زال يقاصر فى خطواته، ويطاول من آهاته، ويبكى لرسوم الأطلال والديار، بكاء صاحب عزة أو صاحب نوار.

فاسألنها واجعل بكاك جوابًا تجد الدمع سائلاً ومجيبًا

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب، وترداد المجئ والذهاب، إلى منعطف مضيق، فى منتهى الطريق، فوقف الباشا هناك قبالة دور مهدمة، وجدران محطمة، ومسجد فى فجوة منه حانوت خمار، وفى زاوية منه دكان عطار، وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف، مختلفة الأصناف، فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه، ويخطِّئ حدسه تارة ويصوِّبه، فهداه طول النظر والتدقيق، وشدة الإمعان والتحقيق، ان رأى شيخًا فانيًا متربعًا فى دكانه، متحيزًا بمكانه، عليه علامات الانحلال والسقوط، وشارات الخذلان والقنوط، وسيما الرضاء بالمقسوم، والتسليم للقضاء المحتوم، له جبهة كأنها من ورق البردى العتيق، تتلو فيها ما دونه الدهر من آيات الشدة والضيق، فخرج الباشا فى الحال من حال المتحير المتردد، إلى حال الواثق المتأكد، فنادى صاحب الدكان عن بعد، نداء السيد للعبد، فانتفض الرجل انتفاضًا عجيبًا، وقصده ملبيًا ومجيبًا، فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية، لا أن ملكًا ينادى أحد الحاشية، ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع، والمطيع الخاشع، فقال له الباشا بعد أن حدد فيه نظره، وراجع فكره:

---

(١) م ش ٤٢: بنيت وأوقفت.

(*) هنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٤٣، ٩ فبراير ١٨٩٩، وأضيف عنوان «الوقف» إلى ط ٣.

(٢) م ش ٤٣: «ولا» غير موجود فى المقال الأصلى.

(الباشا)- ألست أنت أحمد أغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي، ألا تعرفني من أنا؟.

(صاحب الحانوت)- لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع بين ظهر الأرض وبطنها لقلت إنك سيدي وأميري ويشهد الله أنني كلما أمعنت في وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلي ويندهش لبي لاستحكام الشبه بينك وبين سيدي المرحوم.

(الباشا)- إني أنا سيدك وهذه هي العلامة التي تعلمها في جسمي من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك في يوم من أيام السبق[1] والرهان (وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوقع الرجل منكبًا على الأرض من شدة الدهشة يقبل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ويقول له في بكائه وشهيقه):

(صاحب الحانوت)- كيف بالحياة بعد الممات لحق أنت إحدى المعجزات؟ وليس ما أراه بغريب فقد شاهدت في هذا العمر الموجز مالا تحيط بوصفه الأقلام ولاتتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك أن تشرق الشمس من مغربها وتخرج الأرض أمواتها من مقابرها.

قال عيسى بن هشام ***فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب في الاستغراب والتعجب***[2].

هي[3] الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

واعلم[4] أن القدرة لاتعجز عن شئ في الوجود ولاتحيط بها العقول، ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكي ويتضرع ويقول ليت أمي لم تلدني وليت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته نشرت معه زمنه وأعادت عصره وإلا فكيف له بالعيش في هذا الزمن وما أولاه بالعودة إلى أدراج الكفن، ثم التفت إلى الباشا وشرع

---

(١) ط ٤: السباق.

(٢) م ش ٤٣: «فقلت للرجل ... والتعجب» غير موجودة في المقال الأصلي.

(٣) ط ٢: على أنها.

(٤) م ش ٤٣: واعلم أيها الرجل.

يقص عليه ما مر به من الحوادث والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب:

(صاحب الحانوت)- ولم يبق لك أيها المولى من أثر يذكر فى ثروتك ومتاعك وأموالك وضياعك، وقد عشت دهراً وأنا متمتع بريع ما وقفته أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك، فما لبث الوقف أن تهدم وتخرب بطول الترك والإهمال فوقعنا كلنا فى الفاقة والاحتياج وانقلب الكتاب مخزناً والسبيل خمارة والمسجد مصبغة كما تشاهد وترى، وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت «ركبداراً» وأخذت هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتى فيها والتعيش منها وسبحان مقلب الأحوال ومبدل الأشكال.

(الباشا)- ألم يبق من ذريتى أحد يباشر هذا الوقف بنظره.

(البيطار)- آخر العهد عندى كان بواحد منهم ذهبت إليه لأجل هذه الحانوت وأعلمته بمكانى من أهل الحاشية فانتهرنى وطردنى وأبعدنى وزجرنى ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح فترددت عليه مراراً فتخلص من ثقل إلحاحى بإحالتى على رجل إفرنجى عنده يدبر له ما بقى لديه من ثروة نضبت عينها ونزحت بئرها فأحالنى الإفرنجى على صاحب الخمارة لأنه أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير إرادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم فقصدت الخمَّار واتفقت معه على أجرة معينة وأقمت فى هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعنى وأطلب القوت ويعوزنى وأتعجل الأجل ويمهلنى وتعالى الله المتفرد بعزته المبدع فى حكمته.

(الباشا)- *وأين*[1] هذا الولد العاق المخالف لإرادتى وهو يعلم أن شرط الواقف كنص الشارع؟

(البيطار)- هو مقيم الآن فى «الأوتيل»

(الباشا)- وما هو الأوتيل؟

---

(١) م ش ٤٣: وأين مكان

(البيطار)- «اللوكاندة»

(الباشا)- وما هى اللوكاندة؟

(عيسى بن هشام)- «الأوتيل» هو بيت معروف يعدونه لنزول من لا بيت له من الأجانب والغرباء على أجر معين وهو فى المعنى كالخان الذى تعرفونه فى زمانكم.

(الباشا)- هل وصل التدنى بهذا الخائن إلى سكنى الخان، وسبحان مصرف الأحوال ومغير الأزمان، وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال، بعد عز النعمة ووفرة المال، أفكان رجوعى إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه، تعذيبًا لى على ما فرطت فى جنب الله، أو لم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار، ما يغنى عن التعذيب بالعار، فى هذه الدار، رب إن الجحيم لأهون على فى العذاب والنكال، مما ألاقيه من الرؤية فى المال والعيال:

فليت وليدًا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

(عيسى بن هشام)- ليست السكنى فى «الأوتيل» اليوم عن ذل وفقر، بل هى عن عزٍ ويسر، فإن النفقة فيه بضعة أيام تكفى لنفقة شهر، على أكبر قصر، بجواريه وخدمه، وأتباعه وحشمه، وقد دعا أولادكم إلى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للأجانب وإتقان الاقتداء بهم والسعيد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره ويرهن ضياعه لتتيسر له الإقامة فى هذا الخان ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام من «الأوتيل» إلى البيت وعنده الطباخ فى أسفله والجوارى الطاهيات فى أعلاه.

(الباشا للبيطار)- أرجوك أن تصف لصاحبى مكان «الأوتيل» الذى يسكنه ذلك الغلام فإن بى حاجة إلى لقائه.

(البيطار)- كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر فى خدمتك أن تأمرنى بما تشاء وهل تظن أنى أفارق ركابك أو أزايل معيتك مهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأزمان فهلم منك الأمر والإشارة وعلى السمع والطاعة.

* * *

(*) قال عيسى بن هشام ودعانى[1] الباشا للسير معه، وهو يكفكف أدمعه، وتبعنا البيطار من خلفنا بخطاه الثقيلة، وعصاه الصقيلة، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال، ***وتعزى بها فى السير والانتقال، عن ظهور الخيل ومتون البغال***[2]، إلى أن وقفنا عند أحد ***القصور الكبيرة، من الفنادق الشهيرة***[3]، فهال الباشا ما رآه من ضخامة البناء، وفخامة المنظر والرواء، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان، ورشاقة الوصفاء والغلمان، فتخيل أننا أخطأنا الأبواب والمداخل، فدخلنا بيتًا من بيوت ***الوكلاء أو القناصل***[4]، وتقدمت للسؤال والاستخبار، وقد خلفنا البيطار فى الانتظار، فدلنا أحد الخدم عن رقم المكان الذى يسكنه الأمير، بعد طول التردد والتفكير، فما وصلناه حتى دفع الباشا بيديه دفتى الباب، لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء، وأعقاب الكبراء، مختلفين فى الجلوس، حاسرين عن الرؤوس، ففريق منهم عاكفون على لعب القمار، وفريق ينظرون في صور خيل المضمار، ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفٍ لا عجوز شوهاء، ولا فتاة حسناء، تجتلب الحسن بإفراط التأنق والتفنن، فى وجوه التصنع والتزين، فيكاد يضىء وجهها بسنا العقود والقلائد، ويتلألأ جبينها بلآلئ الجواهر والفرائد، وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح، فى الأباريق والأقداح، وبجانبها منضدة، عليها آنية منضدة، وفوقها الدواة والقرطاس، ويراعة مرصعة بالألماس[5]، وكتب أعجمية موشاة بالذهب، لا أدرى إن كانت فى اللهو أو فى الأدب، وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة، وجرائد تحت الأقدام منثورة، لم يفضض عنها ظرف، ولم يقرأ منها حرف، وسمعناهم يتراطنون جميعًا بلغات أجنبية، دون اللغة التركية أو العربية، إلا ما كان من أسماء الخيول العربية، بعد أن يبدلوا القاف بالكاف، وينطقوا بالحاء كالهاء، ولما رأونا ظهر منهم العبوس والقطوب، وبدا عليهم انقباض الصدور والقلوب،

(*) أضيف عنوان «أبناء الكبراء» إلى ط ٣، والنص هنا لم يزل من م ش ٤٣.

(١) م ش ٤٣: وجذبنى.

(٢) م ش ٤٣: «وتعزى بها ... ومتون البغال» غير موجودة فى المقال الأصلى.

(٣) م ش ٤٣: الأوتيلات العالية.

(٤) م ش ٤٣: القناصل فى زمانه.

(٥) ط ٣: بالماس.

وانبرى من جانب المرأة شاب، فأسرع نحو الباب، فخاطبنا بعبارة فرنسوية[1]، ولثغة باريسية:

(الشاب)- كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن؟

(عيسى بن هشام)- دعا إلى ذلك شوق الوالد إلى رؤية ذريته.

(الشاب)- لست أفهم لك كلاماً فصرِّح لى وبيِّن.

(عيسى بن هشام)- فلان يسأل عن فلان.

(الشاب)- إنى أنا فلان ولكن من هو فلان الذى يسأل عنى؟

(عيسى بن هشام)- هو جدك الأكبر أحياه الله بعد مماته وبعثه من رقاده وكان من أمره أننى كنت أزور المقابر ذات يوم من الأيام....

(الشاب) مقاطعًا مستهزئًا- اذهب عنى فلست أسمع لهذا الكذب والخرف وليس لى اليوم من جد ولا والد، ولا أنا ممن يصدق بحديث البعث فى الآخرة فكيف برجوع الموتى إلى الدنيا، تعالوا أيها الإخوان فاعجبوا معى واضحكوا لما أسمعه من هذا الرجل الذى يخاطبنى، وانظروا إلى هذا «الباشبوزق» الغليظ الذى بجانبه فهو يدعى أنه من آبائى وأجدادى بعثه الله ليطالبنى فيما أظن بما ورثته من الأموال وينازعنى فى نظارة الأوقاف، فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم لم يكتف الدهر بتكدير عيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة أرباب الديون حتى بعث الأموات من قبورهم ليطالبوا بمواريثهم وأموالهم ألا ترونها أيها الخلان أنها أبدع نكتة فى أواخر القرون؟

قال عيسى بن هشام فاستغرق الجميع عند ذلك ضحكًا واستلقوا قهقهة، وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيده واستفهم منى عما يجرى معى من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لايقف على شئ مما يقال ولايحس بوقع تلك السهام والنبال، ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا الخادم ليأمروه بطردنا وإخراجنا وحانت فى هذه الأثناء التفاته من الحفيد بين دوراته وحركاته فلمح أحد قرنائه وإخوانه قد انزوى بتلك الخليلة، التى هى عندهم كالحليلة، يلاعبها وتلاعبه، ويغازلها وتداعبه، فانقض عليهما كالصقر الأجدل

(١) ط ٤: فرنسية.

فاستعر بينهم الجدال واشتد الخصام والتف حولهم الجمع وسمعت الحفيد يعتب والصاحب يعتذر والمرأة تبكت وتؤنب وتقول لعاشقها: «ليس لك مثل هذه الجرأة فى العتاب والملام ولا يأتى ما تأتيه من الحدة والتهور فى الغيرة إلا من كان قائماً بحاجتى مجيباً لرغبتى وقد طلبت منك بالأمس أن تشترى لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوروبا فى البريد الأخير فسوّفت وماطلت بعد أن أجبت ووعدت واعتذرت بالإعسار والضيق ثم بلغنى اليوم أنك اشتريت فرساً جواداً بمبلغ عظيم من المال فكيف تقصر فى حاجتى مثل هذا التقصير وتبغى منى الاقتصار عليك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك وإخوانك».

ثم سمعت الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع أنفاسه: «تالله ما اشتريت شيئًا ولكن بعت أشياء لأشترى لك العقد بثمنها ولايغرنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنيء الخائن وعن قلة أموالى ورهن أطيانى فأنت تعلمين بمقدار الأموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين».

وما سمع ذلك الصاحب سبه بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب، وثارت به ثورة الغضب، فتقدم فلعنه وشتمه، ودفعه ولطمه، فوعده الملعون الملطوم، بالمبارزة فى يوم معلوم.

ثم علا هناك صياح أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وآخر، ورابح وخاسر، وأخ يبغى الاقتراض من أخيه، ومفلس يطالب ميسراً بدين لا يؤديه، وانكشف الجدال كذلك عن الضرب واللكم، وانتهى النزاع بالصفع واللطم.

واشتبك خصام آخر فى ركن المكان، بين أهل السبق والرهان، هذا يقول فرسى سابق، وفرسك لاحق، وذلك يقول «ركبدارى» حاذق وابن حاذق، وجوادك قصير وجوادى شاهق، وأنت الآن مقر معترف، بأن الوزن بينهما مختلف، واشتدت المنافسة والمنابزة، وجرى بينهم حديث للمبارزة، كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة إلى أخرى، تسحب الحية والأفعى، فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها، وتشعلها طوراً لخبث نيتها.

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال فجذبت بضبع الباشا وخرجنا من

ذلك المكان وأسرعت به منحدراً إلى الطريق فسألنى عن تفصيل ما كان وجرى فترجمت له شرح الحال والمآل فاحتدم غيظه واضطرم حنقه فلم يطفئه إلا ما قلته له فى آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته: لعل القدرة تكشف عنى هذا المصاب، وتريحنى المبارزة من الأبناء والأعقاب، فقلت فى نفسى إن أبناءكم لم يرثوا منكم أخلاقكم كما ورثوا عنكم أموالكم وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب، ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب، ولا يأبهون لكشف العار وأخذ الثار، والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار.

وتذكر الباشا فى طريقه شدة حاجته إلى وفاء ما عليه من الأجر للمحامى فالتفت إلى البيطار يسأله:

(الباشا)- هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخلطاء والأقران أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروة؟

(البيطار)- لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان.

(الباشا)- ابدأ بالذهاب معنا إلى بيت الأول منهم فسرنا إلى حيث أشار والهموم تفرسنا، والغموم تخرسنا، والأكدار لا تفارقنا، والأقدار لا توقفنا.

***

(*) قال عيسى بن هشام[1] ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه، وبقية أخلائه وأصدقائه، فانتهى بنا طول المسير، إلى بيت ذلك الأمير، وكأنه ميدان فى اتساعه، وحصن فى ارتفاعه، ووقف بنا البيطار[2]، عند باب الدار، فسلم على الخدم وحياهم، ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم، فأجابوه بالتجهم والعبوس، إنه فى قاعة الجلوس، فخطونا فى بحبوحة الميدان، فرأينا فى وسطه شجرة كثيفة الأغصان، حنى قوامها تقادم الأزمان، كأنها الثكلى حلت شعورها فى مأتم الأحزان، وفى ظلها فرس يجن من النشاط والمراح، وبجانبه كبش ضأن للنطاح، وحولهما ديكة نزال وضراب،

(*) أضيف عنوان: «أبناء الكبراء» إلى ط ٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن»

(١) م ش ٤٤، ٢٣ فبراير ١٨٩٩.

(٢) م ش ٤٤: الركبدار.

ظنابيبها مسنونة كالحراب:

فحمر وسود حالكات كأنها	سوام بنى السيد ازدهته القوائم
يزان لديها الطعن فى حومة الوغى	إذا زينت للعاجزين الهزائم
وفيها إذا ما ضيع النكس غيرة	تصان بها المستصحبات الكرائم

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان، فسيحة الأركان، فى أحد جوانبها سلسبيل، يسيل ماؤه من أفواه التماثيل، والأرض مفروشة بالبسط الفارسية، وبجلود الضوارى الوحشية، والحيطان مستورة بأنواع السلاح، من خناجر وسيوف ورماح، وفوقها عدة صفوف، من الرفوف، تحمل الطرائف الكريمة، والأوانى الصينية القديمة، مع عيدان للتدخين، من أغصان الياسمين، فخلعنا نعالنا، وتقدمنا أمامنا، فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين، منصتين مستمعين، يضىء فى وجوههم نور الشيب والوقار، وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار، فانقطع الحديث عند دخولنا، برد سلامنا، ولكن ما لبث أن اتصل ماانقطع من الكلام، بعد رجع التحية ورد السلام.

ولما استقر بنا المكان[1] همست فى أذن البيطار أن ينبئنى بأسماء الحاضرين فقال لى: هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو رفيق مولانا الباشا فى البيت الكريم الخديوى وقد اعتزل الأعمال واعتكف فى آخر عمره يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسك والزهد ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود وطول القنوت والسجود وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقوام أهل الطريقة وطواف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه، وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكرام فى مجلس الأحكام، والذى عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام والمشايخ العظام، وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور فى الوقائع والفتوح، والذى بعده فلان من كبار المديرين السابقين، وأما الذى تراه فى أخريات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلى.

---

(١) م ش ٤٤: المجلس.

قال عيسى بن هشام ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرّفنيه نظرت إلى الباشا فأدركت منه أنه لايبغي المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأنصت مع المنصتين فإذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته:

(الفريق)[١] وكان «جنتمكان» محمد على باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره فى الدهاء وعلو الهمة وبعد النظر وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والأمانة لخدمته فكان له من الكفاة من خدموه بالصدق وافتدوه بالأرواح وأذكر منهم المرحوم «محمد بك لاظ أوغلى» فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة، وقد حكى لى المرحوم أخى وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة إن المماليك لما رأوا أن المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عقدها واشتد رباطها وأنهم أحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر وأعياهم البحث والتنقيب لأن «لاظ أوغلى» أخفاه عنهم شديد الإخفاء وقام له فى ذلك الوقت- إن جاز التشبيه والتمثيل- قيام على بن أبى طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة، ***وقد ورث المرحوم محمد على من ذلك الحين***[٢] تلك الصيحة المزعجة التى لم تفارقه فيما بعد فكان يزأر فى مجلسه بزأرة كزئير الأسود يتقطع من صوتها نياط القلوب وقد مات بسببها ***رجل إفرنجى من المصورين***[٣] كان يقعد له المرحوم لرسم صورته ***وكان بعض الحجاب نبهه***[٤] إليها لئلا يفزع منها فلم يستطعها مع ذلك لشدتها ***وأدركه الهلاك لساعته***[٥]، فأين مثل «لاظ أوغلى» لمثله من الولاة وأين مثل تلك الصيحة فى مثله من الرجال،

(عضو الأحكام)- نعم وكان المرحوم «محمد على» فوق ما يقال وما يتصور فى دقة سياسته لتربية الرجال فى خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً فى حسن الولاء وجميل الإخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق فى خدمته طول حياته، ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال: «كنت أقرأ بين يدى

---

(١) م ش ٤٤: الفريق الجهادى.

(٢) م ش ٤٤: وقد اعترت المرحوم جنتمكان.

(٣) م ش ٤٤: رجل مصور إفرنجى.

(٤) م ش ٤٤: وكانوا قد نبهوا.

(٥) م ش ٤٤: ومات أمامه من ساعته.

«فور له أوراقًا وأنا يومئذ كاتب من كتبة معيته فدخل علينا سامي باشا في أثناء القراءة ووقف معنا فسأله محمد على عما يريده فتلعثم تلعثم المتطلع لخروجي حتى ينفرد به فيعرض عليه ما عنده، فقال له: قل ما عندك في الحال فإني لا أخفي عن «راغب» سرًا من أسراري ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلي وذريتي وبين كتبة معيتي»

«فهل تعلمون يا قوم أنه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوب إلى النصح والولاء في الخدمة إنعام بضياع أو إحسان بأموال أو تقليد كالرتبة أو نشان، ولقد كان المرحوم راغب باشا كثيرًا ما يقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه[1] ***في خدمة الولاة من بعده مثل***[2] المرحوم اسماعيل باشا مثلًا فإنه كان يتركه وهو إذ ذاك ناظر المالية ***المصرية والأوراق بين يديه وينتقل إلى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدال ويستمر «راغب» في الانتظار الساعة بعد الساعة***[3] وأشغال الحكومة الضرورية[4] في يده ينتظر بها انتهاء المناجاة، ***فكان إذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه***[5] بالإحسان والإنعام وبقيت[6] بجانب ***تلك توخز***[7] الصدر وتحز في الفؤاد، فانظروا إلى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله وما للملوك صناعة غيرها فإذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو له الملك ويطيب له الحكم.

(الشيخ العالم)- أصبت وصدقت وقد اطلعت في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنصور العباسي تدل على براعته ودقته في صناعة الملك، وهي أنه كان يأكل ذات يوم وبجانبه ابناه مع شيخ من قواد جيوشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه الفتات وهو يأكل والأميران يتغامزان عليه، فالتفت إليهما الخليفة فرأى ما بينهما فمد

---

(١) م ش ٤٤: يفعل معه.

(٢) م ش ٤٤: «في خدمة ... مثل» غير موجودة في المقال الأصلي.

(٣) م ش ٤٤: ناظر المالية ويدخل مع بقال أو سمسار في حجرة أخرى ليناجيه فتمضي ساعة أو أكثر على راغب باشا وهو جالس وحده.

(٤) م ش ٤٤: مهمة.

(٥) م ش ٤٤: ويقيس تلك بهذه فكانت هذه تذهب.

(٦) م ش ٤٤: تبقى

(٧) م ش ٤٤: أختها السابقة تشق.

يده فجمع ما سقط من ذلك الفتات فأكله فقام القائد يقول له: لم يبق إلا دينى أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرنى بما تريد»[1].

(المدير السابق) – وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد على تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الأهالى وشفقته على الرعية، وهى أن أحد المديرين أراد أنْ يفوق إخوانه فى الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجد فى تحصيل الأموال وتغالى فى طريقته فأخذ ما عند الأهالى من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم، حتى بلغ مسامع ولى النعم فأمر بإحضار المدير فلما وقف فى حضرته قال له: ادن منى، فلما دنا منه أخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع فى قبضته خصيلة من الشعر والمدير لايجد لذلك من الألم إلا أثراً خفيفًا، ثم إن الأمير انتقل إلى لحية الرجل فانتزع منها خصيلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصيلة المتفرقة فنبع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم، فقال له محمد على: «هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الأموال إذا أنت أخذت من ههنا درهمًا ومن هـهنا درهمًا آنًا بعد آنٍ خفّ الوقع على الأهالى ولم يدركوا الألم وتحصلت منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات والكمية واحدة والألم بينهما مختلف فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم إلى الشكوى ويجرئهم على الاستغاثة،

«وأعرف له واحدة أخرى فى حسن الإجمال والإدماج وذلك أنه صدر أمره إلى المرحوم «حسن باشا الأنجيركويلى» بتعيينه حاكمًا على السودان فامتنع الرجل وأظهر عجزه لجهله باللغة العربية وقال: كيف يمكن لى أن أتولى أمور قوم لا أعرف حرفًا واحداً من لغتهم» فدعاه محمد على وقال له: ليست معرفة اللغة مما تقتضيه ولاية الأحكام ولا هى أداة لازمة للحكم يختل بفقدها وما عليك فى منصبك[2] هذا إلا أن **تكتفى بمعرفة**[3] كلمتين اثنتين من اللغة العربية يجرى بهما لسانك وهما: «فلوس» «كرباج»،

«ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا فى أن محمد على حكم الأمة المصرية الدهر

---

(١) م ش ٤٤: تريده.

(٢) م ش ٤٤: مأموريتك.

(٣) م ش ٤٤: تردد.

الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن **ينطق بكلمة عربية**[1] فى حياته - **فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشييد** الملك[2]- لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار.

«ومن النوادر التى يستشهد بها فى هذا الباب أن محمد على أمر بأن يكون أهل العاصمة رديفًا عسكريًا ثم عين عليهم ضباطًا منهم بالرتب العسكرية فدخل عليه[3] **وفد من أولئك الضباط** [4] وكان الذى يترجم بينه وبينهم المرحوم صبحى باشا فقال لهم محمد على كلامًا **يقتضى الإجابة بالشكر**[5] عليه فقال له متكلمهم[6]: «نأشك يا افندينا»- وهى كلمة عامية منتشرة[7] فى ذلك الزمن[8] بين العامة يقولونها[9] عند الاستحسان والإعجاب- فظهر الغضب على وجه محمد على لأنه فهمها على اللفظ التركى: «نه أشك» فأسرع صبحى باشا بتفسيرها له فاستلقى على ظهره من شدة الضحك، فأى فائدة حينئذ من معرفة **اللغة العربية**[10] إذا كان أهلها **لايجيدون فى مخاطبة أميرهم غير**[11] هذه الألفاظ الساقطة السافلة، والذين **تولوا زمام**[12] المصريين من **الأمراء والوزراء ولم يكونوا يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل**[13].

(الشيخ العالم) منشدًا:

فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مَضَى فذلك عصرٌ قد تَقضّى وذا عَصرُ

---

(١) م ش ٤٤: باللغة العربية.

(٢) م ش ٤٤: فلم يمنعه ذلك من استقامة الحكم ونظام

(٣) م ش ٤٤: عليه يوماً.

(٤) م ش ٤٤: ضباط من أهالى بولاق.

(٥) م ش ٤٤: يجب أن يشكروه.

(٦) م ش ٤٤: واحد منهم.

(٧) م ش ٤٤: منتشرة متداولة.

(٨) م ش ٤٤: الوقت.

(٩) م ش ٤٤: يقولها الرعاع.

(١٠) م ش ٤٤: اللغة.

(١١) م ش ٤٤: يستعملون مثل.

(١٢) م ش ٤٤: حكم.

(١٣) م ش ٤٤: ممن لا يعرف لغتهم عدد ليس بقليل مثل نوبار باشا وغيره.

ورحم الله الماضى وأعاننا من الحاضر وأجارنا من المستقبل، وأنى لأراكم أيها الأمراء مهما أسهبتم فى محاسن المغفور له وأفضاله، وأطنبتم فى حميد أخلاقه وخصاله، فلستم ببالغى حق الشكر، ولا موفين بجميل الذكر، ويكفيه من الحسنات التى يغنى ذكرها عن الإجمال والتفصيل، وتحكم له بالسبق فى باب التمييز والتفضيل، أنه كان يقرب العلماء ويعظمهم، ويدنيهم منه ويكرمهم، ثم يقضى حاجاتهم، ويتبرك بدعواتهم، ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له فى أخراه، بأن له جانباً مع الله، وأنه نال جزاء الإحسان، بسكنى فراديس الجنان.

قال عيسى بن هشام وأقبل فى أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة المعروفين بالمطوفين أو المزورين فتقدم إلى رب الدار فقبل يده وإلى الشيخ العالم فلثم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزءًا من التمر ومشطًا ومكحلة وسبحة وشيئًا من الحناء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الأمير بقوله:

(المكى) – قد جئتك أيها الأمير بالقطعة التى أمرتنى بإحضارها من الكسوة الشريفة وأتيتك بجزءٍ من تمر النخلة المباركة التى غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة.

(الأمير للخدم) – علىّ بالمعلم مسِيحة الباشكاتب ومعه الكيس لنعطى هذا المسافر جائزته.

(وحضر المعلم مسيحة ودنا من الأمير فلما بصر بتلك الهدية المباركة بين يديه انكبّ على وجهه يقبلها واحدة بعد واحدةٍ ويقول للأمير وهو يتبرك بها ويتيمن):

(المعلم مسيحة) – تالله ما أنقذ ابنى من عماه إلا هذا الكحل المبارك ولا شفى والدته من داء الرعدة إلا هذه الحناء الطاهرة.

(الشيخ العالم) بعد أن ذاق التمر واستطابه– إيه إيه صدقتَ أيها الرجل، ومن كان صائمًا فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة.

قال عيسى بن هشام فرأيت الباشا يتأفف بجانبى ويزمجر ويتململ ويتضجر ويهم بأن يتكلم فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف

المتضجر فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا فمنهم من صدق ومنهم من كذب فتنحنح الشيخ العالم وأشار فيهم بإشارة الاستماع ثم اندفع يقول:

(الشيخ العالم)- اعلموا إنه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته، فليس من حسن اليقين، أن تنكر بعث الدفين، والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء، أمر معلوم بلا امتراء، تخص القدرة به من تشاء، ببركة الأصفياء والأولياء، وأقرب ما استشهد لكم به على ذلك من كتاب «مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الربانى والغوث الصمدانى السيد عبدالقادر الكيلانى» ما أرويه لكم بحرفه ونصه:

«ذكر فى رسالة حقيقة الحقائق أن امرأة غرق ولدها فى اليم وجاءت إلى الغوث الأعظم وقالت: إن ولدى غرق فى البحر واعتقادى جازم بأنك تقدر على رد ولدى إلىّ حيًّا، فقال لها رضى الله عنه: ارجعى إلى بيتك تجدى ولدك فى بيتك، فراحت ولم تجده، فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها الغوث أيضًا: ارجعى إلى بيتك تجدى ولدك فى بيتك، فراحت ولم تجده، فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع فراقب الغوث وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها: ارجعى إلى بيتك تجدى ولدك فى البيت، فراحت ووجدت ولدها فى البيت فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية: يا ربّ لم أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة، فجاءه الخطاب من الملك الوهاب: إن كلامك حين قلت لها كان صدقًا ففى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة وفى المرة الثانية أحييته وفى الثالثة أخرجته من اليم وأوصلته إلى دارها، فقال الغوث: يا رب خلقت الأكوان بأمر «كن» ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين وجمعُ أجزاء جسدٍ واحد وإحياؤه وبعثه إلى دارها شيءٌ جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير، فجاء الخطاب من الرب القدير: اطلبْ ما تطلب فقد أعطيناك عوضًا عن انكسار قلبك، فتضرع الغوث ووضع وجهه على التراب وقال: يا رب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء، فجاءه الخطاب: كل من يراك يوم الجمعة يكون وليًا مقربًا وإذا نظرت إلى التراب يكون ذهبًا، فقال: يا رب ليس لى نفع من هذين أعطنى

شيئًا أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين، فجاء الخطاب من الله العزيز القدير: جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسمًا من أسمائك فهو كمن قرأ اسمًا من أسمائى».

«وروى فيه أيضًا عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال: توفى أحد خدام الغوث الأعظم وجاءت زوجته إلى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث إلى المراقبة فرأى فى عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم فقال: يا ملك الموت قف وأعطنى روح خادمى فلان (وسماه باسمه) فقال ملك الموت: إنى أقبض الأرواح بأمر إلهى وأؤديها إلى باب عظمته كيف يمكننى أن أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى، فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم فبقوة المحبوبية جر الزنبيل وأخذه من يده فتفرقت الأرواح ورجعت إلى أبدانها فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال: يا رب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليك عبدالقادر فبقوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الأرواح فى هذا اليوم، فخاطبه الحق جل جلاله: يا ملك الموت إن الغوث الأعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت»[1].

قال عيسى بن هشام وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائمًا يقول لهم والغضب بادٍ على وجهه والغيظ يتقد فى صدره:

(الباشا) – اعلموا أيها الإخوان أن مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لاتنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد وما تكتسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله، وقد غرنى فى دنياى ما يغركم الآن فكنت أسمع قبل مماتى من مثل هذا الشيخ

(١) م ش ٤٤: (وانتهى بحرف من الكتاب المنتشر المسمى بمناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الربانى والغوث الصمدانى السيد عبد القادر الجيلانى المطبوع بنفقة الشيخ عبد الرحمان النيازى شيخ تكية القادرية بثغر الإسكندرية من صحيفة ٢٠ إلى ٢٣).

العالم ما يهوِّن عليَّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور، فى معاملة الناس ارتكانًا على نهارٍ أصومه، وليلٍ أقومه، وحرزٍ أحمله، وأثرٍ أقبِّله، فنمت عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف فلما توفانى القدير العليم وسكنت فى حفرة القبر علمت ما لم أكن أعلم فلم يغننى ذلك وحده من الله شيئًا وما خفف عليَّ أهوال القبر وهون على سؤال الملك إلا حسنة واحدة كنت أتيتها فى إغاثة مظلوم استجارنى فأجرته وهو فى يد الجلاد بين السيف والنطع، فعليكم بالعدل والإحسان وتقوى الله فى عباده وإفشاء البر والمعروف فى خلقه ولاتطيعوا النفس الأمارة بالسوء فتركنوا إلى الاغترار بالأمل، وتطلبوا المغفرة بلا عمل، بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل، وتذكروا قول الله الأجل: «ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» واتعظوا بقول على رضى الله عنه: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظماء وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء»، واسمعوا لقول حكيم الشعراء:

ما الخيرُ صومٌ يذوب الصائمون لـه ... ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ
وإنمــا هــو تــركُ الــشر مُطَّرحا ... ونَفْضُكَ الصدرَ من غَلٍ ومن حسدِ

(*)(الشيخ العالم) – إنى لأخالك أيها الرجل شيطانًا فى زى إنسان وزنديقًا يتستر بدعوى النشور من القبور، تعسًا لهذا الزمن ما أكثر أضاليله وبؤسًا له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مدخرات عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع.

(صاحب الدار) للباشا– سألتك بالله أن تخبرنى بأية لغة كان سؤال الملكين لك أبالعربية أم التركية أم السريانية فإن هناك اختلافا وأقوالاً بين العلماء.

(الشيخ العالم)– ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فإنه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال عيسى بن هشام فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلى

(*) ط٤ أضيف هنا بعد بيتى الشعر: ولا يستقيم أمر المسلم إلا إذا جمع بين فرائض العبادات وحسن المعاملات.

ويستعيذ فانخرطتُ وراءه وأنا أذكر قول عمر رضى الله عنه فى مثل هذا الشيخ الغليظ البدين «إن الله يبغض الحبر السمين» وأردد قول أبى تراب كرم الله وجهه «أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلالاً ليس فيهم سلعة أبوَر من كتاب الله إذا تلى حق تلاوته ولا سلعة أنَفَقَ بيعًا ثمنًا من الكتاب إذا حُرِف عن مواضعه ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعَرَفُ من المنكر».

ولَحِق بنا البيطار فى خروجنا ومعه التاجر الذى كان مقيمًا فى المجلس يناديانا فوقفنا لهما فتقدم التاجر إلى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له:

(التاجر)- أشهد الله أيها المولى أننى مصدق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وما أخطَّئ نظرى فيك فأنت سيدى الباشا بعينه وأنت صاحب اليد التى أتذكرها فى عمرى، وما بى من نعمة فمنك وما أصبحت فيه من ثروة فبيمنك وفضلك ولست أنسى أن أصل شهرتى واتساع تجارتى هو أنك جلست فى دكانى مرة عندما عثرت بك رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين فارتفع بتلك الجلسة قدرى واشتهر ذكرى وأقبل علىَّ الناس من دون التجار لتوهمهم فىَّ أن لى برحابك صلة وبجنابك نسبة فأصبحت ولله الحمد فى غنى متسع ومال كثير وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة إلى الدراهم لأجرة المحامى التى جاءت بك إلى هذا المجلس ولكنك أنفتَ من ذكرها عندما غضبت لله، وأنا أتضرع إليك بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسد به حاجتك وتتخلص به من مطالبة المحامين.

(وأخرج التاجر كيسًا مملوءً فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد فأخذه الباشا وقال له):

(الباشا)- إنى أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله لك حسن الجزاء فهلمَّ أكتب لك صكا بالمال لأرده إليك عند استرداد أوقافى.

(التاجر) - حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا **لا يثقون بيعضهم بعضًا**[1] فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار

---

(١) ط ٣: لا يثق بعضهم ببعض.

جاره على درهم واحد إلا بعقود وصكوك بل أنا لا أزال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان دون احتياج إلى تحرير الأوراق وتسطير الصكوك، وما يكون الاستيثاق إلا عند توهم الخيانة والعياذ بالله.

قال عيسى بن هشام فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفًا وقال لى: انصرف بنا إلى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بأوقافى، فقلت له لابد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا، فخرجنا من قبضة محام، إلى قبضة محام، ونسأل الله السلامة فى الختام.

* * *

(*) قال عيسى بن هشام وأخذت طريقى، مع رفيقى، أنشد صاحبًا أسترشده، فى محام شرعى أقصده، وبينا نحن نسير، ونسأل الله التيسير، إذا بصاحب لى عرفته، فاستوقفته، قال: ما خَطْبُك قلت قضية فى المحكمة الشرعية، فما طرق الخبر سمعه، حتى أجرى دمعه، وهوّل الأمر وهولت، وحَوْقل وحوقلت، ثم قال: وقعتُ قبلك فى هذا البلاء، ولما تتم لى النقاهة من الداء، وأنا أنصح لك إن كنت مدعيًا أن تترك دعواك، وتصبر على بلواك، أما إن كانت الدعوى عليك، فليس الخيار إليك، ولا مرد لحكم القضاء، بتدبير الآراء، فقلت: للضرورة أحكام، فأرشدْنى لانتخاب محام، يكون مشهوداً بعدالته، مشهوراً بطهارته، بعيداً عن خُلف الوعد، بريئًا من خلق الوغد، لايتفق مع الخصم، ولا يسرق من «الرسم»، قال: اطلب من أنواع المحال، أن يحمل الذرُّ الجبال، ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط، فينتهى بك الأمر إلى اليأس والقنوط، ولمحاولةُ الارتقاء، فوق متن العنقاء، أيسر من ذلك مطلبًا، وأوسع مذهبًا، والمحامون الشرعيون – حماك الله – يستوون لدى الاختيار، كأسنان المشط وأسنان الحمار، بل هم جميعًا كحماريَ العباديّ قيل له: أى حماريك شر قال هذا ثم هذا، وأقسم لك بخالص الود، أنى لا أثق منهم بأحد، وكيف تكلفنى أن أنتقى لك نئبًا من الذئاب، وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب، فأعفنى من هذا الاختيار والانتقاء، عافاك الله من جميع الأسواء، ثم ما لبث أن خلّفنى

(*) أضيف عنوان «المحامى الشرعى» إلى ط ٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٤٨، ٢٣ مارس ١٨٩٩.

ومضى، وتركني على مثل جمر الغضى، فسرتُ كئيباً حزيناً، أبغي سواه مرشداً ومعيناً، ولما لم أجد من أصحابي من يأخذ على عهدته اختيار محام يوثق بذمته، قصدت أحد المعلومين عندي بكثرة الخصومات، وطول المحاكمات، فكاشفته بطلبتنا، ليكشف من مصيبتنا، فقال اعلم أن المحامين الشرعيين أجناس وصنوف، فمنهم المبصر ومنهم المكفوف، وفيهم - كتب الله لك السلامة - صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة، وأنا أدلك على أهونهم شراً، وأقلهم ضراً، وأخفهم رزية وبلية، وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية، فعليك بفلان وبيته معلوم، فى منتهى «حارة الروم» فقصدنا البيت نشق طرقًا معوجة، ونخترق ثنيات مزدوجة، إلى أن انتهينا إلى باب دار، كأنها مطلية بالقار، تسورت بأكوام من الأقذار، وتلفعت بتلال من الأوضار، ورأينا عند مدخل الباب، صبْية يلعبون بالتراب، ومن بينهم طفلة تجمع على وجهها من الذباب، مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب، ولما تخطيناهم غشيتنا رائحة المرحاض، فاستندنا هناك على هضبة أنقاض، بجانبها مِذْود أتان، تزاحمها عليه إوزَّتان وبطتان، ثم اهتدينا إلى حجرة فى جهة اليمين، فرأينا أمامها فرانًا ينادى: «العجين» «والأجرة»، فسألناه عن رب الدار فأشار إلى الحجرة، فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطى بالغبار والحصباء، ومتكأً تعرى من الفرش والغطاء، فى زاوية الأركان، سراج لاينفذ نوره من تكاثف الدخان، وفى أعلى رفوف الرواق، أحمال كتب وأوراق، قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد، وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد، وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد، وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الأولاد، وبصرنا برَجل:

تغيَّرُ حنَّاؤَهُ شيْبه فهل غيَّر الظَهر لما انْحنى

ووجدناه جالسًا على سجادة الصلاة، وعن يساره امرأة كأنها السعلاة، فسمعناه يقول لها فى تسبيحه: «أتستكثرين- أدرَّ الله عليك خيره، وأبدلك زوجًا غيره - ما أخذتُه منك لاستنباط الحيلة فى التفريق، واستخراج الحكم بالتطليق، فأبعدتُ عنك زوجًا تكرهينه، لتتبدلى منه زوجًا تحبينه»، ثم أنه استحس بدخولنا من ورائه، فارتد إلى اتصال صلاحه ودعائه، وانتفضت المرأة فتنقبت بخمارها، وتلفعت بإزارها، وخرجت وتركتنا مع رجل يخدع الأنام طول صلواته، ويتلو سورة الأنعام فى ركعاته.

إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمها		فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

وجلسنا مـدة ننتظر خـلاصـه من هذا الرياء، وخـلاص الملكين من صـحـيـفـتـه السـوداء، وخـلاصنا من هذا الكرب والعناء، فـإذا هو قـد وصل المغـرب بالعـشـاء، وكنا نشـاهد منه فى خـلال ذلك نظرات مـخـتلسـات نـحـو البـاب، كـأنه هو أيضًـا فى انتظار وارتقاب، إلى أن دخل علينا غلام يصيح به: إلى متى هذه العبادة؟ فقد بليت السجادة، وحاجات الناس موكولة إليك، وقضـاء مصالحهم موقوف عليك، وهـذا دولة البرنس ينتظرك فى القصـر، منذ العـصـر، دعْ مدير الأوقـاف، ونقـيب الأشـراف» فلم يعـبـأ المصلى بهـذا الكلام، بل جـهر بالآية من سورة *الأنعام*[1]: «قل إن صـلاتى ونسكى ومـحـياى ومماتى لله رب العـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»، فـجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق، واشتد بنا الضجر والقلق، فقلنا من يضمن لهذه الصـلاة انتـهاء، ولهذا التسـبـيح انقضـاء، وهـممنا بالقيـام، فـالتـفت الشـيخ للغـلام، وأشـبـعـه من التـأنيب والملام، ثـم حـيَّـانا بألطف سـلام، وقـال: بارك الله فيكم وعليكم، وأنا فـى الخدمة بين يديكم، فقلنا علمنا أنك رجل عدل عف، فجئناك لقضية فى وقف، فقال الغلام أتطلبون ريعه، أم تريدون بيعه؟ فقلت سبحان الله وهل تباع الأوقاف، قال نـعم ويباع جبل قاف، ثم تنحنح الشيخ وسعل، وبصق وتفل، وتسعط، ثم تمخط، واقترب منا ودنا، ثم قال لنا:

(المحـامى)– دعكمـا[2] من هذا الغـلام وقـولا لى مـا هو الحق فى الوقف ومـا هو شرط الواقف وكم يقدر ثمن العين لتقدر «قيمة الأتعاب» بحسبه.

(عيسى بن هشـام)– إن لصـاحبى هذا وقفًـا عاقـتـه عنه العوائق فـوضـع سواه عليه يده ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد.

(المحامى)– سـألتك مـا هـى قيمة العين؟

(عيسى بن هشام)– لست أدرى على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف.

---

(١) م ش ٤٨: «وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم الشاكرين».

(٢) ط ٢: دعونا.

(المحامى)- لايمكن أن يقل مقدم الأتعاب حينئذ عن المئات.

(عيسى بن هشام)- لاتشططْ أيها الشيخ فى قيمة الأتعاب وارفق بنا فإننا الآن فى حالة عسر تقضى عليك بذلك.

(الغلام)- وهل ينفع فى رفع الدعاوى اعتذار بإعسار، ألم تعلم أن هذا شغل له «اشتراكات» وللكتبة والمحضرين «تطلعات»؟ وأنَّى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه، وهل يوجد مثله أبدًا فى سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة فى استمالة محامى الخصم واستجلاب عناية القضاة؟

(عيسى بن هشام)- هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من الدراهم ونكتب بما يبقى صكًا لحين كسب القضية وليس يفوتك شئ من ذلك ما دام ربحها مضمونًا لديك على كل حال.

(المحامى) ***بعد أن استلم الدراهم يعدها***[1]- أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادخره الله لعباده من الأجر والثواب فى خدمة المسلمين، وعليك بشاهدين للتوكيل.

(عيسى بن هشام)- وبأية طريقة يكون التوكيل؟

(المحامى)- يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة «بأن فلانًا بن فلان بن فلان وكَّل فلانًا بن فلان بن فلان فى المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفى المطالبة والدفع والإقرار وفى كل ما يصح فيه التوكيل شرعًا وفى أن يوكل عنه فى الدعوى غيره وأن يعزله وأن يفعل ذلك مرارًا وتكرارًا كلما بدا له فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة» وأنا أنتظر حضوركما غدًا مع الشاهدين ومستند الوقف.

(عيسى بن هشام)- ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه.

---

(١) م ش ٤٨: بعد أن عدَّها.

(غلام المحامى)- هذه أول خطوة فى تكاليف القضية ومشاقها ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدى الحق.

(عيسى بن هشام)- وليس فى يدنا أيضاً مستند للوقف.

(المحامى)- أما من جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل «المصان» (كذا) وهذه خطوة ثانية فى متاعب القضية.

قال عيسى بن هشام - وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لصلاة العشاء فقمنا للانصراف، وسرت مع صاحبى وأنا غريق فى الأفكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطأ الكنف كثير الاحتمال حتى أنه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا، بل كانت حالته.

حالة الفيلسوف الحكيم الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم، وازددت يقيناً بأنه لاشىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأن أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدهم عيشاً هم هؤلاء الأغمار المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ولم تهذبهم صروف الأزمان. ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على أن قال:

(الباشا)-[1] قلت لى إن المحامين الشرعيين فيهم صاحب الطربوش وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه أم يوجد بين الفريقين فرق؟

(عيسى بن هشام)- اعلم أن الخيرة فى الواقع والحمد لله على كل حال فإن فيهم

---

(١) م ش ٤٨: (الباشا) اعلم أيها الخل الصديق أنه لولا ما أشربته من تبجيل المشايخ وألفته من احترام أرباب العمائم الحاملين لكتاب الله لما صبرت على هذا المحامى ولطلبت منك أن تذهب بى إلى صنف الطرابيش من هؤلاء المحامين الشرعيين.

تحت «الطربوش» من هو أشد فتكًا من ضوارى الوحوش. وأعرف طربوشًا منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثًا من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نطق به فى مجلس كنت حاضره إرضاءً لأحد أرباب القضايا وإغضابًا لخالق البرايا واستهانة بحكم الشارع واعتمادًا على قول الشاعر:

وإن أحلفـونى بالطلاق أتيـتها   على خير ما كنا ولم نتفرق
وإن أحلفونى بالعتاق فقد درى   عُبَيْدٌ غلامى أنه غير مُعْتَـقِ

قال عيسى بن هشام ومضت علينا الأيام ونحن نقصد الشيخ المحامى فى كل يوم فلا نتمكن من لقائه فإن ذهبنا إليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة وإن ذهبنا إلى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الأمراء والكبراء حتى حفيت الأقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكبًا أتانه فتقدمت إليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنب فيه لكثرة مشاكل الأمراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه إلى المحكمة فذهب بنا إلى «كاتب الإشهادات» فوجدناه جالسًا يلمع فى ثيابه من حمرة الحذاء فى رجله وزرقة الجبة على كتفه وصفرة الحزام فى خصره وبياض العمامة فوق رأسه.

تعددت ألوانه   كأنه قوس قزح

وكأن الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا فنظر الكاتب إلى الشاهد نظرة المتوقف وقال إنه شاب صغير السن وإنه وإنه... فمال عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره إلى قاضى الجلسة لسماع الأشهاد بعد أن قال لنا الغلام: وهذه للخطوة الثالثة فى تكاليف القضية، ثم انتهى الإشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى مسافة[1] يوم واحد، وقال لنا الغلام عند الانصراف: ينبغى[2] بعد هذا أن نقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها ومن عملية مَن هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها)، فخرجنا نبحث على أحمد أغا البيطار

---

(١) ط ٣: أثناء.

(٢) ط ٢: يجب.

لعله يعرف طريقة توصلنا إلى مطلوبنا فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا فقال إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهيد والزمن المديد لإثبات حقى فى ريع الوقف، ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل «العملية» فقصدنا غلام المحامى وتوجهنا معه إلى المحكمة فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة القاضى فوضع عليها إشارة لحضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة «الشان» وطلبوا منا شهوداً يشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه فأدركتنا الحيرة فى الأمر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضًا بعد أن قال لنا: وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية، ولما نظر الباشكاتب فى العريضة ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب «العملية» قال لنا إنه لايمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك وإنه لابد لنا من انتظار السنين والأعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما، فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام: لاتحزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز وأتوجه معكما إلى الدفترخانة إن شاء الله، وهذه هى الخطوة الخامسة فى تكاليف القضية»، وما يزال الخبيث يعد لنا الخطوات، ونعد له فى كل خطوة دريهمات، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر، وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر.

***

(*) قال عيسى بن هشام وعكفنا زمنًا نشتد فى الطلب، والمحامى يشتد منا فى الهرب، فلما طال علينا الأمد فى ارتياده، ويئسنا من لحاقه واصطياده، انتقلنا للبحث عن غلامه، حتى قبضنا على زمامه، فرأينا الخبيث يصعب فى الأمور والأحوال، لنسترضيه بالعطاء والنوال، وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول، إنه ليس من المتصور المعقول، أن نهتدى فى هذه القضية، إلى صورة الوقفية، بمجرد تاريخها واسم صاحبها، دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها، ولايجول فى الخواطر والأوهام، أن يعثر عليها كاتب

(*) أضيف عنوان «الدفترخانة الشرعية» إلى ط ٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٤٩، ٣٠ مارس ١٨٩٩.

السجل بين تلك الآكام، من غير وحى أو إلهام، إلا بعد كر السنين ومر الأعوام، وإن اعتراكما بعض الشك أو الريب، ولم تصدقانى بظهر الغيب، فهلما معى اطلعكما على ما يزول معه اللبس، وتقتنع به النفس، فقيدناه بقيود الترغيب والتأميل، وأعطيناه ما يحضرنا من كثير وقليل، فانطلق أمامنا يثب ويحجل، حتى دخلنا بيت السجل، فلما جاوزنا الباب، حيث يجلس الكتاب، ألفينا خُشبًا مسندة، على خُشب موطدة، وهياكل تفترش الفِرا، فوق الثرى، لاتميز منهم وجه إنسان من إنسان، لعشوة البصر من ظلمة المكان، فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرمس، وكر راجعًا ينتظرنا فى ضوء الشمس، ثم مال الغلام إلى أذن أحدهم يكلمه، بما لا أعيه ولا أفهمه، فبادر الرجل بالنهوض والقيام، وسار بالغلام وأنا فى عقب الغلام، فما خطونا بضع خطوات حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار، وتجللنا من حندس الليل بحجب وأستار، فوقفت لا أبصر ولا أهتدى، فأخذ الغلام بيدى، وقد عميت علىَّ وجوه المسالك، فى هذه المخاوف والمهالك، وسرت فوق أرض تهش تحت القدم وتلين، كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد فى الطين، وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة، على هذه الصورة، حتى تخيلت أننى فى قبور قدماء المصريين، أو فى هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين، أو فى طريق الامتحان عند أحرار البنائين، فوجب القلب، من شدة الرعب، خشية أحبولة نصبت أو مكيدة رتُبت، ووجمت، ثم أحجمت، وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب للاحتيال، أو يدعو للاغتيال، وماذا تريد منى فى هذا الغيهب، وليس معى من فضة ولا ذهب، ولا من شىء يستلب أو ينتهب، فقهقه الفاجر ثم أقسم بالله وثنى بالطلاق، أننا نسير فى أمان بين غرائر الدفاتر ولفائف الأوراق، وقال كن آمنًا مطمئنًا على نفسك، وسترى الحقيقة بعينى رأسك، وما كاد الشقى يتم لى هذه العبارة، حتى عثرت قدمى فى لفافة فوقعت على غرارة، وإذا بصائح يصيح من تحتها متبرمًا متأففا، ويقول لى متغطرسًا متعجرفًا، ما هذه العشاوة يا عديم الإبصار، ونحن لانزال فى أديم النهار، فقمت متثاقلاً متساندا، وقلت فى نفسى منشدا:

دُجىً تتشابه الأشياء فيه   فيُجهل جنُسها حتى يصيحا

ثم تأملت فإذا أنا(١) بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته، بذيل مئزره أو جبّته،

---

(١) م ش ٤٩: وقد رأيت.

فتولاني الخوف والوجل، وقلت من الرجل، فقال الغلام كاتب من كتبة «السجلات»، ينبش عن أوراق في سجل «الأيلولات»، فقلت وكيف يهتدي لذلك، وسط الظلام الحالك، فقال أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء، فصاروا كالخفاش يبصرون في سواد الظلماء:

ولو سار كل الورى هكذا لما حسد العُمى من يبصرون

ثم انعطفنا من ذات اليمين إلى شبه قاعة، يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة، وإذا هو لعاب الشمس يسيل من ثقب، في سقف ذلك الجب، وهو يتموج بأنواع الجراثيم، تموج الماء بالهشيم، فخلت أن عجوز الفلك الدوار- أريدُ بها شمس النهار- خشيت أن تضل في ظلمة هذه المفازة، فاتخذت لها من لعابها عكازة، تتوكأ عليها للاهتداء، وتدبّ بها في هذا العماء، فمسحت على بصري، وأحدقت بنظري، فأبصرت وماذا أبصرت؟ ونظرت وماذا نظرت؟:

ما إنْ سمعتُ ولا أراني سامعًا أبدًا بصحراء عليها بابُ

نعم رأيت فضاء متسعًا تراكم فيه من الأوراق الرثيثة والدفاتر البالية، مثل الرُّبى الشاهقة والآكمات العالية، غير أن هذه تثمر وتُجنَى، وتلك تعث وتبلى، هذه تكون مخضرة مخصبة، إن جادها الحيا أينعت بالغض من النبات، وتلك سوداء مجدبة، إن بللتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات:

فالأرض تبسط في خد الثرى ورقًا كما تُنشَّر في حافاتها البُسطُ
والريح تبعث أنفاسًا معطرة مثل العبير بماء الورد مختلطُ
وهذه بسَطَت فوق الثرى ورقًا لكنه للبلى والعثّ منبسط
وريحها تورث الأسقام ناشقَها كأنه من تراب القبر يَستَعِطُ

وما لبثتُ أن استبان لي شخص الكاتب المرافق لنا، في لمحة ذلك السنا، فإذا هو قصير القامة، كبير العمامة، ذو وجه مقنع بالإصفرار، وعين مكتحلة بالإحمرار، وقد طوى من خلفه الجبة، ورفعها على ظهره كالجعبة، وفي حزامه دواة من نحاس أصفر، وبين طيات العمامة أوراق بالتواريخ «والنمر»، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت لذلك الغلام اللئيم:

(عيسى بن هشام)- هلم بنا أيها المراوغ[1] إلى الباب لنعود إلى ضياء الحياة فقد يئست من أمرنا، وأنىٍّ لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللج القامس، والليل الدامس.

(غلام المحامى)- لاتنكرن على مثله الاهتداء فى دياجى الظلماء ولايهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الأوراق فهى مرتبة فى حافظته ترتيبًا انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جده فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء «البوغاز» فى الإسكندرية هداية السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض فى قاع البحر، ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا إلى الغرض.

(الشيخ الكاتب)- نعم لاتنكر علينا بارك الله فيك اهتداءنا للبحث فى هذه الأوراق، والله يعلم إن هذه الدفترخانة مرسومة فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهى مقسمة إلى عدة سجلات منها «سجل الباب العالى» تسجل فيه الأعيان المباعة غير الموروثة، ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه الأعيان المباعة الموروثة، ومنها «سجل الأيلولات» تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد، ومنها «سجل الإعلامات» تسجل فيه الموادُ التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان، ومنها «سجل التقارير» تسجل فيه تقارير النظار وقفًا وغيره، ومنها «سجل الوقفيات» وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق....

(عيسى بن هشام) - سبحان الفاتح الوهاب، ومن يهدينى إلى طريق الباب.

(الشيخ الكاتب)- .... ومنها «سجل الديوان العالى» تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والإعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب، ومنها «سجل القسمة العربية» تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين...

---

(١) م ش ٤٩: هاتان الكلمتان غير موجودتين فى المقال الأصلى.

(عيسى بن هشام)– اللهم ارفع عنا الأذى والمقت، وهلم فقد ضاق بنا الوقت.

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً–... ومنها «سجل إسقاط القرى» يسجل فيه ما يأخذه الأمراء ويعطونه من الأطيان والقرى، وليس يخفى انه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبل السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات «باب الشعرية» و«قناطر السباع» و«جامع طولون» و***«جامع قيسون»***[1]....

(عيسى بن هشام)– يكفى أيها الشيخ فقد وجب الرحيل، ولا حاجة إلى هذا التطويل والتفصيل.

(الشيخ الكاتب) معدداً– ... وفى جهات «درب سعادة» و«باب *الخرق*»[2] و«الصالحية» و«النجمية» و«أحمد الزاهد» و«البرشمية» و«مصر القديمة» و«بولاق» و«جامع الصالح» و«جامع الحاكم»....

(عيسى بن هشام)– تبارك من له الأسماء الحسنى، ومن يعيدنى إلى الحياة الدنيا.

(الشيخ الكاتب)–... ثم «محكمة الباب العالى» وهى المحكمة الكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع المولّى من القسطنطينية، و«محكمة القسمة العسكرية» وقاضيها يعين كل سنة من دارالسعادة كقاضى المحكمة الكبرى ويسمى «القسّام» وشغله المواريث بأنواعها فقط و....

(عيسى بن هشام للغلام)– لقد مل سمعى، وضاق ذرعى، فاخرج بنا وأنقذنى من شر هذه الدار، ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار.

(الغلام)– لا تضجر ولا تقنط وأنظرنى قليلاً حتى استنير برأى الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة وفرجًا للكربة، (ثم مال على الشيخ ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام

---

(١) م ش ٤٩: قيسون.

(٢) ط ٤: الخلق.

ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة تارة فى صحبة الغلام وتارة بدونه إلى أن حل الأجل وآن الأوان فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغواص بدرة التاج تحت تلاطم الأمواج، ونهضنا معه إلى الدفترخانة فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته فى الاهتداء عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجد فحمدناه على همته العالية وصنعه الجميل فأخرج من تحت إبطه أوراقًا بالية متخرقة متاكلة لاتستوى منها ورقة مع أختها فيها سطور متقطعة وخطوط متوزعة لايستطيع أن يحلها إلا من كان عريقًا فى كشف الرموز وفك الطلاسم، فقلت له إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقة وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة، فقال لى أن كثرة التعود تيسر العسير[1] وتهون الصعب وقد ورثت عن المرحوم والدى أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلفيق ما رث من أواخر السطور والعبارة واحدة لاتتغير تقريبًا فى كل باب من أبواب السجلات، ورأيته يستعد ليسترسل فى أبواب الشرح والوصف وخفت أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار فودعناه وانصرفنا وكلفنا غلام المحامى أن يأتى لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها فطلب منا أن ندفع رسمها وأن نستحضر شاهدين يشهدان علينا باستلامها ووعدنا بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما بعد أن طالبنا بالمكافأة الواسعة على هذه الخطوة السابعة[2]

***

(*) قال عيسى بن هشام – ولما صارت فى يدنا الصورة، بعد تلك المواقف المذكورة، خطا غلامنا الثامنة من خطواته، فى بعض روحاته إلى المحكمة وغدواته، فذهب إلى كاتب «الطلبات»، لتحديد إحدى الجلسات، ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس، على أن تكون الجلسة فى يوم الخميس، وأنه حرر «طلباً» لحضور الخصوم، فى الوقت المعلوم، فأقمنا أياماً نعلل النفس بالأمل، حتى حل هذا الأجل، وسمح لنا الطالع

(١) م ش ٤٩: كل أمر عسير

(٢) م ش ٤٩: ثم أضيف: وقمنا له بمرضاته.

(*) أضيف عنوان «المحكمة الشرعية» إلى ط ٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٥٠، و٦ أبريل ١٨٩٩.

بطلعة الشيخ المحامى ولقائه، بعد طول احتجابه عنا واختفائه[1]، ورضى أن يتوجه معنا إلى المحكمة، ليكشف عنا بيمنه كل مظلمة، فسرنا جميعًا نقصد بيت القضاء الشرعى، والحكم المرضى، والعدل المقضى، بوحى الإله وسنة النبى، حيث تقام منابر الهدى، وتشاد منائر التقى، وينبلج نور الحقيقة والعدالة، وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة، ويؤخذ من الظالم للمظلوم، ويُنتصف من الحاكم للمحكوم، ويُسار على الصراط السوى، فى الحكم بين الضعيف والقوى، حيث تتحد المواقف والأقدام، وتستقيم الأوامر والأحكام، وتغدو فيه الثكلى ربة الأيتام، أعز من الفارس رب الرمح والحسام، ويصبح الأعزل الشاكى، أقوى من المدجج الشاكى، ويتساوى لديه رب الشُّويهة والبعير، برب التاج والسرير، نعم حيث يكون المقعد الموروث، عن النبى المبعوث، وحيث يعمل بالسنة وآى الكتاب، فينتصر للذليل على العزيز، ويقتدى فيه تارة بسيرة عمر بن الخطاب، وأخرى بسيرة عمر بن عبدالعزيز، وحيث يكون مقر المهابة والجلال، ومصدر الوقار والكمال، وموضع الطهارة والأمانة، ومنبع العفة والصيانة، وقبلة القنوت والخشوع، ومقام الطاعة والخضوع.

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات، تجرها الجياد الصاهلات، وبجانبها الراقصات من البغال والحمير، عليها سرج الفضة والحرير، فحسبناها مراكب للعظماء والأمراء، فى بعض مواكب الزينة والبهاء، وسألنا لمن هذى الركاب، فقيل لنا إنها لجماعة الكتّاب، فقلنا سبحان الملك الوهاب، ومن يرزق بغير حساب، ونحونا نحو الباب، فى تلك الرحاب، فوجدنا عليه شيخًا حنت ظهره السنون، فتخطته رسل المنون، قد اجتمع عليه العمهُ والصمم، ولج به الخرف والسقم، وعلمنا أنه حارس بيت القضاء، من نوازل القضاء، ثم صعدنا فى السلم فوجدناه مزدحمًا بجملة أناس، مختلفى الأشكال والأجناس، يتسابون ويتشاتمون، ويتلاكمون ويتلاطمون، ويبرقون ويرعدون، ويتهددون ويتوعدون، وأكثرهم آخذٌ بعضهم بتلابيب بعض، يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الأرض، وما زلنا نزاحم على الصعود فى الدرج، والعمائم

---

(١) م ش ٥٠ مكانها : ويعد اختفائه منا فى رواحه وغدوه:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما — يظنان كل ظن أن لا تلاقيا.

تتساقط فوقنا وتتدحرج، حتى منَّ الله علينا بالفرج، ويسَّر لنا المخرج، في وسط هذا الجمع المتلاصق، والمأزق المتضايق، ووصلنا إلى القاعة السفلى، فوجدنا عندها امرأة حبلى، تتقلب على الأرض كالثعبان، وتستشهد بالأهل والجيران، أن بعلها، أنكر حملها، وحاولنا أن نخطو خطوة إلى الأمام، فلم نستطع من شدة الزحام، وكيف بالتقدم في عباب موجٍ ملتطم ومنحدر سيلٍ مرتطم، من نساء صائحات مولولات، ونائحات معولات، ونادبات باكيات، وصارخات شاكيات، كأنهن قائمات في مأتم على مدافن الأموات، تقرحت فيه العيون وبحت الأصوات، فيهن المسْفرة والمتقنعة، والمضطجعة والمتربعة، والحاسرة عن الذراع والرأس، وأختها تفليها في وهج الشمس، ومنهن الكاشفة عن ثديها، ترضع طفلاً على يديها، وغيرها ترضع طفلين في حذاء، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء، وأخرى آخذة بضفيرة ضرتها، ورضيعها يتلهف على ضَرتها، ومن بينهن من يتقدمها طليقها، ويْتبعها عشيقها، تشيع الأول باللعن والسباب، وتغمز الثاني بكف مزدانة بالخضاب، ورأينا العقيلة المخدرة مع «الأغا» لايستطيع أن يحميها في حومة هذا الوغى، وشاهدنا في الجمع جماعة من فجار الخلعاء، وتُبَّاع النساء، يغازلون كل غانية هيفاء، ويغامزون كل غادة غيداء، ويتعرضون لفض النزاع، بين ذوات القناع، وفصل العناد والشقاق، بين الطاعنات بالأحداق، فتختلط غمزات الطرف، بهمزات الكف، فيزول ما هنالك من الجدال والخصام، ويصيرون جميعًا إلى الحسنى والرقيق من الكلام، ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة، وعجائب الشناعة، رجلاً وامرأة يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر، ويتباذّان في أقوال البذاءة والنكر، وهما يتجاذبان في أيديهما غلامًا، كأنما يحاولان له اقتسامًا، ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب، والغلام يبكي مِنْ شدة الألم والتعذيب، فاستعذنا بالله السميع العليم، من موقف هذا الجحيم، وسمعنا من أفظع ما سمعنا امرأة تنتحب وتقول، ونقابُها بماء العين مطلول: لو كان للنساء قضاة من النساء، لما وصلنا إلى هذه الحالة التعساء، فإن الرجال يميلون لجنس الرجال، وينتصرون لبعضهم على ذوات الحجا»، فاستعذنا برب المثاني[1] وصعدنا في السلم الثاني، فإذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل، أو خلايا النحل، وانتهينا منه إلى قاعة، ممتلئة بصنوف الباعة، هذا يصيح «الخبز والجبن»، وذاك ينادي «الدخان والبن»، وآخر يقول «الزبدة والعسل»، وبعضهم يردد

(١) م ش ٥٠: برب المثلث والمثاني.

«الفول والبصل»، وبائع الضأن يفتت بسكينه جماجم الرؤوس، والثلاج يصفق بأكواز «العرقسوس»، وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالعشرات، كدبيب الحشرات، فيعرضون أنفسهم على الخصوم، للشهادة أو التزكية بأجر معلوم، وغلمان المحامين يروحون بين الجموع ويغدون، فيمكرون بهم ويكيدون، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون، فيخدعون ويغتالون.

ودخلنا حجرة صغيرة من حُجُرات الكتّاب، فثار فى وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب، فرجعنا على الأعقاب، ونجونا من الأوصاب، ثم انحدرنا مع غلام المحامى إلى حجرة كبيرة الساحة، فقال: اجلسوا هنا للاستراحة، فأجلسنا فى صدر المكان، بين الكتبة والغلمان، ولابد لكل كاتب هناك من غلام، يقوم مقامه فى تنسيق الأحكام، فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين، يقسم على أقواله بكل يمين، بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان، لما تأخر حماره عن حمار فلان، وسمعت صاحبه بجانبه، يحلف بجده وأعز أقاربه، إنه لولا حبسه للعنان، لسبق كل الحمير فى يوم الرهان، ويقول له وهو يتلفف فى العباء: «قد أبلغنا عن الأجداد والآباء، إنه إذا صحت الشعرة الخضراء، لم يتعلق بذيل *الحمار الهواء*»، ثم التفتُ ذات الشمال فوجدت كاتبًا منهم غض الشباب، عظيم التأنق فى لبس الثياب، فهو يتلألأ ويتألق، فى سندس وإستبرق، كأنما خاطوا له قباء من أزهار بستان، مختلفة الأشكال والألوان، يفعم الأنوف بعطره، ويعبق الجو بنشره، وأمامه رجل فى يده صرة ثياب ينشرها ويطويها، فيأخذها «السيد» منه ويرميها، ويقول له فى حدته، وشدة سَوْرته:

(السيد)- هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها وبئس المفصِّل مفصلها.

(الخياط)- كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد أنها أوسع من ثياب السيدين عبدالعزيز وعبدالحميد؟

(السيد)- كذبتَ ورب الكعبة فإن استدارة الكم والرقبة ضيقة لاتنطق على الزى الحاضر.

(الخياط)- وماذا أصنع وذلك كل ما فى عرض الحرير ولو كنا على الزىّ القديم لدخل مع السيد فى طىّ ثيابه، اثنان أو ثلاثة من أصحابه؟

(أحد أصحاب القضايا)- صبح الله السيد بالخير والإنعام.

(أحد الكتبة الظرفاء) منكتًا- لا بل بالخيل والأنعام.

(صاحب القضية)- أرجو سيدى أن يعطينى الإعلام.

(السيد)- اذهب حتى يأتى الغلام.

(الكاتب الظريف) موريًا- عليك به فى شارع أمّ الغلام تجده جالسًا نصًا تحت الأعلام.

قال عيسى بن هشام ***وعافت نفسى***[1] هذه النكت الباردة والمعانى الساقطة فأعرضت عن الإصغاء، وسرّحت طرفى فى بقية الأنحاء، فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون، هذا يلتُّ فى يده أفيونه، وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه، والغلمان يشتغلون تارة بأوراقهم، وطوراً يتباحثون فى أنواقهم، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد، ومطل الوعد، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية، بألفاظ بذية، ويقول له: كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد؟ أتظنه كان لك من العبيد، أتريد أن يكتب لك ويتعب، وهو لا أجرة له فى المحكمة ولا مرتب، بغير ربح ولا مكسب، إن هذا لمن أعجب العجب، وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء، فوجده راقداً كالنفساء، فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته، وقال بعضهم لا بل اتركوه فى رقدته، أنسيتم حكم عادته، بأنه لايفيق من غفوته، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم فى دورته، ثم اتفق معهم الرسول، على أن يرجع فيقول: إننى لم أجد الشيخ مكانه، وعلمت أنه نزل إلى الدفترخانة»، ثم استيقظ الراقد بعد مدة فتثاءب وتمطّى، ثم تدثر وتغطّى، ***ثم عاد إلى ما كان فيه من***[2] السبات، وهو ينشد للمعرى من أبيات:

وفضيلةُ النومِ الخروجُ بأهلهِ عن عالم هو بالأذى مَجبولُ

ثم جاءه بائع كتب وأوراق، فصاح به حتى أفاق، وقام بعون الله وحوله، يخاطب البائع بقوله:

---

(١) م ش ٥٠: واقشعر جسدى من هذه النكت.

(٢) م ش ٥٠: ثانياً إلى لذيذ.

(الكاتب)- هل أحضرت ما طلبته من الكتب؟

(البائع)- نعم جئتك بكتب قديمة، لا تقدّر لها قيمة، منها كتاب «حل الرموز لفتح الكنوز»، ومنها «أصول المراسم في فك الطلاسم»، ومنها «حسن إرشاد الناس في استخراج الذهب من النحاس»، ومنها «القول المأثور[1] في تأثير البخور»، ومنها...

(الكاتب)- ألم تعثر لي على كتاب في «الاستحضار»؟

(البائع)- نعم معي كتابان أحدهما «قلائد اللؤلؤ والمرجان في استحضار الجان» والآخر «خير المواقيت لرؤية العفاريت».

(الكاتب)- بارك الله فيك وجزاك خيراً فإن عندي نسخة محرّفة من هذا الكتاب الأخير فاصحبني إلى البيت لنقابلها ونصححها.

قال عيسى بن هشام - وقام هذا الكاتب مع البائع، وأقمت أسخط على هذا الجهل الشائع، والعمل الضائع، وبينا أنا كذلك إذ أشار علينا غلام المحامي بالقيام فقد قرب أوان الجلسة لقضيتنا فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التي تنعقد فيها الجلسة فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حالاته، وسمعنا الحاجب ينادي تارة بصوت عال وتارة بصوت منخفض، فسألت الغلام عن ذلك فقال إنه يخفض الصوت حتى لايسمع أرباب الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فإن للحجاب أن يُدخلوا الجلسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا، ثم نودي علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر وقد تعسر على أن أفهم كلام الباشا وهو بجانبي يخاطبني لشدة الضوضاء وعلو الأصوات، ثم دخل كاتب الجلسة يرقص في مشيته، وكأنه الطاووس في هيئته، فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه يضعه في الدواة تارة ويضعه في أذنه أخرى ثم يلهو بتفقد ثيابه ويشتغل بلمس الإبر التي تتشبك بها العمامة ثم ابتدأوا في سماع القضية وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئًا مما قالوه أو قيل لهم لكثرة

---

(١) م ش ٥٠: المشهور.

الجلبة والصياح وإنما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط- ***وكأنما يكتب من عنده- ما أنقله بحرفه وهو***(١):

«استُحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرّف أنه فلان بن فلان وسمى شاهدىْ معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار إليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور إن لى قبل فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يُحضر مع استلامه عَلم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة».

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ثم نودىَ علينا بعد برهة فقالوا لنا إن المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى- على ما أخبرنا به المحامى- بالإعذار إلى المدعى عليه وقال لابد أن نطلب ذلك من المحكمة لأنه لا يسوغ لها أن تعذر إلا بناء على طلب المحامى فقدمنا الطلب، فتقرر إصدار الإعذار، والله يكفيك شر ما فى هذه الدار من الاقضية والأقدار، وكثرة الهموم والأكدار.

* * *

* قال عيسى بن هشام ودخلنا لا أدخل الله عليك طوارق النقم، ولا أخرجك من طرائق النعم- فى دوْر الإنذار يتبعه الإنذار، والإعذار يتلوه الإعذار، ومندوب المحكمة يعود إلينا بالخيبة، في كل أوبة، زاعمًا إن خدم الخصم لايقابلونه إلا بالازدراء، كغيرهم من خَوَل أبناء الأمراء، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير، ورمينا المندوب بالإهمال والتقصير، فرأينا أن نخبر خبره، ونقتفى أثره، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع، للاستخفاف برسول الشرع، فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان، يشهدان بأنه أعذر

---

(١) م.ش ٥٠: ما يأتى

(*) أضيف عنوان «قصر حفيد الباشا» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٤٥، ١١ مايو ١٨٩٩.

فلانًا بن فلان بن فلان، وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر، على هيئة تستفز كل هادئ وساخر، وكل منهم يخدّ الأرض بحذائه، ثم يعفى الأثر بفضل ردائه، وهم ينتقلون فى المشى من الذميل إلى الرسيم إلى الوخيد، كأنهم مسرعون إلى جَفنة ثريد، ونحن من خلفهم نخبّ ونهرول، ونحسبل ونحوقل، إلى أن كادوا يغيبون عن البصر، وكدنا نفقد منهم الأثر، لولا أن عثر أحدهم بقضبان الكهرباء، فطاحت عمامته وانفلت الحذاء، فانفتل يلتمسها ويلتمسه، فلم يَرُعْهُ إلا السائق وجرسه، فما فطن له ولا انتقل، حتى أدركته العَجَلَ، وكاد يداس ويقضى عليه، لولا أن جذبه رفيقه إليه، فحيل بين الرجل وبين عمامته ونعله، ووقف مخبولاً لا برأسه ولا برجله، وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث، حتى مرّت عليهما المركبات الثلاث، فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل، فبشرناه بسلامتهما فاعتمّ وانتعل، وحمد الله على هذا اللطف فى القضاء، وحمدناه على ما أتيح من التعويق والإبطاء، إذ تمكنا من اللحاق بهم، وقدرنا على استئناف السير فى عقبهم،

وقد انتهى السير بنا(1) إلى قصر فى سُرّة بستان، يزرى فى الحسن بقصور بغداد وغُمدان، وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر، كأنه محلى بصنوف اليواقيت والجواهر، والقصر فى وسطها كأنه الدرة البيضاء، أو البدر بين نجوم السماء:

كأنه جيدٌ وبستانُه　　　من حوله عقدٌ بديع النظامْ

وما عساى أقول(2) فى وصف روضٍ قد نسجته يد الأرض، لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها، ونمنمته رداءً لها تختال به فى حسن رونقها وبهجتها:

مؤزّرة من صنعة الوبلِ والندّى　　　بَوشْيٍ ولا وشىٌ وعصْبٍ ولا عصب

قد أغنى الغوانى نسيمه العليل، عن المسك الأذفر، وكفاها ريحة البليل، تعطُّرَها بالطيب والعنبر:

بغرس كأبكار الجوارى وتربة　　　كأن ثراها ماء ورد على مسك

---

(1) م ش ٥٤: ووصلنا.

(2) م ش ٥٤: وماذا تقول.

ومغنى العرائس[1] أن لو اتخذت من نُوّار الأزهار، فصوصًا للخواتم، ومن كمام الأشجار، معاقد للتمائم، وودها أن لو تأزرت من سندس أرضه بأبهى إزار ومرط، وتحلت من جوهر نباته بأزهى شنف وقرط:

إذا مـا الندى وافاه صبحًا تمايلـت أعاليه من در نثير وجوهـر

إذا قابلته الشمس رد ضـيـاءها عليها صقال الأقحوان المنور

وقامت فيه ***مثمرات***[2] الأغصان قيام الكواعب الأتراب، ساقيات بالأباريق والأكواب، ساكبات سؤر الطل من تلك الأقداح، مائسات من رحيق الندى ومداعبة الرياح:

شقائقُ يحملْنَ الندى فكأنهُ دموع التَّصابى فى خدود الخرائد

فما تخيلنا فى هذا الروض مذ رأيناه إلا أننا فى حفلة عرس، جمعت أسباب اللهو وأطراف الأنس، قد نصب الدجن عليها سرادقه، ومد ملتف النبات فيها نمارقه، وأشرقت فى الأغصان الأنوار، إشراق المصابيح بالأنوار، وقامت الأطيار على الأعواد، تتسابق فى الترنم والإنشاد، فهى تغرد بألحان يقطع السامع لها حبل النفس، ويأنس إليها مستنفر الوحش المفترس:

رأت زهرًا غضًا فهاجت بمزهر مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

وللنسيم بين الشجر نغمات بالهفيف والحفيف، من ثقيل فى الضرب أو خفيف، تصفق لها أكف الأوراق، وتقوم الأفنان للرقص على ساق، مترنحة الأعطاف من خمر الندى، مهتزة القدود بغمز الصبا، تبسم عن أقاحٍ نضيد، يزرى بثنايا الغيد، ثم تميل برشيق القوام، فتلتقط ما ينقطها به الغمام، والجدول يجرى تحت أذيالها ويتعثر، وينساب الماء فى ظلالها ويتكسر، كأن حصباءه اللؤلؤ والمرجان، فى نحور الحسان، أو قلائد العقيان، فى أجياد القيان:

تَروعُ حصاه حَاليَة العذارى فتلمسُ جانبَ العِقْد النّظيمِ

---

(١) م ش ٥٤: ومناها.

(٢) م ش ٥٤: بنات.

ولما ملئنا من هذه الجنة طرباً، وقضينا عجباً، قلنا ما شاء الله لاقوة إلا بالله، ما أعجز الخلق عن شكر نعماه، وإذا بقوم عند باب القصر، كأنهم أفراخ فى مخلب صقر، تعلو وجوههم فترة، ترهقها غبرة، وهم بين باك ومنتحب، وصارخ ومصطخب، فتفرست فى هيئاتهم، وهم يذكرون حاجاتهم، فإذا هم جميعاً فى يأس وقنوط، وخيبة وحبوط، وإذا الصيرفى يقول بصوت المقهور المخذول:

(الصيرفى)[1]– تعساً لى لقد ضاع مالى، وذهبت آمالى.

(التاجر)– وبؤساً لى لو كنت أعلم بهذا المآل، لم أقع فى تلك الحبال.

(البائع)– يا ويح نفسى اغتررت بالمقام العالى، فخسرت رزق عيالى.

(الجوهرى)– ويل لمن خدعته الظواهر، فضاعت عليه الجواهر.

(الصيدلانى)– أقسمت لايضيع عنده ثمن الدواء، ولو تعلق بأطراف السماء.

(الخمار)– سقياً له من محتال مال على دنى، ثم اختفى عن عينى.

(القصاب)– أنا لا يضيع عنده حقى، ولو وضعوا السكين على حلقى.

(الخياط)– وأنا لا أترك هذا الباب، حتى أمزق ما عليه من الثياب.

(الإسكاف)– ورأس أبيه وجده، لآخذن ثمن الأحذية من جلده.

(الحلاق)– أنا ابن جَلاَ وطلاّع الثنايا، وكم لصنعتى من منافع ومزايا، وليتنى كنت شوهتُ خلقته، ومسخت سحنته، فنتفت شاربه، وحلقت حاجبه، تالله لآخذن بناصية هذا الثقيل البارد ولأسدن عليه المصادر والموارد، ولألزمنه صباح مساء، ولو حلّق فى الهواء.

كل هذا والخدم ينكرون وجود صاحب الدار، ويقسمون أنه لم يبق لديه درهم ولا دينار، وإذا هم أحد الغرماء بالدخول منعوه، أو دافعهم أحدهم دفعوه، وبينما نحن نتأمل ونتعجب، ونتقلى على الجمر ونتقلب، ونقابل بين سعد المكان، ونحس السكان، إذا برجل

(١) م ش ٥٤: اليهودى.

إفرنجى قد خرج من بيت الحرم، وهو يلتهب غيظاً ويضطرم، ويقول للبواب برطانته، وسوء عبارته، لقد طالبته فأبان الإفلاس والعجز، فلم يبق إلا توقيع الحجز، وإليك قائمة البيان، وحذار من التلف والنقصان، وما كاد «محضر المختلطة» ينتهى ويذهب، حتى حضر «مُحضر الأهلية» يلهث من التعب، فسلم للبواب ورقة إنذار، فأخذها وهو يدعو بالثبور والدمار، ويعقب ذلك انصرف المحضر، وتبعه جميع من حضر، لاشتداد حر الظهيرة وأوراها، ولفح الشمس للوجوه بنارها، فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبنا وتقدم، وخاطب البواب وهو يتلعثم، فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية، فقال له لم يكن ينقصنا إلا هذه البلية، ثم دفعه فى صدره، فرده إلينا بظهره، بعد أن أخرجنا من الجنان، وأغلق باب البستان، فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر، ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرّر:

«يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرك بأن تحضر إلى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان وإن لم تحضر فى اليوم المذكور ينْصب عنك وكيلاً ويسمع الدعوى فى وجهه ويُحكم عليك غيابياً».

ثم ودعنا المندوب والشاهدين وانصرفوا إلى سبيلهم وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا ثم استند الباشا إلى سور البستان وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره:

(الباشا)- ما زالت بواطن الأمور وحقائق الأشياء تتجلى لى على وجهها منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحقق لى اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجرى كلها على التضليل والبهتان وتدور على التمويه والبطلان وتنطوى على الغش والتدليس فبالله عليك من ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه ***الحسد لساكنيه والتطلع إلى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع إلى نفسه***[1] فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء قسمته فى العالم.

---

(١) م ش ٥٤: لم يسكنه وتتطلع نفسه إلى غبطته.

(عيسى بن هشام)- *لا زلت*[1] ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبل الهداية والحكمة، نعم إن جل من تراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف ويدعو إلى الرحمة والشفقة لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة ولأيقنت أن الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمسًا بعرق جبينه هو أسعد حالاً وأنعم بالاً، والغالب أنه كلما كان مظهر العيش زاهيًا زاهرًا كان باطنه مقتمًا مظلمًا، وأشد ما يكون من البلاء على أهل الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع، فيكون الواحد منهم غريقًا فى بحور الهموم والأكدار وتراه يقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح، وأكثر ما يكون فى الضيق والإفلاس تراه يتعرض للتبذير والإنفاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وإن كان عظيم الثروة كثير الغنى فإنه لاغنى مع ازدياد الحاجات ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات.

(الباشا)- قد كانت الحال فى أيامنا على العكس، إن كان لايسرك من الرجل ظاهر حاله فإنه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حد الغنى ويبدى الشكوى إذا أسرَّ الرضا.

قال عيسى بن هشام وقضينا برهة فى مثل هذا الحديث وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالأبحاث العقلية والتعمق فى معرفة الأخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به إلى عالم الفضيلة والحكمة وازددتُ يقينًا بأن الرجل المرتفع القدر لايزال غِرًا بالأمور غافلاً عن حقائق الأشياء فإذا وقع فى أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحته وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه.

ثم حانت منا التفاتةٌ إلى ما وراء السور فرأينا خدم البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يبتدئ فيقول:

---

(١) م ش ٥٤: نعم لا زالت تلك سبيل الحكمة والهداية إنك.

(البواب)- ليت أمى لم تلدنى وليت أبى لم يعلّمنى رسم الخط فقد كلت يدى وحفى قلمى من طول التوقيع بالاستلام على الإنذارات والمحاضر فقلما يمضى يوم إلا ولى فيه من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم فى ديوان، فبئست المعيشة معيشتى وبئس الحظ حظى وليتنى كنت قادراً على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغرماء فأخلص بجزء من أجرة الشهور المتراكمة، ومن لى بالتباعد عن هذا البيت الذى انتشر فيه جراد الحجز وأزعجت من فيه أصوات الغرماء وأزعجنى تردد المحضرين على صندوق ثيابى.

(الكاتب)- لست أدرى والله ما يصنع صاحب البيت وماذا يحتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل، وإن صدق ظنى كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه فى سوء العواقب فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه فى هذه الأيام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم أمره بأقبح الخواتم، ويعلم الله أنه لولا ما التقطه فى أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لى القيام بقوت عيالى بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور، وقد دعانى هذا الأمير أمس وأعطانى خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به إلى الجوهرى الذى كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع لى فيه إلا خمسة وعشرين[1] فبعته إياه وعدت للأمير بالدراهم فكأنما فككت الأسير من القد وأنقذت الغريق من اللج.

(الوصيف)[2]- الآن انحل ما كان مشكلاً وانكشف لى ما كان غامضاً فإنى رأيت معه ذهباً كثيراً لم أهتد إلى مورده أعطانى منه عشرة جنيهات وأمرنى أن أبتاع من أخيه هذا الكلب الذى ترونه مولعاً بملاعبته منذ الصباح.

(الفرّاش)[3]- وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات وأخذت له غرفة فى «تياترو الأوبره» بثلاثة وزجاجة أعطارٍ باثنين.

---

(١) م ش ٥٤: عشرين فقط (وأضيف إلى ط ١: «فبعته إياه... من اللج»).
(٢) ش ٥٤: (أحد الخدم).
(٣) م ش ٥٤: (خادم ثان).

(الكاتب)[1]- فعلى هذا لم يبق معه إلا خمسة جنيهات ولابد أن أبادر فى الحال بمطالبته بإنجاز الوعد الذى وعدته لصاحب الجريدة المعلومة حتى يسكت عنه ويكف عن التعرض له.

(السائق)[2] وأنا أذهب إليه أيضاً لآخذ منه ثمن الريش والاسفنج الذى وعدنى به ما دام معه من الدراهم بقية.

(الخصىّ)[3]- إنكم لفى نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم فى الحرم قد اقتنعوا من العيش بتيسير الأكل والشرب من غير أجر وصبرنا على هذه الحال وفاءً بالعهد لأهل البيت ويا ليت هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد البك الجزار كما سمعتم أمس بإنذار البك الخباز.

(السقاء)[4]- ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها فى آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة ارزاقنا على ريع الوقف الذى سلم وحده من الحجز.

(البواب)- لقد خاب ظنك وضاع أملك فإن هذا الوقف الذى كنا نرتكن عليه قد دخل فى دور القضايا والدعاوى وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية ***بالإعذار الأخير ومن يعلم ماذا يكون من أمره***[5].

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا[6].

قال عيسى بن هشام - وحل اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية فتوجهنا إليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته ولما فتحت الجلسة تقدمنا إليها وشهد أمامها شهود

---

(١) م ش ٥٤: (قبل «الكاتب»): (خدم ثالث) وأنا اشتريت من جاكان علبة أعطار بجنيه ونصف.

(٢) م ش ٥٤: (سائق المركبات).

(٣) م ش ٥٤: (الخدم الرابع).

(٤) م ش ٥٤: (الخدم الخامس).

(٥) م ش ٥٤: الثالث ولم يبق إلا الحكم بنزع الوقف من يد سيدكم.

(٦) مكان الفقرة «وسمعنا...»: «الجميع واويلاه واحرباه ثم ينادون من الداخل بأن سيدهم استيقظ من نومه يطلب الركوب قال عيسى بن هشام: وانقضوا وانصرفنا أيضاً بعذاب لا يعذبه أحد.

المعرفة ثم اطلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمروا بأن ينصب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقاً بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانة ليعدد الأعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزء قليلاً لايقوم بالتعب فى إقامة القضية وخشى أن المحكمة لاتحكم لنا بغير المبين فى «الصورة» من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن منه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة فوافقه الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية إلى مابعد الفسحة القضائية من العام.

وخرجنا من الجلسة مع المحامى(1) وقد فتح له ***ولغلامه***(2) باب ***احتيال***(3) جديد ولما سألناه عن المظان التى تنبئنا عن بقية أعيان الوقف تلكأ فى الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معه وانصرف، فقال لنا الغلام لامظنة عندنا غير ديوان الأوقاف لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض، فوافقناه على هذا المطلب الجديد، والله يفعل بنا ما يريد.

***

* قال عيسى بن هشام ولما حال أمرنا من المحكمة إلى الأوقاف، وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف، وأنه لابد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء، ونكرر الدعاء والنداء، ونكثر من الغدو والرواح، فى كل مساء وصباح، فنبلى فى هذا الديوان جدة الزمن، ونقف عليه وقوف العاشق على الدمن، لما هو مستفيض من اختلال أعماله، واعتلال عماله، وفساد إدارته وسوء نظارته فنزل به الهم والغم ما أورثه الضنى والسقم،

---

(1) م ش ٥٤: وخرجنا من المحامى.

(2) م ش ٥٤: لعينى غلامه.

(3) م ش ٥٤: رزق.

(*) أضيف عنوان «الطب والأطباء» إلى ط3 وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ١٨.٥٥ مايو ١٨٩٩ ومن المهم أن نشير إلى أن المويلحى أعاد كتابة هذا الفصل أثناء إعداد النص لنشر المطبعة الأولى من «حديث عيسى بن هشام» انظروا المقال فى الملحق. ص.٤٧٩.

وحل به من الحزن والكمد، ما أخل بنظام الجسد، فغدا هزيلاً نحيلاً، ووقع مريضًا عليلاً[(١)]، فأشرت عليه بالطبيب، قال يخطئ ولايصيب، وماذا يجدى العلاج وما يفيد، وللآجال توقيت وتحديد، فأقنعته بأن الاعتقاد بتحديد الأجل، لايمنع من مداواة العلل، وسبحان من أرشدنا إلى الدواء، عند حلول الداء، لالتماس الشفاء، فقبل إشارتى بعد طول الإباء، فجئت له بأحد الأطباء، من ذوى الشهرة بالبراعة، فى ممارسة الصناعة، فجلس بجانبه يجس نبضه ويقرع صدره، ثم استلم قلمه وولاه ظهره، وأخذ يرقم أصناف العلاج، بيد دائمة الاختلاج، ثم قال دونكم هذا الدواء، جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن، لايغش فى التركيب ولايغلى فى الثمن، ثم وقف عند المرآة يسوى مفرق شعره، ويصقل ما استطال من ظفره، ويرسل اللحظات تباعًا نحو الباب، بنظر مستراب، كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب، من آنسة فى الخدر أو كعاب، ولما أعوزه ما تفقده، طلب أن يغسل يده، وقال أنى أرى حالة المريض شديدة، تقضى بعيادته أيامًا عديدة، حتى ينتهى المرض من شدته، ويتلطف من حدته.

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود، ودرجة الحرارة لاتفتأ فى صعود، والمريض يهذى فى شدة حماه، وأنا أتضرع وارحماه، حتى كدت أيأس من الشفاء، وأسلم لحكم القضاء، ولكن زارنى أحد الأصدقاء، ممن يتولعون[(٢)] بالطب والأطباء، فقال لى وهو يبصر حالته: من الطبيب الذى يعالج علته، فقلت هو الشهير فلان، قال علمت السبب الآن، وأنا أنصحك أن لا تعتمد فى الطب، إلا على أطباء الغرب، أولئك قوم قد برعوا فى معرفة الأمراض، وتشخيص الأعراض، وأحاطوا بكل جليل وحقير، من البسائط والعقاقير، فالأدواء لا تستعصى فى أيديهم، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم، وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلمًا وأشهر صيتًا واسمًا، وقام فعاد بأجنبى يهد الأرض بخطواته، ويكثر من إشاراته ولفتاته، فتقدم نحو المريض فجس ولمس، ثم قطب وعبس، ووضع طرف منديله على أنفه، وقال لنا فى صلفه وعنفه، إن هواء الغرفة فاسد

---

(١) م ش ٥٥: وغدا جسمه نحيلاً ضئيلاً: (والهم يخترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم)

(٢) ط ٣: يولعون.

قتال، وداء المريض داء عضال، ولا رجاء إلا باتباع إشارته، فى تواتر زيارته، ثم هزئ بما رآه من دواء الطبيب الأول، بعد أن كتب علاجه بوصف مطول، وقال لا يحسن تركيب هذه الأجزاء، إلا صاحب صيدلية الشفاء، وما زال الطبيب أيضاً يذهب ويحضر، والعلاج يتجدد ويتكرر، والمريض يتألم ويتضجر، والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر، حتى جاء فى خاطرى أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة، فنخلص من هذه المراوغة والمطاولة، فلما اجتمعوا وقعوا فى الحجاج واللجاج، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج، وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه، لا يهتدى إلا بهديه، وسمعت بينهم من يقول لرفيقه، لاينبغى أن نوافق فلاناً فى تحقيقه، كما لم يوافقنا على رأينا فى الاستشارة الماضية، وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية، ثم خلفونا ونزلوا على الخلاف، وإن كانوا اتفقوا فى تناول الأجرة عند الانصراف، وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظهر نفوره من طريقتهم، ويجرى معهم على غير حالتهم، فأرسلت فى أثره من دعاه، وكاشفته بأننى اخترته على سواه، فقال لى إن علة المريض بسيطة فيما أراه، لايجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه، ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية، من هموم فجائية، فقلت له نعم أصبت فى النظر، ثم أخبرته بجملة الخبر، فقال الآن تبين أن معالجة الأطباء، كانت بغير اهتداء، ولايلزم لعلاجه إلا الامتناع عن هذه المركبات، والاكتفاء ببعض البسائط من النبات، مع جودة الغذاء، وتبديل الهواء، فأيقنا حينئذ بمهارته، وسلمنا لإشارته، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال، إلى دور النقاهة والإبلال، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته، ويحاورنا فى الحديث على حسب عادته:

(الباشا)- كيف اهتديت أيها الطبيب إلى ما لم يهتد إليه سواك من الأطباء، فأدركت سبب علتى وأحسنت تشخيص مرضى وأصبت فى اختيار العلاج فكان الشفاء، لاشك عندى أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك.

(الطبيب)- لا فضل لى يستحق كل هذا المدح والثناء، والسبب فى خطأ الأطباء أن العدد الأعظم منهم يسيرون فى ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم فهم لايتخطونها ولايتعدونها، فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه

عدة أمراض معلومة وعلل معروفة فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى - والأعراض تختلف وتشتبه- فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين، بقطع النظر عن الفحص والتأمل فى حال المريض أوالبحث والتدقيق فى معرفة الأسباب المادية والأدبية التى يرجع منشأ المرض إليها، ولايكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال فيعيش فى أسر العادة وقيد الطريقة لايعبأ بالبحث فى اختلاف الأمزجة وتباين الغرائز وتفاوت المعايش وتغاير القوى فى البنى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب.

(عيسى بن هشام)- كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكرة فتنطلق أيديهم على وجه واحد وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى.

(الطبيب) - نعم لقد أصبت فى التشبيه، وغير ذلك فإنه يوجد بين هؤلاء الأطباء من لايرى فى صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح واستدرار الدرهم والدينار حتى يصلوا إلى اكتناز الأموال ويصبحوا فى مصاف أهل الغنى والثراء لايبالى أحدهم أى باب طرق ولا أى سبيل قصد للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب، فكل الوسائط لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل على المريض طامعًا فى ماله لا طامعًا فى شفائه، فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته فى المرض فيتسع نصيبه فى الأجرة فيعطيه من أصناف الأدوية ما لاينفع ولا يضر استغفر الله بل ما يضر ولاينفع ليبقى المريض فى حاجة دائمة إلى تجدد العيادة والزيارة، وفى كل مرة يصف له نوعًا حديثًا وصنفًا جديدًا من المركبات التى يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلى فى دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة، فيضرب الطبيب فى صناعته بقدحين، ويصيب فى الكسب بسهمين، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار، ويخلى كيسه من كل درهم ودينار.

ومن أولئك الأطباء من يجعل همه منصرفًا إلى الإبداع والتفنن، فى وجوه التزيى والتزين، ويسلك سبيل التصنع والتكلف، فى أبواب التظرف والتلطف، ثم يتفنن ما

استطاع في حسن المحاضرة، ويتعمد رقة الحديث والمسامرة، ويتقلب في أساليب المؤانسة والمجاملة، وأفانين المغامزة والمغازلة، ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة، وسوقًا رابحة، فيحل من أهل الحرم محل الجليس المحبوب، والأنيس المطلوب، وينزل من ربات الخدور بمنزلة المحب المكرم، ويكون بين مقصورات القصور أكرم زائر في أرحب منزل، والنساء لا يعدمن العلات على العلات، ولا تعوزهن العلل، في اختراع العلل، لاسيما إنْ كانت دعوى المرض، تدني من نيل الغرض، فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات، وروحات وغدوات، والطبيب كما يعلم الناس مؤتمن الجانب، يؤتمن فوق الأهل والأقارب، تتفتح[1] أمامه الأبواب، ويكشف من دونه الحجاب، فترى له زيارة بين كل صباح ومساء، تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء، بوافر الأجر في دفتر حسابه، وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه.

ومنهم من يتطلع إلى ما فوق ذلك فيطمع في ثروة البيت بأكملها وفي حيازة الأموال بأجمعها فيديم التردد ويوالي العشرة ويحكم الصلة ويلحم الخلطة حتى إذا تأربت عقدة الحبل تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها، لا التفات هناك إلى تفاوت الأقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح له حليلة، بعد أن كانت خليلة، وينتهي ما كان من أمر الداء والعلاج، بما تم من أمر العقد والزواج.

(عيسى بن هشام)- الآن تبين لي ما كان على غامضًا واتضح ما كان مبهمًا من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا في كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق في تعيين الصيدلية وطول استراق النظر لما وراء الحجاب.

(الطبيب)- أجل، هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلاء وأشباه الأعلاء، فأما حالهم مع الأصحاء ونوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب، وما يغرب[2] عنك أن كثيراً منْ المولعين بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ويبالغون في التوقي لأجسامهم فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة شراً، ويتوقعون من كل شربة

(١) ط ٤: تفتح.

(٢) ط ٤: يعزب.

شراً، ويتخيلون فى كل لقمة تخمة، وفى كل جرعة غصة، فلا يتناولون قدحاً من الماء، أو يستنشقون نفساً من الهواء، إلا وفى اعتقادهم أنه لايخلو من كل هامة سامة، أو جرثومة ضارة، ولايزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب ويبعدوا ما استطاعوا فى طرق الحمية من غير علة ولا داء فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنى ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داءً دفيناً، وما به من داءٍ وعلة كامنة وما به من علة فيشكو أمره إلى الطبيب فيكون الطبيب حينئذ أسرع من وهمه وخياله فى اختلاق علة له واختراع مرض دون أن يفحص أمره أو يبلو خبره، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفزع ويوالى عليه الطبيب ما يوالى من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة والمركبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء ويتقيد المسكين بمعيشة لاتناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الإقليم ولا توافق إلا من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندره لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة، فلا يلبث أن يأتى على ما بقى فى الجسم من قوة وما فى البدن من صحة ويعيش إن عاش فى يد الطبيب حياً كميت ويكون بين الأموات والأحياء، لا هو من هؤلاء ولا من هؤلاء، إلى أن يلحد فى لحده، شهيد طبيبه وقتيل يده، وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد، ما كتب على قبر عظيم من قدماء القواد: «لم تمتنى قوة الأعداء، وإنما أهلكتنى قوة الأطباء».

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لانرى فى جمهور من نراهم من المترفين المقلدين إلا شاكياً من ألم أو متألماً من مرض فراجت سوق الطب وعظم عدد الأطباء وغدت حوانيت الصيادلة فى الأسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين، وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وأوعية[1] العلاج وقل أن تجد اليوم بيتا خاليا من مريض ولا مجلسا ليس فيه سقيم.

---

(١) ط ٢: آنية.

(عيسى بن هشام)- كأنك تحاول أيها الطبيب الآسى أن تقنعنا بقوة البرهان وجلى البيان أن لافائدة من الطب ولا منفعة فى الأطباء.

(الطبيب) - حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد وأن يذهب بقولى خلاف مذهبه وما قصدت بكلامى هذا كله إلا أن اظهر عيب بعض الأطباء فى ممارسة صناعته دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها، على أنه يمكن لى أن أضيف إلى ما قلته ما قد قيل من قبل وهو أن العلم علمان علم تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الأثر محمود الورد والصدر وعلم تصدأ منه الأفهام وتضل به الأحلام فهو وبئُ المرعى سيىء العقبى، وكذلك الطب طبان طب يصحح الأجسام ويشفى الأسقام فهو عظيم النفع جليل القدر وطب يورث الأمراض ويولد الأدواء فهو بليغ الضرر كبير الأذى، ومدار الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث، ولا تتوهمن أيضاً أننى أتناول بكلامى جماعة الأطباء فإن فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها أو يتعمدون الحيل وينصبون الأشراك حتى يعتل جسم الصحيح ويزمن مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد بعض شرههم فى الغنى واليسار، وما أولى سائر الناس بأن يثبتوا بينهم تلك *العادة الصينية*[1] فى معاملة مثل هؤلاء الاطباء، وهى أن أهل الصين يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء فإذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب حتى يعود المريض إلى سلامته فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة وتقصر مدة العلة على خلاف الحال بيننا.

وما ينبغى أن ينصرف شيء مما قلته إلى بقية أهل الصناعة من ذوى الحذق والأمانة الذين يعرفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال فى العلل والأمراض وما تقضى به أحكام البلاد والعادات واختلاف الأمزجة والطبائع والذين يجعلون لأنفسهم من حسن تبصرتهم وكثرة تجربتهم عدة حاضرة لمقاومة الأمراض وصحة تشخيص الأدواء ولطف تناسب العلاج وحسن الإرشاد لرفع الوسواس ودفع الخيال وما يجرى هذا المجرى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار مما لايليق إلا بأهل الإقليم البارد واجتناب ما

---

(١) ط ٢: عادة أهل الصين.

لايوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع أهل البلاد الغربية، ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه يجب على الطبيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألين قوة حتى لايكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولايلحق أبدانهم منها مضرة وأن لايقدم على الأدوية *الموجودة*[1] في كتب أهل الغرب فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الأخلاط على خلاف المعهود في أهل مصر فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيراً منها ما يقوم مقامه ويكون ألين منه وأن لايهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي البسائط واللبن والحمية والفصد والاستحمام، والرياضة والهواء، وأن يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة في ذاتها لا يعادلها لديه لذه سواها من سائر اللذات ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع عن سفالة الطمع وحطة الشره ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع في جانب لذة الإتقان في الصنعة والإحسان في العمل، وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل وهو القيم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الأجسام والرقيب على اعتدال الأمزجة والمشرف على سلامة الجوارح، لا بل أية صناعة في الوجود تفضل صناعته وهي أمس الصناعات بخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر، وإذا كان قد بلغ عجب الصناعة بأحد النحاتين المصورين في الزمن السابق أن ازدهاه جمال الإتقان والإحكام في صورة إنسان نحتها من المرمر فاستخفه الطرب واستفزته لذة الصنعة فعمي عليه فانحى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بعد أن أحكمت فيه خلقة الإنسان ويكلف الجماد وقد أتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود إلى الحركة حتى أطار عنه بعض أجزائه ويبقى التمثال قائماً إلى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الإتقان ومقدار لذة الإحسان في عمل الإنسان فما بالك بلذة الطبيب وبمقدار طربه في صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الأمراض واستنقذها من آفات العاهات وردها إلى سواء التكوين وأعاد نظام الخلقة إلى أصله وانتساق التركيب إلى شكله فهل يجوز في

---

(١) ط ٢: المسطرة.

العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الأطباء أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته إلى مصاف أهل التجارة والسلع لايفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم ولايعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال، لاجرم أن الطبيب المدرك يفضل لذة صناعته فى ذاتها على كل لذة ويسلو عندها أعظم مزية فى الوجود وأعلى رتبة فى العالم، وفصل الخطاب، في هذا الباب، أن يكون مبلغ همته ومجمع لذته، أن يرى المريض بعد شفائه، بوجه لامع كالدينار، لا أن يراه فى طول شقائه، بنظر طامع في درهم أو دينار.

قال عيسى بن هشام: فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته، وحسن نظره فى صناعته، وسألت الله لجماعة الأطباء، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء، ثم أنى ودعته بعد أن عين لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء، وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء، إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء.

***

* (قال عيسى بن هشام)- ***فاستخرنا الله فى السفر، كما أشار الطبيب وأمر***[1]، التماساً لبرء الداء، بتبديل الهواء، فقصدنا الإسكندرية واخترنا فى ضواحيها قصراً ذا روضة غناء، فى بقعة فيحاء، لاتسمع فيها إلا هديل الورقاء، إيقاعًا على هدير الماء، فإذا ابتل منه جناح النسيم، ورفرف به على ذلك الروض البسيم، نثره درا على تيجان الازاهر، ورقرقه دموعاً فى أحداق العباهر، هناك يتمنى العاشق لو استعار هذى الدموع لمحاجره، فيستلين بها قلب جافيه وهاجره، وتود الغانية لو نظمت من ذلك الدر عقداً لنحرها، أو نطاقًا لخصرها:

إن هذا المكان شيء عجيب   تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهبٌ حيث ما ذهبنا ودرٌ   حيث درنا وفضة فى الفضاء

أو قل إنه المجرة قامت فيه زواهر الزهر، مقام الكواكب الزهر، وعناقيد الكروم، مقام ثريا النجوم، وأنوار الأثمار، مقام الشموس والأقمار، فأقمنا فى ذلك الظل الوريف،

(*) أضيف عنوان «الطاعون» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٥٧، ١ يونيو ١٨٩٩.

(١) ط ٢: فطاوعنا القدر وعزمنا السفر.

مدة من أيام الخريف، ومكثنا نقتطف[1] القطوف الدانية، ونرتوى من معين تلك الأعين الجارية، فى عيشة راضية، لايسمع فيها لاغية، نأخذ بمستن النحيزة، ومجتن الغريزة، فى ما يوافق صحة البدن من طعام شهى، وغذاء مرى، ورياضة للأعضاء، دون تعب أو شقاء، وتطهير للنفس من أدران الكدر، بلطف البحث وحسن النظر، وتجريد للصدر من عوامل الهواجس، وغوئل الوساوس، بالتبصر فى حقائق الوجود، والتمعن فى صنعة الخالق المعبود، وأفضت بصاحبى طيب هذه الإقامة، إلى المقصود من تمام العافية والسلامة، لولا أن راعنا شيطان من الإنس بخبر الطاعون، فقلنا إنا لله وانا إليه راجعون، وسبحان الله والحمد لله ما زلنا نعلل النفس، بزوال النحس والنكس، وما زالت تناوبنا النوائب والأحزان، وتراوحنا النوازل فى كل منزل ومكان، وانبرى الباشا يسألنى عن هذا الطاعون وأخباره، وما يتوقعه من هول أفعاله ***وآثاره***[2]، فأجيبه بأنه لايلبث أن ***يصبح أثراً***[3] بعد عين، وما أصاب إلى اليوم الإعداد أصابع اليدين، وقريبا يفر من أمامنا هذا العدو المناجز، وننشد فيه قول الراجز:

قد رفع الله رماح الجن وأذهب التعذيب والتجنى

(الباشا)- كيف تدعى ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاء للحقائق ولا تمويهًا للوقائع، وللطاعون فى مصر أفاعيل تذوب لها المآقى والأحداق وتتفطر منها القلوب والأكباد وهو من أمراض مصر الموضعية التى تحدث عند اختلاف الفصول والمصريون يتوقعونه لكل ربيع حتى اطلقوا عليه كلمة «الفصل» فيقولون جاء «الفصل» عند ظهور الطاعون فترتا ع النفوس وتنخلع القلوب وتخور القوى وتذهل العقول ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلايقف سيله عند حاجز ولايمنع اندفاعه مانع ولا تغيض قرارته حتى يخرب القصور، ويعمر القبور، فتصبح الأطفال يتامى، والنساء أيامى، ويمسى الخلق بين ثاكل ومثكول، وحامل ومحمول، هذا يبكى أباه، وذاك يندب أخاه، وهذه تولول على أهلها، وتلك

---

(١) ط ٣ : نقطف.

(٢) م ش ٥٧ يضاف بعدآثاره: بعدى عن الناس برء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا إيطاء يدركه ولا سناد ولا فى اللفظ إقواء
(وحذف المويلحى بقية مقال «فترة من الزمن» المؤرخ ١ يونيو ١٨٩٩ (م ش ٥٧) من نص «حديث عيسى بن هشام» انظروا البقية فى الملحق من ص.٤٨٧.

تنوح على بعلها، وقد سمعت عنه فى زمانى من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥:

«ابتداء الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخل الناس منه وهم عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه فى رجب وشعبان ومات به ما لايحصى من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء ومات من الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنجقاً منهم إسماعيل بك الكبير، وقد أفنى عسكر القليونجية والأرنؤط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها، وكان يخرج من بيت الأمير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك، ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً بتجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً، ولاتنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ولاتقام الصلاة إلا على أربعة أو خمسة وندر من يصاب ولايموت وقل ظهور الطعن على الجسم فيكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر فلا يفيق إلا مخلطاً أو يموت فى غده إن لم يمت فى نهاره، واستمر فتكه إلى أوائل رمضان فمات الأغا والوالى فى أثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافهما فماتا أيضًا، واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى سبعة أيام، وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعًا»[1].

(عيسى بن هشام) – إنى لأظنك تصف لى موقفًا شاهدته من مواقف الآخرة وأهوال القيامة.

(الباشا) – وما كان الأمر ليقتصر فى الطاعون بعد ذلك علي فتكه بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسه الإفرنج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمور تشق على نفوسهم يزعمون أنها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس وبعضهم[2] ويفرقون بين الأب وابنه

---

(١) هذا النص عبارة عن اقتباس من كتاب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» لعبدالرحمن الجبرتى. انظروا طبعة دار الفكر (القاهرة ١٩٦٥– مجلد ٤ – ص ١٨٥).

(٢) ط ٣: بعضهم عن بعض.

والأخ وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التى تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلاً على ويل وحزناً على حزن وخراباً فوق خراب، وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى فى سنة ١٢٦٠ وقص على أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد علي باشا الكبير، قال:

«أمر[1] جنتمكان محمد على بعمل «كورنتيله» بالجيزة فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى وعزم على الإقامة بها إذا اشتد عليه الوهم والخوف من الطاعون لوقوع القليل من الإصابات بمصر، ومات به الطبيب الفرنسوى[2] وبعض من نصارى الأروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيلة وأنها تمنع الطاعون، وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه على الدنيا يصدق هذا الزعم ويغرسه فى نفوس الحاشية وأهل دائرته واتفق أن مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالأبخرة المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطة أنهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر الثياب فى كل وقت، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم، ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الإقامة فليمكث بالبلدة وإلا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا مهلة أربع ساعات فانزعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام وكان ذلك فى وقت الحصاد وللناس مزارع ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ولايخفى احتياج الإنسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا خروق السور والأبواب ومنعوا مراكب المعادى من السير، وأقام الباشا ببيت الأزبكية لايجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد إلى قصره وأوقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة فإذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها

(١) اقتباس من «عجائب الآثار» مجلد ٧ ص ٢١٨ وبعد.

(٢) ط ٤: الفرنسى.

المرسل المقيد بذلك فى طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ويعود راجعاً فإذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضاً بمزراق وغمسها فى الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى وأقام الباشا على ذلك أياماً وسافر إلى الفيوم ثم عاد وأرسل مماليكه ومن يخاف عليه من الموت إلى أسيوط».

(عيسى بن هشام) - اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس فى الأزمان الغابرة - ولا يزال بيننا إلى اليوم بقية منهم- من الأخذ بأسباب التوقى والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بماهيته وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصمت على طرفاً منها وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها.

(الباشا)- قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل وأى ارتباط بين هذا البخور وحمى الطاعون اللهم إلا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن.

(عيسى بن هشام)- لا يفوتتك أن كثيراً من الماهيات والحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الأفراد بالعلم ولبعد تناوله على بقية الطبقات فلما انتشر العلم وأضاء برهانه كشف للناس ما كان مخفياً[1] عنهم وأظهر من العلل والأسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حيرى، فإن كان الناس فى زمانكم يعتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لاشئ يقوى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنوداً لاتدركها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الرماح[2] وعوالى المران ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسم الأشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مرئية للعين فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها.

(الباشا)- وماذا تجدى الوقاية والحذر من القضاء والقدر.

---

(١) ط ٢: مكوناً

(٢) ط ٣: الأسنة.

(عيسى بن هشام)- حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياء، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهر عليه الصلام والسلام فى الحرب بين درعين، وقال الله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، ولطرق الوقاية اليوم أنوا ع مختلفة لدفع هذا العدو الخفى الذى يسمونه «المكروب» وهو دويبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن فى سرعة التولد وكثرة التعدد فى أيسر برهة من الزمن، وهم يتخذون البخور فى الوقاية لينحلّ تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواه.

(الباشا)- لقد كشفت لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى وهل لك فى أن تطلعنى على تلك الآلة العجيبة المجسِّمة للأشياء الدقيقة لأزداد تبصرةً وهدًى بالنظر فى عجائب المخلوقات.

قال عيسى بن هشام – فذهبت به إلى معمل كيمياوى وأريته نقطة من الماء تحت «المكرسكوب» فلما رآها كأنها غدير ورأى ألوف الألوف من الهوامّ سابحة فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قوله عزّ من قائل: «وما يعلم جنود ربك إلا هو» فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعله ذلك الهندى مع العالم الألمانى حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوان فسخر الهندى منه وكسر النظارة إصراراً على الباطل وعناداً للحق، ولما أيقن الباشا بصدق ما قلتهُ وما رآه وأن العلم هزم جنود الطاعون وحطم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات سألنى يقول:

(الباشا)- ومن هو المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطةٍ على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين ***وعلماء الدين***[1]، وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد.

(عيسى بن هشام)- أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم

---

(١) م ش ٥٨: عالم من علماء المسلمين.

بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشط لرؤيتها أحد منهم، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون إلا ما نخر كتبهم من الأرضة ***وما سبع فى حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار فى أمثلتهم من «أكلونى البراغيث»***[1].

* (الباشا) – ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيب بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله الى قدر الله فعد بنا الى مصر إن شاء الله آمنين.

قال عيسى بن هشام– فأجبته إلى سؤاله وقفلنا للرجوع، بعد أن ودّعنا محاسن تلك الربوع.

* * *

** قال عيسى بن هشام – وأقمنا فى مصر مدة وقد أبلَّ الباشا من علته وسقمه، وتمت له العافية والسلامة فى جسمه، فأخذت أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال، من المرض والاعتلال، وأذكر له أن صحة الأبدان، هى ملاك السعادة للإنسان، وأنك لو جمعت نعم العالم للمريض، من مال واسع وجاه عريض، لانصرفت نفسه عنها انصراف الضب عن الماء، والأرمد عن الضياء، والمعمود عن شهىّ الغذاء، وأن خاتم الياقوت فى الإصبع التى ***أصابها دمل***[2]، لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل، وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس، ليهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس.

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ   يجدْ مُراً به الماءَ الزُلالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة، أراه يزيد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة، وتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم فى البؤس ولا يذكر البؤس فى النعيم، وينسى المرض فى الصحة ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم، وقلَّ من يحمد النعماء فى لبسها،

---

(١) «وما سبع... البراغيث» محذوف من ط ٤.

(*) كلام الباشا غير موجود فى المقال الأصلى.

(**) أضيف عنوان «الوباء» إلى ط ٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٥٧، ٨ يونيو ١٨٩٩.

(٢) ط٢: أصيبت بدمل.

ويدرك سعادة الحياة إلا فى نحسها، فهذا معنى من معانى الآية الشريفة: «وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قائماً أو قاعداً فإذا كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا الى ضر مسه»[1]. فسألته عما دهاه، وأذهله عن شكر الله، فأجابنى يقول وهو فى حال الخبل والذهول.

(الباشا)- فيم الهناء بكشف البلاء والضرر، وما انتقلت من خطر إلا إلى خطر

فإنْ أسلم فما أبقى ولكن سلمتُ من الحِمام الى الحمام

ألم تسمع معى بخبر انتشار الوباء فى مصر بعد أن خلفنا الطاعون فى الإسكندرية، فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا فى بلاء وانصرفنا من شقاء الى شقاء.

(عيسى بن هشام)- أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس، يغلب عليك الفزع والوسواس، وإن كنت جربت فى هذه الحياة شدة الألم، ونقت فى القبر راحة العدم، وأن ما كنت تتمناه على دهرك، من الرجوع إلى قبرك، عند اشتداد الكروب، من وقع الخطوب، لم يكن لشجاعة فى النفس تستهين بسكنى الرمس، بل كان لضعفك عن احتمال الآلام، من نوازل الأيام وأراك لا تزال مع صحة الدين، وقوة اليقين، ترهب الموت وتخشاه، وتعتورك الأفزاع والأهوال من ذكراه، وهذا داء فى الناس قديم، عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم.

وخَوفُ الردى آوى الى الكهف أهله وعلم نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن

ولكننى لا أزيدك فى الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوساوس بأحسن من أن اقرأ عليك مقالة اطلعت عليها اليوم فى بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم فى أهوال هذا الوباء فإن أردت تلوتُها عليك ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت.

(الباشا)- هات اسمعنى لا زلت للحق راوياً، وللهدى داعياً.

---

(١) م ش ٥٨: بكلمة «مسه» تنتهى القطعة الأولى من مقال «فترة من الزمن» المنشور فى م ش ٥٨ وبقية المقال جزء من الفصل السابق «الطاعون» (انظروا الهوامش).

(عيسى بن هشام) قارئاً[1]– «إنما النوازل العظيمة والخطوب الجسيمة محك الطباع ومسبار الأخلاق فهى لشدتها وهولها تكشف من الناس ما يخفونه عن الناس وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات فلا تتمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للناظر بما اشتملت عليه ضمائرها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعف ومن فضيلة أو نقيصة ومن علم أو جهل، وهنا يتمكن الباحث فى الأخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقق وهى مجردة أمامه من كل غشاء عارية من كل غطاء.

«وليس فى باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء، فلذلك لا نرى اليوم بأساً من الكلام بشئ عما يجده المستقرىء لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدى هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى».

«فطبقة العامة أناس جبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتفويض الأمر لأقدار السماء وهم لا يعلمون من أمر الوباء ما جراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك والنجاء وليس فى قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم أو يحولهم عن يقينهم ولا فى استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع فى رؤوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر ينجى من المكتوب وأن طب الأطباء يؤجل فى الأجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم، وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد فى عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غَرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح، فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفى أمان من الذعر والفزع وفى ضمان من الوساوس والهواجس وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان وتعهد الأجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع فى مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام «اعقلها وتوكل» لكنهم لا يزالون على كل حال فى صحة من الأرواح وإن أعوزتهم صحة الأبدان.

---

(١) هذا المقال عبارة عن اقتباس دقيق من مقال منشور فى م ش ٢٢١ (١٣ سبتمبر ١٩٠٢) بعنوان «الأخلاق فى الوباء».

«وطبقة الخاصة ونعنى بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لأحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله لهم ولا تفتأ تجرى ألسنتهم فى مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله: «ولكل أجلٍ كتاب»، «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»، «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة»، «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم»، تعالى الله أحكم القائلين، وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مرد منه وأن الإنسان عرضة له فى كل وقت ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو صواعق السماء أو زلازل الأرض أو كان بغصة شراب أو عثرة قدم أو لسعة حشرة وأن نفس المرء خطاه الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته فى كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود:

وما نَفَسٌ إلا يباعدُ مولداً ويُدنى المنايا للنفوسِ فتقرب

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للفناء، وأنه مقيم من دنياه أبداً فى أرض وباءٍ وإنْ لم يكن ثَمَّ وباء:

ما خصّ مصراً وبأٌ وحدها بل كائن فى كل مصر وَبأ

وأن مَن فر من المقدور فعلى المقدور نزل، ومن هرب من القضاء فإلى القضاء رحل:

مهلاً أمِنْ وبأ فررتَ وهل ترى فى الدهر إلا منزلاً مَوْبوأ

وأن من حانت منيته، لم تنفعه تقيته، ومن حل أجله، لم يحمله وجله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماءِ بسُلَّم

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانعٍ يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية والحذر ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها فى حفظ صحة الأبدان وما يقرره أهل صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس اتقاءً لما نُهوا عنه من الإلقاء بالأيدى إلى التهلكة واحتذاءً بما ترسمه ظروف الأحوال وتقضى به أحكام الأزمان ولا يجدون الطاعة لإشارة الأطباء

فى مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً وإن لم يكن من ورائها فائدة فليس فى عقباها مضرة، فتراهم لذلك فى أجلّ مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام بما يرشد اليه من وسائط الوقاية لا سلطة للوساوس والهواجس عليهم ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة فى الجسم السليم.

«وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه فى المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وخلَتْ صدورهم من آيات الله والحكمة قد أخذوا عن الغربيين[1] عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع وتقرير الحقائق وترويض القلوب على التجلد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فتجدهم قد ظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً وأعظمهم خوفاً ورعباً وأكبرهم بلاءً وكرباً، يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دنوّه وهو آخذٌ بتلابيبهم، حلّ الخوفُ مفاصلهم، واستل الرعب نخاعهم، فهم يرون فى كل عودٍ نعشاً لهم ويحسبون كل صيحة عليهم أولئك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجح أحلامهم بل هم على مثل حال المغشىّ عليه من الموت أو الممسوس من الشيطان، يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء فى تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملامسة الأيدى ومخاطبة الناس، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء تحمل أحد المصابين بالوباء جمد دمه وسال عرقه وخمدت أنفاسه والتوت أعصابه وأمسك مَنْ بجانبه يستنجد به ويستغيث ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى، وما أشبههم فى حالهم هذه من الخور والهلع والفزع

(١) ط٣ بعض الغربيين.

والجزع، إلا بمثل أناس قضي عليهم بالإعدام لوقتهم فهم وقوف بين يدى الجلاد والسياف إذا قُدم أحدهم للسيف والنطع مات الذى يليه من الخوف قبل القتل، ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليله ونهاره عساها تجهله كيف اطمأنت به الحال، ومنهم من يبالغ ويغالى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه الأطباء لقتل الجراثيم فهو يشربها ويستَعطها ويدهن بها جسده ويغمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويغسل بها آنية طعامه وشرابه وكلما سمع بزيادة العدد فى المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم، حتى أصبحت أجسامهم مسمومةً وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرة وأناملهم مصفرّة ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا: «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت»[1] اذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل لولا أن هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء، ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ومن أعظم الأسباب فى رأى الأطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم وأصحاب الأرواح السقيمة فى الأجسام السقيمة لهم النكد فى هذه الدنيا ولهم الخزى فى الآخرة».

فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات؟

(الباشا)- ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتنى وأرشدتنى إلا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيطة والحذر لكننى مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء وأرغب فى التخلص من النظر إليهم وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمومنا وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم.

قال عيسى بن هشام-[2] وخشيتُ على الباشا إن أنا تركته فى هذه الحالة غريق أفكاره، وأسير همومه وأكداره أن ينتويه الانتكاس ويعتريه الارتكاس، والنكسة بعد البلة،

(١) هنا ينتهى الاقتباس من م ش ٢٢١.

(٢) م ش ٥٩ (١٥ يونيو ١٨٩٩)، هذه السطور بداية المقال فقط أما بعض الصفحات الأخرى فتدمجها المؤلف فى فصل «حديث عيسى بن هشام» «قصر الجيزة والمتحف» أما بقية المقال فلم يستعملها المويلحى فى فصل «حديث عيسى بن هشام» انظروا الملحق ص.٤٩٦.

شر أدوار العلة، فبادرتُ الى طاعته وامتثال إشارته، فاخترت له من ضواحي المدينة مكاناً قصياً، ومسكناً مرضياً.

***

* قال عيسى بن هشام- واعتزلت بالباشا مدة من الدهر، نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء، من حسن الرضاء بحسن الاكتفاء، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه، وإغماض الجفون على قذاه، مؤتنسين كل الائتناس، بالوحشة من الناس، بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا، وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا.

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوَّت إنسانٌ فكدت أطير

إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك، وإن صادقتهم عادوك، وإن واثقتهم كادوك، وإذا مازجتهم لا تعدم الافتراء، وإذا طالبتهم بحق فإنك لا تسمع الصم الدعاء:

فلو خُبِّرِي الجوزاء خُبْرِي لما طلعت مخافةَ أن تُكادا

حتى لو أنك لم تخالطهم إلا في مجالس أنسهم وصفوهم، ومعاهد لعبهم ولهوهم، لم تجن منها إلا كل ما يبعد وينفر، وينغص ويكدر، تدخلها إذا دخلتها مستروحاً مستبشراً، وتخرج عنها مستقبحاً مستنكرا، فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارة معائب، ومجتمع نقائص ومثالب، ومنابت أكدار، وينابيع أضرار، ولا راحة في الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد، وأبعد الناس عن معاشرة البرايا، أقربهم الى كرم السجايا:

بُعدي عن الناس برءٌ من سقامهم وقربُهم للحجَى والدين أدواءُ
كالبيت أفرد لا إيطاءَ يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواءُ(١)

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب، في مطالعة الأسفار والكتب، من تاريخ وأدب، ومن حكم متينة قويمة، وشتى علوم حديثة

(*) أضيف عنوان «العزلة في العلم والأدب» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٦٨، ١٧أغسطس ١٨٩٩.

(١) في المقالات الأصلية يوجد هذان البيتان في م ش ٥٧ (الطاعون).

وقديمة، أهديه من كل طرف بطرة وأتحفه من كل باب بتحفة، وأتجنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل ويدنى من الكد والكلل، فتارةً أخوض معه عباب البحار، وطوراً أجتاز به سراب القفار، فنرى من يحرق فى البحر مراكبه، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه، ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته، ويشبب بمعشوقته، ثم لا يقعد به ذل الغرام، عن التفاخر بعز الكرام، ولا ينسيه ذكر الهوى مواقف الحتف والردى، فيخلط بالغزل الفخر، ويخاطب خلته من جوف القفر:

إنا محيّوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرامَ الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جُلَّى ومكرُمة ... يوماً سَراةَ كرامِ الناسِ فادعينا
إن تَبْتدِرْ غايةٌ يوماً لمكرُمة ... تَلْقَ السوابق منا والمصلِّينا
وليس يهلك منا سيدٌ أبداً ... إلاّ افتلينا غلاماً سيداً فينا
إنا لنرخص يومَ الروعِ أنفسنا ... ولو نُسام بها فى الأمن أُغلينا
بيض مفارقُنا تغلى مراجلُنا ... نأسو بأموالنا آثارَ أيدينا
إنى لمن معشرٍ أفنى أوائلهم ... قيلُ الكماة ألا أينَ المحامونا
إذا الكماة تَنَحوا أن يصيبهم ... حد الظباةِ وصلناها بأيدينا

ونرى الناقة تطرب تحته إلى مواطنها، وتشتاق إلى معاطنها، فتحن حنينه، وتئن أنينه، وكلما رآها تشكو مثل شكواه، وتصغى بأذنها الى نجواه، وتردد برغائها صداه، وتسعده بترجيعها فى هواه، تأوه وتنهد، وترنم فأنشد:

لقد زارنى طيفُ الخيال فهاجنى ... فهل زار هذى الإبلَ طيفُ خيالِ
لعل كَرَاهَا قد أراها جِذَابَها ... ذوائب طَلْحٍ بالعقيق وضَالِ
ومَسْرحَهَا فى ظلّ أحوى كأنها ... إذا أظهرت فيه ذواتُ حجال
تلوْنَ زبوراً فى الحنينِ مُنَزلا ... عليهن فيه الصبر غيرُ حلالِ
وأنشدن من شعر المطايا قصيدة ... وأَوْدَعْنها فى الشوق كل مقالِ

ثم ننتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة، والوقائع المذكورة، فنرى الدماء تجرى أنهاراً فى الوديان، والمهجُ تسيل انحداراً من مسايل الأبدان، والموت واقفاً يحصد الرؤوس، ويجنى نفائس النفوس، والفارس يمشى فى الصفوف مشية الخيلاء ويطعن برمحه كل طعنة نجلاء، ثم ينشد فى وصف أثرها، وبُعدِ غورها:

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشعاعُ أضاءَها

ملكت بها كفى فأنهرتُ فتقَهَا يرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

يهون علىَّ أن تردّ جراحها عيون الأواسى إذ حمدتُ بلاءَهَا

أو يقول فيها:

أضربُ الضربةَ الفريغَ كفى البا زلِ أحيا له المرارُ مريرا

برسوبٍ يهوى الى ثبرة الما ء ولو أنه أصاب ثبيرا

هدرُها يسكت البليغ ولو زا د على المصعب الأغرّ هديرا

كالقلب النزوع فى القلب لا تنـ ـبط إلاّ الدم الغريضَ الزّبيرا

أسهرته وأهلَه وهى كالمغـ ـمور نوماً تحسّ منها شخيرا

أو يقول فى وصفها أيضاً:

غارت وفارت وألِقَى من يمارسها فيها العمائم أبدالاً من القُلُل

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفئ نارها، ولا يخمد أوارها، إلا وقد غادرت النساء أيامى، والأطفال يتامى، والأموال نهباً منهوباً، والأعلاقَ سلباً مسلوبا، والمدائن خالية خاوية، والقصور بائدة بالية، والحرب ينخذل فيها القوى لأوهَى سبب، وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب، فكم دالت بها الدول ودارت الدوائر وانثلّت العروش وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود، وبساط المجد الممدود، وذلك التناهى فى العظمُوت، والتمادى فى الجبروت، وبعد أن لم يكن يدور فى الوهم سقوطها، ويخطر فى الخيال هبوطها، كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر، إذا نزل القضاء وحم القدر، وكل ملكٍ مهما امتد ظله زائل، وعند التناهى يقصر المتطاول، ثم أدخل به فى مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظ يسلب

الألباب بقوة بيانه، ويخلب العقول بضوء برهانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه، ويقول فى حقارة الغنى وهوانه:

«أيها الناس، والله لدنياكم هذه أهون عندى من عُراق كلبٍ فى يد مجنوم»

«والمخيّرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالكاً أو مملوكاً.

من سرَّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذْ شيئاً يخاف له فقدا

«والحياة الطيبة هى حياة الغنى، والغنى هو القنوع لأنه إذا كان الغنى عدم الحاجة إلى الناس فأغنى الناس أقلهم حاجة إلى الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء:

غنىَ النفسِ ما يكفيك من سدِّ خلّة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

ويقول فى محاسن الأخلاق: «الجودُ حارس الأعراض والحلم فدام السفيه، والعفو زكاة الظفر والاستشارة عين الهداية، وأشرف الغنى ترك المنى وكم من عقل أسير عند هوى أمير ومن التوفيق حفظ التجربة ومن لان عوده كثفت أغصانه ومن لانت كلمته وجبت محبته».

ويقول فى مساوئ الصفات: «الكاذب فى نهاية البعد من الفضل والمرائى أسوأ حالاً من الكاذب لأنه يكذب فعلاً وذلك يكذب قولاً والفعل آكد من القول، فأما المعجب بنفسه فأسوأ حالاً منهما لأنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه والمعجب بنفسه قد عمى عن عيوب نفسه فيراها محاسن ويبديها، وإنى لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب، ويفوته الذى إياه طلب، فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء، وأعجب للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة وفى الغد جيفة، وأعجب لمن يُغفل صبره ويشكو إلى الناس دهره، فإن كان عدوًا سره وإن كان صديقاً أساءه وليس مسرةّ العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة:

ولا تَشكَّ إلى خَلْقٍ فتُشْمته شكوى الجريحِ إلى العقبان والرّخَمِ

«والعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثانى الجد فى طلبه وقد فات».

ويقول في ذكر الحياة والموت: «إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ومع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصصٍ ولاينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى ولايستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجلهِ فنحن أعوان المنون وأنفسنا نصب الحتوف فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شئ إلا أسرعا الكرة في هدم ما بَنَيا وتفريق ما جمعا لمن نسى الموت وهو يرى من يموت»

ويقول في وصف العلماء: «الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ويَعذِره بنقصه في ما فرط منه ولايعذر نفسه في التأخر عن هدايته.

ثم يختم وعظه بقوله:

الديــن إنصافُـك الأقــوامَ كلّهــمُ وأى ديــن لآبــى الحقّ إن وَجَــبَا

والمرء يُعييه قَوْدُ النفس مـصحِبـة للخير وهو يقود العسكرَ اللَّجبـــا

اللهم اكفنى بوائق الثقات ومكائد الأصدقاء»

ثم انتهى بصاحبى إلى مجلس محاضرات بين الأدباء، ومفاكهات بين الندماء، فنقرأ من لطيف بوادرهم، ورقيق نوادرهم، ما ينير ظلمة الفهوم، ويجلو صدأ الهموم.

لفظٌ كأنّ معانى السكرِ تسكنُّـــه فمن تحفّظ شيئاً منه لم يُفِـــــقِ

جَزْلٌ يشجـع مـن وافـى لـه أذنــا فهو الدواء لداء الجبنِ والقلـــقِ

إذا تـرنــم شــادٍ للجبـــان بــه لاقــى المنايــا بلا خوف ولا فـرَقِ

وإن تمثــل صــادٍ للصخــور بـه جادت عليه بعذب غير ذى رَنَــقِ

وهكذا قضيت مع الباشا زمناً ليس بقصير استخرج له نفائس الأعلاق، من بطون الأوراق، وأقتطف معه زهر الأدب العاطر، من حدائق الكتب والدفاتر، إلى أن قال لي ذات يوم، بين ندمٍ ولوم:

(الباشا)- إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الأيام التى أضعتها من سالف عمرى فى مالايجدى ولايفيد من مشاغل الدهر وملاهى العيش ويا ليتنى كنت قصرت

همى منذ صباى على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً، أتنقل من مطالعة الكتب إلى مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء إلى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء إلى مطارحة الأدباء، ويعلم الله أن أسفى ليزيد شدة وأن ندمى ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى عنه فى أيام دولتى عن مجالس العلم والأدب فما كنت آبه بها ولا انتبه إليها، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والردن والحمد لله الذى أرشدنى الى الهدى آخر الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التى حببت إلى الحياة ثانية وهونت علىَّ احتمال متاعبها وما إخالك تبخل على بعد الآن وقد علمت نفع ذلك لى بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد وما أرى من بأس فى أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ومجامع الفضل وأندية العلم لنتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه، وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين.

(عيسى بن هشام)- لا تطمعن أيها الأمير دفع الله عنك المكاره فى مثل هذه المجالس فقد طوتها الأيام ورمستها الليالى ولم يبق اليوم من يأنس اليها وينافس فيها.

(الباشا)- كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدد الطالبين وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابع وإطلاق الأفكار من القيود، وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الأول من تعسر الوصول الى الكتب وتعذر استنساخها لضن أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع بها، إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها فلا بدع اليوم أن يكون فى يد كل مصرى كتابٌ يطالعه وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح فى العلوم والفنون أليف محاضرة وحليف مذاكرة تزدهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف لا يكون ذلك وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنسانى حلاوة كل لذة فى العالم.

(عيسى بن هشام)- نعم شاعت[1] العلوم فى هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ولكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكسد سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الأمور الباطلة والأشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل، والناس اليوم فى حركة لا شرقية ولا غربية قد اشتغل بعضهم ببعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الأدب واقتصروا على مطالعة أخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب، وأنّى يكون لهم الاستقرار فى المجالس وهم لا يستقرون فى مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون عن نقلة وسفر وأكثر ما يكون جلوسهم فى المركبات مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين فى بلاد الأجانب متنقلين فى ديار الغربة للتنزه[2] والتفكه، وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه فى المدرسة وأطرافاً وهو بالسن الذى لم يصل فيه بعد إلى تمام التعقل وكمال الإدراك فيحفظها ويؤديها كالببغاء فان أسعده الحظ فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح الثوب الخلق، ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء وما جف من زاد انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساه من تعب فى درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية فى ذاتها أو يذوق لها حلاوة فى طعمها فإذا هو بلغ إربته ودخل فى خدمة الحكومة أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء وقل فيهم بعد ذلك من يصبو إلى العلم وأهله أو يحن إلى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم للمطالعة فإنها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك فى الأشغال المتجددة، فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب إلا وقد بلله العرق ودهمه الكلال والملال ونزل به الضجر والسأم وإنك لترى مثل هذا بيناً فى حديثهم فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة

(١) م ش ٦٨: ترقت.

(٢) ط٣: للنزهة.

ولا يتبعون فى الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه إلا ما كان منقطعا مبتوراً أو مقتضبا مجذوماً.

(الباشا)– ما أكاد أخليك أيها الصديق من غلوٍ فى وصف هذه الحال، وهل خلا أو يخلو زمان فى البداوة كان أو فى الحضارة من مجالس العلم ومجامع الفضل وأسواق للأدب وما كان زماننا الذى كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمراء ممن لانصيب لهم من العلم والأدب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد أو فاضل أريب أو نديم أديب أو محدث ظريف تتفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلم بعيد التناول فما بالكم اليوم ***على هذه الحال التى تصف والصحف منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة***(1).

(عيسى بن هشام) – قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والأدوات المصنعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلّب فى يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً أو الساعة التى ترن بعدد الثوانى وهو يعتقد أنها أجل قيمة فى العين وأجمل أثراً فى النفس من جميع العلوم التى تستضىء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التى تصفو ساعات الحياة بمطالعتها ولا تتوهمن أننى أجزم لك بخلو هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافل للأدب وما كان كلامى إلا على الوجه الأعم وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع ريبك وليطمئن قلبك(2).

***

* قال عيسى بن هشام– فتخيرت من منتديات اليوم، ومجتمعات القوم، ما يقوم بوفاء العهد، وإنجاز الوعد ليقف الباشا بنفسه على ما يجرى فيها من ظواهرها

---

(1) «على هذه الحال... العلوم المذكورة» غير موجود فى المقال الأصلى.

(2) م ش ٦٨ وأضيف بعد قلبك. ولقد ذكرتك الآن بما فاتنى من وجوب إطلاعك على بعض مجالس اليوم والأندية لتعلم الفرق بينها وبين مجالس أيامكم وستحكم لى بعدم الغلو فى ما قصصت عليك.

(*) أضيف عنوان «علماء الدين» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٦٩، ٢٤ أغسطس ١٨٩٩ وهذا الفصل واحد من الفصول المحذوفة ط٤ (١٩٢٧) ويبدأ المقال الأصلى بتفصيل «المجالس» التى سيزورها عيسى مع الباشا. انظروا الملحق ص ٥٠٩

وخوافيها، ورأيت أن أبدأ منها بزيارة السادة الأعلام، من علماء الإسلام، مصابيح الدين ونباريس اليقين، ونجوم الإرشاد، ورجوم الإلحاد ونصراء الحق وحلفاء الصدق، وهداة كل ضال ومارق، ودعاة الخلق إلى معرفة الخالق، تيمناً بشرف مكانهم وتبركاً بنور إيمانهم فقصدنا مجلساً لهم جمع كل أغر منهم محجل، وكل معظم فيهم مبجل، فوجدناهم قد تبوؤا المقاعد بين المقالم والمحابر وتوسدوا الوسائد، بين المساعط والمجامر، فسلمنا وجلسنا وتكلمنا واستأنسنا ثم أطرقنا نستجمع قوى الإدراك والعقل، لنلتقط ما ينتثر عن أفواههم من درر العلم والفضل، وإذا بهم يخوضون منذ البداية إلى النهاية فى حديث غريب الرواية لطيف الحكاية، فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما يبسطه ويقرره، ويعيده ويكرره:

(أحد المشايخ) – لقد وهمت يامولانا فى زعمك أن امتلاك الأطيان والجسور خير من اقتناء الأبنية والدور، فقد جربتُ كلا الموردين واستقيت من المصدرين فوجدت دخل البناء أعظم ربحاً وأقل خطراً وأثبت حالاً فى تعاقب الصعود والهبوط، لا سيما إذا كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الإفرنج الذين هم أقلّ من المسلمين عيالاً وأخفّ على البناء وطأة وأهون على الدار ثقلاً فلا يدقون ولا يطحنون ولا يعجنون ولا يخبزون ولا يغسلون ولا يستحمون ولا يقبلون عندهم أقارب أو ضيوفاً ولا يملأون البيت خدماً وغلماناً وبهذا ينتفى ما ذهبت إلى تقريره آنفاً من أن البناء سريع العطب متطلب لدوام النفقة.

(شيخ ثان)– ولكنك أيها الأستاذ حفظت شيئاً وغابت عناك أشياء وتسرعت بالحكم على المسألة والقطع فى القضية فأين أنت من بقية الطوارىء والنوازل فى البناء وأين أنت من الحريق والزلازل اللهم إلا أن يكون هناك خروج عن رأى الجماعة ودخول فى مذهب الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الإفرنج وادخار العوض فيها لسد الخسارة عند الخطب.

(جميع المشايخ)– نعوذ بالله من شر البدع ونبرأ إليه من تحليل المحارم.

(شيخ ثالث)– وأين أنت فى الأطيان أيضاً من النداوة والدودة ومن الشرق والغرق؟

(الشيخ الثانى) - من المسلم أن يصيب الأطيان بعض ما ذكّرتنا إياه ولكنها لاتزال بعينها باقية ويرجى فيها أن تعوض سنة خسارة أختها أما البناء فإنه يزول من أساسه بنكبة من تلك النكبات التى تأتيك بغتة وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباء ولا سبيل إلى الانتفاع بأرضه إلا بإنشاء البناء وتجديده.

(الشيخ الأول) - لكم دينكم ولى دين فلست أتحول عن فكرى ولا أنزل عن رأيى فى فضل البناء على الأطيان وقد عولت على بيع المنزل الكائن بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الأطيان المجاورة لأطيانى بناحيتنا لتخلص لى أطيان الناحية كلها.

(شيخ رابع) - أيغرب عنكم بارك الله فيكم أن ربح التجارة خير من هذا وذاك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن سوء العينة المحفوف بالبركة والنمو على الدوام ومن منكم بلغ من الثروة بأطيانه أو أبنيته ما بلغه مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من التجارة والبيع؟

(الشيخ الثانى)- نعم إن التجارة لكما ذكرت لولا ما فيها من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدثه من التلهى عن العلم والدرس.

(الشيخ الثالث) - لقد كان شيخنا المرحوم الذى نحن بصدده يعد من أكابر التجار وأعاظم أهل البيع والشراء فلم تلهه تجارته عن التقدم فى مراتب العلم والتعلق بالمناصب العالية ولم تشغله عن إفادة الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه، وهؤلاء تلامذته ممن تزدان بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم يشهدون على ما أقول.

(الشيخ الرابع) متأسفاً متحسراً:

وإذا السعادة لا حظتك عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلهن أمَانُ

(شيخ خامس) - لكنما الأضمن عندى والأوثق فى هذا الشأن أن يضع المرء ما لديه من فضة ونضار عند من يثق به ويعتمد عليه من خيرة التجار فيشتغل له فى التجارة ويضاعف له الربح والكسب فيأتيه من ذلك، رزقه عفواً صفواً بدون اشتغال فكر أو تعب جسم أو إضاعة وقت.

(شيخ سادس) – لقد فاتنى أن أخبركم بما سمعته من فلان باشا وهو أن الربح كل الربح أصبح اليوم فى مشترى أسهم الشركات وأنه قصر سعيه فى نمو الثروة عليه، ولكن ما قولكم دام فضلكم فى هذه الأسهم وهل يحل التعامل بها أم يحرم؟

(الجميع) – وهذه أيضاً بدعة البدع.

(شيخ سابع) – نعم وإن كانت المسألة خلافية وليس عندى أوثق ولا أضمن من ادخار ذهبى فى صندوقى تحت يدى وأمام عينى يصبح لى سالماً وأبيت عليه آمناً، وعلى ذكر فلان باشا هل عندكم من خبر عن تزويج ابنته من فلان بك؟

(الشيخ السادس) – نعم بلغنى أن الخطبة تمت بينهما.

(الشيخ السابع) – ومتى يكون العقد؟

(الشيخ السادس) – لا تطمعن أيها الأستاذ فى الدعوة لعقد العقد وتناول الهدية ولا يطمعن فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة الكبراء والعظماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصب العالية بيننا حباً فى السمعة والفخفخة فهم يتباهون يوم العقد مثلاً بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف.

(الشيخ الخامس) – الشىء بالشىء يذكر فهل بلغتكم الدعوة إلى عرس فلان؟

(الجميع) – نشهد أن الدعوة بلغتنا جميعاً.

(الشيخ السابع) – نعم ولقد أجلّت سفرى إلى الريف حتى أجيبها معكم.

(الجميع) – أحسنت وأصبت فإن المجاملة تقضى بذلك.

(الشيخ الثالث) – والله لولا أن سعادة فلان باشا دعانى إلى العشاء معه فى هذه الليلة الموعودة وأن فى نفسى قضاء حاجة عنده لكنت معكم أيضًا ولكنى أخاف ضياع الفرصة فقد روى لى سائق مركبتى إن عنده حصاناً عتيقاً هو فى غنى عنه وأنه مشابه لحصانى فى الطول والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بما طفّ من القيمة وخف من الثمن.

(الشيخ الخامس) – ولكن عسى الله أن يكون مجلسه خالياً فى هذه المرة من

.جود مثل ذلك السفيه الذى شوّش علينا مجلسنا حين كنت معك بسوء المجادلة، فإنه خيبه الله كان يحتج علينا فى تحليل التحلى بمصوغات الذهب بأن فلاناً من العلماء يحمل ساعة من ذهب غير ملتفت إلى اختلاف المذاهب فى هذا الباب ولو كان الشيخ الذى سمّاه ممن يهتدى بنور العلم لما جعل لمثل هذا السفيه سبيلاً فى الاحتجاج علينا.

(الشيخ الرابع) – قل ما شئتَ فى هذه الأيام التى اجترأ فيها أرباب الطرابيش على أرباب العمائم بمباحثتهم ومجادلتهم ومناقشتهم ومزاحمتهم لهم فى علومهم وأين نحن من تلك الأيام الماضية وما كان عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم والتزامهم الصمت وحسن الإذعان والتسليم فى مجالس العلماء مع التوقير والتعظيم والإجلال والإكرام لكل من اتسم بسمة العلم حتى كأنه قد كتب على صدر كل واحد منهم نص الحديثين الشريفين: " العلماء ورثة الأنبياء" و"علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " وكيف لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لا تنهل العين بالدم دون الدمع وهؤلاء المتمشدقون لم يكتفوا بالإقدام على مجادلة العلماء بل أقدموا على تجهيلهم فى العلم وسعوا فى إدخال بعض العلوم المحدثة المبتدعة فى حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين الذين لا يكترثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم فانظروا إلى أين وصلت بهم الجراءة والوقاحة؟! على أن علومهم هذه ليست بنافعة فى الواقع ونفس الأمر وما هى والعياذ بالله إلا مدرجة للزيغ ومزلقة عن الصراط يستدرجهم الشيطان بها من حيث لا يشعرون وأنتم تعلمون أن فى معرفة قواعد الحساب الأربع مثلاً ما يغنى عن التبحر والتعمق كما يفعلون فى علم الحساب ليتدرجوا بالطالب إلى علوم الفلسفة الممقوتة ويبعثوه على الزندقة والإلحاد وقانا الله كيد الخائنين ومكر الماكرين.

(الشيخ الثالث) – وعندك من هذه العلوم أيضاً علم التاريخ فإنه عبارة عن الاشتغال بالأقاصيص والأساطير ولا بد أن يجر صاحبه إلى الخوض فى سيرة الصحابة رضى الله عنهم وما وقع بينهم من الحروب مما نهى الشرع عنه بنص الحديث: "إذا أفضيتم إلى ذكر أصحابى فأمسكوا" ويكفى من هذا العلم كله أن يحيط المرء بما جاء فى "السيرة الحلبية" وحدها.

(الشيخ الثانى) - خبّرونى ناشدتكم الله ماهو هذا العلم من علومهم الذى يسمونه «الجغرافيا»؟

(الشيخ الثالث) - هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ولو كان قاصراً عندهم على ذلك لما كان ضاراً ولا نافعاً ولكن ضرره عظيم ومغبته وخيمة بما امتزج فيه من نسبة الدوران للأرض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى يكذبها العيان ولايقوم عليها البرهان مثل زعمهم أن مطر السماء من جوف البحر وأن السحاب أبخرة متكاثفة وأن الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينافى العلل المعروفة المعقولة بيننا ويناقض ما رواه كعب الأحبار من أن السحاب من ورق الجنة وأن الرعد صوت ملك يسوق السحاب وأن البرق لمعان حربة بيده، وأين هم حسبهم الله مما رُوى عن ثبات الأرض وأنها محمولة على قرن ثور والثور محمول على صخرة والصخرة على ظهر حوت سابح فى الماء وأن أول ما يأكل أهل الجنة من كبد ذلك الحوت؟

على أننا لو طالعنا كتبهم التى يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والأواخر بزعمهم ووصلوا بها فى علم تخطيط البلدان إلى مَا لم يصل إليه سواهم بدعواهم لوجدناها عاجزة فى الإحاطة والإفادة عما بلغته «خريدة العجائب» وحدها للإمام ابن الوردى فإننا لم نسمع أنه ذكر فى كتبهم من عجائب المخلوقات مثل ما ذكر منها فى الخريدة كبلاد «واق الواق» التى يثمر ثمرها بالكواعب الأتراب معلقة من شعورها فى نوائب الأغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت: واق واق، سبحان الملك الخلاق، ومن مثل ما ذكر فى «بدائع الزهور ووقائع الدهور» عن الشيخ حامد أنه بلغ فى رحلته منبع النيل بعد أن عبر إليه البحر الأسود على ظهر دابة تعبد الشمس فإذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أتت إلى ذلك الشاطئ ولاتزال دائرة مع الشمس حتى تصل إلى الشاطئ الآخر، وقد رأى الشيخ حامد النيل يجرى فى ذلك البحر كالخيط الأبيض فى الثوب الأسود ووجده يخرج من قبة من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف وأن ماءه هناك أبيض من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهى سيحون وجيحون والفرات، فهل وصل القوم إلى معرفة مثل هذه الحقائق فى بدائع المخلوقات إلى اليوم وهل عندهم من أثرٍ لذلك فى كتبهم المحدثة وعلومهم المبتدعة؟

(الشيخ الرابع) – تالله إنا لفى زمن أصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر فى جانب هذه البدع الإفرنجية «ومن يضلل الله فما له من هاد».

(الشيخ الأول) – اذكروا لى بالله عليكم ماذا حصّل طلاب هذه العلوم الجديدة منها وماذا أفادوه وهل سمعتم يوماً أن أحدهم نفع الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشية على شرح أو تقريزاً على حاشية أو اختصر مطولاً أو طول مختصراً.

(الشيخ الثانى) – ما أعجزهم عن مثل ذلك وأقصرهم وجل ما فى طاقتهم أنهم يكتبون المقالات فى تعييرنا بإضاعة العمر فى هذه الأعمال النافعة ويسعون جهدهم فى إبطال ما ندرسه منها وهل سمعتم لعمر أبيكم بدين قام أو يقين رسخ أو شرع نفذ إلا بهذه الشروح والحواشى؟ ولكنهم لما قصرت أفهامهم وضاقت قرائحهم عن استيعابها وحفظها حسدونا عليها فأرادوا أن يحطوا من هذه المزية الكبرى حتى لانمتاز عليهم بفضل ولله در القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ فالكل أعداءٌ له وخصومُ

(الشيخ الثالث)– صدقتَ صدقتَ وما أحكم قول الآخر:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحـــــاً وآفتُهُ من الفهم السقيـــمِ

(الشيخ السادس)– اطووا عنا هذا الحديث ولاتشغلوا أوقاتكم بالكلام فى أولئك الثرثارين المتفيهقين فلهم كتبهم ومدارسهم ولنا علومنا ودروسنا والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة.

(الشيخ الخامس)– كان يجوز لنا السكوت عن منكرهم لو لم يتعرضوا لنا ويعرِّضوا بنا فى ما يسمونه بالجرائد فيملؤوها بالانتقاد علينا والقدح فينا ويتطفلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم برعوا فى فصاحة الوعظ والإرشاد ونبغوا فى جميع العلوم وسبقونا إليها، وإنما الجرائد أيضاً بدعة من البدع وفتنة من الفتن ولو شئنا لكتبنا وأملينا.

(الشيخ الرابع) – ومع ذلك ففى كثير ممن طلب علينا العلم وسولت له نفسه الكتابة فى الجرائد من قد فاقهم فى طريقتهم وبذهم فى ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ

فلانَ ذلك النابغة الأزهرى قدم إلى بالأمس مقالة مطبوعة له فى الجريدة من أبلغ ما كتب الكاتبون وأفصح ما نثر الناثرون لايمكن لأحد من أهل الدعوى أن يتعلق بغبارها أو يجرى فى أثرها والجريدة فى محفظتى فإن أردتم أن أتلوها عليكم فعلت لتعلموا أن ليس لأولئك المغترين من فضل علينا ولا مزية دوننا.

(الجميع)- أسمعنا أسمعنا.

(الشيخ الرابع)- يقرأ:

«عوامل الفتح الإلهى طراءة التأثير بحكم باعث اعتدال راعٍ فى رعيته ومرعى مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو إلى حفظ مزاج الجامعة من طوارئ الكوارث الدهرية التى إذا دعاها داعى التفرق والانقسام تلبيه حيث هى النتيجة من مقدمات الاعتساف الذى هو مهد التخالف وبساط عدم التآلف وكان الإنسان بحكم نشأته ميالاً إلى أقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة لابد لها من أمرين:

«فالأمة هى منزل الكمال، ومحتد الجمال، ومربع الإمارة، ومطمح الإشارة، ومقصد العبارة، ومورد المحافظة، ومسند المحاضرة، وسجل المناظرة، وكمال الناقص، ومرتغب الشاخص، وهى الرباط الأقوم، والحفاظ الأنظم، فيها كل خير، ولها كل نفع وعليها كل ضير، ذات الحق، وحليفة الصدق».

«وإنى ليدهشنى وقعاً ويذهلنى صدعاً أصل جامع وأثر نافع ما نطقت به ألسن الحكمة من سوالف العقلاء المفكرين وذوى الدراية المتوغلين وهو: «أن مبادئ تلاشى الأمم تخاذل عقلائها» أجل أجل، إن هذا الأمر أدعى إلى لمح السوانح الفكرية والمسابقة فى مضمارها حتى يتبين طريق التلافى لأضرار التلاشى وذلك أن تخاذل العقلاء يفضى إلى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم أمة البساطة فيسود الإيغار وتحف مراكز العمران بالأخطار ويتنفس فيها مصدور الأكدار بزفرات هى مبدأ كل دمار وتتولد الضغائن بين الحميم والخليل والوكيل والأصيل فيمسى الحال بخيبة المآل إن لم تتوفر شرائط الاعتدال، ثم والعقلاء فى كل أمة هم أركان مجدها وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعيار أقدارها ومصفاة أدرانها ومشكاة أفراحها فالاتحاد بينهم أقرب منه فيما بين غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه إلى حد التخاذل الذى

هو أسس المبادئ العقيمة، والمواجيد السقيمة، والعوامل الكليمة، والضرورات الأليمة والبسطاء تباع فيما يسنونه لهم من قوانين التزلف والإذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوانين الحكمة والمدنية إن كانوا متعاقدين متحدين وللناس قلوب يفعلون بها سوانح الفكر، في سبحات الذكر، وشطط النظر، ونوال الوطر، ولهم آذان يسمعون بها منادى الحق، في نادى الخلق، بنشر الرق، الذى هو لوح الاعتبار، ونظرة النظار، وصفوة الأخبار، ومرتغب السباق، ومصطبر الأشواق، وبرنامج المجريات، وممثل الأحقاب للأعقاب وحافظ ما مضى لما هو آت».

«بنى وطنى من الأسف والاستغراب أن الأجانب أصبحت وأمست تدعى أنها متأسية بمهيع السلف من مراعاة الشريعة فى جميع الأطوار وأن بيننا وبين التأسى بها لوناً بعيداً وأمداً مديداً، نعم هذا الإدعاء وإن كان ليس بواقعى إلا أنه أجدى ثمرة وأمراً يجب علينا أن نتنحى عنه وإن كان ليس مقصوداً للأجنبى وحقاً له أن يدعى لأننا معاشر الوطنيين لو لم نتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت كلمتنا وضعفت قوانا وساءت حالتنا وأصبحنا فى حالة يرثيها الراثون فلا حول ولاقوة إلا بالله، أين المتمسكون بالشريعة أين الغائرون أين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها مرتعاً ومحطاً لرجال الأرجنبيين؟! أى فرق بيننا والحالة هذه وبين العجم إذا لم نتأثر من هذه الأحوال والدواعى التى تصادمنا كل حين وأى داعٍ يدعونا للانتقاد على الأجنبيين فى أعمالهم التى يحدثونها لغرض سياسى من الأغراض».

«كلا، ثم كلا إننا مذ تناءينا عن الجرى على النمط الشرعى ألمت بنا الشوائب اللأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه أو كرجلٍ أعمى ألقى به فى الفلوات فأمّته الأسود، فهذه حالتنا المأثورة التى بها تقاعدنا وتقدم الأجانب».

«إننى بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الأمة من أيدى الغير عند ما يريد المساس بها والدخول فى أحوالها الشخصية االتى لاتعلق له بها بأى حال من الأحوال وإليكم البيان المسألتان اللتان مضتا ورفت بسببهما أستاذنا المفضال حين ما قام يساعد صاحب السماحة لخدمة الوطن الحقّة فاتحدا ولولا ذلك الحل ما حل بأهل الأندلس وزاد الطنبور نغمة فسبحان مدبر الأحوال» انتهى والله أعلم.

(الشيخ الأول) – ما شاء الله لا قوة إلا بالله لقد أحسن وأجاد، وأعمى عيون الحساد.

(الشيخ الثانى) – صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من البيان لسحرا».

(الشيخ الثالث) – نعم إن هذا لهو السحر الحلال، والعذب الزلال.

(الشيخ السابع) – تبارك الله ما أبلغ وأفصح، وأبين وأوضح.

(الشيخ الخامس) – بارك الله فيه، فلقد نثر الدر من فيه.

(الشيخ الرابع) – ألم أقل لكم إننا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا إلى الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخرسنا كل ناطقٍ وأزرينا بكل كاتبٍ وناثرٍ ولكن ليس من الحكمة أن نبذل الجوهر لمن لايعرف قيمته ولا الوعظ لمن لايراعى حرمته.

قال عيسى بن هشام– وما وصلنا من المجلس إلى هذا الحد، حتى قام الباشا يزمجر كالأسد الورد، وجذبنى بيده للقيام، من غير إذن أو سلام، فخرجت معه وهو يوالى الحسرات، ويتابع الزفرات، وينشد معى فى أهل هذا المجلس الأول، قول الأول:

مـا فيهـم بَـرٌّ ولا ناسـكٌ   إلا إلـى نفـعٍ لـه يَجـذِبُ
أفضـلُ من أفضلِهم صـخرةٌ   لاتَظلمُ النَّـاس ولا تكذِبُ

***

(*) قال عيسى بن هشام – واستنهضت الباشا أزور به مجلساً من تلك المجالس المعدودة، والأندية المعقودة، مجلس الوجهاء والتجار، بعد مجلس العلماء والأحبار، فشهدت منه ازوراراً وانقباضاً، ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً، ثم التفت إلى يعاتبنى عتاباً شديدا، ويوسعنى عذلاً وتفنيدا، ويقول لى ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخير لى تريده، والنفع تبدؤه وتعيده، وما زلت أشكر لك تلك اليد البيضاء، فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء، دفعاً لما كنت تحذر وتخشى، من شر الخاتمة وسوء

(*) أضيف عنوان «الأعيان والتجار» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٧١، ٧ سبتمبر ١٨٩٩.

العقبى، بتزاحم الأحزان، وتراكم الأشجان، وما تعقبه من السقم والاعتلال، وسوء النكسة بعد النقه والإبلال، فما بالك تستنهضنى إلى مثل هذه المجامع ***والمجالس***[1]، بعد الذى رأيناه فى مجلس أصحاب القلانس والطيالس، ذوى العلم والتقى، وأهل الرشد والنهى، مما تنوب له العيون الجوامد، وتتفجر عنده صم الجلامد، ويغضب له أهل الإسلام من المشرق إلى المغرب، ولايرضى به صاحب العرش فى السماء ولاصاحب المقام بيثرب، وقد شاهدتنى يكاد يصيبنى التلف، من شدة الحزن والأسف، فقلت له: أشهد الله ما أبغى لك إلا الخير والتوفيق، فى كل مذهب وطريق، وقد رأيت التجارب أوسعتك كرماً وحلماً، وصروف الدهر أكسبتك معرفة وعلماً، بعد قلة الاختبار، وكثرة الاغترار، وسوء الابتدار، فى الإيراد والإصدار، وما كان فيك من خشونة الملمس وشموخ الأنف وضيق العطن وصلف الرأى، وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس إلا مشهداً يسلى عن الكرب، وملعباً يفرج عن القلب، فلا يكن نظرك إلى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم، وفى أفراحهم وأتراحهم، ونعيمهم وبؤسهم، ورجائهم ويأسهم، مثل نظر الحكيم «هيراقليط»، بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط»، كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكى ويتحسر، وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر، فإذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه:

الناسُ من دنياهمُ فى مأتم ... فالسُّحبُ تبكى والرواعدُ تندبُ

أنشد الثانى فى تأييد مشربه:

هذى الحياةُ روايةٌ لمشخّصٍ ... فالليـلُ سِـترٌ والنهـارُ الملعـبُ

ومن صواب الرأى أن لاتذهب نفسُك عليهم حسرات، ولاتذرف عينك من أجلهم العبرات، وهلم معى أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك، ويكشف من غمتك، فأسلس مطاوعاً فى القياد، ووافقنى على ما تبين له من الرشد والسداد، فيممت به داراً عالية الجدران، واسعة الأركان، شائقة البنيان، لأحد التجار الأعيان، فزاحمنا عند الباب

---

(١) م ش ٧١ وأضيف بعد المجالس. وهى على خلوها من العوائد والفوائد وبعدها من علو المطالب وسمو المقاصد ينقبض منها الصدر ويفقد عندها الصبر ويكسف لها البال ويكثر فيها الهم والبلبال.

سائس يسحب فرساً مصحباً مطيعاً، ويحمل على كتفه طفلاً رضيعاً، يقول وقد أظهر الغيظ بواطنه الكامنة: لست أدرى والله أسائس أنا أم حاضنة؟، ومن ورائه آخر يحمل صفحة متدفقة بالمخلل، يقول وقد تلوث بمائها وتبلل: علام أتعب فى هذه الدار وأشقى، وإلام يدوم هذا الشقاء ويبقى؟ ولست أدرى والله أسائق أنا أم سقا؟ ولما ولجنا الباب، إذا بالبواب، يقول وفى يده صرة ثياب: لامرد للمقدور والمقضى، ولا رجاء فى العيش الرخى، ووالله ما أدرى أبواب أنا أم خصى؟ ولما جاوزنا دهليز المكان، إلى باب الإيوان، وجدنا عنده غلاماً فتى السن، يتنهد ويئن، وبين يديه دخان وورق، وبجانبه كتاب مطبق، وهو يقول: عجباً والله للوالد يشغل ابنه بسجارات يحشوها، فيلهيه بها عن دروس له يتلوها، لاغرو إن فاضت العيون بسواكبها، واحترقت القلوب بلواهبها، فما أدرى والله أفراش الدار أنا أم ابن صاحبها؟ فما أحس بنا حتى انتفض قائمًا، وتقدم مسلماً، ثم ذهب أمامنا، ليذكر قدومنا، وإذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ فى مشيته، ويتعثر فى جبته، فسهل بنا ورحب، وبالغ فى التحية وأسهب، ودخل بنا على أهل مجلس مختلفى الأزياء والهيئات، متباينى الأشكال واالسمات، فمن صاحب عمامة يتعهد بيده رصفها، وآخر يجدد لفها، ويحبك بالإبر طرفها، ومن صاحب طربوش قد أماله على جبينه، فإذا تحرك أسنده بيمينه، فترى يده أبداً لاتسكن ولاتستقر، كأنما هو فى تأدية سلام مستمر، ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو واللغط، وسمعناهم يتحاورون على هذا النحو والنمط:

(أحدهم)- نعم لابد من ذلك إذا يسر الله وتم الاتفاق مع الخواجة فلان فإن إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لايمكن أن تأتى بها الأشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً فقد أصبحت الآن ولانفع يرجى منها وتوكل على الله فى الاشتغال معنا بالأبنية فهى أنجح وأربح.

(الثانى) - ومن أين لى زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدنى على هذا التوسع والحال على ما تعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل.

(الأول) - لاتقل هذا أيها السيد «وأما بنعمة ربك فحدّث»، ودعواك ضعف الحال إن هى إلا تواضع منك والله يزيدك فضلاً على فضل.

(الثانى) – استغفر الله يا سعادة البك هذا حسن ظن منك وإلا فالحقيقة غير ما ظننت وقد قلت لك أن الستر هو الغنى الكامل وعلى كل حال فالبركة فى التجارة فمنها كان رزق الآباء والأجداد، وربح مستور أبرك من ربح مشهور.

(ثالث)– تالله إنكم لفى ضلالكم القديم وهل بقى فى التجارة التى زاحمكم عليها الأجانب ربح يذكر أو رزق يطلب فاتركوا هذه السفاسف وعليكم بأشغال الأقطان فى البورصة فهى الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلا كدٍ ولا تعب وكم رأينا من فقير ولج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا لصاحبنا الخواجة فلان اليهودى وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحارة قد مارس تلك الأشغال فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفعهم حالاً ونحن لانزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام رحمة الله عليهم.

(رابع) – ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لايخفى عليكم، وهل تريدون أن ينزل أحد منا بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر.

(الثالث) – حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدى وإنما أردت أن أبين لكم أن هذا اليهودى دخل البورصة سمساراً لايمتلك مالاً فأصبح من كبار الأغنياء فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة، لاشك أنه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه.

(خامس) – ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العماد الرفيع وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض «فالله خير حافظاً».

(سادس) – أما أنا فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وكفانى تأديباً ما تكبدته من الخسائر فى ***تلك المضاربات على الأقطان ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب***[1].

(الثالث) – لا حول ولا قوة إلا بالله إنك لا تهدى من أحببت كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان وتتوقعونها والربح فيها مضمون ***مع بعض الانتباه لمجرى***

(١) م ش ٧١: فيها والحمد لله على النجاة منها.

الأخبار وحسن التخمين فى الإحصاء وتقدير المحصول والمطلوب التسليم ومع القليل من الممارسة والجراءة فى العمل[1].

(سابع) – كيف تدعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته فما زال يهوى فى بحر البورصة حتى وصل فى الخسارة إلى القرار وإن كان لايزال ظاهراً فى أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجم.

(ثامن) – سبحان الله، ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ثم لايلبث أن ينكشف الحال عن القلة والضعف فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدر بألوف الألوف ثم يظهر الخفى ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة؟

(الخامس) – نعم صدقت ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرنى فى كل مجلس عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر منى مالاً وأعظم ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية فلما توفاه الله انكشفت الحال ولم يرث عنه أولاده ما يكفى لبقاء بيته مفتوحاً وبقاء اسمه مذكوراً وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنى الدائم.

(الرابع) – دعونا بالله من ذكر الأولاد والمواريث فإننى كلما تذكرت أخلاق أبنائنا فى هذا الزمن ورأينا ما وصلت إليه ثروة فلان وما انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضنك بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً فلايزورون له قبراً ولايطلبون له رحمة، هان علىَّ أن أنفق ما فى حوزتى فى حياتى وأن أتمتع بأموالى فى مدة عمرى.

(الخامس) – ***معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا***[2] وما فائدتنا فى هذه الدنيا إذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا ونترك لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا،

---

(١) م ش ٧١ مكان نص ط١: وأنا أحسب لكم حسبة صغيرة تقنعكم بتكثير الأرباح وتأكيدها كما تقنعون بأن الواحد نصف الاثنين فإذا فرضنا مثلاً أن محصول القطن فى عام يبلغ كذا قنطراً والمطلوب تسليمه كذا قنطراً أتت نتيجة بالعجز عن التغطية فتعلو الأسعار وعلى أى حال فما دامت هذه الوزارة فى مركزها وهذه الحكومة فى أيدى من هى فى أيديهم ويبقى قدم الإصلاح ثابتاً راسخاً بيننا فلا يخشى مطلقاً من نزول الأسعار.

(٢) م ش ٧١٠ هذه الجملة غير موجودة فى المقال الأصلى.

ولاتجعل الذنب كله على الأولاد فى تبديد المواريث بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً والاسم مذكوراً ولايحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها إلى....

(السادس) - لا مؤاخذة يا سعادة البك فى مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل فى وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء أصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم.

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التى وقف بها المرحوم فلان فإنه خصص جانباً من الريع لذريته واشترط أن يحفظ الباقى ويدخر وكلما تكوّن منه مبلغ عظيم يشترى به عقار ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصلى ليكون فى نمو متواصل على توالى الأيام وصروف الحدثان وبذلك يصير البيت فى درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه فى أيام حياته فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة.

(الثالث) - ليس ذلك من الحزم فى شئ ولكنه التغالى فى البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ولقد حرم المرحوم نفسه من التمتع بماله فى حياته وحرم أولاده منه بعد موته ***بابتداع هذه الطريقة الغريبة فى شروط الوقف***[١].

(الأول) - أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة فمن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقتراً قد والله عاشرتُه الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها، وما كانت مائدته لتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج وحق جدك وإنما كان الرجل حازماً لاينفق ماله إلا فى الوجوه النافعة.

(الثانى) - لا اعتماد عندى فى هذا الباب على الوقف أو الملك وخير ما يدخره الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس وأن لايعودهم فى حياته الإنفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار.

---

(١) م ش ٧١: هذه الجملة غير موجودة فى المقال الأصلى.

(الأول) - وهل جاءتنا المصائب في أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيب إلا ما شئت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ولقد أدهشنى فلان بالأمس وأضحكنى فى شكواه مر الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم فى المدارس والمجالس إذ قال لى فى حديثه: ما زال يزيد فى تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة فأصبح لايكلم أهله إلا بالرطانة ولايعرب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ولايرضى عن شيء فى البيت فإذا جاءوا له بالماء قال فيه المكروب وإذا أتوه بالخبز والجبن قال على بالمكرسكوب ثم ترى الشقى يقسم الأطعمة أقساماً فيقول البيض واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لاينفع ولايمرى وأن الأرز وما شابهه من «المواد النشائية» لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد فى الجسم وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الأعضاء وأن الفواكه لابد أن تؤكل من ساعتها إذا تشققت وخصوصاً البطيخ لأنه أسرعها قبولاً لتولدالحيوانات السامة وهلم جرا حتى حير الخبيث أهل البيت فى طعامه وشرابه فوق ما حيرنى فى اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه وكلما عارضته فى شئ شمخ بأنفه استكباراً ولوى عنقه استحقاراً وسخر ى لجهلى وفخر على بعلمه، هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس يتعالون على آبائهم ويعيرونهم بجهلهم بعد أن كان الولد كالبنت البكر فى الزمن الماضى لايرفع طرفه فى وجه والده حياءً ووجلاً وكان لايجرأ على مكالمته إلا مجيباً عن سؤال من صغره إلى كبره.

(الثانى) - ولكن فاتك أن تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يغتفر لها كل ذنب وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب ويا ليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم إلى تعليمنا فى المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان، فما العيش إلا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقداً وذهباً خالصاً دفعة واحدة سالمة لأيديهم بلا مطل ولاتسويف فى مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الأعظم منها فى المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما فى قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء، ورأس المال فى ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب فى المدرسة، فأخبرنى حينئذ أى ربح فى التجارة

وأى شأن لها يوازى هذا الربح وهذا الشأن فى خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة.

(الرابع)- كل هذا معلوم ومسلم به ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنت تعلم حال القابضين على زمام المعارف[1] فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال فى نفقاتها ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة مثل ابنى فإنه ***لم يزل يتردد على أبواب الحكومة فى تطلب الوظيفة والوظائف مشحونة ونظار الحكومة على ما تعهدهم من ضعف الهمة***[2].

(السادس) - عسى الله أن تتبدل الأحوال وتسقط هذه الوزارة[3] ***ويمن علينا برجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن***[4] فترى حينئذ كيف يكون تقدم أبنائنا فى المناصب.

(الخامس) - حقاً إذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك إلى الوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الأوقات وأنا أرجو أن لا تنسى ابنى عند السعى لأنجالك فقد كان معهم فى مدرسة واحدة وهو دائماً يطالع الجرائد ويترقب الحوادث التى يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة.

(الثامن) - أراكم تخبطون فى أمر أولادكم على غير هدى، والأصوب عندى أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم، وأما من جهة حفظ المواريث فى أيديهم بعد مماتنا فأحسن الطرق أن لانقتر عليهم فى النفقة أثناء حياتنا وأن لانتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ليتمرنوا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم فى اتساع تجارتهم والتفنن فى أبواب المرابحة، وقد جربت ذلك فى أولادى وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح إن شاء الله.

---

(١) م ش ٧١. المدارس، ط٣ التعليم.

(٢) م ش ٧١ مكان «يتردد على أبواب... ضعف الهمة»: إلى الآن بلا خدمة لما تعلمه أيضاً من حالة القابضين على زمام الحكومة.

(٣) ط٤- النظارة.

(٤) م ش ٧١ مكان «يمن علينا... أبناء الوطن» ويبدلنا منها بوزارة وطنية.

(السادس)– هل جاءت جريدة اليوم؟

(صاحب البيت) منادياً لابنه– ائتنا بالجريدة واقرأها علينا.

(يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشراً لها).

(الأول)– اقرأ لنا من الأول.

(الغلام) قارئاً– «الحرب»[1].

(السادس)– هل وقعت الحرب؟

(الغلام)– ليس يتبين ذلك من أول المقالة.

(السادس)– اقرأها من آخرها.

(الخامس)– اتركها من أولها إلى آخرها واقرأ فى «المحليات» فلا فائدة لنا فى وقوع الحرب أو اجتنابها.

(الغلام) قارئاً– «تأليف الشركات»[2].

(الرابع) للسادس– لايذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنا تكملنا فى تأليفها منا لمشترى الأطيان *المطلوبة من الحكومة*[3].

(الخامس) – إن شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة.

(الثالث) – مَنْ أعضاؤها ومن الرئيس؟

(السادس) – أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان.

(الثالث) – معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان فى شركة وهل نسينا ما وقع منه؟

---

(١) م ش ٧١ الحرب بين إنكلترا والترانسفال.

(٢) م ش ٧١: مكان كلام «الخامس» و«الغلام»: (الخامس) ما هى فائدتنا من قراءتها ومن وقوع الحرب؟

(السادس): غفر الله لى ولك، ألم تعلم أن فائدتنا منها عظيمة فقد سمعت عنها كلاماً كثيراً فى المجلس العالى ويستنتج من أن وقوع هذه الحرب يشغل الأجانب عنا وتضعف يدهم فى الضغط على حكومتنا فتنطلق الأيدى وتتقلب الأحوال.

(٣)م ش ٦١ وأخذ امتياز مساعدة هذه الوزارة المنتظرة.

(الثانى) – وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى ما لم أكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم.

(السابع) – وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت أسهمى فى التأسيس أكثر من فلان.

(الأول) – وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً علىَّ فى شركة أبداً.

قال عيسى بن هشام– واشتد بينهم الجدال والخصام فحملقت العيون وعبست الوجوه وتحركت الضغائن وثارت الأحقاد، ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى، مالا يضمره القرن لقرنه فى ساحة الوغى، فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج بعضهم فى بعض، ***كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض***(١).

***

* قال عيسى بن هشام – وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية، وذوى السياسة والدراية، ممن بيدهم حل الأمور وعقدها، ويملكهم شقاء الأمة وسعدها، الناشئين فى مهد المعارف والعلوم، والنابغين فى أشتات المنطوق والمفهوم، والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم، والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهب الخطوب الداجية، وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية، فوصلنا إلى دار يزهر بياضها، ويبهر إيماضها، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها، وخلعت عليها الزخارف جلبابها، فسار بنا الخدم إلى حجرة فى جانب الساحة، أعدت للانتظار والاستراحة، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان، فرأسه كُرة والكرى صولجان، فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه، انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه، فسلمنا فسلم، وهو يتثاءب ويتلعثم، فتخيلناه من ظاهر جملته، وبساطة هيئته، أنه صانع من الصناع، أو تبع من الأتباع، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام، أنه نو رحم فى البيت وذو مقام، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول، بعد أن ذهب الخادم

---

(١) م ش ٦١ هذه الجملة غير موجودة فى المقال الأصلى.

(*) أضيف عنوان «الحكام والرؤساء» إلى ط٣، و«أرباب الوظائف» إلى ط٤ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٧٢، ١٤ سبتمبر ١٨٩٩.

مستأذناً في الدخول: قبح الله الخدم، فهم نقمة من النقم، شرهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناءُ بهم ليس له آخر، فكم أغضبوا حليما، وآنوا كريما، وكم كسروا الصحيح، وخلطوا الصريح، وكم ارتكبوا جرماً وإثماً، وجاءوا إفكاً وظلماً، وكم افتحوا الأغلاق، واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاق، وأذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله، وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهم في الدارين، فقد ذقت منهم الأمرين، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة، إلى ما لايحمد من الجفاء والقطيعة، وابني حرسه الله ينظر ويغضي، ويتحمل منهم ما لا يرضى، وهم يتجنون علينا وينتصرون، وإذا أمرتهم بأمر لايأتمرون، ويشهد الله أنني كلما رأيت مال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد، وثقته بهم تتضاعف وتتجدد، ذاب الفؤاد فسال من العيون، مشوباً بماء الشؤون، وأما وكيل البيت وما أدراك ما الوكيل، فحسبنا الله ونعم الوكيل، فتى لاتخطئ في النفاق مخيلته، ولاتطيش في البيت حيلته، دأبه المكر والخدا ع، وديدنه الشقاق والنزا ع، يرضى طفلا، ليسخط كهلاً، ويتملق للجارية في الحرم، وللوصيف من بين الخدم».

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر. ويتأفف ويتحسر. فلم ينقذنا من هذه الشكوى التي تصم الآذان. إلا رجوع الغلام بجواب الاستئذان. فانتهينا من شقشقة لسانه. وحمدنا الله على كرمه وإحسانه. ثم اقتفينا أثر الغلام إلى حجرة بادية الرواء. مضيئة بالكهرباء. مفروشة بأثمن فراش. وأبدع رياش. على اختلاف في الأجناس والأنوا ع. وتباين في الأشكال والأوضا ع. فالتحفة الشرقية. تقابلها الطرفة الغربية. وآنية الذهب. تضارعها آنية الخشب. فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء. من الرؤساء والوكلاء. فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر. ونجني من أدبهم ما يحلو من الثمر. ودونك بعض ما اقتطفنا وجنينا. وسمعنا ووعينا:

(أحدهما)- نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا فإن في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا.

(ثانيهم)- ما أبعد ما ترمي وما أسرع ما تحكم فهلاً نبئتنا لله أبوك كيف ترتيبك لهذه القضية واستقراؤك لهذه النتيجة وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسوية ونصرة حزب الجيش عليها.

(الأول)- أراك لست بعويص الرأى فى السياسة ولا ببعيد الغور فى استخراج النتائج، ألا تعلم - لا زلت مسدّداً - أن فى انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا إلى الملكية أو الامبراطورية أو القنصلية فتأتينا بمثل أولئك الملوك والقوّاد الذين دوخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول وأصبحت لهم الكلمة العليا على أهل البسيطة فلا يمانعهم فى أغراضهم ممانع ولايعارضهم فى مطالبهم معارض، وانى لأعلم علم اليقين ممن عاشرت من كبار الفرنسويين وصاحبت أنه لولا هذه الجمهورية لما وصلنا إلى هذه الحال *وما نحتمله فيها من الهوان والصغار واستئثار أولئك القابضين على زمام حكومتنا بالأمر والنهى دوننا مع المرتبات الجسيمة والسلطة الواسعة ولما أغلقت أمامنا أبواب الترقى وانقطعت بنا أسباب التقدم فلو عادت فرنسا إلى مجدها السابق وعزها القديم لزحزحتهم بإشارة وأزاحتهم عنا بكلمة ولأصبحنا نتصرف فى حكومتنا بأيدينا*[1].

(ثالثهم) - دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا اللغو ومثلك لايحق له الشكوى من هذه الحال فإنك متين العلاقة بالمستشار[2] وما بينك وبين الوصول إلى المنصب الذى تتطلع إليه إلا قيد شبر وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى واليسر ولكن ماذا تقول فى من هو فى حاجة دائمة إلى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة *مع سخط الناظر وغضب المستشار واستشعار المرؤوسين بذلك فلا توقير عندهم ولا احترام ولا أدب فيهم ولا حياء*[3] ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لما أقمت فى الخدمة يوماً واحداً.

(رابعهم) - وأنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لى نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ثم اعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهنأ عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان.

(خامسهم)- ما أسخف الرأى وأضعف الفكر، ومن ينكر أن خدمة الحكومة على

---

(١) «وما نحتمله فيها... بأيدينا» محذوفة من ط٤.

(٢) م ش ٧٢: بالمستشار قوى الرابطة مع الناظر.

(٣) «مع سخط الناظر... ولا حياء» محذوف من ط٤.

كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأناً من بقية الحرف والصناعات؟ وكل أسباب المعايش لاتخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والأكدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلها عناءً ولايفضل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر فى الأمور ويكفيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره ما دام درهمك فى يدك ولكن التاجر فى حاجة أبداً إلى أصغر موظف فى الحكومة وإن كان من أغنى الأغنياء ولو تراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير لعلمت أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة بحيث لو خيرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده ولحكم بأن السعادة كل السعادة فى ما تعده أنت شقاءً وبلاءً وتعتبره ذلاً وهواناً،

(سادسهم) – على رسلك أيها القاضى لاتعكس القضية ولاتقلب الحقيقة ولاتحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم والاستعظام لأهل الحكومة على أن حرفتهم خسيسة فى ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم وإلا فلو تخلى أحدهم عن طبقته ودخل فى طبقتنا يوماً لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل والحرية فى الرأى ولعلم أن الموظف قد باع للحكومة حريته ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه مقابل مقدار من المال يعد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله، ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام فى الأزمان السالفة من الصول والطول والقوة والحول واكتساب المال من الجاه وعلموا أنه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى أيديها كالأيتام فى يد الوصىّ يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال فى حجر المرضع– لعضوا الأنامل ندماً ولأرسلوا بدل الدمع دماً على ما فرطوا فى أمرنا وأهملوا فى شأننا.

(الخامس) – إنك لتتكلم بكلام العجائز اللائى يقنعن من دهرهن بالخسيس من

الملبس والمطعم، وأين أنت هداك الله من طلب المعالى وابتناء المفاخر وتشييد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر، وأين أنت من قول الشاعر الحكيم:

ولو أنّ ما أسعىَ لأدْنَى معيشة   كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المال
ولكنّما أسعى لمجدٍ مُؤثَّلٍ   وقد يُدرك المجدَ المؤثَّل أمثالى

وإلى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالخمول والسكون وبالعيش الدون.

(السادس)- إنى لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب إلى هذا الحد فترى أن فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاءً ومجداً وسناءً وما هى إلا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء، وأنا أفصل لك الحال تفصيلاً لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على التنحى عنها عجز وضعف وجهل براحة الحياة وأى جهل فأقول:

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام، القسم الأول: الرغبة فيها للمال أعنى لسد العوز وكفاف العيش، وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق فهو فى رق العبد وذل الأجير لا مناص له من الصبر على المضض حتى يجد له مخلصاً منه ومنصرفاً عنه وهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة.

والقسم الثانى: الرغبة فيها للجاه أعنى المنصب ونفوذ الكلمة ومضاء الحكم، وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ليس لشوطه نهاية ولا لحدوده غاية ولابد فيه للجواد من كبوة وللسيف من نبوة وطالما كان اعتلاء المناصب وارتقاء المراتب داعية للرزايا والمصائب ومجلبة للبلايا والنوائب:

والشرُّ يجلبه العلاءُ وكم شكا   نبأً علىٌّ ما شكَاه قَنْبَرُ

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سلم من المعاطب ونجا من الخطوب فهو لايزال طول حياته فى هم ونصب كلما ارتقى فى المنصب درجة وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتليها ولا يفتأ مستعظماً لما فوقه طامعاً فيه مستصغراً لما فى

يده راغباً عنه فهو فى ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التى يجرى وراءها غير راضٍ عن نفسه ولا عن الناس ولا الناس عنه راضون، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقى الكمد والكدر:

ذلك الخائبُ الشقىُّ وإن كا   ن يـرى أنــهُ مــن السُّعَدَاء
يُحسبُ الحظُّ كلُّهُ فى يديـه   وهو منه على مَدَى الجوزاء

وأخلق بمن كان همه أبداً التطلع إلى غير ما فى يده أن يكون أنحس البرية حالاً وأمضهم عيشاً ولذلك زهد الراسخون فى العلم من الفلاسفة والحكماء فى اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذروا العقلاء من السعى وراءها وشغل النفس بها، هذا كله إذا كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة والشرف والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق، فأما والطريق إلى المناصب كما نراه اليوم قاصر على التوسل والتوسط وإهراق ماء الحياء والمنصب على ما تعلم وضيع الكلمة ساقط القدر خسيس المنزلة لا أمر فيه ولانهى ولا حل ولاعقد فالفرار منه أجدر بطالب الجاه وأحرى والتباعد عنه أشرف بذى الفضل وأسنى والنزول عنه نعم المنصب العالى لذى الشهامة والمروة.

والقسم الثالث: الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواه دفعاً للسأم والملل وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بحاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس، ولا يدخل فى هذا القسم إلا من كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر خالياً من كل أدبٍ وفضل مشغول الضمير بالوساوس والهواجس فأكره شئ لديه نفسه وأثقل حمل عليه حياته ولابد له من مشاغل متجددة ومسائل متعددة تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده إذا هو خلا بها لحظة كأنها خلية من خلايا الزنابير أو وكر من وكور الأفاعى وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً لأن من ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيق ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبة فى خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع الأمة، وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً لأنه لايتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن لما بينهما اليوم من التخالف

والتناقض، ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق اليدين ***واسع التصرف***[1].

ولاتنس فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل خصوصاً فى بلد ينسب فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه إذا سقط منه فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل:

إن الأميرَ هو الـذى يُضحِى أميراً يومَ عزلـهِ
إنْ زال سلطان الولا يةِ لم يزل سلطان فضلهِ(٢)

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصا إلا من أضله الله على علم، ولذلك فإنى عهدت على نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً وتكون معهم أينما حلوا وساروا لايسلبها منهم تقلب السياسة وتغير الحوادث ولا يؤثر عليهم فيها غضب زيد أو رضى عمرو.

(سابعهم)- لله أنت ما أحلى بيانك وأجلى برهانك وأنا معك فى هذا الحكم وعلى هذا العزم.

(الثانى)- اتركونا من هذه الخطب المكدرة والأفكار المحزنة وخنوا بنا فى حديث غير هذا يفرج عنا ويروح ولاتجمعوا علينا بين ذل النهار وهم الليل، وهل لك يا فلان أن تقوم معى للمسابقة والرياضة بالبسكليت.

(الأول)- الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع إليه.

(ثامنهم)- أو قوموا بنا إلى عرس فلان فقد بلغنى أن فيه «بوفيه» لم يسمع بمثله حسنًا ووضعًا،

(الأول)- أنا معك،

(الثامن)- لكن على شرط أن تقيم معى هناك نستمع الغناء.

---

(١) م ش ٧٢ كامل الحرية.

(٢) م ش ٧٢ (بعد بيتى الشعر): ولذلك رأينا الكثير ممن كنا نتخيلهم على السماع إبَّان المنصب علماء وأفاضل أنهم إذا أصابهم العزل أقل الناس علماً وفضلاً.

(الأول)– لست معك فى هذا بل نخرج من البوفيه إلى الأزبكية لسماع الموسيقى[1] الإنكليزية أو الأوبرا التليانية.

(الرابع)– وأنا لا أتوجه معكما لأننى ذاهب إلى «الكلوب».

(السابع)– انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء.

(الخامس)– على بالجرائد الفرنسوية[2] منها فهى أصح من العربية أخباراً وأغزر مادة.

(الثالث)– اقرؤوا الجرائد العربية أولا واحدة بعد أخرى أو مع بعضها،

(الثانى) قارئاً– «آسيا فى أوربا وأمريكا فى إفريقا».

(الرابع)– ماذا جرى لصوابك يا مولانا اقلب الصحيفة الأولى فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية ***وما لنا ولهذه الأفكار القاصرة***[3].

(الثانى) قارئاً فى الصحيفة الثانية– «الإسكندرية لمكاتبنا: ***الأمة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل ومن أين لنا بالرجال إذا كانت المعارف تبخل بالمال فالمستقبل حينئذ مظلم والوطن آسف ولانهضة للأمة إن لم تنهض العواطف لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك فإن***[4]...

(الرابع)– حسبك أيها القارئ حسبك أما قلنا لك لاتقرأ هذه المقالات المعلومة.

(السابع)– اترك «الاسكندرية» إلى غيرها.

(القارئ)– «الزقازيق لمكاتبنا»: يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش...

---

(١) ط٤: الموسيقا.

(٢) ط٤: الفرنسية.

(٣) م ش ٧٢: قلنا فكر كما لكاتبها فكر.

(٤) مكان «الأمة برجالها... ذلك فإن»: من اطلع على أخبار يوهانسبورج حكم بوقوع الحرب ولا شك أن العاقبة تكون للترانسفال المظلومة على إنكلترا الظالمة ولئن غلبت الثانية على الأولى فالحق منصور على أى حال على مدى الأزمان ولنا فى الماضى عبرة.

(الثامن)- أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله فى خدمة الوطن، عليك يا مولانا بالحوادث الداخلية.

(القارئ)- «يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديد[1] إلى الإسكندرية فى هذا المساء، ويحضر سعادة مدير البوستة إلى العاصمة على اكسبريس الصباح...

(الثامن)- اترك قراءة هذا المانيفستو أيضا.

(القارئ)- «سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار...

(الثامن)- جعل الله الجنة قراره ومثواه، فدعه واقرأ لنا سواه.

(القارئ) - «وصل سعادة السردار إلى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة أن أهم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان.

(الثامن)- سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال ***عن أخبار اليابان وحوادث اليونان***[2].

(القارئ)- «يسم البوليس الكلاب الضالة.

(الثامن)- نسأل الله السلامة للخلق والهداية للجميع.

(القارئ)- «كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله فى آخر رسالته أنه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه...

(الثامن)- لانزاع فى هذه الكفاءة وسبحان الموفق.

(القارئ)- «رزء عظيم قد فجع الإسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها فى عمل البر والإحسان فكان لنبأ موته رنة أسف وحزن فى قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً».

---

(١) ط٤ الحديدية.

(٢) م ش ٧٢. قضية دريفوس أو سكة حديد سيبريا.

(الثامن)- لا حول ولا قوة إلا بالله لابد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشاً *في القطر المصرى خصوصاً وفى الولايات المتحدة عموماً*(1).

(القارئ)- «نفيد حضرات القراء أنه لايزال التحقيق جارياً فى قضية التزييف ولم يتم فيها شيء للآن ومتى تم نبادر إلى نشره إفادة لحضراتهم كما هى عادتنا فى نشر الأخبار بأوقاتها».

(الثامن)- أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار.

(القارئ)- «فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان فى مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها وردة جعلان فى الأسبوع الماضى، وكذلك فاتنا أن نهنى حضرة مكاتبنا الفاضل بنزلة واكد حيث رزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة».،

«الثامن»- جلَّ من لايغفل ولاينسى، ولكن فاته أن يذكر إن كان ذكراً أو أنثى.

(القارئ)- «لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى».

(الثامن)- نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى الاحتياطات الصحية ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية.

(القارئ) للثامن- يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم.

(الثامن)- سمعاً وطاعة.

(القارئ)- «بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيم الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبى فى البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية.

(الأول)- إن هذا الخبر لايعلم به أحد سواى فكيف وصل إلى الجرائد.

---

(1) م ش ٧٢. هذه الجملة غير موجودة فى المقال الأصلى.

(الثامن)- إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذا الحال أن يستبد لنا أرباب الحل والعقد باستخدام الحرس فى مجالس الحكومة رجوعاً إلى العادة القديمة فى مجالس الوكلاء.

(الرابع) للثانى- اقرأ بقية الأخبار المحلية.

(الثانى)- لم يبق فى الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات.

(الرابع)- أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك الجرائد الثلاث.

(الثانى)- هى كما تعلم نسخة واحدة فى الأخبار وإن كانت مختلفة فى الأسماء.

(الرابع)- اقرأ لنا التلغرافات،

(الثانى) قارئاً- «ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٢٧ كان الاحتفال بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز حافلاً هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة».

(الرابع)- ما هذه السفاسف؟!

(الثانى)- هى التلغرافات الخصوصية.

(الرابع)- علينا بالعمومية.[1]

قال عيسى بن هشام- وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس حلقة يكثرون اللغط فى شرحها ويرجمون الظنون فى تأويلها وما فيه إلا من هو على خلاف لرأى صاحبه وإذا هم قد عادوا إلى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم، ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالاً، خرجنا من بينهم انسلالاً، وتركناهم فى سياستهم يتيهون، وفى ضلالهم يعمهون.

***

(١) م ش ٧٢: «(الثانى) قارئاً... (الرابع)... بالعمومية» غير موجود فى المقال الأصلى.

(*) قال عيسى بن هشام:[1] وأحببت أن أختم هذى المجالس والمجامع، بزيارة المجلس الرابع، مجلس الطبقة العلياء، من الأمراء وأبناء الأمراء، أهل السدة السنية، والعتبة الملوكية، وأولى الفخر والسناء، وبنى المجد والعلاء، وأصحاب العز والشرف، وأرباب الرفة والترف، وذوى الفروسية والكرم، ومصدر الفواضل والنعم، سادة المحافل، وقادة الجحافل، ومطمح الحاشية، ومطمع الغاشية، ومهيع القصاد، ومنتجع الرواد، ومرجع السفراء، ومطلب الشعراء، ومحط الرحال، لذوى الآمال، من يتألق بهم بيت الملك والسلطان، وتفخر بوجودهم البلدان والأوطان، ويخفق على رؤوسهم اللواء والعلم، وينتضى فى خدمتهم السيف والقلم، وتعنو لقدرتهم النفوس، وتنكس لعزتهم الرؤوس، وتغض من مهابتهم الأبصار، وتتلاشى دون رتبتهم الرتب والأقدار، ويرتفعون عن الناس ارتفاع الكواكب فى الأبراج، ويمتازون عن سائر الخلق بسمة العرش والتاج، معدن المكارم والمآثر، وبدور القصور والمنابر، فأممنا قصورهم قصراً قصراً، وأحطنا بها عداً وحصراً، فلم نجد فيها من سكانها، غير خصيانها وغلمانها، ووجدنا أصحابها لا يرضونها مسكناً ومقاماً، ولا يأتونها إلا لماماً، وعلمنا أن «الكلوب» يعنى النادى، هو مثوى الرائح منهم والغادى، فهناك موضع جلوسهم واجتماعهم، ومحل أنسهم واستمتاعهم، فقصدناه مع أحد أصحابنا من أعضائه وجملته، ليتسنى لنا الدخول فى صحبته، فانتهينا من السلم إلى قاعة فسيحة الجوانب، مزينة بمصابيح كالكواكب، تدخل منها إلى عدة غرف، مزخرفة بأبهى التحف والطرف، فرأيناها مزدحمة بأجناس من الناس، يروقون النظر بحسن الزى واللباس، ويبهرون العيون بحلى الياقوت والألماس، وهم كلهم فى لغط وضوضاء، كأنهم فى سوق بيع وشراء، فأخذ صاحبنا يرشدنا عن أجزاء المكان، ويعرفنا بفلان وفلان، ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة والمعاقرة، والثانية للمراهنة والمقامرة، والثالثة للمحاضرة والمسامرة، فبدأنا بالدخول فى الغرفة الأخيرة، فوجدنا فى وسطها منضدة كبيرة، عليها كتب منشرة، وجرائد مصورة، تعبث

(*) أضيف عنوان «الأمراء وأبناء الأمراء» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ٧٤، ٢٨سبتمبر ١٨٩٩ وهذا الفصل واحد من الفصول المحذوفة من ط٤ (١٩٢٧).

(١) نشر المويلحى فى م ش ٧٣ مقالاً بعنوان «ذو الوزارتين» حاكى فيه صيغة مقال نشره فى م ش٢٢ (٢٢سبتمبر ١٨٩٨) قبل نشره المقالة الأولى من نص «فترة من الزمن» م ش٥٧، ١ يونيو ١٨٩٩) (انظر وكذلك النص فى الملحق ص ٥١١)

بها أيدى جماعة من الأمراء، دون انتباه أو اعتناء، وأعينهم شاخصة نحو المرآة، للتمتع بالمنظر والمرآة، وألسنتهم منطلقة بالأعجمية، دون اللغة العربية، فأخذنا مجلسنا منهم ناحية، وأعرناهم أذناً واعية، وإذا أحدهم يقول لكبير من كبراء أسرته، والغضب باد فى تقطيب أسرَّته:

(أحدهم)- أنا لا أبالى هذا اللوم والتفنيد ولا أقبل منك مشورة ولانصيحة والله يعلم بما وراء هذه النصيحة مما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر فإن كنت تريد بى خيراً كما تزعم وتدعى فاتركنى وشأنى فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسى ولاعليك من ذلك الدين الذى تعيرنى به فعندى من المتاع والعقار ما يسدده ويوفيه، وكما أننى لا أتداخل فى شؤونك فليس لك أن تشاركنى فى أمرى وتكدر على عيشى والأولى لك أن تصرف جملة عنايتك إلى تدبير ثروتك فإنك أحوج إلى ذلك منى حتى لا يأتى عليها أمناؤك ووكلاؤك نهباً وسلباً وأنت مقيم فى غفلة عنهم، وأقسم لك بقبر والدى أننى لأفضل حالتى عن حالتك فإن تبديد ثروتى وتبذيرها فى سبيل ما تشتهيه نفسى وتلذه عينى خير من أن أعيش محروماً وغيرى يختلس ثروتى ويتمتع بأموالى.

(ثانيهم)- وأنا لا ألتفت إلى هذا الكلام الفارغ بل أنذرك منذ اليوم أنك إذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم إلى إدارة ثروتك لتسديد ديونك وترتيب أمورك طلبت فى الحال توقيع الحجر عليك.

(الأول)- مثلى لا يؤثر عليه هذا الوعيد ولايعمل فيه التهديد ولا يمكن لك أن تجد فى أعمالى ما يوجب الحجر غير الدين، والدين أمر مستفيض بين الناس لايكاد يخلو منه ذو ثروة والحكومة نفسها من أكثر الناس ديناً ولايوجد فيها من يعتبر الدين حجة مقبولة لتوقيع الحجر ومع ذلك فأنا أقسم لك بكل شىء أحبه وأعزه إنكم إن لم تنتهوا عن السعى وراء الحجر على تنازلت فى الحال عن جميع أموالى إلى أحد الأجانب ليستثمرها لى فى حياتى ولاينالكم منها شىء بعد مماتى.

(الثانى)- سترى من يكون الغالب منا والفائز فينا.

(ثالثهم)- والله يا إخوانى لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى من طمع الأهل وفضول الأقارب وقد آليت على نفسى أن لا أبقى منها درهماً واحداً لأحد من بعدى.

(رابعهم)- الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلها وأنا اليوم أبيع ما بقى من الأطيان لأتمتع بها فى معرض باريس قبل أن يتمتع بها سواى.

(خامسهم)- وأنا أسأل الله أن يعجل بربح القضية التى رفعتها على والدتى قبل حلول أيام المعرض لأكون معك.

(الرابع)- وما يدريك أنها تبقى معلقة فى المحاكم زمناً طويلاً ينتهى فيه معرض بعد معرض.

(الخامس)- أنا لابد لى من زيارة المعرض على كل حال فإن لم تنته القضية ففى يدى رسائل وأوراق صادرة عن أختى وعثرت عليها بكيفية غريبة وقد قدرت لها قيمة تكفى لسفرى وأخبرتها أنها إذا لم تسرع بالنقد والدفع طبعت تلك الرسائل ونشرتها على الناس، ولاشك أن تعلقها بزوجها لطمعها فى أمواله يدفعها لتدارك الفضيحة بشراء تلك الأوراق فى الحال.

(سادسهم)- إنى لأغبطك على هذه اللقطة النفيسة وأسأل الله أن يوفقنى إلى مثلها مع عمتى.

(سابعهم)- دعونا من هذه الوسائل الضعيفة وتعالوا نجتهد فى السعى لزيادة المرتبات التى نستحقها فى قائمة العائلة الخديوية.

(السادس)- ماذا يجدى السعى فى زيادة هذه المرتبات وهى لا تزيد لواحد إلا بموت آخر والأموات منا قليل ولئن سهل الله فغاية ما يزيد المرتب خمسمائة أو ألف جنيه فى السنة تكون من نصيب خياط أو تاجر مركبات، ولكن علينا بالسعى إن أمكن السعى فى اكتساب ثروة تقوم لكل واحد منا بما يليق برفعة مقامه وعلو درجته بين الناس.

(الثانى)- لاتشغلوا أفكاركم بهذه الأوهام والأحلام فقد نضبت الموارد وجفت الضروع ومضت تلك الأوقات التى كانت تتجمع فيها الأموال العظيمة وتتكون الثروة الجسيمة وفاز بها الآباء والأجداد ثم خلفوها لنا فلم نعرف قدرها ولم نحسن تدبيرها.

(الأول)- لاتذكّرنا ناشدتك الرحم بسيرة الآباء والأجداد ولا تقل إنهم فازوا بجمع الأموال وحيازة الغنى فلقد قنعوا بالقليل ورضوا بالتافه وظنوا أنهم جمعوا الكثير ونالوا

العظيم فما أصغر همتهم وأكبر غفلتهم ولو كنا مكانهم فى تلك الأزمان لأريناهم كيف تجمع الأموال وتكتنز الكنوز، وماذا تقول فى عقول قوم كانت رقاب المصريين وأموالهم بين أيديهم طوع إشارة من إشاراتهم ولفتة من لفتاتهم ثم يكتفون منها بالخسيس الضعيف ويتركون لهم هذه الملايين من الأفدنة يتمتعون بها اليوم دوننا؟ ومن كان يتصور من آبائنا وأجدادنا أن عمد الفلاحين الذين كانوا فى أيامهم كالأنعام لايعرفون ماهى الحياة وما هى الدنيا قد أصبحوا يتمتعون دوننا بالأموال ويزاحموننا فى المجالس، أليس ذلك من تفريط السلف وبؤس الخلف؟

(ثامنهم)- إياك أن يجرى لسانك بسوء فى ذكر المصريين والفلاحين واحذر أن تعوده نفسك فإنه غير لائق بنا على ما يظهر لى الآن.

(الأول)- ولم ذلك حرسك الله ومتى سمعنا بهذا، وماذا لقينا من الجميل بين المصريين حتى نذكره لهم بغير القدح والذم وماذا رأينا من حسناتهم حتى يقتضى علينا الإغضاء عن سيئاتهم ولكن لعلك تريد لأختك أنت أيضاً مصرياً أو فلاحاً للتشرف بمصاهرته.

(الثامن)- لا وإنما سمعت غير مرة من أحد المشتغلين منا بالسياسة أن مصلحتنا تقضى علينا الآن بالالتجاء إلى التودد والانعطاف نحو المصريين ليتعلقوا بأذيالنا وتنطلق ألسنتهم بشكرنا وحمدنا فإذا تسامع الأجانب بذلك اضطروا إلى احترام مقامنا وإجلال قدرنا ليقودوا المصريين بقيادنا وأنتم تعلمون ما وراء انتفاع الأجانب بنا من انتفاعنا بجاههم فى هذه الأيام التى لاتنبع موارد الحكومة إلا من بين أصابعهم.

(الرابع)- أنا لايتسع عقلى لمثل هذه السياسة العقيمة ولاينشرح صدرى لإظهار التودد والتعطف لهؤلاء المصريين ولو كان للاحتيال والخداع وما أخالف طبعى ولا أكلف نفسى فى هذا الباب غير ما ألفت والأصوب أن نقصر التودد والتعطف على الأجانب أنفسهم فهم أحق بالمحبة والولاء وأولى بالمدح والثناء، ولا لزوم لأن نتوسط لهم بالمصريين فنذلّ للأذلاء ونخضع لأهل الخضوع، ولولا المنافسة بين آبائنا واجتهادهم فى سلب بعضهم لما كنا وصلنا إلى هذه الحال ولا احتجنا إلى طلب المال.

(الخامس)- أنا لا أحب أن يتشعب بنا الكلام إلى ذكر ما كان بين الآباء من المنافسات خشية تحريك ما فى القلوب من الضغائن والأحقاد وليس منا من يكاد يملك نفسه عند ذكر أفعالهم خصوصاً ما فعله والدك بوالدى وما انتزعه من أموالنا بالظلم والعدوان ولايغيب عنكم ما عسى أن يجره اتساع الحديث فى هذا الباب من المكروه.

(أحد الأجانب) داخلاً يقول للأول- لقد جئت لمولاى الأمير بأنفس اختراع فى نهاية القرن ودونك الرسم فانظره وتأمله بإمعان فإنك لاتجد مثله فى الإبداع والإتقان وهذا رسمها على الورق فما بالك بهيئتها وهى تجرى فى الطرق وقد شهد كل من رآها بأنه لم يشاهد مركبة كهربائية على مثل هذا الطرز إلى اليوم وحسبك أن المعمل لم يصنع من جنسها إلا اثنتين أخذ البرنس «هوهلوهنستين» من أمراء ألمانيا واحدةً وهذه هى الثانية جئت لك برسمها يا مولاى لتأمر بأمرك، وقد سعى دولة أخيك ورائى سعياً طويلاً ليلحظ هذا الرسم بعينيه ويعلم باسم المعمل فلم أمكنه من ذلك وضننت عليه لعلمى أنه يريد أن يسبقك إلى اقتنائها ويفخر عليك بها وأنا أفضلك عليه تفضيلاً عظيماً.

(الأول)- إنى أعلم حسن غايتك بى وأشكرك عليها إنما أرجوك التعجيل بإحضار هذه المركبة فقد أعجبنى رسمها جداً وأخبرنى فى أى ميعاد يكون حضورها.

(الأجنبى)- مسافة الطريق يا دولة الأمير.

(الأول)- الأحسن أن تقصر المسافة بإرسال تلغراف مكان الخطاب فى طلبها من المعمل.

(الأجنبى)- سمعاً وطاعة، وهذا بيان الثمن ألتمس منك تكليف الخاطر بالتوقيع عليه.

(الأول)- ها هو التوقيع، وقل لى عن مقدار الثمن بالتحقيق.

(الأجنبى)- مقدار الثمن شىء ضعيف بالنسبة إلى هذه المركبة الثمينة وهو على التحقيق تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثلاثون فرنكاً.

(الأول)- لا بأس وإنما لى عندك رجاء وهو أن تزيد فى مقدار الثمن إذا سألك أخى عنه وقل له إننى اشتريتها بخمسة عشر ألف فرنك.

(الأجنبى)- على العين والرأس ولقد كنت منصرفاً على هذه النية من غير أن تكاشفنى بذلك ولكنى سأقول له إنك اشتريتها بأربعة عشر وسبعمائة واثنين وأربعين فرنكاً على التحقيق.

(الأول) ملتفتاً لقرنائه- أنا على يقين من أن أخى يجن جنونه حين يبلغه هذا الخبر فلايهدأ له بال حتى يقترض مبلغاً جديداً من المال ليشترى منه مثل هذه المركبة، وذلك ديدنه كما تعلمون من قديم كلما رآنى استحدثت شيئاً من مقتنيات الزينة جرى على أثرى فيه وتشبه بى وكلف نفسه ما ليس فى قدرته ليلحق بى فى ميدان المنافسة والمباهاة حتى وصلت به الحال إلى الخروج عن الثروة والدخول فى الدعاوى وما أظن أن يبقى عنده أثر من جميع ملكه وعقاره بعد شهر أو شهرين.

(الثالث)- وماذا يصنع المسكين بعد ذلك؟

(الرابع)- ما بقى له إلا أن يعيش من مال المرتب وحده،

(الثالث)- ألم أقل لكم أن ليس لنا فى آخر أمرنا إلا هذا المرتب فهو وحده المال المصون لنا وهو الكفيل بسد حاجتنا وقوام معيشتنا ولا رأى عندى أصوب من السعى لطلب الزيادة فيه فهلموا نعقد بيننا اتفاقاً على المطالبة بحقوقنا فى هذا الباب.

(الخامس)- أما سمعت أن الاعتماد على المرتب وحده من ضعف الحيلة ووهن الرأى؟

(الثالث)- ومالك لا ترشدنا إلى طريق آخر بقوة حيلتك وحسن رأيك يقوم بأود معيشتنا فى الحال ولا نعدم نفعه فى الاستقبال.

(الأول)- أنا أراه فى المضاربات.

(الرابع)- وأنا أراه فى تأجير أسمائنا للشركات.

(الخامس)- وأنا أراه فى خدمة السفارات.

(السابع)- وأنا أراه فى التزوج باليهوديات.

(السادس)- أو المصريات.

(الثامن)– لا بل أراه فى أن نقوم الساعة إلى غرفة المقامرة.

(الجميع)– أحسنت أحسنت بعد أن تتزود من غرفة المعاقرة.

قال عيسى بن هشام– فقاموا وقمنا على آثارهم نشاهد ما يجرى من بقية أفعالهم فدخلوا إلى غرفة المدام فتعاطوا من أقداح الراح ما شاؤوا ولم يتعدّ حديث المنادمة بينهم حد المناضلة والمفاخرة أو المراهنة والمسابقة، هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكملها، وذاك يفاخر بقوة أعضائه فيدعى أنه يرفع المائدة بيد واحدة، والآخر يزعم أنه يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه ، والثالث يقسم أنه ركب الناقة يوماً فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها إلى الأرض واقفاً على رجل واحدة، والرابع يحلف أنه يكلم حصانه فيفهم عنه كلامه، والخامس يكرر القول بأن خليلته أعلنت له بأنها لم تر فى باريس راقصاً يحسن الرقص مثله، إلى غير ذلك من هذا القبيل.

ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها إلى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه ثم لم تمض ساعة من الزمن إلا وقد جرى لهم فى هذا المجلس ما يجرى من فراغ الجيوب واقتراض القروض ورهن الحلى وطلب الإسعاف من اللاعبين أولا ومن الخدم ثانياً ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا معه سوء العاقبة وقبح الخاتمة، فأسرعت بالخروج أطلب النجاء، والباشا فى أثرى يضحك القهقهاء، فقلت له وأين تسكاب الدمع وتنفس الصعداء، قال جل الخطب عن الحزن والبكاء، ووجب الأخذ بطريقة «ديموقريط» من بين الحكماء، ورؤية الدنيا بعين ذلك القائل من الشعراء:

هذى الحياةُ روايةٌ لمشخّص فالليل سترٌ والنهارُ الملعبُ

***

* قال عيسى بن هشام– ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة، والمجالس

(*) أضيف عنوان «العرس» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش٦٣، ٢٠ يوليو ١٨٩٩. فى واقع الأمر أعاد المويلحى كتابة هذا الفصل من حديث عيسى بن هشام، أثناء إعداده لـ ط١ (١٩٠٧) وكما يشير إليه تاريخ نشر المقالين الأصليين نشرا فى مصباح الشرق قبل المقالات التى يصف فيها المويلحى زيارات عيسى والباشا للمجالس التى وضعها من قبل فصل «العرس» فى نص «حديث عيسى بن هشام».

' مودة، قلت للباشا قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال، ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال، فأجابني وهو يظهر التوقف، ويبدى التأفف: ما بالك تسد عليَّ متسع الطريق، في باب البحث والتحقيق، وما لك تحرمني من الانتشار والاجتماع، للاطلاع على العادات والطباع، ولم تختار أن نقتصر على ما في الكتب والأوراق، لمعرفة الآداب والأخلاق، فنترك النظر للخبر، واللمس للبس، والممارسة للمقايسة، وأي الطبيبين أدق صنعا، وأكثر نفعا، الطبيب الذى يقتصر على الكتب فى درس الأعضاء والأحشاء، أم الطبيب الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء، لاسيما وقد زال عنى فى هذه المدة، ما كان يعترضنى من الغضب والحدة، وانقلب العسر من أمرى يسراً، وغدا التقطيب بحمد الله بشراً، وصرت لا أقابل عيوب الخلق، بغير الحلم والرفق، وتعلمت أن أتحلم، ولا أتألم، وأتبصر، ولا أتحسر، وأتدبر، ولا أتضجر، فأنااليوم أتفكه بمخالطتهم، وأتروح بمباسطتهم، فلم يبق لك من عذر وجيه، ترتضيه بعد ذلك وترتجيه، وما زال الباشا يجرى على هذا النمط فى الشرح والبيان، ويأخذنى بالبرهان فى أثر البرهان، حتى ملكنى بسلطان حجته، وأنزلنى على حكم رغبته، وكنت دعيت فيمن دعى من الناس، إلى وليمة عرس من أكبر الأعراس، فقلت له عندى اليوم حد الكفاية، فى بلوغ الغاية، فهلم إلى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل، وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره، وبدأ فى ***الدور الأول من أدواره***(1)، فما قربنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهاراً يتألق، وفحمة الدجى جمرة تتحرق، فدخلنا إلى ساحة كأنها مدينة، تبرجت فى يوم الزينة، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم، لانجد موضعاً لقدم، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب، من ذوى العلامات فى الثياب، فدسنا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً، ولم يحسنوا لتحيتنا رداً، فجزيناهم بغض الطرف، وأقمنا بينهم ولا ننطق بحرف، ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار، فلا نهتدى له على قرار، كأنما صنعت الوليمة فى غيبته، وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته، أو أننا أخطأنا العرس إلى سواه، واشتبه علينا مقره ومثواه، فهممنا بالقيام والمسير، لولا أن أشار لنا بالسلام مشير، فتبيناه صديقاً لنا من الخلصاء، فى جمع من الفضلاء والأدباء، فقصدناهم فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحبا، وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث يانعاً

(1) ط٣: الطور الأول من الأطوار.

ورطبا، وعلمنا منهم أن رب البيت فى ذهول لايدرك ما يذره وما يأتيه، وصاحب الدار لايدرى الليلة بالذى فيه، وأنه لا تثريب عليه ولا لوم، فهو مشغول بتحية كبار القوم، ممن لم يخالطهم قبل اليوم.

(الباشا)-[1] وهل يدعو الناس إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل؟

(أحد الأصدقاء)- نعم يدعو الناس إلى أعراسهم كل من علا له صيت واشتهر له اسم من الأمراء والكبراء والعلماء فمنهم من يجيب الدعوة ومنهم من لايجيبها لعدم معرفته بصاحب العرس، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لايخيبون للداعى رجاء ولايتخلفون مرة عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمد الزينة وأساطين الأعراس.

(الباشا)- وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله؟

(الصديق)- الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته، وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس وينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق فى إقامة العرس جميع ماله ثم بقى عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه، وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله فى إقامة عرس كبير ثم قسم دفاتر تجارته إلى شطرين شطر يحتوى على بيان ما بقى لديه من أصناف التجارة وأجناسها وشطر يتضمن أسماء من حضر العرس من الأمراء والكبراء وقل أن تشترى منه صنفاً إلا ويذكر لك منهم اسما يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد الثمن فى جنبه هين.

(الباشا)- ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت أعهدها أنها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء.

(الصديق)- ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الأعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك *وأضرابهم*[2].

---

(١) فى المقال الأصلى (م ش٦٣) هذه المحادثة هى بين عيسى والباشا.

(٢) م ش٦٣: هنا حذف المويلحى قطعة طويلة من المقال الأصلى. انظروا الملحق ص ٥٠٥.

(الباشا)– إنى أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعت بهم فى مجلس للعلماء.

(الصديق)– نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحملة الشريعة وأئمة الدين.

(الباشا)– ومالى أراهم يسرعون ويهرولون فى خروجهم وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم، أنزل بالدين مكروه أحل بالإسلام خطب أحدث بين الناس حادث بدعة يستدعى قيامهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

(الصديق)– لم يحدث من كل شيء ولم يعرض لهم عارض وإنما هى عادة لهم ألفوها فى الولائم والمآدب إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا إلى الخروج من العرس فتراهم عند قول أحد الظرفاء «يد فى الكباب ورجل فى الركاب» والذين يعتذرون لهم يقولون أنهم علماء عاملون بقوله تعالى: «فإذا طعمتم فانتشروا» وأنهم يرون سماع الغناء مكروهاً فى الدين فلا يجلسون فى العرس بعد الطعام خشية أن يبتدئ الغناء فيحل بهم المكروه.

(الباشا)– ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا؟

(الصديق)– هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونبهائهم وهو قادم علينا للجلوس معنا فإن فينا من يأتنس به ويصبوا إلى مجالسته.

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه– أرجوك أن تسامحنى فى فضول القول فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين فقد قيل لى إن السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلس الغناء فهل لك أن ترشدنى إلى القول الأصح فى هذا الباب وما الذى يجب أن يؤخذ به وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء إن كان مكروهاً؟

(الشيخ المتخلف)–[1] الكلام فى هذا الباب طويل، وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج إلا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء.

(١) م ش٦٣: هذا «الشيخ المتخلف» غير موجود فى المقال الأصلى ويلقى المحاضرة عن الغناء عيسى بن هشام نفسه.

(الباشا)- إني أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته فلاتبخل علينا بفضلك وعلمك، والوقت وقت مسامرة فإن أردت أن نقضى جانباً منه فى ما ينفع ويفيد فقد أديت عليك واجباً فى الدين وجعلتنا لك من الشاكرين.

* (الشيخ المتخلف)- اعلم أن طرب الغناء أمر طبيعي راسخ فى طبيعة الحيوان، ومن الحيوانات العجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحن إليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر من حدتها وربما ذلت به رقابها وأمكن قيادها، وهذه الفيلة وهى من أكبر الحيوان أجساماً وأشدها بطشاً إذا سمعت صوتاً مرنماً أو كلاماً منغماً لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً ولو كان فى مواقف النيران اهتزاز الحمامة المطوقة على فنن من الأفنان، وهذه الإبل المعروفة بأنها أغلظ الحيوانات أكباداً تراها إذا براها السرى ونكزها[1] التعب وأهلكها الظمأ فتغنى لها الحادى ذهلت فى الحال عما أصابها وتعللت بالغناء عن مناهل الماء وهى على الخمس فى ظمئها أو العشر ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى، وطالما شاهد المشاهدون هوام الأرض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب فى مسيرها وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأحجارها للمسير خلف الجيش، ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ بحر يبغى الشاطئ الآخر ولايجد ما يحمله إليه فجلس يلهى نفسه بالغناء وإذا بدرفيل[2] قد شق أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت فلم يزل فى تدنيه والفيلسوف فى تغنيه حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع فأيقن الفيلسوف أنه استهواه بتأثير الغناء وذلله بقوة الطرب فامتطاه يسخره كيف شاء فوق عباب الماء كأنه مطية وجناء تسير فى عرض البيداء على توقيع الحداء، وحكاية إبراهيم بن المهدى فى اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة.

(*) م ش٦٤، ٢٠ يوليو ١٨٩٩. وهنا يبدأ المقال الثانى من سلسلة «فترة من الزمن» قال عيسى بن هشام ولما عدنا إلى مجلسنا بعد صلاة العشاء عدنا إلى ما كنا فيه من كلام على الغناء فى كراهيته وإباحته فقلت...

(١) ط٣ أضناها.

(٢) ط٤ دلفين.

هذا بعض ما يقال عن تأثير الغناء فى الحيوانات العجماء مع ضعف إدراكها وكثافة إحساسها ونقص خلقها فما بالك بتأثيره فى الإنسان وهو أسمى الحيوان رتبة وأكمله خلقة وأعظمه إدراكاً وأصفاه جوهراً وألطفه روحاً.

والغناء فى تعريف قوم من الفلاسفة فن يقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها الأذن فتهتز له نفوس أرباب المدارك العالية والأمزجة الصافية وهو القوة المساعدة لقوة النطق فى التأثير على السامع، وكان القدماء يعتبرونه لغة عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم، وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم من الإحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات، وقد عبر عنه الحكيمان الكبيران فيثاغورس وهرمز أنه علم التنسيق لكل شىء ولذلك أطلقوا عليه لفظة «أرمُونيا» ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل وكلهم مجمعون على أن لا شىء فى العالم يعادل تأثير الغناء فى تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات، وعندهم إن الذى لايتأثر منه لابد أن يكون به نقص فى الخلقة، والغناء مغروس فى طينة الإنسان منذ نشأ فى حجر الطبيعة ومنذ استهل فى المهد باكياً فلايسكن إلا به ولا يراح عنه إلا بتطريبه، وفضل تأثير الغناء فى النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعر البليغ فى لغته إذا ترجمته كلاماً غير موزون إلى لغة أخرى.

والوقائع كثيرة جمة فى التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء، منها أن أهل مدينة أسبرطة كانوا فى فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماء القائمين بأمرها فما زالوا يغنونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم ورقت نفوسهم ولانت عريكتهم فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت وقام صياح الطرب مقام صياح الشغب، ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد فى الجند فإذا انعقد جمعهم أغرى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة فى قلل الجبال فيشتعل فى نفوسهم لهب الوجد وتهيج فيهم ثائرة الحنين وينزع بهم الشوق إلى منازلهم فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤساؤهم الحكم بالإعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء، ومنها حكاية الحكيم أبى نصر الفارابى مع سيف الدولة بن حمدان حيث أضحك أهل مجلسه وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم، وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى

تنسيق أصواتهم فى الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول فى النفوس وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبر حتى إذا وجده خرج عن النغم أو شذ نبهه بصوت الآلة فيرجع إلى الأصل، ولسنا نجد بين الأمم أمة فى بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها إلا وعندها الغناء فى الجيش آلة من آلات الحرب تعين على ممارسة الأهوال وتثير إلى منازلة الحتوف، وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفى من الأمراض والأسقام وكان «ايسمين» فى مدينة تيب يزعم أنه يشفى من عرق النسا بصوت الناى وكان «هوميروس» و«جالينوس» و«بلوتارك» من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفى من الطاعون ومن داء المفاصل ومن نهش الأفاعى، وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء فى أوربا يقررون بعد كثرة التجارب أن الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض وأطلقوا عليه لفظة «ملوترابيا» يعنى العلاج بالطرب كما قرروا من قبل «الهيدروترابيا» وهى المعالجة بالماء و«الإليكتروترابيا» وهى المعالجة بالكهرباء وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء على وظائف الأعضاء بآلة حاسبة فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم وفى حركة التنفس سرعة مقبولة وذهب بعضهم أن للأخشاب التى تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتخاذ الناى من خشب الكينا فإن سماعه يشفى من الحمى، وبلغت العناية بهذا الفن فى ألمانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءهم بدروس الهجاء وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة.

وجماع القول فى هذا الباب من جهة البحث والنظر أن الخالق جلت عظمته قد جعل من فضله ونعمته على الانسان لكل حاسة لذةً، فلذة النظر فى تناسق المرئيات وترتيب أجزائها وذلك هو الجمال، ولذة الذوق فى ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة، ولذة الشم فى لطف الرائحة وذلك هو الطيب، ولذة اللمس فى تناسب أجزاء الملموس وذلك هو النعومة، ولذة السمع فى اتساق الصوت وحركة توقيعه وذلك هو الغناء.

وأما القول فيه من جهة الدين فقل أن تجد ديناً من الأديان فى أنحاء العالم إلا ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الأرواح للتجرد والاتصال بالعالم الروحانى وما كان الدين الاسلامى وهو دين الأذان لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته وشأنه فى فطرة الانسان على ما بينته لك، وناهيك بما ورد فى الخبر الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع نسوة يتغنين فى

وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهن، وقد استقبله عليه السلام نسوة من الأنصار عند مقدمه من إحدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يتغنين على الإيقاع بقولهن:

طلـــع الـــبدر عليـــنا   من ثنيّات الوداع
وجـــب الشكـــر علينا   مـــا دعـــا للّه داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضاً، وهذا عمر بن الخطاب على المعروف من غلظته وشدته في الدين قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استعاد ومزح: روُى عن أسلم مولاه قال مر بى عمر رضى الله عنه وأنا وعاصم نغنى فوقف وقال أعيدا على فأعدنا عليه وقلنا أينا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين فقال مثلكما كحمارى العبادى قيل له أى حماريك شر قال هذا ثم هذا فقلت له أنا الأول من الحمارين قال أنت الثانى منهما، وكان عبدالله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء ***عظيم الاحتفال به***[1].

وروى أن معاوية قال لعمرو بن العاص امض بنا إلى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى نعيب عليه فعله يريد عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فدخلا إليه وعنده من المغنين سائب خاثر وهو يلقى الغناء على جوارٍ لعبد الله فأمر عبدالله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبدالله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبدالله أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخَطيم:

ديارُ التى كادت ونحن على منىً   تَحُلُّ بنا لولا نَجاءُ الركائبِ
ومثلكِ قد أصبيت ليست بكنـّةٍ   ولا جارةٍ ولا حليلةِ صاحبِ

وردده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو اتئد يا أمير المؤمنين فإن الذى جئت لتلحاهُ أحسن منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية اسكت لا أبالك فإن كل كِريم طروب.

---

(١) م ش٦٤: هنا تنتهى محاضرة عيسى بن هشام فى الغناء فى المقال الأصلى أما النص فى الصفحة التالية من أول «وروى أن معاوية» إلى «فقد احتشد له المغنون» أضيف إلى ط١.

ودخل المغنّون منزل سكينة بنت الحسين سبط رسول الله فأذنت للناس إذناً عاماً فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم أنهم سألوا حنيناً أن يغنيهم صوته الذى أوله: هلا بكيت على الشباب الذاهب، فقال لهم ابدؤا أنتم فقالوا ما كنا لنتقدمك ولانغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حنين تحت الهدم فقالت سكينة عليها السلام لقد كدر علينا حنين سرورنا.

وذكر الدلال المغنى عند عبدالله بن أبى عتيق بن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم فقال أنه كان يحسن:

لمن رَبعٌ بذات الجيـ ... شِ أمسى دارساً خَلَقَا

ثم استقبل ابن أبى عتيق القبلة يصلى فلما أكبر سلم ثم التفت إلى أصحابه فقال اللهم إنه كان يحسن خفيفه فأما ثقيله فلا، الله أكبر.

ولقى ابن أبجر عطاءَ بن أبى رباح وهو يطوف بالبيت الحرام فقال اسمع صوتاً للغريض فقال له عطاء يا خبيث أفى هذا الموضع فقال ابن أبجر ورب هذه البنية لتسمعنه خفية أو لأُشيدنَّ به فوقف له فتغنى:

عوجــى علــينا ربّــةَ الهــودج ... إنــك إن لا تفعلــى تحرجــى
أنــى أُتيحــت لــى يمانيــة ... إحدى بنى الحرث من مذْحــج
نلبــث حــولاً كامــلاً كلــه ... لا نلتقــى إلا علــى منهــج
فى الحــج إن حجــت وماذا مِنًى ... وأهلــه إن هــى لــم تحجج

فقال له عطاءُ الكثير الطيبُ يا خبيثُ.

وولى قضاء مكة الأوقص المخزومى فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله فإنه لنائم ليلة فى جناح له إذ مر به سكران يتغنى بصوت للغريض فأشرف عليه فقال يا هذا شربت حراماً وأيقظت نياماً وغنيت خطأ خذه عنى فأصلحه له وانصرف.

وكان لأبى حنيفة رحمه الله جار بالكوفة يغنى فكان إذا انصرف وقد سكر يغنى فى غرفته فيسمع أبو حنيفة غناءه فيعجبه وكان كثيراً ما يغنى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من غد فأخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى عيسى بن موسى فقال له إن لى جاراً أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيراً، فقال عيسى سلموا إلى أبى حنيفة كل من أخذه العسس البارحة فأطلقوا جميعاً فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سراً ألست كنت تغنى كل ليلة: أضاعونى وأى فتى أضاعوا، فهل أضعناك؟ قال لا والله ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك، قال فعد إلى ما كنت تغنيه فإنى كنت آنس به ولم أر به بأساً قال أفعل إن شاء الله.

هذا جملة ما يذكر فى طرب الغناء طولت فيه وأسهبت ليتبين لك منه القول الراجح والوجه الصالح.

(الباشا)- تعالىَ اللهُ ما شاء وزادَ اللهُ إيمانى

ما هذا الذى أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق وما هذا الإبداع والتفنن فى أطراف المعقول والمنقول وما هذا التضلع فى علوم الأولين والآخرين، وما عهدت قبل اليوم فى العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع فى تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها يتنقل فى تقرير البرهان وشواهد البيان تنقل النحل على جنى الأزهار فيخرج بنا من التاريخ اليونانى إلى الرومانى إلى الأوربى إلى الإسلامى، فعجباً له أأعجمى وعربى، وشرقى وغربى، وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم فى طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهية ثم خالفتهم إلى التوسع فى العلوم الدنيوية والمباحث العقلية.

(الشيخ المتخلف)- لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع فى بنى الإنسان ونور ساطع يستضيىء به جميع الأنام فلا يختص به أهل أقليم دون أقليم ولا أهل ملة دون ملة ولايقف الإنسان منه عند حد، ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات

وتفرق الأجناس عن اجتناء ثمره من أى لسان كان وفى أى أمة كانت وفى أى عصر من العصور، وما فى الأديان دين يبعث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأى وجه من الوجوه مثل الدين الإسلامي ولكن قد فشا فى علمائه داء الكسل فاقتصروا فى طلبهم للعمل على نيل رتبة العلماء دون العلم فى ذاته واعتقدوا أنهم على الهدى ومن سواهم فى ضلال.

(الباشا)- قل ما شئت فى تكاسل علماء الدين الإسلامي وسوء تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلساً لهم من مجالسهم ضاق منه صدرى وعيل صبرى ولا أزال كلما تذكرته جاش بى الهمُّ والغمُّ وتملكنى الأسف والحزن، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كُل الإحسان بتوسعك فى الاطلاع وتبحرك فى طلب العلم، وتعلقك بأسباب العلوم الأوروبية، ولكننى مع ذلك لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع وتستدرجهم إلى الخلط والخبط وقل فى الناس من يحكم نفسه للتوسط فى الأمور والاعتدال فى المطالب والوقوف عند الحد ولست أدرى إلى اليوم يعلم الله أى العالمين أضل سبيلاً وأسوأ مصيراً، العالم الذى يتخبط فى ظلمات الخرافات ويضرب فى تيه الترهات ويغوص فى لجج الأباطيل بلباس الدين أم العالم الذى يوغل فى علوم الأوربيين ويأتم بسنة المخالفين للدين ويغتر بتمويه المموهين فيضله الله على علم.

(الصديق)- ليس هذا وقت الجدال فى تلك المباحث الدقيقة والتفتوا بنا إلى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنون.

(الباشا) ملتفتاً- نعم أصبت، وهل لك أن توفق لى بين حالة المغنين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء وبين ما سمعته آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال فانظر إليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه والآخر يتثاءب ويتمطى وهذا يبصق يَميناً ويمخط شمالاً، وذاك يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة وتأمل فى هذا الواقف منهم فوق المنصة على رجل واحدة وبيده الرجل الأخرى يخلع منها نعله فى وجوه الحاضرين، وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من سكون النفس واجتماع الخاطر وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس إليه.

(الصديق)- لا تؤاخذهم بما هم فيه فإنهم نشأوا فى أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن فى ممارستها حطة ونقصاً؛ فصغرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدادون أو هم والبناؤون سواء بسواء وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي وكما يجيء لا كما يرضى، ولا يغيب عن فطنتك أنه لابد للمغنى من أن يثق فى نفسه بتأثير غنائه فى نفوس السامعين حتى تثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الانفعال فتتصل القلوب وتتجاذب الأرواح وتصعد به نفسه فى مراقى الفن وتسمو به فى صناعته إلى مدارج الكمال، وإلا كان المغنى إذا غنى فى غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يسرج للأعمى سراجاً فيحل به من التوانى والفتور ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ويمحو بهجة الفن، وإنك لتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معى نظرة إلى هيئة السامعين فى هذا المكان، فعن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون بإشارة تحية أو إيماءة تعطف فهم لاينفكون طول ليلهم فى قيام وسلام للتزلف إلى الكبراء والحكام وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم، وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لاينتهون أبداً من المناقشة فى صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون برهة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء فى الوقائع المختلفة والنقط[1] المشتبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها فى مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح ما لديهم من المشاكل والدعاوى، ومن قدامك طائفة من الأمراء والحكام لاهم لهم إلا أن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامهم بالتأنق فى الجلوس والتكلف فى الشمائل والانتفاخ فى الثياب والفتل فى الشوارب أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والأصنام -فسألوهم إن كانوا ينطقون- ولئن نطقوا بكلام فإنما يدور على أن اليوم كان شديد الحر وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل، ومن خلفك ثلة من الأحداث، وشبان لم يربهم الزمان، مرمى الغاية

(١) ط٣ المسائل.

عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد، وأن تفرغ أجسادهم منها فى قالب من حديد، فهم لايتحركون حركة إلا بألف حساب، خشية أن ينفرط نظام الثياب، فإن قعدوا فكالقاعدين للمصور فى حفظ الأشكال والأوضاع، وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الأجذاع، ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء، اشتغلت ألسنتهم بذكر الغلمان والنساء، ورووا عن ابن فلان أو بنت فلان ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الأبدان، ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماع الغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم، فكيف يتيسر للمغنين فى هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم أو يتفننوا فى صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن.

قال عيسى بن هشام وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مر السحاب، فانقض على الواقفين عند الباب، كأنه بارقة شهاب، أو نازلة عذاب، يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين، فى صدور القاعدين والقائمين، لايشك من رآه أنه أسير حُلَّ عنه الوثاق، أو عبد من العبيد يطلب الإباق، فالتفت الباشا يسأل الصديق: أجدار هوى فى البيت أم حريق؟

(الصديق)– لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت بقدوم جماعة من رجال الإفرنج ونسائهم.

(الباشا)– أتراهم يريدون إقامة ألعاب إفرنجية مع الأغانى العربية؟

(الصديق)– ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الأوروبيين فى البلاد الشرقية يتشوقون فى مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق فإذا سمعوا بحفلة عرسٍ هرعوا إليها بنسائهم وأولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والأخلاق.

(الباشا)– قد تبين لى آنفاً أن صاحب العرس من أهل الصعيد فأى صلة بينه وبين سياح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم فى عرسه أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين؟

(الصديق)– هم من المدعوين لا من المتطفلين، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم ويفقه لسانهم، ولكن حضورهم فى حفلة

العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ينشرح به صدره ويزهو به عنده قدره ويراه فخراً له يعلو به ذكره ومجداً للبيت يرتفع به عماده، وهو فى دعوتهم بالخيار إما أن يرسل إلى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعوها على من يكونون فى خدمتهم من السياح فيبيعها التراجمة إليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهى العامة، ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة وإما أن يترقى صاحب العرس فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس فى الليلة الفلانية ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة إلى العرس، فإذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم هرع إلى حسن استقبالهم وبالغ فى التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء ونسى كل من فى العرس سواهم وتفرغ طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس، وانظر إليه كيف يتيه عجباً ويشمخ كبراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهم إلى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهم على رؤوس العظماء والأمراء فى صدر المكان،

(الباشا)- وما هذا الذى أراه فى أيدى النساء يحملنه معهن كأنه الأسفاط فيها الحلى لهدية العروس فهل بلغ بهن الكرم إلى تكليف أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لايعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل؟

(الصديق)- هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بها مناظر الحرم وصور النساء فى زينتهن وتبرجهن وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادين بها إذا رجعن إلى ديارهن، وربما نسخت منها ألوف النسخ لتباع فى الأسواق الأوربية وتنشر هناك للاستهزاء والسخرية.

قال عيسى بن هشام ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات إلى الحرم، كالصاعدات إلى الهرم، تقدم إلى صدر المكان، ونظر فى الوجوه بإمعان، ثم دنا من طائفة الكبراء والأمراء، وقصد الأمير المقدم فيهم بلا مراء، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام، ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام، فقام الأمير يمشى أمام الصفوف فى خيلائه، مشية القائد يوم بلائه، وفتح له الباب ففتح المائدة ولا فتح سعد للقادسية،

والمعتصم لعمورية، ومحمد للقسطنطينية، ولافتح جده الأعلى للأقطار الحجازية، وبخلت فى أثره صفوف الجموع، وهم فى سكون وخشوع، دخول التقاة، للصلاة، والعفاة، للصلات، ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل، على الحصون والمعاقل، لا بل هجوم الأسود الضارية، على الأشلاء الدامية، والذئاب الخاوية، على الشياه الراعية، والنسور على القبور، والذباب على الشراب، واشتد الزحام، وزلت الأقدام، وضلت المذاهب، واصطكت المناكب، وشخصت الأحداق، وامتدت الأعناق، وتهدلت الشفاه، وتحلبت الأفواه، وتحركت الأشداق، وتقارعت الأطباق، وتصاولت الأيدى بالمدى، كالظبى، فى الوغى، والتفت الساق بالساق، واشتد الهول وضاق الخناق، ثم انجلت المعمعة عن شهداء التخم، وأسراء البشم، وقتلى الطعام، وصرعى المدام،

بأجسامٍ يحرُّ القتل فيها وما أقرانُهَا إلاّ الطعامُ

ولعبت الكؤوس، بالرؤوس، والشمول، بالعقول، والراح، بالأرواح، وذهبت العقار، بالوقار، والبطنة، بالفطنة، فاختلط الحابل بالنابل، والعالى بالسافل، والرفيع بالوضيع، والأمير بالحقير، هذا يمزح ويقهقه، وذاك يتمتم ويتهته، والآخر يقىء طعاماً، وسواه يقىء كلاماً، ولم نسمع بينهم من قول يفهم ويعقل، أو حديث يؤثر وينقل، إلا ما سمعناه يدور بين شاب متكلف متصنع، وكهل مجرب متضلع:

(الكهل)- أليس من أسوأ الأسواء وشر البلاء ما نراه من حال هذا الصعيدى صاحب العرس كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده وانسلخ عن مألوف العادة فى قومه ودياره وطفرة واحدة إلى العمل بعادات الغربيين والتقليد لبدع الإفرنج، فجرى فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملائمتها لطبعه وكيف لا يرثى لحال هذا المسكين وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه، فهو فى حيرة وذهول لايدرى ما يصنع ولا يعلم ما يفعل فى وسط هذا السوق القائم والزحام الهائل وانظر إلى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصبوب عليه من أغلب الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة وارتكب ما يخالف العادة ثم اشهد معى بأنه أساء إلى نفسه وجنى على أهله.

(الشاب)- ما أراه إلا أنه أحسن صنعاً وأجاد عملاً وأخذ بالسنن الأرشد فى التحلى بشعار المدنية والتعلق بأسباب الترقى فى الحضارة وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن فى السير على النهج الغربى لهواً كان ذلك أو جداً وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الأفكار القديمة فترتفع الأمة وتنتفع البلاد.

(الكهل)-[1] أى نفع يرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور، ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الأرياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوروبية ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق -لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تمسى خراباً وأن تصبح المزارع بأيدى الأجانب الذين يقلدونهم فى امتلاك الأطيان وزراعة الأراضى كما يقلدونهم هم فى باطل المدنية وزخرف معيشتها.

(الشاب)- أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدن بين الأحواض والمستنقعات فى قرية أبيه، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه، فيستبدل المقاصير بالخيام، والكهرباء بالمشاعل، و«البوفيه» بالسماط، والصحاف بالقصاع، والأباريق بالجرار، و«الديند» بالدفين، و«المايونيز» بالعصيد، والهليون بالفول، وعش الغراب بالحلبة، و«الموستاردا» بالمش، و«المربى» بالرطب، و«المانجو» بالدوم، و«الكريز» بالجميز، و«الشمبانيا» بالمزهر، و«الكاب» بالحليب و«الكنياك» بعرق البلح، والموسيقى بالمزمار، والأوتار بالأذكار، و«البيانو» بالأرغول، و«الأوركستر» بالرباب، و«الباللو» بالسحجة، و«مس أوستن» ببنت أم شنب، و«موكب الزفاف» بلعب الهوارة، ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة، وكتبة المراكز والصيارف، بدل أمراء البورصة والمصارف، ويضع على رؤوسهم سعف النخيل والعراجين، بدل أكاليل الأزهار والرياحين.

(الكهل)- يكفيك فقد أسهبت فى الشرح والوصف، وأنا أقول لك نعم يعجبنى أن

---

(١) هذا الخطاب للكهل عبارة عن اقتباس طويل من مقام كتبه المويلحى ونشره فى م ش١٠٢ (٢٦ ابريل ١٩٠٢) بعنوان «حادثة فرح».

يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ما دام من عاقبته عمران البيوت وحفظ الأموال وبقاء الأحساب وإطعام المساكين وبر الأقارب وإسداء الخير للأصحاب والجيران وإدخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها، بهذا ينتفع أهل البلاد ويرضى الناس بعضهم عن بعض، ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما أراه ما دام من ورائه عواقب الخراب وسخط الناس وعقوق الأهل ولصوق العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير، ومن الذى يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل العريق النسب فى أهل الصعيد أهل الشهامة والحمية وذوى الغيرة والأنفة، ومن حوله الخصيان على ما نشاهده الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم وهو يعرف حكاية الأعرابى الذى سقوه الخمر فى أحد الأعراس ولم يكن ذاقها من قبل فلما ثارت به سورتها قال لمن حوله من أهل البيت «إن كان نساؤكم يشربنها فقد زنين ورب الكعبة»، ولست أدرى على كل حال ما هو الغرض الدافع لصاحب هذا العرس إلى احتمال كل هذه الفضائح والمعايب فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بتبذير تلك الأموال الطائلة فى إقامة الاحتفال فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ما نسميه ونراه وليس فيهم إلا كل منتقد لعمله معترض على فعله، يرميه بعضهم بالتقصير ويرميه بعضهم بالتبذير، وإن كان الغرض من هذا التوسع فى الإنفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوه أخرى تفيده وتفيد الناس، ولابتناء المحامد سبل شتى ترضى النفوس وتسر القلوب ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها وبذل النصف الآخر فى باب من أبواب البر والإحسان، مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ولأقاموا لمجده صروحاً من طيب الأحدوثة وجميل الثناء.

قال عيسى بن هشام وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويعدونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان، فلم يسمع لهم أحد ولم يلتفت إلى صياحهم فأخذوا فى التصفيق بالأكف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج فلم ينتقلوا ولم يتحركوا، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا الأضواء

وتركوهم يتخبطون فى الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون الأبواب فسبقناهم إلى الخروج والتقينا فى خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان فى هذه الحال ويتخاصمان فى شدة السكر فلطم أحدهما صاحبه فسقط على الأرض يتخبط فى قيئه، وينشد هذه الأبيات فى هذره وهزئه:

شربت الخمر حتى قال صحبى ... ألست عـن السفاه بمستفيق
وحتى ما أوسد فى مبيت ... أنام به سوى الترب السحيق
وحتى أغلق «البوفيه» دونى ... وآنست الهوان من الصديق

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهاً وعجبا ويصعر خده صلفا وكبرا:

شربت الخمر حتى خلت أنى ... أبو قابوس أو عبد المدان

وسمعنا فى الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم فسكت المغنون وضج المكان واضطرب الحاضرون، ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسى يتطاولون لمشاهدة العروس وهو فى زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفة فقام أحد الحاضرين فصعد على منصه المغنين صعود الخطيب على المنبر فشخصت نحوه الأبصار ومالت إليه الأسماع وإذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: «أيها الحاضرون والغائبون هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور، على منابر الحبور، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور، من سماء القلوب وأرض الصدور، وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون، فانجلت عن بصائرنا غمائم الأحزان ووبل الشجون، ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان، الراكبين فيه لحيازة قصب الرهان، ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف، بحروف الرماح ورماح الحروف، ولا من الممتطين فى شروح البلاغة متون الضوامر، ولا من السابحين فى بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر، ولا من الساحبين حلة سحبان، ولا من المتدرعين فى حصون المعانى والبيان، وقد حيل بين العير والنزوان، إلا أن ما أعرفه فى هذا العروس من العلم والإقدام، وما له فى مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام، وما أعتقده فيه من محبة الأوطان، ومصادقة الإخوان، كما أن ما أعلمه وأتحققه فى العروس

التى تزف إليه هذه الليلة، من علمها بتدبير المنزل وفروض العيلة، وما هو مشهور عنها لدى كل قاصٍ ودان، مما يوجب حسب القبول والامتنان، وما شهد لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس، بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس، وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح، وأتوسمه فى جباههم من الفرح والانشراح، كل ذلك هو الذى جرأنى على الوقوف فى هذا الموقف الحرج، وسط بحر هذا العرس المتموج، وأنى أتوجه إليكم بوجهى لتضربوا عن تقصيرى صفحاً، وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحاً، وأطلب منكم أن تشربوا معى نخب الكؤوس، فى نخب العروس، وتقولوا معى فليحيا هذا الشاب في هناءٍ وسرور، ورخاء وحبور، ممتعاً بنشأة الرفاء والبنين، وناشئة الأولاد الناجحين، ما ناح القمرى فى رياض البساتين، وصاح الأخدرى بين الأعشاب آمين آمين».

ثم نزل الخطيب فقابلته الأكف بالتصفيق والأفواه بالتهليل والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام، ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام، فأنشد هذه القصيدة النادرة، والمدحة الباهرة:

أوقات الهناء الصافيات — تجلِّى الإنس من كل الجهاتِ
لقد قام البشير بها ينادى — على أهل العروسين الهداة
وفى تلك الصدور الفرحُ يجرى — كما تجرى خيول الصافنات
فبشرى أيها الشهم المفدَّى — بخير الغانيات الآنسات
ظفرت بدرةٍ فى عقد ماسٍ — من المتأدبات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأفق بدراً — إلى شمس الهدى والمكرمات
تغذت بالمعارف والمعالى — فحازت زينة المتعلمات
يرجَّى أن يكون كذا بنوها — لدى أيامنا المستقبلات
بهم تزهو الشبيبة فى المرامى — وتغدو للحمى أقوى الحماة
بهم ترقى المواطن مرتقاها — وتصبح قدوة المتربيات

كجـيش فـى البــلاد عرمرمــىّ   وجنــد فــى الحــروب مــبرّزات

وتمشــى التيــه فى أوج المراقــى   وترفــل منـــه فــى حــلل الثبــات

فتصــبح أنــت خير أب كريم   وتصــبح تــلك خــير الأمهــات

ودمــتم بعــد ذاك بألــف خــير   ونعمــى بالبنــين والبنــات

ولولا الاختصار وضيق وقــت   لجئــت بألــف بيــت شاهقــات(١)

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب، وعاد المغنون إلى اللحن والتطريب، فأخذت **أجيل النظر وأقلب الطرف، من ركن إلى ركن ومن صف إلى صف، فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء، من هو ملتفت إلى سماع الغناء، بل رأيتهم يوجهون النظر إلى السماء، ويكثرون من الإشارة والإيماء، كمن يتضرع بالدعاء، لكشف المحنة** (٢) والبلاء، فرفعت مثلهم نحو السماء بصرى، فدهيت من حيث أدرى ولا أدرى، إذ رأيت نوافذ الدار مهتوكة الأستار، وفى كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب، كالدمية فى المحراب، أو كالصورة تتألق فى إطارها كالشهاب، أو كالبدر بدا مسفراً من خلل السحاب، تنفذ منها مثل خيوط الغزالة للمغازلة، وتجرد من اللحظات مثل سيوف الكماة للمنازلة، فتصيد طيور القلوب الحوائم، وتفتك بمهج النفوس الروائم، ثم تراها تومئ بكأس الصهباء، إلى شفتها الحمراء، وتلمس واسطة العقد، بزهرة من الورد، فيشتبه على الرائى وجه الأمر، باختلاط اليواقيت كالجمر، ياقوتة الخمر بياقوتة الثغر، وياقوتة الزهر بياقوتة النحر، ثم لاتفتأ ترسل الإشارة تلو الإشارة، تارة بالمروحة وأخرى «بالسجارة»، مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور، وتفصح إفصاح المعانى فى السطور، والرجال من تحتهن يجاوبونهن على أعين النظار، طوراً بإشارات الأيدى وطوراً بلغة الأزهار، وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه، وتغلب على أهل النوافذ بهواه، وأضرم فيهم نار العشق وجواه، وخلع

---

(١) م ش٦٤ هذه القصيدة والمقدمة لها غير موجودة فى المقال الأصلى.

(٢) م ش٦٤ مكان «ثم انتهينا بحمد الله... المحنة والبلاء»: ولما جلس الناس للسماع قال الصاحب للباشا. (الصاحب) انظر الآن إلى جماعة الحكام والأمراء الذين كانوا كالأصنام لايتحركون فى جلوسهم كيف تغيرت هيئتهم وأخذوا ينتقلون من مكان إلى مكان. (الباشا)· نعم صدقت ومالى أراهم يشتغلون بالنظر إلى السماء ويكثرون من الإشارة كأنما هم يتضرعون بالدعاء لدفع نازلة أو طلب رغيبة.

قلوبهن دعواه، وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم، أو أخواتهم وبنات أخواتهم، والمغنى يستقبل وجوههن فى هذه الأثناء، بوجه ليس فيه أدنى حياء، فيغنيهن من الأصوات والألحان، ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان، والخصيان يصعدون إلى الحرم بأوراق وينزلون إليه بأوراق، يتخيرن فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق، فى وصف حرارة الأشواق، ومرارة العد والفراق، وما زالت الحال تتزايد قحة ووقاحة، وتتضاعف هتكاً وفضاحة، حتى قام فى وسط المكان جماعة من الأصحاب، يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب، ثم أنهم انتقلوا من التلاعن والتشاتم، إلى التضارب والتلاكم، فقام الحاضرون على الأقدام، لمشاهدة ميدان النزال والخصام، ثم تداخل[1] رجال الشرطة بينهم لفض المخاصمة، وسوقهم إلى المحاكمة، بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق، وتخضبت الوجوه بالدم المهراق، فصارت الأفراح أتراحًا، وانقلب الغناء نواحاً، وقلت لصاحبى هلم بنا إلى الفرار، من مواقف التهمة والعار، وخرجت به أسوقه أمامى، وأقول له فى بعض كلامى، لقد حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا، وبلونا وخبرنا، أن تلتهب بالغضب والحنق التهاباً، أو يذهلك الدهش والعجب فلا تعى جواباً، وهل بقى بعد هذا فرق بين سرور الدنيا وحزنها، أو فضل لظهر الأرض على بطنها، فأجابنى بلسان الحكيم المدرب، والحليم المهذب، وهو يبتسم استهزاءً، ويهز كتفيه ازدراءً، لم يبق فى بفضل الحكمة فضل للسخط والغضب، وعجبى اليوم مما أرى يكون من العجب.

***

* قال عيسى بن هشام وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع، لدرس الأخلاق وسبر الطباع، وتبدلت الوحشة عنده بالائتناس، فى مخالطة الناس، فصار يلح على ويلج فى الطلب، أن أذهب به فى هذا السبيل كل مذهب، وأنا أداوره وأحاوله، وأماطله وأطاوله، وهو لاينفك يستنجزنى ويستقضينى، وإذا استعفيته لايعفينى، فقلت له لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات، إلا ما اشتملت عليه الأبكية من المخجلات

---

(١) ط٤ توسط.

(*) أضيف عنوان «العمدة فى الحديقة» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش٨٠، ٩ نوفمبر١٨٩٩ ونشر هذا المقال بعد فترة شهر ونصف ولذلك كانت البداية عبارة عن تلخيص لأهم صفات المجالس التى زارها عيسى والباشا والتى نشرت فى سلسلة «فترة من الزمن» بعد زيارة «العرس» (والتى توضع بعد هذه المجالس فى نص حديث عيسى بن هشام).

المنديات، وما تتضمنه من صنوف الرجس والنكر، وفنون الفسق والسكر، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنة والتهمة، وأن أحلك محال الريبة والشبهة، وأربأ بسنك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر، وتدخل معهم فى تلك الغمر، وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون، وشروى ما يفعلون، فلا نأمن حينئذ نقد الناقدين، وطعن الطاعنين، وقاسمته إنى لك لمن الناصحين، فقال: ألى تقول ذلك وقد آتيتنى من دروس الحكمة العالية، وضروب الفلسفة السامية، ما أزدرى معه عذل العاذلين، وأحتقر به لوم الجاهلين، ولن يضير النفس الشريفة الطاهرة، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة، وقل أن يعدى المريض الطبيب، وتذهب رائحة الدفر برائحة الطيب، والإمعان فى رؤية النقيصة والرذيلة، يزيد النفس الفاضلة تمسكاً بالفضيلة، ولا يعرف قدر الرشد والهداية، إلا من نظر فى أعقاب الضلالة والغواية، وبالظلمة يعرف فضل الضياء، وبضدها تتبين الأشياء، ذلك من فضل ما علمتنى مما علمت رشداً، ولقد كان من أدب الحكام فى أيام دولتنا، وزمن صولتنا، أن يغيروا من هيئاتهم، ويستروا من سماتهم، ويبدلوا من أزيائهم المعروفة، بأزياء غير مألوفة، ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم، ويقفوا على جلية أمرهم وحقيقة أحوالهم، فلم يكن ذلك مما يضر بسمعتهم، أو يحط من رتبتهم، عند ظهور أمرهم، ووضوح سرهم، فلا عليك إذاً أن تسلك بى ما شئت من المسالك، ولاتخش على شيئاً من تلك المعاطب والمهالك.

قال عيسى بن هشام ولما لم يبق لى بد من امتثال حكمه، وتنفيذ عزمه، قصدت به من الأزبكية روضتها الغناء، وحديقتها الفيحاء، فلما وصلنا إلى بابها، ووقفنا عند دولابها، وضعت فيه أجرة العبور، كما توضع النذور فى صندوق النذور، ودرت فيه دورتى ودار الباشا دورته، فقال لى وهو يدافع الغضب وسورته، هل كتب على الداخلين فى هذه الجنة الزاهية، أن يدور الانسان دورة الثور فى الساقية، فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس فى جميع الأشياء، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء، لتكون عليهم رقيباً عتيداً، لايستطيعون معها اختلاساً ولا تبديداً، فهى ترقم من الداخل عند كل دورة، ما ينقده الداخل فيها من الأجرة، فلا يضيع منه مثقال ذرة، ولما **جاوزنا الباب**[1] أعجب الباشا

(١) م ش-٨٠ تخللنا خلال مالكها وجلسنا على أريكة من أرائكها.

حسن المنظر وازدهاه، وراقه بهاء المكان واستهواه، وتملكه الابتهاج وتولاه، فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لمن هذه الجنة من كبراء البلد، قلت هى ملك كل واحد وليست بملك أحد، أنشأتها الحكومة من «المنافع العامة»، لنزهة الخاصة والعامة، ثم سرنا نطوف فى أنحاء الحديقة، بين أشجارها الوريقة، وأغصانها الرشيقة، وأزهارها الأنيقة، والباشا يهتز طرباً، ويميل عجباً، لحسن هذا المنظر العجيب، والمنبت الخصيب، ثم وقف بنا وقفة بين برد الظلال وخرير الماء، ورفع ببصره يقدس باسط الأرض ورافع السماء، ثم رأيته ينحنى للركوع انحناء القوس، بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس(١):

أرضٌ إذا جرَّدتَ فى حسنها　　　فكركَ دلتّكَ على الصانعِ

وسمعته يتلو فى الركوع والسجود، قول صانع الوجود: «لله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال» وقوله أيضاً عز من قائل: «يسبح له السموات والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم».

ثم انثنيت به فى طلب الراحة، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة، ودارت بيننا هذه المخاطبة، بما اقتضته المناسبة(٢):

(الباشا)- كيف لايكون هذا المكان بالناس غاصاً وبالمتنزهين مزدحماً يشاهدون جماله ويتفيأون ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحته لكل رائحٍ وغادٍ كما تزعمه، وما لى لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب فى أزيائهم بأبنائهم ونسائهم فهل وقفته الحكومة على الغربيين وحرمته على المصريين فإننى لم أجد فيه أحدا منهم منذ دخولنا إلى هذه الساعة.

(عيسى بن هشام)- لم تؤثر به الحكومة قوماً دون قوم ولكن المصريين كأنهم ألفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها وأخصها معرفة ما حسن فى الأشياء وتمييز الجمال والكمال ومواضع الإحسان والإتقان فى صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبح بحمد خالقها أى تدل عليه

---

(١) م ش-٨٠ «والمنبت الخصيب... حبيب بن أوس» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش-٨٠ مكان «وسمعته يتلو... بما اقتضته المناسبة»: وبعد أن نظر الباشا ذات اليمين وذات الشمال التفت إلىّ وقال:

بصنعته فيها، وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإمعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والأقمار والنجوم والكواكب ولا فى خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال وهى بجمال صنعها وكمال وضعها:

تَصيحُ بمن يمرُّ ألا ترانى   فتفهمَ حكمة الخلقِ العجيبِ

(الباشا)- جل الخالق الصانع، ولكن لأى سبب ألف المصريون غفلتهم عن التمتع بهذه النعمة نعمة المشاهدة ولذة المطالعة وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عليهم.

(عيسى بن هشام)- لاسبب فيما أعلم إلا التمادى فى التهاون والتراخى عن إيقاظ هذا الشعور الغريزى الكامن فى النفس وتنميته بالرياضة والتفكير ومعاودة الإمعان والتدقيق، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم ملكة من الملكات وفناً جميلاً من أرقى الفنون فدربوا عليه ومرنوا فيه وسرى فى دمائهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج وأراد أن يتحف أهله يوماً بادر إلى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع وتسابق بها إليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم، ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه، ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الطبيعية بل تجاوزه إلى المرئيات الصناعية ففيهم من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم من الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور أو دائرة من الشفق أو راع من الرعاة أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى الأصل الطبيعى وبين قيمته فى الشكل الصناعى، وقل أن تدخل دار ميسور منهم إلا وتجد أنحاء الجدران مزدانة بألواح التصاوير والتهاويل مما يحاكى المناظر الطبيعية، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن المنظر فى داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها، ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس فى اقتنائها والتغالى فى التحفظ عليها والضن بها فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بيننا ولايعبأ بها المصرى فيطرحها فى كناسة منزله فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الأجنبى فى

بحثه وتنقيبه فتصير عنده فى قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد، وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن وما عفا من الرسوم فى هذه الديار وربما رأينا المصرى ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة فى جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد وربما لم يلتفت إلى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت.

(الباشا)- تالله إن ذا لمن العجب ولو كان الأمر يجرى على القياس لكان المصريون فى مقدمة الأمم التى ينمو فيها الشعور بلذة التأمل فى بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لرقة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال فى نفوسهم ولما ميزهم الله به من حسن الإقليم واعتدال الجو وفيض الماء وخصب الأرض، ولانحصار موارد أرزاقهم ومعايشهم على استنبات الأرض وطول ممارستهم للفلح والحرث والزرع والحصد وكل من رأى الإقليم المصرى كالزبرجدة الخضراء فى وسط رمال الصحراء لابد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذى يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر فتصفو الروح فتخف من قيود العالم السفلى إلى الاتصال بمعارج العالم العلوى فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام وتفر من وجهها برهة إلى وجه ربك ذى الجلال والإكرام، واعلم- وهذه لفظة طالما أفادنى تكريرها على لسانك فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب- أن الفرق بين الإنسان والحيوان لاينحصر فى الخلقة ففى الخلقة ما يشبهه ولا فى النطق ففى الحيوان ما ينطق ولا فى الذكاء ففى هوام الأرض ما يفوقه ذكاء وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضلها بها هى إدراك حقيقة الوجود بالإمعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتداء إلى معرفة خالقها وعبادة صانعها، قال جل وعز فى محكم بيانه: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر فإنما أنت مذكر»، هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات وهى أشرف اللذات وأصفاها وأفضلها وأبقاها وما يتقرب العبد إلى الله زلفى فى عبادته بأجل من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه قال وهو أحكم القائلين:

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار»، ولايقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا من تجرد مثلى يوماً من عالم الأجسام والفناء إلى عالم الأرواح والبقاء وما ينبئك مثل خبير.

ولو كانت الأمور تجرى على القياس أيضاً لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسعوا فى نموها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور فمن جهة انصرافهم إلى تقليد الغربيين والعمل على نمطهم فى مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً فى جميع حركاتهم وسكناتهم ولكن لعل هناك من خفى الأسباب ما حرمهم من إطراد التقليد فى هذا الباب.

(عيسى بن هشام)- لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم إلى الفتور والانكماش سواء كان فى الماديات أو الأدبيات وهم على شدة ولعهم بتقليد الأجانب لايقلدونهم إلا فى ما خف وهان من الزخرفة المموهة والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لاينتج عنه إلا سقم الأجسام ونفاد الأموال وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فمجهول عندهم بل مرذول لديهم، وإجمال القول فى هذا الباب إن مثل المصرى فى أخذه بالمدنية الغربية كمثل المنخل يحفظ الغث التافه ويفرط فى الثمين النافع.

(الباشا)- يا أسفاً عليهم كأنهم تخلوا عن فضائل مدنيتهم القديمة ولم يتحلوا بفضائل المدنية الحديثة فأصبحوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[1].

قال عيسى بن هشام وما زال الحديث يجرى بنا على هذا النحو[2] حتى وصلنا إلى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة فرأينا صنعاً جميلاً وشكلاً بديعاً وأعجبنا

---

(١) م ش٨٠: كلام الباشا هذا غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش٨٠: (بعد «على هذا النحو»): وأنا مقيم بين طربين لا أدرى أيهما أوقع فى النفس وأخذ بمجامع القلب طرب السمع من كلام صاحبى والفرح بما وصل إليه من علو الفكر وسمو المدركة وأدب النفس وكرم الطبع أم طرب البصر من منظر الروض وقد وشحت الشمس بوشاحها بين الأصيل والطفل وتذكرت قول أحد الخلان فى وصف ذلك الروض الأريج والمنظر البهيج:

لمنظر روض الأزبكية بهجة ... تقود قلوب الناظرين إلى الطرب
إذا جئته وقت الأصيل رأيته ... زمردة خضراء فى ختام الذهب.

تدفق الماء من ثنايا الأحجار فجلسنا على سرر هناك أعدت للزائرين، وإذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات إلينا فلقمنا نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم أن أحدهم عمدة من عمد الأرياف وثانيهم تاجر من تجار الثغور وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة، ومما التقطناه من قول العمدة للخليع فى مجرى حديثه:

(العمدة)- وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئاً، وهل كان جل القصد ومنتهى الجد أن نجلس هنا فى وخامة الأشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء، وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذى خلفته خلف بلدتنا ولعمرى إن الأوز الذى يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمناً من الأوز الذى يسبح أمامنا، وما الفائدة فى طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التى لاتثمر ولاتغنى من جوع، وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذى وعدتنا به **وأطعمتنا فيه**[1].

(الخليع)- مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء وإن كنا أخطأنا الغرض هنا لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها وما كنت أتخيل أن الأمر وصل بها إلى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان إلا منذ أخبرنى أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلو يدها من الأشغال فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول فى أنحائها، ولا أقول فى هذه النازلة إلا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

(التاجر)- وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرتعاً للحسان وملعباً للقيان ولطالما دخلت هنا وحيداً فريداً فما أكاد أنصب الحبالة وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع.

(العمدة)- يعلم الله أن العاصمة[2] أصبحت على حال لاتصح معها الإقامة إلا مسافة قضاء الحاجة والرجوع إلى البلد فوراً وإلا فقد عرض الواحد منا دراهمه للضياع

(١) م ش٨٠: «وأطعمتنا فيه غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش٨٠. القاهرة.

وصدره للانقباض، وإلى الآن ترانى فى غاية الأسف والحزن على ما جرى لى أمس فى سهرتى مع فلان الموظف إذ جرنى للنزهة معه فطاوعته على هواه أملا فى إنجاز حاجتى عنده فسحبنى **من مكان إلى مكان**[1] ومن حان إلى حان يشرب هو وأصحابه على حسابى وكأنما أجوافهم دنان متخرقة فلا تمتلئ أبداً من الخمر وكأنما كيسى كنز لا يفنى بالإنفاق وما كدنا ننتهى من حانات الخمر حتى اندفعوا بى إلى بيوت القمار فأصبحت مصدع الرأس من الخمر فارغ الكيس من القمر.

(التاجر)-[2] ولم تطاوعه على أغراضه وتنقاد إليه مع أصحابه وتتفق مثل هذا الإنفاق من غير حظ ولا لذة، وإن كانت لك حاجة ترجو قضاؤها منه كما تزعم فيكفى فى ذلك أن تضع المبلغ المناسب فى يده وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايرهم ولاتعرض نفسك للتورط معهم كما فعلت.

(العمدة)- يحق لك أن تعترض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار فى المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فإن أشغالكم لاتتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة فى الأرياف، فنحن فى اضطرار دائم إلى استرضائهم «والمبلغ المناسب» الذى تقول عنه لايكفى وحده فى قضاء الحاجة بل يلزم من الإنفاق عليهم فى كل زمان ومكان علاوة على تلك المبالغ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة فى الحال، وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً فى تعطيل عمل كبير وما يدريك أن الذى تغضى عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك إليه فى حانات الأزبكية يصبح غداً قاضياً فى المحكمة أو حاكماً فى المديرية.

(الخليع) مقاطعاً- إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه إن شاء الله.

(العمدة)- أنصدقك فى وجود العوض وقد أخلفت وعدك معنا فى هذه الحديقة وآذن الليل بالدخول وليس فى اليد شىء من الصيد.

(الخليع)- صدقنى بالله فإنى ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة لأننى كنت مقيماً بحلوان مدة طويلة وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول، ولكننى قد

---

(١) م ش٨٠: إلى أماكن شتى من أماكن الأزبكية.

(٢) م ش٨٠: (مكان كلام التاجر هذا): ولم هذا الإنفاق وهذا الانقياد وحاجتك لم تكن إلا عند شخص واحد.

رتبت لك الآن سهرة فى فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فإنى أعرف صاحباً لى أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل وسأكتم عنها أمركما إلى أن تصير معى فى الموضع الذى أختاره ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتينى بكما فيكون دخولكما على حين غفلة فلا تستطيع الاختفاء ثم تضطر إلى البقاء فى مكانها وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأنس والسرور، ولكن لا أخفى عنكما إن مقدار ما معى من الدراهم الآن لايكفى لإعداد معدات هذا المجلس وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لأخذ دراهم أخرى أن يمنعنى أهلى من الخروج ثانية كما هى العادة عند النساء فى التضييق على الرجال.

(العمدة)- لا عليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة.

قال عيسى بن هشام- **وقاموا**[1] فى الحال للسعى وراء الفسق والمجون، وقام الباشا يسحبنى وراءهم للعلم بما سيكون.

***

* قال عيسى بن هشام وخرجنا فى أثر الخليع والعمدة والتاجر، وقد ألقت ذكاء يمينها فى كافر، ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء، فعادت الشمس متوزعة فى مصابيح الضياء، كالنجوم تتلألأ فى أفق السماء، وتقشع دياجى الظلماء، ولما توسطنا ساحة «الأوبرا» و«الأوبرابار»، وقف الباشا وقفة الإعظام والإكبار، يكفكف غرب الدمع والاستعبار، ويقول سلام على إبراهيم وآل إبراهيم فى النار كيف لايضطرم القلب استعاراً، ويجرى الدمع مدراراً. فلا أستطيع أوارى، ولا أستطيع أدارى، وقد تمثل أمامى فى هذه البقعة، وهى موسومة بسوء السمعة، بطل مصر، ورافع بنود النصر، وقائد جيوش الحرب وهاديها فى مفاوز الأرض وبواديها، وموقد نيران الوقائع وصاليها، وخائض غمرات المعامع وجاليها فى كل منبت شعرة من جسمه أسد يمد إلى الفريسة مخلباً وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد، فى مواضع الهزل والجد، ويقيموا لإبراهيم صنماً على صورته، فى وسط سوق الفسوق وسرته، مشيراً بيمناه إلى مواطن

(١) م ش-٨٠ وقاموا يجرون أذيال الفسق والفجور

(*) أضيف عنوان «العمدة فى المجتمع» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش٨٧، ٤ يناير ١٩٠٠.

اللهو والفجور، وأماكن الفحش والعهور، ودينه ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها، ويأمرهم بكسرها وإبادتها، ويا بؤس قوم جعلوا اليد التى كانت تشير للكماة والفرسان، فى ميدان الضرب والطعان، بمصافحة المنايا، ومقارعة الأقران، تشير اليوم وسط هذا الميدان، بمغازلة البغايا، ومعاقرة الدنان، فسبحان محول الأحوال ومبدل الأزمان، فقلت له ما هذه الأفكار المحزنة، أحنيناً إلى تلك الأزمنة، وقد انقضت بخيرها وشرها، وذهبت بحلوها ومرها، وأين أنت من طريقك فى الحكمة والسداد، ومن سبيلك فى الهداية والرشاد، فخفض عليك من حزنك وهمك، واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومك، ولاتجعل لهواك القديم عليك سلطاناً مطاعاً، فيذهب ما استفدناه من العلم ربحاً مضاعاً، أما إقامة التماثيل فى الميادين، ومخالفتها للشرع والدين، فقد أقامها حكامنا تقليداً للغربيين، ولم ينكرها أحد من طلبة العلم وعلماء المسلمين، فاستنامت إليها الأفكار، ولم يوقظها التحريم والإنكار، وأما وضع التمثال فى هذا المكان دون سواه، وإشارته فوق الحصان بيمناه، فلعل الآمر بوضعه أراد أن يذكر هؤلاء الغافلين الذاهلين، بما كان لآبائهم الأولين، من الشأن الرفيع، والركن المنيع، أيام إمارته، وينبههم إلى ما انتشر ذكره فى الآفاق، وخلدته لهم بطون الأوراق، من اقتحام المهالك، وافتتاح الممالك، تحت قيادته، وهو يشير اليوم بتلك اليد، ليستفزهم إلى مواقف العز والمجد، ويستنفرهم عن مواطن الخلاعة والبطالة، إلى مواطن الشجاعة والبسالة، فتبسم الباشا من قولى ضاحكا، وقال ما عهدتك فى الجواب محاولاً مماحكا، فقلت له دع هذا وانظر إلى هذه البنية الإيوانية، ذات الأرائك الخسروانية، فقال أعظم به من بناء بين بيوت الكبراء، قلت هو بيت لهو رفع إسماعيل قواعده، وبوأ الناس مقاعده[1]، يشاهدون فيه صنوف الألاعيب، وضروب الأعاجيب، مما يؤخذ عن أساطير الأولين، وأقاصيص الراوين، وما تفتن فيه كل غادة حسناء، من جمال الزينة وحسن الرواء، وتفتن به كل قينة هيفاء، من فنون الرقص والغناء، اقتداء بالغربيين فى ديارهم، واحتذاء لآثارهم، وقد بقى من بعده تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح، لتفكهة النزلاء السياح[2]، ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم، والموقف المزدحم، فالتفت فقال ما هذه الضوضاء العظيمة، أمأتم ما أرى

---

(١) م ش٨٧: مقاعد وليس من وراء تشييده ووضعه سوى أن إثمه أكبر من نفعه.

(٢) م ش٨٧. والسياح. ليس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أن صنع جن لأنسد

أم وليمة، قلت له لا بل هو مجتمع عام، تتزاحم فيه المناكب والأقدام، لمسامرة الأصحاب، ومعاقرة الشراب، وبينا كذلك إذ وقف أصحابنا المسير، عند باب هذا الحان الشهير، فسرنا فى عقبهم، ولحقنا بهم، فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه: كونا هنا فى الانتظار، حتى أعود إليكما بالأخبار، إنجازاً لوعدى، وإيفاء بعهدى، فأجاباه بالقبول، وتقدما للدخول، فقال العمدة للتاجر ما أحوجنى إلى تضييع الزمن، وترييض البدن، بشرب كأس من العقار، ولعب دور من «البليار». **وقال التاجر: وما أحوج يدى إلى ملامسة ورق القمار، وأذنى إلى رنين الدرهم والدينار، ثم صعدنا وراءهما إلى قاعة بأعلى المكان، أعدت للعب والرهان، فتقدم العمدة وهو يهز أعطافه وأردانه، فاستلم كرة «البليار» وصولجانه، وقعد التاجر وهو يرتعد من الفرق، فى مجلس اللاعبين بالورق، وجلسنا نحن للنظر والسمع، فى غمار ذلك الجمع[1]، فسمعت عن يمينى أحد السماسرة المعروفين بالدهاء، يقول فى مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء:**

(السمسار)- لانزاع ولا جدال فى أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية التى كان يغتنى الرجل فيها بكلمة ويثرى بإشارة فيصبح بها أغنى الأغنياء بعد أن كان معدوداً من الفقراء، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من حكامهم من يقطع الأقطاع ويهب الضياع، وبقى الغنى الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولايستربح بثروته وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم فأصبح مضطراً إلى الإنفاق من تليده فسرى النقصان إلى رأس المال حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم، وكن على يقين أنه لا يمضى جيل واحد على هذه الحال إلا ويندثر ما بقى بين المصريين من بيوت المجد والغنى، وأعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع فى الثروة والمال وكنز الكنوز فى الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيتٍ من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء، ويدفعون عنهم الضراء بالسراء وما يخفى عليك أنه بيت البورصة.

---

(١) م ش٨٧ «قال التاجر...فى غمار ذلك الجمع» غير موجود فى المقال الأصلى.

(الغنى)- اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة فقد سمعنا فى هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر(١).

(السمسار)- ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان فإن الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما، أما أحدهما فإنه كان يعتمد فى المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين العرافة السودانية أو العرافة الإفرنجية تلك بودعها وهذه بورقها، ومن نوادره فى الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلاً مجذوباً يصيح فى الطريق بقوله: اذهب يا يزيد، وكان لايزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه إلى سمساره فأمره أن يشترى له عشرين ألف قنطار فنصحه وحاول أن يحوله عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحول وهبطت الأسعار فى اليوم الثانى وتوالى هبوطها فكان ما كان من خسارته، وأما الثانى فكان جل اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب الجرائد والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم **بطرق الصواب فيها**(٢).

(الغنى)- لن تزيدنى والله براعتك فى البيان والبرهان إلا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها فى نظرى إلا أكبر باب من أبواب المقامرة والمقامرة هى عين المخاطرة.

(السمسار)- أما المخاطرة فهى لاصقة بالإنسان فى كل حركة وسكون وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسلم من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواه، واسمح لى بآخر قول أقوله لك فى هذا الباب وهو إنك أخبرتنى بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك إلى اليوم لم تبعها تربصاً لصعود الأسعار ولم تبال بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص الوزن وما يتهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق فإذا كنت فضلت الانتظار لصعود الأسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار فما الذى يمنعك

(١) م ش٨٧ «وموعظة للمتدبر» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش ٨٧. بوجودها وأعرف بتقلباتها

عن مثل هذا العمل في ثلاثين ألفا من «الكونتراتات» دون كلفة ولامشقة كالتي احتملتها في استخراج المحصول فإنك لاتدفع هنا ثمن أرض ولاتنفق على حرث ولا تؤدي ضريبة ولاتبذل ماء وجهك لرى الأطيان ولاتحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلت في قضية ولا وقعت في منازعة ولاتخوفت شيئا من الآفات سماوية كانت أو أرضية بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك في التوقيع(١).

(الغني)- **يجوز أن يكون في قولك هذا بعض ما يقنع ولكني**(٢) لا أجد نفسي تطمئن يوماً إلى ولوج هذا الباب.

(السمسار)- أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك إلى أدنى خسارة وما عليك إلا أن تجرب صدق نصيحتي فتشتري ألفين من «الكونتراتات» فتنتظر بها صعود الأسعار مع أقطانك المخزونة وأنا أضمن لك الربح ما دمت آخذاً برأيي، ولا تستمر في هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذ في النشاط والإقدام اللذين هما سر تقدم الغربيين واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و«الكونتراتات» كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير، وأنت المخير مع ذلك في ما ترضاه لنفسك(٣).

(الغني)- وكيف حال الأسعار اليوم؟

(السمسار)- كما كانت بالأمس وهي فرصة ثمينة للشراء.

(الغني)- خذ لي اليوم خمسمائة(٤) قنطار ولا تتعداها.

قال عيسى بن هشام- وتركنا هذا العصفور قد وقع في يد الصائد المحتال، والتفتنا إلى ذات الشمال، لسماع ما يدور من الجدال، **بين رجل فرغ كيسه من المال،**

---

(١) م ش٨٧. إمضاء

(٢) م ش٨٧ مهما أقمت لي من الأدلة والبرهان

(٣) م ش٨٧: لنمو ثروتك.

(٤) م ش ٨٧ ألف

ممتلأت رأسه من الآمال[1]، وبين تبيع محام من الأجانب يتلقط القضايا من كل جانب[2]:

(التبيع)- لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية وهى معروفة بجنبها وخوفها من الحكم على الحكومة فى مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقلما تبادر إلى التنفيذ أما المحاكم المختلطة فإنها لاتحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة والأهالى والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس كما أن المحاكم الأهلية لاتعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها إلى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة، ولكن أخبرنى قبل كل شىء عن تلك الشجرة هل لها ذكر فى الحجة باسمها التاريخى المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً إلى الواقف.

(صاحب القضية)- أما الشجرة فمذكورة فى حجة الوقفية أنها «شجرة العذراء» وهى قائمة على أرض سواد وأما نسبى فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغورى[3] ولكن من لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لى بمحام أجنبى وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى «مقدم الأتعاب».

(التبيع)- هون عليك من الأمر، أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة فإنه سهل هين يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب، وأما المحامى الأجنبى فأنا أتكفل لك بإقناع المحامى الذى أشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى «مقدم الأتعاب» وإنما يتفق معك على مناصفتك فى ما تأتى به القضية من الأموال، وأما الأجنبى الذى تتنازل له عن القضية فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا لتسخيره فى مثل هذه القضايا، وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية.

(صاحب القضية)- لا بأس بما تقول ولكن ليس عندى ما أستغنى عنه اليوم لتلك النفقات، ولو كنت واثقاً كل الوثوق بكسب القضية لبادرت إلى بيع الحصة التى بقيت لى

---

(١) م ش٨٧: صاحب القضية.

(٢) م ش ٨٧: «من الأجانب... كل جانب» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٣) م ش٨٧: الظاهر بيبرس.

من العقار ولكننى أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل[1].

(التبيع)- لو كنت تعلم بمهارة معلمى وماله من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرت الله فى بيع الحصة ورفع القضية.

(صاحب القضية)- استخرت الله واعتمدت على هذا الرأى.

(التبيع)- فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم، ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط.

(صاحب القضية)- أمهلنى أياماً حتى أجد من يشترى الحصة بالثمن المناسب.

(التبيع)- أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة إنما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها.

(صاحب القضية)- بينى وبينك مساء الغد فى هذا المكان.

قال عيسى بن هشام- وتركنا أيضا هذه السمكة، تتخبط فى الشبكة، ثم حولنا النظر إلى العمدة فى لعبة البليار فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية فأطارها إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب[2] فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على العمدة يريد به شراً[3] وهو يدمدم ويطمطم والعمدة يجمجم ويغمغم وكاد يقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما وأخذ بيد الأجنبى يستعطفه ويبالغ فى الاعتذار إليه حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين من «الشمبانيا» لعقد الصلح على حساب العمدة، ثم عمد العمدة إلى الجلوس فلم يمهله الذى كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش فما هى إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقه وشقه فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب «البار» ومن ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عال: كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرقه ويتلفه، ثم وقف العمدة يطالبه بثمن ما أتلف وتعويض ما عطل وقدره له بخمسة عشر جنيهاً لايتجاوز عن درهم واحد منها فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيه عداً فإذا هو لايزيد عن ثلاثة عشر جنيها فلم يقبل

(١) م ش٨٧ وتضيع على أسباب معيشتى ومعيشة أولادى

(٢) م ش٨٧: متفرنج متبرنط.

(٣) م ش٨٧: شراً وحال التاجر بينهما.

منه فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرها وجلس العمدة متكدراً، ولكان اللعب بالأفعوان، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاث جنيهات وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دعك من الأسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حال أخف وقعاً من مصيبتي، وبينا هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشاً وفرحا مرحاً:

(الخليع)- أشرق أنسنا وسعدت ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلم بنا.

(العمدة)- ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدنى منا نهارنا فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا فى غيابك.

(الخليع) - بعد سماع القصة - ويلى ثم ويلى فأنا الملوم إذ تركتكما فوقع لكما ما وقع ولكن قدر الله لكما ولطف بكما. أما مصيبتى الآن فهى أعظم من مصيبتكما وأبلغ فماذا وماذا أفعل وكيف أدفع وبأى عذر أعتذر وقد أخرجت البيضة من خدرها والظبي من كناسه واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا.

(التاجر) - الأمر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندركه غدا.

(الخليع) - ذاك شىء لا يدرك فى كل وقت وحين. وهذه المرة هى بيضة الديك لبيضة الخدر وكيف فض هذا المجلس وتأجيله وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع.

كيف الرجوع بها وحول قبابها   سمر الرماح يملن للإصغاء

فخلصانى ناشدتكما الله مما وقعت فيه وأنقذانى من هذا البلاء العظيم.

(التاجر) - وما وجه الخلاص وقد علمت بتفصيل الحال؟

(العمدة) - تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً من كل ما نابنا ولو كان الوقت نهاراً لأسرعت إلى «البنك» فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم.

يكفى وأنا أقوم لك مقام «البنك» فكم تطلب ولأى ميعاد تكتب؟

(الخليع) – هكذا يكون الأصحاب فى وقت العسر والضيق فحياك الله وأبقاك.

(العمدة) للتاجر– أعطنى عشرين جنيهاً تكون معى على سبيل الاحتياط.

(التاجر) – ولك الفضل هاك سبعة عشر جنيها تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التى خسرتها هنا أمامك. ألتمس منك كتابة ورقة على سبيل التذكير لا على سبيل التقييد.

قال عيسى بن هشام فما كان أسرع من الخليع فى استحضار الدواة والقرطاس، لإجابة هذا الالتماس، فطلب العمدة منه أن يكتب الصك عنه، ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله، ويحك قذاله، وخرجنا خلفهم فى الحال، نتبعهم متابعة الظلال.

***

قال عيسى بن هشام ولما صرنا فى الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته، ويبطئ في مشيته، ويقول ما هذا الذى أرى، من فساد هذا الورى، كأن ناقعًا نقعهم فى خابية، جمعت أخلاط الكبائر، أو غماسا غمسهم فى جابية، وعت أمشاج الجرائد، أو كلما خطونا خطوة، رأينا من الغش والمكر صنوفًا وأضرابًا، أو حضرنا ندوة، شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبوابًا، فما أتعس من يعاشرهم، وما أنحس من يحيى فيهم وما أشقى من يجاورهم، وما أسعد من يجافيهم، واغوثاه من الإنسان فى هذا الزمان، فقلت له قدك بل وفى كل زمان

لن تستقيم أمور الناس فى عصر   ولا استقامت فـذا أمنـا وذا رعبـا

ولا يقـوم على حق بنـو زمـن   من عهد آدم كانوا فى الهوى شعبا

هكذا كان بنو آدم، تأخر عهدهم أو تقاوم، فهم على ما هم فيه أبداً، أمس واليوم وغدا، وما عساك تقول فى ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء، وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، وما عساك تقول فى قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير، والمولى قبل الأمير، يهون عليه أن يفتدى ما أسف من الدنايا وسفل من المطالب، بمنطقة البروج ومجرة الكواكب، وما عساك تصف خلقا أفضل ما فى أعضائه. أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه.

أفضل ما فى النفس يغتالها فنستعيذ الله من جنده

هذه المضغة التى بفيه، ويقال إنها أفضل ما فيه، لو نسجت مضغة على قدرها حماة العقارب - حماك الله - لحمتها، ولعاب الأفاعى - أعاذك الله - صبغتها، لكانت فى جانب هذا اللسان أخف ضراً، وأهون شراً، وما عساك تنعت نوعاً نعت الله واحداً منهم فى آية من الآيات، بتسع صفات: «حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم».

فأف لعصريهم نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر أفضل من أخلاق من علاهم من سادة البشر؟ ولعل ما أدركته من طمع الغنى ومكر السمسار وخداع التبيع، وما تبينته من غش التاجر وغفلة العمدة واحتيال الخليع، هو دون ما تكنه صدور الكبراء، وتجنه نفوس الأمراء، تحت حجاب التكلف والتطبع، ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع، وكلما اعتلى الإنسان درجة فى المقام، وخطا فيها خطوة إلى الأمام، تقنع لها بقناع وتلثم بلثام، فتجد حقائق الخلائق مرسومة تحت صفائح الدهاء، مضروحة بين جنادل الرياء، بل ربما كان أحلاهم أخلاقاً حساناً، أبلغهم فى التظاهر بها زوراً وبهتاناً. كان لى صاحب تراه من لسانه غضنفرا رئبالاً. يحمى عريناً ويحرس أشبالا، تتقيه القياصرة، وتخشاه الأكاسرة، فإذا كشفت عن قلبه، وحسرت عن لبه، وجدته شاة تعطف على سخلها، وظئرا تحنو على طفلها، وأعرف آخر قد ضجت أحرف الفضيلة من وخزها بقلمه، ولو كها فى فمه، وهو مع ذلك يخمش وجهه ويدمى جفونه، إن سمع أن مختلساً اختلس دانقاً دونه، وفيهم من يملك من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة، والتلون بالألوان المتعارضة فتكون دموعه طوع إرادته، وابتساماته عند حاجته، قال حكيم لآخر ما أكثر ما تتحول رفعة الشطرنج وتتقلب، قال له تقلب وجه الإنسان أعجب وأعجب، وقد تبقى الأخلاق الذميمة، والصفات اللئيمة، مطوية عن النظر، محجوبة عن البصر، حتى *يتاح لها كاشف من الحوادث فينزع عنها الفدام، ويحسر اللثام فيظهر الطبع السقيم،* ويبدو الخلق الذميم، ومن عوامل التبيين والبيان، فى أخلاق الانسان، الغضب والجبن، أو

السكر والحزن، ونحن الآن فى ساحة السكر فهلم بنا، نلحق بأصحابنا، فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون، وسمعناهم وهم يتحاورون:

(العمدة)- دعونى من هذا كله فقد صاحت عصافير بطنى ولم يدخل جوفى اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتها مستعجلاً فيها بنا إلى السكة الجديدة نعطف على «العطفى» فإن طعامه دسم وسمنه زبدة ولحمه سمين.

(التاجر) - ما هذا «العطفى» الذى تذكره وأين أنت من كباب «الحاتى» وحمام «لوكه» أو طواجن «الفار» وأرز «العجمى»[1]؟!

(الخليع) - ما هذا الخلط ونحن فى وسط الأزبكية بين «النيوبار» و«سان جمس بار» و«اسبلندبار»[2] وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وناهيك بهذه الأماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلو قدر الواردين عليها.

(العمدة) - دعنا من هذه الأماكن فإن طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطنى.

(الخليع) - وأنا لا يمكننى على كل حال أن أترك هذه الأماكن وأذهب معكما إلى الحوانيت التى تشيران بها وأخشى أن يرانى بها أحد ممن يعرفنى فأصغر فى عينه.

(التاجر) - إذا كان الأمر كذلك فأنا على رأيك.

(الخليع) للعمدة - لا مناص لك حينئذ فضعيفان يغلبان قوياً فادخل بنا «النيوبار».

قال عيسى بن هشام فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم وما خلع الخليع طربوشه حتى نزع العمدة عمامته، وما ضرب الخليع بيده عل المائدة حتى صفق العمدة بيديه فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان فتناولها العمدة ونظر فيها - نظر المريض إلى وجوه العود- ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسرد الألوان حتى انتهى منها والعمدة لاهٍ عنه والتاجر منصتٌ إليه.

(١) م ش ٨٨ مكان «وأين أنت... وأرز «العجمى»: وأين أنت من العجمى ورزه يعد بالواحدة وأين أنت من كباب الفار بجانبه.

(٢) م ش ٨٨ «وأمريكان».

(الخليع) للعمدة- ماذا تحب وتختار[1]؟

(العمدة) - أختار المرق[2] ومن بعده لحم الفرن.

(التاجر) - وأنا أطلب كبابًا وقرعًا وأرزًا.

(الخليع) - وأنا أختار فاتحة الطعام أولاً ثم خلاصة اللحم بالبيض وأرزًا بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسمانًا بالكمأة وهليونًا باالزبدة.

(العمدة) - ما هذه الأسماء الغريبة؟

(الخليع) - هى أطعمة خفيفة لا تقوى معدتى على هضم غيرها.

(التاجر) - «كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس».

قال عيسى بن هشام فيذهب الخادم ويجيء للخليع بفاتحة الطعام من زيتون وفجل وسمك ملح وزبدة، فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول: أزبدة وسمك؟ فيطلب الخليع سواها ثم يأتى الخادم بصحفة[3] المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطف على خبز الخليع يأكل منه، فيأتيه الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفته فى صحن المرق حتى تمتلئ وتفيض على المائدة. ثم إنه انحنى فانحنى عليه وصفق يطلب صحفة آخر وخبزا آخر وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد، ثم يأخذ جزءً من عش الغراب فيقضم منه فلا يألفه فيمجه ويتفله ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ويقول: ما هذه القشور التى يطبخونها هنا وهى عندنا شائعة على الجسور يفحص عنها الخنازير فى الأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان، ثم يأتى الخادم بالمرق فيطلب منه خبزًا آخر فلا يكفى لامتلاء الوعاء[4] فيعاود الطلب فيمل الخادم ويقول له إنما أنت هنا ياسيدى فى مطعم لا فى مخبز.

---

(١) م ش ٨٨ ماذا تختار.

(٢) م ش ٨٨ الشوربة.

(٣) ط٣ بصحن.

(٤) ط٣ الصحن.

(الخليع) للخادم- ما هذا الكلام البارد يا «جورج» أليس لكل شيء ثمن هنا ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد.

(الخادم) للخليع- لا مؤاخذة فإن كلامى ليس موجهاً إليك.

(الخليع)- إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبى وصاحبى هذا أعز على من نفسى.

(العمدة)- دعه يأت لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول، **مع إنه يقال إن هذا المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً**[1].

(التاجر) للخادم- **أعطنى**[2] أيضاً لوناً من الخضر.

(العمدة) للخليع- قل للخادم يحضر لى مع لحم الفرن فحل بصل.

(الخليع)- كل شيء يجوز إلا أكل البصل فى هذه **الليلة**[3].

(العمدة)- لا مؤاخذة فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير ترو.

(التاجر) للخادم- إئت لى بشيء من الحلوى أو الفاكهة.

(العمدة)- إذا كان فى الفاكهة برتقان أو بلح فأعطنى منه.

(الخليع)- ولا تنس يا «جورج» أن يكون فى نصيبى من الفاكهة «مانجو» و «قشطة شجر» و«موز» و«أناناس».

(العمدة) للخليع ممازحاً- ومن قال أنك لست من الناس؟

(الخليع) للخادم- هات زجاجة نبيذ **أخرى بغبارها**[4].

قال عيسى بن هشام ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع العمدة بيده إليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسها فى جيبه وهو يقول: هذه تنفعنا للتنقل بها

---

(١) م ش ٨٨ «مع أنه يقال... للآكلين مجانا» غير موجودين في المقال الأصلى.

(٢) م ش ٨٨ اذهب لشغلك، واحضر لى.

(٣) م ش ٨٨ فلا يخفاك أننا فى أى مكان ونذهب إلى أى مكان ورائحة البصل لا تطاق.

(٤) م ش ٨٨ أبيض أيضاً.

على الشراب فيما بعد، ثم حضر الخادم بآنية من البلُّور الملون فيها ماء وقشر ليمون فوضع أمام كل واحد منهم إناء فهمَّ العمدة بشرب إنائه فى الحال **فبادر الخليع ونزعه بيده عن فمه**[1].

(العمدة)- لماذا تمنعنى عن شرب هذا «الخشاف» وقد أنعشتنى منه رائحة الزهر.

(الخليع)- هذا ياسيدى ماء لغسل أطراف الاصابع بعد الأكل.

(التاجر)- من عاش رأى.

(العمدة) للخادم- الحساب يا «خواجا»

(التاجر)- القهوة

(الخليع)- الخلال مع كأس من «الكونياك» بجانب القهوة ويأتى الخادم بجمع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها إلى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ثم يمسح ما علق بها فى غطاء المائدة ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته.

(الخليع)- **أربعون**[2] فرنكًا.

(العمدة)- اقرأ جيداً فإن هذا غلط فاحش.

(الخليع)- قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا.

(العمدة)- ما هذا النهب والسلب وما هذا الإسراف والتبذير لو كنا ذهبنا إلى مكان من الأماكن التى عددناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل، ولو كنا توجهنا إلى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفينا بغير ثمن لأن فى غرفتى برمة أرز بحمام مما أحضرته معى من البلد، ولا أشك فى أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد فى الحساب ما اشتهى وأنا رجل لا أقبل

---

(١) م ش ٨٨ فيمنعه الخليع.

(٢) م ش ٨٨ ثلاثون.

الغفلة على نفسي، ولا أدفع هذا الحساب وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة فإنه يهون على أن أبدد عشرة جنيهات فى الهباء ولا يهون على أن ادفع قرشًا واحدًا بطريق الغش والاختلاس.

ثم إنه رفع قدح[1] النبيذ وهو فى حدته فصك به قدحًا آخر ممتلئًا لاستدعاء الخادم فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة فحضر الخادم فعز عليه ما رأى.

(الخادم)- ما هذه الليلة السوداء.

(العمدة)- هذا ما أقوله أنا أيضًا فقل لى ما هذا الغلط فى الحساب وهل تريدون أن لا يدخل محلكم بعد اليوم أحد[2].

(الخليع)- هل فى الحساب غلط يا «جورج»؟

(الخادم)- وأى غلط يكون فى الحساب بعد الذى حصل وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف.

(العمدة)- أى حساب وأى بيان وأنت الكاتب له؟

(الخادم)- نعم أنا الكاتب له وأنت الآكل له.

(العمدة)- وهل أكلنا أربعين صحنًا حتى ندفع أربعين[3] فرنكًا؟

(الخادم) للخليع- أرجوك أن تقنعه.

(العمدة)- وهل أنا جاهل حتى يقنعنى؟

(الخليع) وهو قائم- حاشا الله ياسيدى.

(التاجر) للخليع- إلى أين؟

(الخليع)- أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافًا جديدًا أريد أن اقرأه.

---

(١) ط٤ كأس.

(٢) م ش ٨٨ كلام العمدة غير موجود فى المقال الأصلى.

(٣) م ش ٨٨ ثلاثون.

(الخادم) للعمدة- أعطنى الحساب ولا تعطلنى عن الشغل.

(العمدة)- هاك عشرين فرنكًا لا أدفع سواها.

(الخادم)- ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله.

(التاجر)- زده فرنكين.

(الخادم)-لقد كان الأولى بكم أن تأكلوا فى غير هذا المكان مادمتم بهذه الصفة.

(التاجر)- لا تغلط يا «خواجا» فإن حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال.

(الخادم)- وهل أنا خائن؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك.

(التاجر) للعمدة- حقيقة إنه لقليل الحياء.

(العمدة)- وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ.

(صاحب المحل) وقد حضر مع الخليع- ماذا جرى؟

(العمدة)- خادمك يسرقنا ويشتمنا.

(صاحب المحل)- هذا كلام لا يقال عن محلنا.

(التاجر)- وذاك كلام لا يقال لنا.

(**صاحب المحل**[1]) للخليع- عهدى بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة؟ وقد شاهدته من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين، فإنه كان يبلع الزبدة، ويطوى الخبز ويمد يده إلى صحن سواه، ويعيد إليه فضلة ما يأكله، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهمها، ويلوث المائدة بالمرق والنبيذ ويمسح يده فى الغطاء، ويكسر الكأس، ويختلس الفاكهة فيضعها فى جيبه، ويهم بشرب ماء الغسل، وينكش أذنه بريشة الخلال، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ

(١) ٢١/٢٥٥م ش ٨٨ الخادم.

يغازل السيدات ويغامزهن فقمن مستقبحات مستنكرات وقام كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الأفاعيل، ولا أشك فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل[1].

(الخليع)- لا تلقبه بلقب شيخ فإن سعادته من الحائزين للرتبة الثانية وله سعى فى رتبة التمايز ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء فى الأرياف.

(صاحب المحل) للعمدة- لا تؤاخذ الخادم يا سعادة البك فهو على كل حال خادمك والمحل محلك.

(العمدة) للخادم- يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل، ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدت عن العشرين فرنكًا ولكنى أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضا.

(صاحب المحل) للخادم- اسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل.

قال عيسى بن هشام ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين من الشرب لإكرام صاحب المحل فى مقابلة إكرامه لهم، فطلب العمدة ثم طلب، وشرب ثم شرب، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى، ويتثاءب ويتمطى، ويشكو للخليع فعل الكأس، وهجوم النعاس، فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء، ولا يصرفها إلا كؤوس الصهباء، فهيا بنا الآن، نذهب إلى الخان، فخرجوا وخرجنا من ورائهم نستقصى بقية أنبائهم.

* * *

* قال عيسى بن هشام وأخذوا طريقهم إلى الحان المقصود، والحوض المورود، وفيما نسير، بين تقدير وتفكير، إذا التفت الباشا إلى ذلك الفندق الكبير، بل الخورنق والسدير، فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة، وينابيع الضياء متدفقة، يلوح فيها زنجى

---

(١) م ش ٨٨ هذا الكلام «وقام كثير........ ويتعطل المحل» لصاحب المحل

(*) أضيف عنوان «العمدة فى الحان» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن». م ش٨٩. ١٨ يناير ١٩٠٠.

الليل بقميص أبيض، ويبدو فيها أديمه كالأبنوس المفضض، وعمد المصابيح كأنها أغصان الأشجار، أزهرت بالأنوار مكان الأنوار، فصار كل عمود منها عمود فجر، يفجر ثغرة الدجنة أى فجر، وكأن منثور الشموع فى ظلمه الحلك، منثور النجوم فى قبة الفلك، ورأى تحتها صفوفًا من الرجال، بين صفوف من نوات الحجال، على سرر متقابلين، وأرائك متكئين، يسعدهم الجد المقيم، ويرفرف عليهم الرفه والنعيم، فطفق يسألنى: أتراه محفلاً ليوم أنس، أم زفافاً فى بيت عرس، أو تراها ليلة مهرجان، لقبيل من الجان، نسوا تفاوت الجنس، فأنسوا إلى الإنس، وهجروا جوف الأرض لظهرها، ودرجوا من بطنها إلى حجرها، فقلت له نعم هؤلاء شياطين الأنس يطوون البر والبحر، ويقطعون الحزن والوعر، ويطيرون فى السماء، ويمشون على الماء، ويخرقون الجبال، وينسفون القلال، ويقلبون الآكام وهاداً، ويبسطون الربى مهاداً، ويجعلون القفار بحاراً، ويحيلون البحار بخاراً، ويُسْمِعُون من بالمشرقين، أصوات من بالمغربين، ويستنزلون لبصرك أنأى الكواكب، ويعظمون فى عينك أوهى العناكب، ويجمدون الهواء، ويذيبون الحصباء، ويستحدثون الأنواء، ويزنون الضياء، ويستشفون خبايا الأحشاء، ويستكشفون خفايا الأعضاء، فقال لى أئنك لتحدث عن جن سليمان، فى هذا الزمان؟

قلت له هؤلاء هم كبراء الغربيين[1] أهل المدنية والحضارة، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة، فإن نظروا إليهم من جهة العزة، فنظرة العقاب من شماريخ رضوى وثبير، إلى جنادب الرمل وضفادع الغدير، وإن نظروا إليهم من طريق العلم: فنظرة معلم الإسكندر عالم العلماء، إلى صبى يتهجى فى العين والياء، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة: فنظرة «فيدياس» صانع التماثيل والدمى، إلى بناء يقيم أكواخ القرى، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى: فنظرة صاحب المفاتيح التى تنوء بالعصبة، إلى أجير ينضح عرقاً تحت القربة، وإن نظروا إليهم من جهة الفضائل النفسانية: فنظرة[2] الحكيم «سقراط» شارب السم غراماً بالفضيلة، إلى الشرير «أرسطراط»، حارق المعبد

(١) م ش ٨٩: كبراء الإفرنج، ط٢: سياح الغربيين.

(٢) م ش ٨٩: فنظرونا بنظر رضوان إلى الشيطان ونظرة.

ولعاً بالرذيلة، تلك دعواهم فى نفوسهمْ، وقولهم بأفواههم[1]، والفعل يشهد بيننا أنهم نهاب الآفاق، وسلاب الأرزاق، وقطاع الدهناء، وفتاك الدهماء، وقراصين الدأماء، وسفاك الدماء، أولئك هم الذين يخادعوننا بزبرجهم، ويبهروننا ببهرجهم، أولئك هم الذين نطق الكتاب فى أمثالهم بقوله: «سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم».

وهم فى رحلتهم إلى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجدة الذين أبطرهم الغنى وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ولم يبق فى أعينهم جديد فانتقمت منهم الطبيعة فى خروجهم عن سننها فسلطت عليهم داء الملل والسأم، فأصبحوا على وجوههم هائمين فى الأقطار والبلدان وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية والإقامة فى الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية، والضرب الثانى منهم: أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض يستعملون علومهم ويعملون أفكارهم فى احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعة الناس فى موارد أرزاقهم ومزاحمة الخلق فى أرضهم وديارهم فهم طلائع الخراب أدهى على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب.

قال عيسى بن هشام وانقطع الحديث بدخول أصحابنا فى الحان، واصطفافهم حول الدنان، فأخذنا مجلسنا بقربهم، ننظر ما يصنع بهم، وإذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال، ويبادر الخادم بالسؤال:

(الخليع) للخادم- ألم يشرف دولة[2] البرنس هنا فى هذه الليلة؟

(الخادم)- هو فى داخل المكان وسيعود إلى مجلسه فى الحال،

(العمدة) مندهشاً- هل يجىء هنا البرنسات وهل يليق بنا أن نجلس للشرب فى مكان يحضروننا فيه، فلم اخترت هذا المحل ولم لا نذهب إلى محل سواه[3].

---

(1) م ش ٨٩: بأفواههم فقال الباشا رويداً وهل هم فى الحقيقة كما يزعمون فقلت كلا بل هم قوم مدعون مباهتون مبتدعون قبح ما يعملون وساء ما يعملون أولئك هم سلاب الأرزاق ونهاب الآفاق قطاع الدهناء وفتاك الدهماء وقراصين الدأماء وسفاح الدماء أولئك هم الذين يخادعوننا بزبرجهم ويغشوننا ببهرجهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم.

(٢) م ش٨٩: «البرنس هنا» فقط.

(٣) م ش٨٩: مكان «ولم لا... سواه» فقم بنا.

(الخليع)- لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج من هنا إلا والبرنس مصافحك ومجالسك.

(العمدة)- لا تهزأ بى ولا تمزح فأين نحن من البرنسات؟

(التاجر) للعمدة- لاتستبعد ذلك فقد سمعت أن لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة ونفوساً ترابية ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم فى مجتمعاتهم ومعاملاتهم.

(العمدة) للخيلع- وهل لك معرفة سابقة به؟

(الخليع)- كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة وكثيراً ما أوصلته آخر الليل إلى قصره؟

(العمدة)- إنك لتبالغ.

(الخليع)- لا مبالغة ودونك البرهان.

قال عيسى بن هشام ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس إلى مجلسه فيومئ البرنس إليه بالسلام فيتبعه إلى مائدة عليها صنوف وألوان من الخمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه:

(الخليع)- لا زال أفندينا فى أسعد حال وأنعم بال.

(البرنس)-[1] وأين أنت فقد سألت عنك مراراً؟

(الخليع)- أنا فى الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه وما منعنى عن المبادرة إلى مجلسكم العالى إلا اصطحابى صاحبين أحدهما من عمد الأرياف والآخر من تجار الثغور **لصقا بى للبقاء معهما وألحا على أن أصحبهما**[2].

(أحد الجلساء) ممازحًا- لا بل تسحبهما.

(البرنس) منكتاً- وهل هنا زريبة يا سيد؟

(١) م ش ٨٩: «البرنس مستبشرا ضاحكا».

(٢) م ش ٨٩: مكان «لصقا بى... أصحبهما» ولى معرفة سابقة بهما فى بلادنا وهما لا يعرفان هذا البلد إلا قليلاً وكنت وعدتها إن أتيا مصر أن أصحبهما.

(جميع الجلساء) ضاحكين- لله در أفندينا فى هذه النكتة فما ألطفها وأرقها.

(البرنس)- أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفنى منه بعض كلمات فى بعض الأوقات.

(أحد الجلساء) لآخر- انظر بالله يا أخى حدة البرنس فى لطافته وشدته فى رقته وقوة إدماجه فى ألفاظه.

(الجليس)- وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة فى تعبيرك وما أبلغك فى كلامك أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد؟

(البرنس) للخليع- **ماذا تشرب**[١]؟

(الخليع)- العفو يا مولاى فلابد من الرجوع إلى صاحبى أولاً حتى أتخلص منهما.

(البرنس)- وهل هما من الأغنياء المعتبرين؟

(الخليع)- أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان، وللتاجر فى بلده أعظم خان، وللعمدة عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية، وللتاجر وابور للحليج وعنده وعد بالثالثة.

(البرنس)- لاتحرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا.

(أحد الجلساء) لآخر- قم بنا نفسح لهما[٢].

(الجليس)- انتظر قليلا حتى يأتى «الدور» المطلوب مع صحن بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً.

قال عيسى بن هشام- وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتعظيمه فيسقط من يده «فم السجارة» على الرخام فينكسر فينحنى إلى الأرض يجمع شظاياه ويظهر عليه من الأسف والكدر ما لايقدر فيجره الخليع إليه ويقول له:

---

(١) م ش٨٩: تفضل اقعد.

(٢) م ش٨٩: (الصاحب لصاحبه) ما بقى علينا إلا هذه المضايقة فأنا لا أطيق هذا المجلس بعد الآن فقم بنا.

(الخليع)– لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا «الفم» فإن البرنس ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه.

(العمدة)– ليس أسفى على «الفم» فى ذاته بل لأنه تذكار عندى من حضرة مأمور المركز كنت أهديته فرساً فأهدانى إياه فهو ثمين عندى من هذه الجهة، ولكن قل لى كيف يدعونى دولة البرنس إليه وكيف ذكرتنى له؟

(التاجر)– أى نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر عنده أيضاً؟

(الخليع)– قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ويقال فى المثل أرسل حكيماً ولا توصه.

(العمدة)– أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى فإنى رأيته يضحك كثيراً وأنت تكلمه.

(الخليع)– أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته من أجره[1].

(التاجر)– وعلى ذكر السمسار **هل تعلم إن دولة**[2] البرنس باع قطنه فى هذا العام؟

قال عيسى بن هشام فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس فطأطأ العمدة إلى ركبة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبلها مّراراً بطناً وظهراً فتبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس فامتنع واستمر واقفاً ويداه إلى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح.

(البرنس) لأحد جلسائه– لاتنس أن تذكرنى غداً بتصوير الفرس «سيرين» فإن «الدوك بروك» أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها فى معرض السباق بلوندره.

---

(١) م ش٨٩: ويضاف بعد أجره: وهو الآن يحب أن يسمعها منك.

(٢) م ش٨٩: هل باع دولة البرنس قطنه أو هو ممن تأخروا فى البيع؟

(الجليس)- الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار فى اليوم الذى عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى.

(البرنس) للعمدة- ماذا تشرب يا حضرة الشيخ،، يا بك؟

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر-[1] ألتمس السماح يا مولاى فإنى لا أشرب شيئا.

(التاجر) متململاً من الألم- العفو[2] يا أفندينا أستغفر الله فإن ذلك لايليق فى حضوركم.

(البرنس)- لماذا جئتما هنا إن لم تشربا؟

(الخليع)- يشربان حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الأدب.

قال عيسى بن هشام- ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة فيتحاشى العمدة إشعالها فى حضرة البرنس ظاهراً - وغرضه الباطن إبقاؤها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه- ثم يأتى أحد باعة الزهور فيهمس فى أذن البرنس بكلام يقهقه له ويأمر أن يعطيه كأسا فيشربه وينصرف، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشمبانيا» فيسمح له ويلتفت إلى العمدة يخاطبه بقوله:

(البرنس) للعمدة- كيف حال المحصول[3] عندكم، وكم رمى الفدان من القطن؟

(العمدة)- رمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم.

(التاجر)- المحصول جيد ولكن الأثمان فى هبوط، وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هى باقية؟

---

(١) م ش ٨٩: العفو يا مولاى.

(٢) م ش ٨٩: الامتثال خير من الأدب.

(٣) م ش٨٩: الزراعة.

(البرنس) لأحد جلسائه- أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه اليوم أكثر من عشرين جنيها ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه[1].

(الجليس)- لا بأس به لحد الثلاثين،

(البرنس)- ما الذى تراه فى مسابقة الخيل غدا[2]؟

(الجليس)- أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك.

قال عيسى بن هشام- ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدمها إلى البرنس وفرق البقية على الحاضرين فيجد أحدهم صوفاً متلبداً فى الموز فيعافه ويتركه على المائدة.

(أحد الجلساء) للعمدة- هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه فى الصوف عندكم؟

(العمدة)- كلا يا سيدى بل هو موز «النيوبار» ولم يمكث فى جيبى غير مسافة الطريق ومعى أيضاً برتقان أحمر وبلح أصفر وقشطة خضراء،

(أحد الجلساء)- أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة.

(التاجر)- حضرته لايشتغل بالتجارة وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر[3].

(العمدة) للخادم- أحضر لنا أيضا زجاجة شمبانيا إنكليزى.

(أحد الجلساء) لآخر- يظهر أن الفدان رمى بعشرة.

(الجليس)- فى البنك العقارى.

(البرنس)-[4] وما معنى إنكليزية؟

---

(١) م ش ٨٩: «لا ولو كان عليه... صاحب فيه» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش٨٩: «أنا لا أزال متأسفاً على الكلب الذى مات والببغاء الذى طر، يا غلام علينا بدور آخر.

(٣) م ش٨٩- أضيفت إلى ط١.

(٤) م ش٨٩ (أحد الحاضرين).

(الجليس)- يعنى أنها من جنس الجنيه.

قال عيسى بن هشام- وفى هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى أذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس فى الحال ويخرج والبائع فى أثره ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً فلايبقى منهم أحد، وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سؤر الكأس التى تركها البرنس ويميل على ما بقى فى آنية النقل فيأتى عليه أكلاً.

(التاجر) للعمدة- ينبغى أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس.

(العمدة)- أنا لا أطلب شيئاً إلا فى حضور دولته.

(الخليع)- أظن أن دولته لايعود فى هذه الليلة، وهذه عادته إذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته[1].

(العمدة)- ولكننى لم أره دفع شيئاً من الحساب.

(التاجر)- لعل له هنا حساباً جارياً.

(الخليع)- نسأل الخادم.

(العمدة) للخادم- ألم يدفع دولة البرنس شيئًا؟

(الخادم)- لم يدفع شيئًا قبل خروجه.

(الخليع)- وكم الحساب؟

(الخادم)- مائة وواحد وعشرون فرنكاً[2].

(العمدة)- أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب، ومع ذلك فلننتظر عودته.

(الخادم)- إذا قام البرنس على هذه الصورة فإنه لايعود وإن أردت أن لا تدفع ثمن ما شربه البرنس فأنا أقيده فى حسابه.

---

(١) م ش٨٩ البرنس ركب العربة وذهب.

(٢) م ش٨٩ سبعون فرنكاً بما فيه ثمن الطعام.

(العمدة)- وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع إلا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده،

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات فينهض العمدة لمقابلته ويلح عليه فى الجلوس معه ثم يلتفت إلى الخادم صوت عال:

(العمدة)- على بتفصيل الحساب وبين لى فيه ما شربه دولة البرنس،، وما أكله دولة البرنس، وبكم شرب أصحاب البرنس،، وكم شربنا مع البرنس،، وكم شرب قبلنا البرنس، واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب وعد لأدفع لك كل الثمن المطلوب.

(الوكيل)- أنا لا أشرب شيئاً.

(العمدة)- كيف لاتتفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة البرنس إرضاء لخاطرنا[1].

(الوكيل)- لا بأس أن أشرب كأساً واحداً من «الكونياك».

(العمدة)- لا والله لاتشرب إلا «شمبانيا» كما شرب معنا دولة البرنس.

(الخليع) للعمدة- لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك؟

(العمدة)- سعادته وكيل مديريتنا، وحضرته (مشيراً إلى التاجر) من أكابر التجار، وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر.

(الخليع) للوكيل- تشرفنا بهذه المعرفة، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابى قضينا معه أوقات أنس وسرور.

(العمدة) للوكيل- أظن أن سعادتكم **حضرتم إلى مصر فى عقب كشف الرتب المقدم إلى الداخلية**[2].

(الوكيل)- **نعم كنت اليوم فى الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما نحب**[3].

(العمدة) للخادم- زجاجة شمبانيا أخرى.

---

(١) م ش ٨٩: أضيفت إلى ط١.

(٢) م ش٨٩. اشتغلتم اليوم فى لجنة الانتخابات.

(٣) م ش٨٩: نعم وسيكون خيراً إن شاء الله.

(الوكيل)- يكفى فإنى أريد أن انتقل برهة إلى داخل المكان فى مجلس إخواننا القضاة ووكلاء النيابة.

(الخليع)- لا لزوم لانتقال سعادتكم فإننا أدعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائى.

(الوكيل)- لاتكلف خاطرك بذلك فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم.

(العمدة) للوكيل- إذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك.

(الوكيل)- إن أردت ذلك فلا بأس.

قال عيسى بن هشام- فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون فيشدد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكرًا إلا شربوا معه ثم يتناول الكأس ويقوم متساندًا على الخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس فى فيه حتى تأخذه غصة فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوث ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره(1).

ثم لبثنا مدة، ننتظر العمدة، ونترقب له الرجعة والعودة، حتى أقبل يتهادى فى مشيته، بعد أن أفاق من غشيته، وعمد إلى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه، والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه.

***

(*) قال عيسى بن هشام ولما خرجوا من ذلك المحل(2)، ونحن أتبع لهم من الظل، سمعنا العمدة يشكو للخليع فى طريقه، ما يجده من انقباض الصدر وضيقه، ويسأله التفريج لكربه، والترويح عن قلبه، ويذكره بما كان من الوعود، ويطالبه بزيارة ذلك المجلس

(1) م ش٨٩: بعد «من أمره» حذف المويلحي فقرات عديدة من المقال الأصلي. انظروا الملحق ص

(*) أضيف عنوان «العمدة فى المرقص» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش٩٠، ٢٥ يناير ١٩٠٠.

(2) م ش٩٠: المحفل.

المعدود، ويقول له: تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا، فهلم بنا الآن إلى ما وعدتنا، لنربأ عنا الهم بربيئات الخدور، ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور، ونجلو أعيننا بنجل العيون، وننعش أنفسنا بناعسات الجفون، ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصباح، قبل أن يصبحنا جيش الصباح، فيقطع عليه الخليع كلامه، ويدفع عن نفسه ملامه، بأن طول الانتظار، يذهب بحسن الاصطبار، ولا صبر لذوات الدلال، على خلف الوعود من الرجال، وقد جاءني رسولها في غفوتك برسالة، تشكو فيها ما لحقها من السآمة والملالة، وتنحي على بالعتاب المر، وأن ما فعلته معها ليس فعل الحر، إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكلل، وتحملت في مجيئها ما تحملته من الخوف والوجل، حذر الوشاة والرقباء، وخشية الأهل والقرباء، ثم أنها أقامت طويلاً في انتظار اللقاء، وهي على مثل حر الرمضاء، فإذا الوعد بلا وفاء، وإذا الدين بلا قضاء، وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب، وتستمطر سحاباً لايسح ولايصوب، فذهبت بحسرتها، ومضت لطيتها، وفاتنا ما كنا نبتغيه، وأيأسنا ما كنا نرتجيه، وتلك فرصة أضعناها، لنزعة شيطان أطعناها،، فيقول التاجر: إذن ما الذى اكتسبناه، بعد الذى احتسبناه، وماذا أفدناه، بعد الذى فقدناه، وأين منا ما نجمع به شملنا، ونبدد به ليلنا؟ فيقول له الخليع: لم يبق في هذه الساعة، سوى ملاعب الرقص والخلاعة، عسانا نجد فيها بديلاً، مما لم نجد إليه سبيلاً، فيخرج العمدة دراهمه فيعدها، ثم يخشخش بها ويردها، فيقول له التاجر: لاتهتم، فدرهم الأنس ميسر، ويقول للخليع: تقدم، فما من شيء عليك معسر، فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء، إلى حان للرقص والغناء، فدخلوه ودخلنا من خلفهم، وجلسوا وجلسنا في صفهم، فرأينا المكان حومة وغى احتدم وطيسه، وميدان حرب اصطدم خميسه، عجاجته الدخان، ومتارسه الدنان، وسلاحه الأباريق والأقداح، ودروعه الغلالة والوشاح، ونباله أصمة القوارير، وطبوله توقيع العيدان والمزامير، ومغافره العصائب والأكاليل، وأعلامه المآزر والمناديل، وقواده وشجعانه، قواده وغلمانه، وكأن منصة الرقص هي حصنه الحصين، وصاحب الحان هو قائد الكمين، وكأن المغنين هم الكماة والأقران، والراقصات الحماة والفرسان، وحركاتهن بالردف والخصر، هي حركات الحرب في الكر والفر:

ألات الظلم جئن بشر ظُلْمٍ وقد واجهننا متظلمات

فوارس فتنة أعلام غي لقينك بالأوسار معلمات

وترى كل ذات ثدى حاسر بارز، تنادى هل من منازل أو مبارز، ثم تتبختر وتجول، وتخطر وتصول، فترمى كل طامع فى وصالها، بسهام اللحاظ ونصالها، ثم ترشق بها الدنان تارة فتسيل بدم العقار، وتشق بها الجيوب أخرى فتسيل بدم النضار:

وقد أغمدن فى أزر ولكن سيوف لحاظهن مجردات

قد حن زناد شوق من زنود بنار حليها متوقدات

وترى فى وسط تلك المعركة، من كل هلوك مهلكة، تنساب فى حلة رقصها وتسعى، كأنها حية فى قميصها أو أفعى، لعاب الأفاعى القاتلات لعابها، وأنياب الأسود الضاريات أنيابها، تنفث السم رائحة وتنتهش غادية، وإن رأيتها شادنة وسمعتها شادية، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

قال عيسى بن هشام ولما طال جلوسنا ضاقت أنفاسنا وكاد يغمى علينا من كريه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من أكنافه: رائحة عكر الخمور ورائحة عرق الأبدان ورائحة زيت المصابيح ورائحة الدخان والحشيش ورائحة أنفاس المخمورين ورائحة تلك المراحيض التى لم يدخلها ماء ورائحة الأرض التى تسقى بالأقذار ولم تسطع فيها شمس ولم يتغير عليها هواء، فإذا امتزجت هذه الروائح ببعضها انعقدت منها فى جو المكان سحابة سوداء تمطر الأدواء وتساقط الأوباء فتستنشقها الأنوف وتمتصها الرئات وتضوى بها الأجسام وتتضاءل منها ذبالات المصابيح تضاؤلها فى أجواف المناجم وبطون الكهوف، وكاد الباشا يختنق وهم به الغثيان فهم للقيام فأمسكت به وقلت له:

(عيسى بن هشام)- أيصبر مثلى على هذا المقام ولم أشهد فى عمرى معركة ولم أحضر معمعة ثم يجزع منه مثلك وقد مارست الحروب وشاهدت الوقائع تحت سحب العجاج وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى لاتبالى برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدأ الحديد[١].

(الباشا)- لقد كان ذلك[٢] ولكن فى الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس

(١) م ش٩٠: وشممت فيها أرواح الرمم.

(٢) م ش٩٠: نعم شممت أرواح الرمم.

وتجرى الرياح ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة كانحصارها فى هذا المكان، ومع ذلك فإنى أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شىء فيما نحن بصدده من بداية الأمر إلى نهايته.

وبينا نحن كذلك إذا بصديق لى دنا منى فسلم على وأظهر لى تعجبه من دخولى إلى هذا المحل فأظهرت له تعجبى من دخوله فأجابنى بقوله:

(الصديق)- إن السبب فى دخولى هنا هو البحث عن رجل احتال علىَّ فى بعض الشؤون ثم غاب عن نظرى وأنا أعلم أنه يأوى إلى مثل هذا المكان فدخلته على كره منى بعد أن حرمت على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد وحكم الضرورة مطاع، ولكن قل أنت ما الذى جاء بك إلى هذا الوكر وكر الأفاعى وأدخلك فى هذا العش عش الشيطان.

(عيسى بن هشام)- أدخلنا فيه حب الاستطلاع والاستكشاف فى الأخلاق والعادات ولكننى فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى والحمد لله الذى سخرك لنا فى هذه الساعة لتبين لنا ما غمض وتبدى لنا ما يخفى.

(الصديق)- **لك ذلك منى وفوق ما تريد**[1].

قال عيسى بن هشام وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى هذا الباب ما أدهشنا به، ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكراً فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه فأعناقهم نحوها مشرئبة وأبصارهم إليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب، واستمر السكران فى سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى حتى وصل إلى منصة الرقص والغناء فضرب عليها مراراً عصا فى يده ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء إلى الرقص فلم يسمعوا لندائه فالتفت إلى زمرة من الجالسين وطلب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه: الرقص الرقص، ونادى الراغبون فى السماع: الغناء الغناء، فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ويسفههم فى سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم على سفاهته فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الحان من مكمنه إلى السكران فأخذ بتلابيبه، ويقوم طالب الغناء حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً

---

(١) م ش-٩٠ غير موجود فى المقال الأصلى.

وصفعاً فيتعلق السكران بخناقه وينادى: البوليس البوليس، فيجتمع غلمان الحان يجرونه إلى الخارج وهو ممسك بعنق الضارب له لا يخليه حتى إذا صاروا إلى الباب أدركهم جندى البوليس وألقى القبض على المتضاربين فيتعرض له صاحب الحان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له ليس له إلا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكراً من الخارج يعربد فى محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل فى محلنا فيأبى الجندى إلا أن يسوق المتضاربين معاً فيغمزه صاحب الحان ليلين له فيبتدره أحد غلمانه قائلاً له: لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندى من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه فإن حضرة معاون القسم جالس عندنا داخل «البار» مع رفيقته(١).

(صاحب الحان) للجندى- لم يبق لك من وجه لسحبهما إلى القسم، وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة المعاون فى «البار».

(الجندى)- هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك، وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن فى «البار» والنوبة عليه الليلة فى القسم.

(صاحب الحان)- ما عليك إلا أن تدخل وهما فى قبضتك لتراه بعينك.

فيجيب الجندى صاحب الحان إلى ذلك فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب رفيقته خالعاً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها.

(صاحب الحان) للمعاون- لقد تعطل المحل يا حضرة الأفندى فى هذه الليلة وتعطيله لايرضيك فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً فعربد بين الجالسين وأخل بنظام الاجتماع ثم تعدى على هذا البك بالشتم والضرب وهو من أجل المترددين على المحل، والغريب أن جندى البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمم على سحبه مع ذلك المتعدى إلى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته أن يساق مع هذا السكران إلى المحاكمة.

(المعاون) للجندى بعد أن يلبس طربوشه - ما هذا الذى أسمعه؟.

---

(١) ط٢ صاحبته.

(الجندى) رافعاً يده بسلام التعظيم- لم أعلم بوجود حضرتكم هنا والأمر إليكم[١].

(المعاون) للجندى- إذا كان الرجل السكران فى حالة سكر بين فخذه وحده إلى القسم وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجة فلا لزوم لذهابه معك ويكفى أن حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً إلى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران.

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندى)

(الجندى)- إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فى ما يشير به عليك يا حضرة الخواجة فليس يكون حضرة المعاون عندك فى كل ليلة، والأيام بيننا.

(صاحب الحان)- **أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك فى دوام الرعاية بك[٢].**

قال عيسى بن هشام وخرج السكران أمام الجندى مدفوعاً فى ظهره يقع ويقوم ويستعدى ويستنجد، وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجرى فيه فإذا صاحب الحان ومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوس تغدو عليهم وتروح فجلسنا ناحية نستمع لهم ونؤثر ما يجرى من حديثهم على نحو ما ترى.

(صاحب الحان) للمعاون- لماذا أوعزت إلى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك.

(المعاون)- أنا لم أوعز إليها بشىء ولكنها هى التى قامت مغضبة.

(صاحب الحان)- ولأى سبب أغضبتها؟

(المعاون)- لم آت سبباً يغضبها بل هى التى انتحلت سبباً كدرتنى به وكدرت نفسها أيضا.

---

(١) م ش.٩٠: غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش.٩٠ لا عليك فأرسله أنت إلى الحبس ثم لا تفتكر.

(صاحب الحان)- لاشك أن ما حصل هو من باب الدلال دون سواه وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما.

(المعاون)- لا دخل للدلال هنا ولكن جرى في أمر حضرة البك والسكران ما هو على خلاف هواها فإنها كانت ترغب في التضييق على الأول والتفريج على الثاني لأن حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية والمغنية من ألد أعدائها.

(صاحب الحان)- لقد حرت في أمر هذه الفتاة فإن ضروب حماقتها لا حد لها وفي كل ليلة تأتيني بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه مالا يعوض من خسارتي، ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لما أبقيتها في المحل يوماً واحداً ولاتكبدت إعطاءها في كل شهر مقدار ما يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة، ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك وارتكاناً على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها.

(المعاون)- نعم إن حماقتها عظيمة وطالما أكدت عليها باجتناب[1] المنازعات والمشاجرات حتى لايقال أن علاقتها بي هي التي تجرئها على ارتكاب ذلك، ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح.

(صاحب الحان)- صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً.

(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر المخاصمة مع السكران فيقول لها):

(البك)- أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني وفي غاية التكدر مما وقع له من فلانة بسببي فإنها أهتاجت غضباً لما علمت بمساعدته لي وهي تبغضني لعلاقتي بك، فبحياتي عليك إلا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وإزالة ما في النفوس فتعود راضية على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعا.

(صاح الحان)- أنا أوافق على هذا الرأي[2].

(١) ط٢: شددت عليها النكير لتجتنب، ط٤: شددت عليها لتجتنب.

(٢) م ش٩٠: وأظن أن حضرة المعاون لا يأبى ذلك.

(المعاون)- وأنا لا أرفضه.

(البك)- وأنا أرسل فى طلبها[1].

قال عيسى بن هشام- وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نارٍ من الغضب وتنقلب لبؤة هاجت لفقد أشبالها فتشتم وتسب وتقذف وتلعن وتتفل وتبصق وتنقض على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزيلها عن مكانها وتلتفت إلى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ثم إلى صاحب الحان فتتهدده بأنها لاترقص فى ليلتها فلا يسع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة فيجرها إلى خارج البار بالقوة حتى تمكن المعاون أن يتسلل هارباً ثم أخذ ينصحها ويحذرها ويقول لها إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن وقلبه مملوء منك حقداً وغيظاً **فإذا أنت**[2] لم ترجعى عن حماقتك وتصعدى إلى المنصة للرقص أوعزت إلى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك إلى القسم والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب والمعاون هناك ينتظرك للتشفى منك.

قال عيسى بن هشام فوقع هذا القول منها وقع الماء فى النار، وباغتها مثل إنذار الحجز على أهل الدار، فهدأ جأشها، وسكن طيشها، وصعدت للرقص على منصتها، تتأوه من حسرتها وغصتها، وعدنا للجلوس أمام الميدان، ننظر ما يجرى فيه من الغلبة والخسران.

***

(*) قال عيسى بن هشام وجاء دور الرقص فضجت الغوغاء، واشتدت الضوضاء، وامتدت الأعناق بالنعيق، واشتغلت الشفاه بالصفير والأكف بالتصفيق، ترحيباً وتأهيلاً، وتكبيراً وتهليلا، إذ قامت على المنصه هلوك ورهاء، عمشاء مرهاء، فطساء فوهاء، عجفاء شوهاء، مزججة الحاجبين، محمرة الخدين، مبيضة الساعدين، مخضبة اليدين، قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً، وأسدلت على أطرافها من الدهان

---

(١) م ش٩٠ غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م ش٩٠ ولاتجدين أحداً يشهد على المعاون أنه كان هنا وهو الذى يباشر التحقيق معك فينتقم بنفسه ولى منك والزمن طويل.

(*) وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش٩١، ٨ فبراير ١٩٠٠.

ثياباً، بأصباغ شتى وألوان، بين أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان، تتلون فيها تلون الحرباء، فى هجير البيداء، وقد وارت ما تبدى من جسمها، وتعرى من لحمها، بأنواع العقود والقلائد، والأساور والمعاضد، والدمالج والجلاجل، والمناطق والخلاخل، فأخذت فى الرقص والحجلان، على توقيع الضروب والألحان، ويجانبها خادم ما شككنا من قبح هيئته، أنه إبليس اللعين فى طلعته، ركبت منه أقبح هامة، على أسوأ قامة، بوجه قد قد من الصخر، وعينين كعينى الصقر، وأنف كمنسر النسر، وفم يرمى بالزبد كالحر، وشفة مهدولة، وعمامة مجدولة، وفى يمينه قدح وإبريق، يسقيها منه بكأس من حريق، لابكأس من رحيق، ويعاطيها من غسلين أو قطران، ويجرعها من حميم آن، وكلما أترع لها كأساً، همست فى أذنه همساً، ثم تشير بطرف الكف، إلى بعض الجالسين فى أول صف، فيصيح اللعين صيحة الأسد فى عريسته، وقع بصره على فريسته، فيجيبه غلام الحان جذلاً وابتهاجاً، ويأتيه بالزجاجات أزواجا، فيفض عنها الفدام، ويصففها أمامها تحت الأقدام، ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب، وهى تشرب وتطلب، لاتكتفى ولاتقنع، ولاتروى ولا تنقع، كأنما يمتح لها من قليب، ويصب فى واد جديب، أو يملأ من ماء منبثق، ويفرغ فى دنٍ منخرق، فإذا دبت فى عروقها نمال الخمر، واشتعلت فى جوفها اشتعال الجمر، جدت فى لعبها ودورانها، واشتدت فى قفزها وجولانها، وتلوت كالحية فى طرقها، ولعبت كالسلحفاة بعنقها، والخادم أمامها ينازلها وتنازله، ويغازلها وتغازله، ويراقصها وتراقصه، ويقارصها وتقارصه، وهى ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيئة، وتخاطبهم بألفاظ قبيحة رديئة، فتفتر لها الثغور، وتنشرح لكلامها الصدور، ليس فيهم إلا كل مستحسن مستزيد، ومستملح مستعيد، إلى أن تخور قواها، وتغور عيناها، وتتقلص شفتاها، ويكلح شدقاها، وينضح العرق من أطرافها وتراقيها، وينعقد الزبد بنحرها وفيها، فتضطر إلى إزالته، وتعمد لإزاحته، فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها، فيتلون بأشكال الصبغة وأنواعها، فيغدو المنديل كأنه قوس قزح، بما تصبب من أديمها وارتشح، وينكشف التمويه والتلبيس، وينفضح التلفيق والتدليس، فيظهر ما بطن، ويبرز ما كمن، وتنقلب إلى صورة سعلاة، تتراءى فى سراب فلاة، أو غول، تكشر وتصول، ودب يهتز ويدب، فحولنا الوجوه عنها استنكافاً واستنكاراً، ولوينا الأعناق استقباحاً واستقذاراً، ومال الباشا على الصديق يسائله فى دهشته، ويقول له فى نفرته: أعلى مثل

هذه تنوب القلوب، وتنشق المرائر والجيوب، وهل وصل العمى بالناس إلى هذا الحد، ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد.

(الصديق)- نعم[1] إن هذه التى تهرب منها الوحوش لفظاعتها ويتعوذ منها الشيطان لدمامتها هى عند هؤلاء الحاضرين دمية القصر وفريدة العصر كم ذهبت أموال وأودت بأرواح وكم أضاعت شرفاً وأزالت مجداً وأذلت رقاباً وأفسدت حكاماً، وكم فرقت بين المرء وزوجه وولدت العقوق بين الوالد وولده وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه وكم خربت بيوتاً عامرة ودنست أنساباً طاهرة وكم بذرت للشر أسباباً وفتحت للسجون أبواباً، وهؤلاء الذين تراهم جلوساً فى هذا المستنقع الوبىء والمرعى الوبيل يقضون فيه ليالى الشهر تباعاً وشهور العام ردافاً ليسوا من أسافل القوم ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأمير والسرى والوجيه، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس بين إخوانه جلسة الكبرياء فهو أحد أبناء الأمراء مات أبوه وترك له أموالاً جمة فالتفت حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ فى تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة والمركبات المطهمة ثم ثنى بالإسراف الفاحش فى مهرجان زواجه ثم ثلث بتسليم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر وأخصهن هذه اللخناء التى لم يبق له منها إلا التمتع بالنظر وهى لاتنظر إليه ولاتسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله، وانظر عن شمالك إلى هذا الجالس الذى يفتل شاربيه ويحملق بعينيه ويغمز بحاجبيه فهو من أبناء الكبراء أيضا ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى واقعه سوء طالعه فى مخالب هذه الخداعة الغرارة فهو لا يصبر عنها ولايقطع المجىء إليها فى كل ليلة وهى تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل وما كان لأمه من حلى وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة فى أرض هذا المكان، وانظر أمامك إلى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبجلاً فهو من كبار الحكام فى الأرياف وقع فى أشراك هذه المرأة فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لايسلوها ولا يلهو عنها وليس له فى مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ومرقصها ملهى فإذا هو عاد إلى مقر وظيفته عاد بغير لبه فيسعى فى استغواء العمد والأعيان هناك لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لاحياء لياليها، وانظر إلى هذا الشيخ الجالس منفرداً

(١) م.ش ٩١ نعم وتتفتت القلوب وتنشق المرائر والجيوب.

منزوياً ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع فى أسر هذه الغاوية فأخذ يبدد عندها فى شيخوخته ما كان جمعه فى شبيبته...

(الباشا)- لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا الهوى فى الناس داء قديم والتولع بالحسان أمر بديه والعذر غير معدوم ولكن ما بالهم والمرأة فى القبح والدمامة بمنزلة الشيطان والهروب منها مندوب إليه، فهل تعلم لذلك من سبب خفى[1].

(الصديق)- السبب فيه حب[2] التباهى والتفاخر والأثرة والاختصاص وقد اشتهرت هذه البغى بإتقان الرقص والتفرد فيه وأنفس الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عمى النواظر عمه البصائر فهو يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة فى فنها وإن قح منظرها هو الفخر كل الفخر والسبق كل السبق وهم مجبولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وسرى فى عروقهم سمها.

(الباشا)- إن كان لايوجد فى هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعهم وحكم يكف الأذى عنهم؟

(الصديق)- لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقل بيننا من يشتغل للناس فى نفع الناس، **أما الحكومة فتسمع بها وأبصر تجرى كل هذه الموبقات بعلمها وتصنع على عينها وهى ناظرة إليها نظر الرضى متقبلة لها أحسن القبول وهى التى تنير نظامها وتوسع حدودها وتضع لها اللوائح والمنشورات وإن اضمحل بها حال الرعية وساء منها المصير، وماذا يقال فى حكومة تعلم أن ثروتها فى ثروة رعيتها وسلامتها فى سلامتها ثم ترضى انتشار هذه المنكرات المقوضة للثروة المتلفة للأرواح والأبدان ولا تأبى لعزها وشرفها أن تكون سرة عاصمتها محلة للبغايا وسوقا للخمور وميداناً للمقامرة، والعجب فى أمر هذه الحكومة أنها لاتحتذى فى هذا الصدد لا على مثال حكومة مسيحية فجميع عواصم الإسلام فى العالم خالية من أماكن معينة للبغايا المسلمات تشهد بها الحكومة،**

---

(١) م.ش ٩١: آخر يحسن السكوت عليه

(٢) م.ش ٩١: ليس فى الأمر إلا.

الحكومة الإنكليزية من الحكومات المسيحية لاتعترف فى بلادها ببيت للفاحشة ومن أباح بيوت الفاحشة من بقية الممالك المسيحية فقد أباحها بقيود وحدود تخفف من أذاها وتهون من غوائلها وأقل ما فى الأمر أنهم جعلوها فى أطراف البلدة بمعزل عن مساكن الحرائر ولكن الحكومة المصرية تخالف فى ذلك مناهج الحكومات جميعها(١).

قال عيسى بن هشام وانتهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر فى مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة ويتطلعون إليها تطلع البهيمية، فتزحزحت لها المجالس وحلت لها الحبى وأعد لها كل فريق كرسياً بجانبه وتناثرت عليها الإشارات بالتفضل بالجلوس فلم تعبأ بشىء من ذلك ولم تلتفت إليه واستمرت فى تكسرها وتهاديها حتى وصلت إلى مقام صاحب الحان فوقفت معه ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة، وجاء خادمها فى عقبها فاستدعاه إليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها فى يده فانصرف الخادم إلى الراقصة فكلمها وأشار بيده إلى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها إلى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الإباء والرفض فى أول الأمر ثم انتهت بها لجاجة الخادم إلى الرضى والقول فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادم غلام الحان فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل فى يده أربع زجاجات من الشمبانيا فبزلها كلها بمبزله ففارت وفاضت وانتشرت كلها حبباً والغلام متلاه عنها لايسرع الإملاء منها حتى إذا لم يبق بها إلا مقدار صبابة **صبها فى الكاسات**(٢) وقدمها للفاجرة فبادرت إلى لمس كل كأس لمسة بيدها وفيها، ثم يعود الغلام بعد هنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة فتأمره بإحضار سواها وهكذا يتوالى الحال فى طلب الأدوار حتى يبلغ إلى الدور الخامس فى مدة يسيرة وجميع الجالسين لايتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجماً أو يرقبون هلالاً، ولما انقطع ورود الزجاجات برهة التفتت العاهرة إلى خادمها وهو على بعد منها فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى ففهمت بالقيام فأمسك الحاكم بأذيالها فصفعته صفعة مزاح على قفاه بعد أن لعنت أمه وأباه استرضاء له عن تركها إياه فهش لها وبش

(١) أعاد المويلحى كتابة هذه الفقرة لـ ط١. انظروا النص الأصلى فى الملحق ص٥٢١، وحذف المويلحى هذه القطعة من ط٤.

(٢) ط٢: صبها الخبيث فى الكاسات، ط٤ صبها الخبيث فى الأقداح.

اعتقاداً منه أنها تعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة وتمكن الألفة، وتنسل من حضرته إلى حيث أشار الخادم فتهبط على الفئة التى عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذى أفنى فى حبها ماله وأضاع فى هواها شرفه فخاطبته بلسان اللوم والعذل تسأله لأى سبب دعاها ولأجل أية علة أقلقها من مكانها فيتلعثم المسكين برهة ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها فإن المحامى أخبره بنجاح قضيتها فتبتسم له قليلاً ثم تلتفت عنه إلى سواه فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لمحة ليقص عليها تفصيل الخبر فتنفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلفه فى معاشرتها من نضار وعقار فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس إلى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالى والأيام الخوالى وأن يحفظ عنها قصة الأضراس فى باب الاعتبار وروت له القصة التى هى عندهن عماد الصنعة وأساس الفن: زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهواه فعاشا تحت جناح الحب زمنا سعيداً، ثم طرأ على الفتى سفر يبعده عنها فى طلب المال وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرات وتوالت الزفرات وأقسمت له بأن العيش لايطيب لها من بعده وأن الموت أهون عليها من فقده وسألته أن يبقى عندها أثراً منه تتعلل به فى غيابه ساعة الحنين وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى فقال لها سأترك لك بضعة منى وانتزع لك أثراً من بين لحمى ودمى ثم عمد بيده إلى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبالٍ بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلاً ووضعته فى حقة نفيسة وسافر الفتى سفره ومضت عليه الأيام والليالى ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم يفز بطلبته رقيق الحال ضعيف الركن فذهب إلى دار صاحبته وقد أضناه الشوق وبراه النوى فلما طرق الباب ولمحته من النافذة تنكرت له وأنكرته فناداها أنا فلان فاسمحى لى الدخول قالت له ومن فلان فإنى لا أعرفه قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة قالت له كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت قال لها أنا صاحب الضرس قالت أو لك ضرس عندى، قال نعم قالت فادخل فدخل فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس وقالت له دونك إن كنت تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس فأنا أعرفك اليوم من بين الناس، ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس إلى مجلس ذاك الشيخ الوجيه فيقوم لتحيتها واقفاً ويبدى لها نواجذه متهللاً فتجلس معه وغلام الحان

فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات فلا تلتفت إليه فيديم الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائبا وتقول للشيخ أنها لاتريد أن تحمله فى حبها مغرماً ولاتقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحان فيخرج الوجيه من حزامه عقداً يتلألأ فيضعه بين يديها فتبسم له وتنعطف إليه وتقيم عنده برهة فى مضاحكة ومغازلة، ثم تقوم لتنصب على سواه شباكها، وترمى لصيد القلوب أشراكها.

تُحيى وجوه الشراب فعلَ مسالمٍ　　　يضاحكه والكيد كيد محاربِ[1]

***

*) قال عيسى بن هشام وأقمنا نتأمل فى أفعال هذه البغى الفاجرة، ونفكر فى أعمال هذه الخداعة الماكرة، ونعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال، فترميهم فى مهاوى الغواية والضلال، وهى عارية من ثوب الجمال، مجردة عن حسن المزايا والخصال، مفرغة فى قالب الوقاحة، معجونة من حمأة الدمامة والقباحة، وما زالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقل، وتتجول بين الصفوف وتتحول، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو، وتخفى آونة ثم تبدو، منطلقة اللسان بالسلب والثلب، منبسطة اليد بالنهب والسلب، ممتدة الكف باللطم والضرب، دائبة فى السكب والشرب، وهى فى تنقلها تقطب تارة وتتجهم، وتفتر تارة وتتبسم، وتنبسط حيناً وتتقبض، وترضى ساعة ثم تمتعض، وتعامل كل انسان بما يلائمه، وتجرى معه على ما يوائمه، فتضل الألباب والنهى، ويقع الجميع فى أسر الهوى، وآية حبها وميلها، أن تصفع من تجتبيه بنعلها، فإذا أضافت إلى الضرب بالنعال، شق القباء ونتف السبال، كان فى ذلك بلوغ الآمال، بدنو ساعة الوصال، واستوى المضروب يفاخر أصحابه وخلانه، ويباهى أنداده وأقرانه، كالظافر فى ساحة الطعان والضراب، والفائز بالغنائم والأسلاب، فيغالى فى إظهار الابتهاج والائتناس، وتنبسط يده فى الكيس ويدها فى الكاس، والغلام على رأسه بالآنية، يصب لها زجاجة فى كل ثانية، كأن حلقها قناة وكأن الساقى ساقية[2].

وحانت منا التفاتة إلى الخليع وصاحبه، فإذا العمدة يشير بيديه ويغمز بحاجبيه، ويقول للخليع فى اشتعاله والتهابه، ويخاطبه فى ارتباكه واضطرابه:

---

(١) م.ش ٩١: بيت الشعر غير موجود فى المقال الأصلى.

(*) وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م.ش ٩٢، ١٥ فبراير ١٩٠٠.

(٢) م.ش ٩٢: هنا حذف المويلحى قطعة طويلة من المقال الأصلى.

(العمدة) للخليع– لقد أسعدنا الجد وحسنت لدينا عاقبة الصبر ولئن فاتنا الأنس بالغائب فما أكمل أنسنا بالحاضر وهذه الراقصة التى اجتمعت على محبتها القلوب وافتتنت بها العقول هى عندى الضالة المنشورة والأمنية المطلوبة ومن يبلغنا إياها سواك ويمن علينا بها غيرك[1].

(الخليع)– هذه هى الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب ولاعيب فيها غير المزاحمة عليها والمورد العذب كثير الزحام والوصول إليها دونه أهوال.

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتكَ المناظرُ
رأيت الذى لا كُلّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

(التاجر)– نعم هذه هى البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة فاز من حازها وخسر من فاتها ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء لصبا إليها القلب وولعت بها النفس ولكن لرب العيال ما يشغله عنها ويبعده منها.

(العمدة)– ليس يفوتنا على كل حال أن نتمتع منها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بمحادثتها الغليل ونشفى بكلامها الهيام.

(الخليع)– حبذا لو كان ذلك وجلست معنا برهة ولكنك ترى من المزاحمة عليها والمنافسة بين الحاضرين فى الغرام بها والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً ودرك الطلب متعذراً.

(العمدة)– أما المزاحمة عليها فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول إليها وأما المنافسة فى الغرم عليها فالأمر مستدرك والدراهم موجودة.

(التاجر)– ما أشك بعد هذا فى نيل الغرض وقضاء الوطر وستنتهى ليلتنا بحسن الختام[2].

---

(1) م.ش ٩٢: «هى عندى... غيرك» غير موجودة فى المقال الأصلى.

(2) ط٢: بمسك الختام.

ويضاف بعد (حسن الختام): (الخليع) ما على إلا أن أعمل جهدى وأبذل ما فى وسعى ولى بها معرفة قديمة ربما سهلت على الحيلة فى اجتذابها وأنا أبدأ بالخادم كلمة.

قال عيسى بن هشام ويدعو الخليع خادم المرأة ويهم بإعطائه شيئاً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما فيلقى الخليع فى أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ثم يذهب الخادم فيعود بمولاته تتيه دلالاً وتثنى اختيالاً وتبدى الرضا من خلال التمنع[1] فتسلم على أهل المجلس وتخص الخليع بابتسامة وتجلس بجانبه وتسأله عما جرى فى المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة ويطنب لها فى علو شأنه ورفعة مقامه فترحب به فيرفع العمدة يده إلى رأسه مراراً تشكراً لها فتلمح فص الخاتم يتألق فى يده ويتوهج فتضع يمينها فى يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر فيسيل الرجل طرباً وابتهاجاً ويعتقد أنها كلفت به حباً وغراماً فلا يروعه إلا أصوات الأصمة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعا وكلما أفرغ أربعا عاد بأربع حتى هال التاجر من ذلك ما هاله فمال إلى الخليع يناجيه فسكن الخليع من روعه وازال الهواجس عنه فيميل التاجر إلى الأقداح يسكب ويشرب وإلى المرأة يهازل ويغازل ويعاطى ويناول والعمدة على حاله باهت شاخص ومتولع متوله والخليع مسرور مبتهج لايرسل الكأس عن فيه إلا ممسكًا بأخيه والمرأة تخدع وتكيد وتقول للغلام هل من مزيد، ثم يخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر إليها بالحديث فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له قد آن أوان الانصراف وحانت ساعة الختام وتقوم مودعة، فيتلهف العمدة ويتحسر ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف فى مجلس آخر فتضحك له ضحكة القبول وتلطم الخليع بالمروحة على خده وتغادرهم إلى صاحب الحان فتجلس معه، ويأخذ الناس فى الانصراف والخدم فى رفع الكراسى وإغلاق بعض الأبواب ولايبقى فى المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة: ذلك الحاكم الوامق وذلك الغلام الوارث وذلك الشيخ المتصابى وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه، فإذا طال عليهم الانتظار ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف يصحبهم الهم ويرافقهم الكدر إلا العمدة فإنه يلح فى الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر[2] ويقصد المرأة

(١) م.ش ٩٢. فى المقال الأصلى:

تحيى وجوه الشرب فعل مسالمٍ ... ويضحكه والكيد كيد محارب

(٢) م.ش ٩٢ وط٢: سكران سكر الهوى وسكر ... مدامةٍ ومتى يضيق فتى به سكران

فى مكانها عند صاحب الحان وهو يتعثر فى مشيته ويجرر فى عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد فتتغضى عنه فيلح عليها فتلج فى الإعراض فيخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط راحته راجيا متضرعاً فتظهر له الجفوة فتشتد به الصبوة فيترامى عليها فتدفعه عنها برجلها فيقع على الأرض فينتثر ما فى الكيس من الذهب فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه إليه صاحب الحان، ويتماثل العمدة واقفاً فيمد يده إلى المرأة فيأخذ بضفيرتيها يجذبها نحوه فتسبه وتلعنه وتمسك بصاحب الحان ويستمر العمدة فى الشد والجذب فتخونه الضفيرتان فيرتمى على ظهره طريحاً وهما فى يده والمرأة باقية فى مكانها تصيح وتستغيث فينقض من أقصى المكان رجل رث الهيئة قبيح الطلعة وسخ العمامة يرفع فى يمينه هراوة ويتأبط فى شماله صرة ثياب فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضفيرتين ويتوسط بينهما التاجر فيسأل الرجل عما يعنيه فى الأمر فيقول له أنه زوج المرأة وأنه يدافع عن حريمه ولايرجع عن غريمه فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه فينصحه الخليع بالرجوع عنه لأن الرجل من أهل الحماية وفى التعرض له إلقاء باليد إلى التهلكة فإنه فوق القانون يجنى ولاعقوبة عليه، فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه فيتقدم الخليع الخبيث فيكلم الزوج طوراً والحليلة تارة وصاحب الحان أخرى فينتهى النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعوضاً لها عن خسارة الضفيرتين، ثم يقوم صاحب الحان وينادى غلامه وهو مشتغل بإطفاء الأنوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له فيلتفت إلى العمدة قائلا:

(صاحب الحان) للعمدة- والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً ثمن المشروب وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبيانية،

(العمدة)- ما هذه الحسبة وما هذا الكلام[1]؟

(صاحب الحان)- أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيته فإنه لايليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها الخمر أم الشرور وإن خالها الشارب أم السرور وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها والنساء

---

(١) م.ش ٩٢: القول.

غيرها كثيرات فى المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند تشريفك فى الليلة الآتية وأرجو أن لاتتوقف فى دفع هذه الحسبة الصغيرة فإنى لا أرضى لك الإهانة ولاترضى لنفسك الفضيحة[1].

(العمدة) للتاجر- هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ؟

(التاجر)- لا وحق العشرة وحرمة الصحبة، ولم يبق معى من الدراهم لا قليل ولا كثير.

(العمدة) للخليع- دبرنى يا صديقى فى أمرى وانظر لى طريقة الخلاص.

(الخليع)- يعز على والله ما نحن فيه ولكن عزت الحيلة ولو كان صاحب الحان يقبل منى ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ولو كان فى الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت.

(العمدة)- إن كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أثمن من ساعتك وهى عندى أعز على من روحى لأنى أخذتها هدية من دائرة البرنسيس يوم بعت لها أطيانها وعليها حروف اسمها منقوشة وقد قدرها لى الجوهرى بخمسين جنيهاً[2].

(الخليع)- إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها وعندك الخاتم ترهنه مكانها.

(العمدة)- هذا هو الأصوب وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة، فخذه يا حضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسدد لك المطلوب فى الغد.

(صاحب الحان)- أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة فقد غشونى فيها مراراً بإحكام التقليد فى صناعتها وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص.

(التاجر) بعد أن يمعن فى الفص- كيف تقول ذلك وهو من الألماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه وأنا مستعد لرهنه عندى على خمسين جنيهاً فانتظرنى ريثما أذهب إلى محل مبيتى وأرجع إليكم بالمبلغ.

---

(١) م.ش ٩٢. غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م.ش ٩٢: يضاف بعد (جنيهاً) وأراد أن يشتريها منى فامتنعت ثم قدرها بعده الخواجة فلان بثمانين جنيهاً.

(صاحب الحان) مكفهراً– ليس عندى وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل وهذا جندى البوليس واقف أمامنا يتعجلنى فى طاعة أوامر الحكومة.

(الجندى)– نعم مضى الميعاد ولابد من الإغلاق حالاً فانظروا معكم شيئاً أخر للرهن يفض به هذا المشكل.

(الخليع) للعمدة– أعطه الساعة فلا حول ولا، وليس هناك ما تخشاه عليها فإننا نستخلصها غدا بعد أن تقابلنى فى الصباح بقهوة الموسكى[1].

(صاحب الحان) بعد التأمل فى الساعة– هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها فاترك الخاتم معها أيضا.

(العمدة)– هذا لايصح مطلقا فإن المبلغ المطلوب لايزيد عن ثلاثة عشر جنيها على فرض صحته.

(الخليع)– ما دام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين وأنا أرجو الخواجه أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض فى تعطيل المحل.

(صاحب المحل)– إنى أتجاوز عنه لأجل خاطرك.

قال عيسى بن هشام ويشدد جندى البوليس فى طلب الإغلاق فى الحال فلا يسع العمدة إلا التسليم فى الخاتم والساعة، وبينا الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرت الشدقين فأخذ يجيل فى الحاضرين نظره يميناً وشمالاً ثم تقدّم إلى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت ومضى الميعاد وأغلقت الحانات وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين فأين هذا الصيد الذى ألهاك عنى وأنساك أمرى يا عاهرة فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمد يشهد بها الحاضرون، وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع ضفيرتيها فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة فيزمجر

---

(١) م.ش ٩٢: يضاف بعد (الموسكى): لنسرع فى استخلاصها من الرهن.

الرجل ويتوعد ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب فتستعطفه الفاجرة وتطلب منه أن لايكدر على نفسه صفاء الليلة الوقوع فى مخاصمة أخرى وتطلب منه الإسراع إلى البيت فى صحبتها.

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء ونتأسف على وقوع الرجال فى أشراكهن[1] **وكيف نزل الجهل والعمى بهم حتى يخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيء وقد خرجوا من الثروة والشرف ودخلوا فى دور الأسقام والعلل وانهملت عليهم ديم الأحزان والنقم.**

ثم التفت الباشا إلى الصديق، يسأله فى أثناء الطريق[2]:

(الباشا)- ألا تخبرنى أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة فى هذا المكان وكيف يترددون عليه ليالى متتابعات ولايدركهم الهلاك والوبال وقد كاد يقضى على للإقامة فيه بضع ساعات، فما وجار الضبع وما عش الظربان وما قبر الميت - يرحمنا الله وإياك- بأنتن رائحة ولا أقذر مكاناً ولا أسوأ مقاماً من هذا الذى كنا فيه.

(الصديق)- يصبر الناس على الإقامة فى هذا المكان ويكثرون من التردد عليه بحكم التدرج وإلف العادة وقوة التمادى وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه فلا تحس بضرره وألمه كالمريض يذهله المرقد عن ألم الداء وبتر الأعضاء وإن شئت فكالهندى يتدرج ويرتقى فى تناول الأفيون وهو سم قاتل حتى ينتهى بجسمه إلى حال لو لسعته معها عقرب ولسبته حية لم يؤثر سمها فيه.

(الباشا)- أفدت بما شرحت، وقد بقى عليك أن تفسر لى ما أشكل على من أمر الرجلين مع العاهرة أحدهما الذى يقول أنه زوجها والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها.

(الصديق)- أما الزوج فإنه رجل من سفلة المغاربة المنتمين إلى دولة أجنبية

---

(١) ط٢: أشواك المكر والدهاء.

(٢) من «وكيف نزل الجهل... أثناء الطريق» غير موجود فى المقال الأصلى.

تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها، وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به فتدخل حينئذ فى حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة إذا أتت فى فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة، ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم وديوثاً بالفعل وذلك فى مقابل شىء من الدراهم يتناوله منها فى كل ليلة، وهذه الطريقة قد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تعدتهن إلى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطة إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها وترى صاحب الجريدة الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس إلى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول عما ينشر فيها ويطبع ثم يملؤها بما تسوله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشراف الناس ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذىء من الكلام فإذا عول أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وارى وجهه عن الحاكم بوجه الأجنبى وقال لك ما ذم الأمراء ولا هجا الأشراف ولا طعن فى الناس إلا صاحب الاسم المسؤول فعليك به فإذا التمسته وجدته بائع نعال يصفق بها فى عرض الطريق وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولاسبيل إلى محاكمته إلا فى بيت القنصل وقواس القنصل ينصف أخاه ظالماً أو مظلوماً ناهيك بالقنصل نفسه.

وأما الرجل الذى سحبته العاهرةِ بيدها إلى بيتها فهو صاحب ودها وحبيب قلبها تفضله فى آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها ويبذل نفسه فى سبيل رضاها، ولاتعجب من سوء معاملته لها وشدة غطرسته عليها فذلك مما يزيدها فيه حبا ويولعها به شغفاً، والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل إلا لمن يبادرها بالإهانة والتحقير ولاتنقاد إلا لمن يتناولها بالضر والأذى - فهو يضها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يتمتع بها دون المتهالكين عليها وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التى تدب حولها[1].

---

(١) م.ش ٩٢: ويضاف بعد (حولها): هلوك تهين المستهام بحبها وتلقى الرجال المبغضين بالجلال.

(الباشا)- لاشك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغى على بغيها فى الناس وسلبها للأموال وفتكها بالأرواح وقل لمثلها هذا الجزاء المعجل فى الدنيا قبل العذاب المؤجل لها فى الآخرة.

(الصديق)- لاتستهين أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة فى دنياها من الجزاء فإنهن جميعًا فى معيشة كلها هموم وأدواء ومن تأمل فى حقيقة أحوالهن خفف من سخطه عليهن ووجدهن أحق بالشفقة من القسوة فإن هذه الأموال التى ينهبنها والأسلاب التى يسلبنها لاتلبث فى أيديهن إلا ريثما ينفقنها فى الحلى والحلل، والعاهرة لا تنتهى حاجتها من الزينة ولاتخلو من حبيب تنفق عليه وخليل تقوم بحاجته فهى على الدوام فى عسر شديد ودين ثقيل، وإن جميع ما عليها من الحلى والجواهر وما يتألق فى عنقها من القلائد وفى معصمها من الأساور وفى رجليها من الخلاخل إنما هى كلها فى الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهرى فى أسر لافكاك لها منه طول الحياة، وهى كما رأيت تقضى ليلها إلى الصباح فى شرب السموم من الخمور وفى تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكلف التحبب إليهم وفى التفنن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان، فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلة الأعضاء مفككة المفاصل فترتمى على فراشها كالرمة فى مكان هو أقذر من ذلك الحان وأفسد منه هواء وما ذاقت فى يومها طعاماً وما تناولت فى ليلها غذاء فإذا قامت من نومها بعد نصف النهار قامت كالذى يتخبطه الشيطان مصدعة مخمورة لاتشتهى طعاماً ولا تسيغ شراباً حتى إذا تماسكت قليلاً بادرت إلى إصلاح الفاسد منها ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه لاتزال المسكينة هكذا دائرة فى حلقة من التعب والوصب لاخلاص لها منها إلا بحلول الأمراض والأوجاع ثم يقضى عليها وهى فى المعصية بعيدة عن ذوى الحنو والإشفاق من الأهل والأقارب وذلك هو البلاء العظيم والعذاب **الأليم**[1].

---

(١) م.ش ٩٢. يضاف بعد (الأليم) ولو علم هؤلاء البغايا سوء مصيرهن وعاقبة أمرهن لما خرجن من بين أهلهن مندفعات بسبب من الأسباب التى تخرجهن إلى البغاء وهى الفقر والإغواء وسوء التربية وعدم الزاجر وكلها راجع إلى عدم القيام بالتربية الدينية الإسلامية فلو تحسنت فى النساء والرجال ووجدوا فى الزجر والوزع ما ينبههم إلى سوء المصير وتأدبوا بآداب الدين لما رأينا شيئاً من هذه المفاسد يجاهر به على رؤوس الأشهاد.

قال عيسى بن هشام وما راعنا فى طريقنا إلا صوت الديك يؤذن بالصباح، وصوت المؤذن يؤذن حى على الفلاح، فأسرعنا نطلب مأوانا، وندرك أم مثوانا، ونحن نسأل رب الأرض والسموات، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات.

***

* قال عيسى بن هشام ولما ارتفع وجه النهار أو كاد، ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد، بادرنا كل الإبدار، الخروج من الدار، لنلحق بأولئك الرفقاء، فى الميعاد المعين للقاء، فقصدنا «قهوة القزاز»[1] فوجدناها تتموج بالداخلين، وتضطرب اضطرابا بالواقفين والقاعدين، فوقفنا برهة[2] نرسل النظر إرسالاً، ونتصفح الوجوه يميناً وشمالاً، حتى اهتدينا إلى الصديق جالساً فجلسنا عن جانبيه، ورأينا العمدة جالسًا بجانبنا مع صاحبيه، فإذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة، من سواد ليلته الغابرة، حيث ناله من الهوان ما ناله، وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله، ورهن ما رهن من حلية ومتاع، من غير لذة ولا استمتاع، فهو متخاذل متضائل، «له شق مائل، ولون حائل، ولعاب سائل»، وسحنة مغبرة، وأنامل مصفرة، وجفون محمرة، وأحداق جامدة، وأعضاء هامدة، ورأس متصدعة، وأنفاس متقطعة، يفتح تارة فاه، ويحك طوراً فى قفاه، فيخاله كل من يراه، نضو سفرٍ أضناه السرى وبراه، أو حلف تسخير أدمته العصا وألهبه السوط، ليبلغ من جهد «السخرة» منتهى الشوط.

وإذا التاجر بجانبه يقلب حدقتيه، ويتحل بشفتيه، ويصعد أنفاساً كالحريق، فى ميزاب من الريق، كأنه ذئب يهم بالغثيان، ويخشى صولة الرعيان، أو صائد يخاف أن يخونه كيده، ويفلت منه صيده، والخليع بينهما يطرق برأسه، ويكتم ما فى نفسه، وينكت الأرض بعصاه، ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه، دائباً يبرم الخديعة ويهيئ العدة، ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة، ورأينا هنالك من دونهم نفراً، لايحولون عنهم نظراً، كأنهم الطيور الجارحة، تترقب حمامة سانحة، فاستخبرنا من الصديق، عن شأن هذا الفريق، فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة، والطائفة الرابحة الخاسرة، طائفة

(*) أضيف عنوان «العمدة فى الرهن» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ١٠٢، ١١مايو ١٩٠٠.

(١) ط٤ القزاز بالموسكى.

(٢) ط٤ هنيهة.

الوسطاء والسماسرة، وشاهدنا الخليع يوحى إليهم باللحظ والنظر، كأنه يعاهدهم على النجح والظفر، ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لأمره، وتيسيرا عليه من عسره:

(الخليع)- لاتهتم يا مولاى ولاتغتم فالخطب أهون مما تظن والأمور بقدر الله ميسرة والحاجات بإذنه مقضية[1].

(التاجر)- إن كان التيسير من جهة الاقتراض فإننا لا أتصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس فى هذا العهد عهد المعاكسة والمضاربة، وفى هذه الحالة أرانى أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبى فإنى له أرجح جانباً وأربح معاملة وأنقص فى قدر «الفائدة» من سواى.

(العمدة)- لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سعة وفى الحاجة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل **إلى غير ذلك**[2].

(الخيلع)- ولاتنس ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الأهل والجيران، وصدق من قال: «بيع الشئ خير من رهنه والرهن بيع وغبن» وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض.

(التاجر للخليع)- ما أحسن هذا لو أنه يتم ولكن لاتنس أنت أيضاً ما قيل: «إن الذى يقرضك على الشهرة والسمعة، لابد أن يأخذ فائدة شهر فى جمعة»، ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بماله من غير رهن إلا من ضمن لنفسه الفوائد الجسيمة والربح الطائل.

(الخليع للتاجر)- ما بالك تعسر علينا فى الأمور مع إمكان تيسيرها ولايأخذك شك فى[3] هذا[4] فإننا أضمن الحصول على القرض فى هذه الساعة فى هذه القهوة فى

(١) م.ش ٣-١٠: فالأمر أيسر مما تظن.

(١) غير موجود فى المقال الأصلى.

(٣) م.ش ٣-١٠: «ما بالك... فى هذا» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٤) ط٢: فيما أقول.

هذه الجلسة ولامحل للتخوف من جسامة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريبًا والتسديد عتيداً.

(العمدة للخليع)- هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء وهكذا تكون محاسن الشيم يا أبا المكارم والهمم.

(التاجر)- قد قلت ما عندى[1] وكل إنسان حر فى عمله.

(الخليع للعمدة)- قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض؟

(العمدة)- يكفينى على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة فى الحالة الراهنة.

(الخليع)- هذا التقدير ضعيف[2] وماذا ينفع مثل هذا المبلغ القليل وبماذا يفيد وعليك قبل كل شئ تسديد ما لصاحبنا هذا فى ذمتك من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفك رهن الساعة والخاتم، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكناه فى حلوان وما يلحق بذلك من أثمان الفرش والأثاث، وهذا غير ما يجب أن يكون فى يدك للبذل والإنفاق فى أوقات الأنس والطرب وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة إليها بعد كل هذا التعب والكدر[3] فلابد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل سيما وإن أرباب الأموال الذين أعرفهم لايقرضون أقل من هذا المبلغ إن كانت مدته قصيرة.

(وهنا يومئ الخليع إلى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه فيهمس فى أذن أحدهم كلاما ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول):

(الخليع)- اعلموا أن سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الأطيان والعقار ما هو معروف مشهور ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقاً وأطيانه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك وقد حلت ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للإنفاق فى مدة وجوده بالقاهرة وهو الآن فى حاجة

---

(١) م.ش ١٠٢: ما عندى وما على الناصح من السبيل.

(٢) م ش ١٠٢: غير موجود فى المقال الأصلى.

(٣) م ش ١٠٢: يضاف بعد (الكدر) ولاسيما وأنت مضطر للإقامة هنا مدة فى انتظار نجاز القضية التى علمت أنها تأخرت عن ميعادها المقدر لها.

إلى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أوان الحصاد الآتى ولست أرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم حالة أعيان البلاد.

(أحد السماسرة)- مرحباً بسعادته مرحباً وما هو بالمجهول عندنا فإننا نعرفه كلنا بما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه وكان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحة أكيدة، وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لايوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم فى الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس، ولكنك تعلم أن الدراهم عزيزة المنال فى هذه الأيام وقل من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ولو كان الأمر لى وحدى لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون ميثاق أو رهن أو فائدة إكراماً للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقًا لعرى المحبة بيننا ولكن شريكى فى الأشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لايعرف حقوق المودة القديمة ولايرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجمعاً للشروط القانونية ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضمانتى أولاً وبتشريف مقدار «الفائدة» ثانياً فإن اتفقتم معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة إلى وقت الحصاد باشرت معه الأمر وقمت بالخدمة الواجبة على لسعادة البيك.

(التاجر)- سلام قولاً من رب رحيم، **أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض**[1]... ما سمعنا هذا فى آبائنا الأولين.

(السمسار للتاجر)- لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف فإنه لايستعظم مثل هذه الفائدة فى الأحوال الحاضرة إلا من يعتقد تحريمها، على أن الربا محرم عندنا أيضا كما هو محرم عندكم ولكن الضرورات تبيح المحظورات.

(العمدة)- حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار المشهورين.

(السمسار)- إذا كان حضرته من التجار فلابد أن يكون واقفاً على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار الفائدة فى قرضٍ من غير رهن، ثم أنه لايجهل فى

(١) م.ش ١٠٢: خمسمائة بسبعمائة.

الأشغال تكاليف المشاركة... والمساهمة... والمقاسمة... إن شاء الله.

(التاجر)- نعم نعم ولكن مبلغ الفائدة عظيم على كل حال فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيت أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمت بذلك عليه.

(السمسار)- ما أصعب المعاملة مع التجار، وما دمت حكمت حكمك فلامرد له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البيك فتفضلوا بالذهاب معى إلى المحل على بركة الله لإتمام الأمر مع شريكى.

(الخليع)- لا حاجة إلى ذهابنا جميعا ويكفى أن يذهب معك سعادة البيك وحده فإن المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا فى الانتظار.

قال عيسى بن هشام وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين فى مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مسافة من الزمن وإذا بالعمدة عائدا وحده مقطب الوجه منقبض النفس فأسرع الخليع والعمدة إلى لقائه واستخباره عما جرى له.

(العمدة)- لعن الله الاضطرار، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار.

(الخليع)- **وماذا وقع بك ودهمك هل خاب الأمل فى عقد القرض أم عقدته**[1] **وسرقت منك الدراهم**[2].

(العمدة)- لم تسرق كلها بل نصفها.

(التاجر شاهقاً والخليع محملقاً)- وكيف كان ذلك؟

(العمدة)- ركبت مع **الرجل**[3] وذهبنا إلى محل شريكه فأجلسنى هناك ناحية وكتب الصك وختمته ثم أنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ثم إنه عاد إلى عابس الوجه يقول لى إن الأمر متعذر متعسر وأنه بذل كل ما فى وسعه من طرق الإقناع والرجاء

---

(١) م. ش ١٠٢: مكان «وماذا وقع بك... أم عقدته» غير موجود فى المقال الأصلى.

(٢) م. ش ١٠٢: هل سرقت منك النقود.

(٣) م. ش ١٠٢: السمسار.

ليقبل شريكه بقرض المبلغ فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع لخيبة مسعاه ويشير على بالصبر أيامًا حتى تنفرج الشدة وتنقضى الأزمة، فأريته شدة ما بى من الحاجة إلى الدراهم فى هذا الوقت وليس فى الاستطاعة تأجيل الاقتراض وهممت الرجوع إليكما لترشدانى إلى باب آخر يأتى بالتيسر المطلوب فدنا منى شريكه عند ذلك وقال لى يعز على والله أن أردك خائباً وأرفض رجاء شريكى ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذى لحق بهذا القطر فى هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل[1] وكثرة المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى أنه لايوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ومع ذلك فقد افتكرت طويلاً وعولت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة جليلة نقدمها إليك، فأسرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ثم سلمه إلى فعددته فوجدته أربعمائة تماماً ثم وضعتها فى جيبى وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب فتلكأ فى الإجابة واعتذر إلىّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بعضه لربح اليتيم وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة إن وقع منى تقصير فى التسديد عند الميعاد لاسمح الله كما هى العادة السائرة اليوم، فهالنى الأمر ونبذت الدراهم وطلبت منه أن يرد لى الصك فى الحال فلم يتلفت لقولى واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين إليه وأنا مقيم على مثل الجمر وكلما أشرت إليه بإشارة من بعيد ليكلمنى لوى وجهه عنى وأظهر الاشمئزاز منى فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجه فلم أجد له أثراً فاشتد بى الكرب وحرقنى الغيظ فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أطالبه برد الصك فأظهر لى حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حل خناقه من يدى وقال لى أنه لايمنعه عن إجابة طلبى إلا غياب الشريك فإن الصك كتب بحضوره ولايجوز أن يسلمه إلىّ بدون علمه فعلى أن أنتظر أوبته، وبينما نحن على هذه الحال وإذا بسعادة فلان بك صهر مديرنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى خجلاً

---

(١) ط٢: انخفاض النيل وانتشار الدود.

منه وحياء أن يسمع ما يجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف فتسقط منزلتى فى عينه وعينى صهره فتقدمت إليه وسلمت فرد على التحية بالتكريم والتعظيم فلحظ الخبيث صاحب المحل ما أنا فيه فانتهز الفرصة وقص على سعادة البيك قصتنا على حسب هواه وطلب حكمه فى الأمر فقال له سعادة البيك لايليق لك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التى يديرها صهرى وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة، ثم التفت إلى وقال وأنت لايجدر بك أن تخالف حضرة الخواجا وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة وإذا كانت نقطة الخلاف فى **المائة جنيه**[1] التى حجزها عنده لنفقات القضية فأنا لا أشك فى أنه سيردها إليك بتمامها عند إيفاء الدين فى ميعاده وأنت بحمد الله فى ثروة لايتصور معها التأخر عن التسديد وإن كنت لم تتعامل مع الخواجة إلا فى هذه الدفعة ولم تجرب مقدار أمانته وحسن عهده فانى أكفل لك صدقه ووفاءه، فاضطررت من كل الوجوه إلى التسليم والإذعان وأخذت الدراهم على سعادة البيك وقلت له عند خروجى لايظنن سيدى أننى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فإن الأمور ميسرة بفضل الله ونعمة الله وافرة على كما يعلمه سعادة المدير ولكننى وجدت فرصة لاتعوض فى أثناء إقامتى بالعاصمة وهى مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات وهو فى حاجة الليلة إلى استلام العربون ولايمكنه أن يمهلنى ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطررت للاقتراض على هذه الصورة، فقال لى نعم ما تفعل وبارك الله لك فى البيع والشراء ثم إنه حملنى سلاماً وكلاماً لسعادة المدير وانصرفت وخلفته مقيما مع الخواجة وحضرت إليكما ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً إلا أربعمائة جنيه فقط فهذا معنى قولى لكم لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها.

قال عيسى بن هشام وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاءه من الكلام وهو يمد إليه يديه ويحرك شفتيه فتبينا من هيئته وحالته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الأجرة، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله:

---

(١) ط٤: مائة الجنيه.

(السائق)-[١] خلصنا من فضلك يا سيدنا السيد فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى.

(العمدة)- أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته إليك ففيه الكفاية.

(السائق)- من يقول يا حضرة الشيخ إن خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مسافة ساعتين تنقلت فى أثنائها من مكان إلى مكان ثم عدت بك إلى هذه القهوة، وأنا لا أبرح من مكانى حتى تعطينى الأجرة اللائقة بهذه المسافة وإن كان الذنب من جهتى[٢] لأننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجا الذى استوقفنى قبل ركوبك ظنا منى أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجرة المركبات ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات وجعلتنى أفضل برنيطة الخواجة على عمامة السيادة فلا حول ولا قوة إلا بالله، خلصنا يا سيدى.

(الخليع للسائق)- اسكت عن هذا الكلام البارد وهاك قرشًا سادسًا خذه وانصرف[٣].

(السائق) - كن محضر خير يا حضرة الأفندى واعلم أننى لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقًا، فإما الأجرة اللائقة وإما الذهاب معى إلى صاحب المركبة[٤].

(العمدة)- دونك قرشًا[٥] آخر فاتركنا واذهب لحالك.

(السائق)- كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار فهل تحسبها أجرة ركوبنا من هنا إلى محل الخواجا أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة أو أجرة ركوبك من محل الخواجا إلى دكان الكوارع وانتظارك مسافة[٦] الأكل أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة.

---

(١) م. ش ١٠٢: سائق المركبة.

(٢) م. ش ١٠٢: من جهتى فقد كنت عاهدت الله أن لا يركب معى أمثال هؤلاء المشايخ والعمد.

(٣) م. ش ١٠٢: رابعاً.

(٤) م. ش ١٠٢: (مكان كلام السائق هذا) هذا شيء لا ينفع أعطونى أجرتى على حساب التعريفة أو أنادى البوليس.

(٥) م.ش ١٠٢: نصف قرش.

(٦) ط٣: مدة.

(التاجر)- دكان الكوارع،،،،!! وبائع الفاكهة،،،،!! واحر قلباه ممن قلبه شبم.

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاماً.

(العمدة)- ما ألجأنى إلى ذلك وحق الصحبة إلا الجوع المفرط واحتياج الجسم إلى ما يقيمه فإنى أحسست بالنور ظلامًا فى عينى من خلو البطن وأشهد أن الجوع كافر.

(السائق)- أدركونى برحمتكم فهذا جندى البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها فى المخالفات حيث خلفتها واشتغلت عنها بكم.

(الخليع)- لقد صدعتنا وشوشت علينا فخذ هذا القرش أيضًا وأنا أخلصك من جندى البوليس وإلا فانى أقوم إلى «القسم» وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ولاتجد فى القسم من يرحمك.

(السائق)- ما باليد حيلة أعطنى ما تريد وقم اشهد عند جندى البوليس بأننى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات والله يعوضنى خيراً ولا يحكم على بركوب أمثالكم مرة ثانية.

(الخليع عائداً) للعمدة- قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات فلننظر الآن فى تدبير شؤوننا وهلم فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ثم نثنى بصاحب الحان لفك الرهن ثم نثلث بمشترى المقتنيات اللازمة لك.

(العمدة)- نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيرا.

(التاجر) بعد استلام المبلغ- أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ولكن يتعذر على أن أرد إليك الصك فى الحال لأننى تركته بالمنزل فالأليق أن تبقى المبلغ حتى آتيك به غدًا.

(الخليع)- سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى معاملتهم فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيان ما دام المبلغ تسدد لك ودخل فى جيبك.

(العمدة)– صدقت صدقت فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقى والتحرس فى مثل هذه الأمور، وقوموا بنا إلى صاحب الحان.

(الخليع للتاجر) ضاحكاً– انظر إليه فلا يزال قلبه يحن وهواه يميل إلى سكان تلك المعاهد والديار.

(العمدة)– أقول لك الحق: إن غيظى من معاملة تلك المرأة القاسية شديد وحنقى عظيم ولست أنسى ضروب تفننها فى التدلل على والتمنع منى ولا أغفل عن تلك النظرات التى كانت ترسلها إلى بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها وبودى لو أراها مرة ثانية فنوسعها عتابًا وأشبعها تأنيباً.

(الخليع مبتسمًا)– أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك، تريد من العتاب أن ينتهى بك إلى العتبى وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف وما ألذ الرضا بعد الغضب وما أمتن الصداقة بعد العداوة، وأنا أقول لك قول المشفق الناصح إنك مهما حاولت مع هذه المرأة فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها وإنما الرأى لك أن تلتمسها نهارًا وتدعوها للغداء معك فى بعض جهات النزهة وأنا أفضل نزهة الأهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذال والرقباء.

(التاجر)– ما أدقّ الحيلة وما ألطف الرأى.

(العمدة للخليع)– لله درك فما حار من أنت دليله ولا ضل من أنت هاديه وهيا بنا إلى الحان أولا لفك الرهن.

(الخليع)– ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا ولاشك عندى فى إجابة سؤلنا.

(العمدة)– نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً فخير البر عاجله.

(الخليع)– لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله[1].

---

(١) م. ش ١٠٣: غير موجود فى المقال الأصلى ومكانه: فيوافق العمدة على هذا الرأى ويقومون جميعاً.

قال عيسى بن هشام وقاموا ونحن نعجب من كيد الانسان للانسان، بما لايأتيه حيوان مع حيوان، ثم بادرنا نحن أيضاً إلى القيام، على أن يكون الاجتماع غداً فى الأهرام.

***

* قال عيسى بن هشام ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العلم الذى يطاول الروابى والأعلام، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام، والبنية التى تشرف على رضوى وشمام، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام، خلقت ثياب الدهر وهى فى ثوبها القشيب، وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب، ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم، وتحدث حديث المشاهدة والعيان، ما تعاقب الفتيان، وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الإنسان، فى بدائع الصنع والإتقان، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل، فى إقامة مثل هذا الأثر الجليل، وكيف جاز لهذا الفانى البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد، وجل صنع القدير الخالق، فى تصوير هذا الحيوان الناطق، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة، والأفعال المتغايرة المتعارضة، فبينا تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها، ويبحث فكره فى رسومها ومعالمها، ويسير بعلمه فى أنحائها ومناكبها، ويهتدى لحساب أقمارها وكواكبها، إذ تراه يعثر عثرة برجله، فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو فى طريقه، فيغص بريقه، ويهوى بإذن الله، إلى مكامن الخلد، ***وهو طامع فى شجرة الخلد، ذاك الذى كبر وصغر، وعظم وحقر، وعز وذل، وكثر وقل، وصعد وهبط، وعلا وسقط، وصلح وفسد، وعرف وجحد، وسعد وشقى، وفنى وبقى، وسبحان القاهر فوق عباده.***

ثم انتقلنا من دور التفكير، إلى دور التفسير، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره، ويقول لنا فى تعبيره[1]:

(*) أضيف عنوان «العمدة فى الأهرام» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش ١٠٤، ١٨مايو ١٩٠٠.

(١) م. ش ١٠٤. «وهو طالع.. ويقول لنا فى تعبيره» غير موجود فى المقال الأصلى. مكانه. وأقام كل واحد منا برهة يتخيل ويتصور ويتأمل ويتفكر ثم انتقلنا من النجوى إلى المسامرة ومن السكوت إلى المحاضرة.

(الباشا)- كنت أعتقد وأنا فى عصرى الأول أن هذه البنية لمصر تاجها الذى تفاخر به التيجان وأعجوبتها التى تباهى بها الأقطار والبلدان وشاهدها الذى يشهد لها بالمدنية والعمران، ولكنى أراها اليوم بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى العقل وبحثت فى حقائق الأمور وبواطنها أن لا مزية فيها ولاخير منها سوى أنها حجارة مرصوفة وجنادل مصفوفة لاتمتاز عن جبل من الجبال أو تل من التلال فهل تعلمان لها من معنى غامض التوى على فهمه أو سر خفى عز على كشفه[1].

(الصديق)[2]- ليس لها من سر خفى ولامن فائدة بادية سوى أن بعض المتقدمين من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون الرجعة فى هذه الدنيا بعد الممات وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تتنقل مدة من الدهر فى أجسام أخرى فكان همهم فى حياتهم مصروفاً إلى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم فى قبور مشيدة قائمة على الدهر لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها، والناظر فى الآثار المصرية يحكم حكما قاطعاً أن التقدم والتفنن فى البنيات والتصوير عند المصريين ينتهى كله إلى المعابد والمقابر ولم يكن لغرض المدنية والعمران كما يتوهمه الواهمون لأنهم كانوا فيما عدا ذلك على حال الخشونة الأولى فى المأكل والملبس والمسكن، فترى صور الملوك والأمراء حفاة عراة فضلا عن سائر الرعية وتجد قصورهم وبيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ قانعين بذلك فى جانب تسخير الأمة بأسرها فى نقل الصخور ورفع الأثقال لابتناء مثل هذا البنيان واتخاذه قبراً لهم تحفظ فى جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلى إلى يوم الرجعة- ولكن إلى المتحف متحف الجيزة- فتسخير الأمة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق دمائها وإزهاق أرواحها فى بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط واعتقاد سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة أو من عمل كاهن ماكر لمنفعة له معلومة، ومثل هذا لايكون فيه فخر لمفتخر ولا من عزة لمعتز وما هو إلا الظلم والغشم والضلال والجهل، وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدى عدل على سابق الشقاء فى الأمة المصرية وما كانت تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق

---

(١) ط٢: علمه.

(٢) م.ش ١٠٤: الصاحب.

والاستبعاد، ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة فى باب ارتقاء المدنية والعمران لكانت هذه الأحجار والصخور مرتفعة فى بناء القناطر والجسور وتاالله لبانى القناطر الخيرية مثلاً فى نظر الباحث المدقق أحق بالعزة والفخر من أولئك الملوك عباد الأوهام ومستعبدى الأنام، وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يذكر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبار آخر ***فرنسوى اسمه نابليون***[1] فخطب من فوقه على جنوده كلام يهز فيهم أريحية التفاخر والتباهى ويخدعهم به ليظلوا على العمى فى طاعته يمارسون الحروب ويعانون أهوالَ الوقائع ويصبرون على الموت والقتل فى هواه، وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة، ومما يجيء فى خاطرى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى: «إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاماً فإن جاد بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثلثمائة عام»، ولو عقل المسكين أنه سيأتى عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صعلوك أن ينسف هذا البناء فى لمحة واحدة فيجعله كالعهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيماوية لما اغتر بالقوة والسلطان، ولما تحدى بشىء سلمه ليد الحدثان، وليس للحدثان من أمان، اللهم أنه عمل ضائع، من جهل شائع، لاينبغى للمصرى أن يراه إلا بدمع منهمر، وقلب منفطر، لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه، وهوان أجداده وآبائه.

قال عيسى بن هشام- وهنا رأينا أصحاب قد أقبلوا وبينهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً فى ظلٍ من ظلال الأهرام وانبسطوا على بساط الشر والنقل فقطعنا من بيننا حديثنا وانتهينا إلى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم فإذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة مظهر الباحث المدقق والعالم المحقق:

(العمدة)- هل لك علم أيها الصديق شئ عن أصل هذه الأهرام وسبب وضعها وتاريخ تشييدها؟

---

(١) م.ش ١٠٤: فرنساوى صعد.

(التاجر)- كيف لايكون لى علم ذلك وقد وقفت على قصتها تماماً وقرأتها مراراً في كتاب قصص الأنبياء عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكن لى أن أقصها عليك حرفاً بحرف: ذلك أن الملك «سوبون» كان ملكاً على مصر قبل الطوفان فرأى فى منامه رؤيا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً إلى الأرض، فقالوا له: «أن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض تقريباً ولايبقى على شئ فيها» فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم فاشاروا عليه بابتناء هذه الأهرام حتى إذا حل الخطب انتقل إليها واستعصم بها من أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل فأتموا له هذا البناء فى مائتين وخمسين عاماً ثم كساها الديباج وفرشها بالحرير ونقل إليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناس فى حمله ونقله شهوراً كثيرة ثم أنه جمع السحرة فحصنوها له بالأرصاد والطلاسم ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته وطغى الطوفان فلم ينج منه إلا أهل السفينة وعوج بن عنق وهذه الأهرام، وعوج بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام ولد فى زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه وذكروا أن ذلك الطوفان الذى علا الهضاب والجبال لم يبلغ حد ركبتيه فكان يخوض فيه مع السفينة فإذا أحس بالجوع مد يده إلى قاع البحر فيأخذ الواحدة من السمك فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية ولما انقضى وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعيث فى الأرض فساداً دهراً طويلاً حتى بعث الله موسى عليه السلام فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا الله أن يكفيهم شره، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبه فأرسل الله تعالى طيراً له منقار من الفولاذ فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت فى رقبة حاملها وصارت غلاً له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بعصاه وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطول العصا أربعين ذراعا ثم أنه وثب فى الهواء أربعين ذراعا وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض لأنه من أولى العزم فوقع عوج بن عنق فى النيل فحسره عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان إذا مر عليه مار عند رأسه قال له: إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمى فامنع

عنى ما يؤلمنى من هذا الذباب» يعنى الوحوش المفترسة ويقى على هذه الحال إلى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده.

(العمدة)- سبحان الخلاق العظيم أرجوك بالله يا أخى أن تشترى لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى إلى البلد ليقرأها لنا إمام المسجد عند خلونا من الأشغال.

قال عيسى بن هشام- وكان الخليع فى هذه الأثناء مشتغلاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها يضاحكها ويشاربها وتشاربه فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له:

(الخليع)- هل رأيت بالله عليك يوما أعظم أنساً وأتم سروراً وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا؟

(العمدة)- حقا إنه يوم سعد وأنس غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء وتحت السقف لا تحت السماء فإنك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا وفى ذلك من التضييق على حريتنا ما لايخفى عليك.

(الخليع)- ***لاتخش الناس ولاتشغل نفسك بالخلق***[1] واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام وليس للإنسان فى هذه الدنيا سوى ساعة الصفو وإن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون، وأنا اقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح برهة فى الصعود إلى الأهرام حتى لايفوتنا شئ من أسباب التنزه.

(التاجر)- دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر فى كل خطوة.

(الخليع)- هذا أمر بسيط جداً وقل من يزور الأهرام ويصعد فيها مسافة على قدر جهده، وانظر إلى هذه ***النسوة***[2] الصاعدات النازلات فى أيدى العربان أمام عينك هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً وهل يليق بنا معشر الفحول أن نكون أدنى من

---

(١) م. ش ١٠٤: «لاتخش... بالخلق» غير موجود فى المقال الأصلى مكانه: دعنا من الانتقاد والاعتراض

(٢) ط٢. النسوة الأمريكيات.

النساء جرأة وإقداماً، وعلى كل حال فلابد لنا من الصعود قليلا ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة، والسيدة توافقنى على هذا الرأى.

(العمدة)- وأنا أوافق عليه أيضا وعسى الله أن نعثر فى صعودنا على فص من الفصوص العتيقة التى طالما عثرت على مثلها فى التل الكفرى بناحية بلدتنا، ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها.

(التاجر)- أنا أنتظركما معها.

(الخليع)- لا بل تصمد هى معنا أيضا اقتداء بهذه السيدات.

قال عيسى بن هشام- ويقومون للصعود ويتلكأ التاجر فى أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قوته ممازحاً له وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره والخليع والمرأة يغريانه به ويضحكان لضحكه وما كانوا يصعدون قليلاً حتى حانت من العمدة التفاتة إلى الأرض فهاله ما بينه وبينها من الفضاء فامتقع لونه وارتعدت فرائصه ومال على الدليل البدوى مستغيثاً به أن ينزله إلى الأوض معتذراً لأصحابه أن الصفراء لعبت برأسه فلايقوى على متابعة الصعود فيدركه الخليع فيسنده مع البدوى فيسقط من أيديهما فيرفعه البدوى على ظهره وينزل به فما يبلغ الأرض إلا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهى تناديهم جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها فيلحق بها الخليع فيبحث فلايجد شيئا فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل، ويغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال الجلوس ويطلب من العربان أن يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيها، هذا والمرأة لاينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهى لها شكوى والخليع يطيب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذى كدر عليهم الصفو وأبدلهم بالأنس حزناً وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور وما لديه من لذة غير مشوبة بالألم:

فسد الزمان فما لذيذ خالصٌ   مما يشوب ولا سرورٌ كاملُ[1]

---

(١) ط٢: وما من لذة إلا وهى مشوبة بالألم (وبيت الشعر غير موجود فى المقال الأصلى).

على أن المصيبة هينة ما دامت فى المال دون النفس ومن ذا الذى يدرى بما هو مخبأ له فى الغيب والحمد لله على اللطف فى القضاء، ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم إلى المرأة ويقسم لها أنها لاتبيت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع فتشكره وتقول له أنى لها بمثل الفص الضائع وهو من الياقوت النادر المثال فى لونه وصفائه فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها فى الغد بفص أثمن منه وأجمل، ثم أنه يشد على يدها توثيقاً للوعد فتشد على يده للتقبيل فيعز عليه أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص فيخلع خاتمه الذى استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره، ويعودون إلى مجلسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم:

(العمدة)- ما أحسن المجلس وما أضيق الوقت وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار.

(التاجر)- لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية فى ذلك الحان المنحوس.

(الخليع)- وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا فى الحان مثل ما نتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من المزاحمة والمخاصمة.

(العمدة)- وما العمل حينئذ؟

(الخليع)- العمل أننى أكلفها أن تتمارض هذه الليلة وترسل إلى صاحب الحان بتعذر حضورها عنده.

(العمدة)- نعم الرأى ما ترى(1).

قال عيسى بن هشام- ويأخذ الخليع فى استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب فتتمنع أولا معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التى تقضى عليها بدفع عشرة جنيهات إليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها فيلتفت الخليع إلى العمدة ينتظر رأيه فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض، ثم يدور بينهم الكلام عن الكيفية التى يقضون بها ليلتهم فى الأنس والسرور فيرى العمدة قضاءها فى البيت ويرى التاجر قضاءها فى التنقل بالمرأة فى القهاوى ويرى الخليع

(1) م. ش ١٠٤: غير موجود فى المقال الأصلى.

قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تشخص[1] في «التياترو» العربي فيقع اتفاقهم على هذا الرأي الأخير ويقومون ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً.

وينصرفون على هذا العزم المؤكد، والميعاد المحدد، ويعن «للصديق» أن نتخلف عنهم، ريثما تنقضي فسحة الجزيرة بهم، وأن نقضي هذه المدة الوجيزة، في زيارة قصر الجيزة، ثم نلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص، وديوان الروايات والأقاصيص.

***

* قال عيسى بن هشام ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار، وملتقى السيارة من سائر الأقطار، فدخلنا روضة تجري الأنهار من بينها، كأنها الجنة بعينها، ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة، وطرقه مرصعة مزردة، حسبها أرضا مفروشة، ببسط منقوشة، وأشكل الأمر عليه، فهم بخلع نعليه، فقلت له طريق معبد، لا فرض منجد، وحصباء ومرو، لا بساط وفرو، ثم شاهدنا قصراً يكل عنه الطرف، ويقصر دونه الوصف، فسرنا نرتاد خلاله، ونتفيأ ظلاله، فإذا الأسود مقصورات في المقاصير، والأساود مكفوفات في القوارير، ورأينا النمور في الخدور، والرئال في الحجال، والذئاب في القباب، والظباء في الخباء.

فقال الباشا لمن هذه الجنان، وكيف يسكنها الحيوان، وما علمت من قبل أن الليوث الضواري، تسكن مغاني الجواري، وأن أوابد البيد، تتحجب في خدور الغيد، فقلت له سبحان القادر العظيم، هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار، ودرجاته منازل للأقدار، كان إذا نادى صاحبه فيه «يا غلام»، شقيت أقوام وسعدت أقوام، ولبى نداءه البؤس والندى، بأسرع من رجع الصدى، وكان من

(١) ط٢: تمثل.

(*) م. ش ٥٩، ١٥يونيو ١٨٩٩ أضيف عنوان «قصر الجيزة والمتحف» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م. ش ١٠٤، ١٨مايو. ومن الواضح من تاريخ النشر أن المويلحي أدمج في بداية هذا الفصل من كتاب حديث عيسى بن هشام وصفاً نشره في مقال مختلف تماما من سلسلة مقالات «فترة من الزمن». ويبدأ المقال الأصلي هكذا: فطفقت انتقل به من مكان إلى مكان ومن بستان إلى بستان لا تقاطع بيني وإخوانه وأباعد بينه وبين أشجانه إلى أن وصلنا إلى قصر الجيزة.

احتمى بظل هذا الجدار، تحامته غوائل الأزمان والأدهار، هنا كان يفصل الأمر ويحكم، وينقض الحكم ويبرم، هنا كانت تنفرط فرائد القلائد، من أجياد الخرائد، فتختلط بمنثور أزهاره، وترصع لجين أنهاره، هنا كانت تتناثر الحلى من قدود الحسان، فتشتبه بأثمار الأغصان، هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد، فتجيبها نوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد، فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة، وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة، وأصبحت أرضه تكترى، وجنى أشجاره يباع ويشترى، ودوى فيه صياح النسور وزئير الأسود، وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود، وزال ما كان فيه من عز وطول، ومجد وصول، وزيد وحول، وصدق الكتاب فحق عليه القول:

فى هذه الدار فى هذا المكانَ علىَ   هذا السرير رأيت الملك قد سقطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر، ومليك ذلك العصر، من الجد الصاعد، والبخت المساعد، وما صار إليه بعد ذلك من نحوسة السعد، وما دهاه فى الغربة إلى سكنى اللحد، وما ذاقه فى هذه الدار دار الفناء، من مثل عذاب تلك الدار دار البقاء:

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا   برغمهم فإذا النعماءُ بأساء

ثم وقف[1] الباشا برهة فكر فيها واعتبر، وتلا: «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر».

ثم إننا سرنا فى وسط الحديقة، حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة، فدخلناها نشاهد ما أبرزته يد البحث من الخفاء إلى الظهور، وما أعادته قوة التنقيب من البلى إلى النشور، وما صانته ألحاد القبور، من يد الفناء والدثور، وحمته أحشاء الرموس، من العفاء والدروس، وما أجنته أرحام المعابد والهياكل، من بقايا المواضى وخفايا الأوائل، وما انسدلت عليه سجوف الأحقاب، من ودائع الأسلاف للأعقاب، وما انشقت عنه الأرض من مكنون الدفائن، ومكنوز الخزائن، وعجائب الفن الدقيق، وبدائع الصنع الأنيق، بليت فى اصطحابها جدة الأيام والليالى، وانحنت على احتضانها ظهور العصور الخوالى، ومضت دول بعد دول، وذهبت أول فى إثر أول، واندثرت مدائن ونشأت مدائن، وبادت

(١) هنا («ثم وقف») يبدأ م ش ١٠٥، ٢٥ مايو ١٩٠٠.

مواطن وقامت مواطن، وانقلبت الأغوار أنجاداً، والأبحار أطواداً، وغدا العمار خراباً، والغمار سراباً، والسراب غماراً، والخراب عماراً، وهى هى مصون شكلها، كما تركها أهلها، لسان صادق، وخبر ناطق، تنطق بالعبر، وتحدث عمن غبر:

مضت غبراتُ العيش وهى غوابرُ   على الدهر مكتوبٌ عليها حبائسُ

وأقمنا هناك ننتقل بين الأصنام والتماثيل، ونتأمل فى التصاوير والتهاويل، ونتفكر فى هذه العظام المنشرة، والرفات المنظرة، بما عليها من الحلى والزينة، وتلك الأحجار الثمينة، كيف كانت ملوكاً للأمم، ثم بقيت على بلى الرمم، وتوالى القدم، فى حال الوجود مع حال العدم.

* ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمائم، مع فتى من الطرز المتحانق المتعالم، ظهر لنا من أمرهما، وتبين لنا من شكلهما، أن الرجل عين من أعيان المدينة، وأن الفتى ابن له وزينة، وإذا هما يتناظران ويتحاوران، فى ما يريان ويبصران، فدنونا منهما، وأنصتنا إليهما:

(الابن)- أشهدت مشاهد عزنا ورأيت معاهد فخرنا وعلمت كيف كان مقدار مجدنا وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا، فلله درهم ما كان أرقاهم فى الفكر وأبدعهم فى العمل، ولو أن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة أو مناضلة لما سبق المصرى منهم ساق ولا تعلق بأثره لاحق ولكان له من بينهم الكعب الأعلى والقدح المعلى وهذه الآثار فى يده يفاضل بها ويفاخر وينشد عليهم قول الشاعر:

هذه أثارنا علينا..... البيت

(الوالد)- ما أرى شيئاً فى هذه الآثار التى تماجد بها وتفاخر يفوق ما يكون فى السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية.

(الابن)- كيف يكون منك هذا القول وهى بشهادة العالم أجمع أثمن من كل ثمين

(*) م. ش ١٠٥: فى المقال الأصلى توجد هذه المحادثة بين الوالد والابن بعد محادثة الباشا وزملائه التى تليها فى «حديث عيسى بن هشام».

وأنفس من كل نفيس لها ولاتقدير إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وكيف غاب عنك تهافت هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شىء منها بالمال الجم وتنافسهم فى التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الأسفار البعيدة والمتاعب الشديدة ولايعقل وهم هم أهل الهدى والعلم أن يشتغلوا بباطل أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل.

(الوالد)- لكم دينكم ولى دين، وما أزال أكرر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئا مما تشعرون به فى هذا الباب، وما أراه من هذه الاحجار والتماثيل لايساوى فى نظرى إلا أنقاض بيوت عفت أو طلول درست وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها اشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ كان التعلق بها والتمجد بها مما يغضب الخالق ولايرضى المخلوق، وأما قولك إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا لانها من صنع آبائنا وأجدادنا وأن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية فإنه إثم ونكر استعيذ بالله منه «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً» ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا اولئك العرب الكرام أهل الدين والإسلام لاتفاخر إلا بمفاخرهم ولانتسب لغير أصلهم، وأما من جهة الصنعة فى كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ويتفننون فى تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعاً من هذه المحجبة فى القصور المصونة فى البلور.

(الابن)- علم الله لو كان فى لغتنا العربية من الكتب المؤلفة فى مزايا هذه الآثار مثل ما فى اللغات الاجنبية لعلمت منها ما لم تكن تعلم، على أن مجرد النظر يكفى وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات فى حسن الصنعة والدقة أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع تمثال شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز فما أدق الصنع وأتقن العمل وما أكمل الشبه وأجمل الصورة.

(الوالد)- نحن فى كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر فدعنى على غباوتى وجهلى وبارك الله لك فى علمك وعقلك.

(الابن) بصوت خفى- «واغفر لأبى إنه كان من الضالين»- (ثم يجهر بالقول)- لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بينى وبين السائح الذى

ـنا بالأمس لتناول العشاء معه فى «أوتيل شبرد».

(الباشا) للصديق بعد انصرافهما- ماذا تقول فى هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد والوالد.

(الصديق)- ما عساى أن أقول غير ما قاله الله عز وجل: «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً» وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا الرجل البسيط الساذج قبور مقلوبة ورموس معكوسة وأحداث منوشة، فإن كان الغرض من عرضها العبرة والموعظة فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك من ذهب العرش إلى خشب النعش، ومن وسائد الحبر، إلى مساند الحجر، ومن ظهور الصافنات الجياد، إلى بطون الديدان فى الأكفان والألحاد، لنعم الموعظة الحاضرة للنظر والحس، والحكمة البالغة للعقل والنفس.

(الباشا)-[1] هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن وقد كنت أحسب أن لهذه الآثار شأناً عظيما فى ما مضى من دهرى عند ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها فى البلى والقدم ومحلها من التاريخ وما تحمله منقوشاً عليها من أساطير الأولين،

(الصديق)-[2] نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين فإنما هى كما تقول لتعلقها بمباحثهم فى أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ وزد على ذلك حبهم للاقتناء وتولعهم بالاختصاص بالنادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن فى مصر آثاراً تفوق فى القدم مثلها

---

(١) م.ش ١٠٥: الصديق.

(٢) م.ش ١٠٥: قبل كلام الصديق حذف المويلحى من ط١: عيسى بن هشام.كيف لا تكون محل الإعجاب والإطناب وموضع الدهشة والاستغراب وهى أثمن من كل ثمين وأنفس من كل نفيس بل هى أعلى قيمة من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولو لم تكن كذلك لما تغالى هؤلاء الغربيون في اقتناء منها وتنافسوا فى شراء الحجر الصغيرة بالمال الكثير ولما وفدوا من أقطارهم البعيدة وبلادهم الشاسعة للتمتع بالمشاهدة والنظر واستشهاد الخبر على الخبر ولا يظن ظان أن هؤلاء القوم مع توفر العقل والعلم عندهم ينفقون الأموال ويتكبدون فى السفر الأهوال لأجل المشاهدة فقط والنظر البسيط دون أن يكون وراء ذلك من الفوائد والمنافع ما يربو من القيمة على ما ينفقونه من الأموال العظيمة وما يركبون من الأخطار الجسيمة.

من بقية المتاحف، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئا ولا أفادوك عنها شيئا ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين العشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة «الهيروغليف» يعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية والله أعلم مقدار علمه بها، ولو تمنيت الأمانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس، ويا ليت المصريين يخرجون عنها لاعليهم ولا لهم فإنها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل فإنها تعد بالملايين.

(الباشا)- كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك لولا أن فى المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر رمزية أدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف وشدة ضنهم بها فلا يرغبون مطلقاً[1] فى بيعها والتخلى عنها ويرون فيها فخرهم ومجدهم فلا يليق مصر أن تشذ عن هذا السبيل.

(الصديق)- إن حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من الآثار وتفاخرهم بها هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار وإشارة إلى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين وما هى إشارة المجد والشرف فى هذه الأمم البالية أمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين، ولأنهم فى غير حاجة إلى قيمة أثمانها فهى عندهم من الكماليات أما عندنا فالأمر بالعكس ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر وإنما جاءتنا من طريق النقب والحفر، والمصريون فى حاجة إلى المال لإنفاقه فى ضروريات المعايش، ثم إنه قلما يمر عام إلا ويكتشف المكتشفون فى مصر من هذه الآثار الشىء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة فما ضر المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الأشباه المتعددة

(١) ط٢: البتة.

وانتفعوا بقيمة أثمانها فى بعض شؤونهم العامة ويبقى فى المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفى للفخفخة والمباهاة ومباراة الأمم فى تشييد المتاحف، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوربا وأميركا الجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القديمة اليوم فى الأنحاء المختلفة من أقطار الأرض وأن يغضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلها أو ابتياعها من أيدى الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لايجوز اليوم التخلى عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهى على ما تراه -مالا يباع فإنه يتقسم- وجملة القول أن الانتفاع اليوم بها قاصر على الأجانب وحدهم إما بمشاهدتهم لها فى ديارنا أو انتقالها مسلوبة إلى ديارهم، وأى عار على الأمة المصرية أن تتصرف فى بعض الآثار المتشابهة التى تنبتها لها الكهوف والتلال فى كل يوم لتنتفع بأثمانها فى ترقية شأن المعارف وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرض بالكتبخانة المصرية فى المطبعة الأميرية التى طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة فى أيام الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم، وخبرونى ناشدتكم الله أى نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية فى أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة فى الانتكخانة وتقبر أرواح العلماء والحكماء فى الكتبخانة، وأى الأمرين أعظم نفعاً وأكثر ربحاً أن يعرض على أعيننا تمثال «أبيس» وصورة «إيزيس» وذراع «رعمسيس» وفخذ «أمينوفيس» أو أن تتداول الأيدى كتاباً للرازى ومقالة للفارابى وفصلاً ***لابن رشد***[1] ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومى، ما تجرى الأمور عندنا إلا على التناقض وما تسير إلا على ***خلاف المصلحة***[2].

قال عيسى بن هشام وجاء أوان الخروج فقمنا نسعى، لنلحق بأصحابنا فى الملهى، ونشاهد ما يتم عليه حالهم، وينتهى إليه مآلهم.

***

* قال عيسى بن هشام ***وعدنا إلى المدينة وقد مد الغروب***[3] حبالته، ليقتنص من

(١) م. ش ١٠٥: للأسفرايني.

(٢) م. ش ١٠٥· الاعوجاج.

(*) أضيف عنوان «العمدة فى الملهى» إلى ط٢ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش١٠٦ ١يونيو ١٩٠٠.

(٣) م. ش ١٠٦: ولما مد الظلام.

الأصيل غزالته، فتفرقت[1] نفسها شعاعا، واضمحل قرصها شعاعا، وجدت نافرة إلى كناسها، وهي تصعد الشفق من أنفاسها، ثم اختفت شقائق الشفق، تحت أكمام الأفق، ولما أن اخضر من الليل جانبه، وطر شاربه، وتوقدت مصابيح السماء، في قباب الظلماء، قصدنا دار التشخيص والتمثيل، وبيت التصوير والتخييل، فدخلنا مع الداخلين نساء ورجالاً، أجناساً وأشكالاً، واخترنا لجلوسنا الكراسي دون الغرف، لتتيسر لنا المشاهدة من كل طرف، ثم جلسنا نحدد النظر، في من حضر.

وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياؤهم، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم، وعلا ضجيجهم وصياحهم، وكثر لعبهم ومزاحهم، سباً وشتماً، ولكزاً ولكماً، يتمايل بعضهم على بعض، ويضربون بعصيهم وأرجلهم ظهر الأرض، رجالاً وغلماناً، شيباً وولداناً، متظاهرين بملل الاصطبار، ومطالبين برفع الستار، ثم حولنا النظر إلى أعالي الشرف، وجوانب الغرف، فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر، تشف عن لوامع الآلئ والجواهر، في نحور الحور، من مكنونات القصور، وبيضات الخدور، ولولا الأدب[2] لتخيلناها من بنات الفجور، فهن يزحزحن من الوشي والحبر، ويكشفن عن طرر، تضيئ بالغرر، ضوء الليل تحت القمر، ويترآين ترائي الكواكب والنجوم، من خلل السحب والغيوم:

وتنقّبت بخفيف غيمٍ أبيض   هي فيه بين تخفُّرٍ وتبرُّجِ
كتنفُّس الحسناء في مرآتها   كملت محاسنها ولم تتزوَّجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون، ويتشوقون ويتلهفون، لاتنثني أبصارهم عن وجهتها، ولا يحولون الوجوه عن قبلتها، فهم قائمون على عبادتها عاكفون، لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون، وهن يوالين الضحكات، ويتالين الحركات، ويتبادلن معهم الغمز، ويتبادلون معهن الرمز، ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام، ويشيرون بمناديل تغني عن فصيح اللفظ والكلام، وقد خرقت الأصابع نسيج الأستار، لتنفذ منها رسل الأزهار، وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير، تدني البعيد وتكبر الصغير، وكل فتى يرى أنه

---

(١) ط٢: فطارت.

(٢) ط٢: التأدب

المرمى بالنظرات، وأنه المعنى بتلك الإشارات، فيتصنع التجمل والتظرف، ويتكلف التأنق والتلطف، وعند أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام، متزاحمين أكواماً فوق أكوام، كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام، لاينتهون فيه عن الشجار والخصام، وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى، فوجدناهم فى غرفة والعاهرة فى غرفة أخرى، وقد تزينت بزى الأجنبيات فنبذت الخمار والإزار، وتبدت فى القبعة والزنار، وهى تغامز العمدة بعينيها، وتشير إليه بيديها، والخليع بين ذلك يروح ويغدو، ويخفى ثم يبدو، وتارة يكون فى الغرفة عندها، وأخرى يظهر فى غرفة بعدها، إلى أن دق الجرس بالدخول، وارتفع عن الملعب ستره المسدول، وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين، ما بين ملحنين ومرتلين، على طريقة يمجها السمع، ويعافها الطبع، وبكلام مبهم، وألفاظ لاتفهم، كأنهم حداة فى مفازة، أو سعاة فى جنازة، وهم فى أزياء متعاكسة، وأشكال غير متجانسة، وثياب تنافرت ألوانها، على أشخاص تباينت أوطانها، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين، ثم انصرفوا بعد حين، ثم ظهر من بعد ذلك رجل مكتهل، مزجج الحواجب مكتحل، مصبغ الخد والجبين، بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين، فأخذ يخطر ويتثنى، ويهتف ويتغنى، وبجانبه امرأة نصف، تتمايل وتنعطف، لاتقل عنه شيئاً فى باب التصبغ والتدهن، والتصنع والتلون، يقول لها فى شكوى الغرام، وشرح الوجد بها والهيام:

«يا حبيبة الفؤاد، وغاية المراد، ما ألطف هذا الشكل، فهيا بنا نغتنم الوصل»

فتجيبه: «قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم، إذا ساعدتنا أمى نسيم، فدبر أنت ما عليك، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك».

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى فى انتظار حضور الأم فتدخل عليه وإذا هى عجوز شوهاء وجلبانة وزهاء فيتصل بينهما الكلام وينتهى بالقبول والاتفاق ويضع الفتى فى يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ثم ينفرد متجولاً ينشد ويغنى مدة من الزمن ثم يذهب لسبيله وتأتى الأم ومعها زوجها وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ولم تفده التجارب شيئاً فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته فى بيته فيتمنع ويتعلل بقوله: «حقاً إن ذلك الشاب، هو ألح من الذباب، وهو عندى أفسق من الشياطين، وأخبث من البراذين، لايترك من النساء الدون، ولا العجوز الحيزبون».

فتجيبه بقولها: «لاتخف أيها الزوج الأفضل، فما كل الطيور تؤكل، وابنتنا العاقلة

الحلوة، لايخشى عليها منه فى الاجتماع ولا فى الخلوة»، ثم يطول الكلام بينهما وينتهى بقبول الوالد ما دبره له كيد الوالدة، ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلاثمان وتقول له فى حديثها: «الحمد لله أيها الشاب الأنيق، على التيسير والتوفيق، فقد سهلت أمى لنا الطريق، ولم يبق أمامنا إلا استرضاء الخادمة، حتى تكون لأسرارنا كاتمة، فيجيبها: «نعم وإن لم تطاوعنا فانها تصبح حزينة نادمة، لأنى أقسم يا بنت الكرام، بما بيننا من الحب والغرام، أننى أذيقها كأس الحمام، بحد هذا الصمصام، إن امتنعت عن تسهيل الأرب، *بقبول هذا*[1] الكيس الذهب»، فتقول له: «آه يا حبيبى ما أطرب الجلوة، وما أطيب الخلوة، *حيث نسبح*[2] فى بحر النشوة، وهيا بنا أيها الهمام، فإنى أسمع صوت أقدام، وعندى الآن ان أحسن طريقة، أن تنتشق نسيم الصبا فى زوايا الحديقة، فيقول لها: «حفظت يا سيدتى ومولاتى، ومنبع حياتى ومماتى، فالآن قد بزغت شمس سعودى، وعطر الأكوان عرف ندى وعودى».

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرهما فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال وخيانة واغتيال وأخرى عن اجترام واقتراف واختلاس واختطاف ثم يعلو بينهم الضجيج ويصيحون بغناءٍ كأنه ندب وعويل، وعلي هذا ينتهي الفصل الأول ويرخى عليه الستار ويجد الحاضرون حينئذ في الصفير والتصفيق والتأوه والشهيق كأنهم جميعا في نوبة من الصرع أو المس، ثم انهم يتناثلون إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين ونقيم نحن جلوساً في مكاننا فيلتفت إليّ الباشا ويقول:

(الباشا)– لقد سئمت– علم الله– ومللت من منظر هذه المراقص والملاعب فما أشبهها ببعضها وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها.

(عيسى بن هشام)– ليس هذا المكان فى أصل وضعه بمرقص ولا بملعب هذا هو «التياترو» المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الأخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن *المنكر*[3] ويغرس فى النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل فى الأزمان

---

(١) ط٢ بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب.

(٢) ط٤ نصبح.

(٣) ط٢: ويضاف بعد (المنكر) وهو عندهم توأم الجرائد فى هذه تعظ بالخبر وهذا يعظ بالنظر.

الغابرة أو الحاضرة ويفعل في النفوس ما لا تفعله الرواية والخبر وهي في بطون القصص والسير فيمثل لك محاسن الفعال ومحامد الخصال وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك معها المصاعب ونالتك المتاعب ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصور فظاعة النقيصة وما يكون في عاقبتها من السوء وفي أثرها من المكروه وإن خلبتك بمنظرها ساعة وخدعتك ببهرجها برهة فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح إن هممت به ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك إلى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة إلى الشهود ومن القول إلى الفعل فتنجذ نفسك إلى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة وكرم ومروءة وأمانة ووفاء وسماحة وسجاحة وصبر وحلم وينفر طبعك عما تجمعه الرذيلة من دناءة وجبن وخيانة وغدر وجهل وحمق وفحش وفسق.

(الباشا)- إن كان الأمر كما تقول فكيف تسنى للمصريين أن يقلبوا وضعه ويشينوا شكله ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان فلا فرق عندي فيما أنظره هنا الآن وما رأيته في الحانات الأخرى من الرقص والعزف ومعاقرة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأفضح شكل يغرى به ويهيج من شهوات النفوس إليه فإذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من أبواب الآداب وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد فإن شره عندي أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل إليه لايرى على نفسه من لائمة يتقيها في دخوله ولاينكر على أدبه منكراً فيه ولايخشى عنده فتسترسل النفس في غيها ولاتجد منها لها رادعًا ولا وازعًا بخلاف الحال في الداخل إلى تلك الحانات فإنه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما يلام عليه ويعاب فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يومًا عن غيه وجهله. والإقدام على المحرم الصراح فيه من تأنيب النفس ما يزجر وينهى لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء والمصيبة العامة فلا وازع من الخجل والحياء ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب.

(عيسى بن هشام)- لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدمت لك أنه فن غربي ووصفته لك بمقدار ما وصل إليه من الإتقان لدى الغربيين وهو لايزال هنا على حال القصور والانحطاط، لم يلتفت المصريون إلى

إتقانه وحسن وضعه وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعًا من أنواع اللهو والخلاعة على ما ترى. وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن فى تقصيرهم أنه لابد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعى فى ارتقائه وإتقانه وهم يلومون الحكومة المصرية فى كل يوم لتقاعدها عن بذل هذه المساعدة مع أنها تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم أنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل.

(الصديق)- قد سمعت مقالك وعندى أنه يجب على الباحث فى الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربة والإقليم وإلى تركيب الغرائز والفطر وإلى العادة والعرف، ولايتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم والشواهد كثيرة جمة على أن ما يكون حسنًا فى باريس يكون قبيحاً فى برلين وأن ما يكون حميداً فى لوندرة يكون ذميماً فى الخرطوم وما يكون فى رومية حقًا يكون فى مكة باطلاً وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً، ولست أرى أن هذا الفن لو تم لأصحابه ما يبغونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود فى تربية الأخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأخص بالذكر منهم أهل الإسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت، ولايغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدواره ولن تخلو قصة من قصصهم التى يمثلونها عن ذكر العشق والغرام وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها، وهو أن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم ولكونه شيئًا لاعيب فيه يجهر به فتياتهم وفتيانهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم قضت به رطوبة الإقليم وضرورة الحال إلى ما يهيج الشعور ويثير ثائرة الخيال لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولامسموح به فى عاداتهم ولا يدخلونه فى أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر، ولقد جرى أمره فى بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح وكان عند بعض العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعوه عن التزوج بها لهذا السبب وربما أمره إلى السلطان إن شهر بها فى شعره فيهدر دمه، فهذا العشق الذى هو الركن الأكبر والسبب

الأعظم فى حصول التزاوج عند الغربيين هو من أكبر الموانع فى التزاوج لدى الشرقيين والتجاهر به من الأمور المكروهة عندهم لطبيعة الإقليم فى حدة المزاج وتوقد الشعور وتلهب الإحساس، ثم إن تهذيب الاخلاق بهذا الفن لا يأتى إلا من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة لا يؤثر فى أمة أخرى، ولابد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقًا لأحوالهم وظروفهم جاريًا على مقتضى تاريخهم وليس من المقبول عندهم حصول هذا التشهير والتمثيل فى معيشة الأهل والولد وما تنسدل عليه الحجب والستور فى البيوت الدور وليس فى الدين الإسلامى ما يسمح اشتراك النساء مع الرجال فى تأدية هذا الفن لأنه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال، ويأمرهن بغض البصر فضلاً عن طموحه ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب يبتدئ بالعشق والغناء، وماذا ترى فى أبى جعفر عاشقًا وأبى مسلم مغنيًا وأبى الفوارس راقصًا كما يجترئ عليه الآن أهل هذا الفن وذلك أكبر إهانة للأسلاف وأعظم خرف فى التاريخ، وإن أردت أن أكاشفك بكل ما يجول فى خاطرى قلت لك إن هذا الفن الذى تغالى الغربيون فى إتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة فى باب الآداب وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد لأن المعول عليه عندهم فى هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التى يذهب إليها خيال الشاعر، فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على أصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدرجة إلى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته وانتفاعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة فلا يسبقه إليها سابق، وكم تدرب اللصوص ومهر الأشقياء وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم وأخذوا عنها ما كان يعجزهم، ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب فى خفايا الرذائل التى يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب فى انتشارها؛ ولذلك قالوا إن توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانين مما لايؤمن معه تيقظ المجرم إليها وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه فى شريعته فقال: «ما كنت لأتصور أن يونانيًا يقدم على قتل أبيه» فكان قوله هذا أنفى لوقوع هذه الجريمة من

ذكره أشد العقوبة عليها. وأما اكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة فإنه لا يقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها.

قال عيسى بن هشام ودق الجرس وعاد الناس إلى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظًا خطيبًا فما زال يهذى فى القول حتى سقط على الأرض يتخبط فى قيئه ورجيعه لا فى دمه ونجيعه ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتعثر، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مر الشكوى من تشويشهم عليه فى غنائه ثم أنه يعود إلى ما كان فيه من الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدها عليها فى تلك الحال فيحول بينها وبين عاشقها فينبرى له الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعا ويدركه قومه فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون إلى الفرار وتقع المرأة مغشيًا عليها ويقع العاشق باكيًا تحت أقدامها، وعلى هذا يسدل الستار وينتهى الفصل ويخرج الناس إلى مكان الشرب والتدخين فنتبع أثرهم ونجلس ناحية فى بعض زوايا الحان وإذا بالعمدة وصاحبه وعاهرته جالسين جانبًا أمام إحدى المنافذ وأمامهم الراح *والأقداح*[1] مترعة وإذا برجل جهم[2] الوجه بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة فى كلامه: «أتظنين أن الهرب وخلف الميعاد منعك منى ويؤجل وفاء القسط المطلوب لى منك وأنا لا أزال أقتفى أثرك منذ الصباح إلى الساعة وتحملت فى البحث عنك تعبًا عظيمًا والحمد لله إذ عثرت بك فى هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطينى مبلغ القسط أو تردى إلى هذه الحلى التى يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك، ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها فيمنعه الخليع متوسطًا بينهما ويقول له ليس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم، فلا يرجع الرجل عن عزمه بل يقول «أنا لا أطالب بحقى أمام المحاكم وأمامى مالى فى صدرها» ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرة[3] على حليها وتميل على العمدة تستغيث وتستجير فتأخذه الحمية والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول

(١) ط٢: الكؤوس.

(٢) ط٢. عابس.

(٣) ط٤: المشخصات.

له: إن كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك فالشهامة تقضى عليك بأن تدفع لى المبلغ من جيبك لا أن تدفعنى عن حقى بيدك» فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيهاً فينقد الصائغ الدراهم فى الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها إلى المرأة بيد والكأس بيد أخرى فتقبل حافة الكأس شكراً له وحمداً وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين. ويعودون إلى شربهم وحديثهم فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان إلى سواه[1] وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبته ويطلب من الخليع أن ينظم لهم مجلسا هناك فوق سطح المنزل فى ضوء القمر.

(*) وبينما هم فى أخذ ورد إذا بصاحب الحان الذى تشتغل فيه المرأة واقفا على رأسها واضعا يديه فى خاصرتيه يبكتها بقوله: «أهذا هو المرض الذى تعتذرين به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل وهذا هو المستشفى الذى تتعالجين فيه وأظن أن حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر» ثم يجرها بيده لتذهب معه إلى مباشرة الشغل فى الحان فيمسكها العمدة من أذيالها ويقول له: ما هذه الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات فى نظير تأخيرها عن الشغل فى الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها فى هذه الليلة».

فيقول له: إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه إلى فقد كذبت فى دعواها وادخرت الدراهم لنفسها فإما أن ترد إلى المبلغ وتتعهد لى بأنك لا تجتمع بهذه المرأة فى غير محلى وإما أن تستعد للقضية التى أقيمها عليك بطلب التعويض الذى لا يكفينى فيه دخل أطيانك»، ويشتد بينهم اللجاج والخصام فتنبرى إحدى الممثلات الجالسات فى الحان ممن انتهى دورهن فتستصرخ البوليس لإخراجهم فيأتى البوليس ويصمم أن يسوقهم إلى القسم جميعاً، فنخرج وراءهم لاتباعهم فيأبى الباشا ذلك كل الإباء، وينفر عنه كل النفور، ويقول لا أتوجه إلى القسم لا شاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً فقد جربت ما يقع فيه، وكفانى ما علمته من ظواهره وخوافيه، وقد شعرت بسأم فى النفس، وصداع فى الرأس، فلنذهب إلى البيت لنتمتع بشىء من الراحة، ونتخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة، فأجيبه بالطاعة والانقياد، ونترك الصديق على ميعاد.

---

(١) م. ش ١٠٦: ميعاد فقال عيسى بن هشام: ويشكو الباشا من التعب والملل فنقصد البيت على عجل.

(*) أضيف عنوان «المدنية الغربية» إلى ط٣ وهنا يبدأ مقال جديد من سلسلة «فترة من الزمن» م ش١٠٧، ٨ يونيو ١٩٠٠.

قال عيسى بن هشام وما وصلنا البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه، ليشتفى بالرقاد من غمه وهمه، فتركته فى غرفته، ورغت فى النوم كرغبته، وبينا أنا غريق فى المنام، أسبح فى بحر من الأحلام.

إذ سمعت الباشا ينادينى نداء متتاليًا، فقمت إليه مسرعًا وملبيًا، فأخبرنى أن طول التفكر نفى عنه الرقاد، وأورثه الأرق والسهاد، وطلب منى أن نحيى الليلة بالسمر، وأن أقتلها معه بالسهر، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، من قديم فى الزمان وحديث، إلى أن صارت الليلة فى أخريات الشباب، واستهانت بالإزار والنقاب، ثم دب المشيب فى فودها، وبان أثر الوضح فى جلدها، فعبثت بالعقود والقلائد. من الجواهر والفرائد، ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم، من درر الكواكب ولآلئ النجوم، وألقت بالفرقدين من أذنيها، وخلعت خواتيم الثريا من يديها، ثم إنها مزقت جلبابها، وهتكت حجابها، وبرزت للناظرين عجوزًا شمطاء، ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء، وتردد آخر أنفاس البقاء، فسترها الفجر بملآته الزرقاء، ودرجها الصبح فى أرديته البيضاء، ثم قبرها فى جوف الفضاء، وقامت عليها بنات هديل، نائحة بالتسجيع والترتيل، ثم انقلب المأتم فى الحال عرس اجتلاء، وتبدل النحيب بالغناء، لإشراق عروس النهار، وإسفار مليكة البدور والاقمار، وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس، للموعد الذى كان بيننا من أمس، فسألنا كيف أصبحنا، وهل نعمنا واسترحنا؟ فاخبرته بما كان، من اتصال السهر إلى الآن، وما كانت تجرى عليه المسامرة، وتدور به المذاكرة، وجملتها أن الباشا لايزال يدهش مما يراه فى رحلته، ولم يكن له أثر فى أيام دولته، ويستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال، من حال إلى حال، وما هى الأسباب والعلل، فى انتشار هذا الفساد والخلل، ***فنكرت له بعض ما حضرنى منها، وما علمته عنها***[1]، وإنك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح، وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح.

(الصديق)- السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدنية الغربية فى البلاد الشرقية

---

(١) م. ش١٠٧: فأخبره بأن الأصل فيه راجع إلى تقليد الشرقيين مدنية الغربيين فيعجب للأمم الغربية قياساً على ما يرى ويسمع كيف تصرف أفكارهم وتضيع أعمارهم فى إحداث ما يضر ولا ينفع وابتكار كل حادث جديد مما يفسد ولايفيد فنريه أن الغربيين يرون فى مدنيتهم كل منفعة وفائدة ولكن الشرقيين قلدوهم فيها على غير فائدة فجنوا الشوك من شجرها وبلوا المر من ثمرها.

وتقليد الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم كالعميان، لايستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون بحسن نظر ولايلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع وتباين الأنواق واختلاف الأقليم والعادات، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة وظنوا أن فيها السعادة والهناء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والعادات السليمة والآداب الطاهرة ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً فانهدم الأساس ووهت الأركان وانقض البنيان وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا فى الضلال يعمهون وفى البهتان يتسكعون، واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمرا مقضياً وقضاءً مرضياً، وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا فى الشرف كأننا من أهل الغرب، وإن بيننا وبينهم فى المعايش لبعد المشرق من المغرب.

(الباشا)- قد يكون ذلك ولكن لست أدرى لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية وارتدوا بلباسها، ولم يلتفتوا برهة للرجوع إلى سابق مدنيتهم الصحيحة وعمرانهم القويم، فهم أهل السبق فى ذلك كله وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون فى كل زمان ومكان.

(الصديق)- لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر وما يتولد عنهما من طول التوانى والتواكل وسوء التخاذل والتراخى؛ فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكترثوا بمستقبلهم وقعدت بهم هماتهم عن مشقة التكاليف التى كان يتباهى أسلافهم باحتمالها ويتفاخرون بممارستها، وراق لهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولاتعب ولاجد ولاكد، فعظم مقدار أهل الغرب فى أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة عالية عنهم فخضعوا وذلوا وقهر الغربيون وغلبوا.

(الباشا)- ألا ليت شعرى كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر فى أصول

---

(١) م. ش١٠٧: فلخبره بلن الأصل فيه راجع إلى تقليد الشرقيين مدنية الغربيين فيعجب للأمم الغربية قياساً على ما يرى ويسمع كيف تصرف أفكارهم وتضيع أعمارهم فى إحداث ما يضر ولا ينفع وابتكار كل حادث جديد مما يفسد ولايفيد فلريه أن الغربيين يرون فى مدنيتهم كل منفعة وفائدة ولكن الشرقيين قلدوهم فيها على غير فائدة فجنوا الشوك من شجرها ويلوا المر من ثمرها.

المدنية الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على خافيها وباديها في أرضها وديارها، ولكن بعدت الشقة وعز المطلب.

(عيسى بن هشام)- لاتستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب في يوم من الأيام، فإنه لايزال يدور في خاطري أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية نجتني منها ثمرات العلم والبحث، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له أمرنا.

(الصديق)- وأنا إن شاء الله معكما.

قال عيسى بن هشام ثم قمنا وقد عقدنا النية، على تحقيق هذه الأمنية، ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية، في المبدأ والنهاية.

وإلى هنا انتهى الحديث وتم الكلام، فإن كان في الأجل مدة باقية، وصلنا هذه الرحلة برحلة ثانية، والحمد لله أولاً وآخراً ومنه المعونة والتوفيق.

باريس

قال عيسى بن هشام:(*) سبحان من لاتجرى الأمور إلا بتقديره، ولاتنفذ العزمات إلا بتيسيره، فقد يسر الله لنا الرحلة إلى الديار الأوربية، لنشهد مظاهر المدنية الغربية، وبلغنا من سفرنا المدى، فألقينا بباريس العصا، وشرعنا نجوب منها الطرقات الجامعة، والساحات الواسعة، فلا القبائل تدعى وتُهرع، ولا الجيوش تحشد وتجمع، ولا الموتى وهم ينشرون، ولا الخلق وهم يحشرون، يضاهى ما القوم فيه من ازدحام واقتحام، واصطدام والتحام، متدفقين فى سيرهم تدفق السيل تحت أضواءٍ محت آية الليل فلا ليل، يخشى فيها على الأبصار، أن تعشو من شدة الأنوار، وربما انخدعت بها الديكة فأخذت فى الصياح، إيذانا بانبلاج الصباح.

فإذا نظرت إلى الشارع من العلو، لم تبال بالغلو، إن قلت بحر مسجور، قام عليه شاطئان من نور، وإذا أبصرته من أسفله عند أوله، قلت أسراب الدو، تصعد إلى الجو، بين الكواكب الزهراء، من كرات الكهرباء، والبيوت عن حافيته تشارف جو السحاب، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب، فارعة باسقة، متلاصقة متناسقة، كأنها فى انتساقها سطور الخط، والأزهار على جدرانها شكل ونقط، فأين منه ما بناه لفرعون هامان، وشاده جن سليمان لسليمان ورفعه سنمار للنعمان؟ وأين شماريخ ثبير، من سنام البعير، ومعارج الجبال، من مدارج النمال؟ لا بل أين البحر العباب، من لامع السراب وأجرام الكواكب، من بيوت العناكب؟

وشاهدنا المارة يتسابقون فى هذا الموقف المتلاطم، والمأزق المتزاحم، من كل شيخ

(*) م. ش ١٠٧، ٨ يونيو ١٩٠٠. كتب إبراهيم المويلحى ما يلى: «عيسى بن هشام» يسافر محمد المويلحى إلى معرض باريس فى يوم الأحد الآتى وسينشر المصباح ما يوافيه عيسى بن هشام من غرائب المعرض وعجائبه بعد الوقوف على أجماله وتفاصيله، ونشر المقال الأول من «الرحلة الثانية» فى م.ش ١١٦، ١٧أغسطس ١٩٠٠ وكتب إبراهيم المويلحى مقدمة له: فترة من الزمن: هذه هى الرسالة الأولى من «حديث عيسى بن هشام» عن زيارة معرض باريس بعث بها إلينا السيد محمد المويلحى بعد رسالته التى نشرناها فى أحد أعدادنا الماضية عن زيارة سمو الجناب العالى الخديوى لجلالة ملكة الإنكليز فى بلادها (م ش١١٢ ١٢يوليو ١٩٠٠). ونشرت «الرحلة الثانية فى كتاب عيسى بن هشام للمرة الأولى فى نص ط٤ (١٩٢٧) وأضيفت عناوين الفصول فى نفس الوقت، وفى م ش١٣٢، ٧ديسمبر ١٩٠٠ نشرت رسالة من وزير مصرى يقول فيها: إننى كنت أطالع المصباح فى أوروبا قبل زيارة المعرض فأقرأ فيه «حديث عيسى بن هشام» فى وصف تلك القصور فكأنما كنت حاضراً فيها مشاهداً لها.

وكهل، وصبي وطفل، وفتى وفتاة، بين ركبان ومشاة، والألوف من صنوف العجل تخترق صنوف الناس، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس، طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو الأفراس.

ولما لم يسابقهن شيءٌ من الحيوان سابقن الظلالا

وكل سائر منهم في اضطراب العصفور، وتلفت القطا المذعور، إن خانته لفتته، أدركته منيته، وإن عثرت قدمه، هريق دمه، وإن شمخ شامخ بأنفه، وقع في حتفه، فهم يتلمسون شاكلتي الطريق كما يتلمس الشاطئ الغريق، والحوانيت على الجانبين متبرجة ببدائع البضائع، ونفائس الصنائع، تغوي الزاهد فيشتهيها، وتغري الشحيح فيشتريها، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس، مشحونة بالجلوس، في يد كل واحد منهم كأس الصهباء، وفي الأخرى جريدة المساء، ونحن في هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول، من هول الدهش والذهول، وتطير منا الألباب، من شدة الوجل والاضطراب.

في ساحة لو أن لقمانًا بها وهو الحكيم لكان غير حكيم

ومال بنا طلب الراحة، إلى حان في تلك الساحة، فلم نجد به مكانًا خاليًا من الزحام، فعكفنا مدة واقفين على الأقدام، وكدنا نذهب عنه آيسين، لولا أن تحرك بعض الجالسين، فذهبوا لشأنهم، وخلفناهم في مكانهم، وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين، وأجناس المارين، فإذا عدد ربات الحجال، يربو على عدد الرجال، من كل ذات حسنٍ وجمال، وتيه ودلال، وقدٍ متأود، وخدٍ متورد.

تختال في مفوفِ الألوان من فاقعٍ وناصعٍ وقان

وهن يرفلن في الوشي، ويسرعن في المشي، ويتبارين في رفع الفضول، من الأطراف والذيول، ويضربن الأرض بأرجلهن، ويزحزحن ما استطعن من حللهن.

ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشّحت بالمباسمِ

وينشرن من الأرج والطيب، مثل نشر الزهر في الغصن الرطيب، ويرسلن سهام العيون، فيحركن سواكن الشجون، ويسلطن من اللحاظ القواتل، ما يدمي حبات القلوب الغوافل.

إشارة أفواهٍ وغمز حواجب   وتكسير أجفانٍ وكفٌّ تسلّم

وأصناف الباعة يكثرون من الغدو والرواح، ويهيجون في النداء والصياح، بمثل العواء والنباح، دائبين في الإلحاف والإلحاح.

ولما أفقنا هنيهة، أخذ الباشا كعاده في السؤال، يستجلي منا واقعة الحال، ويقول: ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد، عند أهل العالم الجديد، أو هم في نظري سكان مهاجرون، أو جند قافلون، انتهوا من حومة المنايا، بالغنائم والسبايا؛ فنقول له: لا بل هي كما يصفها الواصفون، ويعرفها العارفون، تلك المدينة الفاضلة، أم المدنية الكاملة، مهبط العمران والحضارة، ومظهر الزينة والنضارة، وموطن العز والمجد، ومصدر النحس والسعد، بل هي تلك عندهم إرم العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، لو رآها صاحب الإيوان، كسرى أنو شروان، لم يفخر على الدهر، بإيوان ولا قصر، ولحكم بأن «المدائن» لديها سبسب قفر، ولو نظرها قيصر الرومان لأقسم أن رومية، وهي عنده عاصمة الدنيا، قرية لديها من الطبقة الدنيا، مثل التي ذكرها في كشفه عن طماعيته، قبل ولايته، إذ قال: أفضل أن أكون الأول في أدنى قرية، ولا أكون الثاني في مدينة رومية، ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان، لم يقل فيما دبر من الزمان: أحمد الله على نعمٍ ثلاث يعجز عن حمدها اللسان، ولايقوم بحقها شكران: أن خلقني من نوع الإنسان، لا من نوع الحيوان، ومن جنس الرجال، لا من جنس النساء، ثم جعل نسبتي إلى «أثينا» عاصمة اليونان، دون سائر البلدان، ولو اطلع عليها هاروت وماروت، لم يماريا في أن بابل عندها فلاة سبروت:

كجنة الخلد تسرُّ من رأى   فتزدري «الخُلد» و«سرَّ من رأى»

هذه هي اليوم بيت العلم والفضل، ودار السلام والعدل، ومعهد الحق والإنصاف، ومهد الاتحاد والائتلاف؛ هذه هي المدرسة التي يشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان، ويتلقى الإنسان عنها حقوق الإنسان، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان، ولكل إنسانٍ وطن، وهي لكل وطني وطن ثان، لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من قدر، ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر، فقد كفت عن الناس عاديات المظالم، وكفتهم بائقات المغارم، وعلمتهم كيف تؤتى المكارم، وتجتنب الأوزار والمحارم، وكيف يعيش البشر في

دار الشقاء عيش السعادة والهناء، تحت ظل «الحرية» و«المساواة» و«الإخاء»، إذا ناداها المظلوم من أى جنس وأى قوم، أجابته: لبيك مات الظلم فلا ظلم اليوم.

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد، ويواصلون السهاد، ويصرفون الحياة فى الجد والعمل، ولاينتهى بهم أمل إلا إلى أمل، فليس على هممهم شىء بمحال، فى كل حال، يذيبون بعزائمهم صلب الحديد، وتلين لإشاراتهم صم الجلاميد، ويذيبون الهواء، ويكتبون على الماء، ويفتلون الحبال من الرمال، ويزيلون راسيات الجبال برائشات النبال، وينضبون الدأماء بمتح الدلاء، ويمحون آية الليل فلاتبلغ فيهم أمداً، ويجعلون النهار دائما عليهم سرمداً.

أولئك الناس إن عُدوا بأجمعهم ... ومَنْ سواهم فلغوٌ غير معدودِ
والفرق بين الورى جمعًا وبينهم ... كالفرق ما بين معدومٍ وموجودِ

أقول قولى هذا، والباشا ينصت ويتأمل، و«الصديق» يتبرم ويتململ، فالتفت إليه أستخبره الخبر، عن سبب هذا الضجر، فما أتممت عليه أحرف السؤال، حتى انهال علينا فى المقال، انهيال السيل من مشرف عال:

(الصديق)– تالله لقد سئمنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات، وتردادها على آذاننا فى وصف هذه الديار، ونحن فى ديارنا السنين والأعوام، وأولى ما يوصف هذا الوصف للغائب عنها لا للحاضر فيها، وأنت رجل بحاث نباث من دأبك استنباط الغوامض واستجلاء الدخائل، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجرداً عن مثل هذه الأوصاف والأخبار، التى شحنت خيالنا زمنًا طويلاً، فننساها ولا نذكرها، ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خاليًا من مقدمات سبقت على الغيب، ورسخت فى أذهاننا بالخبر، وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتمحيص، ولا يباشرهما فى الغالب إلا مضطراً مقسوراً، لما فى التسليم المطلق والتصديق المعجل من راحة الفكر وسكون البال، وربما ارتسم فى خياله أمر استحسنه بالخبر، فيركن إليه ويرد كل ما يرد عليه من قبيله إلى صحيفة الاستحسان والقبول فى نفسه– والأذن تعشق قبل العين أحيانًا– كما أنه إذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس، ولذلك ترى العاشق يرد كل ما يصدر عن معشوقه إلى الحسن، وإن كان غير حسن فى الواقع عند

الفحص والتأمل، للميل الأول والاستحسان السالف، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه، لانتقاشه فيه، ومن هنا جاء قولهم:

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ   كما أن أعين السخط تُبدى المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتًا من الشعر لم يكن يعرفه ولم تسم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه، فإذا سميت له أبا تمام مثلا أو أبا الطيِّب، ارتد إلى الاستحسان، وأخذ يتمحل لقائل البيت عذراً، إن كان في البيت ما يستهجن حقيقة، وما كان ذلك إلا لما اطمأنت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر عن هذين الشاعرين.

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذى يناله الإنسان في دنياه، إن صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس، ومعنى النحس والتعس والإدبار، إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح، والشاعر يقول:

إذا أقبل الإنسان في الدهر صُدِّقَتْ   أحاديثه عن نفسه وهو كاذبُ

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه، وقد عهدنا الغربيين عمومًا، وهؤلاء الفرنسيين خصوصًا، لانتصفح لهم كتابًا ولانسمع منهم حديثًا إلا بتمجيد مدنيتهم، ومباهاة الناس طراً بنظام معيشتهم، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر، وأن الهدى هداهم، والضلال فيمن عداهم، وأنه أوحى إليهم من سماء مدنيتهم أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فإما الإيمان بها وإما الحسام، وقد ذاعت فينا دعوتهم، وأعانهم منا على نشرها من أعانهم، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر، وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب، وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس، يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويموهون به علينا.

فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا، وننظر اليوم إلى الأمور في حقائقها، ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوله الخيال في نفوسنا، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحمد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجبًا عن هذه الدنيا الدهر الطويل، فبقى خالى الذهن مما شحن رؤوسنا من هذه

المدنية، فحكمه اليوم على ما يشاهده بالعيان، دون الخبر والرواية، يكون أصح حكم ونظره أصدق نظر، وما علينا إلا أن نشاركه في صحة النظر مجردين عن الهوى، حتى نقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوفًا تامًا.

(عيسى بن هشام)- لك الله فيما تبدئ وتعيد!! كأنك تريد أن نخالف الإجماع ونقابل الناس بغير ما ألفوه، فننتقد لهم ما هو خال عندهم من كل انتقاد، بعيد من الذام والعار، فيرمونا بغلظة الطبع، وجفاء الفهم، وسخف الرأي! ولايفوتنك أن كثيراً من ذوي الرأي يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقال، وكل صحيح يروى.

أو ليس من صواب الرأي حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذه البلاد، فنرجع على أهل الشرف باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم، وأن نصف ما القوم فيه من القوة والمنعة ومظاهر العز والعظمة في النعيم المقيم، وأننا لانزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخمول، يقولون فنسمع، ويأمرون فنصدع، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر، وينقصون من أرضنا فنحمد، ويحتلون ديارنا فنقبل، أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم إلى مرتبتهم في الوجود، ونطنب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم، لنحذو حذوهم، ونعمل على شاكلتهم؛ أو ليس الأليق بنا أن نحض قومنا، لينفضوا عنهم غبار الكسل، ويخلعوا عنهم لباس الخمول، ويهبوا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكمالات؟ أو لست ترى من أفضل الأبواب في الحث والتحريض، أن نفخم ما استطعنا في وصف هذه المدنية، ونعظمها في أعينهم، ونكبرها في صدورهم، ونبكتهم بأحاديثها، ونرفع من قدرها بقدر ما نحط من قدرنا، ونغيرهم بالمقارنة، ليكون الحث والتحريض على المباراة أشد، والإثارة إلى اللحاق بهم أبلغ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه، ولم يعيره بسبق غيره عليه، أكنت تراه يجد في الأخذ، ويجتهد في التحصيل؟

(الصديق)- لايعزب عن فطنتك بادئ الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكي عن طريقتهم ممن زار هذه البلاد من أقوامنا، وعادوا إلى بلادهم فحدثوا عنها، وكتبوا وقرروا وحكموا، ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول منهم: الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم، وهؤلاء لما هم فيه من غلواء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر، ولامتسع ثمة عندهم

للبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة، وداخل تحت حكم الرذيلة عندالنظر فى معيشة أهل هذه المدنية الغربية، بل هى تتجلى لهم فى صورة معظمة، فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة، حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم، رووا لنا عنها مثل حديث المغرم عن معشوقه فى أوقات نشوته، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر من آثار تلك المدنية العظيمة مما تخف مؤونته وتهون تكاليفه، ليلحقوا بأنفسهم شيئًا من تلك العظمة التى بهرت خيالهم ويبهروا بها أعين الناس، ولسنا من أهل هذه الطبقة.

والقسم الثانى: جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواهما، فهم لاينظرون إلى هذه المدنية إلا من وجه تطبيق العيان على الخبر، ومن بحث منهم فانكشف له فيها عيب، كره تغيير الرأى ومخالفة المعهود، لما فيه من المشقة والكلفة، ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعايب، والتبسط فى الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين، ولسنا من هذا الصنف.

والقسم الثالث: طائفة من أرباب الوظائف فى الحكومة يفرون إلى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد، ومنهم من تلقى دروسه فيها، وحكمه حكم الذين ذكرناهم فى القسم الأول؛ وفيهم من لم يتعلم فى أوروبا، فهم يسيرون على نهج المباراة للمتعلمين فيها، سائرين على نمطهم، ليلتحقوا بهم، ويحشروا فى زمرتهم، ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم، وحكمهم حكم واحد أيضًا، على أنهم ليس عندهم جميعًا من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه، فإن كل موظف منهم لاينفك مدة زيارته مشتغل الفكر، مقسم النظر، بين أمرين: عين تنظر إلى ما بقى فى صحيفة إجازته من الأيام، وعين ترمق ما بقى فى كيسه من الدراهم، ولسنا من هذه الرتبة أيضًا.

وجميع هذه الأقسام - كما تراهم - مولعون بالمبالغة فى الوصف والغلو فى القول، ولا غرو فالناس لايرون لهم فضلاً فى الرواية والنقل ما لم يضيفوا إليهما الكثير المفترى من عندهم، ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة فى نفس الراوى وحلاوة فى أذن السامع، على هذا درج الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم، ومنذ جرت أساطير الأولين والعفاريت والأغوال والسعالى إلى قصة «ألف ليلة وليلة» و«سيرة عنترة» و«خريدة العجائب».

وهناك قسم رابع: بما فحص ودقق ووقف وعلم، ولكن له هوى خاصا به يمنعه من كشف الحقائق، ويدفعه إلى المبالغة على القصد والغلو على العمد، فلا يروى ما يرويه عن هذه المدنية إلا بالتشييد والتمجيد، باطلا كان أو حقًا، لينصر مذهبًا له معينًا وغرضًا مضمرًا، فيدأب بيننا كالأجير للأجنبى، يرفع لنا من شأن مدنيته وقوة حضارته، ليرتفع معه بارتفاعه، ويتسلط علينا بسلطانه، وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرته علينا، وفى هذا القسم من يرى أن فى استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لقديم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه، فهم فى إشادتهم بأمرها وتشيعهم لها، وتبشيرهم بها، كالمتشيعين لمذهب، والمبشرين بدين.

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين فى قسم من هذه الأقسام، وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا فى سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب والاعتراض والانتقاد، وأن نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضارٍ ونافع، ومعوجٍ ومستقيم، على المشاهدة فى منبت أرضها وتربة نشأتها، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يروى، فدعنا حينئذ من الغلو والإغراق، واتركنا من التخيل فى النعت وتعَمُّل الشعر فى الوصف، وخذ بنا فيما عهدناه على أنفسنا، وقد آن أن نسأل الباشا، وهو ينظر إلى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى، عما وقع عليه من التأثير فى نظرته الأولى عن هذا العالم الحديث عنده، وعن جملة ما حصل منه فى نفسه.

(الباشا)- ما أرانى أميز شيئًا فيما رأيته من هذا الخلق المزدحم، وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق فى هذا الدوى المماثل لدوى الخلايا، وهذه الأضواء التى يتأذى منها البصر، وجملة ما أنا فيه الدهشة والحيرة، ولعل هذا هو الذى يمنعنى من التمييز، وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة، خالية من مثل هذا الزحام، حتى نألف الديار وساكنيها.

(عيسى بن هشام)- ليس ما توده من هذا القبيل بميسور، لأن الزحام منتشر فى جميع أرجاء المدينة، وهذه الحركة لاتنتهى الليل والنهار، ولا جرم فإن عدد سكانها يقدر ببضعة ملايين، ولك أن تقول فيها إنها جملة بلاد متجمعة يعدونها مدينة واحدة.

(الصديق)- وفى هذا من عظمة الملك ما لايخفى على أحد!!

(الباشا)- إن كان الأمر كذلك، فلابد لنا من مرشد يرشدنا وهاد يهدينا، فنقف منه على ما يخفى علينا فيها، وما يغمض من حقائق الأمور.

(الصديق)- ما إخالك واجداً لطلبتك، فقل أن تجد فى أهلها من لايسلك السبيل المعروف فى تشييد مجد قومه ونشر مفاخرهم بما نحن فى غنى عنه، ولسنا نستفيد منه إلا كثرة اللغو وقلة المحصول.

قال عيسى بن هشام: وجاء وقت الطعام فقمنا إلى المطعم، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصرنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم، فأنصتنا إليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشارة محلوق اللحية والشارب ظاهر التكلف فى زيه ينم شكله وحديثه على أنه أديب من كتاب العصر، وثانيهم رجل بدين منتفخ البطن أحمر اللون ينبئك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار، وثالثهم شيخ جميل المنظر فى وقار السن ووزانة العلم ما يشك رائيه والسامع له فى أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة، ولذ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمر المائدة، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى باب، ومن شأن إلى شأن، حتى انتهى القول بهم فى الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين، فسمعنا «الكاتب» يقول وهو يضرب المائدة بيديه والأرض برجليه:

(الكاتب)[1]- لقد آن للمدنية أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود، وأن نقوم بنشر الرسالة التى سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس، فنصلح من شأن الإنسان فى أى مكان كان، ونغرس فيه أصول المدنية، ونأخذه بتعاليمها، لنصل بالعالم الإنسانى إلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة فى هذه الحياة؛ وإلا فما مزية جهادنا فى فنون الترقى والتقدم والتسابق فى العلوم والفنون؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع فى أبواب الصناعات والآلات؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية، ونعد هذه القوى العسكرية، ليقتل بها بعضنا بعضاً، ونخرب بيوتنا بأيدينا، فبئست العلوم والفنون، وبئس ما سخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا، إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية إلى فظاعة الوحشية.

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممه أن يتحد بعضها ببعض، فتنصرف

(١) م.ش ١١٦: الشاب.

بكليتها، وتندفع بجميع قواها، التى شيدتها لها أفكار العلماء وذوى المعارف منا إلى تهذيب بقية أهل هذا العالم المقيمين على الجهالة إلى اليوم، لتنتزعها من حضيض الهمجية إلى مقام الرفعة الإنسانية، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسد نقصانها.

(التاجر)[1]- نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا، وإلا فكيف يتسنى لنا تصريف بضاعتنا، وترويج صناعتنا التى تقوم عليها معايشنا وتضيق بها أرضنا، إذا اجترأ أهل الصين على أن يقوموا فى وجوهنا ويعطلوا مصالحنا؟ وكيف نجهد أفهامنا فى العلوم، ونشقى ونتعب، وفى العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لاينتفعون بها ولايتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارها ورفع أستارها؟

(الحكيم)[2]- إن كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التى تقوم على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والإحسان، وتوفر لهم أسباب السلم والأمن فى السعة والرخاء، فلسنا منها فى شىء إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود، والتفنن فى تشييد قوى الحرب، وإنفاق ثروة الأمة فى سبيل ذلك، حتى تضيق بنا الأرزاق فى أرضنا، فنعمل على طلبها فى أنحاء المسكونة، ونسلط على أهلها هذه القوى الحربية؛ ولسنا من المدنية فى شىء أيضًا، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة الأرض، وصفوة البشر، وأرباب الخلق، فنحتقر بقية العالم، ولانرضى منهم إلا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم، وأن يفوضوا إلينا أمورهم، ويسلموا إلينا مقاليدهم، ونكون فوقهم كالأوصياء نصرفهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى، وليست المدنية أن نذهب إلى الصينى فى أقصى الأرض، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده فى عيش يرتضيه ونظام يألفه، فنقول له: قم فقد جئناك بالهدى والحق، فهلم فكسر أصنامك، واهدم مناسكك، واحرق كتابك، وغير ثيابك، وبدل طعامك، وارفع حجابك، وكن أوروبيًا فى الصين القديم، وغربيًا فى الشرق الأقصى؛ فإذا قال لنا: لست أفقه شيئًا مما تدعوننى إليه، ولا أدرى ما هذا الدين الذى تبلغوننى رسالته؛ قلنا له: ليس هذا بدين ولا

(١) م.ش ١١٦ القصير.

(٢) م.ش ١١٦. الشيخ.

بمذهب، وإنما هى دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتتلبس بها؛ فيقول لنا: إن كانت لكم مدنية غربية فلنا مدنية شرقية أسستها فينا تجارب القرون المتراكمة، وبقيت فينا نقية خالصة هذبتها الدهور وأخلصتها يد الزمان، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقى، وأنتم إن كنتم تؤرخون وجودكم فى العالم بسبعة آلاف من السنين، فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف، وإن كانت مدينتكم بنت قرن أو اثنين، فإن مدينتنا بنت عشرات القرون، اصطلحنا عليها وألفناها، وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام، لايطمع أحد فيما ليس له، ولايغير على حقٍ لغيره، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع فى أرضكم ولم نثر حرباً لفتح، ومن دلائلها أنها لاتنتهى بأصحابها إلى مفاسد الترف والنعيم فتضعف الأجسام ويقل النسل، وقد علمتم أن بلادنا هى أكثر البقاع سكانا وأعظمها عمرانا؛ فنقول له: ما أضل أحلامكم يا معشر الصينيين! ألم تعلموا بأن مدنيتنا هى مدنية العالم كله لا سواها، قامت على العلوم والمعارف، واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم، فما زالوا يتخبطون دون الوصول إليها، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها، فأخرجناها للناس هدى ورحمة، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوة منا.

إن كانت هذه هى المدنية التى نفاخر بها ونساجل، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب(١).

قال عيسى بن هشام: وتأتى غادة هيفاء، تتثنى بقوامها، وتتكسر فى مشيتها، فتخاطب «الكاتب» بالعتاب، لأنه أهملها فى الانتظار، وجلس للكلام والجدال، وتسوقه أمامها بعصا المظلة، ويتبعهما التاجر، ويبقى الحكيم يرمى ثلاثتهم بالنظر الشزر، وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم.

---

(١) م. ش١١٦٠ المآرب وأنها تدور على تغلب جنس على جنس ومذهب على مذهب ودين على دين وحق لسلطان المسلمين أن يقول إن أوروبا تحاربنا حرباً صليبية فى زى السلم، نعم ليست هذه أعمال المدنية الصحيحة وما هى إلا الوحشية والهمجية والبربرية.

ويلتفت إلى «الصديق» فيقول لى: ما أغرب ما نرى من هذا الشيخ الفرنسى، فما أصلبه فى قول الحق، وما أجرأه على الجهر بالصدق، وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد! فأرفع ببصرى إلى الشيخ، فإذا هو يرمى بنظره إلينا، ويستمع لحديثنا بالعربية، ويظهر نحونا البِشْر، فقابلته بابتسامة أخطب بها وده، فبادرنا بالحديث، واتصل بيننا حبل الكلام، فسألنا عن أمرنا، وسألناه عن أمره، فتبين لنا أنه رجل من أساتذة الفلسفة والحكمة، ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله، وكشفنا له حقيقة أمرنا، والغرض الذى رمينا إليه، فاتفق معنا على المخالطة والمصاحبة نحكى له عن الشرق ويحكى لنا عن الغرب، ودعانا لزيارة العرض العام معه فى الغد، فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد.

المعرض

قال عيسى بن هشام:[1] وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم، وسوق الأقدار والهمم، ومشهد النفائس والعظائم، ومظهر القوى والعزائم، وحلبة الابتكار والابتداع، وميدان الإنشاء والاختراع، ومعرض التبصر والاهتداء، في حسن التقليد والاقتداء، ولهذا المعرض خمسون بابًا، تختلف ابتعادًا واقترابًا، فبلغناه من ناحية الباب المعظم، والمدخل المقدم، فإذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم، تلامس بعلوها الغمائم، كأنها اليفاع، في الاتساع والارتفاع، ينحدر من تحتها الجيش المتراكب، فلا تتماس فيه المناكب، وعلى كلا الجانبين سارية، تقارن السحب غادية وسارية، يدور في رأس كل واحدة منها نبراس وأي نبراس، إذا اشتعل جعل فحمة الليل قبسًا من الأقباس، فكلتاهما علم في رأسه نار، يستوي عندهما الليل والنهار، ومَنْ لصخر الخنساء أن يأتم بهما في ظلمة البيداء، وهو المؤتم به في أبيات الرثاء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فهما عمودا فجر، لا عمودا صخر، يكتنفان تمثال غانية غيداء، قائمة على رأس تلك القبة الشماء، رشيقة القد، بارزة النهد، ممكورة لفاء، مجدولة عجزاء، قد خلعت الإزار والوشاح، وتبدت في «قميص الصباح»، وهي تضمه بيديها إلى صدرها، خشية أن يحاول النسيم هتك سترها، إذا عارض وجهها القمر، علا وجهه الكدر، ثم بان فيه الكلف والنمش، فاحتجب بالغمام وانكمش، وغارت منها الزهرة، غيرة الضرة من الضرة، فغارت في الدجون، وغابت عن العيون، لو قام نابغة بني ذبيان من قبره، لشهد أنها الدمية التي وصف بها المتجردة في شعره:

أو دميةٌ من مرمر مرفوعةٌ بنيت بآجُر يُشاد وقَرمد
أو درة صدفية غَوّاصُها بَهِجٌ متى يرها يُهل ويسجد
لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبِّد
لرنا لرؤيتها وحسن قوامها ولخاله رشدا وإنْ لم يرشد

(١) م.ش ١١٧: ٢٤ أغسطس ١٩٠٠.

فقد أقامها الصناع آية الفن فى التصوير والتشكيل، وشاردة الشوارد فى الرسم والتمثيل، يخيلون بها «فرنسا» فى ترحيبها بالزائرين والقاصدين، تحيتها للواردين على المعرض والوافدين، والباب كله مرصع بحقاق من البلور، إذا تلألأ فيها شعاع النور، خلتها أنوار الأزهار فى أغصانها، أو أنيال الطواويس فى اختلاف ألوانها، بل قلائد منظومة من درٍ وجوهر، وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر، لا بل فصوصاً منضدة من الماس، يتراءى فيها طيف الشمس بالانعكاس.

ولما تجاوزنا الباب، انتهينا إلى سهل رحيب، ووادٍ عشيب، نبتت أرضه بالقصور المنيفة، كما ينبت الروض بالأغصان الوريفة، تضل فيه الحداة، وتحار الهداة، ولا بدع فالمدينة فى اتساعها قطر من الأقطار، وهذا المعرض فى سرتها مصر من الأمصار؛ وما زلنا سائرين على أرض تزهو فيها أغراس الجنان والبساتين، وأزهار الأغصان والرياحين، يتخللها من الدمى والتماثيل، ما يعرب عن الدقيق من المعانى والجليل، فتكاد تبادرك بالخطاب، أو ترد رجع الجواب؛ ولما امتلأت العين من هذه المحاسن الشائعة، وجن اللب من هاتيك المناظر الرائعة، التفت إلى أصحابى أتلمس ما يجرى فى خواطرهم، وأتحسس ما يدور فى ضمائرهم؛ فرأيت الباشا يتأمل ويحدق، ويمعن ثم يطرق، وإذا هو يقول فى همسه، وحديثه لنفسه: لله أبوهم، ما أبعد شأوهم فى التشييد، وأجل شأنهم فى الإنشاء والتجديد، وما أسبقهم فى الجد والاجتهاد، إلى التوسع وحب الازدياد، وما أشغلهم بما يكفى الإنسان أقله وأدونه، ويكفل راحته أصغره وأهونه، ولو تيقن ابن آدم أن القبر غايته، لم تخفق على القصور رايته، ولكان همه بحفر القبر، أعظم من همه بتشييد القصر، فمقامه هناك طويل، وبقاؤه هنا قليل، ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة فى الشرفات العالية، لاتلبث أن تنتقل صفائح فى القبور البالية، لم يعمل عمل المخلدين، وهو بين أظفار المنايا رهين:

تبنى المنازلَ أعمارٌ مهدمة   من الزمان بأنفاسٍ وساعاتِ

ووجدت «الصديق» فى هذا الموقف على حال لا تتغير، وهيئة لا تتأثر، ينظر إلى ما نستعظمه نظرة الفلاح إلى قريته، والبدوى إلى دمنته، لا يعجبه شيء ولا يزدهيه، مما تحار أحلام الورى فيه:

لا مُعَنًّى بكل شيء ولا   كل عجيبٍ عنده بعجيب

إلا أنه مع ذلك غير هادئ البال، ولا ساكن البلبال، كأنما هو يغوص على معنى يدق فى الفهم، ويبحث فى أمر يجل عن الوهم، ويستجمع لديه حواشى التفكير، ويلم أشتات التذكير؛ فاستخبرته عما يشغله، وسألته عما يذهله، فلم يسعف بالجواب ولم يسعد، غير أنى سمعته يترنم وينشد:

ما أقلَّ اعتبارَنا بالزمان   وأشد اغترارنا بالأمانى!

وقفاتٌ على غرور، وإقدا   م على مُزلق من الحدثان

التفاتا إلى القرون الخوالى   هل ترى اليوم غير قرنٍ فان؟

أين رب السدير فالحيرة البيضاء، أم أين صاحب الإيوان؟

والسيوف الحداد من آل بدر   والقنا الصم من بنى الريان

يكرعون العقار فى فلق الإبريز كرع الظماء فى الغدران؟

من أُباة اللعن الذين يحيو   ن بها فى معاقد التيجان

تتراءهُمُ الوفود بعيداً   ضاربين الصدور للأذقان

فى رياض من السماح حَوالٍ   وجبال من الحلوم رزَان

وهمُ الماء لذٌ للعطشا   ن بَرْداً والنار للحيران

ما ثنت عنهم المنون يدٌ شو   كاء أطرافها من المُرَّان

عطَفَ الدهر فرعهم فرآه   بَعْد بُعْد الذُّرا قريب المجانى

وثنتهم بعد الجماح المنايا   فى عنان التسليم والإذعان

ليس يبقى على الزمان جرىء   فى إباء أو عاجزٌ فى هوان

ورأيت الشيخ «الحكيم»(١) يهز كتفيه، وينظر فى عطفيه، ويقول فى التفاته إلينا،

---

(١) م.ش ١١٧. الشيخ الفرنساوى.

وانعطافه علينا: ما أشبه الأواخر بالأوائل، فى التفاخر بالباطل الزائل! لا يظن ظان أن كل ما يراه من هذا المشهد الفخم، ويستعظمه من البناء الضخم، بما أنفق عليه من الأموال الطائلة، وما اقتضاه من المشاق الهائلة، سيدوم السنين والأعوام على الدهر، وإنما يعد بقاؤه باليوم والشهر، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران، إلا هذان القصران، وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما فى ارتفاعهما ذروتا جبلين؛ وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم، وأنا أنقل له وأترجم:

(الباشا)- وما مقدار الأموال التى أنفقت فى تشييد هذا العرض؟

(الحكيم)[1]- اشتركت الحكومة فى الإنفاق عليه بعشرين مليونًا من الفرنكات، وبلدية باريس بعشرين مليونًا، وتألفت جمعية اشتركت فيه بستين مليونًا أصدرت بها خمسة وستين مليونًا من التذاكر لأيدى الناس تحت ضمانة البنك العقارى.

(الباشا)- وما الغرض منه؟

(الحكيم)[2]- الأصل فيه الكسب والربح، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يظهر مقدار المسافة التى تقطعها الأمة من حين لآخر فى باب الإجادة والإتقان، ليتضاعف الجد والاجتهاد، وتتسابق الهمم فى أسباب التقدم والارتقاء فى مدارج المدنية.

(الباشا)- وهل تظنه يأتى بربح عظيم؟

(الحكيم)- كان أمل الربح فيه عظيمًا، ولكن خاب الظن فيه، فإن الشركة قدرت عدد الزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليونًا فى مدة وجوده وهى مائتان وأربعة أيام، ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها، وقد بلغ عدد الشركات التى اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة إلى اليوم، وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة «شارع القاهرة»، ورأيتهم يبيعون «معروضاتها» وأثاثها بحكم المحكمة فى ناحية من نواحى المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكانًا فسيحًا جمعت فيه ما يكون فى شوارع مدينتكم من لعب القرود، والتواء الثعابين، ورقص

(١) م.ش ١١٧: القرنساوى.

(٢) م.ش ١١٧: الفرنساوى (وهلم جرا)

الزنوج، وتسريح الجمال، وسوق الحمير، فرأيت الجمال وهى ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكًا، وبيع الحمار من الأربعين حماراً بتسعة عشر فرنكًا، وكان من ينظر إلى هذه الدواب، وهى تعرض للبيع بهذه الأثمان فى غير بلادها، يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعها وبخس قيمتها فى غربتها، ولاتسل عن سوء الحال التى كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات وقد تداركهم «مأمور التفليسة» فخصص لهم مقداراً من الدراهم ينفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم، وعلى الجملة فالخسارة فى هذا المعرض عظيمة، وأرى أنهم أخطئوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لاتكاد تدرك الدورة الواحدة فيه إلا بقطع مسافة لاتقل عن عشر كيلو مترات، فوزعوه وشتتوه مع قلة الزائرين والواردين، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيراً لهم.

(الصديق)- أهذه الشركة التى تذكرها فى كلامك هى «شركة المعرض المصرى» التى سمعنا بها؟

(الحكيم)- لا ولكنها شركة أخرى فرنسية، وليس من الضرورى أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر.

(الباشا)- ولماذا لم تقدروا فى هذا المعرض حسابكم بما لكم فى مختلف الأمور من الدقة وصحة النظر؟

(الحكيم)- كانوا يحسبون أن أمم العالم ستهرع إليه من كل فجٍ، وكانوا يعتقدون أن أكثر ملوكها يفدون على المعرض فينفقون فيه خزائن أموالهم ودفائن كنوزهم، فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك الغرب، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق، وكانوا قد دعوا إليه ستاً وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبهم سوى ثلاثين منها.

قال عيسى بن هشام: وكنا وصلنا فى هذه الأثناء إلى باب القصرين المشار إليهما بالبنان، المعدودين لعرض ما يسمونه بالفنون الجميلة، وهو المعروف بالقصر الصغير، فعولنا على البدء بزيارته، فدخلناه فإذا هو ببنائه وتشييده وزينته وزخرفه ونقشه ورسمه يفوق كثيراً من قصور الملوك والقياصرة، وناهيك أنهم أنفقوا فى إقامته اثنى عشر مليوناً من الفرنكات، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حفظ عن الأوائل منذ العصر الرومانى إلى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة إلى نقوش أبواب

كنائس، ومن أوانى الفخار إلى الحلى والجواهر، ومن النعل المطرزة إلى التاج المرصع، وهنا يعجز القلم عن الوصف والنعت، والإحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتى من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان، ولايمكن أن يتجلى أثرها فى نفس القارئ مثل أثرها فى نفس الرائى، ولما فرغنا من دورتنا الأولى فى القصر، واستوقف الصديق الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورأى من الطرف:

(الباشا)- ما أرى إلا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه فى الأسواق القديمة وبعضه فى البيوت العظيمة.

(الحكيم)- اعلموا أن ما ترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة فى العالم لا تتناول كنهها الظنون، مثال ذلك أن هذه الساعة التى بجانبنا، ولم تلتفتوا إليها فى وقوفكم عندها، قد رغب فى شرائها بعض الأغنياء، فساومها بثلاثة ملايين فرنك، فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلة الثمن، وما هى إلا كرة محمولة على أيدى ثلاثة هياكل من الرخام، ولكن دقة الصنعة وقدم العهد أورثاها هذه القيمة العجيبة فى الثمن.

(الصديق)- حقًا إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة حسنة من حسنات أهل الغرب يغبطون عليها، فإن النظر إليها يورث إحساسًا جليلاً فى النفس، وذكراً جميلا بمجد الأمم الغابرة، ودرسًا مفيداً فى التاريخ، كما أن فى ذلك ممن حفظ السلسلة فى الصناعات ما يفيد الفكر ويساعد على الترقى فى العمل، وقد أهمل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً لا يغتفر لهم، حتى اندثرت المآثر واندرست، ولم نعد نعلم من كيفيات المعايش عند المتقدمين إلا الأسماء التى غابت عنا مسمياتها؛ وقل لى بالله: أى شىء يكون اليوم أجمل فى العين نظراً وأجل فى القلب وقعًا لو حفظنا ما ضيعه التفريط مثلاً من «درة عمر» و«صمصامة معدى كرب» و«قميص عثمان» و«درع على» و«تاج الرشيد» و«راية المعز»؟ ولكننى أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا فى هذا الباب غلواً كبيراً، وذهب بهم حب التنافس فى اقتناء العتيق مذهبًا يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان هذه المقتنيات التى لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد، وكم فى هذا العالم المتمدين من الألوف الذين لايجد أحدهم فرنكًا واحداً لقوت يومه، بينا نرى أحد المولعين بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام.

(الحكيم)– نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالاة لمجرد التباهى والتفاخر، مع حرمان الناس من أرزاقهم، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفينا لبسط القول فى نصرة المذهب الاشتراكى.

قال عيسى بن هشام: وأدركنا التعب والكلال، وإن لم يكن يدركنا السأم والملال، واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون، فغادرنا القصر وفى النفس منه بلابل وشجون.

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام(١): وزرنا القصر الكبير، بعد القصر الصغير، أعنى الآية الكبرى، بعد المعجزة الصغرى، ناطقة بما لا يتصور من جمال الوضع، وحسن الصنع، فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز التى لم تجتمع لأحد من قبل، ولم يظفر بمثلها ملك فى الدهر ولا قيل، ما كنوز قارون عندها إلا من الترب والحصى، ولا قرط «مارية» إلا من الخرز أو النوى، وما طوق «عمرو» إلا طوق أسر، وما أسلاب الإسكندر لديها إلا من أطمار «المجانيب» و«الأولياء»، ولا وَشْىُ «دارا» إلا من فراء «العرفاء» والفقهاء، وما أقلام البلغاء، إلا مغازل النساء، إذا هى حاولت فى وصفها تسطيراً، ورامت لنعتها تحبيرا، وماذا تقول فى خزائن المسكونة تسكن فى دارين، وأفلاذ البسيطة مبسوطة بين جدارين، لو توزع بعض ما اخترناه على الخلق، لم يكد أحد بعدها فى طلب الرزق، ولم يشك شاك من عيش الحرمان، ولم يبك باك من بؤس الزمان، ولأصبح المحروم بين الورى غنياً، وغدا اسم الفقر فى الدنيا خبراً مطوياً، ولتساوى الناس فى الرتبة والقدر، ولم يسلكوا فيما بينهم سبل الختل والغدر، نعم ولم يغر سالب على مسلوب، ولم يفتك غالب بمغلوب، ولم تقترف فى العيش المآثم والذنوب، ولم يبق للنفوس فى الدنيا من مشتهى ولا مطلوب، فالقصران يفخران على الدهر، ما ليس له به عهد من الثراء والوفر، وسرنا فى أنحاء الغرف، نتأمل التحف والطرف، ومن أبدع ما اجتلاه النظر، بين تلك الدرر والغرر، معرض التماثيل والصور، فكم هناك من صور براها الإتقان والأحكام، تمثل للعقول والأفهام، مالا يمثله تأليف الكلام، وتشخص لك حوادث التاريخ ومناظره، كأنك كنت حاضره وناظره، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير، ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير، من مكنون الأهواء والأشجان، بلفظ مبين من النقوش والألوان:

أراك المنى فتمنَّيتَهـــــا وصاغ لك الطيفَ حتى انبَرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس، ويرقق حواشى النفوس، فتتولاك هزة الطرب لرؤيتها، وتعتريك نفحة السحر من هيئتها، فتكاد تئن للفارس المقتول، وتعطف

---

(١) م.ش ١١٨، ٣١ أغسطس ١٩٠٠ (نشر هذا المقال فى الصفحة الثانية من العدد).

على الواله المتبول، فتترحم على قتيل الرمح والحسام، كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام، وتستبيك الفتاة الحسناء، والكاعب العذراء، فتصبو إلى محبتها، وتطمع فى مودتها، لولا عيون الرقباء من أهلها، وهم ضاربون من حولها.

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق، عريقة الحسن والعتق، يتألق على وجهها نور العفاف والصيانة، ويبدو على محياها خصال الرزانة والركانة، مع قوة الشكيمة، وثبات العزيمة، قد وطئت تحت أقدامها غولاً من الأغوال، لها مائة فم للنهش والاغتيال، وطعنتها بالرمح فى أحشائها، فأوردتها مورد فنائها، وعلى رأس الغادة فوج من ملائكة النصر، يتوجونها تاج العز والفخر، وتلك هى صورة «الفضيلة» فى مصارعتها «للرذيلة»، وعن يمينها حرة بارعة الجمال، بادية المهابة والجلال، ترمقها بعين المستبشر بظفر حزبه، والمغتبط بنيل سؤله وإربه، وتلك هى «الحكمة» التى لاتنال الفضيلة إلا بها، ولاتدرك إلا خالصها ولبابها، وعن شمالها حرة أخرى، يتلألأ فى غرتها نور المعرفة واليقين، وقوة الإدراك والتمكين، تحمل على كتفها طفلا فى سن الرضاع، وتمسكه فى يده شبه القلم أو اليراع، وهى تنظر إلى «الفضيلة» نظر التوقير والتعظيم، فى موقف التبجيل والتكريم، وتلك صورة «العلم» وفضله، وذلك الطفل صورة الإنسان فى جهله.

وترى امرأة نصفًا وضعت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتضمه، وكأنها تقبله وتشمه، ومن حولها أطفال عراة تجذبهم إلى حجرها، وتسترهم بفضل إزارها، وعلى محياها سمات الغبطة والارتياح، وعلامات الرضا والانشراح، فيكاد يلوح فيها ما طوته يد الزمان، من براعة الحسن والافتتان، وتلك صورة «الخير والإحسان».

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد، وخريدة من أبهى الخرائد، كأنها المهاة فى المخائل، والظبية فى الشمائل، يطول شعرها فضل الإزار، ويريك الليل فى وضح النهار:

بفرعٍ يعيد الليلَ والصبحُ نير ووجهٍ يعيد الصبحَ والليلُ مظلمُ

تبدت فى ملتف غابة أغصانها من العود والند، وأغراسها من البنفسج والورد، فالأرض مفروشة بمنثور الأزهار، والسقف معروشة من أغصان الأشجار:

فهي تختال في زبرجدة خضراء تُغــذَى بلـؤلـؤ منثـور

وغدت كل ربوة تشتهي الرقص بثوب من النبات قصـير

وقد نثرت الشمس عليها مثل نثار العرائس، بدنانير تعيى أيدى اللوامس، كما عيى المتنبى بمثلها من قبلها، وهو يجتاز شعب بوان، ويصف فيه التفات الأغصان:

فسِرتُ وقـد حجبن الحر عنى وجئن من الضياء بما كفانى

وألقى الشرق مـنها فى ثيابى دنانـيراً تفـر مـن البنان

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التغريد، وترديد النشيد، كأنها تجاوب الفتاة فى سؤالها، عن أوبة خلها، بأن لكل حمامة منا شوقًا ينازعها، إلى إلف يضيعها، فيشتد بالفتاة الولع والهيام، وتشترك فى الهديل مع الحمام، وتلك هى «الطبيعة» فى جمال الفطرة، وجلال القدرة.

وترى «هوميروس» آدم الشعر اليونانى وهو أعمى البصر، متلفعًا بالوشى والحبر، تضيء لحيته بنور المشيب، ويملأ العين بالمنظر المهيب، متربعًا على سرير الملك، ملك الأشعار، لا ملك الأقطار، وسلطان الأوزان، لا سلطان البلدان، وشعراء الجن يكللونه أكاليل الانتصار، وشعراء الأنس بين يديه فى موقف الإعظام والإكبار، من «هبرنون» و«إسكيل» و«هوراس» و«فيرجيل»، وعن يمينه أبطال الشجعان، وفرسان الزمان، ممن روى الشعر أنباءهم، وخلد النظم أسماءهم، وهم على سمة الخضوع، وهيئة الخشوع، من «أشيل» و«إسكندر»، و«إينيه» و«قيصر»، وعند رأسه كاعبان، كأنهما اللؤلؤ والمرجان، متفقتان فى جمال الوجه والجسم، وإن اختلفتا فى الشكل والرسم، هما الفنان اللذان ابتكرهما فى الشعر، منذ شبيبة الدهر، والشعراء فى وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما، وينعمون بقربهما، والقيان من حولهما صفوف، يضربن بالمزاهر والدفوف، ويوقعن النغم واللحن، على ذلك النظم والوزن.

ومن لنا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين، والسابقين المقدمين، يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الألواح والمهارق، فالتصوير شعر صامت، والشعر تصوير ناطق.

ولما أفقنا من نشوة الإعجاب والازدهاء، واقتربت زيارتنا من الانتهاء، إذا نحن برجل أمامنا رث الثياب، خلق الجلباب، كأنه المعنى بقول القائل، من شعراء الأوائل:

أخو سفَرٍ، جَوَّاب أرض، تقاذفت ... به فلواتٌ، فهو أشعث أغبرُ

وقد اختلط شعر جبهته بشعر لحيته، فاختفت بينهما مقاطعه وملامحه، وغمضت أساريره ولوائحه، ونحل جسمه نحول الشاة بالأجادب، وطالت أظافره فتقوست كالمخالب، واختزن فيها الوسخ فصارت كالمكاحل علقت بها المراود، أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدرى المحتقر، ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام، ويوجهونه بالإكرام، فالتفت الباشا إلى صاحبنا «الحكيم» يستخبره عن هذه الكتلة من الدمامة، والكومة من القمامة، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان، وبين منظر هذا الشيطان، فاشتبك بينهما الخطاب، وأخذت أترجم لهما فى السؤال والجواب.

(الباشا)- أفما كان ينبغى منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الأماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها، ولئلا يضيعوا بهجتها فى نفوس الزائرين، ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال.

(الحكيم)- هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين نفتخر على العالم بصنع أيديهم، مما ابتهج به نظرك فى هذا القصر الذى أقيم لتفخيم هذه الصناعة، وأنفق على تشييده أربعة وعشرون مليونًا من الفرنكات، ولاتعجب من تفاوت المنظرين، فالذهب من التراب والماس من الفحم.

(الباشا)- وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من الفاقة وشظف العيش، وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم، وينقذهم من هذه الرثاثة التى يرثى لها الناظر؟ وإن كانت هذه الصناعة لاتدر الرزق على أربابها، فلم هذا التشييد لها وشدة العناية بها؟

(الحكيم)- إن هؤلاء الذين تعطف عليهم، هم بيننا أوسع الناس رزقًا، وأكثرهم بضاعة رائجة، واللوح الواحد من صنعتهم يقدر بالمئات من الألوف وبالملايين، وليست

هيئتهم هذه عن حاجة أو فاقة، وإنما هى ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم، وعذرهم فيها أن أرباب الأعمال الدقيقة التى يغوص فيها الفكر، وتجهد القريحة، ويتوزع لها الذهن فى عالم الخيال، قل أن تتوازن فيهم قوى الدماغ، فما تنمو قوة إلا بضعف أخرى، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر فى نظام الملبس والمطعم، ولايميزون فى المعيشة الطيب من الخبيث، فتختل أجسامهم، وتسوء أخلاقهم إلى أن ينتهوا إلى حال من الطيش والحماقة لاتطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب، ومنهم من يتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد، وقد ألف الناس ذلك منهم، فإذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المتفنن، غفرت له ما ساءك من منظره، لما يسرك من مخبره، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورثاثة المرأى.

(الصديق)- إنى لأعجب لقوم يعتمدون فى أعمالهم على رؤوسهم، ثم يذهلون عن أبدانهم، وقد علموا أن القريحة السليمة لاتسكن إلا الجسم السليم، وكيف يصح البدن إذا لم تتعهده بالنظافة وطيب الغذاء وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له، ولقد يعرض للرجل المتفكر، وهو فى تجلى قريحته، أن يشم رائحة كريهة، أو يبصر منظراً رثيًّا فيضيق فى الحال صدره، وينقبض فكره، فكيف بمن يجد ذلك فى نفسه ويحس به فى جسمه، وأحْرِ بمن ينقطع فى عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيسًا فى ذاته، فلا يعرف عجرفة الطبع، ولا شراسة الخلق، بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور، وما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع، وعلى الوجه الأعم، لست أدرى ما فائدة العلوم والمعارف والفنون إذا لم تُكْسِب صاحبها بادئ الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات، فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه، وإلا فكيف تنبت الزهرة من السبخة، ويسطع النور من مهجور القبور؟

(الحكيم)- صدقت وأجدت، ومن قصر فى تربية نفسه فكيف يطمع فى تربية غيره!(١)

(الباشا)- وماذا يصنع هؤلاء الصناع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر، وحالهم فى سوء المعيشة على ما أسمع وأرى؟

---

(١) م. ش ١١٨: الخلق.

(الحكيم)- يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من أرباب المواريث فى الإسراف والتبذير، وهم لشغفهم بالجمال، الذى تستمد صناعتهم منه حسنها ورونقها، لايفترون عن التولع بالنساء والافتتان بمحاسنهن، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى، إلى يد الصانع المفتون، إلى كيس الفاجرة الهلوك، إلى صندوق التاجر والصائغ، وعندهم أيضا باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التى يطلقون عليها اسم «المثال».

(الباشا)- وما «المثال»؟

(الحكيم)- «المثال» هو المرأة التى يتخيرها المصور، ليأخذ فى التصوير على مثالها، لجمال وجهها، أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها، فهذه لزندها، وهذه لنهدها، وتلك لقوامها، والأخرى لشكل ابتسامها، وهلم جرا؛ فترى غرف المصورين ممتلئة بهاته «الأمثلة»، التى تختلف أجورها باختلاف أقدارها، وقلما تدخل على مصور فى مصنعه إلا ترى أمامه امرأة مكشوفة البدن، عارية الجسم، يقلبها كيف شاء ذات اليمين وذات الشمال، حتى تصير على الشكل الذى يريد أن يملأ عينه منه ويحصره فى ذهنه، ليخرج الصورة على مثاله.

(الباشا)- ما هذا الذى تحكيه من *التبذل والتفضح*؟[1]

(الحكيم)- ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص، ولاغضاضة على النساء منه، فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة، لا عار فى مزاولتها، ولا بأس على السمعة منها، وعندنا اليوم خلاف قائم: هل يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل فى طريق الناس، وفى مسالك السابلة، كما يفعل ذلك فى داخل مصنعه؟ فإن أحد المصورين عنَّ له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور، فقصد إحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد، وكان يقيم هناك فى كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال، يمعن بنظره فى الفتاتين، ثم يخطط ويصور، وكان بجانب المقبرة دار تبنى قام على حائطها البناءون، فاشمأزوا من هذا المنظر، ودفعهم دافع الحياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو

---

(١) العجيب والفجور.

فيه، فلم يعبأ بهم، ولم يبال بتأنيبهم، واستمر على ذلك أياماً، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثم إلى قضاة المحاكم، لمنع الرجل عن هذا الفعل السيء، ولاتزال الجرائد تتجادل فى المسألة، أيجوز المنع أم لايجوز، فبعضها يذهب إلى وجوبه، ارتكاناً على نص القانون الذى يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة فى الطرق، وبعضها يرى الإباحة، لأن كل إنسان حر فى صناعته، ولايجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه.

(الباشا)- نعوذ بالله من هذه البدع.

قال عيسى بن هشام: وانتهينا بالخروج من القصر، بعد أن كدنا نضل فيه، لاتساع أطرافه ونواحيه، وتعدد غرفاته وحجراته، وهى كلها غاصة بالصور والتماثيل، ثم وقفنا فى الخارج وقفة الإجلال والإعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض وإكليلا الصناعة، وعاد الباشا إلى «الحكيم» يسأله:

(الباشا)- وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض؟

(الحكيم)- يبقيان على حالهما دون أبنية المعرض لعرض أعمال أهل الصناعة والتصوير فى كل عام.

(الصديق)- إننى كلما نظرت إلى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والغلو فيه إلى هذا الحد، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا، حرت فى معرفة السبب، فإن كان ذلك ناشئًا عن الترقى فى المدنية، فإننى أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية مسفرة بينكم، وربما كان القديم أبدع من الحديث، مع أن أهل الشرق، على ما تعلمون، أوسع مجالاً فى الخيال، وأبعد شأواً فى التصور؛ فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا؟

(الحكيم)- إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحى أهل عبادة للأوثان والأصنام، فقضى الاعتقاد الدينى باتقان الرسم والتصوير، واتسع نطاقه على الأخص فى الدولة اليونانية والدولة الرومانية، حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال، ووصل الغلو فى ذلك أيام الدولة اليونانية أنهم

أحصوا ثلثمائة تمثال لشخص واحد فى شوارع «أثينا» فى حال حياته، فلم تمكث بعد وفاته ثلثمائة يوم، لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل، وعلو الصيت على غير استحقاق؛ ومن مُلح ما يروى فى هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر: إنى لأعجب لأهل «أثينا» يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق، ولايقيمون لك تمثالاً واحداً، وأنت المقدم المفضْل فيهم، فقال له: لأن يتعجب الناس مثلك من أنهم لم يقيموا لى تمثالاً واحداً أفضل عندى من أن يتعجبوا لماذا أقيمت لى التماثيل؛ ولما دخل الدين المسيحى على هذه الحال، لم يحظرها ولم يحرمها، فاستمر الناس على ما ألفوه، وتناولوا الدين المسيحى نفسه بفن النقش والتصوير، وصوروا المسيح وأمه فى كثير من أطوار حياتهما، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس، فبقيت العناية بذلك متصلة قائمة إلى اليوم؛ بخلاف الدين الإسلامى عندكم، فإنه حظر التصوير، فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية، وإلا فهو منتشر فى الشرق انتشاره فى الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند.

قال عيسى بن هشام: وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواهما من المعاهد، ونقف على ما اشتهر فى المعرض من المرائى والمشاهد.

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام:[(١)] ودخلنا معرض الأشجار، وبستان الأزهار، فى قصر لم يبن بناء القصور والديار، ولم تشد أركانه بالشيد فوق الأحجار، ولم ترتفع بالآجر حجره وغرفه، ولم تتخذ من الخشب أبوابه وسقفه، بل عقدت له القباب والأبراج، من صقيل البلور وسبيك الزجاج، فهو صرح ممرد من قوارير، كأنه لجة يم أو صفحة غدير، لو دخلته «بلقيس» صاحبة العرش فى الأيام الخالية، لكشفت عن ساقيها مرة ثانية، جمعوا فيه أشتات النبات الغض، من كل بقعة وناحية فى الأرض، مما ينبت بين ثنيات الجليد، وتنشق عنه صم الجلاميد، وما اخضر فى ربا الصحراء، وأورق فى وهاد البيداء، وأزهر فى الجمد، وأينع فى الومد، ومن حيث تجرى الأنهار والجداول، إلى حيث تعتصم الأراوى والأجادل، ومن حيث تشدو الحمامة الورقاء، تحت الظلال والأفناء، إلى حيث تدور الحرباء، حول الغزالة فى كبد السماء، ومن أدنى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن طرف القطب إلى طرف القطب، فما أردت هناك من جميع الأنواع، فى متفرق البقاع، ما بين متلف ومنتشب، ومتسلق منه ومتشعب، يفتر بكل محمر ومُبْيَضّ، ومذهب ومفضض، ومشرق ومومض، وأين ابن الرومى يتأملها فيخلع عنه رداء الفخر والتيه، ويقر بعجزه فى الوصف والتشبيه، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور، فى تشبيهه المشهور:

ولازوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها، وضعاف القضب تحملها، ... أوائل النار فى أطراف كبريت

هناك تستبيك ألوان الأزاهر، بما يزرى بلمعان الجواهر[(٢)]، فما الياقوت عندها والزبرجد، وما الفيروز والزمرد، وما العقيق والجمان، وما الدر والمرجان! وكيف يقاس الحجر بالشجر، وتستوى الحصباء اليابسة، أكمام الأغصان المائسة، وكيف يقدم الجامد الثابت، على النامى النابت، وأين الحركة من السكون، والمنشور من المدفون، وأين

---

(١) م.ش ١٢١، ٢١ سبتمبر ١٩٠٠.

(٢) م. ش ١٢١: «هناك تستبيك... الجواهر» غير موجود فى المقال الأصلى.

المنثور على ظهر الروضة الزهراء، من الملحود فى بطن الغبراء، ولئن انتظمت القلائد، بجواهر تلك الفرائد، فى لبات الخرائد، وكان مكانها من الحور فى المعاصم والنحور، لكانت هذه الزهور، بين الرئات والصدر، وكم أنعشت خامد النفوس والأرواح، بطيب الأنفاس وشذى الأرواح، فوقفنا نستنشق الأريج والنشر، من أصناف ذلك الطيب والعطر، لو كان معنا ضرير المعرة رهن المحسبين، لانقلب منشرح الصدر قرير العين، ولأنس من وحشته، وذهل عن فاقته وخلته، وعلم أن من المسكر ما هو طِلْق حلال، ولم يتلهف على شرب المعتقة حيث قال:

تمنيت أن الخمر حلَّت لنشوة تجهلُنى كيف اطمأنتْ بى الحالُ

فأجهلُ أنى بالعراق على شفا رزِیُّ الأمانی لا أنیس ولا مال

وما زلنا فى هذه الروضة الغناء، والجنة الفيحاء، نردد قول العبد الصالح الأواه: «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

ونكرر النشيد، لبيت التوحيد:

ففى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

حتى إذا آن أوان الانصراف، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف، خروج أبينا من دار الخلود والبقاء، إلى دار الهموم والشقاء، ولما تركناها إلى نواحى المعروض ضؤَلَ فى أعيننا، ما كان يروقنا ويزدهينا، وصغر فى أنفسنا، ما كان يخلبنا ويشجينا، وذبل أمامنا ما كان من المناظر ناضراً، وذال ما كان فخماً نادراً، وغلب ذلك المنظر على كل بديع رائع، من مختلف الفنون والصنائع، وأين قدرة الحيوان الناطق، من قدرة المبدع الخالق، وما تسويه آلات المصانع، مما تصوره يد البارئ الصانع؛ وكاد الباشا يهم بالرجوع من حيث أتينا، ويقتصر فى يومه على ما رأيناه، لولا أن استوقفنا قول «الحكيم» للصديق فى عرض كلامه، عن ترتيب المعرض ونظامه:

(الحكيم)- نعم تنقسم أماكن المعرض إلى قسمين: هذا القسم الذى شاهدناه من نفائس الصناعة والطبيعة، وهو مباح للزائرين بغير أجر؛ وقسم آخر أقاموه لترويح النفس، واستجلاب الأنس، بالمشاهدات الغرية، والمناظر البديعة، يدخله الداخلون بأجر معين.

(الصديق)- لقد قرأت فى الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدهش، وأشد ما تشتاق نفسى لزيارته تلك «النظارة المعظمة» الهائلة التى اخترعوها لمشاهد القمر على بعد متر واحد، فتحيط به العين فى زعمهم كما يحيط الجالس فى الغرفة بأجزاء جدرانها، فأين ذلك المكان منا الآن؟

(الحكيم)- ليس هو ببعيد، وهم يسمونه «قصر الأضواء والمرايا» ولطالما أسهبت الجرائد كما قلت فى وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته، ولم أزره بعد، فهلم بنا نقصد قصده.

(الباشا)- البدار البدار إلى زيارته، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحًا لكان إحدى المعجزات.

قال عيسى ابن هشام: وسرنا جميعًا نلتمس هذا المكان، حتى وصلنا إلى قصر مشيد، قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك فى فخامته وضخامته، ووجدنا مكتوباً على بابه، بين صور الكواكب والنجوم، هذه العبارة باللغة اللاتينية: «من هنا يصعد الإنسان إلى أجرام الكواكب ويتصل باللانهائية»؛ ولما دخلناه رأيناه مزدحمًا بالجموع، فبدأنا معهم بالدخول فى حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر مترًا فى الطول وعشرة فى العرض، وهى مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحد منها مترين ونصفاً فى عرض متر ونصف، وقد تخللتها مصابيح الكهرباء، فإذا نظر الإنسان بين تلك الأضلاع والمثلثات رأى صورته تتعدد بالمئين، وإذا مشى بضع خطوات ضل الطريق ولم يهتد السبيل، وكلما ظن أنه وجد منفذاً للخروج منه، اندفع إليه، فيصدم وجهه بزجاج المرايا، فتعلوا أصوات الضاحكين وهم فى حيرتهم وضلالهم، ولا يزال على هذه الحال مدة من الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الاتفاق؛ وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء فى وصف أشكال الزائرات، وانطباع صورة الواحدة منهن على صفحات المرايا ألف مرة، كما تنطبع محبتها وهى واحدة على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف.

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التى يضل الداخل فيها، كما يضل الراكب فى الفيافى والقفار، سرنا نقصد غيرها، «والحكيم» يقول «للصديق» فى حديثه:

(الحكيم)- إن الفكرة فى إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال، يضل

الداخل فيها، ولايهتدى للخروج سبيلاً، شيء قديم فى الوجود، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتيه، منها الهيكل الذى رآه «هيرودتس» فى زمانه ووصفه فى تاريخه، وكان يحتوى على ثلاث آلاف حجرة بعضها متداخل فى بعض، فمن دخل هذا المعبد، ولم يكن معه دليله، ضل فيه حتى يهلك جوعاً، ولايزال أثره باقيًا عندكم إلى اليوم بقرب بحيرة «موريس» أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة «التمساح»؛ وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين، فأقاموا فى مدينة «كريد» معبداً يماثله، ومما يذكر عنه فى أساطيرهم، أن غولاً من الغيلان كانت تفسد فى الأرض وتعيث، ثم تلجأ إليه، فلا يدركها أحد، وصمم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها، والفتك بها، فلم يتوصل إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلته عليه عشيقته، فربط طرفه عند الباب قبل دخوله، وسار به فى طريقه، فأدرك غايته، وفتك بالغول، واهتدى به فى رجوعه؛ والفرق بين ما صنع القدماء فى السالف، وما صنعه المحدثون فى الحاضر، كما ترى، أن بناء المتقدمين من الحجر، وبناء المتأخرين من الزجاج.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا بعد ذلك غرفة فى إثر أخرى، وكلها على هذا النمط من انعكاس الأضواء فى المرايا وتعدد الصور، فتتخيل هنا بئراً، وهناك بحراً، إلى غير ذلك من وجوه التخييل؛ ثم انتهينا إلى تلك الغرفة المنشودة التى يرصد فيها القمر على بعد مترٍ واحد، فما جاوزنا بابها حتى أطفئت فى وجوهنا المصابيح، وتخبطنا الظلام الدامس، ثم سلطوا أشعة الكهرباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعة بكيفية تتبين فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتتراءى لك الأولى بمقدار قلامة الظفر، والأخرى بمقدار خروق الغربال، ووقف هناك رجل كالمرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم، ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بعد سبعين كيلو متراً، كما يرى فى «النظارة» التى انتشر الإعلان عنها بأنها تريكه على بعد مترٍ واحد، وأسهبت فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض، ثم خرجنا و«الصديق» يقلب كفاً على كف من شدة الدهش والعجب، ويسأل صاحبنا «الحكيم» على كنه هذا الغش والكذب.

(الحكيم)– خفض عليك، فإن أكثر ما تقرأ من التفخيم والتهويل لمثل هذه المسائل فى الجرائد لايعول عليه، فانها تتعمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناوله عليها من الأجور،

ولمصلحة أبناء البلاد فى ترغيب الناس إلى زيارة المعرض، وهى تستحل الغش والكذب فى سبيلهما، ولا تعجب إن قلت لك إن الذى باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا؛ فقد قام فى المجلس خطيباً، وطلب منه الموافقة على إقامة المعرض العام، وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى فى ارتقاء الصناعة بانشاء «نظارة معظمة» يرى الناظر فيها القمر عن بعد متر، وما زال يحكى، والجرائد، تكتب، حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه «النظارة» التى يقولون عنها إنها ترى القمر على بعد سبعين كيلو متراً، وأقاموا هذا القصر بمناظره لاجتناء الربح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس فى العالم من التهويل الباطل فى أقوالهم والغلو الفاضح فى وصف أعمالهم بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلو متراً، والرابح فيهم من كان ماهرا فى الغش والخداع، والفائز فيهم من كان سباقاً فى المكر والاحتيال.

قال عيسى بن هشام: وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذى لم يكفه الغش من طريق السياسة والاستعمار، حتى ترقى فيه إلى طريق الكواكب والأقمار.

قال عيسى بن هشام:[1] وسرنا فى قسم المرائى والمشاهد، ندخل واحداً منها فى إثر واحدٍ فلا نجد فيه، عندما نوافيه، مصداق ما سمعنا من وصف واصفيه، بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه، إلى أن وصلنا إلى قصر مشرف منيف، يزهو على القصور بحسن الترصيص والتصنيف، أعدوه هناك لأنواع الرقص والعزف، وفنون القفز والقصف، منذ الغابرة، إلى عهد الحضارة الحاضرة، ومن عيش الخشونة والشظف، إلى عصر النعومة والترف، فما شئت من رقص الحماسة والشجاعة، إلى رقص الخلابة والخلاعة، فترى رجال البداوة يرقصون بالسيوف فى مواقف الحتوف، وترى العذارى من ورائهم يضربن بالدفوف ويصفقن بالكفوف، تحريضاً لهم على الحرب وإلهاباً، وإثارة لهم على العدو وإغضاباً، فتحلو لهم مضاضة الأقدام، كما تحلو لشاربها غضاضة المدام، ويرتشفون كؤوس المنايا، كما يرتشف سواهم رضاب الثنايا، ثم ترى رقص الآيبين من السفر، والقافلين بالنصر والظفر، بين عذارى الحى وجواريه، وسبايا العدو ومأسوريه، بإشارات تبين أيما بيان، عن مكنون الهوى والأشجان، فى صدور ملؤها الغيرة والشمم، وقلوب حشوها الشهامة والكرم، ونفوس تفزع لصولتها الوحوش والكواسر، وتفرق من هيبتها الأسود الكواشر، لكنها تخضع لربات القدود والنهود، خضوع العابد للمعبود، فتتفرق لديها أوزاعاً، وتطير أمامها شعاعاً، إن خشيت منها بادرة صد وجفاء، أو حركة نفور وإباء، وهن يقابلن حركات التذلل والتزلف، بحركات التدلل والتعفف، ويجزين على التولع، بالترفع والتمتع، ويبدين لطيف التجنى، ببديع التثنى، ويغضضن من أبصارهن، فى جلائهن وإسفارهن، ثم يسرعن إلى الالتفاف، ويسترن ما انحسر من الأطراف، فيرتد طرف الواله حسيراً، وقلب الهائم كسيراً، وما أبدع الحياء فى الوجه الجميل، كماء الفرند فى السيف الصقيل، إذا عارض حياء الشجاعة فى الفارس المغوار، فل غربه عن ربة الحجل والسوار، وكأنما الشجاع منهم فى يد الغادة، لايفتأ ينشد قول أبى عبادة:

نحن قومٌ تذيبنا الأعين النجل على أننا نذيب الحديدا
طوع أيدى الغرام تقتادنا البيض ونقتاد بالطعان الأسودا

---

(١) م.ش ١٢٣، ٥ أكتوبر ١٩٠٠.

ثم رأينا أشكالاً متفرعة من الرقص والحجلان، وأنواعًا متعددة من الدوران والخطران، مما هو شائع عند عبدة الأوثان، وسائغ مباح في بعض الأديان، حتى يجد المشاهد لحركة تلك الأبدان، ما يجده راكب السفينة من الهيضة والغثيان، وكأن الأصل في ذلك إنهاك القوى الجسمانية، لإضعاف الجوانب الشهوانية.

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدنية والحضارة، من الفضاحة والدعارة، فترى أفواج النساء، كأسراب الظباء، لا يستر أجسامهن إلا غلالة كالقشرة، في لون البشرة، تنطبق على أعضائهن انطباق الغرقى على ترائك الرئال، وتلتصق التصاق القميص بأجساد الصلال، فهن عاريات للناظر، كاسيات في الخاطر، فيأتين في رقصهن أشكالا تشرح في ساطع الضياء، مذاهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء، فتارة ينثنين، وطوراً ينحنين، وآونة يدرن على أطراف أصابعهن، غير متنقلات من مواضعهن، وفيهن من ترفع ساقها حتى تلطم الخد سواد الخال بذهب الخلخال، وتلمس الجبين الوضاء بطرف الحذاء، والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون، ويصفقون ويستعيدون، ثم ما لبثن أن عدن بنوعٍ آخر من أحدث الأنواع، في ضروب التفنن والإبداع، فتوشحت كل واحدة منهن بملاءة بيضاء، متسعة الأطراف والأنحاء، إذا استدارت فيها خلتها قطعة غمام، أطل منها بدر التمام، أو زفة حمائم بيضاء ترفرف ظمأ حول الماء، وفي قبالتهن مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان، بمختلف الأضواء والألوان، فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر، أو قلائد جواهر، وكأنها في سرعة تلونها واهتزازها، زبد اللج هاجته السفينة في اجتيازها، فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة، بألوانها السبعة المتفرقة، وفي يد كل راقصة منهن عصا جرداء، إذا هزتها في الهواء، وقابلت بها شعاع الكهرباء، أزهرت بأزهار من نور، وأينعت بأثمار من البلور، يخالها كل من يرى «كعنقود مُلاَّحيةٍ حين نورّا»، لو رآها سحرة فرعون وهامان، لأقروا بفضل العصا في كل زمان ومكان.

ولما توارت عن أعيننا هذه الأنوار، وانسدل عليها الستار، خرجنا ونحن في دهش وذهول، والتفت الباشا إلى «الحكيم» يخاطبه ويقول:

(الباشا)- أرى أن للرقص عندكم، معشر الغربيين، شأناً فخماً، كأنه من نفائس الفنون وطرائف الآداب، وأنه لا بأس لديكم هذه المناظر والأشكال، التى يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة.

(الحكيم)- إن شأنه عندكم أعظم، وشكله فيكم أفضح، ولايزال كتابنا وأهل النقد منا يعيرونكم به، ويستفظعون ذلك الشكل الذى يسمونه «رقص البطن»، وهذا المعرض المصرى هنا، كل من دخل فيه، وشاهد النساء المصريات، حاسرات النهود، عاريات البطون، يحركن طياتها، خرج يقطر وجهه خجلاً، وتكاد تجيش نفسه غثياناً من شناعة هذا المنظر فى عينه، فيحكم عليكم بخسة الآداب وقلة الاحتشام، ومن شاهد مواضع اللهو فى بلادكم، لم يجدها حافلة بسواه، فإذا عرضتم علينا آثاركم فى ديارنا كانت هذه الراقصات فى أوائل ما تعرضونه، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم.

(الصديق)- إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم، فإن هذا الرقص ليس بمنتشر فى عاداتنا، ولا معروف فى بيوتنا، وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة، يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإثم والفجور فى بيوتهن، ولم يظهرن به على الملأ فى الملاهى العامة إلا بفضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الربح متساوية لا حطة فيها ولا نقيصة، والجمهور عندنا على استقباحه، والنفور منه كما تنفرون، ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة، ولا يأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر، وكلما حاولت الحكومة، فى محافظتها على الآداب، حظره ومنعه، اعترضتها امتيازات الأجانب وحريتهم المطلقة فيما يأتون ويذرون، أما الرقص عندكم، فهو متأصل فى عاداتكم، وسنة متبعة بينكم، لايقتصر على الملاهى والأماكن العامة، ولاينفرد به النساء دون الرجال، ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة، ولا قصر من قصور الملوك، ولاتقام عندكم وليمة من الولائم، ولا يتم لكم احتفال فى المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه، ومظهر من أفخر مظاهره، والرقص عندكم من الفنون النفيسة، يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم، ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز.

(الحكيم)- ليس الرقص فى أصله من المنكرات، ولا مما يعاب شأنه، كما تذهب إليه، وهو حركة طبيعية فى الإنسان يقتضيها تركيب الجسد لرد الأعصاب إلى ميزانها

ونظامها عندما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر، وهو قديم فى الفطرة، وربما تجاوز نوع الإنسان إلى بعض الحيوانات والطيور، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم؛ وهو ينقسم إلى أربعة أنواع: نوع يستعمل فى الحرب، ونوع يستعمل فى الصيد، ونوع يستعمل فى حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء، والنوع الرابع فى الشعائر الدينية؛ وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية، وكان كبراؤهم وأمراؤهم يمتازون بإتقانه، ويتباهون بالتبريز فيه، وفيهم من انقطع له واشتهر به؛ ولقد كان السفير بين أهل «أثينا» وبين الملك «فيلبس» والد الاسكندر المكدونى رجلاً اسمه «توستديموس» من أكبر الأساتذة فى هذا الفن، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها «لاريسا»، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولايستنكره، وكان «إيبامينونداس»، وهو أشهر الفلاسفة، راقصاً مبرزاً فى الفن، والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الدينى فى الدولة الرومانية عند نشأتها، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً إلى أن دخل الدين المسيحى على الوثنية الرومانية، فلم يستنكره فى بادئ الأمر بأشكاله التى تفنن فيها الرومانيون على ما هو معهود فيهم من التناهى فى الملاذ الفاضحة فى أواخر دولتهم، ثم دخل فى عادات الأمم الغربية، فتمسكت به، ولم يصدها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى، إذ كانت النفوس ألفته واعتادت أن لاترى فيه عيبًا أو شيناً، وإنما الذى شانه فى نظركم اجتماع الرجال والنساء عليه فى حفلاتهم، وذلك ناشئ عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم.

قال عيسى بن هشام: وقطع الحديث بيننا أن رأينا فى طريقنا مكانًا يتزاحم عليه الناس، وعلمنا أنه أحد المرائى الشهيرة الذى قرأنا عنه فصولاً متعددة فى الجرائد العالية مثل «الديبا» و«الفيجارو»، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به فى مياه البحر المتوسط فتمر به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان، فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة، وصعدنا السلم حيث انتهينا إلى هيئة سفينة كبيرة فركبناها، فإذا هى تميل بجانبيها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فى حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج، ويحف بها من الجانبين حائطٌ من قماش نقشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور الكبيرة مثل «نابولى» و«فينسيا» وغيرهما، فيتخيل للراكب عند ذلك أن السفينة تسير به فى عرض الأمواج المرسومة، والرسم

متصل بآلة السفينة تديره بسرعة كبيرة، والسفينة فى تمايلها كالأرجوحة لاتتحول عن مكانها، فلم نر فى الأمر ما يستغرب له.

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى، فرأيناها كلها على هذا النسق من التمويه، وما برح «الصديق» يظهر التذمر لشدة الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة، وبين ما انتشر عنها فى أنحاء العالم من المبالغة فى الوصف والغلو فى البيان، ولم يخالفه «الحكيم» فى ذلك، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله، وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض، يمثلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة؛ ولما دخلناها تملكنا الطرب وتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة، وشاهدنا الجبال الشامخة تسيل من قممها السيول إلى قرار الوادى، فتتشعب منها الجداول والأنهار، وتتخلل البيوت والجدران، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة فى تلك البلاد واقفة على مذاودها، ومن حولها الولائد والجوارى تتألق فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهن بحسن البداوة:

حسن الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية وفى البداوة حسنٌ غير مجلوب[1]

وهن يحتلبن ألبانها فى قعوب من البلور، ويقدمنها برغوتها لمن يرغب فى استقائها من الزائرين، ورأينا الرجال فى حوانيتهم يملأون العين حسناً وبهاءً واقفين وقفة التأدب يعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم، ولقد علمنا أنهم أقاموا فى تشييدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات؛ فأعجبنا المقام، وقضينا هناك زمناً نتناقل ونتفاكه ونتذاكر فى حديثنا فضل المعيشة الطبيعية فى سذاجتها، على المعيشة المدنية فى تصنعها وكلفتها.

(١) م‌ش ١٢٣: بيت الشعر هذا غير موجود فى المقال الأصلى.

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام:[1] وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول، إذ سمعنا صوت مزمار وطبول، فهاج منا الذكرى والشجن، وأذكى فينا الحنين إلى الوطن، حنين أنضاء النوق بلامعات البروق، تنبعث من أفق بلادها، وتنازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها، فشخصت إليه الأحداق، ومالت نحوه الأعناق، فقصدنا منبعه، وأممنا مطلعه، عسانا نجد عنده من آثار مصر فضلاً، ومن أشكال بلادنا شكلاً، يملأ العين جمالاً، والصدر جلالاً، ويؤنسنا في وحشة الفراق، بما يخفف من لواعج الأشواق، ويكون لنا في المعرض موضعًا للفخر والمباهاة، في باب المسابقة والمباراة، فوجدنا أخلاطاً من الزمر والجماهير، حول الطبول والمزامير، ورأينا في وسطهم رجلاً يعلوهم فظا في هيئته، كظاً في طلعته لو استزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد، كأنه جلمود صخر أو قطعة جليد، بوجه تثور منه السماجة، ثوران العجاجة، «وطربوش» عليه طوق مثل الدهن من العرق والوضر، لو لج فيه شعاع الشمس لاحتدم واستعر، وهو يعج مثل عجيج الإبل في الفلوات، ويصيح بصوت من أنكر الأصوات، دونه صوت الحمر الناهقة، أو الرعد بالصاعقة، وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس، خشية الاختناق من التهيج والتحمس، وهو يتمايل عجباً واختيالاً، ويذهب في الحلقة يميناً وشمالاً، منادياً في الجمع، بألفاظ مكروهة في السمع، ترغيباً للرائح والغادي، في دخول ذلك النادي، ليروا من أسباب الأنس، ومستمتع الحواس الخمس، ما ينفي بلابل الصدور، ويجلي بواعث السرور، من كل منظر ليس له نظير، لايحيط به التخمين والتقدير، مما بذت به مصر سائر الأمم، وحلت به في الفخر محل الذرا والقمم، ولاغرو فهي لاتزال في مضارها منذ القدم، عالية الكعب راسخة القدم، وأن هذه فرصة سانحة لابد أن تلتمس، وخلسة من الدهر يعقبها الندم إن لم تختلس، فمن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار، وأوقع نفسه في الخسار، ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله، بعد أن يفقد النفيسين من وقته وماله، ومن لم يشاهد صنعة «زهرة» و«معتوقة»، لم يشاهد في الدهر معشوقة ولا

---

(١) م.ش ١٢٦ ، ٦ أكتوبر ١٩٠٠.

مرموقة، ولم يحصل إلا على الخيبة، فى السفر والأوبة، فدخلنا نستكشف الأثر، ونستشف الخبر، فتلقانا بالباب رجل حسن الثوب والعمامة، فى زى أهل التشيخ والإمامة، مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح، كأنه إمام مصلًّى أو سادن ضريح، لولا أن تأملته فعرفته رجلاً من ذوى الرتب بين التجار، مشهوراً بتجارة الطيب والأعطار.

ذئب تراه مصلِّيًا فإذا مررتَ به ركع
يدعو وجل دعائه ما للفريسة لا تَقَع

فهنأنا بالسلامة، وبالغ فى الحفاوة والكرامة، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو واللعب، و«مرسح» من مراسح الرقص والطرب، وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعهر، فأخذن فى «رقص البطن» بتلك الحركات الشنيعة، والأشكال الفظيعة، حتى تخيلنا أننا عدنا إلى أنوار تلك المدة، فى مصاحبة «الخليع» و«العمدة»، فلوينا أعناقنا نحو الباب، ونحن فى حزن واكتئاب، وخرجنا نستر وجوهنا بأيدينا خجلاً، وتمنينا أن لاننتسب إلى بلادنا أصلاً، لنخلص من وصمة هذا العار، وما يجره علينا من الازدراء والاحتقار؛ ورجعنا مهرولين ابتعاداً عن هذا «المعرض المصرى» وما يحويه، من مثل هذا المشهد المعيب والمنظر الكريه، وأقسمنا على أن لانمر من هذه الناحية مرة ثانية، فأخذ «الحكيم» يهون علينا من وقع المصاب، ويخاطبنا فى معرض العتاب:

(الحكيم)- لم هذا التسرع والتعجل؟ أما علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين: قسم الصناعات والآثار، وقسم المشاهد والمرائى؛ وقد رأيتم من «المعرض المصرى» القيم الثانى، فدعوه إلى سوء أدبه وقبح أثره، ولايمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذى هو قسم الجد والعمل، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا الذى اعتراكم من الهم والكدر.

(الباشا)- ما أظن هذا القسم إلا عنواناً للقسم الآخر، ومن أساء الاختيار فى قسم المشاهدات، فجدير به أن لايحسن الاختيار فى قسم الصناعات، ومن بلغ به الانحطاط فى انتخاب مشاهد بلاده ومرائيها إلى عرض بطون النساء وفحش العاهرات للرائح والغادى من أطراف المسكونة فى هذا المعرض، فلايرجى منه حسن الاختيار فى آثار البلاد وأعمال صناعها.

(الصديق)- لقد أعمى الطمع فى الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد، وغرهم ولع السفهاء بها فى مصر، فحسدوا عليها أصحاب الحانات، ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحموهم فيها ببلادهم، فانتهزوا هذه الفرصة للتفرد بها فى بلاد الغربة، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان فى بلادهم، فيفوزون بالربح، وليس من يعير بقبيح وجهه فى بلاد لايعرفهم بها أحد، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية الذى لو دعوته لرؤية الرقص فى مصر لغطى وجهه بجبته ولوى عنقه يستعيذ ويستغفر من الإثم الذى ينهاه عنه دينه وأدبه، ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدروه، فلم ينالوا ربحاً، ولم يستروا قبحاً، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهاهم عن مشاهدة هذه الفضائح، فلم يقبل عليها أحد، ولم يبق لأصحابها إلا سخط المصريين عليهم جزاء تعيير الأمم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم.

قال عيسى بن هشام: ولما جاوزنا باب الملهى قليلاً، انثنينا إلى القسم الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا، فوجدنا بناء مشيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد، يفاجئك مدخله بحانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربعاً، عريق فى القبح والدمامة، تنطبق عليه القبعة دون العمامة، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس، وقد التف عليه جماعة من أجناس الناس، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم، فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية فى ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون فى انكبابهم عليه: هلم إلى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئاً من «قرآن محمد»؛ فحزبنا الأمر، وانتظرنا قليلاً حتى انفض الجمع عنه، وأقبلنا عليه نسائله، فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية، فزجرناه قياماً بواجب الدين الإسلامى الذى ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه، فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من «شركة المعرض المصرى» للارتزاق بهذه الوسيلة التى دفعته إليها ضرورة العيش، فتركناه وتوغلنا فى داخل المكان، وإذا برجل آخر معمم ومن حوله صبيان فى أزياء المصريين التفوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتَّاب حول الفقيه، وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم فى أثناء التلاوة، وفى يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤدبهم، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من

شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين، ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثلوا به هذا المنظر، ولم يستنكروه، وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحى المتصيد.

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقاً تشبه أسواق الموالد وحوانيتها، فعن اليمين بائع «لب وحمص» و«فول وترمس»، وعن الشمال بائع «عرقسوس وسحلب»، وفى هذا الجانب بائع «حراير شامية»، وفى الجانب الآخر بائع «حلوى إستامبولية»، ومن دونهما بائع «أحذية صفراء وطرابيش حمراء»؛ ولما استخبرنا: أهذه كلها آثار مصر والمصريين؟ قالوا: نعم ويزيد عليها «معروضات المصنوعات والمزروعات» فى داخل هذا المكان، وأشاروا إليه، فدخلناه، فإذا هو مكان متسع على شكل معابد القدماء من المصريين، ووجدنا حوانيته أشبه شىء بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها، وتركوا فى أنحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم، فهنا صرة فيها بذرة قطن، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة، وفى صدر المكان صوان من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما يلبسه العداءون «القمشجية» أمام الخيول بمصر، فانقلبنا خارجين من «قسم المزروعات والمصنوعات» على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التى خرجنا عليها من ملعب المغنيات والراقصات.

وفزعنا إلى الهرب من هذا المعرض المصرى وسيئاته، فعارضنا أحد المروجين له، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه، فطاوعناه، فدخل بنا غرفة محجبة، وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الذراعين تغزل رجليها وتستعملهما استعمال اليدين فى كثير من الشؤون، فخرجنا لانلتفت وراءنا، وقد حان وقت الغروب، حتى صرنا فى الشارع، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع، وفى وسطهن امرأة عليها زينة العرائس، وهن ينشدن حولها أناشيد الأعراس فى زفاف المصريات، فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص إلى خارجه فى وسط الشارع، وبينا نحن كذلك إذ بصر «الصديق» بأحد المصريين من أصحابه، فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع، وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا «المعرض المصرى».

(الصديق)- ألا تخبرنى عن سر هذا التفضح، فإنهم لم يكفهم ما يدور فى داخل المعرض من كل مخجل معيب، حتى انتشروا به فى الشوارع على نحو ما تراه، لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم، ليظهروهم أسوأ المظاهر بين الأمم، فانتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم، لما أخطأنا الصواب.

(المصرى)- ليس الأمر كما ذهبت إليه، وإنما دفع أهل الشركة الشره والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل، كما تراه فى تسيير موكب الزفاف فى أنحاء الشوارع للإعلان والترغيب فى زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً، ولكن الذى يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة التى أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها ولم تشترك فيه رسمياً، كما أعلنته الجرائد، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية، لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم من المصريين.

(الصديق)- وهل تظن أنهم يربحون الشىء الكثير من هذا المعرض، وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار؟

(المصرى)- ما أظن الربح على هذه الحال بميسور، ولكن الشركة لا تخسر شيئًا، وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها، وهم يقدرون الخسارة إلى اليوم ثمانين ألف فرنك، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبرة لهم وتأديباً، حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التى لا يسلمون فيها من الخسارة، ولا يسلم المصرى فيها من وصمة العار.

قال عيسى بن هشام: وزودنا الرجل بالتحية والسلام، بعد أن خفف علينا بعض ما بنا من الآلام.

خبز المنية

قال عيسى بن هشام:(١) وانتهى بنا التجوال في المعرض إلى «أقسام الدول»، فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول، ما يشهد لهن بالعلوم والارتقاء، في أبواب الإبداع والإنشاء، وقد تبارين في ميدان المناضلة، وتسامين في مضمار المفاضلة، بما لا يشق لهن فيه غبار، وتقصر دونه الأنباء والأخبار، وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهن قدماً، وأرفعهن علماً، وأعز مكاناً، وأعظم شأناً، كأنها لم تقنع بالسبق عليهن في ميادين الحرب والطعان، فأرادت أن تسبقهن أيضاً في حلبة العلوم والعرفان، وأن تبذهن في حالتي الحرب والسلم، بشدة البأس وقوة العلم.

وبينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع، وجمال الوضع، إذ شعرنا بضجة، والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجي، في الليل الدجوجي، قد ركبوا رؤوسهم من شدة الفزع، وطارت عقولهم من الهلع والجزع، وانتشر بينهم الصراخ والصياح، واشتد فيهم العويل والنواح.

فسألنا عن الخبر، فقيل لنا إن القنطرة القائمة على رأس المعرض، هوت بمن فوقها على من تحتها، فتوجهنا ناحيتها، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون، فمن جثث هامدة وأجساد دامية، ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل، من زوار المعرض، يزيدون على المائة، والدماء تجري كالسيل، والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون بين المصابين من أقربائهم وأصدقائهم، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة ومترقب للمكروه، فالبكاء شامل والأنين عام، والأطباء يضمدون، ورجال الصحة يحملون، واشتد علينا الحال باشتداد الهول، وتكاثر الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع، فجذبني «الباشا» إليه لنخرج من هذا المأزق، فأسرعنا إلى مطاوعته، وسار بنا وهو يقول:

(الباشا)– تالله ما يفي كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة وسناء في ترويح

---

(١) م.ش ١٣٠، ٢٣ نوفمبر ١٩٠٠.

النفس بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل، حتى لقد تخيلت أننى أشاهد يوماً من أيام الحرب تتمزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء.

(الصديق)- صدقت، ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل فى النفس وقعا، لأن للحروب رجالاً استعدوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال، وهاته النسوة اللواتى رقق النعيم أديمهن، ورفه الرغد أجسادهن، يفزعن من مس الإبرة، ويذعرن من لمس الوبرة، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت الردم، والأعضاء مدكوكة فى الأنقاض، وهكذا صارت وقائع المدنية فى سلمها أشد من الوقائع فى حربها.

(الباشا)- لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولانعود إليه مرة أخرى، فقد قطعناه طولاً وعرضاً، واستوفيناه بحثاً وتدقيقاً، وبدأ فينا الملل من طول التردد عليه.

(الحكيم)- إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم، فلا يفوتنكم أن تختموها فيه برؤية العجيبة التى هى فى الحقيقة أم العجائب، ومصدر هذه الطرائف والغرائب، والأصل الذى تتفرع منه الفنون والصنائع، والمنبع الذى تسيل منه مظاهر المدنية، والمطلع الذى تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة.

قال عيسى بن هشام: فشوقنا بكلامه إلى متابعته، وسرنا وراءه إلى حيث يريد، فانتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم نكن وصلنا إليه من قبل، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب البصر عند رؤيتها، وتختلج النفس من هيئتها، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود، كأعظم ما يكون من الدلاء، فهوت بنا إلى قرار بئر عميق، وجب سحيق، فتولانى من الهلع والذهول ما أنسانى كل شىء فى ذاكرتى مما يحفظه أهل الدنيا إلا ثلاثة أبيات لم يبق لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار، والهوى فى ظلمات بعضها فوق بعض، قالها الفرزدق لما تعلق بحبال الغوانى من أعلى الجدران، فراراً من صولة الثائر والغيران:

فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا ... أحىٌّ يرجَّى أم قتيلٌ نحاذرُه
فقلت ارفعوا الأسبابَ لا يشعروا بنا ... ووليت فى أعجاز ليلٍ أبادره
همـا دلَّتانى من ثمانين قامة ... كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريش كاسره

ولولا أن حسن العشرة وطول الخطة مكن الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسى، لقلنا إنه كاد لنا، وأراد أن يجدد فى عصرنا الحاضر ما فعله أبناء يعقوب بأخيهم فى عصرهم الغابر؛ ولما أفقنا من الإغماء فى بطن الأرض، سألناه أين نحن من الآخرة، أو فى أية طبقة من الطباق السبع، فعلمنا أننا فى مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجرى تحت الأرض، وكيف يستخرجه العمال فى غياهب الجب، فأخذنا نحدق العيون فى حنادس الظلماء عسانا نبصر شيئًا، فتمثل أمامنا العمال يدأبون فى عملهم على ضوء سراج معقود بناحية كل عامل كأنه الحُباحب تنقدح بين الأشجار فى ظلمات الليل البهيم، وأنَّى لأضواء السرج الكهربائية أن تشق عباب هذا الظلام الدامس، وهو يكاد من تكاثفه يمسك باليد ويُقبض بالراحة، وحسبك أنها لاتفيد فى كشف الظلام وإضاعته، وإنما تزيد فى بيانه وإراعته، ثم خطونا قليلاً وعثرنا كثيراً، فرأينا من السرادب والكهوف، ومن الأخاديد ما تضل فيه الصلال بالتوائها، وتتكمش دون انسيابها، ونظرنا فى كل فجوة أشباحًا يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصراع الذى يتفنن فيها المصارعون للتمكن من العمل فى ثنايا الفجوات والمنعطفات، وفى أيديهم ما ثقل ودق من أدوات القطع والحفر وأخشاب الأسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر والكهوف، فمنهم الواقف فى عمله على أصابعه، والمضطجع على جنبه، والجاثى على ركبتيه، والمنكب على وجهه والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق، هذا بعض ما تقاسيه الأجسام من المتاعب والمشاق، والله العليم ما يدور فى القلوب والرؤوس من توقع الخطر وترقب الهلاك بما شئت من أنواعه المتعددة انهيالاً واندفاقاً، وانفجاراً وانبثاقاً، وغرقاً واحتراقًا، وارتدامًا واختناقاً، وهمهم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصيهم من السرج، خشية أن تصاب برضة تنثلم فيها ثلمة، فتتصل بغاز الفحم المتسرب فى المعدن تسرب الهواء، فتميد الجدران، وتندك الأحجار، وتخسف بهم الأرض، واهتدينا آخر الأمر إلى منفذ فخرجنا منه، وتركناهم يعملون فى ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض:

فالفحم ظلام جامد، والظلام فحم سائل، وعيشهم أسود حالك، وكفانا الله شر المهالك.

ثم درنا قليلاً فى «معدن الذهب»، بعد أن انتهينا إليه من «معدن الفحم»، فلم نجد أرباب العمل فيه أسعد حالاً، ولا متاعبه أهون احتمالاً، لا نصيب لهم من الأصفر الرنان،

ما يجلو عنهم صدأ الكروب والأحزان، سوى أنهم صفر الأيدى من الفضة والذهب، صفر الوجوه من النصب والتعب:

والعِيسُ أقتل ما يكون لها الصدى   والماء فوق ظهورها محمولُ

وكادت الرطوبة فى المعدن تعقد دماغنا فى مجاريها، فأسرعنا إلى مكان الصعود، فانتشرنا من بطن الأرض إلى ظهرها، وأقمنا هنيهة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار، عند مفاجأة ضوء النهار، وسرنا نتمتع بفضاء الأرض لاننطق حرفًا ولانحسن خطاباً، وإذا بصاحبنا «الحكيم» يستوقف أنظارنا إلى «مسبك المدافع» الذى يمثل أعظم المسابك فى فرنسا تطل منه أعظم أسطوانة للمدفع فى العالم، ويخاطبنا بقوله:

(الحكيم)- وهذا هو الثالث من أمهات المدنية وأقانيم الحضارة، فقد رأيتم الأقنوم الأول وهو الفحم، والأقنوم الثانى وهو الذهب، وهذا الأقنوم الثالث وهو الحديد.

(الصديق)- «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس».

(الحكيم)- نعم إنهم يستخرجون الذهب، ليشتروا به الفحم، ليصهروا به الحديد، فيصنعوا منه ما شاءوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة، فيخرجوا للناس ما تشاهدونه من عجائب الصنع، وإن كل ما ترونه مما يبهر الأنظار، ويستهوى القلوب، راجع فى الأصل إلى ذلك الفحم الأسود، الذى هو اليوم الخبز الثانى للإنسان فى عالم المدنية، منه نعيمها ورفاهتها، وبه بأسها وقوتها، تبًا للإنسان! فما أعق عمله وأقبح صنعه! يهوى بالملايين من العمال إلى أسفل طبقات الأرض، فيخربون باطنها، ليستخرجوا منه ما يخربون به ظاهرها، وتعساً له! يزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش، وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه، فيخرج من الدنيا باكياً، بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تفضلها حالة الحيوانات والحشرات، وهو بزعمه أفضل المخلوقات!

(الباشا)- كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم فى فرنسا، وما مقدار أجرة العامل فى اليوم؟

(الحكيم)- يشتغل فى معادن الفحم مائة ألف عامل، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرون مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات، ويعمل

العامل منهم فى جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار، وفى وسط الأخطار التى لاتقل حوادثها فى العام عن ألف وخمسمائة حادثة، فتذهب بالعدد الجم من القتلى والجرحى، هذا غير ما يصيب العمال من الأدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق «الكربون» وفاسد الهواء، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار، ومعهم أولادهم ونساؤهم، كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات فى اليوم!

(الباشا)- وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التى هى ثمرة كدهم ونتيجة تعبهم؟

(الحكيم)- تذهب إلى فئة معينة من أرباب الشركات والامتيازات، فينفقونها على شهواتهم، أو يدخرونها فى صناديقهم، ولاتظنن أن هذه الفرنكات التى يأخذها العامل أجراً له فى اليوم تصل إلى يده، فإن أكثر الشركات تبتنى بيوت السكنى للعمال فى أحياء بجوار المعدن، وتقيم بجانبها الأسواق، فيشتغل العامل فى معدن الشركة، ويسكن فى بيت الشركة، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة، والشركة تحسبه عليه من أجرته، فإذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له، كان رضى الحال، رخى البال!

(الصديق)- من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها، فإنه كيف يبصر الإنسان على هذه الحال، يعمل عمل الحشرات فى باطن الغبراء، ليغنى المقعدين فى قصور العز والهناء.

قال عيسى بن هشام: ووصلنا فى مسيرنا إلى البرج الشهير، برج «إيفل» المهندس القدير، فأسندنا إليه ظهورنا، نتفكر فى أعمال الإنسان، وما يأتيه من فنون الجنون فى كل زمان، وهو يدعى أنه المخلوق الكامل، والحكيم العاقل.

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام:[1] ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع، والعماد الرفيع، فهالتنا رفعته، وأدهشتنا صنعته، فهو فى باب المشاهد الفريدة العصماء، والغرة الشعباء، والهضبة العلياء، والقلة الشماء، أعجوبة الصنائع وضعاً وإتقاناً، وبكر هذا المعرض وإن كان فيه عواناً تنحنى أمامه الآطام والآكام، وتخر له الربا والأعلام، فأين من ارتفاعه الهرمان، ومن علوه صرح هامان لما أمره فرعون بقوله فى كفره وعناده، وجحوده وإلحاده: «يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً»، ولو رآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى، ولم يقل أنا ربكم الأعلى، ولأنحى على هامانه فجلده ألفاً، وعلقه على الجذع شنقاً، وأين «برج بابل» من برج يشافه بروج السماء، ويشارف الشعرى الغميصاء، إذا حوم عليه نسر الجوصار ثالث النسرين، واتخذ وكره فى منازل الفرقدين، وأنى لخيال الشاعر أن يعلو فى وصفه علوه، ويسمو سموه، لاجرم أنه يضيق عليه نطاق الوصف، فيلجأ إلى تشبيه الأكبر بالأصغر، والأعظم بالأحقر، كما شبهوا شمس النهار بكأس العقار، والثريا بعنقود، والجوزاء بعود، ودرارى النجوم بالودع المنظوم، والليل الدجوجى بالعبد الزنجى، والاشفاق بالدم المهراق، فلعله يقول إذاً: إنه ألف الهجاء، فى كتاب التقدم والارتقاء، همزته رايته التى تخفق فى صفحة الأفق، أو أول العدد المرقوم فى جدول الفنون والعلوم، أو الإبرة التى تغرز فى خريطة الكرة الأرضية، لتعيين مواضع المدنية، أو هو القلم الذى يخط فى أديم البدر، ما بلغته أمم الغرب من علو الشأن والقدر، أو هو قرن الثور فى زعم البعض، نفذ إلى ظهر الأرض.

ولما فرغنا من الطواف حوله مراراً، وامتلأت له نفوسنا إعظاماً وإكباراً، سمعنا «الصديق» يتنهد ويصعد، ويعيد فى قوله ويردد:

(الصديق)– هذه سنة الدهر منذ القدم، وعادة الزمن فى أبنائه، كلما ترقت أمة من الأمم فى معارج المدنية، شيدت لها أثراً يفوق سواه من بديع الصنعة، يقوم لها

---

(١) م.ش ١٣٣، ١٤ ديسمبر ١٩٠٠.

شاهداً بين الورى على ما بلغته من السمو والقدرة فى زمنها، ثم لا يلبث أن يمحوه الدهر من صحيفته، ليقوم مقامه آخر ينتهى إلى مثل نهايته، لا يزال الدهر هكذا فى محو وإثبات، ولا يزال ابن آدم عن العبر فى غفلة وسبات، اللهم إنه عمل باطل، وظل زائل.

(الحكيم)- لا تعل بنا فى أفكارك علو البرج قبل أن نصعد فيه، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته، وهلم بنا إلى الارتقاء.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا من أحد جوانبه فى غرفة للصعود، فارتفعت بنا من سطح الأرض إلى عنان السماء فى لحظة كلمح بالبصر، فرست بنا فى الدور الثانى منه، وإذا هو سوق من أكبر الأسواق، اصطفت فيه حوانيت التجار بأنواع البضائع، والحانات بأصناف الخمور، وفى وسطه مطعم فخم يزرى بمطاعم الأرض، فأخذنا مجلسنا فى بعض حافاته، وجعل «الباشا» يسأل «الحكيم» إجمالاً وتفصيلاً:

(الحكيم)- يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلثمائة متر، وهو من الحديد الخالص، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلو جرام، وعدد قطعه التى يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة، والخطاطيف فيه مليونان ونصف، وله من العمر عدة سنوات، وبلغ دخله من الصاعدين فيه فى أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع.

(الباشا)- وما الآيات السبع؟

(الحكيم)- إن ذكرها ليطول.

(الصديق)- نحن فى مجلسنا هذا؛ وفى علونا عن الأرض، وتفرغنا عن العالم ما يبعثنا على جولان الفكر فى تاريخ البشر، للمطابقة بين أعمال الإنسان فى ماضيه وحاضره، وإن اختلاف العصور، ومرور الدهور، لم يغير شيئاً من جبلته، فهو هو على عهده فى غرامه بالمعجب المدهش، يبيع نعيم الدنيا بشقائها فى سبيل ذلك، ويشتغل بما لا تقضى به الحاجة، لمجرد الزهو والعجب، والتباهى والتفاخر.

(الحكيم)- نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة فى تعليل أعمال البشر وطباع الخلق، وأنت تنظر إلى أهل العالم السفلى من هذا العالم العلوى، كأنهم جموع

النمل تغدو وتروح فى سبل أرزاقها، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل فى تآزر وتعاون، والناس فى تضارب وتقاتل، والمصير واحد، والفناء شامل، وعمل النمل حق وعمل الإنسان باطل.

وإن أبيتم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر، فهى: الأهرام، والحدائق المعلقة، وسور بابل، وتمثال جوبيتير، وصنم رودس، وهيكل إيفيز، ومدفن الملك موزل.

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم.

وأما «الحدائق المعلقة» فى أرض العراق، فقد أقامها «بختنصر» فوق الربوة التى تعرف الآن بربوة «عمران بن على»، وهى فى اتساع أربعين فداناً شيدت بالبناء على أشكال الجبال، وعقدت فيها القباب على عمد وأساطين أفرغوها وملأوها بالطين؛ وغرسوا فيها الأشجار تتساق جذورها فى أصولها؛ وتورق فى رؤوسها؛ ووضعوا فيها الدرج يصعد منها الصاعد إلى مثل رؤوس الجبال، حيث تثمر الأثمار؛ وتزهر الأزهار، وتعشب الأعشاب؛ وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب؛ ويقال إن السبب فى إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحن دائماً إلى مناظر بلادها التى نشأت فيها، فأنشأها لها الملك بالصناعة ما يعوضها به عن الطبيعة.

وأما «سور بابل» فهو عدة أسوار متداخلة بعضها فى بعض، يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً، وعرضه سبعة وعشرين متراً، ومن حوله خندق عميق، وعليه أبراج متعددة، وله مائة باب من حديد.

وأما «تمثال جوبيتير»، الإله الأكبر عند اليونانيين، فقد صنعه لهم «فيدياس» النحات الشهير، وطول قامته أربعة عشر متراً، وهو جالس على العرش، مكلل بورق الغار وفى يمناه تمثال «إله النصر»، مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل، وفى يسراه الصولجان، منضد بكرائم الأحجار، وفى طرفه نسر من الذهب، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً. أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس، وكان موطئ قدميه من العرش أسدين من الذهب، وقد أجاد صانعه وأتقن فى تناسب الأعضاء فى هذا الحجم

العظيم، حتى عده القدماء أنفس ما فى الوجود من الصنع، وكان كل يونانى يعد نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه.

وأما «صنم رودس» فهو تمثال «أبولون»، إله الفنون عند اليونانيين أيضاً، أقاموه تجاه المرفأ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً، وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته، ونقلت العرب كثيراً من بقاياه فى القرن السابع.

وأما **«هيكل إيفيز»**[1] (وهى مدينة من مدن اليونان)، فهو معبد «ديان»، إلهة الصيد والقنص، ولم يكن له مثيل فى البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الإطلاق، ومما يذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة، على كل حال، واسمه «إيروسطراط» بحث عن أكبر عمل يمتاز به فىّ الوجود، ويخلد ذكره على مدى الدهور، فاحتال لإحراق المعبد، فأكلته النار، وأعلن الجانى عن نفسه أنه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء، فحكم عليه القضاء بالتعذيب حتى يموت، وأدركوا غرضه من إحراقه، فأمروا أن يلحق به كل من ذكر إسمه، فكان ذلك داعية انتشاره، لأن الناس أخذوا يهمسون به بينهم، حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته إلى اليوم، وكان حرقه فى الليلة التى ولد فيها الإسكندر، فلما بلغ من الملك ما بلغه، عرض على أهل «إيفيز» أن يعيد لهم بناءه من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبى عنهم فضل عليهم فى معبدهم، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته، حتى تم لهم فى مائتين وعشرين عاماً، ومازال قائماً حتى جاء «نيرون» القيصر الرومانى فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها فى قصوره بمدينة «رومية»، ثم انتهى الأمر بأن خربه «الجرمانيون» فى حروبهم».

وأما مدفن الملك «موزول»، فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته، جمعت له مهرة الصناع من سائر البقاع، وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل، وكان ارتفاعه اثنين وأربعين متراً، وأساطينه من المرمر النقى نقشت عليها صور الحوادث التاريخية، وكان غطاؤه صخرة من المرمر صورت فيه وقائعه الحربية، وبقى هذا المدفن سليماً إلى القرن الرابع عشر، ثم اندثر أثره فى القرون الوسطى، ونقل جانب من

(١) م.ش ١٣٢ «هيكل ديان فى إيفيز»

أجزائه قريباً منه لبناء قلعة «بودرون» بالأناضول فى القرن السادس عشر، ويقى منه قطع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه إلى أواسط هذا القرن، فاشترتها إنكلترا ووضعتها فى متحف لوندره.

(الصديق)- ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة!! تراكمت القرون، وشاب فود الدهر، وتغيرت الأرض، واندثرت المعالم، فى كل زمان ومكان، والإنسان هو لا يزال على غيه، يعتقد لأعماله البقاء، ولآثاره الخلود، لا فرق فى هذا الاعتقاد بين الأشورى عند برج بابل، والفرنسى اليوم تحت «برج إيفيل»، كلاهما يتعب ويشقى، وكلا العملين لا يدوم ولا يبقى، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر.

كل بيتٍ إلى الهدم ما تبتنى الـ ... ورقاء والسيّد الرفيعُ العمادِ

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السِّد ... رِ ضرب الأطناب والأوتاد

(الحكيم)- نعم صدقت، ويحضرنى فى هذا الباب محاورة ابتكرها أحد قدماء العلماء، وأجراها فى عالم الأموات على لسان «ديوجين» الفيلسوف الزاهد القديم، والملك «موزول» صاحب ذلك المدفن الشهير، وأذكر منها:

(ديوجين)- مالى أراك أيها الرجل الأسيوى مختالاً تياهاً فى أكفانك! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضاً بين الأموات منزلة أشرف من منزلتهم، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكاناً علياً.

(الملك)- وهل منْ شك فى ذلك أو ارتياب! ومتى تساوت الملوك بالسوقة! وأنا أكبر الملوك ملكاً وسلطاناً، وأحسن الخلق بهاءً وجمالاً، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالاً، وقد كنت فى الحياة أرفع ذوى التيجان عرشاً وقدراً، وأنا اليوم فى الممات أعظمهم مدفناً وقبراً، وإن افترى مفتر منهم أنه كان يساوينى فى فخامة الملك، فقد انقطعت ألسنتهم أن يكون لهم مثل هذا القبر، فهو معجزة البشر فى النقش والحفر، وآية الدهر فى المجد والفخر، فهل ترى بعد ذلك أيها المتقشف فى الدنيا والمندثر فى الآخرة أن ليس من حقى التخايل والترفع!

(ديوجين)- ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالك

أكثر مما بقى لى، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتى بشىء، فكلتاهما مثقوبتا العينين، مفحورتا الأنف، بارزة الأسنان؛ وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك، فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دفن فى بلقع من الأرض، وإنما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حيناً من الدهر، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره، وتزول آثاره.

(الملك)- ما هذا الذى أسمعه، يارب الصواعق والرواعد!! أيذهب كل ما أوتيته من أسباب العز والمجد متاعاً باطلاً، وأصبح مساوياً لديوجين، فيوسعنى تأنيباً وتبكيتاً؟

(ديوجين)- لا تقل أيها المخلوق إنك أصبحت مساوياً لى، فشتان ما بينى وبينك، فإنك لا تنفك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة، وأما أنا فلا يحزننى شىء، ولا يكدرنى الآن مكدر، ولم أترك فى الحياة شيئاً آسف عليه، ويوجعنى فراقه، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوماً لكان للاغتباط بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض أوسع لى مجالاً وأحسن منزلاً، ولكن لى فى قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً، وأثراً من الفضائل خالداً، لا تمحوه الأيام، ولا يبلى ببلاء الزمن، فأين مكانك أيها المغرور من مكانى، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى؟

(الباشا)- ما أحكم الموعظة وأجل العبرة!!

(الحكيم)- ولو علمتم أن «المسيو إيفيل» صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسجن فى قضية «بناما» الشهيرة، لاشتد بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار.

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائعها بآلاتها وأدواتها، من بطن الأرض إلى سطح البرج متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسنى مراتبها، فإن كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم، فقد كفاكم ما شاهدتموه، مما يملأ الصدر مهابة والعيون حسناً، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم، فقد رأيت فيكم من حسن العشرة، ولطف الخلطة، وذكاء القريحة، ودقة الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل فى كثير من أهل الشرق، وإن كان فى نيتكم الإقامة زمناً بيننا، وكان الميل فيكم شديداً لاستطلاع العالم الأدبى، بعد العالم المادى، فى هذه الحضارة الغربية، وأحببتم الوقوف

على ما تجرى عليه أحوال الجمعية البشرية، وما تدور به المعاملات فى المعايش والمرافق وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات، ويتسلط عليها من الطباع والعادات، فأنا حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأنس بكم، ولذة النفس في مباحثتكم ومناقشتكم(١).

قال عيسى بن هشام: فحبب إلينا البقاء بكلامه، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه، وصادف رأيه لدينا حسن القبول، ففضلنا الإقامة على القفول، وبهذا انتهينا من زيارة معرض النفائس والأعلاق، لنبدأ بالنظر فى معرض الأطوار والأخلاق.

---

(١) م. ش ١٢٣: ومناقشاتهم. بنو آدم يطلبون الثراء   أهل الوهود وأهل الذرى

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام: وأقمنا مع صاحبنا «الحكيم» نهتدى فى سيرنا بهديه، ونستضىء بنور فكره ورأيه، ونتبعه الإبل لحاديها، والرفقة لهاديها، ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا، وأنزله على موافقتنا، وقضينا معه الليالى والأيام، منذ انتهينا من المعرض العام، وكأنها حلم من الأحلام، يتنقل بنا فى الأندية الحافلة، والمجالس الآهلة، ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات، بين مختلف أهل الطبقات، فيعلو بنا تارة إلى مراتب الخاصة والعامة[1] ونسفل معه أخرى إلى أدنى منازل السوقة والعامة، فاليوم مع كبار الرجال والأمراء، وغداً بين شرذام الصناع والأجراء، ثم نتحول من محادثة أرباب القصور العالية، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية، ومن منابر الوعظ والخطابة إلى مجامع نوى الدعارة والدعابة، ومن أروقة العلماء والفضلاء، إلى أزقة الأوباش والسفهاء، ومن جمعيات العلوم والمعارف، إلى حانات المراقص والمعازف، حتى لم يبق مجتمع تختبر فيه الفضائل والرذائل، وتسبر فيه الطباع بين الأعالى والأسافل، إلا لدينا طرف من خبره، وعلم من أثره، باحثين فى العلل والأسباب، مستشفين لما وراء الحجاب، إلى أن أدركنا الشتاء بخيله ورجله، وجليده ووحله، ورعوده وبوارقه، وعواصفه وصواعقه، وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام، وانسدل على العالم ستر الظلام، وأصبحنا نستضىء بمصابيح الكهرباء، من الصباح إلى المساء، وانطلقت فى الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطلاء، فعقدت سحباً أخرى تحت سحب السماء، وتدفقت السيول والأمطار، طول كل ليلة وكل نهار، حتى أغرقت الغدران والأنهار، فطغى الماء بمثل الطوفان، وسال فى الأودية والبلدان، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرض المنازل والمساكن، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن، فانزوينا فى الغرف والحجرات، نقضى بها جميع الأوقات، وكأنما نحن فى العذاب، نعذب تارة بنار الاستدفاء، وتارة بزمهرير الشتاء، وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر، بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبر وأثر، وكان «الصديق» بيننا كعهده، يرسل علينا القول إرسالاً، ويذهب فى حدة انتقاده يميناً وشمالاً.

---

(١) هذا الفصل الأخير من «حديث عيسى بن هشام» عبارة عن ملخص شديد لثلاث مقالات منشورة فى أعداد ١٩٢، ١٩٣، و١٩٦ من مصباح الشرق ١٤ فبراير ١٩٠٢- ١٤ مارس ١٩٠٢.

ويذكر من أسواء المدنية الغربية ما يهول السمع، وينزف الدمع، حتى استفز «الحكيم» للرد عليه، وتهوين ما ذهب إليه.

(الحكيم) للصديق- لقد أسرفت أيها «الصديق» في القول، وغاليت في الوصف، وإن كان في بعضه الجانب الصحيح، والحق الصريح، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسن، كما إن لها الكثير من المساوئ، فلا تغمطوها حقها، ولا تبخسوها قدرها، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم، ويلتئم بكم، واتركوا ما يضركم، وينافي طباعكم، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها، وعظيم آلاتها، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين، وشره المستعمرين، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم، وتمتعوا في رخاء بلادكم، وسعة أرزاقكم، واحمدوا الله على ما آتاكم.

قال عيسى بن هشام: ولم يبق لنا يد في هذه الحال، من السفر والانتقال، فاستخرنا الله في العودة إلى ديارنا، والأوبة إلى أوطاننا: والحمد لله باطناً وظاهراً، أولاً وآخراً.

فصول من حديث عيسى بن هشام

نشرت فى مصباح الشرق

فصل من "حديث عيسى بن هشام"
فى مصباح الشرق
٨ سبتمبر ١٨٩٨

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر

حدثنا «عيسى بن هشام» أنه رأى فى المنام ثلاثة من الحكام يتحادثون على الطعام فنقلنا رؤياه على ما تراه.

بطرس: (متظرفاً متخففاً متألقاً متأنقاً) أين الخطباء السابقون، والبلغاء الأولون، والشعراء النادحون، والفصحاء والواصفون واين ابن الوليد وأبو تمام والفرنوسى والخيام وأوريبيدس وميروس وهوارس وفيرجيليوس، يصفون لنا نصيبنا من هذا الانتصار، وحظنا من هذا الافتخار، ويدونون لنا حسن الذكر فى سجل الزمان، ويبيضون صفحات تاريخنا بفتح السودان، وما أشبه حال السردار فى هذا المضمار، معنا معشر النظار بحال يوليوس سيزار، لما أرسل خبر انتصاره السريع من آسيا، إلى مثل مجلسنا المثلث فى روميا، فى ثلاث كلمات بينات موجزات:

"وصلت، رأيت، نتصرت"

مظلوم: (منذهلاً منبهتاً مندهشاً منبهراً) سألتك يا صاحبى بالله؟ ما هذا اللاتينى الذى تنطق به وما معناه؟

بطرس: ليس هو بلاتينى ولكنه عربى فصيح، يقتضيه الوصف، المديح، فى الكلام عن الفتوح والغزوات، والوقائع والغارات، ولكن الأجدر والأحرى، أن أعبر لك عنه بعبارة أخرى:

عاد	لمصرك	خرطومها
٧٥	٢٨٠	٨٦١

فقد وافانا السعد، وأسعدنا الجد، فجعل فتح السودان فى مدة حكمنا الميمون

المنظوم، وذهب الظالم مظلوم، فسبحان المنعم الذى أخر لنا هذه المواهب، وتفضل علينا بحسن العواقب.

مظلوم (واجماً وجوم شحيح مناع فى الترب خاتمة): فقد فهمت أنك تتكلم عن السودان، ولكن ما معنى هذا الابتهاج والاستحسان، الذى جعلك تسجع بسجع الكهان، وأية فائدة تعود علينا معشر نظار مصر، من هذا الفتح ومن هذا النصر؟

بطرس (تائهاً معجباً): فائدتنا منه أننا نصبح نظاراً على أربعة وعشرين مليوناً من النفوس، وينوه باسمنا فى أقطار شاسعة، ومملكة واسعة، أرضها بكر، وترابها تبر.

مظلوم (محتقراً مزدرياً): لا أرى فى كل هذا من فائدة، إلا إذ زاد مرتبنا على نسبة البلاد الزائدة.

بطرس (متضجراً متأففاً): عفا الله عنك ماذا تريد من زيادة المرتب وهم يعترضون عليها وينتقدون، ويلومون ويندبون، لقلة ما نعمله، وجسامة ما نتناوله، ولكن إن كان ولابد من فائدة جوهرية، فأمامنا هناك سهام الشركات الإنجليزية.

مظلوم (يفترعن لؤلؤ رطب وعن برد): ومن لنا بالعلم بهذه الشركات وسهامها؟

بطرس: ألم تعلم أن هذه الشركات لا يمكن لها أن تستعمر مصر، وتعقد الشروط عندك فى المالية ما دامت راية مصر خافقة فى أفق السودان.

فخرى (مهموماً مغموماً): أرجوك أن لا تذكر أمامى لفظ الراية فانى أقشعر من ذكرها ويكفيكما ما أنتما فيه من الأمانى والآمال، وما أنا فيه من الهموم والأحزان، فقد قدر الله على أن أتولى الوزارة مرتين، مرة أصيلاً يوماً واحداً، ومرة وكيلاً أياماً، فأما الأصيل فقد كتب على مصر فى ذلك اليوم أن لا تعمل عملاً ولا تغير وزارة إلا بمشاروة المحتلين وسجل عليها ذلك فى الكتاب الأزرق، وأما الوكيل فقد كان ما كان من رفع الراية الإنكليزية على السودان.

بطرس (مهوناً مسلياً): خفض عليك وهون، فإن كان بعض من لا يعلمون عويصات الأمور من السياسة يرون فى نظارتيك ما تراه، فإن الواقفين على الحقائق يعترفون لك باليد البيضاء على كل ناظر من النظار، إذ كنت السبب فى دوام هذه النظارة

وعدم التعرض لها بشيء ما دام المحتلون راضين عنها، وما أسهل رضاء المحتلين على النظار فهم خالدون ما خلد الاحتلال، أما الراية الإنجليزية فإنها رفعت في أثناء الصلاة على روح غوردون إحياء لذكره لا إلحاقًا للسودان بالإنكليز فليس عليك في الحالتين من مضاضة، ولا في وزارتيك لدينا من مضاضة.

مظلوم (متطلعاً مشرئباً): ومن أين جاءكما الخبر برفع الراية الإنكليزية على الخرطوم وما أتانا به نبأ رسمي؟

بطرس: جاء الخبر في عرض تلغراف الرداد الذي أرسله إليّ قائد جيش الاحتلال فتلقفته الجرائد، وأخذت في التشنيع عليه والتوسيع فيه كعادتها فحصل لنا العلم به.

فخري: ألا تنظران أيها الناظران إلى حزم الإنكليز وحكمتهم؛ فقد عضوا بالنواجذ في جميع أعمالهم على قول من قال "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" فهم يعملون أعمالهم بينهم في الحكومة المصرية في أخفى من دبيب النمل، فلا يصل إلينا علمها إلا في نعاق الجرائد والناس يظلموننا بأننا داخلون في سرهم ونجواهم.

مظلوم: ومالنا ولهذا العلم وماهيته إذا خلص الناظر منا بماهيته؟

فخري (متأسفاً متحسراً): ويل للشجي من الخلي، لو كنت مثلي ممن لاك بين فكيه حلاوة الأمر والنهي في نظاراتنا قبل الاحتلال، لعلمت أن حرماننا من أخبار الحكومة ونحن الحكام يذهب باحترامنا عند البسطاء المغفلين.

مظلوم (مستغرباً متعجباً): ما هذه الحلاوة التي كنت تذوقها؟

فخري: هي أن يفد على بابك الوافدون ويقصد رحابك القاصدون.

مظلوم (جزعاً فزعاً): لا، لا، دعني وحقك من هذه الحلاوة فهي في الحقيقة مرارة وخسارة.

فخري: إن ما تفزع منه من كثرة الوفود على بابك وازدحام القصاد حول رحابك، لا يذكر في جانب خضوع الرقاب إليك وتراميهم على قدميك وتطاول الأعناق للرجاء إليك وامتداد الآذان لسماع كلمة من فيك، ثم اعلم أني لا أطمع في سهام الشركات ولا في

زيادة المرتبات بل اكتفى بمثل بيت العباسية الذى يحاكى بين قصور الجيران بيتاً من بيوت أم درمان، ولا أتطلع أن يضاء بالكهرباء ولا أن يكون على مائدتى الهليون والهندباء وإنما لذتى الدنيوية فى تلك اللذة المعنوية.

مظلوم: يظهر لى من تزهدك وتقشفك وتولعك بهذه اللذة المعنوية أنها لذة تفوق اللذات، فما هى الطريقة التى توصلنا إليها وتقدرنا عليها؟

فخرى: أما الأمر والنهى فقد مضى لسبيله ولم يبق إلا أن نعلم علم الحكومة قبل الناس وغاية ما فى الوسع اليوم أن نسأل الله إلهام المحتلين بأن يوقفونا على أخبار حكومتنا قبل أن تقف الجرائد عليها الجميع – آمين.

بطرس (وهو خارج يناجى نفسه هازاً كتفيه): إن أمر الراية لخطب كبير والخلاص من مسؤوليته عسير، ولكن كم سمعنا وكم رأينا ركم خلصمنا وكم نجونا.

وإذا كان بطرس بولس مأمور خزينة الخرطوم عند قتل غوردون ومن معه كان المفرد الوحيد الذى خلص من فتك الدراويش فلا يصعب على بطرس غالى أن يتخلص من مثل هذه الملاعب التى يسمونها فى السياسة بالمصاعب.

من مصباح الشرق ٢٣

٢٢ سبتمبر ١٨٩٨

للحرب قــوم أضـل الله سعــيهم إذا دعتــهم إلى حوماتها وثبــوا

ولســت منهــم ولا أهـوى فعالهـــم لا القتل يعجبنى منها ولا السلب

حدثنا «عيسى بن هشـام» قـال: بلغنا أن بعض ذوى الأقلام رأى أحد نظارنا العظام يدور فى ساحة حمّام من حمامات المياه المعدنية فى البلدان الأجنبية، فاستدل من تبختره فى مشيته أنه ناظر حربية فى بلدته للخبر المشهور والقول المأثور عن مشية التبختر، إنها مشية مكروهة فى كل مكان إلا فى ساحة الحرب والطعان، فقصده قصد سائل أخبار لا سائل درهم أو دينار، قائلاً فى نفسه الآن استقى الخبر من عينه واستخرج الأمر من معدنه وما لا خوانى من مكاتبى الصحف والجرائد يهيمون فى الفيافى والفدافد، وما لهم وللسير فى نار الهجير، يهجرون الأقارب والآل ويسبحون فى بحور من الآل ليس لهم من شراب إلا من السراب، ولا طعام يصاب إلا من الصاب، ولارقاد إلا فوق شوك القتاد، ولا مسافة ظل إلا ظل البنود تخفق بين الجنود، يدورون مع الجيش فى المفاوز والغابات دوران الأذريون من النبات والحرباء من الحيوانات، حول قرص الغزالة فى الأفق الران تغيب فى الشفق، حتى إذا التحم القتال واحتدم النزال وتصارعت الأبطال وتقارعت الرجال وأقبلت الآجال تفترس الآمال وتقطع الأعمال وهم يتطلعون طلع الأخبار كما يتطلع المسهد إلى ضوء النهار، انكشفت الملحمة عن القتيل منهم والجريح والذبيح والطريح، ولكن نعم ما أحسن على به الحظ وجاد، وأسعفنى به اليمن والإسعاد وأبلغنى المراد على غير ميعاد فأنقذنى مما أصاب أصحابى من الحمام، وجعلنى أصيب غرضهم وأنا فى نعيم هذا الحمّام وهكذا الدنيا يسعد فيها المقيم المكسال، ويشقى من يشد الأزمة والرحال. ثم تقدم إلىَّ الناظر بعد أن سلم فقال:

المكاتب (متحمساً): فقد دلتنى مخايلك وشهدت لى شمائلك أنك مصرى من رجال الحرب فهل لك أن تسمح لى بمحادثتك وتجيبنى إلى محاورتك لأنشر عنك فى الجرائد من أمر السودان ما يرفع ذكرك ويعلى قدرك ؟

ناظر الحربية (شامخاً بانخا): أنا ناظر الحربية المصرية.

المكاتب (مستبشراً مستخبراً): لاشك أن عهد سيدى الناظر ببلاده غير بعيد، وأنه لم يحضر إلى هذه البلاد لترويح النفس إلا بعد أن قاسى أعظم المشاق وعانى أكبر المصاعب فى فتح البلاد السودانية.

الناظر (متحيراً متوجساً): نعم حضرت إلى هنا ولكن قبل الفتح بشهرين.

المكاتب (متعجباً): وكيف يصح ذلك وكيف يجوز لناظر الحربية أن يترك الحرب وتدبيرها وهى مشتعلة فى بلاده وينسحب عنها نازحاً متروحاً؟

الناظر (محتجاً): لا عتب على ناظر الحربية فى ذلك فإنه يباشر جميع أعماله وهو بعيد عن بلاده كما أن قائد الجيش الذى يدير حركته يكون وراء الجيش.

المكاتب: نعم إن مركز القائد وراء الجيش لا يمنعه من إدارة الجيش ومعرفة حركاته فهل تصلك الأخبار فى أوقاتها كما تصله فى أوقاتها؟

الناظر (مفتخراً): اعلم أن لى وكيلين على الحربية ناظر المالية ووكيل الحربية وهما لا يغفلان عن إرسال الأخبار إلىَّ فى أوقاتها من سان ستيفانو.

المكاتب (مستفهماً): سان ستيفانو؟ وهل فى البلاد السودانية ما يطلق عليه هذا الاسم؟!

الناظر (مستدلاً متمثلاً): ليس هو من البلاد السودانية وإنما هو محل حمامات فى الإسكندرية، وأنت تعلم أن تلغراف الشيفرة لا يبعد عليه مكان ولا يمضى عليه زمان، وإذا كان لاعب الشطرنج يلعب مع آخر من بلده وهو فى بلدة أخرى وميدان الحرب هو أصل الجد المأخوذ عنه هذا اللعب، فهل يعتريك شك من وصول الأخبار إلىَّ بهذه الطريقة؟

المكاتب: إذن خبرنى ما هى أخبار اليوم؟

الناظر: اليوم هواؤه عليل ونسيمه بليل وسماؤه صافية وشمسه زاهية.

المكاتب (باسماً): لكم الله معشر الشرقيين ما أقدركم على التقليد وما أسرعكم

فى محاكاة الغربيين، فقد كنا نعتقد أن أمراءنا ووزراءنا انفردوا وحدهم بفن المراوغة والمحاولة للتخلص من مكاتبى الجرائد حين يتفننون فى استكشاف الأخبار من مكامنها من صدورهم، فهل لك أيها الناظر أن أتنازل لك عن مهارتى فى فن التحايل، وأن تنزل لى عن دهائك فى فن المحاولة والمراوغة فلا يضيع الوقت بيننا، فإذا رضيت فأخبرنا عن رأيك فى التعايشى.

الناظر (متكهنًا): إذا ذهب التعايشى إلى كردفان فإنه فان، وإن خلص إلى دارفور فهو معفور، وإن عاد إلى أم درمان فلا أمان، وإن رجع إلى الخرطوم وسم على الخرطوم.

المكاتب: لم تزدنى يا سيدى شيئاً فى أمر التعايشى عما كنت أعلمه، ولا ألح عليك فى كشف الخفى من أمره فإن لك الحق فى كتمانه، وربما كانت الإباحة به مما تحول دون القبض عليه، فأنا أترك لك ذلك وأطلب منك أن تخبرنى عن النبأ العظيم والحادث الكبيرفى توجه السردار إلى فشودة.

الناظر (مستهيناً): أمر السردار فيها بسيط فإنه يريد الرجوع إلى مصر ليتمتع بذلك الانتصار ويستريح برهة من عناء تلك الأسفار.

المكاتب (متأسفاً): أراك لاتزال على محاولتك لى.

الناظر (معتذراً): أقسم لك بكل يمين أن مثلى لا يعين بعد الاتفاق على نبذ المحاولة والاختلاق.

المكاتب (مستنكراً): كيف تقول أن الأمر بسيط وهو نبأ عظيم وحادث كبير يهتم له وزراء السياسة عموماً ويهم نظار مصر خصوصاً؟ وكيف تقول إن السردار بعد فتح أم درمان ليتم فتح السودان فإنها قريبة من منابع النيل.

الناظر (هازئاً ضاحكاً): أراك تخطئ فيما تقول والخطأ بين فى عبارتك، فإن فشودة مادامت واقعة على منابع النيل فلابد أن تكون واقعة عند الشلال حيث يبنى الخزان هناك.

المكاتب (مندهشاً ساخطاً): لم أخطئ أيها الناظر، ولكنى أراك قد خرجت من

طريق المحاول إلى طريق المتجاهل فإن فشودة واقعة بعد أم درمان على النيل الأبيض على مسافة تزيد عن الأربعمائة كيلو، فاصدقني عما تعلمه من أمرها وأمر مرشان (ومرشان كلمة فرنسية معناها بائع).

الناظر (متخلصاً): الآن ظهر لنا معنى تصريح السردار على فشودة لأجل هذا المرشان ديسكلاف (بائع الرقيق فإن إنكلترا هى الدولة الوحيدة التى اشتهرت بالدخول فى كل الأقطار لمنع الرقيق).

المكاتب (متضجراً): لقد أعيانى الأمر معك أيها الناظر فمرشان رجل فرنسوى حضر مع حملة فرنسوية ليستولى على بعض الجهات القريبة من منابع النيل لتمنع إنكلترا من الاستيلاء على السودان كله.

الناظر (متذكراً مستدلاً): نعم ذاك الرجل خاب فى مسعاه إذا تعطل فى طريق الحبشة فرجع ولم يحتل أرضاً فى السودان.

المكاتب (محتداً منفعلاً): واحسرتاه أنا أتكلم عن مرشان وهو يتكلم عن بونشان.

الناظر (مختصراً): لا تحتد أيها المكاتب ولا تشتد، فأنا أقول لك عن جلية الأمر، وفصل الخطاب فى كلمتين إن كنت تتكلم عن مرشان فالسردار يقصده لمنع الرقيق فى السودان وإن كنت تتكلم عن بوشان (وهى كلمة فرنسوية أيضاً معناها المزرعة الجيدة) فقد توجه السردار إلى فشودة لاختيار الأراضى الصالحة للزراعة والاستيطان.

المكاتب (ممزقًا لثيابه خارجاً من أعصابه): اعلم يا حضرة الناظر أن مرشان وبونشان من أسماء الأعلام لا أسماء المعانى كما تسمون مظلوماً وغالياً وعبانياً وليس ثمت ظلم ولا غلاء ولا جمال ضخام، وكما تقولون ناظر حربية وليس له نظر فى حرب ولا علم بقتال، فما أسوأ بختى وأضيع وقتى جئت متعلماً فأصبحت معلماً وصرت بعد أهوال هذا الجدال جسداً أخوانى أمام الموت فى ساحة القتال فقد نالوا المآرب بعد المصاعب، ونلت المصاعب قبل المآرب وخرجت خالى الوفاض من نيل الأغراض، وهكذا تكون عاقبة من اعتمد على التقاعد ولم يشمر فى أموره على الساعد.

من مصباح الشرق ٢٤ - ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨
ثلاثة فى واحد، وواحد فى ثلاثة

حدثنا «عيسى بن هشام» قال: بلغنى من نائب القائمقام أنه زاره خليط من خلطائه وصفى من أصفيائه، فلما دخل عليه متطلعاً طلع أخباره وجده مطرقاً لتزاحم أفكاره مقطب الوجه عابساً ظاهر القنوط يائساً، يتلألأ العرق على جبينه فيمسحه بشماله ويمينه ثم يزمجر فى نفسه ويهمهم ويجمجم ويدمدم، فأخذ الزائر فى سؤاله عن أمره وحاله:

الزائر: ما لى أرى النائب غريقاً فى بحر الأفكار مستسلماً للأحزان والأكدار وليس من جديد يقضى بهذا الهم الشديد؟

النائب: (مشتغلاً بحاله غير ملتفت إلى زائره وسؤاله)....

الزائر: لعل النائب يقدح فكره فى كشف مايكون من نتيجة المخابرة بين الدولتين فى مسألة فشودة.

النائب (متهاوناً مستصغراً): ذلك أمر يهم الجرائد.

الزائر: لعلك تفكر فيما يؤول إليه الأمر فى مسألة رفع الراية الإنكليزية.

النائب: هذا يشغل آستانة ولوندرة.

الزائر: أظنك تشتغل بمخابرة الجناب العالى للاحتفال بقدوم الإمبراطور.

النائب: هذا لغابريسيوس.

الزائر: كأنى بناظر الأشغال يدير طرق الوقاية من فيضان النيل فى هذا العام.

النائب: هذا لمشايخ البلاد.

الزائر: عساك تجتهد فى استنباط عذر لبيع سكة حديد السودان.

النائب: وهذا مما يعنى به سوارس وليس بى مما ذكرت من هذه الأمور العمومية شيء وإنما هو أمر خاص بى.

الزائر: يجوز أن يكون الخواجة "رولو" سمح أن يبيعك بيت باب اللوق بمبلغ الثلاثة آلاف جنيه الذى قدرته له عندما طلب فيه اثنى عشر ألف جنيه.

النائب: لا هذا ولا ذاك، وإنما الذى أوجب همى وحزنى هو انقضاء زمن الحكم أولاً وانتهاء أمد النيابة عن القائمقام ثانياً ولم يبق إلا البحث عن طريقة تخلد لى ذكرى هذا الحكم فأتلذذ به فى خلواتى ويلبس له أعقابى ثوب فخرى بعد مماتى.

الزائر: نعم الفكر لتخليد الذكرى.

(وهنا يعود النائب إلى قدح القريحة كما كان وبعد هنيهة ينتفض جذلان فرحاً مبتهجاً منشرحاً ويصيح قائلاً: "وجدتها" كما قالها أرخميدس من قلبه).

الزائر (متشوقاً متطلعاً): ما هذه الخبيئة التى وجدتها والرغيبة التى نلتها؟ فأراك قد لمعت أسرتك وأحرقت غرتك.

النائب: ثلاثة فى واحد، وواحد فى ثلاثة.

الزائر: لِمَ لَمْ تخبرنى فى أول الأمر أنك تبحث فى مسألة من الهندسة أو الجبر؟

النائب: نعم ثلاثة فى واحد، وواحد فى ثلاثة.

الزائر: فهمت ولكن ما هى هذه المسألة التى تحار فيها الألباب وتخلط بين تخليد الذكرى ومسألة الحساب.

النائب: ستفهم الآن مرامى بهذا الذكريتو الذى تراه أمامى.

الزائر: لم تزدنى فى الأمر إلا تعمية وإبهاماً.

النائب: هاك ما يكشف لك المعمى.

يتناول القلم ويسطر به على قرطاس، ثم يدفعه إليه فإذا هو الأمر العالى تعيين رئيس قومسيون السكة الحديد وقد أمضاه على هذه الصورة:

بأمر الحضرة الخديوية عن رئيس مجلس النظار.

فخرى فخرى

ناظر الأشغال العمومية فخرى

الزائر: أما خطر لك أن الناس فى مستقبل الدهر يظنون أنه كان فى الحكومة المصرية ثلاثة من الحكام بهذا الاسم فى آن واحد.

النائب: وهل تظن أن الدهر يسمح فى آن واحد بثلاثة من مثلى، أما سمعت قول الشاعر:

هيهات أن يأتى الزمان بمثله

إن الزمان بمثله لبخيل

الزائر: سبحان من هداك وأرشدك إلى الاختراع فهو أشبه بالمرآة الثلاثية يرى الناظر فيها نفسه ثلاثة فى وقت واحد.

من مصباح الشرق ٣٠ - ١٠ نوفمبر ١٨٩٨

النظار والمساواة

حدثنا «عيسى بن هشام» قال: رغبت فى سماع الكلام من أفواه العوام، عما فى الحال العام من خلل ونظام، وحرب وسلام، واختلاف ووئام، فعمدت إلى سوق لا تستقر فيها الأقدام من شدة الزحام، فوجَدت معرض أيمان لا معرض إيمان كل يحلف ويحنث، ويبحث ويبرم، وينكث لترويج سلعته وبيع بضاعته، فلم أحظ من غرض بطائل، ولم أرجع من مقصدى بنائل، فعدلت عما نويت ورجعت من حيث أتيت، فصادفت فى طريقى مركبة الكهرباء تسير سير الفضاء فى نزوله من السماء، فركبت فيها فوجدت صنوفاً من الناس مختلفى الأشكال والأجناس والوجوه واللباس وهم بين واقف وقاعد، ونازل وصاعد، وامرأة وطفل، وزوجة وبعل وأحيف وحيفاء، ودميم وشوهاء، ومخمور ونشوان، ومخدر وسكران، وكلهم فى همس وصياح، ونزاع وارتياح، وخلاف فى دفع الأجرة واتفاق فى رد التذكرة مع مطالعة جرائد، ومغازلة خرائد، وبجانبى رجل يملأ العين فخامة والمكان ضخامة، هذبت السذاجة طبعه ومزاجه، وهو لاهٍ باستماع ما يقال فى مكاشفات الأحوال، فيستر وجهه بمنديل كلما أضحكته تلك الأقاويل، ومما أعجب به وأخذ بلبه اشتداد الخصام بين راكبين متزاحمين حتى سب أحدهما الآخر، وشتمه ولكمه ولطمه، وكاد يقضى الأمر إلى مناداة الشرطة من النقط، لولا أن السائق أفهم المشتوم السر المكتوم، وهو أن الشاتم ممن يجب له الاحترام والاعتبار لأنه خادم لأحد النظار فأخذ المشتوم يعتذر ويتودد والشاتم يتكبر ويتمرد، وبينما نحن نسير إذا أوقف المركبة الصفير وإذا برجلين يتسامران وهما سائران أحدهما راكب دراجة والثانى قد نفخ المشى أوداجه، فما أن وصلا إلى المركبة حتى قام لهما مكاتفى احتراماً يستقبل منهما تحية وسلاماً، فامتطى الماشى كرسى الترامواى امتطاء صهوة الجواد فعل الفارس فى ميدان الجلاد والطراد، وبقى صاحب الدراجة يساير المركبة بجانبنا فصرت بينهم، ولم أدر من هم حتى ظهر لى من تهاديهم تحية الإمارة وأنهم من نوى النظارة، وعلمت من حديثهم أن الراكب الأول بجانبى وكيل الحقانية والماشى ناظر الحربية والدارج ناظر المالية، وإليك ماسمعته من محادثتهم والتقطته من محاورتهم تارة بعربيتهم وأخرى بفرنساويتهم.

وكيل الحقانية لناظر الحربية: كيف تمشيان وتدرجان على هذه الحال وأين خيلكما ومركباتكما؟

ناظر الحربية (متهللاً مرحاً): وقع الحجز عليهما من نظارة المالية.

وكيل الحقانية (وهو يكاد يسبغ ريقه من الدهشة): وكيف يقع الحجز على مركبة ناظر المالية وهو الحفيظ على خزائن الأرض، وعلى مركبة ناظر الحربية وبخيله ورجله فتح السودان.

ناظر الحربية: إننا قد أغفلنا إعطاء العوائد عليها فأراد المحتلون أن يظهروا للملأ عدلهم بإطلاق المساواة بيننا وبين كافة الناس، فبادروا بالحجز عليها وبادرنا إلى المسابقة فى غرضهم فأعلنا ذلك بمشينا فى الشوارع والأزقة وركوب الترامواى إخلاصاً فى الموافقة على ما يريدون ونزولنا إليهم بفعل ما يشتهون.

وكيل الحقانية: لقد حق لنا السرور والفرح بهذا فقد أعاد لنا المحتلون ما نسمع به من المساواة فى صدر الإسلام من نزول الأمراء الى درجة الرعية، وما يفرق ركوبك الترامواى عن ركوب مروان الحمار عند دخوله الشام فى خلافة أبى سفيان بن هشام حين اعترض على موكبه ومخالفة المساواة به.

ناظر الحربية: قل لى بالله فى أى كتاب وجدت هذه الحكاية؟

وكيل الحقانية: لم أنقلها عن كتاب حيث لا وقت عندى لقراءة الكتب، وإنما سمعته موثوقاً بها من منقولات الناظر عن شيخه الحداد.

ناظر المالية (ملتفتاً فوق دراجته يميناً وشمالاً): ذكرتم شيئاً وغابت عنكم أشياء فإنه يدخل فى حسابكم الفائدة التى تفوق فائدة الطاعة فى أمور المساواة، وهى صعود قيمة الأسهم فى شركة الترامواى إذا ركبنا فيه فإن الناس يتزاحمون للركوب فيه صغيرهم وكبيرهم لمشاهدتنا ومماثلتنا والركوب بجانبنا فتصعد أسعار السهام فيربح كل من أناله الحظ نصيباً منها.

ناظر الحربية: نعم الفكر ونعم الفائدة لو أن شركة الترامواى تعجل باستحضار ما وعدت به من مركبات الدرجة الأولى لنا من فيها من مخالطة العامة وسماعها ماعساه يجرى بيننا فى ركوبنا من مداولاتنا فى أعمال الحكومة المصرية.

وكيل الحقانية: المركبات من الدرجة الأولى لابد من الزحام فيها أيضاً.

ناظر الحربية: إن الذين يركبون فى الدرجة الأولى هم من الطبقة العالية، ولابأس أن يقفوا معنا على بعض هذه الأسرار إنما الخوف من العامة الذين لا يقرأون الجرائد.

ناظر المالية: أرى أنكم كلما وقفتم على فائدة أغفلتم أخرى ألم تعلموا أن ركوبنا فى الدرجة الأولى يزيد عن أجرة الدرجة الثانية وحسن الاقتصاد يحرم هذا الإسراف.

ناظر الحربية: لا تظن أننا نسينا هذا الاستدراك وعندنا مثال فى دوائه وهو أن سعادة فخرى باشا ناظر الأشغال العمومية والمعارف العمومية كان إذا ركب سكة حديد الرمل إلى الإسكندرية قطع نصف تذكرة فإذا سأله مفتش القطار فى ذلك أفحمه بقول: "إنى ناظر ولى الحق فى الركوب بالنصف والمعافاة من النصف الآخر" ولا شك أن شركة الترامواى تكون أخضع فى هذا الباب من شركة سكة الرمل.

قال الراوى: ولما دنا وقت الافتراق نزلت ونزلوا، وانصرفت وانصرفوا، وتركتهم فى آمالهم من الربح والتزلف والاقتصاد وتركونى بما سمعت من محاورتهم فائزاً بالغرض والمراد من امتياز الشاتم على المشتوم ومساواة الحاكم بالمحكوم.

مصباح الشرق ٤٠

١٩ يناير ١٨٩٩

التزام حكومة السودان

حدثنا «عيسى بن هشام» قال: سمعت حديثاً عن أحد النظار فى المسألة التى تشغل اليوم الأفكار إذ قصده مُكاتب جريدة ليستنير بآرائه السديدة ويستمد من أخباره المفيدة عن الحكومة الجديدة حكومة آخر الزمان فى بلاد السودان، فرأيت أن أعجل بنقله إلى القراء لغرابته قبل الرجوع إلى حديث الباشا فى محاكمته.

قال المكاتب: سألت عن الوقت الذى يكون فيه ناظر الحربية فارغ القلب فارغ البال فارغ اليد من الأشغال والأعمال، فقالوا لى هكذا يكون الناظر عند تأدية وظيفته فى نظارته ودست إمارته، ولكنهم بالغوا لى فى حزمه وكتمانه وقدرته على حفظ لسانه، وكم أعاد مثلى من قبل بالمنع والحرمان والخيبة والخذلان فلم ألتفت إلى مقالتهم ولم أعبأ بإشارتهم، ونكرت فى نفسى أن الرجل ربما كان يمتنع عن أرباب الجرائد الذين يخشى انتقادهم فيأبى مساعدتهم وإمدادهم غامٍ عن قصد متظاهراً بنية المطرى المادح لينتصر له على المنتقد القادح والعادق المخلص ليعينه على الكاذب المتخرس، فلا مكان لكتمانه عن ما يغلى فى صدره من باطن أمره وخفى سره، ووجه عذره ولكل امرئ ولع بعذر يبديه فيما يفعله ويأتيه، فقصدت النظارة فاستأذنت على الناظر فرفع لى الحجاب فدخلت فوجدته مستدير الباب مستقبل مستوقد النار للاصطلاء من برد الشتاء:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

فوقفت مكانى وهو ذاهل لا يرانى، فرأيته يشير بيديه ويضرب الأرض برجليه ثم يطرق رأسه ويخاطب نفسه ويصرف نابه مما نابه، وأمامه رمح طويل وسيف صقيل وبجانبه جبة وسبحة وهو يقول بصوت فيه بحة:

الناظر (لنفسه): لقد سفهت الأحلام وضلت الأفهام، يتطلع إلينا المتطلعون ويسعى وراءنا الساعون ويكيد لنا الكائدون ويمكر بنا الماكرون؛ لينزلونا عن مراتبنا ويصعدوا

بعدنا إلى مناصبنا ولو علم هؤلاء الأغمار بما نكابده ونقاسيه ونمارسه ونعانيه، وإننا نقضي النهار فى ذل وصغار ونبيت الليل فى هم و ويل، لاستبدلوا الحسد والعدوان بالشفقة والحنان:

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

هذه البلاد السودانية فتحت باسمى ودوخها الجيش برسمى، ففاز كل بالسهم الرابح وعادوا بالسنيح وعدت بالبارح، ولم يبق أحد دونى إلا وله من الغنائم رزق مقسوم ومن الجوائز والعملات نصيب معلوم وبقيت وحدى فى حالة اليائس المحروم:

وبدر أضاء الأرض مشرقاً ومغرباً وموضع رجلى منه أسود أقتم

نال كتشنر رتبة اللوردية وحق المدنية وناهيك بالخمسة وعشرين ألف جنيه والسيف المرجع، وبلغ من شهرة الصيت مالم يكن يحلم به فى عمره، ومن رفعة القدر مالم يكن يتمناه على دهره، ونال اللورد كرومر رتبة الفيكونت، وبطرس باشا لقب سير (وما أبعد الخارجية من الحربية)، ونال ونجت رتبة لواء بعد أن تأخرت عنه عشر سنوات، ونال الكولونيل رودس شرف العودة إلى الجيش البريطانى بعد أن أبعد عنه تأديباً على حملة جنسن فى الترانسفال ونال الزبير عودة أولاده أمراء فى السودان بعد أن سدوه فى وجوههم طول تلك الأزمان، ونال عنتر العثمانى الثانى وجريفيث المجيدى الثالث وكذلك بقية إخوانه من الضباط، وأبيحت أم درمان للعساكر السودانية ثلاثة أيام ونال جميع الذين حضروا الفتح مكافأة شهرين من مرتباتهم، ونال الذين لم يحضروه مكافأة شهر، حتى مجالس القرعة العسكرية فى المديريات.

وناظر الحربية ورئيس الجيش الأعلى لم ينل خيراً ولم يصب حظاً والأمر أمره والختم ختمه بل أصبح يكرر قول القائل:

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما هـان ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

أستغفر الله إلا ما أراه أمامى من هذا السلاح وهذا اللباس الذى أهدوه لى من غنائمهم وكان نصيبى من فتحهم ونصرهم وقسمى من مجدهم وفخرهم، وهذا ما كان

يديه المهدى من قبلهم لمن يدعوه إلى الهداية والنزع عن الغواية، ذلك كل ما نلته من الأجر على ما أحمله من عبء المسؤولية فوق عاتقى وما أثقل كاهلى من شدة اللوم وقبح الذم ورمى الأعداء لى بالتهاون فى خدمتى والتقصير فى عملى، والاختلال بفروض الوطنية والإغماء عن مصلحة الامة.

قال المكاتب واشتدت بالناظر الحال فأخذ ينهنه من دمعه ويكفكف من غربه وينشد بيت أبى الطيب متمثلاً:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها　　　إنى بما إلىّ باك منه محسود

وأخذتنى الرقة واعترتنى الشفقة فتنحنحت فالتفت الناظر إلى الباب مندهشاً مبهوتاً فاقتربت فسلمت، فسألنى عن مدة وقوفى بالباب فحاولت وأغمضت عليه فى الجواب حتى اعتقد أنى لم استرق السمع، ولم أشهد استباق الدمع ولما علم ذلك منى اضطجع على كرسيه الواسع المماثل لكرسى ولسلى فى نظارة الحربية الإنكليزية وعض على سيجار من سجاير هاڤانا كالجنرال مايلس الأمريكى فى دخوله عليها، ثم وضع رجلاً على رجل وأخرج من جيبه الختم مسلسلاً، وأخذ يلعب به فتلاً على أصابعه، وتناول من فوق مكتبته أوراقاً بيده يوهم الاشتغال بالنظر فيها ويلمحنى من طرف خفى وبعد برهة من هذه الهيئه سألنى عن حاجتى فقلت له:

المكاتب: لا يخفى على الناظر أن المسألة السودانية اليوم هى القطب الذى تدور عليه الرحى فى مجرى الحوادث ونقطة الدائرة التى ترفرف حولها الأفكار وقد سئمت وسئم معى القراء من الخبط والخلط فيها والطعن والقدح فيكم؛ فجئت لها مقتبس مع كنة علمك وفضل اختيارك ما أتحف به القراء وامتاز بنشره على العرفاء من الأقوال الراجحة والأعذار الواضحة فيذهب عنكم اللوم والتعبير وما ينبئك مثل خبير.

الناظر: الأمر بسيط والخطب هين ولا محل لها من شغل الخواطر وقلق الأفكار، فالسودان أرض مشتركة بين الحكومة المصرية التى نحن نظارها وبين الحكومة الإنكليزية التى ينوب عنها اللورد كرومر، ونحن نبحث الآن جميعاً فى كيفية نظام الحكومة السودانية وإقامة الحضارة والمدنية الغربية فيها مقام الوحشية والهمجية غير مكترثين بما يتشدق به الجاهلون، ويتنطع فيه ذو الفضول والتقصير عن إدراك غوامض المستقبل، فإن

هذا السودان سيكون جنة لمصر يأتيها رزقها رغداً، وكما أنه منبع نيلها فسيصير متبع خيرها ودعامة عزها وفخرها، وأهل السودان قوم لا يزالون على الفطرة والبداءة لم تتأصل فيهم عادات الحضارة الشرقية بأباطيلها وأضاليها وترفها ورفهها، ولم ترسخ فيهم الأخلاق الفاسدة والسجايا الذميمة والرذائل المستحكمة فى بلاد الشرق، بل أفكارهم كأرضهم بكر لا ينقصها الا أن تمهر بحلى المدنية فيزهو جمالها ويتجلى حسنها على سائر الأفكار، كما لو بذرت فى أرضهم بذراً فاق ثمرة سائر الأثمار، والسودانيون غير المصريين أهل جد ونشاط وأصحاب عزيمة وإقدام مع مواظبة فى العمل وقوة فى الإرادة، فلا يلبثون أن يبلغوا فى زمن قليل مبلغاً عظيماً فى المدنية فيصبحون فى إفريقيا كأهل الجنوب من أمريكا، وأى عمل فى هذا العصر أعظم مجداً وأكبر فخراً وأجل قدراً وأخلد ذكراً من هذا العمل، وأجدى كلما تأملت فى هذا المجد العظيم تفكرت فى هذا الأثر الفخيم هان علىَّ ما ألقاه من سفاهة السفيه وطعن الحسود ونكران الجحود، ثم إن يدنا هناك مطلقة التصرف لا صندوق للدين يعاكس مشروعاتنا ولا محاكم مختلطة تقوم فى وجوهنا ولا امتيازات للأجانب تصدنا عن أعمالنا ولا معاهدات دولية تقذف الرعب فى قلوبنا ولا جرائد معارضة تشوش علينا ولا أدرى بعد ذلك مم يشتكى الشاكون ولِمَ يبكى الباكون وعلى ما ينوح النائحون وفيما يصيح الصائحون وبما يعيب العائبون، وإلى ما يكذب الكاذبون، والسودان كله فى يد الجنود المصرية وليس للاحتلال فيه أثر بغير مائتى عسكرى إنكليزى.

المكاتب: إذا كان الناظر بالدرجة التى أراها من الشغف بمستقبل السودان والاهتمام بتنظيم إدارته والاشتراك فى ترتيب حكومته فلماذا لم يتوجه مع من توجه إلى الخرطوم ليطبق العلم على العمل ويؤيد ما سمع بما يرى.

الناظر: ليس من الضرورة أن أتحمل المشاق وأتكبد الأسفار إلى بلد لم يقم فيه المرحوم سعيد باشا إلا نصف ساعة بعد ما قضى فى قصده أشهراً فى السفر، وقد توجه إليه اللورد كرومر نائباً عن الحكومة الإنكليزية ومستشار المالية نائباً عن الحكومة المصرية والسردار هناك نائباً عنى.

المكاتب: هل أعجبك وراقك ووافق هواك ما جاء فى خطبة اللورد؟

الناظر: نعم إن فيما ابتكره اللورد من وضع الحكومة السودانية تحت أمر السردار دون أمر الحكومة الإنكليزية ودون أمر الحكومة المصرية دقيقة من دقائق السياسة ونكتة من نكات الدهاء، فإنه أراد بذلك أن يخرج الحكومة السودانية عن قيود الامتيازات المعاهدات والديون فلم يقدر أن يصرح بإلحاقها بإنكلترا لأن فيها نقضاً لعقود الشركة، ولم يرض أن يصرح بإلحاقها بمصر فتدخل تحت محظورات حكومتها الحاضرة فجعلها قائمة تحت حكم السردار، يعنى تحت الإدارة العرفية ليتسنى لنا تنظيمها بلا معارض ولا معاكس وما أجملها طريقة وأحسنها وسيلة، وأنت تعلم حديث القائد اليونانى الذى كان رئيساً على حكومة أثينا إذ حشد الأهالى يوماً كما هى عادتهم فى جمهوريتهم وقال لهم أتدرون من هو الحاكم على العالم؟ قالوا: لا، قال هذا الطفل – وأشار إلى ابنه بجانبه – وأنه يحكم على أمه وأمه تحكم علىّ، وأنا أحكم على أثينا وأثينا تحكم على العالم، ولى أن أقول يوماً للمصريين أتدرون من هو الحاكم للقارة الكبيرة فى الكرة الأرضية فإذا قالوا لا قلت أنا ناظر الحربية المصرية فإنى أحكم على السردار والسردار يحكم على السودان والسودان يحكم على إفريقيا.

المكاتب: لو علم الناظر بأنى كنت واقفاً بالباب وقت محادثته لنفسه أسمعه وأراه لم يتكلف معى هذا التكلف ولم يتصنع معى هذا التصنع.

الناظر: لا حول ولا، ونضيف على الهموم أيضاً رذالة الحاجب وإهماله والحيلة فى ترك الحبل، ولم يبق حينئذ إلا أن استكتمك ما سمعته فلا تنشر منه شيئاً فى الجرائد ورجائى أن تسامح وتغضى الطرف عن هذا التصنع والتحيل فذاك أمر قضى به علىَّ دست الوظيفة وهكذا شأننا مع المحتلين يفكرون ويدبرون فى سبك أعمالهم سبك الحديد وندبر ونفكر نحن فى نسج الأعذار نسج العنكبوت وغيرى من يتمتع بالمكافأة ويفوز بالصلات.

المكاتب: لا تحزن ولا تذهب نفسك حسرات على ما اختصوا به من المكافأة دونه فقد انتحلوا لإسدائها اليهم أسباباً فالسردار نال ما ناله بما تحمله من المشاق والمتاعب فى الحروب وبما سهر فى تدبيره من الكيد للعدو وبتوفيره على دولته حشد الجنود الكثيرة فى وقائع السودان إلا بالعدد الذى يقتضيه التظاهر بوجودهم فى الوقائع لإثبات الاشتراك وبجعله العمل كله على الجيش المصرى، واللورد كرومر نال رتبته لأنه نصح

لحكومته أن تقرض الحكومة المصرية الثمانمائة ألف جنيه وقت الحاجة والعوز ثم تتنازل عنها عند الفرصة اللائقة ليكون ذلك بمثابة رأس المال لعقد الشركة الإنكليزية المصرية فى امتلاك السودان، وبطرس باشا نال لقبة لأنه لم يناقش فى قبول الهبة ليتم اللورد فرصته ونال الزبير عودة أولاده لأنه أرشد بما ينفع فى الانتصار على البلاد السودانية وكذلك "ونجت" نال رتبته لا جتهاده فى الوقوف على أخبار العدو وكلهم نالوها ولم يجدوا لك سبباً انتفعوا به فى الحركة السودانية.

الناظر: إذا صرفنا النظر عن المكافآت فهلا كانوا يحفظون معى ما لا يضرهم من مراعاة الظواهر فكانوا يأخذوننى فى صحبتهم إلى السودان ويعرضون تعيين ناظر ماليته باقتراح منى على مجلس النظار بدل تعيينه من فوق رؤوسنا مباشرة من لوندرة، ولكن أراد اللورد بجميع ما عمله وقال وخطب به فى السودان أن يأتى بعمل غريب يختم به القرن التاسع عشر وهو أن يعيد فيه بحكومة السودان إقطاعات البلاد والتزامها كما كانت العادة جارية به فى حكومات القرون الوسطى، وكأنه تعب من تنظيم الحكومة المصرية على طرز المدنية الغربية الحاضرة فأراد الإبداع بقلب ما كان مستقبحاً مذموماً مستحسناً ممدوحاً، ولا أقدر أن أعتقد بقلب الحقائق فإن ما أجمع الناس على ذمه مذموم والعاقبة على أى أحوال لاحقه بنا داخلة فى مسؤوليتنا وعلى ذكر المسؤولية...

قال المكاتب: وضغط الناظر بيده على زر الجرس فجاء الحاجب فأمره باستدعاء كاتب الحسابات فعاد إليه الحاجب يقول إنه مشتغل عند الأدجونانت جنرال ولا يمكنه الحضور فقال له الناظر أبلغه أننى أرجو حضوره لمسألة خصوصية لا مسألة تتعلق بالديوان ولما حضر الكاتب بعد أن أتم شغله مع الأدجونانت قال الناظر له أرجوك تحويل ماهيتى على البنك الأهلى الوطنى، ثم التفت إلىَّ وقال هذه الماهية هى كل ما لى فى مقابلة مسؤوليتى الطويلة العريضة، وأنا لا أزال أعلل النفس وأحلم بالأمانى أنهم إذا عثروا على كنوز التعايشى أتحفونى بفروة المهدى أو جلد الأسد الذى كان يقعد عليه التعايشى للحكومة بين الناس فقل لى بالله بعد إذ علمت ما علمت هل رأيت فى أحوالنا ما نحسد عليه أو فى وظائفنا ما يروق التطلع إليه.

قال المكاتب: وجاء الحاجب يخبر الناظر بانصراف الديوان فسلمت عليه وانصرفت.

من مصباح الشرق (٥٥)
١٨ مايو ١٨٩٩
فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: وبينما نحن على رجاء الإسعاد والإسعاف فيما بين المحكمة والأوقاف مبتهلين إلى الله أن يكفينا هول الموقف فى هذا الديوان، وأن يحفظنا فيه من تقلب الحدثان لما امتلأت به الأسماع ووقع عليه الإجماع من وصفه بالاختلال ونعته بالاعتلال واختلاف الوجوه فى معالجة دائه ونفاذ الحيل فى محاولة شفائه، واتفاق الجمهور على وجوب الاصلاح فيه وتدارك الظل وتلافيه قبل أن يتفاقم الخطب ويتعاظم الكرب ويسوء المآل بدوام الإهمال والإغفال، إذ نزل بصاحبى الباشا ما ينزل بمثله ممن يطيل تفكيره فيما يوجب تكديره فأصبح مريضاً عليلاً وغدا جسمه نحيلاً ضئيلاً:

والهم يخترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وكلما أشرت عليه بالأطباء قابلنى بالتكره والإباء قائلاً ماذا ينفع الطبيب وماذا يفيد وللآجال توقيت وتحديد؛ فأقنعه بأن الاعتقاد بتحديد الأجل لا يمنع من مداواة العلل، وكم من مريض طالت مدته دون أن تفارقه علته، وكم من صحيح عاجله الحمام ولم يتناوله السقام، فقال لى إن كان لا بد من الاحتياج إلى التماس العلاج فليكن الطبيب ممن يعتمد فى علاجه على البخور والتمائم وكتابة الأوفاق والطلاسم لا من أولئك الذين يعتمدون على العقاقير والنبات ويصفون البسائط والمركبات، ولقد كنت فى الزمن السالف أعرف كثيراً من المغاربة أهل العرافة وأرباب العيافة، فلو التمست لى واحداً منهم أعول فى معالجتى عليه، لوجدت شفائى على يديه، فسعيت انقب عن طلبته واجتهد فى إدراك رغبته حتى عثرت بعد طول البحث والاستقصاء على رجل من أهل الغرب الأقصى فأخبرته الخبر، فطلب أولاً أن يقيس الأثر، وهو فى اصطلاحهم قطعة من ثياب المريض تعقد على شىء من الصفرا والبيض ويزعمون أنهم يصلون بها إلى الغرض من كشف المرض فلما حصل على المرام قال أنظرنى إلى ثلاثة أيام، فجئته فى اليوم الموعود فطلب منى ثمن البخور من الند والعود وثمن المداد من الزعفران والصندل لضرب الزايرجة وفتح المندل، وقال إن

صاحبك به مس وخبل من بنت الملك المسندل ولابد لإحضارها من أن تكون الملوك السبعة حاضرة مجتمعة ومعهم ميمونة وعاقصة ودهنش وواقعة وجلجال بن المجلجل وزلزال بن المزلزل وزوبعة وبرقان وغيرهم من الأرهاط والأعوان، وكل غواص وطيار من سكان التخوم وعمار القفار، ولابد لكل واحد من بخوره المألوف بثمنه المعروف وأنا أدلك على بائعيه إن كنت ممن يدرك الوصف ويعيه، أو تعطيني الثمن الوافي وأنا الكامل الكافي، فرأيت أن الحصول على ما طلب مما يتعذر على ويتعسر، فنقدته فى الحال ما تقدر، بيننا وتقرر ثم استمهلنى أيضاً أياماً معدودة ليذهب معى إلى المريض فى ساعة محددة فلما حان الوقت حضر ثم استحضر ورقم وسطر وعزم وبخر وهمهم وزمجر ورطن وبربر ثم هلل وكبر ثم نزع خصلة من شعر العليل فتألم وتأوه دون أن يتكلم، ثم أخذ يقلبه ذات اليمين وذات الشمال حتى كاد يفتت الأعصاب والأوصال، وأوشك أن يدرك المريض الغرق فى بحر من العرق، ثم محا بالماء ما خطه فى الإناء وناوله ليشرب من ذلك المداد، فأخذ يتجرعه ولا يكاد ثم طلب ماء من بئر لم ترها الشمس وطفق يقرأ عليه بين جهر وهمس، وهو يديره بكفه ثم يبصق فيه بملء فيه وبعد أن انتهى من تلاوة العزيمة والزجر وضاق منى الصدر وفنى الصبر، شرف يقذف وجه العليل بذلك الماء البارد وهو يقول بسم الله أرقيك من كل شيطان مارد، فقام الباشا وقعد وارتعش وارتعد ثم أغمى عليه فهذى وهجر، فقال المغربى الله أكبر لقد أشرف النجاح وأسفر وتخلصنا من بنت الملك الأحمر، وكاد يغشى علىّ أيضاً من الجزع والوجل، فصحت به ماذا فعلت أيها الرجل فقال لا توجل ولا تجزع فلم يبق بين مريضك وبين الشفاء سوى أن يفيق من هذا الإغماء، وهكذا إذا خرجت الشياطين من الجسد خار من الضعف وخمد، فإذا خلا بالمريض المكان عاد إلى الصحة كما كان إذ يتولاه الأعوان عن الأمناء والحفظة، فيعيدونه إلى الإدراك واليقظة وهم لا يقومون بهذا العلاج الخفى ومعهم فى المكان إنسى، هلم بنا إلى خارج الدار وإياك والعودة إلا فى آخر النهار، فامتثلت ما أمر به وخرجت فى عقبه ثم تركنى هذا المشعوذ، وانصرف وخلفنى حليف أسى وأسف، وبقيت منتظراً بين هم وويل إلى أن أدبر النهار وأقبل الليل، وما كان صبرى- علم الله- على هذا الدجال وبهتانه إلا احتراماً لبساطة الباشا فى اعتقاده وبسرعة إيمانه فأسرعت إلى البيت لا ألوى على شىء، فألفيت صاحبى بين ميت وحى ووجدته لم يفق بعد من غشيانه ولم يزل فى هذر المريض وهذيانه،

فعلمت أن الأمر عسير عصيب وأنه لا بد من استدعاء الطبيب، وتحققت ما أدخله علينا المغربى من الاحتيال حتى ابتز ما ابتزه من المال وأوقع الباشا فيما أوقعه فيه من شدة الاعتلال وسوء العقبى والمآل، فذهبت مسرعاً إلى صيدلية قريبة من هناك وأنا على أشد ما يكون من الاضطراب والارتباك، وسألت عن طبيب يتدارك العليل فى شدته ويخفض من سورة المرض وحدته، فأشار الصيدلانى إلى رجل بجانبه يلعب بالنرد وقال دونكه فقد أصبت الفرصة وخدمك السعد، فاعتذر الطبيب وتعلل وامتنع وتدلل ثم قال لى وهو يمطى ويتثاءب.

الطبيب: دعنى فليست تسمح لى الأشغال بإجابة السؤال.

الصيدلانى: مثلك أيها الدكتور لا يخيب لديه الرجاء والالتماس ولا يذهب العرف بين الله والناس.

الطبيب: قل لى من الذى كان يباشر علاجه من قبل؟

عيسى بن هشام: لم يباشره أحد قبلك ولم أعلم أنه مرض قبل اليوم.

الطبيب: لو فرضنا أنى قمت معك فأين المركبة؟

عيسى بن هشام: نحن من البيت على مقربة.

الصيدلانى لغلامه: اذهب فائتنا بمركبة فلابد منها على أى حال.

اللاعب للطبيب: اعلم أنك إذا قمت من قبل أن تتم الدور ضاع عليك الرهان.

الطبيب: كيف تقول ذلك وقد انتظرتك أمس ثلاث ساعات طوال والدور منصوب أمامى حتى عدت وأتممته.

اللاعب: كان ذلك لأن الغلبة فى الدور كانت محققة لجانبك.

الصيدلانى: اركب أيها الدكتور واذهب وأنا أقوم مقامك فى لعب الدور وأتكفل ببذل الرهان من عندى إن وقعت الغلبة عليك.

قال عيسى بن هشام: فتم على ذلك الاتفاق وأنفض الخلاف والشقاق وركبت وركب الطبيب معى وأنا من الحزن لا أصبر ولا أعى، ولما صرنا فى حضرة المريض

وجدناه قد أفاق من غيبوبته وخلص من نوبته فتقدم إليه الطبيب وأجس نبضه وقرع صدره، ثم وضع يده على جبينه كالقادح فكره ثم قطب وعبس وهز رأسه دون أن ينطق بحرف أو ينبس، ثم أدخل يده في جيبه فأخرج منه ورقه بالية مطوية ففتحها فإذا فيها أسطر فرنسوية وأخذ القلم فنقش به ورقه على مثلها ثم زاد عليها الإمضاء في نيلها، وقال لنا دونكم صفة الدواء يؤخذ منه ملعقة في الصبح وملعقة في المساء والحذر الحذر من التأخير والتواني وإياكم إياكم أن تشتروا هذا الدواء من غير ذلك الصيدلاني فإنه رجل صادق مؤتمن لا يغش في الأصناف ولا يفحش في الثمن، ولما هم بالانصراف خاطبته باللغة الفرنسوية دون اللغة العربية لأقف منه على كنه المرض خشية أن يدرك المريض معنى الخطاب، فلم ينطق بحرف في الجواب فعلمت أنه لا يدرك من تلك اللغة غير رسم الأسماء في وصف الدواء ولما أعطيته أجرة الزيارة على حسب ما قدر؛ وعدنا أن يعود المريض كل يوم حتى ينجو من الخطر، ومازال الطبيب يذهب ويحضر والدواء يتجدد ويتكرر والمريض يتألم ويتضجر والمرض على حاله لا يتغير، وكلما سألنا الطبيب عن سبب ازدياد المرض واشتداد الآلام، قال: لا بد أن تكونوا خالفتم أمرى في الحمية عن الشراب والطعام: وشكوت النازلة إلى أحد الاصدقاء فقال لي عليك بسواه من الأطباء ممن تلقى صناعة الطب في مدارس الغرب فوقف منه على القديم والحديث ومن الدواء على الطيب والخبيث، فعملت برأيه وإشارته وقصدت أحدهم في محل استشارته فوجدت الخادم ينتهر الزائرين ويقول لهم مالكم تأتون مبكرين وقد علمتم أن الدكتور لا تفوته نومة الضحى ولو فتكت سهام الردى بجميع المرضى، والناس يحتملون ويصبرون ويعتذرون وينتظرون إلى أن بزغت شمس الطبيب من وراء الحجاب وخرج في أبهج زينة وأبهى ثياب، فانتظرته حتى خلص من ذلك السواد المتجمع فتقدمت إليه بهيئة المتوسل المتضرع وتلطفت له ما شئت في العبارة وسألته أن يتخير وقتاً للزيارة.

الطبيب: ما هذا التزاحم وما هذا الإلحاح وما مزية هذه المعيشة التي لم يكن لي فيها وقت للأكل ولا للشرب ولا للراحة ولا للنوم، وهل فقدت الأطباء من البلد حتى لم يبق فيها من طبيب غيرى أم وقع الناس كلهم في الأمراض فاشتغل جميع الأطباء بهم وتوزعوا فيما بينهم، واعلم يا عزيزى أنه ليس في تقويم أوقاتي وقت أزورك فيه إلا بعد يومين.

عيسى بن هشام: أقسمت عليك بحق الإنسانية إلا ما أجبت رجائى فقد دلتنى شهرتك عليك واعتقدت شفاء المريض على يديك.

الطبيب: اعلم أننى أباشر معالجة مريض اعتورته أيدى الأطباء فإن كان مريضك فى أول مرضه ولم يتقلب بين أيديهم قبلت منك الرجاء وحضرت لعيادته فى هذا المساء.

عيسى بن هشام: لم يره إلا طبيب واحد ولم ينجح فيه علاجه ودواءه.

الطبيب: أولى لك أن ترجع إليه وأن تتركنى وشأنى فلست ممن ينتظرون يأس المرضى من أطبائهم حتى أسارع إلى استدراك غلطهم فى علاجهم وما أظن طبيبكم إلا من أولئك الذين لم يفارقوا مصر ولم يتعلموا فى سوى القصر، ولم يقفوا على محدثات هذا العصر واكتفوا بالقليل من الأجر.

عيسى بن هشام: أظنه كذلك وما قصدتك إلا لما سمعت من إنصافك بنقيض ما ذكرت وبضدها تتبين الأشياء.

الطبيب: وأظنك سمعت أيضاً بالتفاوت فى الأجرة بين أمثالنا وأمثالهم.

عيسى بن هشام: نعم ولك ما تحب وتريد.

الطبيب: إذن لا أرى فى عيادتكم من بأس.

قال عيسى بن هشام: فتركته على ميعاد وعدت إلى الباشا ولما حضر فى المساء دخل على المريض حاسراً عن رأسه واضعاً يده فى أنفه، ثم اقترب من الفراش ويده اليمنى تصلح مفترقه واليسرى على يد المريض يجس بها نبضه ونظره شارد نحو الباب كأنه يحاول أن يرى من يكون فى البيت وراء الحجاب، وما لبث أن كتب الدواء وأسرع بالرجوع من حيث أتى وبعد يومين حضر إلينا شخص يسأل عن حالة المريض وقال إنه مساعد ذلك الطبيب فلم أملك نفسى عند ذلك من الحنق والغيظ، ولما رأيته من سوء المعاملة وقلة الاعتناء وأغلقت الباب فى وجهه، وقلت له: اذهب فلا حاجة لنا بك ولا بمن أرسلك، ثم خرجت وأنا على تلك الحال تبدو على وجهى علاماتها، فأدرك ذلك منى أحد الجيران وسألنى عن النازلة فقصصتها عليه وكان قريب العهد بالبلاد الأجنبية، فقال لى لا غرو إذا أصابكم ما أصابكم لاعتمادكم على الأطباء الوطنيين، وأن من أشار عليك بهم

لغير ناصح لك، وأعرف طبيباً من أطباء باريس حضر معى فى باخرة واحدة لا أشك فى شفاء مريضك على يديه، وهو يسكن فى المكان الفلانى، وهلم معى لأدلك عليه فلما وصلنا إلى حيث يسكن ذلك الطبيب قابلنا باللطف والإيناس وأخذ يتكلم معنا بأحاديث شتى لا مناسبة بينها وبين حاجتنا، ثم قام معنا ولما صرنا عند المريض أخذ يقلبه ويفحصه ويقيس حرارته ويعد ضربات نبضه على ثوانى ساعته، وبعد طول الفحص والإمعان كتب ورقة الدواء وانصرف على أن يعود فى المساء، وأقام على ذلك أياماً وإذا بالمرض قد اشتد بما أفزعنا وأزعجنا فلم يسعنى إلا أن أعود باللائمة على من أشار علينا بهذا الطبيب فلما قابلته وكان أحد أصحابه حاضراً قلت له:

عيسى بن هشام: هلم وانظر ماذا فعل طبيبك الأجنبى.

الجار: وماذا فعل ألم يشف مريضكم؟

عيسى بن هشام: بل الأمر بالعكس فقد اشتد المرض وازداد الداء بما لم يكن فى الحسبان.

الجار: كيف هذا والدكتور فلان من أشهر أطباء باريس وممن امتلكوا ثقة الجمهور بهم واتفاق الناس على صدقهم وأمانتهم.

الصاحب لصاحبه: ألا تزال على غرورك فى شغفك بكل من كان غريباً أجنبياً وتفضيلك إياه على أبناء جنسك وأهل بلدك وإن فى أطبائنا لرجالاً يفوقون الأجنبى بسعة اختبارهم وطول تجربتهم.

الجار: إننى لم أشر عليه بالأجنبى إلا بعد أن شكا إلى ما ذاقه من الأطباء الوطنيين.

الصاحب: مثل من؟

الجار: مثل فلان وفلان.

الصاحب: وأين أنت من مثل فلان وفلان من فحول الطب ورجاله وما على صاحبك إلا أن ينتخب واحداً منهم وأنا الضمين له بقرب الشفاء.

قال عيسى بن هشام: ووقع الاختيار على أحدهم فتوجهت إليه وأحضرته ولما انتهى من فحص جسم المريض أخذ يسألنى عن حالته الأدبية فى ماضيه وحاضره وعن أشغاله الفكرية فقصصت له مجملاً عن تاريخه

فقال الطبيب: اعلم أن ليس بصاحبك داء الدقين أو مرض عضال وما هى إلا الانفعالات النفسانية من تأثير الحوادث فهزل جسمه ووهت قوته من ألم النفس وليس له من دواء إلا تبديل الهواء والتسلى عن الهموم مع تناول الأغذية النافعة والأشربة المنعشة.

عيسى بن هشام: إذن فما بال أولئك الأطباء الذين ملأوا البيت علينا زجاجات وعقاقير؟

الطبيب (بعد أن وقف على قصتهم واطلع على أنواع أدويتهم): إن فى كل صناعة صالحاً وطالحاً وعالماً وجاهلاً ونبيلاً وغبياً، وقد ظهر لى أن الطبيب الأول ممن لا عناية لهم بصناعتهم فلم يقف على حقيقة المرض ورأى أن يستحل الأجر بوصف دواء بسيط لا يضر إذا لم ينفع وأن يترك المرض للطبيعة فإذا طال أمده كانت الفائدة عائدة عليه، أما الطبيب الثانى فيظهر أن أعراض المرض التبست عليه فشخصه على غير حقيقته ووصف الدواء على حسب تشخيصه فوقع فى الخطأ من حيث لا يدرى، والطبيب الأجنبى عرف العلة ولكنه وصف الدواء كما يصفه لأحد أهل بلده بغير تمييز بين هواء البلدين واختلاف الأمزجة فى سكانها فاخطأ أيضاً.

واعلم أن صناعةً فى العالم لا تعادل صناعة الطب شرفاً وقدراً ومجداً وفخراً وجمالاً وجلالاً، ومن تأمل من الأطباء فى هذه الصناعة وهداه الله إلى معرفة مقدارها شرفت عنده نفسه، واعتلى فى نظره قدره فنبت عينه عن سفاسف الأطماع وزهدت نفسه التطلع إلى الغنى عن طريق التكسب بهذه الصناعة الجليلة واتخاذها وسيلة من وسائل اكتناز المال وادخار الذهب، وتبين له أن لذة الصنعة فى حد ذاتها لا توازيها لذة فى العالم من مال وبنين وما شئت من متاع الحياة وزخرف الدنيا، وأى رتبة تصل إلى رتبة الطبيب وهو المقيم على صلاح الأبدان والمتكفل بصحة الأجسام والرقيب على اعتدال الأمزجة وسلامة الجوارح، وأى صناعة تفضل صناعته وتطولها وهى أقرب الصناعات إلى خلقة الصانع وتكوين المنشىء القادر، وإذا كان ذلك المصور ازدهته صناعته فى

تمثال إنسان صنعه من رخام، فلما وقف يشاهد اتفاقه التهبت نفسه غراماً لحسن الصنع حتى ذهل لبه وغاب رشده، فانحنى على التمثال يضربه بمنحاته حتى كسر أجزائه وأتلف صنعه انفعالاً لعجز الصورة عن نطق مع تمام التمثيل فى الخلقة، فما عسى أن يكون مقدار هذه اللذة التى ذهبت باللب وأذهلت العقل، وما بالك بالطبيب الذى يشاهد أجسام الأحياء وقد استخلصها من شوائب الأمراض وطهرها من آفات العاهات ورد نظام الخلقة إلى أهله وأعاد التركيب إلى حسن شكله، لكن الذين يذهلون عن فضل صناعتهم وينحطون بها إلى درجة الباعة والمكارين لا يرون فيها إلا أحبولة لصيد الدرهم واقتناء الدينار بقطع النظر عن إيفائها حقها والسعى وراء إتقانها، وما أرى فرقاً بين نظرة الطبيب إلى مريضه يتمنى له طول المرض ليزداد أجره وبين المرتزقين من دفن الموتى الذين يتمنون كثرة الموت لتيسير الرزق، ومما يدلك على أن أمثال هؤلاء لا يهمهم إلا منافعهم الخاصة ما تراه من محاولتهم الاشتغال بكثير من أعمال الدنيا دون الاقتصاد على ممارسة الطب المنتسبين إليه، وما ذلك إلا توسيع موارد الرزق وشدة الطمع، فيهملون صناعتهم ولا ينتبهون إلى ما فيها من تلك اللذة العالية فيغلطون ويخطئون ويجعلون الطب والأطباء مضغة فى الأفواه، وتالله ما يحزننى فى الدنيا شىء هو أصدق ما يكون وأشد ما يؤلم مثل قولهم كثير ما يكون مرض المريض من طب الطبيب.

قال عيسى بن هشام: فاقتنعت بكلام هذا الطبيب وتوسمت فيه الخير لصاحبى، وتمنيت أن لو كان أطباؤنا على شاكلته وقد أرشدنى إلى المكان الذى يجب أن يذهب إليه المريض لتغيير الهواء فيه وأوضح أنواع الأغذية والأشربة وترتيب أوقاتها ثم انصرف على أن لا نقطع عنه أخبار المريض إلى تمام الشفاء.

من مصباح الشرق ٥٧

١ يونيه ١٨٩٩

فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: فاستخرت الله فى السفر كما وصف الطبيب وأمر، نلتمس برء الداء بتبديل الهواء، ونهل الشفاء باعتزال مواقف القضاء، واخترت للباشا من مدينة الإسكندرية قصراً ذا روضة غناء فى بقعة فيحاء لا تسمع فيها إلا هديل الورقاء إيقاعاً على هدير الماء، إذا ابتل هناك بالماء جناح النسيم ورفرف به على ذلك الروض البسيم نثره دراً على تيجان الازاهر، ورقرقه دمعاً فى أحداق العباهر، فيتمنى العاشق لو استعار هذه المحاجرة ليستلين بها قلب هاجرة، وتود الغانية لو نظمت ذاك عقداً لنحرها أو نطاقاً لخصرها:

إن هذا المكان شيء عجيب ... تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهـــب حيث ذهبنـــا ودار ... حيث درنا وفضة فى الفضـــاء

أو هو المجرة قامت فيه زواهر الزهر مقام الكواكب الزهر، وعناقيد الكرم مقام ثريا النجوم، وأنوار الأثمار مقام الشموس والأقمار، فأقمنا هناك فى راحة وإيناس معتزلين عن الناس ولا راحة فى الدنيا إلا لمن تزهد ولا سلامة عن الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد وأقرب الناس إلى كرم السجايا أبعدهم عن معاشرة البرايا:

بعدى عن الناس برء من سقامهم ... وقربهم للحجى والدين أدواء

كالبيت أفرده إبطاء يدركـــــــه ... ولا سناد ولا فى اللفظ أقـواء

وما كاد طيب الإقامة يعيد إلى الباشا العافية والسلامة حتى راعنا الشيطان من الإنسى بخبر الطاعون فقلنا إنا لله وإنا إليه راجعون، ومازلنا نعلل النفس بزوال النحس والنكس ومازالت تناوحنا النوائب والأحزان عند كل منزل ومكان، وقلنا قد وجب الفرار من قدر الله إلى قدر الله سبحان من إذا أراد الحسنى بعبده امتحنه وابتلاه فقفلنا

للرجوع وودعنا محاسن تلك الربوع، وعدنا إلى حيث يطمئن علينا العاجب والقريب ولا يرجف بنا الحاسد والمريب، وكان مكاننا من القطار بجانب مكان النظار، وقد حجبنا الليل عن الأنظار فكشف لنا عن مكنون الأسرار فسمعنا قائلاً منهم يقول بلسان غير عضب ولا معقول:

"تالله ليس ينفع التوقي من المخاوف والتحرز من الأخطار، لقد عشت زمناً وأنا بين خوف ورعب من ذكر حرب السودان حتى وضعت أوزارها والحمد لله وأنا سليم الجسم معافى البدن، وقضيت مدتها متسلياً متريضاً فى منازه أوروبا، متروحاً متنعماً فى حمامات كرلسباد، ولم يزعجنى فيها من شيء سوى ذلك المكاتب الذى سألنى ماليس لى به علم، حتى إذا اطمأن منا الخاطر فى هذا العام من كل حادث فظيع وخطب مريع جاءنا هذا الطاعون فى أوقات لا تمكننا حوادثها من المسارعة إلى الرحيل من هذه الديار، حتى ولا من الابتعاد من مهبطه فى مدينة الإسكندرية فلولا نازلة القضاء الشرعى ما أصبحنا مثل مكوك الحائل يزج بنا بين البلدين جيئة وذهاباً، ويشهد الله أننى أفضل الآن أن أكون قائداً للجيش فى السودان أروح وأغدو فوق ظهر الجواد بين الصفوف تحت سعير الحرب، على هذا الترامى على هذا الموت فى أيام السلم، فإن فى ذلك من الفخر والمجد واكتساب الحمد واغتنام الغنائم ما يهون على النفس من هول الموقف، ولكن ما الذى يهون علينا اليوم موقفنا فى مشروع المحكمة الشرعية ورمينا بأنفسنا فى مخالب الطاعون، وإن كان فيه شيء من الفخر فقد غلبنا عليه ناظر الخارجية واستبد به دوننا وتركنا معه صفر اليدين».

ناظر الخارجية: تعالى الله ما هذا الفخر الذى يزعم ناظر الحربية أنى نلته، وما أعلم إلا أننى خسرت بهذا المشروع جميع ما صرفت عمرى فى ادخاره من اجتلاب مودة المسلمين نحوى وائتلاف قلوبهم على وحسن ثقتهم بى وأصبحوا يرموننى بالتعرض لأمورهم الشرعية، وتلك التى كنت أحاذرها وأتقيها منذ مبدأ أمرى إلى اليوم، وما كان أغنانى عن مثل هذا الموقف لو أن ناظر الحقانية أنصفنى من نفسه فتحمل العبء كله على عاتقه ولا عتب للمسلمين عليه لما هو مشهور بينهم من الورع والتقوى والصلاح والمسك.

ناظر الحربية: إن لم يكن فى الأمر إلا أنك قمت فى آخر أمرك خطيباً مفوهاً فى مجلس الأمة المصرية لم يرتج عليك ولم تحصر ولم تتوقف ولم تتعلثم لكفاك ذلك فخراً فى دنياك.

ناظر الخارجية: وهل ترى من فخر لمن يقوم متكلمًا بين أعضاء مجلس شورى القوانين؟

ناظر الحربية: أرى فى هذا الموقف الخطيب منتهى الفخر ومجتمع المجد وكثيراً ما يشبهونه بموقف الحرب لشدة أهواله وأنا وإن لم أجرب فقد جربت ما يشيب له الوليد يوم اندفعت أتكلم فى الجمعية العمومية بكلمتين عن مشروع الضرائب فلا أدرى وأيم الله إلى الآن من شدة ما اعترانى من الذهول إن كنت تكلمت فى الموضوع أو خرجت عنه، وانصرفت عن ذلك المكان وأنا أشد ما سخط إنسان على نفسه، لولا أن خفض على من أمرى أحد الذين يتفرغون للقراءة والاطلاع على نوادر الأزمان الماضية. فقص على عدة وقائع مضحكة لأكابر الخطباء فى هذا الباب أذكرها لك لتعلم مقدار نعمة الله عليك إذ نجاك وأنقذك من الوقوع فى مثلها يوم كنت أنت تخطب وأنا أشفق عليك وأعرق لك:

لما حضر عبد الله بن عامر بن كريز على المنبر بالبصرة وكان خطيباً مشهوراً شق عليه ذلك فقال له زياد ابن أبيه وكان خلفه: "أيها الأمير لا تجزع فلو أقمت على المنبر عامة من ترى من الناس أصابهم أكثر مما أصابك" فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس إن الأمير اليوم موعوك، فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل قم فاصعد المنبر، فلما صعد حصر فقال: الحمد لله الذى يرزق هؤلاء وبقى ساكناً، فأنزلوه وأصعدوا آخر من الوجوه، فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس فوقعت عينه على صلعة رجل فقال "أيها الناس إن هذا الأصلع قد منعنى الكلام اللهم فالعن هذه الصلعة" فأنزلوه وقالوا لوازع البسكرى قم إلى المنبر فتكلم فلما صعد ورأى الناس قال "أيها الناس إنى كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة ولكن امرأتى حملتنى على إتيانها وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثاً، فقال زياد لعبد الله بن عامر كيف رأيت قم فاخطب الناس.

وخطب مصعب بن حيان خطبة زواج فحصر فقال "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله" فقالت له أم الجارية" عجل الله موتك" وخطب مروان بن الحكم فحصر فقال "اللهم إنا نحمدك ونستعينك ونشكرك بك".

فكيف تنكر أيها الناظر ما نلته من الفخر والمجد ولم تقع فى مثل ما وقع فيه أشياخ العرب أرباب الفصاحة وملوك الكلام، وما إخال إلا أن مومياء الملوك من أجدادك الفراعنة كانت تهتز فى المتحف طرباً يوم وقوفك ذلك الموقف فإنهم إن كانوا امتازوا عن العالم بجر الأثقال وتشييد الجبال فما كانوا يتصورون أنهم يفوقون أمة العرب بمثلك فى فن الخطابة فوق أعواد المنابر.

ناظر الخارجية: دعنا بالله من هذا الهزل وخذ بنا فى الجد ولنلتفت إلى ما يقوله ناظر الحقانية.

ناظر الحقانية: وإنى لأعجب والله من الأستاذ شيخ الجامع كيف ينكر على ما أتيته فى هذا المشروع ويرمينى بمخالفة الشرع وما وقفت على الشرع إلا منه وما تلقيت دروسى فيه إلا عنه، ولست أحمل له مع ذلك ضغناً فى صدرى فإن انحرافه اليوم عنى أشبه بما كان يتكلفه معنا معاشر تلامذته فى الدرس ثم لا يلبث أن ينكشف غضبه ويذهب انحرافه ويعود معنا إلى أحسن ما كان من الرضاء لتأديبنا، وكلما تذكرت تلك الأيام أيام الصبا والدرس فى حضرته شغلنى الحنو إليها عن التكدر الآن منه، على أننى لم آت شيئًا فرياً فهذه شروط القضاء بين أيديهم أقرأها عليكم كما نقلتها من كتبهم لتحكموا إن كنت خالفت الشرع كما يزعمون:

«إن أهله (أى القضاء) أهل الشهادة "كذا فى الحواشى السعدية" وشروط الشهادة هى الإسلام والعقل والبلوغ والحرية وعدم العمى والحد فى قذف، وكلها شروط لصحة توليته ولصحة حكمه بعدها".

هذه هى شروط القضاء ولا ينكر أحد وجودها فى قضاء الاستئناف، ومن الذى يدعى أن القاضيين المنتدبين منه أحدهما مشرك أو مجنون مثلاً والآخر عبد أو أعمى حتى لا يتم فيه شرط القضاء، فإن أبوا إلا أن يحكموا عليهما بالفسق مع ذلك رددنا عليهم بما جاء فى كتب الشرع وهو أن "الفاسق أهلها (للشهادة) فيكون أهله (للقضاء) لكنه لا يقلد وجوباً ويأثم مقلده وقيده فى القاعديه بما إذا غلب على ظنه صدقه فليحفظ درر".

وأنا مستعد لقبول ذلك الإثم راض به لنفسى، فما لهم وللمعارضة وما لهم

وللفضول بعد ذلك، على أنهم إذا قلبوا الصحيفة من هذا الكتاب وجدوا فيه ما نصه "واستثنى الثاني الفاسق ذا الجاه والمروة فإنه يجب قبول شهادته قال في النهر: وعليه فلا يأثم أيضاً بتوليته القضاء حيث كان كذلك".

ومن يقول إن قضاة الاستئناف ليسوا بذوي جاه ولا مروة؟

فإن اعترضوا علينا بأن المحكمة العليا ليس اختصاصها القضاء وحده بل الإفتاء أيضًا ويجب على المفتي أن يكون عالمًا بالراجح والمرجوح والقوي والضعيف من القول المشهور في مذهب أبي حنيفة وأن هذه الشروط لا تتوفر قضاة الاستئناف لا سيما وهم يرمونهم بالفسق ويستشهدون على ذلك بقولهم "والفاسق لا يصلح مفتيًا لأن الفتوى من أمور الدين والفاسق لا يقبل قوله في الديانات" قاله ابن مالك وزاد العيني واختاره كثير من المتأخرين وجزم به صاحب الدر المختار زاد بعد ذكره لهذه العبارة قوله "وقيل نعم يصلح وبه جزم في الكنز لأنه يجتهد حذار نسبة الخطا ولا خلاف في اشتراط إسلامه وعقله وشرط بعضهم تيقظه لا حريته وذكورته ونطقه فيصح إفتاء الأخرس".

وأنتم تعلمون والحمد لله أن قضاة الاستئناف كلهم يفضلون الخرس فكيف لا يصح إفتاؤهم إن صح إفتاء الأخرس".

إلى أن يقول صاحب الدر "ويفتي القاضي ولو في مجلس القضاء وهو الصحيح ويأخذ القاضي كالمفتي بقول أبي حنيفة على الإطلاق ثم بقول أبي يوسف ثم يقول محمد ثم بقول زفر والحسن بن زياد وهو الأصح منية وسراجية" انتهى منقولاً من شرح الدر. فيتضح من جميع ما قرأته عليكم أنهم إذا كانوا قد جعلوا شروط القضاء هي شروط الشهادة المذكورة آنفًا فإنها متوفرة في أهل الاستئناف ولا يعارضهم فيها معارض وإن كانوا أباحوا كالمفتي بقول أبي حنيفة على الإطلاق، فقد خرج بهذا الإطلاق الراجح والمرجوح والقوي والضعيف، والظن أن قضاة الاستئناف هم أول الناس محاذرة من الوقوع في الخطأ، والراجح في عدم الخطأ هو مراجعة كتب الفقه وقد تعود أهل الاستئناف كثرة الرجوع إليها في حكمهم بالقوانين الوضعية حتى لقد تجاوز بعضهم مذهب أبي حنيفة إلى مذهب مالك وابن حنبل، فإذا تقيدوا في المحكمة الشرعية بمذهب أبي حنيفة وحده توفر عليهم لعدم المراجعة في المذاهب الأخرى وتفرغوا للتمكن من مذهب أبي حنيفة والتعلق فيه.

ومع ذلك فما ذلك لنا ولهذا كله بعد أن كانوا يكتفون منذ زمن غير بعيد بتلقين من يتولى القضاء من الجاهلين بأحكام الشرع هذه العبارة "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر" ويعتبرونها شرطاً جامعاً لصحة توليته ويعتذرون عن جهله للأحكام بأن العمدة فيها على المفتى فاذا كان المفتى عالماً جاز التجاوز عندهم عن جهل القاضى وعدم توفر شروط القضاء، ونسوا أن المترجم إبراهيم باشا ولىّ المرحوم الشيخ العباسى وظيفة الإفتاء وهو فى حلقة الدرس غير متجاوز السابعة عشرة من عمره، واعتذروا إذ ذاك بأن أمين الفتوى عالم متضلع من المذهب بقوم له بتنسيق الفتوى وما عليه إلا ختمها وهم لا ينكرون علينا أن القاضيين المنتدبين حرسهما الله قد تجاوزا هذا السن، وهما، ليسا بمنفردين بالفتوى فى انتدابهما بل معهما ثلاثة من فحول العلماء الشرعيين يزدان بهم صدر المحكمة الشرعية وهم يقومون للقاضيين المنتدبين مقام أمين الفتوى لدى المرحوم الشيخ العباسى حتى ينبغا بينهم فى الشرع كما نبع هذا العلامة فصار من أعظم العلماء الذين يعز بهم الدين وتفتخر البلاد بذكرهم.

ناظر الحربية: تبارك اسم الله الفتاح الوهاب من أين لك هذا العلم وهذه الحجج الدامغة لقد كدت والله تزرى بنفسى فى عينى وأين كانت منك هذه الأدلة الساطعة يوم كنا نجادل أعضاء مجلس شورى القوانين فى المشروع؟.

ناظر المالية: شهد الله أننى ما فهمت شيئاً مما تقولون إلا بمقدار ما أفهم العبرانية واللاتينية، وجل ما أعمله فى باب المشروع أن القاضى عظم فى عينى حتى تخيلته أكبر زاهد فى العالم لما أقدم عليه من الاستهانة بالمال والرضا بالخسارة فى اعتزال المنصب ولا شك أنكم تدهشون معى إذا حسبت لكم مبلغ خسارته، فأقول إن مرتبه ١٨٠٠ جنيه فى السنة وقد بلغت مدة خدمته إلى الآن تسع سنوات، ادخر فيها ١٦٢٠٠ جنيه، وإذا فرضنا إنه يبقى ست سنوات فى الخدمة كان مجموع ما يكتنزه ٢٧٠٠٠ جنيه فاذا اضفنا إلى ذلك ربع المعاش الذى يستحقة بعد تلك المدة وهو ٤٥٠ جنيهاً فى السنة، وفرضنا إنه استبدله على سن ٧٥ سنة يكون ما يخصه ٦٧٥٠ جنيهاً وحينئذ يجتمع لديه من المال بعد تلك الست سنوات ٣٣٧٥٠ جنيه إذا أشترى بها أطياناً واستغلها عشر سنوات تحصل لديه مثل ثمنها، فإذا باعها أصبح صاحب مائة ألف جنيه تقريباً يشتغل بها فى مشترى الأسهم وأنتم تعلمون ما ربح الأسهم فلا يمضى عليه بضع

سنوات حتى يصبح صاحب مليون من الجنيهات فقولوا لى بالله من ذا الذى يجود فى دنياه بمليون لبخله بتحريك شفتيه لكلمة يقولها للقاضيين المنتدبين مثل قولك "أذنتكما".

قال عيسى بن هشام: وما وقف عند هذه الكلمة حتى وقف بنا الوابور فى محطة القاهرة، وذهبت بالباشا إلى البيت فتركته هناك وتوجهت إلى أحد أصحابى لبعض أشغالى، فوجدته يتأهب للخروج فلما بدأت بمفاتحته فى ما حضرت لأجله أغلظ على بالتوجه معه أولاً إلى المحفل الماسونى لحضور احتفال فيه؛ فاضطررت إلى مطاوعته فوصلنا فوجدت جمعاً عظيماً وفى وسطه حلقة من قضاة الاستئناف يتذاكرون حديث المشروع والانتداب فأصغيت لهم فسمعت أحدهم يقول:

أحد القضاة: إلى متى الصبر على هؤلاء الشرعيين وطعنهم علينا ورميهم لنا بالكفر تارة والفسق أخرى، كأنهم احتكروا دين الله على أنفسهم يخرجون منه من شاءوا ويدخلون فيه من أرادوا، وما علمنا أن فى الإسلام ما فى غيره من الأديان من تحريم قوم لقوم وإمساك المغفرة عن آخرين ووسعت رحمة ربك كل شىء، وهم يشترطون اليوم على من يقبلونه منا بينهم أن يبادر إلى التوبة وأن يجدد إسلامه وأن يلبس العمامة ويرسل اللحية ولايحمل ساعة من ذهب ولا يشرب فى إناء من فضة وفى أمثالهم يقول القائل:

يحرم شرب الماء فى فضة　　　ويشرب الفضة أن نالها

وإنا لنحمد الله على نور العلم الذى أخرجنا من زمرتهم وكشف عنا غطاءنا فبصرنا اليوم حديد.

قاض ثان: وأعجب ما فى الأمر أن هؤلاء الذين يكفروننا ويفسقوننا ولا يقبلون شهادتنا ويقولون عنا أننا نحكم بغير ما أنزل الله، هم أنفسهم الذين يصدعوننا فى كل حين بالرجاء والالتماس للفصل فى قضاياهم وقضايا ذويهم بنفس هذا القانون الذى يكفروننا من أجله فيقبلون قضاءه داعين شاكرين.

قاض ثالث: ولا يفوتنك أن الحق عندنا واحد والقول فى الحكم واحد وهم بما أدخلوه على الشرع الشريف الإسلامى الذى لا يتعدد فيه الحق صارما يحكمون بالأقوال المختلفة من الراجح والمرجوح والقوى والضعيف والمشهور، وغير المشهور والقول الذى

عليه الفتوى والذى لا يفتى به والخلاف بين الإمام والصاحبين واختلاف الشارحين وواضعى الحواشي وحاشا للشرع ثم حاشا أن يكون قائماً على هذا التشتيت فى الأحكام.

قاض رابع: أشهدكم أيها الإخوان المحترمون أننى لا أقبل انتداب الحكومة لى فى المحكمة الشرعية فإنهم سيشيعون عنى وعن المنتدب الثانى أنواع الإشاعات من ترك الصلاة وحضور الملاهى والجلوس فى القهاوى وما يدخل تحت على ذلك من سوء السمعة وفساد السيرة.

قاض خامس: أما أنا فإذا عرضت الحكومة علىَّ الانتداب فلابد أن اشترط عليها أن لا تسمع فىَّ فاه يقال من هذا القبيل.

قاض سادس: أقول لكم الحق أيها الإخوان، إن انتداب قاضيين منا ليس من ورائه أقل فائدة لإصلاح المحكمة الشرعية وما عسانا أن نصلح فيها وعملنا كله هناك فى القضاء فى حيث لا عمل لنا فى الإدارة، والفساد كل الفساد فى الإدارة وأقرب الطرق عندى فى إصلاح المحكمة ليس هو فى توجهنا إليها ولكن فى انضمامها إلينا.

قال عيسى بن هشام: وضاق على التنفس من الحر وشدة الزحام فى المحفل فانتهزت فرصة دخولهم إلى هيكل الاحتفال ونزلت مع أحد أصحابى من أرباب العمائم، ولما صرنا فى الطريق قال لى هل لك فى أن نقضى جزءاً من الليل عند الشيخ فلان، فقد طال عهدك بزيارته وعنده جمعية من المشايخ المجتمعين فى ساحة بيته فى مطلق الهواء فرأيت مطاوعته لعلى أقف من المجلس على شيء يطمئن له خاطرى فى هذا المشروع الذى ما وضعت قدمى فى محل إلا ورأيت الأفكار فيه متضاربة والآراء مختلفة، فسرنا حتى وصلنا إليه فوجدنا البيت غاصاً بالجمهور من العماء الأعلام والمشايخ الكرام والحديث مستفيض بينهم فى المشروع فأخذت مجلسى على ما يقتضيه المجلس من الاحترام وإذا أحد المتصدرين من العلماء يقول:

أحد العلماء: رضى الله عن الشيخ شيخ الجامع فقد أحيا السنة وأمات البدعة وباع الدنيا لأجل الدين، ولم يخسر آخرته بدنياه ولم تأخذه فى الله لومة لائم ولم يزده الترغيب والترهيب إلا رسوخ قدم فى الدفاع عن الشرع، ولله دره فقد نفض عنه غبار

الوهم فلم يحجم به عن موقفه ذكرى ذلك اليوم المشهور الذى تساقط فيه وابل الرصاص بين محابر الطلبة وكراريسهم (كراسيهم) ونحن متحدون معه بحمد الله متضافرون على نصرته، وكلنا فى عونه والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه وكلنا يد واحدة ويد الله مع الجماعة والمؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً قال الله تعالى "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" وجزى الله الشيخ عن الإسلام خير الجزاء، جدد فينا ما اندثر من سيرة السلف الصالح ووقف فى الحق أمام ناظر الحقانية المناسترلى موقف أبى حنيفة أمام الخليفة العباسى، والعز بن عبد السلام أمام السلطان الأيوبى، والشيخ المهدى العباسى أمام عباس الأول، ولا شك أن الحكومة ستنتهى بالعجز عن تنفيذ مشروعها لأنها لا تجد بيننا من يستهويه زخرف الدنيا فيبيع آخرته بدنياه ويقبل منه منصب القضاء.

عالم ثان: بخ بخ لك أيها الأستاذ وصدقت فيما تقول فكلنا عند حد قولك فى الائتلاف والاتحاد والتعاون على الحكومة حتى يقعد بها العجز دون ما تبتغيه من مصادمة الشرع.

قال عيسى بن هشام: ودخل أحد الزائرين وأظنه من كبار المحامين فأخذ يحدق ببصره بين الجالسين كمن ينشد ضالته فاشرأب أحد المشايخ عند رؤيته فاهتدى الزائر إليه فسقط جالساً بجانبه يقول له فى أذنه وأنا على مسمع منه:

الزائر: أبشرك أيها الأستاذ البشارة المنتظرة فقد تأكدت أن اسمك معروض الآن على هيئة النظار وذكرت بين المترشحين لمنصب القضاء إن لم تكن أولهم وأشهد أن صاحبنا عمل بالرجاء فلم يقصر جهده فى إقناع إخوانه بتفضيلك على سواك.

الشيخ المرشح: وهل لم يزل التصميم باقياً على ترشيح فلان وفلان.

الزائر: نعم ولكن لكل منهما موانع تمنعه إن شاء الله من الوقوف فى طريقنا ولك البخت السعيد والجد الصاعد إن شاء الله.

الشيخ (مجاهراً بالقول متوجهاً به إلى العالم المتكلم داخلاً فى حديثه): لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ذكروا من أشراط الساعة أن الشمس تطلع من مغربها

وأنا أقول إن من أشراطها أيضاً أن يكون قاضى المسلمين هذا الذى رشحوه اليوم فى هيئة النظار على ما جاء يخبرنى به صاحبى هذا، فما أقبحه من مشروع وما أضره على الشرع وما أبرده على قلب إبليس.

عالم شافعى: نعم قد قيل إن عيسى عليه السلام لا يظهر إلا بعد أن تدرس معالم الشريعة فى الأرض، ولا شبهة فى أن مشروع اليوم هو علامة ظهور الدجال قبل عيسى عليه السلام، ولكن سبحان الله إذا كان ولابد من تعيين قاض من مصر فهلا تجد الحكومة طريقاً لعدم اختصاص السادة الحنفية بالوظائف الكبرى دون سواهم، أو لم يكفهم أن جراياتهم فى رواق الحنفية تفوق غيرها مع ما يصيبهم فوق ذلك فى توزيع الجرايات من أوقاف زينب هانم وراتب باشا.

عالم مالكى: إنى أعرف شيخاً جليلاً مضى عليه تسع سنوات فى تدريس حاشية البنانى على السعد مستصحبًا تقرير الإنبابى عليها وهو لا يأخذ إلى الآن إلا نصف جراية ولا يزال ينتظر الدور مثل كثير من أمثاله؛ لاتساع مرتب الرواق فيحصل على جراية كاملة ولو كان المسكين حنفيًا لامتلأ بيته خبزاً فباع منه ما زاد عن حاجته فادخره مالاً.

العالم الأول: إنما الدنيا لعب ولهو ما عند الله خير وأبقى، وإنى أشهدكم أننى لا أقبل منصب القضاء ولو أعطونى ما أعطونى لأن يقينى غير مرتاح إلى ما ادعاه النظار من أن ولاية القضاء لمصر.

الشيخ المرشح: كيف فعلتم أيها الأستاذ فى تعيين المرحوم الشيخ عبدالرحمن نافذ وتركتم المغفور له إسماعيل باشا يذكر فى الأمر الصادر بتوليته بناء على انتخابكم "بما لى من الولاية العامة".

العالم الأول: إننى تمارضت ذلك اليوم فلم أحضر المجلس، ومع ذلك فمن الذى كان يجرأ على معارضة إسماعيل باشا فى رغائبه أو يتظاهر بالسك والارتياب فى ما يفعله ويأتيه هو أمرنا بالانتخاب وانتخبنا اتقاء للشر وعملاً بالقول الكريم "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" أما الآن فإن الخديوى لم يأمرنا بأمر ومن الواجب علينا إذاً المحافظة على الشرع الشريف وحاشا أن ترضى بمخالفة أحكامه ونعيم الدنيا ظل زائل،

وبماذا نلقى وجه الله إذا أخفينا فى أنفسنا ما تلقيناه عن مشايخنا ليس ثم ما يمنعنا عن المجاهرة به.

الشيخ المرشح: يقولون إن مرتب القاضى لا يطرقه نقص بل يبقى مائة وخمسين جنيهاً على ما هو عليه، وأنا والحمد لله في غنى عن المرتب الذى يرزى بالدين وما أرضى بقبول المنصب ولو راودتنى عن نفسها الجبال الشم من ذهب، وهم يقولون أيضًا فى تحليل مشروعهم إن الأمر الذى يصدر بتعيين القاضى سيذكر فيه العبارة التى قالها إسماعيل باشا "بما لى من الولاية العامة" ربما أضافوا اليها" والتفويض الشرعى أيضاً" ولا شك أن بعد ذكر هاتين العبارتين لا يبقى شك فى أن الخديوى له حق التولية ومع ذلك فالحكومة تعلم أنه لا يقبلها منا أحد وقد أشيع أن القاضيين المنتدبين من الاستئناف لا يكتفيان بترك محكمتهما وقوانينها الوضعية بل أنهما سيتوبان الى الله توبة نصوحاً عما فرط منهما وبذلك يمكن للقاضى أن يأذن لهما بالحكم.

العالم الأول: ولكن يلزم أن يمر على التوبة ستة أشهر على الأقل قبل جواز الإذن لهما بالحكم الشرعى، ألم تر أن السكير إذا تاب فإن توبته تقبل عند الله ولكن القاضى لا يقبل شهادته ما لم يمر على توبته مدة كافية من الزمن يتبين له فيها صدق توبته.

الشيخ المرشح: ومع هذا كله فطاعة أولى الأمر واجبة قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" وما علينا إلا الإرشاد والبلاغ "ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى" "إنك لا تهدى من أحببت" "ومن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها" "قل كل يعمل على شاكلته" وقاعدة الأشباه فى ارتكاب أخف الضررين مشهورة، وقد جوزوا إتلاف الثلث لإصلاح الثلثين ومن لنا إذا تركناهم وشأنهم وبقينا على إبائنا للمنصب بمن يمنعهم عن استحضار قاض من الهند – وتلك التى تستك منها المسامع – ولا يزال سميع الله خان يذكر بيننا إلى اليوم.

العالم الأول: أراك أيها الأستاذ تدخل من باب وتخرج من باب وتضرب قولاً بقول كأن حاجة فى نفس يعقوب.

الشيخ المرشح: حاشا لله أن أكون مبطناً خلاف ما أظهر، وذو الوجهين لا يكون

عند الله وجيهاً وأنا لا أزال على رأيى القديم أنصح به فى نبذ المشروع ومقاومة من يدخل فى الشرع من غير أهله، ولا أزال أتمثل فى كل صبح ومساء بقول أحد الشعراء:

ضل الذين قضوا شريعـــــــة وتحكموا فى ناس حكم ثمود

نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم وتصدروا للحكم بالتلمـــود

قال عيسى بن هشام: وعلى هذا انفض المجلس وقام الشيخ المرشح يجر المحامى وراءه وسمعته يخاطبه فى منصرفه بقوله "هلم بنا إلى صاحبنا نكرر عليه الاستنجاد به عسى أن يصدق معى البخت ويساعدنى الحظ فارتقى سنام ذلك المنصب والله يعطى من يشاء بغير حساب.

من مصباح الشرق (٥٩)
١٥ يونيو ١٨٩٩
فترة من الزمن

فقال الباشا: لقد رددت إلىَّ صبرى وهونت علىَّ من أمرى، ولكن دعنى أبكى هذه الدمن وأفكر فى صروف الزمن، واتركنى أسكب العبرة بعد العبرة وازداد عبرة إلى عبرة وأتأمل فى المبدأ والمآل واشكر الله على كل حال، ومال إلى ظل الشجر فتوسد الحجر ثم أخذ كأنه يخاطب الجد القديم ويستبكيه فعل الدهر القديم، إلى أن اعتراه الوهن فأخذه الوسن فتركته فى منامه يستريح من أوصابه وآلامه، وملت ناحية فإذا أنا بشابين يتشابهان رشاقة وظرفًا ويتماثلان رقة ولطفًا، عرفتهما وهما وإن اتفقا فى الجنسية والمذهب فقد اختلفا فى السياسة والمشرب، أحدهما تربى فى إنكلترا والآخر فى فرنسا، فدنوت منهما وسلمت عليهما وكان الحديث بينهما يجرى فى مضمار السباق ورهان الجرد العتاق، ويقول أحدهما: أما فلان صاحبك فقد رهن ما يمتلك من العقار والأفدنة ليقتنى المركبات والأحصنة، وأما فلان فقد با ع ما لزوجته من الأساور والخواتم ليشترى السروج والشكائم فيتفاخران بالخيل المسومة والمركبات المعلمة كأن لم يبق من سمات الأقدار الخطيرة إلا أن يقال ما أحسن خيل فلان فى ركب الجزيرة، فقال الآخر دعنا من هذا وهلم بنا نسمع ما يدور الآن على ألسنة العوام من حوادث هذه الأيام، وأشار إلى رجلين من ذوى العمائم فعرفتهما فقلت: أما أحدهما فتاجر وأما الآخر فعالم، وكانا جالسين على الأرض فوق نباتها الغض وقد وضع كل منهما عن رأسه العمامة وبين يديه سكين وشمامة وكان بجانبهما مقاعد، فسلمنا وجلسنا وفتحنا باب الحديث معهما وأنسنا ودارت بينهم المحاورة على الأحوال الحاضرة:

التاجر: ما هى أخبار الطاعون فى علمكم اليوم.

الوطنى الفرنسوى: انظر إلى هذه البساطة والسذاجة ودخول الحيلة الإنكليزية على الناس وتصديقهم بمفتريات أهل السياسة وأباطيلهم، وما الأوبئة والطاعون إلا شباك يصيدون بها الأغراض والمآرب، أما علمتم أنهم كلما أرادوا مكيدة بالمسلمين وإهانة لهم

جلبوا إليهم من الهند جرثومة من جراثيمه ليزعجوا الناس، ويوقعوهم فى الهياج ويتذرعوا بذلك إلى فعل تلك الإهانة شفاء لما فى صدورهم، أرادوا إهانة الجامع الأزهر فاتخذوا الوباء وسيلة الى إطلاق الرصاص عليه، أرادوا إبطال الحج فجعلوا أخبار الوباء حجة على المنع سنة بعد أخرى، أرادوا خلط الشرع بالوضع فلم يفلحوا فأرادوا الانتقام فاستنجحوا بهذا الطاعون.

التاجر: تالله إنك لصادق فيما قلت وأنه لكلام معقول، وإلا فما معنى حدوث الأوبئة فى مصر آناً بعد آن فى زمن هذا الاحتلال بعد أن كنا لانسمع ذكر الوباء إلا حكاية من الجد عن الجد ولا يفوتك ما فى ذلك من تعطيل تجارة الغير وترويج تجارتهم.

العالم: "ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون "واعلموا أن ما نزل لكم من هذه المحن إنما هو لتهاونكم بالعلماء وازدرائكم بأقوالهم واستخفافكم بأقدارهم، وميلكم عن علومهم النافعة فى الأولى والآخرة إلى تلك العلوم الحديثة الضارة بالدنيا والدين المخلة بقواعد اليقين، مع ما يضاف إلى ذلك من انحرافكم عن الاسترشاد بنا عند الوقوع فى الملمات فخالفتم قوله تعالى "واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون"، وهل غير العلماء يدفع عنكم الخطوب ويكشف النوازل ويصادم النكبات؟ وهذا شيخنا الأكبر لولاه لقضى على الشرع، ولولا دفاعه ونضاله عن الدين وشريعته لأصبحت أثراً بعد عين.

التاجر: يا لها من همة عالية ويا لها من عزيمة ماضية ويا له من ثبات عظيم وموقف جليل قد رد الدين إلى نصابه وحفظ للشريعة مقامها، وعلم الله أنى قضيت الليالى الطوال لم يغمض لى جفن ولم يرفأ لى دمع بأهلى وعيالى، حتى لقد هانت على نفسى وجازفت بوضع اسمى ولا فخر مع الذين أمضوا على تلغراف الشكوى من هذه النازلة، وإنى أحمد الله على حسن العواقب ونيل هذا الفخر وجزا الله ذلك الشيخ الجليل عن الإسلام كل الجزاء.

العالم: بارك الله فيك وفى أمثالك وليت كل الناس يحفظون للشيخ هذا الجميل ويعرفون له هذا الفضل لا سيما العلماء منهم، ولكنهم لم يذكروا له ذلك إلا ريثما قام به

ثم قعد فى بيته فانحبست ألسنتهم عن الشكر وانطلقت فى ذكر ما يأخذونه عليه من سيرته الماضية فى إرادته، فأصبحوا يقولون إنه كان رجلا متهوراً بعيداً عن التقيد بروابط النظام فى أعماله، تاركاً لقواعد الأهلية والاستحقاق فكم قدم من يستحق التأخير وأخر من يستحق التقديم وسار فى طريق المحاباة والمراعاة والأخذ بالوسائط.

الوطنى الفرنسوى: قاتل الله الإنكليز هل سمعتم بمثل هذه الأفعال فى تونس والجزائر وهل علمتم هناك بوقوع مثل هذه الخدع وهذه الحيل التى يتخذها الإنكليز أسباباً لتنفيذ مآربهم، ولو فقه المصريون هذه المكائد وتنبهوا إلى هذه الدسائس لما أصابهم من الدهاء الإنكليزى ما أصابهم ولما رسخت قدم الاحتلال فى أرضهم.

الوطنى الإنكليزى: نعوذ بالله من أمراض الأعراض ومن أدواء الأهواء يا ويحكم أفكلما طرق طارق من السماء أو طرأ طارئ فى الأرض أو عرض عارض من الجو أو حدث حادث من الدهر قلتم شبكة إنكليزية وحيلة بريطانية، وجعلتم الأقدار مسخرة لأمر الإنكليز يستخرجون من مواقعها ما صغر وما كبر من أغراضهم، ولو كانوا من القوة الخارقة على ما تصورونهم به لما احتاجوا لنصب الشباك وتحيل الحيل، على أن الإنكليز قوم من البساطة وسلامة النية بمكان عظيم وهم كغيرهم من الناس يحتاجون إلى الهداية والإرشاد فى ما يجهلونه من الأعمال، وكان الأولى بكم أن تنزلوهم منزلتهم من هذه البساطة وتحفظوا لهم سلامة نيتهم نحوكم فتسيروا أمامهم فى طريق ما يرمونه لكم من الإصلاح وتنتفعوا بذلك أعظم النفع، لا أن تضعوهم كلما راموا إصلاح مختل أو تقويم معوج موضع المحتلين المذلين والمخادلين الماكرين فتسيئوا بهم الظن فيسيئوا بكم، وتسقط الثقة بينكم وبينهم فيضيع النصح والرشد فيما بين الجانبين، فتضطرونهم إلى ابتكار المشروعات التى تبلغها أفكارهم فى مصالحكم ويحملونكم على تنفيذها والأخذ بها، وما أحوجهم إلى عقلاء منكم يعرفون سلامة نيتهم ويعتقد الإنكليز فيهم الصدق فى القول والعمل وبعدهم عن الأغراض والمؤثرات التى تنأى بهم عن الحق جانباً فيبادلونهم الثقة ويأخذون بإرشادهم ويعملون برأيهم ولكنهم لم يروا منكم فى جميع أعمالهم إلا العكس من ذلك، هذا شيخ الجامع أقام زمناً فى وظيفته لا يرى منه إلا اللين ولم يعرف بغير التساهل فى الأمور شخصية كانت أو متعلقة بوظيفته الدينية فلمّا هجمت العساكر بنيران البنادق وطبى السيوف على الأزهر الشريف كعبة المسلمين فى علوم الدين،

وصوبوها إلى صدور ملؤها العلم وحشوها كتاب الله، فاختلط سواد المداد بحمرة الدماء فما راعنا إلا تقرير الشيخ يعتذر به عن القاتل ويهدر به دم القتيل ويسترضى به القوى مكان الغضب للضعيف، أرضى ويغضب قاتلى!! فتعجبوا يرضى القتيل وليس يرضى القاتل، وكان الشيخ حاضراً فى الجلسة التى قال فيها تلميذه ناظر الحقانية عند كلام فى توحيد حسابات الأوقاف "إذا كان الشرع الإسلامى كما تصفون فإننا لانعمل به" فابتلع الشيخ هذه الكلمة وطوى عنها كشحاً ولم ينطق بكلمة تقتضيها حمية الدفاع عن الدين.

تساهل فى حقوق وظيفته فلم يكترث بتواتر وقوع الغبرة على ما يتعلق منها بديوان الأوقاف ودأب فى إرضاء غابنيه فى الأمور المشتركة بينه وبينهم وفى ما له حق التصرف فيه، تساهل فى حفظ كرامته إلى درجة أنه رضى لنفسه بما كتب إليه أحد المحامين مما يحط بقدره وغض الطرف عنه وسكت عليه، على أن كلمة واحدة منه لنظارة الحقانية كافية لتأديب المستهين به، تساهل الشيخ فى هذا وفى كثير من أمثاله حتى اشتهر ذلك عنه، وطالما نادى المحتلون بوجوب إصلاح المحكمة الشرعية سائلين أهل الشرع عن وجوه هذا الإصلاح محرضين لهم على فتح بابه وسلوك طريقه، فلم يروا منهم إلا الامتناع والإباء مع اقتناعهم بوجوه الإصلاح، فلما أعياهم النداء اندفعوا لفتح باب الإصلاح بيدهم على قدر علمهم وما يرشدهم إليه حسن نيتهم، فما يشعرون إلا وقام الشيخ فى وجههم على خلاف سيرته ونقيض عادته يدافع ويناضل ويعارض ويجادل ويتهور تهوراً لم يعهد فيه من قبل فى كثير من المواقف التى كانت أعظم تعلقاً بالدين من مشروع المحكمة، وقد قام قومته فى مجلس شورى القوانين ورفض المشروع باسم الدين، فأيقنت الحكومة أنه أمر بيت بليل وأن الشيخ متأثر بمؤثرات خارجية عن كنه المشروع وموافقته للشرع أو مخالفته له ولذلك لم يثقوا برأيه، وتأكدوا من عمله أن المقصود خذلان الحكومة وقضاء حاجات فى النفوس، ولو أن الشيخ قال للحكومة قبل عرض المشروع على المجلس أن لى فى هذا المشروع بحثاً وكلامه يخلو به المشروع مما عسى أن يخالف الشرع، لبادرت الحكومة إلى إجابته ولأخذت برأيه ومشورته ولاستفادت منه تصحيحاً للمشروع،أو استرشدت منه إلى مشروع آخر تدخل به الإصلاح المطلوب، ولا يعتذر له معتذر بأن الحكومة لم تدعه بادئ الأمر لأخذ رأيه فى المشروع لأنه مفتى الديار المصرية وعليه أن يقوم من نفسه بمقتضى وظيفته لإرشاد الحكومة بما يراه أو يسمعه فى ما

يختص بالشرع الشريف، ولو أن بعض الوقت الذى قضاه فى ذهابه الى بعض رجال الحكومة بحث معهم فيه لأخذوا برأيه ولم يقع ما وقع من ذلك الاضطراب والارتباك وتشعب المشاكل، ولا يقال إن الشيخ بطيء الحركة فى قصد رجال الحكومة فإنه طالما قصدهم فى جزئيات الأمور التى تدور على توزيع الجرايات والأرغفة، وقد نزل بجلالة قدره إلى الذهاب الى بعض عمال مجلس النظارة يستنجز ما لديهم من الأوراق التى تختص بزيادة مرتبه عشر جنيهات، ولكن الشيخ لم يعمل بواجب وظيفته فى إرشاد الحكومة وآثر أن ينتظر المشروع فى مجلس الشورى انتظار الخصم والمعارض والعدو والمعاند والباحث على خذلان الحكومة فى أعين الناس ليحكم عليها بالخروج عن الشرع ويسجل انحرافها عن الدين.

وأنتم تعلمون أن النظار قوم مسلمون وأن الإنكليز قوم اشتهروا باحترام الأديان والابتعاد عن المعتقدات، فلا يعقل أنهم كانوا يصرون على المشروع إن سلك الشيخ بهم طريق الإرشاد والتنوير، وأما ما يقال من أن للمحتلين غرضاً مخصوصاً فى المشروع للحط من سلطة الشرع وخلط المحكمة الشرعية بالمحاكم الوضعية، فذلك باطل فى باطل لم يوجبه إلا سوء الظن واعتقاد سوء فيهم وهو من قبيل اتهامهم بتسخير الأوبئة والطاعون واختلاف الحوادث العظيمة لخدمة أغراضهم وما أطوع الحكومة للعمل بكلمة الدين لتظهر للملأ أنها محافظة على الشريعة خروجاً عن وصمة الاستسلام للأجنبى، وما أطوع الإنكليز لسماع كلمة الحق من أهل العلم فى الدين يبادرون إلى العمل بها ليزيدوا الناس برهاناً على برهان أنهم لا يقصدون النكاية بالأديان فى كل أرض احتلوها لأن مدنيتهم فى الوقت الحاضر سلخت من صدورهم ما كان فى صدور آبائهم من أهل القرون الوسطى، ولا أجد أفضل للعالم التقى من إرشاد قوم دينهم احترام الأديان، فهو يقول وهم يفعلون إذا ثبت عندهم خلوه عن الغرض وصدقه فى خدمة الحق وإخلاصه فى النصح.

العالم للتاجر: لقد أصاب الأول ولم يخطئ الثانى ولله در شباننا فى سعة اطلاعهم وقدرتهم على إقامة البرهان لخدمة أوطانهم.

التاجر: دع الخلق للخالق ونسأل الله أن يحفظ علينا السلامة ويحسن لنا العاقبة وأن يقينا شر الدخول فى ما لا يعنى.

الوطني الفرنسوي: يا خيبة الأمل وضيعة العمل ماذا أسمع منكما وأنتما من أهم أجزاء هذا الوطن ومحبة الوطن من الإيمان، وكان الأجدر بكما وبأمثالكما أن تتألموا معنا بما نتألم منه وأن تثبتوا على مبدأ واحد تجعلونه نصب أعينكم ووجهة أفكاركم وأعمالكم، فتتحدوا معنا على الكلمة العالية كلمة الوطن التي لا تقاوم بشقشقة اللسان وبلاغة البيان وإحكام البرهان وما اعداها فألفاظ وحي المعنى، وكفى بالتعذيب في حب الوطن فخراً فقد استعذبته النفوس العظيمة، وأين أنتم من ذلك الروماني الذي أسرته قرطاجنة ثم أرادت مبادلة الأسرى بينها وبين الحكومة الرومانية فبعثته الى حكومته ليخابرها في ذلك واعتمدت على كلمته في الرجوع فذهب الى رومية فأشار على مجلس السناتو بأن ليس من مصلحة الجمهورية الرومانية أن تستبدل الأسرى وهو الأسير، وكر راجعاً الى مقر أسره وهو على يقين بما سيلاقيه من التعذيب على بذل هذه النصيحة التي رآها نافعة لحكومته وتحمل تعذيب الجسم للذة الروح.

وأين أنت أيها الشيخ العالم من ذلك العربي وقد حاصر التتار مدينة من أعمال أذربيجان حصاراً شديداً واستضعفوها وكادوا يملكونها، وتوجه إليها لمعونتها سعيد الحرشي من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة، فأرسل واحداً من أصحابه الى أهلها سراً يعرفهم وصوله ويأمرهم بالصبر خوف أن لا يدركهم، فسار الرجل فلقيه قوم من التتار فسألوه عن حاله فكتمهم فعذبوه فأخبرهم وصدقهم فقالوا إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك، فقال ما تريدون قالوا أنت عارف بأصحابك بالمدينة وهم يعرفونك فإذا وصلت تحت السور فنادهم أن ليس خلفي مدد ولا من يكشف ما بكم، وإنما بعثت جاسوساً فأجابهم إلى ذلك، فلما صار تحت سورها وقف حيث يسمع أهلها كلامه وقال لهم أتعرفونني قالوا نعم، قال فإن سعيد الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد وهو مصبحكم أو ممسيكم، فرفع أهل البلد أصواتهم بالتكبير وقتل التتار ذلك الرجل ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة أهلها سالمين "لمثل هذا فليعمل العاملون".

قال عيسى بن هشام: وقام الباشا يناديني من رقدته فأسرعت لإجابة دعوته.

من مصباح الشرق (٦٣)
١٣ يوليه ١٨٩٩
فترة من الزمن

الباشا: قل لى بالله من هؤلاء المضطجعون على الأسرة فى صدر المكان كأنهم آل كسرى وآل ساسان جلوسًا فى صدر الإيوان، ومالى أراهم فى سكون لا ينطقون ولا يتحركون أهؤلاء عندكم أيضاً من محدثات الزينة فى الأعراس أم هم من متممات الزخرفة فى مجالس الائتناس.

صاحب الظريف (داخلاً معنا فى الحديث): "فاسألوهم إن كانوا ينطقون"

عيسى بن هشام: هؤلاء هم حكام القطر وأولياء الأمر.

الباشا: وهل الحكام عندكم حكام فى مجلس الأنس ووليمة العرس يتخذونها دستاً للأبهة والعظمة ويتردون فيها برداء الكبرياء والخيلاء كما يتكلفه الحكام فى مجالس الحكم ولما تقتضيه من الهيبة فى النفوس والتوقيع فى الصدور، وإنى لأتذكر ما كنت أتكلفه لذلك فى زمان حكمنا فاتنغص به، وما أعلم معيشة دائمة التكلف والتصنع، ولقد كان الحاكم منا إذا انتهى من دائرة حكمه وأخذ مجلسه فى بيته انبسط وجهه للناس وانحطت منه عقدة التقطيبة وترقرق فيه ماء البشر، والناس أعداء للحكم والحكام فليس من الحكمة أن تجمع عليهم بين مضاضة الحكم وغضاضة التكبر والتغطرس، ومقابلتهم بوجه دائم التجهم والتقطيب فى كل الأطوار واختلاف المجالس؛ ولذلك كنت ترى الناس أكثر ما يقصدون الحكام لحاجتهم وهم فى بيوتهم لخوفهم وانكماشهم أمام هيبة الحاكم فى دست حكمه، ولاعتماد نفوسهم على سهولة جانبه وسكون قلوبهم وإلى انطلاق وجهه وانبساط نفسه وهو بعيد عن محل حكمه.

صاحب الظريف: نعم إن الأمر لدينا على ضد ما تقول وعكس ما تصف فالحكام عندنا حكام فى بيوتهم أمراء فى بيوت الناس ورعية فى دواوينهم، فترى الواحد منهم فى مكان حكمه ودولة إقباله جذرا وجلاً متضائلاً منكمشاً يخشى عين المراقب وإن كان

ـنه فى الرتبة، ويفرق من لحظة المترصد وإن كان تحته فى الدرجة، فهو كالطالب فى حلقة الدرس والتلميذ فى صف الامتحان، إذا قصدت الحاكم هناك وقلَّ من يقصده وجدت لديه من البشر والترحيب وحسن التخليص ولطف الاعتذار وجميل الرد وبساطة النفس مثل الذى نصف به أمراء زمانكم فى بيوتهم وبيوت غيرهم، فإذا تخلص من عقال منصبه وانطلق فى مجالس الناس ومحافل أنديتهم انقلب البشر اكفهراراً والترحيب ازوراراً وغدا السهل صعباً والذلول جموحاً، وحكامنا أعزك الله لصغر نفوسهم فى أنظارهم وشدة هوانها فى أعينهم وحذرهم من انكشافها للناس واطلاعهم عليها يحاولون تغطيتها بغطاء الكبر ويدأبون فى سترها بستائر التيه ويتصنعون الظهور بمخائل الاختيال وشمائل العجب، فيتفننون فى تعظيم هيئاتهم عند مشيهم وتهويل صورهم عند جلوسهم، ولبعضهم دروس أمام المرآة فى الحركات التى يرضونها لأجسامهم يتمرنون عليها جانباً من وقتهم، وما مثلهم إلا مثل رجل من أعيان المصريين كان معروفاً بالبلاهة وكان يهوى غادة فى حانة خمار فيدخلها ويحاول الاختفاء عن أعين الجالسين من العامة حفظاً لمقامه وصوناً لكرامته فيجلس مسنداً ظهره إلى عمود فى وسط الحانة متوهماً أنه توارى عن أعين الخلق، أو كالنعامة إن أزعجها الأسد أو أفزعها صوت الصائد طوت رأسها تحت جناحها وأيقنت أنها توارت عن الأعين بجميع جسمها، على أنهم فى الواقع ونفس الأمر قد انخفضوا من حيث أرادوا الاعتلاء وانكشفوا من حيث أرادوا الاستتار فإن إفراطهم فى كبريائهم ومبالغتهم فى خيلائهم دفع الناس الى البحث عن مبلغ قدرتهم والتنقيب عن منتهى سلطتهم ليطابقوا بين ذلك وبين ما يتكلفونه من الإيهام بعظمتهم والتهويل بمناصبهم، فظهر للناس ما بطن وكان سقوطهم من أعينهم بمقدار تغاليهم فى تعاليهم، استغفر الله إلا ما يكون من هؤلاء الذين تراهم بجانبنا لا يستقرون على هيئة فى جلوسهم كأنهم جالسون على شوك القتاد.

الباشا: صدقت فإنى أراهم على ما تقول فمن هم وما سبب اضطرابهم؟

الصاحب: هؤلاء فئة من أعيان المصريين وتجارهم لم تزل عندهم بقية مما ترك فى نفوسهم الحكم السابق من وجوه التزلف إلى الحكام والتفاخر بأدنى صلة بهم، فتراهم يتحفزون للقيام لكل داخل فإن علموا أنه كبير أو حاكم قاموا تعظيماً له وإجلالاً ليفتخروا على أقرانهم بإشارة سلام منه نحوهم، وإن علموا أنه على خلاف ذلك عادوا إلى جلوسهم

بعد اهتزازهم، وانظر الآن كيف تشرئب أعناقهم ويحدقون بأبصارهم نحو مجلس الكبراء يستلفتون إليهم من أخطأهم سلامه منهم عند دخوله.

قال عيسى بن هشام: فنبهنا هذا الانتقاد اللطيف إلى توجيه النظر ناحيتهم والإنصات لما يجرى به الحديث بينهم، ولله در صاحبنا إذ كشف عن غمتنا وروح عن أنفسنا فإنه كلما دخل من الباب داخل وتحرك منهم متحرك وقام منهم قائم استغرقنا فى الضحك ولم يتملك الباشا نفسه من التبسم فيوارى فمه بمنديله ومر صاحب البيت فسمعنا قائلاً منهم يقول:

أحدهم: كم تقدرون ما أنفق صاحب العرس على هذا الاحتفال؟

آخر منهم: أنفق عليه كل ما كان لديه من الثروة وسيخرج منه صفر اليد خال الوطاب.

آخر: لا حول ولا قوة إلا بالله وما الذى اضطره إلى هذا السفه ومن أين يرتزق وينفق على بيته بعد ذلك؟

آخر: تنفق عليه عروسه فقد سمعنا أن لها متاعاً تنفق منه من سعة ووقاك الله شر الرياء والسمعة فما اضطره إلى ذلك إلا حب التفاخر على الأقران.

قال عيسى بن هشام: وما كادت تحين نظرة من صاحب العرس إليهم حتى قطعوا الكلام ونهضوا على الأقدام يستعدون لتحيته وسلامه، واشتغلوا به، فاشتغلنا عنهم بالنظر إلى فئة أخرى من الشبان يضحكون ويقهقهون ويدور حديثهم على النساء والغلمان فيقولون بنت فلان وابن فلان فغضضنا النظر عنهم وأنفنا السماع منهم، والتفتنا ناحية فإذا بالأصوات قد علت من بين فئة أخرى، وإذا هم يتجادلون ويتناقشون فى القضايا والأحكام والقوانين واللوائح فعلمنا أنهم جماعة من القضاة والمحامين وبينا نحن كذلك إذا بجماعة من المشايخ والعلماء خارجين من جوف البيت مسرعين مهرولين لا يلوون على شىء وخدمة الموائد فى أعقابهم يحملون فوارغ الآنية وبقايا الطعام.

من مصباح الشرق (٦٩)
٢٤ أغسطس ١٨٩٩
فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: فتخيرت من مجتمعات القوم فى منتديات اليوم ما يقوم به وفاء العهد وإنجاز الوعد عن وقوف الباشا على ما يجرى فيها من ظواهرها وخوافيها، واستقر فى عزمى أن أزور به أربعة مجامع مختلفة المشارب والمنازع فندخل منتدى السادة الأعلام من علماء الإسلام مصابيح الدين ونباريس اليقين ونجوم الإرشاد ورجوم الإلحام ونصراء الحق وحلفاء الصدق وهداة كل ضال وأسباب الوصلة بين المخلوق والخالق، حيث يعلم الباشا ما مدار محاضرتهم وما مغزى مسامرتهم.

ثم نلج مجتمع الأعيان والتجار زينة المدائن وبهجة الأمصار وعماد العمران والحضارة ودعائم الصناعة والتجارة ومواضع الصدق والأمانة ومواطن الحزم والرزانة ووسائل الثروة للدول والممالك وذرائع النجع فى تمهيد السبل والمسالك؛ فيقف الباشا على مبلغ أحوالهم بما يسمعه من أقوالهم، ثم نحضر محضر أرباب المراتب من ذوى الوظائف والمناصب ممن تقام بهم الأحكام وتفتخر بهم الدفاتر والأقلام ويستقيم بهم قوام الأمور ويتوقف عليهم نظام الجمهور وتشرف بهم أنوار العدل وتتحلى بآدابهم أندية الفضل معادن العفة والاستقامة ومصادر النزاهة والكرامة فيخبر الباشا خبرهم ويسبر غورهم.

ثم نشهد مجلس الأمراء من العظماء والكبراء... سادة الأقطار وقادة الأفكار وساسة الأمم وأرباب السيف والقلم وذوى النعمة والترف وأصحاب العظمة والشرف وأهل الرئاسة والزعامة وأولى العزة والشهامة فيستطلع الباشا طلع أمورهم من خلال قصورهم.

من مصباح الشرق (٧٣)
٢١ سبتمبر ١٨٩٩
دور الوزارتين

يروى أن أحد أرباب الجرائد زار سعادة ناظر الأشغال العمومية فى رودس حيث يقيم للتريض والتروح بين الرياض والفياض والماء والخضرة فدار بينهم هذا الحديث:

المكاتب: لقد أصبحت الأفكار اليوم فى شغل شاغل وبات الناس فى ظن وحدس ورجم وحسبان، وقد جئتك استقى من بحر معارفك ما تجود علىَّ به من أخبار نظارتك لأروى للناس منها ما يفيد ويشفى وينفع.

الناظر: ليس من أخبار النظارة عندى ما يهم اطّلاع القراء عليه فالمدارس بحمد الله مغلقة والتلامذة فى تلك مسامحة، وإدارة الديوان يديرها أرتين باشا بالنيابة عنى، ثم يرثنا دنلوب من بعده عند سفره، والمشروع الوحيد المهم فيها هو الذى أدرسه الآن ولا يليق اطّلاع أحد عليه إلا بعد تقريره فإنا نخاف عليه تشنيع الجهلاء وانتقاد من لا يعلمون وجوه الحكمة فى أعمالنا، وهو ترتيب قاعدة جديدة لارتفاع أسعار التعليم حتى يقتصر أمره شيئاً على أولاد الأغنياء، فإنى لا أنسى ما قاله لى خوجة أفندى المفتش بالنظارة أن المتقدمين قالوا فى حكمهم لا تعلموا أولاد السلفة العلم، وأرى أن أحسن طريقة لدفع هذا السيل المنهمر على المدارس من الطبقات الدنيا أن نزيد فى غلاء أجرة التعليم فلا يدخلها إلا من كان ذا تليد وطريف، وقد بدأنا بتقرير ثمن الطعام على القسم المجانى وقريباً نلغى هذا القسم بتمامه ونمحو بذلك ما كان باقياً من سوء الإدارة القديمة، فقد كان وجود هذا القسم يدل على التأخر ومساواة المدارس بالجامع الأزهر.

المكاتب: ليس سؤالى عن أعمالكم فى نظارة المعارف وإنما أسألكم فى نظارة الأشغال وما أعددتموه لدفع الطارئ وتلافى الضرر.

الناظر: وماذا عسى أن يكون قد حدث فى نظارة الأشغال من الأمور المهمة وكل

أعمالها جارية على أحسن ترتيب وأكمل تنسيق، وأهم الأعمال التى أنظر فيها الآن من جهة هذه النظارة هى البحث فى أسباب التأخير التى حالت دون افتتاح خط تراموای الأهرام بعد أن أعلنوا عن افتتاحه فى أول شهر سبتمبر فإن مثل هذا الإخلال بالمواعيد ما لا يليق بنظارة الأشغال السكوت عليه.

المكاتب: غرضى كله أيها الناظر السؤال عن أحوال النيل.

الناظر: أراك ضعيف العلم قليل الوقوف على نتائج الإصلاح فى مصر وهل يسأل أحد الآن عن النيل إن نقص أو زاد بعد الفوائد التى وضعت فى إصلاح الرى، فهو يجرى ببركته على ميزان مستقيم وترتيب محكم، وما أشبهه فى ضبط توزيعه اليوم بقومبانية المياه حتى أن هناك مشروعاً لوضع العدادات، فما المناويات فى وجه السؤال عنه بعد ذلك وقد مضت تلك الأزمان التى كان يخشى فيها على مصر من الغرق والشرق، أما الغرق ففى متانة الجسور وعلوها ما يدفعه وأما الشرق ففى انتشار الآلات والسواقى ما يغنى.

المكاتب: وجه السؤال أن النيل نقص فى هذا العام نقصاً عظيماً ويقولون إنه يتخلف بسببه كثير من أطيان الوجه القبلى بدون رى.

الناظر: ومن أين علمت ذلك؟

المكاتب: علمته من الجرائد المصرية فهى لا تشتغل اليوم بسواه بعد أن كانت لا تهتم بغير وقائع البوليس.

الناظر: لا تعبأ بأقوال الجرائد المعارضة فهى تفترى المفتريات وتخترع الروايات بقصد الطعن على الحكومة والحط من قدر الإصلاح، ويودها لو نزلت الصواعق من السماء أو انخسفت الأرض بمصر لتلقى تبعة ذلك وجريمته فوق كواهل القابضين على أزمة الأحكام.

المكاتب: إن أخبار النيل قد استوت فى روايتها الجرائد المعارضة والجرائد الموافقة وإنى لأعجب كيف لم يقع لك يا سعادة الناظر علم بالواقع الى اليوم.

الناظر: أنا لا أقرأ الجرائد المعارضة بالطبع وقد هجرت قراءة الجرائد الموافقة

بعد أن صدر الأمر بمنع أخبار الحكومة عنها فلم يبق لنا فى اطلاعنا عليها من فائدة ولا يحسن منا الثقة بها بعد ذلك ولم يرد إلىَّ من النظارة خبر رسمى عمَّا تزعمه إلى الآن.

المكاتب: إن أخبار نقص النيل صحيحة على أى حال وهم يقدرون عدد الأطيان التى لا تزرع هذه السنة بما يفوق مائة ألف فدان فما قولك فى هذا التقدير وفى عواقبه.

الناظر: مثل هذا التقدير يكون من شأن نظارة المالية لعلاقته بعجز الضرائب وللناظر علم خاص به فلا تخاطبنى فيه لأنه ليس من خصائص نظارتى، وعلى كل وجهة فإن مائة ألف فدان ليست بشىء يذكر فى جنب خمسة ملايين فدان تزرع فى كل سنة، وأنا أسألك أيها المكاتب هل سمعت بأن نقص النيل يكون له تأثير فى الوجه البحرى.

المكاتب: لا أعلم ذلك على التحقيق واهتمام أرباب الجرائد الأجنبية الآن هو بالوجه القبلى.

الناظر: أنا على اليقين بأن الوجه البحرى لا يصيبه شىء بإذن الله ولا يكون الضرر إلا على بعض الأهالى بالوجه القبلى، ولطالما نصحت أصحابى بعدم حيازة أطيان فى الوجه القبلى لكونه عرضة لمثل هذا الخطر وأرى لك أنه لا يجب عليك أن تهتم لمثل ذلك.

المكاتب: كيف لا يشتد الاهتمام وأنت تعلم أن لذلك تأثيراً على المالية المصرية وربما تسبب عنه هبوط فى قراطيسها، فقد أخذوا منذ اليوم يتكلمون فى تأخير شىء من أقساط الديوان حتى لا تختلّ ميزانية الحكومة.

الناظر: لا تأخذ أخبار البورصات وأقوال المضاربين، فإن الميزانية المصرية لا يعتريها خلل من هذا وأمثاله، وأنا أهديك قاعدة ومقياساً صحيحاً كالنبض فى يد الطبيب وهو ما دامت مرتبات الموظفين تدفع فى أوقاتها عند آخر كل شهر فميزانية الحكومة مستقيمة على الدوام.

المكاتب: ولكنى أرى على كل حال أنه لابد للناظر مثلك من المبادرة بالرجوع إلى بلاده فى مثل هذه الأحوال لمباشرة أعمال نظارة الأشغال حتى لا تنطلق ألسنة الناس باللوم كما يلام القائد إذا ترك جيشه وهو فى ساحة القتال.

الناظر (ضاحكاً): لا تحسب لذلك حساباً فإننا قد عودنا المصريين مثل هذه السيرة فإذا وقعت الحرب في السودان كان ناظر الحربية في حمامات كارلسباد وإذا نزل الوباء بأرض مصر تفرق رؤساء الحكومة في مدن أوروبا وإذا كان ما تزعمه من حدوث الشرق الآن كان ناظر الأشغال مقيماً في رودس.

قال المكاتب: ولما رأيت الناظر على ما هو عليه من الجهل بأحوال نظارة الأشغال نسبت ذلك إلى كثرة تفرغه لأعمال نظارة المعارف، وأحببت أن لا أعود من عنده بغير فائدة منه فعدت به للحديث عنها فوجدته يقف منها عند ذاك الحد التافه ثم يتخلص منه إلى الكلام في الأمور التافهة من نظارة الأشغال أيضاً، فتصورته في هذه الحالة كالنعامة إذا قيل لها سيرى قالت أنا من الطير وإذا قيل لها طيرى قالت أنا من الإبل.

من مصباح الشرق (٨٩)
١٨ يناير ١٩٠٠
فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام ولما حار أصحابنا فى داخل المكان قال لى الباشا:

الباشا: وإذا لم يبق أمامنا ما يشغل الناظر والخاطر فخبرنى بالله عن أمر كنت أحوم حول السؤال عليه فى كل برهة فقل لى ما هذا البرنس؟

عيس بن هشام: البرنس هو لقب منتحل للأمراء سبق لنا الكلام عنه فى بعض ما فات من حوادثنا وهذا الذى رأيته هو واحد منهم.

الباشا: وكيف يدخل أمير فى حان وما سمعنا قبل أن هؤلاء الأمراء ينزلون إلى مخالطة الناس فى مثل هذه الأماكن فهل نزل بهم الدهر فصاروا من القلة بحيث لا يقدرون على عقد مجلس اللعب واللهو فى بيوتهم؛ وسبحان الله لم يبق من عجائب الحدثان إلا أن تطلع الشمس من المغرب.

عيسى بن هشام: ليس ذلك منهم عن قلة ولا عن عوز ولكن ضاقت نفوسهم من سجن القصور ولم يبق لديهم من الجاه ما يدعو الناس للازدحام على أبوابهم والترامى إلى مجالسهم فهم يعيشون منفردين بمعزل عن الناس إلا ما احتاط بهم من الأفاقين من الغربيين طلاب الرزق وبغاة الندى، فيقيمون فى معاشرتهم حتى تنفذ الثروة وينضب المال بما يتفننون لهم فيه من الخداع والدهاء والمكر والرياء، فترى فيهم من ينتبه إلى هذا الحال ويعتبر بغيره فلا يرضى بالبقاء عليها، وتطمع نفسه إلى مخالطة الناس ومعاشرة الأهالى والتأدب بآداب المجالس والتروح بأحاديث المجتمعات، ولما كان الغالب أن مجالس المصريين لا تكون إلا فى هذه المحال فقد نزلوا هم أيضاً إليها فاختلطوا بالناس وتخلقوا بأخلاقهم ولعل من تراه منهم على هذه الحال هو أفضل أخلاقاً وأكمل آداباً وأرق طباعاً وأرضى أفعالاً ممن لا يزال مقتصراً على معاشرة أسافل الإفرنج بعيداً عن الاختلاط بغيرهم من أهل بلده ووطنه.

قال عيسى بن هشام: وما وصلنا إلى هذا الحد من الكلام حتى رأينا العمدة قد أفاق من غشيته وخرج أمامنا بين الخليع والتاجر يتهادى فى مشيته وقمنا وراءه لنحيط ببقية سيرته.

من مصباح الشرق (٩١)
٨ فبراير ١٩٠٠
فترة من الزمن

الصاحب: فالناس مشتغلون ببعضهم عن بعض وقل بيننا من يشتغلون للناس فى نفع الناس، وإن صادف بينهم ناصح لا يكون نصيبه إلا الضحك منه والهزء به على ألسنة الفجار والفساق، أما الحكومة وأسمع بها وأبصر فإن هذه الأمور تجرى بعلمها وتصنع على عينها وهى تنظر إليها نظر الرضى وتتقبلها قبولاً حسناً، فهى التى تضع حدودها وتدبر نظامها فتقرر له اللوائح وتصدر المنشورات فيشتغل بها الحكام ويتعب لها القضاة، وإن اضمحل بها حال الرعية وساء مصير الناس، وماذا نقول فى حكومة تعلم أن ثروتها من ثروة رعيتها وحياتها بحياتهم ثم هى مع ذلك ترضى بانتشار هذه الموبقات المقوضة للثروة المتلفة للأرواح والأجساد؛ أو ماذا نقول فى حكومة تجعل عاصمة بلادها عقداً واسطته بيوت الخمر وزوايا المقامرة ومكامن الفسوق محيطة بمحلة البغايا، ومما يقضى بالعجب أن أصغر حاكم فى الأرياف قادر بسلطته أن يكف عن بلاده شر هذه الأمور،على أن مركز الحكم هنا والحكام ينظرون إلى تفاقم الشر وتزايد البلاء ولا تسنح لهم سانحة فى تخفيف وطأته على الأقل أو تلطيف شدته، وأعجب من ذلك وأغرب أن هذه الحكومة لا تحتذى على مثال لحكومة إسلامية أو حكومة أجنبية، فهى تعلم أن جميع عواصم الإسلام خالية من أماكن معينة معلومة لبغايا المسلمات وأن المنع فيها شديد لا يجسر أحد أن يتعداه، وتعلم أن مثل بلاد الإنكليز لا يوجد فيها بيت فاحشة تعرفه الحكومة وتعلم أن من شذ من تلك الحكومات عن هذا الحكم وأغضى عن أماكن البغاء، فقد عين لها مواقع خاصة فى أطراف البلاد بعيدة عن أماكن الناس ومساكنهم ومعتزلة عن نواديهم ومجامعهم، ولكنها تخالف كل هذا فهى حكومة مسلمة وتصرح بفتح البيوت للفحشاء وتعطى بيدها الرخصة لأيدى الفاسقات المسلمات يفتحن بها بيوتهن فى محلة أحياء الحرائر.

الباشا: ما زلت منذ دهر أرى العجيب وأسمع بالغريب وما زال التجول بى والتنقل يجمع لى بين النقائض ويزيدنى معرفة بالنقائص حتى انتهى بى الحال من التعجب والتأثر إلى التجلد لا بل إلى التبلد.

من مصباح الشرق (٩٢)
١٥ فبراير ١٩٠٠
فترة من الزمن

هذا وصاحبها الوارث يتابعها فى خطراتها بنظراته ويسايرها فى خطواتها بإشاراته، وهى لاتعبأ به ولا تنظر إليه ولا تنعطف نحوه ولا تعرج عليه وهو يتفجر ويتململ ثم يتوسل ويتذلل ويتحف الخادم ويطرف الغلام، ويدعو صاحب الحان معه لمعاقرة المدام ويظهر الخضوع والاستكانة للخادمة والقهرمانة فيجسلهما فوق صحبه وإخوانه، ويغدق عليهما من كرمه وإحسانه ولا يزال ويتعلق ويخضع ويستشفع إليها ويضرع ويتأوه ويتوجع ويتوسل ويتخشع، حتى يرق له قلب الخادمة فتستوى قائمة فتمضى إلى مولاتها كأنها تتلطف فى مرضاتها، فتبقى بين أخذ ورد واستعطاف وصد إلى أن تتوقف إلى القبول فى سفارتها بحسن مهارتها بعدالإلحاح واللجاجة، على أن يفتح لصاحبته اثنتى عشرة زجاجة من أفخر المشروب وأشهاه وأثمنه وأغلاه، فخضع لشرطها ونال رضاها بعد سخطها وقعدت بجانبه على حرف مغضية الطرف لا تنطق بحرف، وهو يتكسر فى حديثه ويتأنث ويتقصر فى حركاته ويتخنث استجلاباً لحبها واستجذاباً لقلبها، فإذا أبانت سبب كرهها منه وانحرافها عنه، قال لقد ساومت تلك التى تدعى أنها الجوهرة البنية فإذا هى أحط من ذلك قدراً وأقل قيمة، فعلمت أنك تسخر بى وتستهوينى وتلعب بعقلى وتستغوينى، ولقد سألتك أن تعيرنى مركبتك من قبل فلم تجيبنى بغير التسويف والمطل، واعلم أنك إذا تماديت على هذه المعاملة وعدلت عن طريق المجاملة برئت من هواك واتخذت لى خلاً سواك فيقسم لها بشرفه وذمته ورأس أبيه وحرمته وتربة أمه وجدته وأن تكون هذه الليلة آخر مدته أن لا يعصى لها أمراً ولا يدخر عنها ذخراً ولا يمنعها شيئاً من طارفه وتلاده إذا أجابته هذه الليلة إلى مرادهثم ينتهى الأمر بينهم إلى الصفاء بعد زوال أسباب الجفاء.

من مصباح الشرق ١٩٢
١٤ فبراير ١٩٠٢
فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: وقف بنا الحديث فى زيارتنا أم العواصم الغربية وإقامتنا فى مدينة الحضارة والمدنية إلى الانتهاء من وصف ذلك المعرض العام وما اجتمع فيه من مختلف الأنام، وغرائب الليالى والأيام وما احتواه من أنواع النفاسة والبداعة فى كل فن وصناعة وما انتشر فيه من كل جانب من ضروب الملاهى والملاعب وما تألق فيه من منظر مؤنق وانطوى تحته من مخبر موبق، وخرجنا منه أنا والباشا والصاحبة ما بين مادح وناقد وثالب، ومعنا ذلك الفرنسوى الحكيم والشيخ الذى ابيضت مفارقه فى التثقيف والتعليم نهتدى فى غربتنا بهديه ونستضيىء فى ما يشكل علينا بنور رأيه، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها والسيارة لهاديها، ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا وأنزله على موافقتنا وسرنا على ما رسمه لنا من الانتقال من معرض النفائس والأعلاق إلى معرض الأطوار والأخلاق، فقضينا معه شهور العام وكأنها حلم من الأحلام يتنقل بنا فى النوادى الحافلة والمجالس الآهلة ويدور بنا فى اختبار الطباع والصفات بين جميع أهل الطبقات، فنرتفع معه تارة إلى أعلى مراتب الخاصة والعامة وننزل معه أخرى إلى أدنى منازل السوقة والعامة، فنكون يوماً فى مجالس الأمراء والكبراء ويوماً بين الصناع والأجراء، وطوراً نحضر محاضر الحكم والسياسة وآناً نقعد بين أهل التكهن والفراسة، وننتهى من زيارة القصور العالية إلى الأطلال البالية ومن منابر الوعظ والخطابة إلى مجامع أهل الدعارة والدعابة، ومن جمعيات العلوم والمعارف إلى مغنى الأغانى والمعارف، ومن نوادى الأدباء والفضلاء إلى مكامن الأشقياء والجهلاء، حتى لم يبق مجتمع نخبر فيه الفضائل والرذائل وتسير فيه الأخلاق بين الأعالى والأسافل إلا ولدينا طرف من خبره وعلم من أثره، وصاحبنا الشيخ يسلك بنا فى كل ذلك طريق الإطناب والإسهاب فى تبين العلل وشرح الأسباب، ويخرج لنا من كل مبحث حكمة معدودة وضالة منشودة فى حسن الاعتبار والازدجار وجميل التحذير والإنذار وهدى وذكرى لأولى الإبصار، فنأخذ من ذلك الرأى

السديد بكل ما ينفع ويفيد وها نحن نعود إلى الحديث المتتابع، فنروى للقراء ما شاهدته الأعين ووعته المسامع وأول ما جرى له لسان الباشا فى السؤال والاستفهام ذكر الحكام والأحكام:

الباشا: وإذ انتهينا من رؤية المعالم والمشاهد وامتلأت العين من هذه المرائى والمناظر فلننظر هنا نظرة من الجد ولنبحث فى أصول هذه المدنية وقواعدها ونظام هذه الأمم فى أحكامها وسيرة رؤسائها وحكامها وكيف حال ملك هذه البلاد وما هى سيرته وما اسمه؟

الشيخ الفرنسوى: ليس للملك عندنا اسم ولا جسم.

الباشا: فأنتم حينئذ فى حال من الفوضى كالسوام المهمل وكالإبل بلا راع وكيف ينتظم على ذلك عملكم ويستقيم جمعكم.

الشيخ الفرنسوى: أستغفر الله بل لنا ملك وليس بملك يقيم على عرش المملكة الفرنسوية ويسمى رئيس الجمهورية.

الباشا: وما هى هذه الجمهورية فى اصطلاح مخترعاتكم فإننى لم أسمع بهذا الاسم من قبل، وكأنكم أبيتم معاشر الغربيين ألا أن تحدثوا فى كل أمر قديم بدعة جديدة وما اسم هذا الرئيس ومن أى سلالة هو ولأى سلسلة ينتهى أصله ونسبه ومتى ورث الرئاسة والإمارة عن أبيه.

الشيخ الفرنسوى: أما اسم الرئيس فالمسيو "داميل لوبيه".

الباشا (مقهقهاً): أراك أيها الشيخ الفاضل تسلك بنا اليوم فى حديثك مسلك المفاكهة والممازحة وكيف تدعو سلطانكم ورئيسكم بالموسيو وهو لفظ طالما سمعته ينادى به عامة الناس بعضهم بعضاً.

الشيخ الفرنسوى: ما مزحت وما قلت إلا الصدق وستعلم بعد وقوفك على ترتيب نظامنا فى حكومتنا أنه لاعيب عندنا فى إطلاق هذا اللفظ على رئيس الحكومة فى دست حكومته وعلى مثل الحجام فى حانوته والخمَّار فى حانته، لإعلان المساواة بين الوضيع والرفيع والصغير والكبير وتلك قاعدة الحكم عندنا، وأما نسبه فهو رجل من أهل الفلاحة

والحراثة وغاية ما انتهى اليه أمره في مسقط رأسه بين أهل بلاده أنه كان شيخاً القرية التي ولد فيها، وأمه لا تزال على حالتها الأولى في تلك القرية مقيمة في ذلك المسكن، ولم يرث الرئاسة عن أب أو جد وإنما توصل اليها بعد وفاة سلفه فيها وكان رجلاً دباغاً يدبغ الجلود قبل ارتقائه إلى الرئاسة.

الباشا: إن لم يكن حديثك هذا غير صحيح فإننا أقسم بكل يمين أنكم بلغتم من الانحطاط درجة تذهب برونق ما تبهرون به أنظار العالم من الزخرف والزينة والإحسان والإبداع في أبواب الصناعات وضروب المستحدثات، وكيف يدخل في حكم العقل تطبيق ما نراه من الأبهة والجلال والعظمة وأسباب الفخار على رئاسة فلاح أو دباغ فوق هذه الأمة الكبيرة والمملكة العظيمة، وما أظنكم تستقيم لكم أمور في حكومتكم على هذه الحال زمناً طويلاً ولا أخالكم إلا في شغب دائم وفتنة متصلة ستؤول بكم عاقبيها إلى التفرق والتوزيع ثم الخراب والدمار.

الشيخ الفرنسوي: هون عليك فإنك إن علمت ما معنى الجمهورية لم تركب في حكمك متن الشطط، وأنا أبادر بتعريفك إياها وكيفية تأليفها بيننا؛ فالجمهورية على التعريف العام هي حكومة الأهالي بعضهم بعضاً بانتداب جماعة منهم يقومون بينهم بالحكم والفصل على قوانين يضعونها ويعملون بها كالشريعة المقدمة، وينتدبون فريقاً منهم لتنفيذ أحكامها والمحافظة على بقائها، ورئيس هذا الفريق هو رئيس الجمهورية الفرنسوية، وانتخاب هذا الرئيس يكون باجتماع أعضاء المجلسين مجلس الشيوخ ومجلس النواب في يوم مشهود كلما خلت الرئاسة، ومدة رئاسته سبع سنوات وهو عندنا كالملك في رئاسة الممالك الأخرى ويكون انتخابه بالأغلبية المطلقة، ومن وظيفته أنه يشترك مع أعضاء المجلسين في وضع الشرائع والقوانين، فيصدر بها الأوامر بعد تقريرها فيهما ويراقب تنفيذها والمحافظة عليها، وله حق العفو والتصرف في القوة العسكرية وتعيين الحكام والمأمورين في الوظائف الملكية والعسكرية، وله رئاسة على جميع الاحتفالات الرسمية والأعياد الأهلية وهو صاحب العلاقة مع سفراء الدول ومندوبي الحكومات، ولا بد لكل أمر يصدر منه في أي شأن كان أن يكون موقعاً عليه بتوقيع أحد الوزراء وهو الذي ينتخبه أعضاء مجلس استشارة الدولة باتحاده مع الوزراء، وله أن يفض مجلس النواب قبل انتهاء مدته باتفاق مع مجلس الشيوخ ولا مسؤولية عليه البتة في ما عدا ارتكابه

لخيانة مصالح الأمة، وهو الذى يبدأ بالمخابرة فى عقد المعاهدات والموافقة عليها إلا أنه يتحتم عليه عرضها على المجلسين إذا لم يكن فى إفشائها ما يسمى مصلحة المملكة إلا المعاهدات التى تختص منها بأشخاص الفرنسويين وأملاكهم فى الخارج لا يمكنه الموافقة عليها ولا يتم إلا بعد عرضه وتقريره فى المجلس، كما أنه لا يمكنه التنازل عن شيء من الأراض الفرنسوية أو المبادلة بها إلا بقرار منها أيضاً ولا يجوز له إعلان الحرب إلا بعد أخذ رأى المجلسين أولاً، أما طلب محاكمته عند ارتكابه لخيانة مصالح الأمة فلا يكون إلا من مجلس النواب وحده ولا يجوز محاكمته إلا أمام مجلس الشيوخ، وهو الذى ينتخب رئيس الوزراء من بين أعضاء مجلس النواب ويكلفه باختياره أعضاء الوزارة ثم يوافقه على اختياره، ويكونون من أعضاء مجلس النواب ما عدا ناظر الحربية وناظر البحرية فى بعض الأحيان، ورئيس الوزارة هو مسؤول عن جميع أعمال الحكومة أمام مجلس النواب فإذا لم تنل الوزارة ثقة المجلس تعين عليها تقديم الاستعفاء لرئيس الجمهورية ليعين أخرى مكانها، وبالجملة فإن حقوق رئيس الجمهورية تماثل حقوق بقية الملوك فى الممالك المقيدة بالمجلس النيابية، إلا أن خلوه من المسؤولية قد جعل الأمر كله فى يد الوزراء لوقوع المسؤولية عليهم فى جميع أعمال المملكة أمام مجلس النواب وانحصر كل نفوذه فى اختيار رئيس الوزارة أما بقية أعماله فهى قاصرة على المظاهر الرسمية.

الباشا: يتضح لى من هذا التفصيل فى أمر رئيس الجمهورية أنه ملك بالاسم وأن الملك والحكم كله فى يد المجلسين، وما كان أغناكم عن هذا الرئيس لولا أنكم ترون من الضرورى فى حكم الأمم أن يكون فوقها ملك ولما رأيتم أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم لم تقدروا على ذلك إلا بتخييل صورة الملك عندكم فى شخص هذا الرئيس، وإلا فأى ضرورة ترونها فى هذا التكلف فى تعيين رجل تقلدونه من ناحية مقاليد الملك فى سعة السلطة ثم تقيدونه من ناحية أخرى بالقيود التى تعفى آثار السلطة، ولماذا لا يكون الأمر فى يد رئيس مجلس النواب ومجلس الشيوخ ما دام الحكم كله راجعاً الى رأى المجلسين.

الشيخ الفرنسوى: اعلم أن سلطة الحكومة عندنا تنقسم الى قسمين قسم رئاسة الجمهورية والوزارة وهو المعروف عندنا بالسلطة التنفيذية، وسلطة مجلس النواب ومجلس الشيوخ وتعرف بالسلطة التشريعية، وإن كان الحكم كله فى الواقع للسلطة التشريعية إلا أنها لا بد لها من أن تنتدب جماعة يقومون بتنفيذ ما تضعه من الأحكام ويكونون مسؤولين أمامها عن حسن القيام بتنفيذها.

الباشا: الآن علمت أن أعضاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ أصحاب الأمر والنهى وأن كل واحد منهم ملك فى ذاته لا مسؤولية ولا قيد يقيده فكأنكم استبدلتم ملكاً واحداً يدبر أموركم ويجرى أحكامكم ويسأل عن حكمه فيكم أمام الله والناس بعدة ملوك ليس فيهم سجايا الملوك ولا هم السلاطين ولا حسن التجارب فى إدارة الأمور التى تكون عند سائر الرؤساء والأمراء وأى ضمان للدولة عندكم إذا كان أمرها شائعاً فى أيدى جماعة من الرعية وأى نظام للأمور يمكن الاعتماد عليه فى مثل هذه الحال؟

الشيخ الفرنسوى: إن لدينا فى هذا الباب عدة روابط وقيود تضمن نظام الأمور واستقامة الأحكام فإن أعضاء المجلسين مسؤولون أمام بقية الرعية ولابد لوقوفك على ذلك من بيان ما يقتضيه انتخابهم وشروط تأليف المجلسين وطريقة سريان الأعمال فيها.

من مصباح الشرق ١٩٣
٢١ فبراير ١٩٠٢
فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: ولما قعد الشيخ الباشا يشرح له ويحكى عن نظام مجلس النواب وكيفية تركيبه وترتيبه وانعقاد الحكم به فى أمور المملكة عارضه "الصاحب" بقوله:

الصاحب الشيخ الفرنسوى: أريد منك أيها الحبر الجليل والباحث الحكيم أن تذكر لى شيئاً عن رأيك فى هذه المجالس النيابية وإدارتها لأمور الممالك بينكم داخلاً خارجاً قبل أن تدخل فى تفصيل نظامها الباشا فإننى أحيط من الفروع بقدر غير يسير يؤهلنى للتأمل فى الأصول، وأحب أن أكون حاضر الحكم فى أثناء شرحك وتفصيلك فنستمد منه ما يرجح جانبه أو يخفف وزنه ويكون لى من رأيك الثاقب ما استعد به وأطبق ما تقوله فينا على وفقه.

الشيخ الفرنسوى: لست أرى فيما أريكم أياه وأطلعكم عليه وأكشف لك من خوافيه أن أبادركم بالرأى فيه والحكم عليه، فليس هذا طريقى معكم وإنما طريقى الذى أريد أن أتوفاه فى مصاحبتكم هو أن أجلى عليكم الأمور وأوضح الأحوال لأنظر ما يكون من وقعها فيكم ومن كيفية تأثيرها عليكم واختلاف أحكامكم فيها فانتفع بذلك فى حكمى السابق عليها إثباتاً له وتأييداً أو نفياً وتنفيذاً، والإنسان مهما كان جليل الرأى سديد الحكم لا ينبغى أن يثق بنفسه إلا إن نظر فى أمره بمرآة غيره، ولذلك ترى كثيراً من أولى الرأى والتدبير فى أمور الناس يفضون المشاكل ويحلون المعضلات فإذا أرادوا جانب الصواب من الرأى لأنفسهم فى بعض ما يقع لهم من الأمور الخاصة، لا يخيلهم هوى النفس فى نجاح الرأى من ارتباك الفكر والتشويش عليهم فى صحه القياس وصحة الاستنتاج، وهذا ما تراه واضحاً جلياً فى أصغر الأمور وأكبرها وأدناها وأعلاها حتى بين المشتغلين بالألعاب التى تضيع الوقت وتفنى العمر سدى كالشطرنج والنرد ونحوهما فتجد اللاعب المجيد يرتكب الخطأ تلو الخطأ ويجانبه من هو أقل منه إجادة يدرك دونه صواب ما أخطأ فيه، ومما يجرى مجرى الأمثال بينهم فى هذا الباب قولهم "يرى

المشاهد ما لا يرى اللاعب" وأنتم خلوكم عن الهوى فى أمورنا وبعدكم عن غمارها محل لأن يستفاد برأيكم فيها ويستعان بحكمكم عليها، كما أننى أرجو أن يستفيدوا بى كذلك فى ما تشرحونه مما أجهله من أحوالكم ويغيب عنى من أموركم واعلموا أن أخذكم برأيى ومذهبى فى أحوالنا يعطل عليكم حرية الانتقاد ويميل بكم إلى جانب دون جانب وذلك ما لا أرضاه لأنتفع باستقلالكم فى وجوه الرأى والحكم.

الصاحب: إن بخلت على برأيك فلا أقل من أن تجود على برأى سواك، فإننى أريد أن أعلم هل هذا الشكل من الحكومات واقع عندكم موقع الكمال ونهاية الإحسان فى حكومة الناس و سيرة الأمم وإن كان هذا هو غاية ما وصل إليه علم البشر فى استقامة الحكم بين الناس واستظلالهم بظلال العدل والإنصاف.

الشيخ الفرنسوى: سيظهر لك ذلك كله من نفسه بما فيك من شدة النقد وقوة البحث، إذا رأيت بعينيك ما أشرحه الآن على سمعك وقارنت بين تطبيق القول على العمل، ووقفت على ما عساه يوجد من الفرق بين حسن الوضع وقبح الأخذ عندما انتقل بكم من الرواية بالخبر إلى المشاهدة بالعيان، وإن كان لا مناص لك من الوقوف على شىء فى هذا الأداب فدونك حكماً حكم لست أخشى عليك من تأثيره ولا أخاف على طريقتى معكم من إفشائه لكم، قال الفليسوف الكبير والعالم الشهير سبنسر الإنكليزى نابغة أوروبا اليوم فى البحث والتدقيق لمعرفة أخلاق الناس وأطوار الأمم وكيفيات تكوين الجمعية البشرية عند كلامه عن المجالس النيابية التى تجرى الأمم الغربية على شريعتها فى هذه العصور: «إنما مثل المجالس النيابية كمثل الآلة المتركبة من قطع متعدده غير متحدة الأطراف ولا محكمة الاتصال ولا مؤتلفة الأوضاع فلا انتظام لحركة سيرها إلا بكثرة التعديل والتصليح، ودوام التغيير والتبديل وإن كان ذلك كله لا يضمن دوام انتظامها فإن هناك عيباً أصلياً وعللاً مستديماً، وهو أن كل دولاب من تلك الآلة لا يستمر مستقيماً فى حركته إلا إذا أخل بحركة ما يجاوره بما يخل سير الآلة بتمامها، إلا أن مضارها على كل حال أقل من مضار حكومة الاستبداد وشكلها أهون من بقية الأشكال المطلقة فى الحكومة، ولهذه المجالس النيابية فائده كبرى وهى أنها تكفل أن يأخذ كل فرد من الأفراد بنصيبه من العدل والإنصاف فى الحقوق من جهة المعاملات فى ما بينهم، ولم يدع إلى إنشاء هذه المجالس النيابية إلا حاجة الأهالى إلى ما يدفع عنهم ظلم المستجدين من

الحكم، وقد دلت التجارب على أن هذه المجالس إنما تصلح لوضع الشرائع وسن القوانين وأنه لابد للانتفاع بها من وقوفها عند هذا الحد لا تتعداه ولا تتجاوزه، فإنها إن تعدته صارت من أعظم المضار على البلاد فتركت وظيفة التشريع الى الاشتغال والارتباك فى مضائق الإدارة والسياسة كما هو حالها اليوم فى جميع الدول الغربية».

الباشا: دعنا من هذا الآن وخذ بنا فى طريقنا الأول وأخبرنى ما هو مجلس النواب واشرح لى كيفية تركيبه وسيرة أشغاله فإنى أحب استيعاب الشرح قبل التعجيل بالحكم.

الشيخ الفرنسوى: يتألف مجلس النواب من ستمائة عضو أو يزيد يجتمعون تحت رئيس ينتخبوه لهم مع أربعة من الوكلاء وأربعة من المساعدين، ثم يؤلفون فى ما بينهم عدة أقلام وعدة لجان تشتغل بالنظر فى ما يقدم إليها من الأعمال، وتنقسم هذه الأعمال إلى قسمين قسم يتقدم لها من جانب الحكومة وهو يعرف بمشروعات اللوائح والقوانين، وقسم يقدم لها من تلقاء أعضاء المجلس ويطلق عليه اسم المطالب، وتشتغل كل لجنة فى ما يتعلق بها من هذه الأمور ثم تقدم عنه تقريراً إلى جلسة الأعضاء العامة للمناقشة والمجادلة فيه وتعديله بالزيادة والنقصان وتقريره أو رفضه بأغلبية الأصوات، ويبلغ عدد تلك الأقلام واللجان إحدى عشرة دائرة، وتتجدد بين أعضاء المجلس فى كل شهر مرة وأهمها اللجان الكبرى المؤلفة من ثلاثة وثلاثين عضواً وهى لجنة الميزانية ولجنة الإدارة ولجنه العسكرية ولجنة البحرية ولجنة المستعمرات ولجنة التجارب والصناعة ولجنة التشريع الجنائى ولجنة التشريع العقارى ولجنة الاقتصاد فى إدارة الحكومة، ولكل من هذه اللجان رئيس تجتمع تحته ومندوب يقوم بقراءة تقريرها أمام الجلسة العامة، ويجتمع أعضاء المجلس فى هذه اللجان يومين فى كل أسبوع وكيفية تقديم المشروعات لديها من الحكومة أن أحد الوزراء الذى يختص به المشروع يقدمه باسم الحكومة إلى الدائرة المعينة لذلك من المجلس، فتسرع فى الحال بطبعه ونشره على جميع الأعضاء ثم يرسل رئيس المجلس بنسخ منه إلى اللجان المختصة بالنظر فيه، وأما ما يأتى من المطالب التى تتقدم من جانب النواب فينبغى أن تكون على شكل قانونى منقسم إلى بنود ومواد ومقدمة تبين أسباب الطلب وضرورة الحال إليه، فيرسله الرئيس إلى لجنة معدة لقبول هذه الطلبات والنظر فى ضرورتها ومناسبتها فإن اتضح لأعضائها وجوب قبوله إحالته على اللجنة المختصة بالنظر فيه وإلا فأنها ترفضه.

أما التقرير الذى تقدمه كل لجنة من أعمالها لعرضه على مجلس النواب فى جلسته العامة فينبغى أن يكون وافياً بالغرض مستكملاً البحث فى جميع القضية من أطرافها مع مراعاة النظر عن جهة التطبيق ما فيه على القوانين واللوائح الماضية ومناسبته لأحوال الزمان الحاضرة، وكيفية تأثيره فى بابه على المستقبل مع بيان ما اختلف فيه أعضاء المجلس عليه فى الجلسه العامة، فلم يعوزهم الرجوع الى كثرة المناقشة والجدال فى ما حرر لأجله ويتوزع على كل عضو نسخة من قبل عرضه على الجلسة بأربع وعشرين ساعة، ويفتتح الرئيس الجلسة العامة بقراءة محضر الجلسة الماضية وبالتنبيه على ما تجرى المناقشة على حسب ترتيب التقارير المقدمة من اللجان فى الجدول المختص بقيدها، فيوضع التقرير موضع المناقشة ويتقدم من الأعضاء من يتقدم منهم إلى موضع الخطابة للموافقة على المشروع الذى احتوى عليه التقرير أو لمخالفته، فإذا لم يبق أحد من الراغبين فى الكلام عليه عرضه الرئيس على هيئة المجلس للاقتراع على المناقشة فى مواده وأبوابه باباً باباً؛ فإن نال فى ذلك الأغلبية ابتدأت المناقشة فيه حتى تنتهى أبوابه ثم تعاد قراءته على الهيئة كذلك بعد خمسة أيام فإذا نال الأغلبية مره أخرى صار حكماً نافذاً وقانوناً معمولاً به بعد نشره فى الجريدة الرسمية وموافقة مجلس الشيوخ عليه، وإذا لم تتفق الأغلبية على المناقشة فى أبوابه كان المشروع والتقرير لاغيين.

ولكل واحد من أعضاء مجلس النواب الحق فى الاستفهام والاستجواب عن كل حادث يوم توضيحه على الملأ، فله أن يسأل الحكومة عن سياستها العامة ويسأل كل وزير عن أعمال وزارته الخاصة، وعلى كل وزير منهم أن يجيبه عن السؤال بما لديه من الشرح والتفصيل حتى تقتنع الأغلبية برأيه وتقترع على ما جاء به من الأقوال أو تظهر فى اقتراعها عدم ثقة فيتحتم الاستعفاء على الوزارة، أو أنها تملى على الحكومة غرضها فى الخطة التى ينبغى أن تسير عليها فى المحادثة ويقدم صاحب السؤال طلب إلى الرئيس فيخبر الوزير به ويطلب أثناء الجلسة تعيين اليوم له ولا يجوز إغفاله أكثر من شهر فى ما لا يختص بالسياسة الداخلية.

أما طرق الاقتراع فمتعددة منها القيام والقعود فى الجلسة لمعرفة عدد الموافقين من المخالفين ومنها رفع اليد وعدم رفعها ومنها وضع كل عضو اسمه بالموافقة أوالمخالفة

فى إناء مخصوص لذلك، ومنها وضع قطع بيض أو سود وعلى كل حال لا تكون الأغلبية للمشروع إلا إذا زادت الأصوات عن نصف أصوات المقترعين ولو بصوت عضوٍ واحد فإذا تقرر المشروع فى مجلس النواب أرسل الى مجلس الشيوخ.

الباشا:مجلس الشيوخ.

الشيخ الفرنسوى:لا يختلف مجلس الشيوخ فى ترتيبه ونظامه عن مجلس النواب إلا من جهة الانتخاب ووظيفته أن ينظر فى المشروعات التى يقر عليها مجلس النواب، وهو يتكون من ثلثمائة عضو وله أن يضع من المشروعات ما يشاء ويرسله إلى مجلس النواب للموافقة عليها أيضاً كما أنه يوافق على مشروعات مجلس النواب ويرسلها إلى رئيس الجمهورية ليمضيها بواسطة الوزير الذى يختص به المشروع.

الباشا: تكرر فى كلامك ذكر الانتخاب فى هذين المجلسين فأرجوك أن تخبرنى عن شكله وطريقته وكيف ينتخب الأهالى بعضهم بعضاً وما هى شروطهم التى تضمن للأهالى استقامة الذين انتخبوهم عنهم فى إجراء الأحكام عليهم؟

الشيخ الفرنسوى: نعم لك ذلك فإننى بدأت لك فى ترتيب الحكومة من الأعلى إلى الأسفل دفعاً للتشويش عليك فبدأت برئيس الجمهورية وها أنا أنتهى بك الى باب الانتخاب بين الأهالى الذى تبتدئ منه سلطة الحكم وتنتهى إليه.

من مصباح الشرق ١٩٦

١٤ مارس ١٩٠٢

فترة من الزمن

قال عيسى بن هشام: واستمر الفرنسوى يسرد على الباشا شرح ما يرغب الوقوف عليه من كيفية الانتخاب لمجلس النواب الذى ينتهى إليه كل أمر ونهى فى أمور الأمة الفرنسوية على نحو ما ترى:

الشيخ الفرنسوى: يتألف فى كل قسم من كل بلد لجنة من شيخ القسم ومن مندوب ينتدبه المدير ومن مندوب ينتدبه المجلس البلدى،ثم يباشرون تحريرصحيفة الانتخاب المتضمنةلأسماء الذين يحق لهم الانتخاب على ترتيب حروف الهجاء، والشروط التى فى الانتخاب هى أن يكون الرجل فرنسوياً يتجاوز سنه العشرين سنة، وأن يكون متمتعاً بحقوقه المدنية والسياسية وأن يكون له مسكن فى البلدة قد أقام به على الأقل ستة أشهر، أما من كان موظفاً فى الحكومة أو قائماً بخدمة الدين فلا يشترط عليه الإقامة لمدة معينة فى البلده، وأما أهل الجند فلا حق لهم فى الانتخاب ما داموا تحت السلاح تطبيقاً على القاعدة التى تقضى بانعزال الجند عن التداخل فى الأمور السياسية والتحيز للأحزاب وأما الموانع التى تمنع من حق الانتخاب فهى:-

- أولاً: كل العقوبات البدنية والعقوبات التى تشين السيرة وتحرم من الحقوق المدنية والسياسية.

- ثانياً: أحكام المحاكم التأديبية بالحرمان من حق الانتخاب.

- ثالثاً: العقوبة بالحبس عند استعمال الرأفة.

- رابعاً: العقوبة بالحبس مدة ثلاثة أشهر بسبب ارتكاب الغش فى البضائع.

- خامساً: العقوبة على السرقة والاحتيال والخيانة والاختلاس وانتهاك حرمة الأدب.

– سادساً: العقوبة على الإخلال بالآداب العامة والأعمال الدينية والطعن فى أصول التملك والحقوق الاجتماعية.

– سابعاً: العقوبة بالحبس لمدة ثلاثة أشهر لارتكاب الغش فى المسائل الانتخابية وسوء التعرض لأوراق الانتخاب فى صناديقها.

– ثامناً: الأحكام التى تصدر بعزل من يستحق ذلك من وكلاء الأشغال وكتبة المحاكم ورجال الإدارة.

– تاسعاً: الأحكام التى تصدر على المتشردين والمتسولين.

– عاشراً: العقوبة بالحبس ثلاثة أشهر على من يرتكب تمزيق الدفاتر والسجل وتدمير موارد الصناعة وتخريب المزروعات واقتلاع الأشجار وتسميم الخيول والمواشى والأسماك.

– حادى عشر: الأحكام التى تصدر فى شأن من يتلف عضواً من أعضائه للتخلص من الخدمة العسكرية.

– ثانى عشر: الأحكام الصادرة بالحجر.

– ثالث عشر: الأحكام الصادرة بالتفليس.

وتجتمع هذه اللجنة التى تقدم ذكرها فى آخر شهر مارس من كل عام فتضع فى صحيفة الانتخاب اسم من لم يكن مذكوراً فى العام الذى قبله، وتحذف أسماء من طرأ عليهم مانع من تلك الموانع ثم تنشرها على الأهالى وتعلقها على جدران مشيخة القسم، فإذا آن أوان الانتخاب وصدر أمر رئيس الجمهورية اجتمع الأهالى فى الأقسام وتعينت لجنة منهم للمراقبة فينتخبون من يرضونه من المرشحين أنفسهم للانتخاب بالاقتراع السرى، فإذا نال أحدهم أغلبية الأصوات أصبح عضواً فى المجلس، وأول ما يشتغل به هؤلاء النواب فى اجتماعهم أنهم ينظرون فى المطاعن التى تقدم فى من وقع الغش أو الفساد فى انتخابه فيقترعون على كل واحد من المطعون فيهم بصحة انتخابه أو بفساده وتجديد من يخلفه.

الباشا: وهل هؤلاء المرشحون لأنفسهم ليكونوا أعضاء في مجلس النواب هم من طبقة معينة من ذوى الرأى والتدبير وأهل المعرفة والتجارب وغير ذلك مما يوصلهم لإجراء وتدبير السياسة في هذه الأمة العظيمة التي ملأ الآفاق صيتها ؟

الشيخ الفرنسوي:- لا عبرة عندنا بالطبقات ولا يمتاز منا فريق دون فريق بالمعرفة وتدبير في أمور الحكومة، بل كلنا أهل رأى وتدبير وكلنا أهل لأن ندبر أمور الحكومة ونسوس هذه الملايين من الأمة الفرنسوية، وسواء لدينا إن كان من ينتخبه الأهالي سيداً شريفاً أو وضيعاً دنيئاً بل ربما غلب عدد أهل الصنعة وعامة السوقة على أهل الرفعة والسؤدد في مجلس النواب فترى بينهم جانباً عظيماً من أهل الصناعات المنحطة كالحلاق والإسكافي والعطار وهلم جرا.

الباشا: أخبرني إذن عن وجوه المزايا التي يمتاز بها الناس ليقع انتخاب الأهالي عليهم وما هي القاعدة في تفضيل بعضهم على بعض؟

الشيخ الفرنسوي: مرده لبعض أهل الأطماع ومن تطمح أنظارهم للشهرة والصيت أو الكسب والربح من وراء الاشتغال بسياسة الأمور العامة، ولكل حزب عدة جرائد وجملة خطباء يروجون على الناس أهواءهم وأغراضهم ويعقدون الحفلات لجمع الدراهم لينفقوها في وجوه شتى أيام الانتخاب ويستميلوا بها الأهالي لاختيار من يرشحونه منهم، فمنها ما ينفقونه على المطبوعات المختلفة التي يوزعونها على الأهالي ويستجلبون بها قلوبهم، ومنها ما ينفقونه في رشوة بعض أهل النفوذ من بين الأهالي ليجمعوهم على رأيهم، ومنها ما يتحفون به الأهالي أنفسهم أثماناً للخمور التي يتناولونها في حفلاتهم ومجتمعاتهم، وكل مرشح يعمد إلى تحرير وثيقة عليه ينشر بها على الأهالي ما هو عازم على إجرائه وتنفيذه في مصلحتهم إن هم انتخبوه نائباً عنهم، فإذا كان أهل القريه في حاجة إلى فتح ترعة أو تنزيل ضريبة لتحقيق خدمة، أقسم لهم في وثيقة أنه لا يرجع من المجلس إلا ظافراً ببغيتهم قاضياً لحاجتهم، وأكثر ما تتصرف همة المترشحين في مشاربهم وانتمائهم الى آراء أحزابهم فنجد المترشح الذي ينتمي لحزب الراغبين في إعادة الملكية في فرنسا بدل الجمهورية يملأ الحيطان والجدران في أنحاء المدينة بالطعن واللعن لمن يرشحه حزب الراغبين في إعادة الامبراطورية بجانبه، ونرى المترشح للأحزاب

الجمهورية يطعن ويلعن فى هذين الاثنين، وترى حزب الجمهورية نفسه مقسماً إلى عدة أحزاب يلعن بعضهم بعضاً، ولا تقصر هذه المطاعن على الأمور العامة بل تكون فى الأمور الخاصة وتتناول أسرار المعيشة وخفايا الأحوال فى البيوت فتصبح البلاد الفرنسوية أيام الانتخاب ميداناً للخصام والنزاع والطعن والضرب ومجالاً لذكر الفضائح وإعلان المساوئ، وتعدو الأمة كلها فى صياح وصراخ ويتحكم الطيش والنزق فى رأس الكبير قبل الصغير منهم إلى درجة يضل فيها لب الحكيم ويزول فيها حكم القياس، هذا والقابضون على أعنة الأحكام فى أوقات الانتخاب من الوزير إلى الخفير يتعاونون ويتساعدون فى استمالة الأهالى تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب لينتخبوا من المترشحين من يتقدم إليهم من المتحزبين لحزب الحكومة، وتقبيح أعمال القائمين إدارتها ونشر معايبهم ونقائصهم بما لا يقبل عما يتقارضونه بينهم من المشاتم والمساب والمطاعن والمذام.

الباشا:إنى لأعجب من نظام أموركم وقيام حكومتكم على هذا الأسلوب الغريب من رئاسة العامة على الخاصة وكيف يصل النواب إلى إنجاز ما يعدون الأهالى به ويمنونهم إياه مع اختلاف الأحزاب وتباين الآراء والمقاصد واستحكام الشقاق والنزاع وما بين المترشحين للنيابة.

الشيخ الفرنسوى:إن المترشح إذا تم انتخابه بالغ فى خلف الوعد ونقض العهد بمقدار ما كان يبالغ فى تأكيد الإنجاز وتوكيد الإقسام فى تنفيذ ما رغب به الأهالى ويدعوهم إلى انحيازهم نحوه، ويكون احتقاره لمطالبهم وإهماله لمصالحهم وهو فوق كرسى النيابة بمقدار تزلفه لهم وتضرعه إليهم أيام الانتخاب وهو فى كل أيام نيابته لا يلتفت إلا إلى التداخل مع أربابه الحكوميين بالتوسط والرجاء ببركة نفوذه عليهم لقاء بعض المصالح التى يكون له من ورائها كسب وربح هذا إذا لم يقنع بالسكوت والاكتفاء بما يجرى عليه من المرتب فى كل عام.

الباشا: وما هو مقدار مرتب النائب فى كل عام.

الشيخ الفرنسوى: تدفع الأمه الفرنسوية لكل نائب من مجلس النواب فى العام تسعة الآف فرنك، ومرتب الرئيس ٧٢ ألف فرنك وهو يسكن بأهله فى قصر المجلس

وفيهم من أهل الصناعات الوضيعة من لا يصل بعمله طوال العام إلى ربع هذا الدخل.

الباشا:ما أرى هذا المجلس بنوابه على ما أتخيل إلا تكية من التكايا أو مصنعاً من المصانع، لا مجلساً للحكم ولا بيتاً للسلطان ما دام الوصول إلى الدخل فيه يجرى على هذه الطرق المنافرة للصيانة والعفاف والمخلة بمحاسن الأخلاق ومكارم الطباع، وإن دام التغلب فيه لأهل السوقة ورجال العامة.

الشيخ الفرنسوى:وأما كيفية الانتخاب فى مجلس الشيوخ فلا تختلف عن مجلس النواب إلا بأن أهل الحق فى الانتخاب هم من طبقة معينة، إذ يجتمع فى كل مقاطعة أعضاؤها فى مجلس النواب وأعضاء المجلس البلدى لينتخبوا من بينهم العضو المطلوب لمجلس الشيوخ.

إذا انتهى بنا الكلام عن كيفية الانتخاب فى المجلسين واستأنست بترتيب إدارة الأمور فى الحكومة عندنا فقد آن أن ترى بالمشاهدة ما سمعته بالحكاية وتقف بالعيان على ما اتصل إليك بالخير، وأنا على عزيمة أن أذهب بكم غداً إلى مجلس النواب لتحضروا جلسة من جلساته وتقفوا على طريقه من البعد والجدال.

قال عيسى بن هشام: فوافقنا كلنا على رأيه وشكرناه على سعيه.

من مصباح الشرق (٢٠١)
٢٦ أبريل سنة ١٩٠٢
حديث الفرح

حدثنا محدث قال قصدت في من قصد دار العرس الذى اشتهر أمره وطار ذكره أول أمس، فبهرني ما رأيته هناك من إتقان الزينة وكثرة الأنوار والأضواء بما يزرى فى الحسن بزينة الاحتفالات التى تقام فى حديقة الأزبكية ليالى الأعياد العمومية، فلما انتهيت من زينة الشوارع دخلت إلى سرادق عظيم انتهيت إلى ساحة كبيرة فى مساحة فدان تقريباً تألقت فيها الأنوار فأزهقت دياجي الظلماء وتنفس الصبح فيها بأنفاس الضياء، وأتت الجموع من الرجال والنساء فامتلأ بهم المكان فلا مكان لجالس ولا موضع لقدم، وهم وقوف على الأقدام يتزاحمون وقد وضعوا فى جهة الشمال الموسيقى الإفرنجية وقامت فيها مغنية تغنى القوم بالأصوات الشهيرة الإفرنجية فتعلو بها على ما يقابلها جهة اليمين من الأغانى المصرية، والحاضرون واقفون بين ذلك كأنهم فى حالة انتظار وترقب لا فى حالة انبساط وتأنس، وما زالوا على هذه الحال وقوفاً من الساعة التاسعة الى الساعة الحادية عشرة حتى حان افتتاح الموائد "البوفيه" فدخلوا متزاحمين متسابقين يجر بعضهم بعضاً ويتقاذفون على الباب كما يتقاذف المسافرون فى مركبات القطار عند قيامه، حتى إذا امتلأ المكان بمن بادر إلى الدخول فيه أرخى الستر دون ما كان خارجاً، وبقى العدد الكثير على الباب وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون حتى إذا نفد ما على الموائد من طعام وشراب دعوا المدعوين إلى الخروج لتجديد الموائد باللسان أولاً وبتصفيق الأيدى ثانياً وبإطفاء الأضواء ثالثاً، كل ذلك ليس عن قلة ولا عن بخل، وإنما لكثرة المدعوين الذين ضاق بهم المكان مع اتساعه، فإن تذاكر الدعوة إلى العرس كانت توزع على نحو الاحتفالات العمومية، فإذا أرسلت تذكرة دعوة إلى رئيس قلم فى الحكومة مثلاً أرسلت له معها عدة تذاكر تكفى لعدد من تحته من موظفى القلم حتى عمت الدعوة سائر الدواوين وانتشرت بين الناس، ولما تعبت من الوقوف ذهبت ناحية وجلست على كرسى وإذا بجانبى شخصان يتحاوران أحدهما تلوح عليه فى جلوسه علامات الرزانة والعقل

وسيما الوجاهة والنبل وتدل لهجته على أنه من أهل الصعيد، وثانيهما شاب يتملكه الطيش في وقوفه وتتولاه الحدة في حديثه وينساب في المحاورة كما ترى.

الشاب: ما لي أراك في سكون وذهول أفلا يروقك ما تراه عما يروق الناس.

الوجيه: لا تؤاخذني على ما تراه من سكوني فإني مقيم على حالة من الدهش لا أستطيع الخروج منها، وإن حاولته مراراً فإن كثرة هذه الأضواء وشدة هذا الزحام وترديد الغناء الإفرنجي وما أراه من اختلاف هذه الأزياء بين الرجال والنساء قد أضل بي، فلست أدري إن كنت في محل راحة وصفاء أو في مزدحم من الأسواق يعظم فيه اللغط والضوضاء، وما عهدت أن تكون الأفراح والأعراس على نحو ما أرى وأسمع.

الباشا: إنكم لا تزالون في ضلالكم القديم وعهدكم العتيق ألا تعلم بأن الأحوال تقلبت والأفكار ارتقت والعقول تنورت والعادات تغيرت وخرجنا من ظلمات المألوفات القديمة إلى نور المدنية الحديثة، وتقدمنا في العمل على طراز الغربيين في جدهم ولهوهم واهتدينا بهواهم في الأخذ بفضائلهم في جميع أعمالهم، واعلم أن هذا المهرجان شاهد يقوم للعيان بما وصلنا إليه من إحكام التقليد، وكل من حضر محافل الأعراس والموالد في باريس لا يجد بينها وبين هذا المهرجان فرقاً عظيماً،عن يمينك وشمالك إلى حسن هذه المناظر في الزينة وإلى جمال الملابس والأزياء بين هذه الجموع من الرجال والنساء تجد من حسن المنظر وجمال المشهد ما يشرح الصدر ويقر العين، واسمع لهذه الألحان الغربية التي يعلو بها الصوت وتجري على القاعدة وتعرب عن القوة والحدة فتثير في نفوس سامعيها أثر الشجاعة والإقدام، وتبعث في القلوب روح النشاط والانتعاش وقابل ذلك بما تسمعه عن يمينك من الأغاني المصرية التي هي أشبه بأنين الضعفاء وشكوى المظلومين، لا ضابط لها ولا رابط تتبين الفرق ظاهراً بين الحياة والموت والحركة والسكون.

ولولا أن بعض أهل الفضول منكم تداخلوا هذه الليلة للعدول عن افتتاح حفلة الرقص لكنا قد بلغنا تمام الحظ في الحفلات الغربية الجليلة، ولكنت شاهدت من أنواع الرقص على توقيع الموسيقى ما يشرح الفؤاد عن شدة الحركة والخفة، فويل لأهل الفضول إذ نشاهد ما جاء في هذا "البروجرام" الذي تراه في أيدي النساء والرجال

متضمناً لأحسن المنتخبات من أشكالها ،وهى فيه على ثلاثة أشكال "الرقص الإسبانيولى" و"رقص الازهار" و"رقص الأفاعى".

الوجيه: ربما كان لك الحق فى استحسان ما تستحسنه من هذا الطراز الحديث، ولكن لا يخفاك أن الأنواق مختلفة لا تنتقل عن المألوف لدينا، وائتلاف ما سواه يقهر النفس عليها وهذا الذى أراه شىء لم نتعوده ولم نألفه، ولو كان المرحوم والد العريس اليوم حياً لكان الأمر على خلاف ما ترى مما لا تنطبق على عاداتنا ومألوفاتنا، ولكان أقامه فى المنيا بين أهله وقومه على نحو ما تقام أفراح كبراء الأرياف من إحياء الأذكار وبذل الطعام للفقراء والمساكين وترويح النفوس بالمنطبق على عاداتهم المألوف هناك لطباعهم، ولكان الفرح فرحاً عاماً لأهل المديرية بتمامها.

الشاب: أظنك كنت تريد أن يقام عرس هذا الشاب المتمدن على نحو أعراس أهل الصعيد، فيستبدل "البوفيه" بالسماط و"الأوانى" بالقصاع و"الأباريق" بالجرار، "والشمبانيا" بالزهر و"الكاب"بالحلبة و"الدند" بالدفين، و"كونياك التفاح" بعرق البلح و"أنواع النقل" بالرطب و"المصابيح الكهربائية" بالشعل الزيتية، و"الموسيقى" بالمزمار و"البيانو" بالأرغول و"الأوركستر" بالرباب، و"مس أوستن" ببنت أم شنب و"البالو" بالمسحجة و"موكب الزفاف" بلعب الهوارة، و"دعوة قناصل الدول العظام" بدعوة مشايخ القبائل والعربان و"نظار الحكومة" بنظار الزراعة و"البنوك والمصارف" بكتبة المراكز والصيارف، و"أكاليل الزهر والرياحين" بسعف النخيل والعراجين.

الوجيه: أنا لا أقدر أن أجاريك فى هذا التفنيد والتبكيت وهذا الاستهزاء والتنكيت، ولكن أقول لك أنه إذا كان ولابد من الاحتفال بالعرس فى مصر؛ فكان الواجب أن يجرى فيه صاحبه على مثال الأفراح والأعراس التى يقيمها أعيان مصر ووجهاؤها من الاقتصار على دعوة الأصحاب والمعارف والأصدقاء والخلان لسماع الغناء ومطارحة الحديث، كما يجرى فى سائر الأفراح لا أن يكون الأمر على ما أراه من هذا الاختلاط والامتزاج وكثرة المدعوين على قلة الأصدقاء والمعارف، وغلبة عدد الأجانب فيهم على عدد المصريين ووضع الاحتفال على شكل غير مألوف لا هو شرقى ولا غربى، حتى انبنى على ذلك ما أحس به وأسمعه من عموم المدعوين من عدم الرضى بهذه الحال وعدم الائتناس

بهذا الشكل، وإن كان صاحب العرس قد أنفق النفقات الطائلة التى يقدرونها بعشرة آلاف جنيه لأجل مرضاة المدعوين وتسلية خواطرهم؛ فأنا أؤكد لك أنه أخطأ الغاية ولم ينل المقصود بعد أن حرم أهل بلده من وضع الاحتفال بينهم وتعميم الفرح فيهم.

الشاب: هذه كلها أفكار عتيقة لا محل للمناقشة فيها، فقد علم أمرها ولا فائدة للاجتهاد فى إقناعكم بتركها فإنها ملتصقة بنفوسكم لا تفارقها ألا بفراق الروح، وأغرب ما تحكيه لى تكرارك الكلام فى وجوب إقامة العرس ببلدة صاحبه كأنكم تتوهمون أن أبناء الوجهاء فى الأرياف يتحتم عليهم البقاء فيها والعمل على شاكلة آبائهم بينهم، وكيف يتفق ذلك مع ترقى الشبان فى المعارف والعلوم والتخلق بالأخلاق الفاضلة التى تتجلى عليهم من التربية الغربية وإن كانت أطيان صاحب هذا العرس فيكم فإنه بتربيته ليس منكم.

الوجيه: وعلى كل حال فأنا أريد أن أعلم ما هى المزية التى ينالها صاحب العرس من الإسراف فى إقامة الاحتفال بهذا الشكل إن كان الغرض إرضاء المدعوين فقد أخبرتك برأيهم فيه وانطلاق ألسنتهم على ما تسمع بالانتقاد والاعتراض، وإن كان الغرض من إذاعة الشهرة والصيت بمظاهر الغنى والثروة فثروة صاحبه معلومة ولحسن الصيت والسمعة طرق أخرى جليلة يحسن فيها الإنفاق ويجمل الإحسان، مثل الأعمال التى ينتفع بها الناس ويقابلونها بالشكر والثناء على صاحبها كإنشاء المدارس وإقامة الملاجئ وابتناء المستشفيات، وقد كان للمرحوم والده ميل عظيم إلى هذا الباب ابتغاءً لحسن الأحدوثة وانتشار الصيت، ومن مآثره التى لا يزال يشكرها أهل المديرية كلها على طول الزمن أنه أنشأ بقرب المنيا قرية لسكنى الفقراء والمساكين تسمى إلى اليوم باسمه ويقال لها نزلة بنى محمد سلطان، فإن كان صاحب العرس ممن يدورون حول انتشار الصيت وحسن الذكرى وكان لابد من إقامة هذا المهرجان فى مصر على هذه الحال فكان من تمام النجاح لمقصده أن يجود بألف أو ألفى جنيه من هذه العشرة الآلاف التى ذهبت فى العرس أدراج الرياح ليتساعد بها أهل المنيا فى إقامة مدرسة الصنائع المقرر إنشاؤها بينهم لانتفاع أولادهم وأقاربهم بها فى مستقبل الأيام فكان يطلق ألسنة أهل مديريته بالثناء ويخلد اسمه بينهم لا بل بين أهل القطر كله بجميل الذكر، لا أنه يجمع على أهل بلده بين حرمانهم من الفرح بفرحه والبخل عليهم بأسباب المعونة لإقامة الأعمال

النافعة لهم مع هذا التبذير والإسراف ودعوة الناس هذه العدعوة المعامة لتى ليس من ورائها حسن الذكر يرجى ولا شكر ينتظر.

الشاب: لو كنت تدرك ما يكون من حسن الوقع لا أمثال هذه الاحتفالات عند أصدقاء العريس من الإفرنج وعند أصحابه وخلافه من شبان الطبقة المتمدنة التى عليها المعول اليوم فى حسن القالة وكرم الأحدوثة وما سيكون لهذه الحفلة من الوصف والشرح فى الجرائد وما تهدية من الثناء الخالص والمدح والبليغ لصاحبها لما استكثرت ما انفق فيها ولما عبرت عنه بالتبذير والإسراف وأنت تعلم أن الشتاء من أهل الطبقات العليا فى العواصم والمدن أفضل من دعاء أهل الطبقات السفلى بين آهل القرى والأرياف.

الوجيه: أعلم أنه مهما طال حديثك وكثر جدالك فأنا على يقين ثابت أنكم لا تجنون من وراء هذا السير غير سخط الأقارب وانتقاد والأجانب وما كادت تتم المحاورة بينهما لهذا الحد ولا ومرة إحدى الأجنبيات ممسكة بذراع العريس فسلم على الفتى وسلمها أليه ليستلم سواها ويدرومعها فى الخطة على هواها فما كان الوجيه إلا أن انتفض قائما نحو الباب يزمجر بعبارات الدهشة والاستغراب.

فهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٧٥٨٦ / ٢٠٠٢

يصف المويلحى فى "حديث عيسى بن هشام" المجتمع المصرى بتفصيل كبير ، وهو يستخدم فى سبيل ذلك وسيلة أدبية تتمثل فى الشخصية المتلهفة لرؤية كل جوانب الحياة المصرية المعاصرة ومعها شخصية أخرى تأخذها فى جولة بالمجتمع القاهرى ، وهذا هو السيناريو الكلاسيكى لأدب الصعلكة أو التجوال ، حب الاستطلاع والتحرى والتعليق ، ويتبع المويلحى باستخدامه لهذا الأسلوب ما أرساه الهمذانى من تقاليد قبل قرون سبقت لكنه أيضًا يضع عمله فى إطار سلسلة من الأعمال ألفت خلال القرن التاسع عشر لتعلق على وتنتقد المجتمعات الغربية والشرقية على حد سواء فى أطر حقيقية أو متخيلة .

الغلاف: هشام



